

بافل باسينسكي

ليف تولستوي:
الهروب من الجنة



ترجمة: د. نزار عيون السود



ليف تولستوي:

الهروب من الجنة



Author: **Павел Басинский**	اسم المؤلف: بافل باسينسكي
Title: **ЛЕВ ТОЛСТОЙ –**	عنوان الكتاب: ليف تولستوي:
БЕГСТВО из РАЯ	الهروب من الجنة
Translated by: **Nizar Oyoun Elsoud**	ترجمة: د. نزار عيون السود
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2021**	الطبعة الأولى: **2021**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 — +964 (0) 780 808 0800 — +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 175 2617 — +961 706 15017 — +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjeh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276 — +963 11 232 2275 — +963 11 232 2289 — ص.ب: 8272

بافل باسينسكي

ليف تولستوي:

الهروب من الجنة

ترجمة: د. نزار عيون السود



جميعنا نتظاهر بالشجاعة، أحدنا أمام الآخر ونـنسى أننا لو لم نحب - لكنا ضعفاء ومثيرين للشفقة. لكننا نتظاهر بالشجاعة وبأننا حقودون وواثقون من أنفسنا لدرجة أننا نخدع أنفسنا، ونعتبر الفراريج المريضة أسوداً رهيبة...

من رسالة ليف تولستوي إلى ف.غ. تشرتكوف

الفصل الأول

خروج أم هروب؟

في ليلة السابع والعشرين والثامن والعشرين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1910[1] وفي منطقة كرابيفنا من مقاطعة تولا، وقع حادث غير معقول، حتى بالنسبة لهذا المكان غير العادي مثل ياسنايا بوليانا، العقار العائلي للكاتب والمفكر المشهور في جميع أنحاء العالم – الكونت ليف نيقولايفيتش تولستوي. فالكونت البالغ من العمر اثنين وثمانين عاماً، هرب ليلاً بصورة سرية، من منزله باتجاه غير معروف بمرافقة طبيبه الشخصي ماكوفيتسكي.

أعين الصحف

لم يختلف الفضاء الإعلامي لذلك الزمن كثيراً عن الفضاء الحالي. فخبر الحدث الفضائحي انتشر على الفور في أنحاء روسيا وفي العالم كله. ففي 29 تشرين الأول/ أكتوبر بدأت تتوارد البرقيات المستعجلة من تولا إلى وكالة تلغراف بطرسبورغ، وفي اليوم التالي نشرت الصحف «وصلنا الخبر الذي أذهل الجميع ومفاده أن ليف تولستوي قد غادر ياسنايا بوليانا برفقة الدكتور ماكوفيتسكي بصورة مفاجئة ورحل. وعند رحيله ترك ليف تولستوي رسالة يعلن فيها أنه يغادر ياسنايا بوليانا إلى الأبد».

1- جميع التواريخ مذكورة حسب التقويم الغريغوري القديم – *هنا ولاحقاً. ملاحظة المؤلف*

لم يعلم بهذه الرسالة، التي كتبها ليف تولستوي لزوجته النائمة وسلمتها لها ابنتهما الصغيرة ساشا[1] صباحاً، حتى رفيق دربه ماكوفيتسكي. فقد قرأ عنها في الصحف.

كانت الصحيفة الموسكوفية «روسكوي سلوفو – الكلمة الروسية» الأكثر سرعة في نشر الخبر. ففي 30 تشرين الأول/ أكتوبر نشرت تحقيقاً لمراسلها في تولا بمعلومات تفصيلية حول ما حدث في ياسنايا بوليانا:

«تولا، 29/ 10 (برقية عاجلة) عائداً من ياسنايا بوليانا، أعلمكم تفاصيل رحيل ليف تولستوي

رحل ليف تولستوي بالأمس في الساعة الخامسة صباحاً، وكان الظلام مسيطراً جاء ليف تولستوي إلى غرفة حوذي العربة وأمره بتجهيز الخيول.

نفذ الحوذي أدريان الأمر.

عندما أصبحت الخيول جاهزة، أخذ ليف نيقولايفيتش مع الدكتور ماكوفيتسكي الحاجات الضرورية، التي تم تجهيزها ليلاً، وصعدا إلى العربة وتوجها إلى محطة شوكينو.

أمامهما كان عامل البريد فيلكا يمتطي الحصان، الذي كان ينير الطريق لهم بالمشعل.

من محطة شوكينو اشترى ليف نيقولايفتش تذكرة إلى إحدى محطات الخط الحديدي موسكو – كورسك وانطلق مع أول قطار عابر.

في الصباح، عندما انتشر في ياسنايا بوليانا خبر الرحيل المفاجئ لليف نيقولايفتش، حدث ارتباك رهيب. كان يأس صوفيا أندرييفنا، زوجة ليف تولستوي، لا يمكن وصفه».

هذا الخبر، الذي تحدث عنه العالم كله في اليوم التالي، لم يُنشر على الصفحة الأولى. فالصفحة الأولى، كما كان سائداً في تلك الفترة، كانت مكرسة للدعاية لمختلف أنواع البضائع.

«أفضل صديق للمعدة نبيذ سين – رفائيل».

1- ساشا – صيغة التحبب والتصغير من الاسم الروسي ألكسندرا – م (هنا ولاحقاً نرمز لملاحظة المترجم بالحرف م.)

«أسماك الزجر الصغيرة. 20 كوبيكاً للرطل».

بعد استلامها للبرقية الليلية من تولا، أرسلت صحيفة «روسكوي سلوفو - الكلمة الروسية» مراسلها إلى منزل آل تولستوي في خاموفنيكي (وهو اليوم منزل - متحف ليف تولستوي ويقع بين محطتي مترو «بارك كولتوري» و«فرونزنسكايا» في موسكو). كانوا يأملون في الصحيفة بأن الكونت قد هرب من ياسنايا بوليانا إلى عزبته في موسكو. ولكن، تقول الصحيفة: «كان كل شيء هادئاً في منزل آل تولستوي القديم. ولم يكن هناك ما يدل على أن ليف نيقولايفتش كان من الممكن أن يأتي إلى عزبته القديمة. فالبوابة كانت مغلقة. والجميع نياماً».

لمطاردة تولستوي في طريق الهروب المتوقع أُرسل الصحافي الشاب كونستانتين أورلوف، الناقد المسرحي، وابن نصير تولستوي، المعلم، وأحد أفراد الحركة الشعبية الحرة فلاديمير فيودوروفيتش أورلوف، الذي صوّره تولستوي في قصتي «الحلم» و«لا مذنبين في العالم». لقد أدرك هذا الصحفي الهارب تولستوي في بلدة كوزيلسك ورافقه سراً حتى منطقة أستابوفو، ومنها أعلم ببرقية زوجته صوفيا أندريفنا وأولاده أن ليف نيقولايفتش مريض بشكل خطير وهو موجود في محطة تقاطع السكك الحديدية في منزل رئيس المحطة ي. ي. أوزولين.

لولا مبادرة أورلوف لما عرفت أسرة تولستوي عن مكان وجود ليف نيقولايفتش الذي كان على سرير الموت إلا من خلال ما ستنشره الصحف لاحقاً. وهل ثمة حاجة للحديث عن مدى الألم الذي كان يمكن أن يصيب أسرته؟ ولهذا، وبالاختلاف عن الدكتور ماكوفيتسكي، الذي اعتبر نشاط صحيفة «روسكوي سلوفو - الكلمة الروسية» «دسماً» كانت ابنة تولستوي الكبرى تاتيانا لفوفنا سوخوتينا، حسب ما جاء في ذكرياتها، «حتى الموت» ممتنة للصحفي أورلوف.

«أبي ينازع على فراش الموت في مكان ما قريب، وأنا أعرف أين هو. ولا يمكنني أن أعتني به. وقد لا أراه أبداً بعد الآن. فهل سيسمحون لي على الأقل بالنظر إلى فراش موته؟ ليلة لم أعرف فيها النوم. عذاب حقيقي

- تذكرت في ما بعد تاتيانا لفوفنا حالتها الروحية وحالة أسرتها كلها بعد «هروب» (هذا تعبيرها) تولستوي - ولكن ظهر إنسان لا نعرفه، فهم وأشفق على أسرة تولستوي. وأرسل لنا برقية: «ليف نيقولايفتش في أستابوفو عند رئيس المحطة. درجة حرارته 40»».

عموماً، لا بد من الاعتراف بأن الصحف كانت بالنسبة لعائلة تولستوي وبخاصة لزوجته صوفيا أندريفنا كانت أكثر تحفظاً ومراعاة مما هي بالنسبة لتولستوي الهارب من ياسنايا بوليانا، رغم أن جميع الصحف كانت تعرف أن تولستوي في رسالته الوداعية طلب عدم البحث عنه! فقد قال مخاطباً زوجته: «أرجوكِ... لا تلحقيني إذا ما عرفت مكاني».

«في بيليفو، ذهب ليف نيقولايفتش إلى البوفيه وأكل صحناً من البيض المقلي» - كانت تردد الصحف بسخرية، السلوك «الحرام» للنباتي تولستوي. كانوا يستجوبون حوذي تولستوي وفيلكا ومضيفي ياسنايا بوليانا وفلاحيها، وأمناء الصندوق وعمال البوفيه في المحطات، والحوذي الذي نقل ليف نيقولايفتش من كوزيلسك إلى دير أوبتينا، ورهبان مضافة الدير، وكل من يمكنه إعطاء خبر عن مسيرة العجوز البالغ من العمر اثنين وثمانين عاماً، الذي كانت تحدوه رغبة وحيدة هي الهروب والاختفاء، ليصبح غير مرئي للعالم.

قالت صحيفة «أوديسكيي نوفوستي - أخبار أوديسا» بسخرية، مخاطبة عائلة تولستوي: «لا تبحثوا عنه! - إنه ليس رجلكم، إنه رجل الجميع!».

وصرّحت صحيفة «بيتربورغسكايا غازيتا» ببرود: «بالطبع، مكان وجوده الجديد سرعان ما سينكشف».

لم يكن ليف نيقولايفتش يحب الصحف (رغم أنه كان يتابعها) ولم يخف موقفه هذا. وكان ثمة موقف آخر مختلف تماماً لزوجته صوفيا أندريفنا، التي كانت تدرك بصورة رائعة أن سمعة زوجها وكذلك سمعتها الشخصية تتشكلان، شاءت أم أبت، من منشورات الصحافة. ولهذا كانت تتعامل بكل سرور مع المراسلين الصحفيين، وتدلي بالأحاديث الصحفية، شارحة هذه أو تلك من الغرائب في تصرفات تولستوي أو أقواله، دون أن تنسى خلال ذلك (وهنا كانت نقطة ضعفها) بيان دورها في هذا الإنسان العظيم.

لهذا كان موقف الصحفيين من صوفيا أندريفنا موقفاً دافئاً إلى حد ما. وقد رسمت الطابع العام في صحيفة «روسكوي سلوفو - الكلمة الروسية» مقالة الصحفي فلاس دوروشيفيتش «صوفيا أندريفنا» المنشورة في العدد الصادر في 31 تشرين الأول/ أكتوبر. وقد قال دوروشيفيتش في مقالته: «ليف العجوز رحل لكي يموت وحيداً. لقد رحل النسر وحلق عالياً جداً، وكيف يمكننا متابعة تحليقه؟»

(لقد تابعناه، وأية متابعة دقيقة!)

لقد قارن صوفيا أندريفنا بياسودارا - زوجة بوذا الشابة. لقد كانت هذه مجاملة واضحة، لأن ياسودارا لم تكن مذنبة قط في رحيل زوجها. هذا في حين أن الألسن الحاقدة كانت تقارن زوجة تولستوي ليس بياسودارا بل بكسانتيبا زوجة الفيلسوف الإغريقي سقراط التي كانت تضني زوجها - كما يقال - بشكاستها وعدم فهمها لآرائه وفلسفته.

أشار دوروشيفيتش بحق إلى أن تولستوي، بدون زوجته، ما كان ليعيش هذه الحياة المديدة، وما كان ليكتب مؤلفاته الأخيرة (ولكن ما علاقة ياسودارا هنا؟)

وتخلص المقالة إلى نتيجة مفادها أن تولستوي هو «سوبرمان» (إنسان غير عادي) ولا يمكن الحكم على تصرفه بالقواعد العادية. وأن صوفيا أندريفنا هي زوجة أرضية دنيوية بسيطة، قدمت كل ما تستطيع تقديمه لزوجها، حينما كان إنساناً عادياً. لكنه بعيد المنال بالنسبة لها في مجال عبقريته، وهنا تكمن مأساتها.

«صوفيا أندريفنا وحيدة. ليس لديها طفل. لديها طفلها - العجوز، طفلها العظيم الذي يجب أن تفكر فيه، وتهتم به كل دقيقة: هل يشعر بالدفء، هل يشعر بالشبع؟ هل هو في صحة جيدة؟ ليس هناك من شخص آخر تقدم له حياتها قطرة إثر قطرة».

قرأت صوفيا أندريفنا المقالة وحازت على إعجابها. كانت ممتنة لصحيفة «روسكوي سلوفو - الكلمة الروسية» لمقالة دوروشيفيتش ولبرقية أورلوف. ولهذا لم تلتفت كثيراً إلى بعض الجزئيات مثل الوصف غير

اللائق الذي كتبه أورلوف نفسه للمظهر الخارجي لزوجة تولستوي: «عينا صوفيا أندريفنا الزائغتان كانتا تعبران عن عذابها الداخلي. كان رأسها يهتز. وكانت ترتدي رداءً على كتفيها دون عناية». كان من الممكن أيضاً مسامحة الصحيفة على مراقبتها الليلية لعزبة موسكو، والإشارة غير اللائقة إطلاقاً للمبلغ الذي صرفته الأسرة، من أجل استئجار قاطرة خاصة من تولا إلى أستابوفو – 492 روبلاً و27 كوبيكاً، وتلميح فاسيلي روزانوف الواضح إلى أن ليف نيقولايفتش هرب من العائلة: «إنه سجين هرب من زنزانة أنيقة».

عند تقليبنا لعناوين الصحف التي تتحدث عن خروج تولستوي، نكتشف، أن كلمة «خروج» كانت تستخدم نادراً. «رحيل مفاجئ...»، «اختفاء...»، «هروب...»، «TOLSTOY QUITS HOME» («تولستوي يغادر بيته»).

والمسألة هنا ليست أبداً في رغبة الصحفيين بـ «تحمية» القرّاء. فالحدث بحد ذاته كان فضائحياً. ذلك أن ظروف اختفاء تولستوي من ياسنايا بوليانا كانت بالفعل، أقرب إلى الهروب منها إلى الخروج المهيب.

الكابوس الليلي

أولاً، الحدث جرى ليلاً، عندما كانت الكونتيسة تغفو نائمة بعمق.

ثانياً، مسار تولستوي كان سرّياً، مكتوماً بعناية لدرجة أنها عرفت لأول مرة بمكان وجوده في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر من برقية أورلوف.

ثالثاً، (وهذا ما لم يعرفه الصحفيون ولا صوفيا أندريفنا) هذا المسار، وبخاصة هدفه النهائي، كانا غير واضحين للهارب نفسه. كان تولستوي يدرك جيداً من أين ولماذا يهرب، ولكن إلى أين يتجه وأين سيكون ملجأه الأخير، لم يكن يعرف بل سعى إلى عدم التفكير فيهما.

في الساعات الأولى من المغادرة، ابنة تولستوي ساشا وصديقتها فيوكريتوفا فقط عرفتا أن ليف نيقولايفيتش كان ينوي زيارة شقيقته الراهبة ماريا نيقولايفنا تولستايا في دير شاموردينو. ولكن حتى هذا في ليلة الهروب كان موضع تساؤل.

تقول الابنة أ. ل. تولستايا في ذكرياتها: «قال لي أبي: ستبقين هنا يا ساشا.

وسأستدعيك بعد بضعة أيام، عندما أقرر نهائياً إلى أين سأذهب. وسأذهب، على الأغلب، إلى شقيقتي ماشنكا في شاموردينو».

كان الطبيب ماكوفيتسكي هو الشخص الأول الذي أيقظه تولستوي، لكنه لم يزوده بهذه المعلومات، بيد أن الأهم لم يقل للطبيب أنه يغادر ياسنايا بوليانا نهائياً، وهذا ما قاله لابنته ساشا. كان يظن ماكوفيتسكي في الساعات الأولى أنهما يتوجهان إلى كوتشيتي - عقار صهر تولستوي م. س. سوخوتين الواقع على الحدود بين تولا ومقاطعة أوريول. وقد سافر تولستوي في السنتين الأخيرتين أكثر من مرة إلى هناك، وحده ومع زوجته، للتخلص من تدفق الزوار في ياسنايا بوليانا. كان هناك، يأخذ «إجازة»، حسب تعبيره. في كوتشيتي كانت تقطن ابنته الكبرى - تاتيانا لفوفنا. وهي، بالاختلاف عن ساشا، لم تكن تؤيد رغبة والدها بمغادرة أمها، رغم أنها كانت تقف في نزاعهما إلى جانب أبيها. على أية حال، في كوتشيتي لم يكن هناك مفر من صوفيا أندريفنا. كان ظهوره في شاموردينو أقل حساسية. أما وصول تولستوي، المحروم من الكنيسة، إلى دير شاموردينو، فكان فضيحة لا تقل عن فضيحة هروبه. وأخيراً، هناك، كان يمكن لتولستوي أن يطمئن إلى سكوت شقيقته ودعمها.

الطبيب المسكين ماكوفيتسكي لم يدرك على الفور أن تولستوي قرر مغادرة منزله نهائياً. واعتقاداً منه أنهما يتوجهان لمدة شهر إلى كوتشيتي لم يأخذ معه جميع نقوده. ولم يكن يعرف، أن وضع تولستوي المالي في لحظة الهروب كان يقدّر بخمسين روبلاً في حسابه و«فراطة» من النقود في محفظة نقوده. فقط خلال وداع تولستوي مع ابنته ساشا، سمع ماكوفيتسكي بشاموردينو. وعندما جلسا في العربة، أخذ تولستوي يستشيره إلى أي مكان أبعد يذهبان؟

كان يعرف من يأخذ معه رفيقاً في السفر. كان على هذا الرفيق أن يتمتع بطبيعة رزينة ومنتهى الإخلاص مثل ماكوفيتسكي، كي لا يصاب بالارتباك في مثل هذا الوضع. اقترح ماكوفيتسكي دون تأخير السفر إلى بيساربيا، إلى العامل غوساروف، الذي كان يقيم مع أسرته على أرضه. «لم يجب ليف نيقولايفتش بكلمة واحدة».

توجها إلى محطة شوكينو. كان من المتوقع وصول قطار بعد عشرين دقيقة سيتوجه إلى تولا، وبعد ساعة ونصف الساعة قطار آخر سيتوجه إلى غورباتشوفو. وكان الطريق عبر غورباتشوفو إلى شاموردينو أقصر، لكن تولستوي، رغبة منه في إضاعة الأثر وخشية من أن تستيقظ صوفيا أندريفنا وتلحق به، اقترح السفر عن طريق تولا. فاعترض ماكوفيتسكي: في تولا – سيتعرّفون علينا بالتأكيد! توجها باتجاه غورباتشوفو.

توافقني، أيها القارئ، أن هذا لا يشبه الخروج إلّا قليلاً. حتى لم نقصد به المعنى المباشر (خرج سيراً على الأقدام) بل المعنى المجازي. بيد أن المعنى الحرفي بالذات لخروج تولستوي لا يزال حتى اليوم يشغل بال ضيقي الأفق. بالتأكيد، سيراً على الأقدام، وفي ليلة حالكة الظلام، وحقيبته على ظهره، وعصاه في يده. وهو العجوز البالغ من العمر اثنين وثمانين عاماً، وعلى الرغم من بنيته القوية، فإنه كان مريضاً، يعاني من حالات الإغماء وفقدان الذاكرة، وعدم انتظام ضربات القلب، والدوالي في القدمين. فما هو الرائع في مثل هذا «الخروج»؟ لكن ضيق الأفق يشعر بالرضا والسرور، لسبب ما، من أن تولستوي العظيم خرج على هذا النحو.

في كتاب إيفان بونين[1] «تحرير تولستوي» يقتبس بإعجاب الكلمات التي كتبها تولستوي في رسالة الوداع: «إنني أفعل ما يفعل عادة كبار السن من عمري. يرحلون من الحياة الدنيوية كي يعيشوا في عزلة وفي هدوء الأيام الأخيرة من حياتهم».

ما يفعله كبار السن عادة؟

لقد انتبهت صوفيا أندريفنا إلى هذه الكلمات. وما إن أفاقت من الصدمة الأولى الناتجة من هروب زوجها ليلاً، بدأت تكتب له الرسائل، مناشدة إياه العودة، معتمدة على وساطة أطراف ثالثة في نقلها. وها هي ذي في رسالتها الثانية التي لم يتمكن تولستوي من قراءتها، تعارضه في رأيه قائلة: «تقول إن

1- إيفان بونين: (1870–1953) كاتب روسي كبير، انتقد الجهل والتخلف في روسيا القيصرية كتب الكثير من القصص والروايات ومنها «القرية: حياة أرسينيف»، و«سيد من سان فرانسيسكو». نال جائزة نوبل للآداب عام 1933. – م.

الرجال كبار السن يغادرون العالم. أين رأيت هذا؟ كبار السن من الفلاحين يعيشون أيامهم الأخيرة فوق المواقد، في أسرهم وبين أحفادهم، وكذلك كبار السن النبلاء في منازلهم، وفي أي مكان. وهل من الطبيعي أن يخرج رجل ضعيف عجوز من رعاية واهتمام ومحبة أبنائه وأحفاده المحيطين به؟».

لقد كانت على غير حق. فمغادرة كبار السن من الرجال وحتى من النساء كانت مسألة عادية في البيوت والأسر الفلاحية. كانوا يغادرون للتعبد، أو بكل بساطة... إلى عُزب منفردة. كانوا يغادرون، كي يعيشوا عصرهم، كي لا يزعجوا الجيل الفتي والشباب، ولا يكونوا عالة عليهم، عندما أصبحت مشاركة الإنسان العجوز في الأعمال الزراعية والمنزلية مستحيلة. نعم كانوا يغادرون عندما كان «يسود الإثم»: كالإدمان على المشروبات الكحولية، والشقاق، والعلاقات الجنسية الشاذة. نعم كانوا يغادرون، ولكن لم يهربوا ليلاً من زوجاتهم العجائز وبموافقة ودعم بناتهم.

ولنعد إلى الليلة المصيرية، ليلة 27-28 تشرين الأول/ أكتوبر، ولنتابع كيف غادر تولستوي خطوة خطوة.

مذكرات ماكوفيتسكي:

«في الساعة الثالثة صباحاً، أيقظني ليف نيقولايفتش، وكان في لباس النوم، ولبس حذاءه دون جوارب، ممسكاً الشمعة بيده، وكان وجهه معانياً، قلقاً، وحازماً:

«... لقد قررت الرحيل. وأنت ستذهب معي. سأصعد إلى الطابق العلوي، وأنت ستأتي، ولكن لا توقظ صوفيا أندرييفنا. لن نأخذ أشياء كثيرة معنا. الضروري فقط. ساشا ستلحقنا بعد ثلاثة أيام وتحضر معها كل ما يلزمنا».

الوجه «الحازم» لم يكن يعني برودة الأعصاب. إنه الحزم قبل القفز إلى الهاوية. وبصفته طبيباً، يبدي ماكوفيتسكي الملاحظة التالية: «إنه متوتر الأعصاب. جسست نبضه - فكان 100». ما هي الأشياء «الضرورية جداً» لرعاية عجوز في الثانية والثمانين من عمره؟ كان هذا أقل شيء فكّر فيه تولستوي. كان يشعر بالقلق من أن تتمكن ساشا من إخفاء مخطوطة يومياته عن صوفيا أندرييفنا. وأخذ معه الريشة الكاتبة ودفتر يومياته. قام ماكوفيتسكي

وساشا وصديقتها باربارا فيوكريتوفا بتوضيب الأشياء والمؤونة. وقد ظهر أن «الأشياء الضرورية جداً» أصبحت كثيرة، تتطلب حقيبة سفر كبيرة، لا يمكن الوصول إليها دون إثارة ضجة وإيقاظ صوفيا أندرييفنا.

ثمة أبواب ثلاثة بين غرفتي نوم تولستوي وزوجته. وكانت صوفيا أندرييفنا تترك الأبواب الثلاثة مفتوحة ليلاً، كي تستيقظ على أية إشارة مقلقة من غرفة زوجها. وكانت تفسر ذلك بأنه إذا ما احتاج إلى أية مساعدة فلن تسمع من خلال الأبواب المغلقة. لكن السبب الرئيس كان يكمن في شيء آخر. كانت تخاف من هروبه ليلاً. ومنذ فترة من الوقت أصبح هذا الخطر حقيقياً. ويمكن أيضاً تحديد التاريخ بدقة الذي ظهر فيه هذا الخطر في فضاء منزل ياسنايا بوليانا. لقد حدث هذا في 15 تموز/ يوليو1910. فبعد شرح عاصف مع زوجها، أمضت صوفيا أندرييفنا ليلة لم تعرف فيها النوم، وفي الصباح كتبت له الرسالة التالية:

«ليفوتشكا (صيغة التحبب من اسم ليف – م.)، عزيزي، أكتب لك ولا أقول، لأنه يصعب علي القول بعد ليلة لم أذق فيها طعم النوم، كما أنني قلقة جداً ويمكنني أن أزعج الجميع، رغم أنني أريد بشدة أن أكون هادئة وحكيمة. لقد فكرت بكل شيء ليلاً، واتضح لي بشكل مؤلم ما يلي: أنك تلاطفني بيد، وتشهر عليّ سكيناً باليد الأخرى. ومنذ الأمس، شعرت بصورة غامضة أن هذه السكين قد جرحت قلبي. إن هذه السكين هي تهديد، وتهديد شديد لي بأنك ستسحب وعدك الذي قطعته على نفسك، وتهرب مني خفية إذا ما بقيت كما أنا عليه الآن... ما يعني أن كل ليلة، مثل ليلة البارحة، علي أن استرق السمع لأعرف، أغادرت أم لا؟ وأي غياب لك، لفترة أطول قليلاً، سيجعلني أعاني وأقلق من ألا يكون غيابك إلى الأبد. فكّرْ، يا عزيزي، ليفوتشكا، أي رحيل لك، وتهديدك، يعادلان التهديد بالقتل».

عندما جمعت ساشا وباربارا وماكوفيتسكي الحوائج (كانوا يتصرفون كـ «المتآمرين»، تتذكر فيوكريتوفا – كانوا يطفئون الشموع، وينتبهون إلى أية حركة من غرفة صوفيا أندرييفنا). أغلق تولستوي بإحكام الأبواب الثلاثة التي تؤدي إلى غرفة نوم زوجته، وتناول دون أي ضجيج حقيبة السفر. ولكن تبين أنها غير كافية، وظهرت أيضاً بقجة وحرام ومعطف وسلة. على

أية حال، لم ينتظر تولستوي حتى الانتهاء من جمع كلّ الحاجيات. ونزل إلى غرفة الحوذي لإيقاظ الحوذي أندريان ومساعدته في تجهيز الخيول.

خروج أم – هروب...

من يوميات تولستوي:

«... أذهب إلى الإسطبل لربط الخيول بالعربة؛ دوشان، ساشا، فاريا ينجزون جمع الحوائج. ليل بعتمة سوداء، لا ترى العين شيئاً، أنحرف عن الدرب إلى الجناح الجانبي فأجد نفسي في غابة كثيفة منزعجاً، فأصطدم بالأشجار، وأقع، وأفقد قبعتي، ولا أجدها. أخرج بصعوبة، وأتوجه إلى المنزل. أتناول قبعة، وبمصباح يدوي أتوجه إلى الإسطبل، آمر بربط الجياد. تأتي ساشا ودوشان وفاريا... وأنا أرتعش، بانتظار المطاردة».

إن ما بدا له، في هذه الأسطر التي كتبها بعد يوم من رحيله، «غابة كثيفة» لم يخرج منها إلا بشق النفس كان في الحقيقة بستان التفاح الذي قطعه مرات عديدة تولستوي طولاً وعرضاً.

فهل هذا تصرف طبيعي من كبار السن؟

تتذكر ابنته ألكسندرا لفوفنا قائلة: «استغرقنا حوالي نصف ساعة في توضيب الأغراض. فقد بدأ أبي يشعر بالقلق، ويحثّنا على الإسراع، أيدينا كانت ترتجف، الأحزمة لم نتمكن من إغلاقها على حقائب السفر».

لاحظت ألكسندرا لفوفنا أيضاً الحزم على وجه أبيها: «كنت أنتظر رحيله، كنت أنتظر كل يوم، كل ساعة، ومع ذلك عندما قال لي: «سأرحل نهائياً»، شعرت بالصدمة، وكأنه شيء جديد، غير متوقع. لن أنسى أبداً شكله وهو في الباب، في قميصه الفضفاض، بيده الشمعة، وبوجهه المضيء الرائع المفعم بالحزم».

«وجهه حازم ومشرق» – كتبت فيوكريتوفا. ولكن، لن نقع في الغرور، ولن نعلل أنفسنا بآمال باطلة. إنها ليلة مظلمة من ليالي أكتوبر/ تشرين الأول، حيث لا يرى المرء، سواء في بيوت الفلاحين أو بيوت النبلاء، يده إذا ما رفعها إلى عينيه. رجل عجوز في ثياب بألوان فاتحة، وبشمعة أمام وجهه، ظهر فجأة على العتبة. إن هذا يصيب المرء بالدهشة، أياً كان!

بالطبع، كانت قوة روح تولستوي أسطورية هائلة. لكن هذا يدل أكثر على رباطة جأشه في أي ظرف من الظروف. يتذكر الموسيقي ألكسندر غولدنفيزر، صديق منزل ياسنايا بوليانا الحادثة التالية. ذهبا في فصل الشتاء ذات مرة إلى قرية تبعد تسعة فيرستات[1] عن ياسنايا بوليانا على زلاجة لنقل معونة لأسرة فلاحية محتاجة.

«عندما وصلنا إلى محطة زاسيك، هبت عاصفة ثلجية صغيرة، ثم ازدادت قوة وشدة، بحيث إننا في نهاية الأمر أضعنا الطريق، وأخذنا نسير بالعربة دون طريق. بعد أن ضللنا قليلاً، لاحظنا على مقربة كوخ حارس الغابة، فتوجهنا نحوه، لسؤال حارس الغابة عن الطريق. عندما اقتربنا من الكوخ قفزت نحونا ثلاثة أو أربعة كلاب ضخمة وهي تنبح بشكل مجنون وأحاطت بالحصان والزلاجة. أعترف بأنني شعرت بالرعب... سلمني ليف نيقولايفتش المقوَد بحركة حازمة قائلاً: «امسك»، ووقف، وخرج من الزلاجة، وضحك بصوت عال، وهجم على الكلاب بجرأة بيدين فارغتين. وفجأة لاذت الكلاب بالصمت، وتفرقت وسمحت له بالمرور كأنه صاحب السلطة. مر ليف نيقولايفتش بهدوء بينها ودخل إلى الكوخ. في هذه اللحظة كان ليف نيقولايفتش، بلحيته الشائبة الرمادية المتدفقة أشبه ببطل قصة خيالية منه بعجوز ضعيف في الثمانين من عمره».

وكذلك في ليلة 28 تشرين الأول/ أكتوبر 1910 لم يفقد رباطة جأشه. واستقبل مساعديه الذين يحملون الحوائج في منتصف الطريق. تتذكر ابنته ألكسندرا لفوفنا فتقول: «كانت الأرض موحلة، وكانت أقدامنا تنزلق، وكنا بصعوبة نتحرك في الظلام. لاح ضوء أزرق إلى جانب البناء. كان الأب متجهاً نحونا. فقال:

– آه، أنتم. حسناً، لقد وصلت بأمان هذه المرة. لقد تم ربط الجياد إلى العربة. سأمشي في الأمام وأنير لكم الطريق. لماذا أعطيتم ساشا لتحمل أثقل الأشياء؟ – التفت موبخاً باربارا ميخائيلوفنا. وأخذ السلة من يدها وحملها هو، وساعدتني باربارا ميخائيلوفنا في حمل حقيبة السفر. مشى أبي في

1- الفيرستا: مقياس روسي للطول يعادل 1060 متراً، حوالي كيلومتر – م.

الأمام، وكان يضغط أحياناً على زر المصباح الكهربائي، ثم يفرج عنه على الفور، مما كان يظهر الدرب أكثر قتامة. كان أبي دوماً يوفر الطاقة الكهربائية، وهنا، كما هو الحال دائماً، كان لا يهدر المزيد من الطاقة الكهربائية».

ساشا هي التي أقنعت أباها بأخذ هذا المصباح بعد أن ضاع في الحديقة.

ولكن، عندما ساعد تولستوي الحوذي في ربط الحصان «كانت يداه ترتجفان، ولم تطيعاه، ولم يتمكن قط من ربط المشبك». ثم «جلس في زاوية سقيفة العربة على الحقيبة، وانهارت معنوياته».

إن تقلبات المزاج الحادة سوف ترافق تولستوي طيلة مسار طريقه من ياسنايا بوليانا إلى أستابوفو، حيث توفي في ليلة 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1910. وسيتعاقب عنده الحسم والإدراك بأنه تصرف التصرف الصحيح الوحيد مع ضعف الإرادة والشعور الحاد بالذنب. ومهما هيأ نفسه لمثل هذا الرحيل، وهو أعد نفسه له طيلة خمسة وعشرين عاماً(!)، فمن الواضح أنه لم يكن مستعداً له، لا عقلياً ولا جسدياً. كان من الممكن أن يتصور في ذهنه الكثير عن هذا الرحيل، لكن خطوات الرحيل الفعلية الأولى، مثل الضياع في حديقة بيته، حملت مفاجآت غير متوقعة لتولستوي ولرفاق دربه.

ولكن، لماذا تحول مزاجه الحازم في البيت فجأة إلى الإحباط في سقيفة العربة؟ كان يبدو أن الأغراض قد تم توضيبها (خلال ساعتين فقط، وهذا مدهش!)، والخيول أصبحت جاهزة تقريباً، وبقيت بضع دقائق على «الخلاص»، وفجأة ينهار معنوياً.

إضافة إلى الأسباب الفيزيولوجية (لم ينم كفاية، شعر بالقلق، ضاع، ساعد في حمل الأغراض على أرض زلقة في الظلام) ثمة ظرف آخر لا يمكن فهمه بوضوح إلا إذا تصورنا الموقف ككل. فلو استيقظت صوفيا أندرييفنا عندما كانوا يجمعون الأشياء لكانت فضيحة تصم الأذان. لكنها مع ذلك، فضيحة ضمن جدران المنزل. مشهد وسط «المؤتمنين». كان من الممكن الاعتياد على هذه المشاهد، فقد كانت تحدث باستمرار في منزل ياسنايا بوليانا. ولكن، ومع ابتعاد تولستوي عن بيته، انجذب إلى رحيله أشخاص جدد باستمرار. وحدث بالضبط ما لم يرغب به تولستوي إطلاقاً.

فقد تحول تولستوي إلى ما يشبه كتلة ثلج صغيرة تراكم حولها الكثير من الثلج فتحولت إلى كرة ضخمة، وهذا كان يحدث في كل دقيقة من انتقاله في الفضاء.

كان من المستحيل السفر دون إيقاظ الحوذي أندريان بولخين. وكذلك السائس فيلكا (فيليب بوريسوف) البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً، الذي يجلس على ظهر الحصان، وينير الطريق أمام العربة بالمصباح. عندما كان ليف نيقولايفتش في سقيفة العربة، بدأت كرة الثلج تنمو وتكبر، وتكبر، وكان من المستحيل وقف نموها وكبرها في كل دقيقة. وكان لا يزال رجال الدرك والصحفيون، والمحافظون والكهنة يرقدون بسلام... حتى إن تولستوي نفسه، لم يستطع بعد أن يتصور، كم من الناس سيشارك في هروبه، عن قصد أو عن غير قصد، حتى الوزراء، ورؤساء الأساقفة، وستولوبين ونيقولاي الثاني[1].

بالطبع، كان يدرك أنه لن يتمكن من الاختفاء من ياسنايا بوليانا دون أثر. حتى إن فيديا بروتاسوف في مسرحية «الجثة الحية»[2] الذي قلّد الانتحار، لم يستطع الانتحار بشكل غير ملحوظ، وتم فضح أمره في النهاية. ولكن، علينا ألا ننسى أن تولستوي إلى جانب «الجثة الحية» كتب أيضا «الأب سيرغي» و«مذكرات العجوز فيودور كوزميتش بعد الموت». وإذا ما كان يشعر في لحظة مغادرته بالدفء من فكرة ما، فهي أن هذا الرجل الشهير، باختفائه، يذوب في الفضاء البشري ويصبح ذرة من مجموعة ذرات صغيرة غير ملحوظة من الجميع. إن أسطورة تولستوي قائمة ومنفصلة عن تولستوي نفسه. وليس مهماً من كان في الماضي: قيصراً روسياً، أو صانع معجزات شهيراً، أو كاتباً عظيماً. المهم أنه الآن إنسان بسيط وعادي.

ولكن، عندما جلس تولستوي على حقيبة السفر في سقيفة العربة، في معطف قديم، فوق قفطان قطني، وبقبعة قديمة محبوكة، كان يبدو كأنه قد

1- ستولوبين: رئيس الوزراء القيصري. نيقولاي الثاني - قيصر روسيا في عهد تولستوي - م

2- مسرحية «الجثة الحية» كتبها تولستوي عام 1896. - م.

هيأ نفسه وتجهّز بشكل كامل لتحقيق حلمه المنشود. لكن هذا الوقت، الساعة الخامسة صباحاً، «بين الذئب والكلب». هذه النهاية العفنة لشهر تشرين الأول/ أكتوبر – هي الفترة الانتقالية الروسية المفززة بين الخريف والشتاء. هذا الشوق الذي لا يطاق من الانتظار لحلول بداية الرحيل، حيث غادر جدران منزله، ولم يعد هناك مجال للعودة إليها، ولكن، عموماً، لم يبدأ طريقه بعد،.. فالجياد ليست جاهزة. ولم يغادر بعد ياسنايا بوليانا... والزوجة التي عاش معها ثمانية وأربعين عاماً، والتي أنجبت له ثلاثة عشر طفلاً، سبعة منهم أحياء، وأنجبوا ثلاثة وعشرين حفيداً، الزوجة التي حمّلها أعباء ياسنايا بوليانا الاقتصادية كلها، وجميع أمور النشر لمؤلفاته الروائية، الزوجة التي أعادت مرتين كتابة أجزاء من روايتيه الرئيستين. والعديد من المؤلفات الأخرى، الزوجة التي لم تنم الليالي في شبه جزيرة القرم، حيث كان يرقد على فراش الموت قبل تسع سنوات، لأنه لا أحد عداها كان يمكنه تقديم هذه الرعاية الأكثر حميمية – هذه الإنسانة الحبيبة كان من الممكن في كل لحظة أن تستيقظ، وترى الأبواب المغلقة والفوضى في غرفته، وتدرك أن ما كانت تخشاه أكثر من أي شيء في الدنيا قد حدث!

ولكن هل حدث ذلك؟ لا حاجة لامتلاك خيال ملتهب، كي يتصور المرء ظهور صوفيا أندريفنا في سقيفة العربة، عندما كان زوجها يشد بيدين مرتجفتين مربط المشبك على الحصان. فهذا لم يكن موقفاً من مواقف تولستوي بل موقف غوغولي[1] بحت. وليس عبثاً أن تولستوي كان في الوقت نفسه يحب ولا يحب قصة غوغول «العربة»، التي اختبأ فيها أرستقراطي المقاطعة فيثاغوروفيتش تشرتكوتسكي من الضيوف في سقيفة العربة، لكنه انكشف وتم فضحه بصورة محرجة للغاية. كان يعتقد أن هذه القصة مكتوبة بصورة رائعة، لكنها نكتة سخيفة. هذا في حين أن «العربة» ليست مطلقاً قصة مضحكة. فزيارة الجنرال لسقيفة الحوذي، حيث انكمش تشرتكوتسكي الصغير على المقعد تحت المظلة الجلدية، هي زيارة

1- نسبة للكاتب الروسي الكبير نيقولاي غوغول (1809–1852) ساهم مساهمة كبيرة في تطوير الأدب الروسي، ومن أشهر مؤلفاته «النفوس الميتة»، «المعطف»، «المفتش». امتاز بأسلوبه الناقد الساخر لعلية القوم، وبتعاطفه مع الناس البسطاء. – م.

القدر نفسه الذي فاجأ الإنسان في تلك اللحظة بالذات الأقل استعداداً لها. كم هو الإنسان ضعيف وعاجز تجاه القدر!

ذكريات ساشا:

«في البداية، حث الأب الحوذي، وبعدها جلس في زاوية سقيفة العربة على حقيبة السفر، وانهارت معنوياته على الفور:

– أشعر كأنهم سيروننا، وعندها سينهار كل شيء. ولن نتمكن من السفر دون فضيحة».

ضعف تولستوي

يمكن تفسير الكثير في مزاج تولستوي في لحظة هروبه وقبلها، وبعدها بأشياء بسيطة مثل الرقة واللطف. فالمبدع، الفيلسوف، «الإنسان المحنّك»، تولستوي بقي، بطبيعته، السيد النبيل الروسي القديم، بالمعنى الأجمل لهذه الكلمة. إن هذه العبارة المعقدة، والمفقودة للأسف، كانت تشمل عدة مفاهيم كالطهارة المعنوية والبدنية، واستحالة الكذب وجهاً لوجه، أو النميمة والافتراء والإساءة لإنسان في غيابه، والخوف من إيذاء شخص ما بكلمة غير موزونة، أو أن يكون مسبباً لإزعاج الناس. في شبابه، وبسبب جموح عقله وطباعه، ارتكب تولستوي كثيراً من الأخطاء ضد هذه الصفات الروحية، الخلْقية التي تربى عليها في أسرته، وعانى كثيراً من ذلك. ولكن، مع هرمه وتقدمه في السن، وعلاوة على ما اكتسبه من حب للناس ومشاركة لهم في آلامهم ومعاناتهم، بدأ يتجلى بصورة متزايدة رفضه الكامل للقباحة، والقذارة، والفضيحة.

طيلة فترة نزاعه مع زوجته، لم تشب تولستوي شائبة. كان يشعر بالأسف تجاهها، ولم يقم بأية محاولة لتشويه سمعتها بالكلمات، حتى عندما كانت هذه الكلمات محقة. لقد خضع قدر طاقته، بل وفوق طاقته، لمطالبها، الأكثر سخافة أحياناً، وصبر على جميع أفعالها الغريبة جداً أحياناً، كالابتزاز والتهديد بالانتحار. ولكن في صميم سلوكه هذا الذي كان يدهش، بل ويغضب أنصاره، لم تكن هناك مبادئ مجردة، بل طبيعة سيد نبيل عجوز، طبيعة إنسان عجوز رائع يعاني بصورة أليمة من أي خلاف أو شجار أو فضيحة.

وها هو هذا الرجل العجوز يرتكب سراً في الليل فعلاً ما ليس هناك أشد رهبة منه بالنسبة لزوجته. حتى إن هذا الفعل ليس تلك السكين التي كتبت عنها صوفيا أندرييفنا. بل إنه فأس!

لهذا كان الخوف هو الشعور الأقوى الذي كان يحسه تولستوي في سقيفة العربة. الخوف من أن تستيقظ الزوجة، وتخرج من البيت، وتراه جالساً على حقيبة السفر، ولا يزال طاقم السفر من حوله غير جاهز... وألا يتجنب الفضيحة، ذلك المشهد المؤلم الذي يمزق الروح، والذي سيكون أكبر مما حدث في ياسنايا بوليانا في الفترة الأخيرة.

لم يكن تولستوي قط يهرب من الصعوبات، بل العكس، في السنوات الأخيرة، كان يحمد الله عندما يرسل له المحن. وكان يتقبل بقلب خاشع أية «مشكلات»، ويشكر الله عندما يتعرض للإدانة. أما الآن، فقد كان يرغب من أعماقه أن تمر عملية هروبه بسلام.

لقد كان هذا أعلى من قواه.

نعم، هروب تولستوي لم يكن مظهر قوة فحسب، بل مظهر ضعف أيضاً. وقد اعترف بهذا صراحة لصديقة خاصة كبير بالسن، ماريا ألكسندروفنا شميدت، السيدة العظيمة السابقة، التي كانت تؤمن بتولستوي، كما لو أنه المسيح الجديد، وهي من أكثر أتباع تولستوي إخلاصاً ووفاء، وكانت تعيش في عزبة في أوفسيانيكي على بعد ستة فيرسات (الفيرستا الواحد 1060 متراً – م.). وكان تولستوي يزورها غالباً أثناء نزهته على ظهر الحصان، عارفاً أن هذه الزيارات لا تقدم لها الفرحة والمسرة فحسب، بل تمثل بالنسبة لها معنى الحياة. كان يستشيرها في المسائل الروحية، وفي 26 تشرين الأول/ أكتوبر، قبل رحيله بيومين، حدّثها عن قراره غير النهائي بالرحيل. ضربت ماريا ألكسندروفنا كفاً بكف، وقالت:

– ليف نيقولايفتش، يا روحي، هذا ضعف. وسوف يزول.

– نعم – أجابها بقوله – هذا ضعف.

هذا الحديث مع كلمات ماريا ألكسندروفنا ورد في ذكريات ابنته تاتيانا لفوفنا سوخوتينا. لكنه غير وارد في يوميات ماكوفيتسكي الذي رافق ليف نيقولايفتش في نزهته وزيارته في يوم 26 تشرين الأول/ أكتوبر. كما أن

ماريا ألكسندروفنا نفسها، في حديثها مع مراسل «روسكوي سلوفو – الكلمة الروسية» أكدت أن ليف نيقولايفتش في ذلك اليوم لم يقل «كلمة واحدة» عن رحيله. لقد كانت هذه كذبة واضحة، ترجع إلى عدم رغبتها في نشر الغسيل الوسخ من العزبة (لا سيما أن العزبة لا تخصها) إلى الأماكن العامة، وكشف نزاع آل تولستوي العائلي للعالم كله. ثمة عبارة في يوميات تولستوي الخاصة «يوميات لشخص واحد» سُجلت في 26 تشرين الأول/ أكتوبر تقول: «مزيد من أعباء الحياة يرهقني. ماريا ألكسندروفنا لا تسمح لي بالمغادرة، وضميري لا يطاوعني».

في 26 تشرين الأول/ أكتوبر، لاحظ ماكوفيتسكي أيضاً – أن «ليف نيقولايفتش ضعيف» ومتشتِّت. ففي الطريق إلى شميدت يرتكب تولستوي، حسب تعبيره، فعلاً «سيئاً»: فقد سار بالحصان فوق «النباتات الخضراء» (المحصول الشتوي)، وهذا فعل لا يصح القيام به في الوحل والطين، لأن حوافر الحصان تترك آثاراً عميقة وتقتل النباتات الخضراء الطرية.

كان بودي أن أصرخ: «النباتات الخضراء» يُشفق عليها، أما زوجته المتقدمة في السن فلم يشفق عليها؟! للأسف، هذه هي الطريقة التقليدية لإدانة تولستوي. هكذا يفكر الناس الذين يرون في هروب تولستوي عملاً قام به «إنسان عظيم» ويربطونه بتصوراتهم «الإنسانية، الإنسانية جداً» عن الأسرة. تولستوي القوي ترك زوجته الضعيفة التي لا تتناسب مع تطوره الروحي. فالأمر واضح، إنه عبقري، لكننا نشعر بالأسى على صوفيا أندريفنا، بالطبع! يا لخطورة زواج النساء من العباقرة!

إن وجهة النظر المنتشرة هذه، مهما كان الأمر غريباً، تتطابق تقريباً مع وجهة النظر المزروعة في أوساط المثقفين، التي أصبحت بسلاسة أسلوب الكاتب إيفان بونين موضة دارجة.

لقد رحل تولستوي كي يموت. لقد كان هروبه عملاً تحررياً لروحه العملاقة من الأسر المادي الذي يعذبه. «تحرير تولستوي». يا لها من عبارة جميلة! خيار منخفض: كالحيوان القوي، الذي يشعر باقتراب موته، فيخرج من القطيع، كذلك تولستوي، لشعوره باقتراب نهايته المحتومة، غادر ياسنايا

بوليانا. إنها صيغة وثنية جميلة أيضاً نُشرت في الصحف في الأيام الأولى لهروب تولستوي بقلم ألكسندر كوبرين[1].

لكن فعل تولستوي لم يكن تصرف جبّار Titan قرر القيام بحركة رمزية كبيرة. وهو أيضاً لم يكن رعشة وحش عجوز قوي. لقد كان هذا فعل رجل مريض ضعيف، كان يحلم بالهروب منذ خمسة وعشرين عاماً، لكنه لم يسمح لنفسه بذلك، عندما كان لديه ما يكفي من القوة، لأنه كان يعتقد أن هذا عملاً قاسياً تجاه زوجته. ولكن، عندما خارت قواه، ووصلت التناقضات العائلية لديه إلى نقطة الغليان، لم ير مخرجاً آخر سوى الهروب، لا لنفسه ولا للآخرين. لقد رحل عندما لم يكن جاهزاً لذلك، من الناحية البدنية، عندما كان هناك في الطريق آخر شهر تشرين الأول/ أكتوبر الأصم المقفر. عندما لم يكن أي شيء مجهّزاً، حتى إن أكثر مؤيدي الهروب حماسة مثل ابنته ساشا، لم يتصوروا كيف يمكن للرجل العجوز أن يكون في مثل هذا «الفضاء المفتوح». في تلك الأثناء، بالذات، عندما كان هروبه يكاد يعني الموت المحتوم، لم يبق لدى تولستوي من القوة ما يكفي للبقاء في ياسنايا بوليانا.

لقد رحل كي يموت؟ هذا التفسير قدمه البروفيسور الشهير ف. سنيغيريف، طبيب التوليد الشهير، الذي عالج صوفيا أندريفنا وأجرى لها عملية جراحية عاجلة في بيت ياسنايا بوليانا. لم يكن مجرد طبيب رائع، بل كان إنساناً ذكياً بصورة استثنائية ولبقاً. ورغبة منه في تهدئة مريضته، التي انهالت عليها التهم بعد موت زوجها، كأنها هي التي دفعت زوجها إلى الهروب والقبر، كتب لها في 10 نيسان/ أبريل 1911 في يوم الأحد الساطع، خطاباً مستفيضاً، حاول فيه ذكر الأسباب الموضوعية وغير العائلية لمغادرة تولستوي. وقد رأى فيها سببين رئيسين:

الأول أن هروب تولستوي كان شكلاً معقداً من أشكال الانتحار. وعلى أية حال، هو تسريع لا شعوري لعملية الموت.

«طيلة حياته كلها تقريباً، كان تولستوي يربي وينمي جسده وروحه، على قدم المساواة، وبطاقته التي لا تنفد ومواهبه كلها، كان يثقفهما بقوة

1- كاتب روسي معروف 1870-1938. - م.

على قدم المساواة، ويربط بينهما ويدمجهما بصورة وثيقة: ومن المستحيل القول: أين ينتهي الجسد، وأين تبدأ الروح. إن كل من كان ينظر إلى مشيته، وانحناءة رأسه، وجلسته، كان يرى بوضوح دوماً إدراكه ووعيه لحركاته: أي أن كل حركة كانت مطوّرة، مصوغة، مدروسة، تعبر عن فكرة... في حال وفاة هذه السبيكة الصلبة من الروح والجسد، لا يمكن أن يحدث انفصال، فصل الروح عن الجسد بسكون وهدوء، كما يحدث لدى الناس الذين حدثت لديهم فجوة قديمة بين الروح والجسد... ومن أجل حدوث مثل هذا الفصل، لا بد للجسد من بذل جهد كبير...»

أما تفسير سنيغيريف الآخر فهو طبي بحت. لقد توفي تولستوي لإصابته بالالتهاب الرئوي. وقد كتب سنيغيريف: «إن هذه العدوى ترافق، في بعض الأحيان، بنوبات من الهوس. وربما يكون الهروب الليلي قد تم في إحدى هذه النوبات، لأن العدوى تظهر أحياناً قبل بضعة أيام من المرض، أي أن جسمه كان قد تسمم قبل ذلك. وأن التسرّع والضياع يتوافقان مع هذا الوضع إلى حد كبير...»

وبعبارة أخرى، كان تولستوي مريضاً بالفعل في ليلة الهروب، وقد أثر التسمم المعدي على دماغه.

لن نبدأ التخمين حول مدى صحة ما كتبه سنيغيريف كطبيب، أو أنه أراد، ببساطة، تهدئة البائسة صوفيا أندرييفنا، ثمة أمر واحد واضح: عشية الهروب وفي ليلته، كان تولستوي ضعيفاً، روحياً وجسدياً. وهذا ما تؤكده مذكرات ماكوفيتسكي ويوميات ليف نيقولايفتش. كان يحلم أحلاماً مرتبكة «سيئة»... ففي أحدها حدث «نزاع مع الزوجة»، وفي حلم آخر تشابك أبطال رواية دوستويفسكي «الإخوة كارامازوف» التي كان يقرأها آنذاك، مع أشخاص واقعيين، لكنهم متوفّين، مثل ن. ن. ستراخوف[1].

قبل أقل من شهر من هروبه، كان في حالة نزاع بين الموت والحياة. فما

1- نيقولاي ستراخوف (1828–1896) فيلسوف، وكاتب، وناقد أدبي روسي كبير، ذو نزعة محافظة، كتب دراسة مهمة عن رواية تولستوي «الحرب والسلام»، كما اهتم بأعمال دوستويفسكي، وكان أول من كتب سيرة حياته. – م.

حدث يوم 3 تشرين الأول/ أكتوبر كان شبيهاً بالنهاية الحقيقية والموت، إلى درجة الارتجاف والاستلاب قبل الموت (حركات اليدين المميزة قبل الموت). وهاكم كيف يصف هذه الفترة فالنتين بولغاكوف سكرتير تولستوي الأخير:

«تأخر ليف نيقولايفتش في نومه، وبعد أن انتظرناه حتى الساعة السابعة، جلسنا لتناول طعام الغداء من دونه. بعد أن سكبت صوفيا أندرييفنا الحساء في الصحون، نهضت لتسترق السمع، لتتأكد ما إذا كان ليف نيقولايفتش قد استيقظ. عند عودتها، قالت إنها في تلك اللحظة التي اقتربت فيها من باب غرفة النوم سمعت صوت بحث في علبة الكبريت. فدخلت إلى غرفة ليف نيقولايفتش. كان يجلس في السرير. سأل، كم الساعة، وهل بدأوا بتناول طعام الغداء. لكن صوفيا أندرييفنا خمنت شيئا سيئاً: كانت عينا ليف نيقولايفتش تبدوان غريبتين:

– عيناه غائرتان بلا معنى... هكذا – قبل النوبة. إنه يضيع في عالم النسيان... لقد أصبحت أعرف هذا، عيناه تبدوان هكذا دوماً قبيل النوبة».

وسرعان ما اجتمع في غرفة تولستوي ابنه سيرغي لفوفيتش، خادمه إيليا فاسيليفتش، ماكوفيتسكي، بولغاكوف، و ب. ي. بريوكوف، الكاتب الأول لسيرة تولستوي.

«مستلقياً على ظهره، وضاغطاً على أصابع يده اليمنى كأنه يمسك بريشة، أخذ ليف نيقولايفتش يحرك يده بضعف على البطانية. كانت عيناه مغلقتين، وحاجباه مقطبين، وكانت شفتاه تتحركان، تعبران عن معاناة ما... ثم... ثم بدأت نوبات غريبة من التشنجات، واحدة إثر الأخرى كان جسم الرجل الضعيف الراقد في السرير يهتز ويرتعش. ورمى بقوة ساقيه، وكان من الصعب الإمساك بهما. عانق دوشان (ماكوفيتسكي – *ملاحظة المؤلف*) ليف نيقولايفتش من كتفيه، وفركت أنا وبريوكوف قدميه. كان عددها كلها خمس نوبات. تميزت النوبة الرابعة بأنها أقوى النوبات، حيث انتقل جسم ليف نيقولايفتش إلى عرض السرير، وانحدر رأسه من الوسادة، وعُلِّقت ساقاه في الجانب الآخر.

اندفعت صوفيا أندرييفنا إلى ركبتيه، وعانقت رجليه ودفنت رأسها

بينهما، وبقيت فترة طويلة على هذه الوضعية، إلى أن أرقدنا ليف نيقولايفتش على السرير مرة أخرى، كما ينبغي.

عموماً، كانت صوفيا أندرييفنا تترك في النفس انطباعاً مؤثراً يدفع إلى الرثاء. كانت ترفع عينيها إلى السماء، وترسم على عجل صلباناً صغيرة، وهي تهمس: «يا رب! لا، ليس في هذه المرة، ليس في هذه المرة!...» وكانت تفعل هذا ليس أمام الآخرين: عندما دخلت صدفة إلى غرفة «السكرتاريا»، وجدتها تؤدي هذه الصلاة».

بعد هذه التشنجات بدأ ليف نيقولايفتش يهذي، تماماً كما سوف يهذي في أستابوفو قبيل وفاته، حيث نطق مجموعة لا معنى لها من الأرقام:

– أربعة، ستون، سبعة وثلاثون، ثمانية وثلاثون، تسعة وثلاثون...

وقد تذكر بريوكوف: «كان سلوك صوفيا أندرييفنا في أثناء هذه النوبات مؤثراً. كانت بائسة في خوفها وهوانها. ففي تلك الأثناء، عندما كنا، نحن الرجال، نمسك بليف نيقولايفتش كي لا تطرحه التشنجات من السرير، رمت بنفسها على ركبتيه، ورددت صلاة خاشعة، بهذا المضمون تقريباً: «يا رب، أنقذني، اغفر لي يا رب، لا تدعه يموت، أنا من أوصله إلى هذا، لا تأخذه مني، يا رب، هذه المرة»».

بالنسبة لشعورها بالذنب، أثناء النوبة، كانت صوفيا أندرييفنا تعترف بذلك، وقد كتبت عنه بنفسها في يومياتها:

«عندما كنت أحتضن رِجلي زوجي المرتجفتين، كنت أشعر باليأس الشديد من فكرة خسارته – وسيطر على كينونتي الندم، وتأنيب الضمير، والحب المجنون، والابتهال والصلاة، بقوة كبيرة. كل شيء، كل شيء من أجله، كي يبقى حياً هذه المرة على الأقل ويتعافى، كي لا يبقى في قلبي تأنيب الضمير لكل ما سببته له من مزعجات وقلق واضطرابات بسبب عصبيتي المفرطة، ومخاوفي المرضية».

وكانت قبل ذلك بفترة قصيرة قد تشاجرت بشكل رهيب مع ساشا وفيوكريتوفا، وعملياً طردت ابنتها ساشا من المنزل. وانتقلت ساشا للعيش في منزلها الخاص في تيلياتنيكي، على مقربة من ياسنايا بوليانا. وقد عاني

تولستوي الأمرّين من فراق ساشا، التي كان يحبها ويثق بها أكثر من جميع أبنائه. وكانت بالنسبة له مساعداً لا يقدّر بثمن، وسكرتيراً على قدم المساواة مثل بولغاكوف. لقد أصبحت الفجوة بين الأم والابنة أحد أسباب النوبة. وقد أدركتا هذا، وتصالحتا في اليوم التالي.

ذكريات ساشا:

«نزلت إلى الغرفة الأمامية، فعلمت أن أمي تبحث عني.

– أين هي

– على الشرفة.

أخرج إلى الشرقة، فأرى أمي تغطي جسدها بمعطف.

– رغبتِ بالحديث معي؟

– نعم، رغبت بالقيام بخطوة أخرى نحو المصالحة. سامحيني!

وأخذت تقبّلني، مكررة: سامحيني، سامحيني! أنا أيضاً قبلتها، وطلبت منها أن تهدأ...

تحدثنا وقوفاً في الفناء. فنظر إلينا أحد المارة مستغرباً. فطلبت منها أن ندخل إلى البيت».

دعونا نفكر: أوَليست الرواية القائلة بأن تولستوي قد هرب كي يموت ليست أسطورة واهية فحسب، بل أسطورة قاسية جداً أيضاً؟ لماذا لا نحول حدقتنا، ونضعها في الوضع الطبيعي، وننظر إلى هذه المسألة كما كان ينظر ليف نيقولايفتش. لقد هرب ليس من أجل أن لا يموت. وإذا ما حل الموت، فليس نتيجة النوبة القادمة.

إن الخوف من أن صوفيا أندريفنا ستلحق به لم يكن مجرد معاناة أخلاقية، بل كان خوفاً حقيقياً. وكان هذا الخوف يضعف مع ابتعاد تولستوي عن ياسنايا بوليانا، رغم أن صوت الضمير لم يصمت عنده خلال ذلك.

عندما غادروا مع ماكوفيتسكي أخيراً المنزل والقرية إلى الطريق العام، يقول الطبيب «كان لا يزال ليف نيقولايفتش صامتاً، حزيناً، قال بصوت مضطرب، متقطع، كما لو كان يشتكي ويعتذر، لأنه يسافر خفية عن صوفيا أندريفنا». وطرح على الفور السؤال التالي:

- إلى أين سنذهب بعيداً؟

وعندما استقلوا مقصورة مستقلة في عربة من الدرجة الثانية «وبدأ القطار يتحرك، شعر في نفسه، على الأرجح، بالثقة، من أن صوفيا أندريفنا لن تلحق به، وقال بسرور إنه يشعر بأنه في حالة جيدة». ولكن، بعد أن شعر بالدفء وشرب القهوة، قال فجأة:

- وماذا ستفعل الآن صوفيا أندريفنا؟ إنني أشفق عليها.

هذا السؤال سوف يضنيه حتى آخر لحظات حياته الواعية. وأولئك الذين يتصورون الملامح الأخلاقية لتولستوي في سنوات عمره الأخيرة، يدركون جيداً أنه لم يكن هناك أي مبرر للهروب. ومن الناحية الأخلاقية، حسب وجهة نظره، كان عليه أن يحمل صليبه حتى النهاية، والرحيل كان تخليصاً من الصليب. وجميع الأحاديث حول أن تولستوي خرج كي يموت، كي يندمج مع الشعب، ومن أجل تحرير روحه الخالدة محقة وعادلة بالنسبة لحلم رجل في الخامسة والعشرين من العمر، وليس من أجل ممارسة أخلاقية معينة. فهذه الممارسة كانت تستبعد السعي الأناني لتحقيق الحلم على حساب الناس الأحياء.

لقد كان هذا السؤال يعذبه طول الطريق من ياسنايا بوليانا إلى شاموردينو، حيث كان من الممكن تغيير القرار والعودة. لكنه لم يكتف بعدم تغيير قراره وعدم العودة، بل ذهب أبعد وأبعد، حاثاً رفاق دربه على الإسراع. وسلوكه هذا كان اللغز الرئيس.

يمكننا العثور على بعض الأجوبة عن هذا اللغز في رسائل ثلاث كتبها تولستوي لزوجته أثناء المغادرة. في رسالة «الوداع» الأولى يركّز تولستوي على الأسباب الأخلاقية والروحية: «... لم أعد أستطيع العيش بعد الآن في ظروف البذخ والفخامة التي عشت فيها، وأفعل ما يفعله عادة الشيوخ المتقدمون في السن من عمري: إنهم يخرجون من الحياة الدنيوية المدنية كي يعيشوا آخر أيام حياتهم في العزلة والسكينة».

إنه تفسير رحيم تجاه الزوجة. وفي هذه الرسالة يقول تولستوي: «أشكرك على حياتك المخلصة طيلة ثمانية وأربعين عاماً معي وأرجو أن تسامحيني

عن كل ما أسأت به إليك، كما أنني من أعماق روحي أسامحك عن جميع أخطائك تجاهي».

علاوة على أن هذه الرسالة مؤثرة من الناحية الشخصية، فإن كل كلمة فيها موزونة، من باب الاحتياط في حالة نشرها. وليس من قبيل المصادفة أن تولستوي، قبل أن يصوغ الرسالة بصيغتها النهائية، كان قد كتب مسوّدتين لها. فقد كانت هذه الرسالة بمنزلة «شهادة حماية» لزوجته. وكان باستطاعتها أن تعرضها، بجرأة، على مراسلي الصحف (وقد فعلت). وكان معنى هذه الرسالة بعبارة مبسطة: تولستوي لم يهرب من زوجته بل من ياسنايا بوليانا. إنه لم يعد يطيق العيش في ظروف الأسياد والنبلاء التي لا تتطابق مع نظرته للعالم.

ربما كان تولستوي يعتقد أن صوفيا أندريفنا سوف تقنع بهذا التفسير، ولن تطارده ولن تقوم بتصرفات مجنونة. ولكن، عندما علم أنها حاولت الغرق في البركة في حديقة ياسنايا بوليانا، واستلم منها رسالة جوابية بالعبارات التالية: «ليفوشكا (صيغة التحبب من اسم ليف – م.)، حبيبي، عد إلى المنزل، أنقذني من انتحار ثان» – أدرك أن تهديداتها ستستمر. وعندئذ قرر التحدث إليها بصراحة، والتعبير عما سكت عنه في رسالته الوداعية.

الصيغة الأولى من الرسالة الثانية التي كتبها في شاموردينو، لم يرسلها. فقد كانت قاسية جداً. «اللقاء، كما كتبت لك، لا يمكن أن يؤدي إلا إلى تفاقم وضعنا. وضعك – كما يقول الجميع، وكما أعتقد أنا، وما يتعلق بي، فإن مثل هذا اللقاء، علاوة على العودة إلى ياسنايا بوليانا، مستحيل، ويمكن أن يعادل الانتحار».

أما الرسالة التي أرسلها فكانت بلهجة ألطف، وجاء فيها: «رسالتك – أعلم أنها كُتبت بصدق، ولكن ليس لديك السلطة لتحقيق ما ترغبين. والمسألة ليست أبداً في تحقيق بعض رغباتي ومطالبي، المسألة فقط في توازنك، وموقفك الهادئ والعقلاني من الحياة. وطالما أن هذا غير متوفر فيك، فالحياة معك، بالنسبة لي، لا يمكن تصورها. والعودة إليك، وأنت في مثل هذه الحالة، يعني بالنسبة لي التخلي عن الحياة. ولا أعتبر نفسي أملك

الحق في الإقدام على ذلك. وداعاً، عزيزتي صونيا (صيغة التحبب من اسم ألكسندرا – م.)، كان الله في عونك. الحياة ليست مزحة، ورميها حسب مزاجنا أمر لا يحق لنا، ومن غير المعقول أن نقيسها بطول الزمن أيضاً. فقد تكون هذه الأشهر التي بقيت من حياتنا أكثر أهمية من جميع السنوات التي عشناها، وعلينا أن نعيشها جيداً».

هل هرب كي يموت؟ نعم إذا كنا نعني بهذا الخوف من الموت اللاشعوري العابث، الذي يماثل الموافقة عليه، حسب مفهومه، الإقدام على الانتحار.

لقد هرب تولستوي من مثل هذا الموت. أراد أن يموت في عقل وشعور واضحين. وكان هذا بالنسبة له، أهم من التخلي عن ظروف حياة السادة والنبلاء والاندماج بالشعب.

عندما سألته ابنته ساشا في شاموردينو، ألا يندم لأنه تصرف على هذا النحو مع أمها، أجاب عن سؤالها بسؤال: «وهل يندم الإنسان على تصرف إذا كان غير قادر على التصرف بطريقة أخرى؟».

لقد أعطى تولستوي تفسيراً أكثر دقة لتصرفه في حديث مع أخته راهبة دير شاموردينو، الذي سمعته ابنتها، وابنة أختها، وهي في الوقت نفسه، مهما كان ذلك غريباً، حماة ابنة تولستوي يليزافيتا فاليريانوفنا أبولنسكايا (كانت ابنة تولستوي ماشا متزوجة من نيقولاي أبولنسكي ابن ي. ف. أبولنسكايا). كتبت يليزافيتا فاليريانوفنا أبولنسكايا أجمل الذكريات عن أمها، ومن بين أهم هذه الذكريات اللقاء الذي جرى بين ليف نيقولايفتش وماريا نيقولايفنا في حجرتها المخصصة لها في الدير في 29 تشرين الأول/ أكتوبر1910.

«كان يكفي أن ننظر إليه لنرى كم كان هذا الرجل منهكاً، جسدياً وروحياً... وفي حديثه عن نوبته الأخيرة، قال:

– نوبة أخرى من هذا النوع، وتكون النهاية، ويحلّ الموت اللطيف، لأنه حالة لا شعورية كاملة. لكنني أود أن أموت في كامل وعيي وذاكرتي.

وبكى... عبرت أمي عن فكرة أن صوفيا أندريفنا مريضة، وبعد أن فكر قليلاً، قال: نعم، نعم، بالطبع، ولكن ماذا كان عليّ أن أفعل؟ كان من

الضروري إرغام نفسي بالقوة، ولكنني لم أستطع، ولهذا غادرت؛ وأريد الآن أن أستفيد من هذا، كي أبدأ حياة جديدة».

يجب التعامل بحذر شديد وبصورة نقدية، مع الكلمات المنقولة عن لسان تولستوي في ذكريات ويوميات الأشخاص الآخرين، وبخاصة عندما يكون هؤلاء الأشخاص من الأقارب والقريبين ذوي المصلحة. فمن خلال مقارنة الوثائق المختلفة فقط يمكن العثور على نقطة التقاطع، وافتراض مكان الحقيقة. ولكن علينا أن نتذكر خلال ذلك، أن تولستوي نفسه لم يكن يعرف هذه الحقيقة. وهاكم ما سجله في يومياته في 29 تشرين الأول/ أكتوبر، بعد الحديث مع ماريا نيقولايفنا:

«... لقد كنت دوماً أفكر في مخرج من وضعي ووضعها (صوفيا أندرييفنا - ملاحظة *المؤلف*) ولم يتفتق ذهني عن أي شيء، في حين أن المخرج سيكون، شئت أم أبيت، غير الذي تتوقعه».

الاندماج بالشعب

منذ الأيام الأولى لخروج تولستوي، بدأت الصحف الترويج لرواياتها لهذا الحدث، وكان من بينها الرواية القائلة إن تولستوي قد خرج للاندماج بالشعب. وبكلمة واحدة كانت تتردد هي: *التبسيط*.

سادت هذه الرواية في العهد السوفييتي. وكانوا يوحون بها لتلاميذ المدارس. لقد تمرد تولستوي على الظروف الاجتماعية التي عاش فيها هو وطبقة النبلاء كلها. ولكن، ولعدم امتلاكه الرؤية الماركسية للعالم، تصرف كفوضوي - شعبي: وبالمعنى الحرفي: خرج للاندماج بالشعب.

إن حقيقة التسليم بهذه الرواية من قبل الأيديولوجيا الشيوعية التي انحنت إجلالاً لبطل مقالة فلاديمير إيليتش لينين «ليف تولستوي - مرآة للثورة الروسية»، لا يعني أنها خاطئة. وعلى أية حال، ففيها من الحقيقة أكثر بكثير من مختلف الخرافات الرومانسية، من قبيل أن تولستوي قد هرب للقاء الموت. فالرغبة بالاندماج بالشعب، وأن لا يكون مميزاً في وسطه، كانت، بالفعل، حلم تولستوي المكنون. وكم كان سعيداً عندما سار، خلال نزهاته

وجولاته، على طريق كييف السريع، الذي يمر بالقرب من ياسنايا بوليانا، ولم يعد «كونتاً»، وضاع في حشد المصلين، الذين اعتبروه «جَداً» قروياً. وكم أمضى من الدقائق والساعات الثمينة في محادثاته مع الفلاحين في ياسنايا بوليانا، كوتشيتوف، بيروغوف، نيكولسكي، والأماكن الأخرى التي تواجد فيها، والتي رأى أن واجبه الأول الحديث إلى كبار السن المحليين فيها.

وفي القرن العشرين، أصبح من المتعارف عليه بين المثقفين، للأسف، السخرية من «تبسيط» تولستوي. وقد أصبحت مبتذلة النكتة القائلة: «يا صاحب السعادة. تم نقل المحراث إلى الباب الأمامي! هل تنوي الحراثة؟» وفي الواقع، كانت مشاركته في أعمال الفلاحين (الحراثة، وجمع القش، والحصاد) التي حاول بنجاح تعليمها لأولاده أيضاً (وكانت بناته الأكثر استجابة)، ذات مغزى عميق بالنسبة لتولستوي. لقد كان هذا جزءاً من سبيكة التربية الذاتية المعقدة، التي بدونها لما كانت ظاهرة تولستوي في أواخر عمره. ففي هذه الصورة – صورة الحكيم العظيم والروائي العبقري، الذي يمشي بتواضع في ثياب الفلاحين خلف المحراث – ثمة شيء مهم للغاية، من أجل فهم جوهر الوجود الإنساني، لا يقل أهمية عن صورة الأهرامات المصرية أو منظر مقبرة ريفية بسيطة. وليس من قبيل الصدفة أن هذه الصورة لا تحتاج إلى «ترجمة»، فهي مفهومة لأي ثقافة وطنية، لأنها لا تعبر عن مزاج نبيل روسي، بل عن مشاركة الإنسان في الأرض وعن الحقيقة الواردة في الكتاب المقدس «نستخرج خبزنا بعرق جبيننا».

كتب الشاعر الروسي الكبير ألكسندر بلوك في مقالته «شمس فوق روسيا» بمناسبة الذكرى الثمانين لميلاد تولستوي: «كاتب النقاء العظيم والقداسة يعيش بيننا. كثيراً ما يتبادر إلى ذهني: كل شيء مقبول، كل شيء بسيط، كل شيء غير مخيف نسبياً، طالما بقي ليف نيقولايفتش تولستوي على قيد الحياة. فهذا العبقري، بوجوده، كأنه يشير إلى أن ثمة ثوابت راسخة، ثمة أسساً كالصخر: إنه يحمل بدقة على كتفيه فرحه، ويغذي به بلده وشعبه. طالما أنّ تولستوي على قيد الحياة، يسير على طول الثلم وراء المحراث، خلف حصانه الأبيض، وندى الصباح لا يزال طازجاً، فلا خوف، والغيلان نائمة، حمداً لله. عندما يسير تولستوي فالشمس

قادمة. وإذا ما غابت الشمس، سيموت تولستوي، سيغادر آخر عبقري، وماذا بعد؟».

كُتبت هذه الكلمات قبل عامين من رحيل تولستوي ووفاته، لكنها تحتوي على توقعهما: الغروب - الرحيل - الموت - هكذا تراءت للشاعر بلوك نهاية حياة تولستوي. لم يكن باستطاعة بلوك أن يعرف، أن الهروب والموت سيحدثان ليلاً، حيث «الغيلان غير نائمة»، ولكن، من المميز أن بلوك لم يستطع تصور تولستوي خلافاً للوحة الشهيرة التي رسمه فيها الفنان الروسي الكبير ريبين «تولستوي خلف المحراث».

لا سيما أن بلوك لم يكن باستطاعته معرفة أن تولستوي ينوي في الأصل المغادرة ليس باتجاه غير معروف. ففي الخيار الأول، كان الرحيل إلى وجهة محددة تماماً. إلى عزبة فلاح.

من 20 إلى 21 تشرين الأول/ أكتوبر 1910، حل ضيفاً على ياسنايا بوليانا صديق ليف نيقولايفتش ميخائيل بتروفيتش نوفيكوف، فلاح من مقاطعة تولا. وكانا قد التقيا في موسكو عام 1895، عندما كان نوفيكوف، البالغ من العمر ستاً وعشرين سنة يخدم كاتباً في أركان الجيش. كان طريقه، عموماً، بالنسبة لذلك الوقت، من الاهتمامات الثورية إلى أفكار تولستوي، غير أصيل. لكن تولستوي لاحظ وأشار في يومياته إلى هذه الزيارة، باعتبارها زيارة شاب متحمس، صادق ومتهور. فقد أحضر لتولستوي ملفاً سرياً من مقر الأركان حول إطلاق النار على العمال في مصنع كورزينكينا بمدينة ياروسلافل. طلب منه تولستوي بإلحاح إعادة الملف إلى مكانه. ومع ذلك، اعتُقل نوفيكوف بعد شهر، ولكن ليس بسبب سرقة وثائق سرية، بل للسبب نفسه الذي سوف يعتقل من أجله الكاتب الروسي المعروف سولجينيتسين بعد نصف قرن: لتناول شخصية الرجل الأول في الدولة، الذي كان آنذاك الإمبراطور نيقولاي الثاني، بالتجريح في مراسلة خاصة. وفيما بعد مارس نوفيكوف الزراعة في قطعة أرض صغيرة، وكتب نثراً ومقالات، والتقى عدة مرات بتولستوي. وبعد الثورة، أرسل عدة رسائل جريئة إلى ستالين وغوركي حول وضع الفلاحين القاسي، وقد اعتقل من جديد وحُكم عليه بالإعدام في عام

1937. وعلى الرغم من جرأته المتهورة، فقد كان فلاحاً يفكر تفكيراً سليماً بصورة مذهلة، وكان إنساناً ناضجاً ومحباً للعمل بصورة مدهشة، وكان أحد الذين تمكنوا من الاستفادة من إصلاح الأراضي الذي أجراه ستوليبين[1]، وزاد مخصصاته، وتمكن من إطعام أسرته بعمله.

على هذا الرجل بالذات، قرر تولستوي الاعتماد.

عند زيارته لتولستوي في 20 تشرين الأول/ أكتوبر، وبعد تبادل أطراف الحديث معه (أثناء الحديث عبّر نوفيكوف عن أسفه لأن تولستوي نفسه لا يزوره)، طلب الفلاح من تولستوي المبيت لأنه يخشى في الليل أن يلتقي بالسكارى المتشردين. وضعوا له سريراً في غرفة ماكوفيتسكي. رقد في الفراش، وفجأة حضر ليف نيقولايفتش. في البداية، ظن نوفيكوف تولستوي شبحاً «كانت حركاته خفيفة جداً وصامتة». في زيارته هذه إلى ياسنايا بوليانا أذهله مظهر تولستوي: «... كان مظهره سيئاً للغاية لدرجة أنني تساءلت في نفسي، كيف يمكن لإنسان أن يعيش ويفكر ويتحرك، وهو على هذا النحو من الإرهاق والهزال؟». جلس تولستوي على حافة السرير، وبدأ مع نوفيكوف الحديث الذي نشره ميخائيل بتروفيتش في مذكراته التي أُعيد طبعها في الآونة الأخيرة. قد يبدو هذا الحديث غريباً بالنسبة للقارئ غير المطلع، ولكن يجب ألا ننسى أن ليف نيقولايفتش حاول التحدث مع الفلاح بلغته، كما كان يفعل دوماً، أثناء حديثه مع الرجال الريفيين، وهكذا أيضا تحدث مع غوركي في أثناء لقائهما الأول في خاموفنيكي، اعتقاداً منه أن «هذا رجل حقيقي من عامة الشعب».

قال ليف نيقولايفتش:

- بالطبع، لو كنت في شبابي، قد صرخت ولو مرة واحدة على زوجتي، ودعستها برجليّ، لخضعت زوجتي، غالباً، كما تخضع زوجاتكم، ولكن أنا، بسبب ضعفي، لا أحتمل المشاحنات العائلية، وعندما تبدأ كنت أعدّ نفسي أنا وحدي، دوماً مذنباً، وأنه ليس من حقي أن أرغم على المعاناة الإنسانة التي تحبني وتتنازل دوماً لي.

1- بيوتر ستوليبين (1862-1912) رجل دولة روسي قيصري، ووزير داخلية، أجرى إصلاحا زراعياً محدوداً عرف باسمه، ولم يحقق الأهداف المرجوة منه. - م

«في كل مرة كان تولستوي يقول لي - يتذكر نوفيكوف قاصداً زياراته المتكررة لياسنايا بوليانا - كم هي الحياة قاسية بالنسبة له في ظروف منزل السيدة، متطفلاً، عاطلاً عن العمل، لأنه بعمله لا يقدم دخلاً لأسرته».

وهل هناك ضرورة للقول إنه لم يعتبره أحد في الأسرة لا «عاطلاً عن العمل»، ولا «طفيلياً»؟ وإلا لكان هذا مضحكاً. وعلى الرغم من أنه تخلى عن حقوقه في مؤلفاته، لكن التفويض الرسمي بنشر مؤلفاته المكتوبة قبل عام 1881 («الطفولة»، «المراهقة»، «الشباب»، «حكايات سيفاستوبول»، «الحرب والسلام»، «آنّا كارينينا»، وفي الواقع أفضل ما كتبه تولستوي كروائي) قد تركه لصوفيا أندرييفنا، وهذا كان يجلب للأسرة دخلاً حقيقياً. ولكن من المستبعد جداً، أن يلفق نوفيكوف هذه الكلمات من عنده. على الأرجح، كان ليف نيقولايفتش يخاطب وعي الفلاح هكذا، كي يشرح ببساطة سبب مغادرته بيت عائلته للرجل القروي الذي كان يبذل قواه كلها على قطعة صغيرة من نفايات الأرض.

وقال تولستوي شاكياً:

- أنا في هذا المنزل أفور كما في الجحيم، وهم يحسدونني، يقولون إنني أعيش حياة السادة النبلاء، ولكن لا أحد يرى، ولا أحد يدرك كم أتعذب هنا.

في تلك الليلة عرض تولستوي خطته على نوفيكوف.

- لن أموت في هذا البيت. قررت الخروج إلى مكان غير مألوف، حيث لا يعرفونني. حقاً، ربما أذهب إلى كوخك. لكنني أعرف مقدماً، أنكم سوف توبخونني، لأن الهائمين على وجوههم غير محبوبين. وقد رأيت هذا في أُسركم الريفية، لقد أصبحت عجوزاً، وغير مجدٍ... ولن أسبب لكم سوى الإزعاج والتذمر، على طريقة الشيوخ.

يتذكر نوفيكوف فيقول: «لقد بذلت جهداً كبيراً كي لا أبكي، لدى سماعي هذه الكلمات. لقد كنت أشعر بالخجل، لأنني جعلته يعترف أمام نفسه، وشعرت بالفرح في الوقت نفسه، لأنه كإنسان لم يخفِ نقاط ضعفه وآلامه الروحية، متناسياً اختلافاتنا، ولهذا كنت أحبه دوماً، وارتبطت به

روحياً... جدي الغالي والعزيز، وهل كان بإمكاني أن أفكر في تلك اللحظة، أنك تعيش أيامك الأخيرة في هذا البيت، وفي هذه الحياة؟...»

إذا افترضنا أن نوفيكوف يقتبس بدقة نسبياً كلمات ليف نيقولايفتش، فمن المستحيل عدم الشك في السخرية الكامنة فيها (الهائم على وجهه الذي سوف يوبخه الفلاحون) وكذلك التلاعب البريء مع «رجل ريفي» بسيط. ومما يدل على ذلك، أن ليف نيقولايفتش عندما نقل حديثه مع نوفيكوف لابنته ساشا كان يضحك ساخراً:

«عندما جئت إليه في القاعة من أجل الرسائل، اقتادني مبتسماً، بمرح وقليل من الخبث، إلى المكتب، ومن ثم إلى غرفة النوم:

– تعالي، تعالي، سأطلعك على سر كبير! سر كبير!

تبعته، ناظرة إليه، وشعرت بتحسن.

– إليك ما ارتأيته. لقد حدّثت نوفيكوف قليلاً عن وضعنا وكيف أشعر بصعوبة هنا. سأذهب إليه. ولن يعثروا عليّ هناك. أتعرفين، لقد روى لي نوفيكوف أن زوجة أخيه كانت مدمنة على الكحول، ولذلك عندما كانت تبدأ بالتصرف بصورة مخزية جداً، كان أخوه يضربها على ظهرها. فتتصرف بصورة أحسن. وهذا يفيد. – وضحك أبي بطيبة قلب... أنا أيضاً قهقهت، ورويت لأبي كيف أن الحوذي كان يقود ذات مرة أولغا (كنة ليف نيقولايفتش، الزوجة الأولى لابنه أندريه – *المؤلف*)، فسألته ماذا يحدث في ياسنايا بوليانا. أجاب أن الوضع سيئ، ثم التفت إليها وقال:

– وماذا في الأمر، اعذريني على ما سأقوله، يا صاحبة السعادة. عندنا، على الطريقة الريفية، إذا ما أساءت الزوجة التصرف يضربها زوجها باللجام، فتصبح كالحرير!»

بالطبع، لا يمكن أن نأخذ هذا الأمر على محمل الجد. لكن الجو في بيت ياسنايا بوليانا كان على هذا الشكل، وأن مثل هذه «النكات» أصبحت ممكنة.

عن لقائه بنوفيكوف، يكتب ليف نيقولايفتش في يومياته بصورة جافة: «جاء ميخائيل نوفيكوف. تحدثت كثيراً معه. إنه رجل ذكي بجد».

منذ فترة من الوقت، بدأ تولستوي يخشى كتابة الحقيقة كاملة في يومياته، لعلمه بأن صوفيا أندريفنا قد جهزت مفاتيح لمكتبه، وهي تقرأ مذكراته

اليومية. حتى إنه جهّز دفتر يوميات خاص بدأه بعبارة «يوميات لنفسي وحدي»، وكان يخفيه في ساق جزمته. وقد كتب يوم 24 أيلول/ سبتمبر «فقدت دفتر يومياتي الصغير». لم يفقده. زوجته عثرت عليه وأخذته إلى غرفتها. وحسب روايتها اللاحقة، أسقطتْ خطأً، بياضات السرير على الجزمة... وفي هذه الحالة هذا غير مهم. المهم، أن الجو في منزل آل تولستوي كان على هذا النحو، بحيث إن خدم ياسنايا بوليانا وفلاحيها كانوا يصابون بالدهشة والذهول، وكان ليف نيقولايفتش يضطر في أحاديثه للخروج من الموقف المحرج، بما في ذلك عن طريق مثل هذه «النكات».

لكن قراره بالرحيل إلى نوفيكوف تبين أنه ليس مزحة على الإطلاق. ففي 24 تشرين الأول/ أكتوبر أرسل له الرسالة التالية:

«ميخائيل بتروفيتش،

بصدد ما حدثتك قبل مغادرتك، أتوجه إليك بالرجاء التالي: لو حدث أنني فعلاً جئت إليكم، ألا يمكنك العثور في قريتكم على كوخ مستقل ودافئ، وإن كان صغيراً، لأنني لا أريد أن أضايقك وأحرجك أنت وأسرتك في بيتك ولو لوقت قصير. وأعلمك أيضاً، إذا ما اضطررت لإرسال برقية لك، فلن أرسلها باسمي بل باسم ت. نيقولايف.

سأنتظر جوابك، وأصافحك بيد الود والصداقة.

ليف تولستوي.

خذ في اعتبارك، أن هذا كله لا يجب أن يعرفه أحد غيرك»

وأي مزاح هنا! في هذه الرسالة تُذكر لأول مرة الشيفرة السرية التي سوف يستخدمها تولستوي مع ساشا وتشرتكوف أثناء هروب ليف نيقولايفتش من ياسنايا بوليانا لخداع صوفيا أندرييفنا والصحفيين. تولستوي العظيم، الذي كان يحتقر الأسماء المستعارة، ولم يخش التوقيع باسمه الصريح على رسائل جريئة قارصة للقياصرة، ولستوليبين، بوبيدونوستسيف[1]، يختبئ وراء ظل ت. نوفيكوف.

1- كونستانتين بوبيدونوستسيف (1827-1907) رجل دولة روسي قيصري، ورجل قانون، كان واسع النفوذ والتأثير على الإمبراطور القيصر الروسي ألكسندر الثالث. - م.

بعد استلامه الرسالة، شعر نوفيكوف بالارتباك. فالبوح المتبادل «بين رجلين» في بيت ياسنايا بوليانا المريح شيء، وتحمّل المسؤولية أمام العالم كله بأنه خبّأ تولستوي الهارب شيء آخر تماماً.

كتب نوفيكوف في مذكراته: «لن أغفر لنفسي هذا التأخير الذي سمحت لنفسي به في الرد على رسالته، الذي انتظره ليف نيقولايفتش - كما اتضح فيما بعد - مدة يومين، وبعد ذلك، قرر أنه من غير الممكن السفر لعندي فأنا لا أجيب، وتوجه نحو الجنوب، نحو معارفه القاطنين هناك، وقد استلم جوابي عندما كان مريضاً في محطة أستابوفو. ومن يدري، لربما امتدت حياته لبضع سنوات أخرى، لأن الانتقال بالقطار لمدة ساعتين إلى محطتنا من ياسنايا بوليانا لم يكن ليسبب له أذيّة، لا سيما أن العزبة التي طلبها، الدافئة والنظيفة، كانت فارغة بانتظار من يسكن بها. كما أن كوخي كان يحوي غرفة صغيرة مناسبة، يمكنه أن يمكث بها فترة من الزمن دون أن يلاحظه أحد.

لن أغفر لنفسي أبداً هذا الخطأ!»

عبثاً كان نوفيكوف يلوم نفسه. فتولستوي ليس إبرة، وقرية تولا ليست كومة قش. فبصورته المعروفة في جميع أنحاء العالم، وبوجود تلك الشبكة من المراسلين آنذاك، ومن رجال المباحث الحكومية والخاصة، كان من المؤكد العثور على ليف نيقولايفتش بسرعة كبيرة.

الطريف في الأمر شيء آخر. فهذه العزبة ذاتها «الدافئة والنظيفة» ظهرت في ذكريات نوفيكوف في وقت لاحق، بعد وفاة تولستوي. ففي رسالته الجوابية لم يكن هناك حديث عن أية عزبة، والرسالة ذاتها كانت، بجوهرها، شكلاً مهذباً للرفض. ولهذا، فلو أن الرسالة لم تتأخر، واستلمها تولستوي ولم يكن مريضاً على حافة الموت في أستابوفو بل في ياسنايا بوليانا، لما تغير في الأمر شيء. لم يكن لدى تولستوي مكان ليهرب إليه، وهذا ما حاول نوفيكوف شرحه.

«عزيزي ليف نيقولايفتش، استلمت رسالتكم وتأثرت كثيراً بقربي منك وإخلاصك لي. لم أستطع الإجابة على الفور، لعدم القيام بفعل طائش. لقد كنت معك دوماً صريحاً، وقلت كل ما في قلبي، والآن قررت أن أقول لك

فقط ما يعتمل في روحي بخصوص طلبك الوارد في الرسالة، دون التفكير إن كان يرضيك أم لا يرضيك. إن ذلك الوقت، عندما كنت مضطراً، ولما فيه خير الأمور، وبسبب الإدراك الناشئ لديك بتغيير ظروف الحياة الخارجية – قد انقضى بالنسبة لك، والآن لا معنى أبداً لتغييرها لفترة طويلة... مهما كنت أرغب برؤيتك منفتحاً على جميع الناس البسطاء، ولكن من أجل المحافظة على حياتك في هذا العمر، للتواصل العزيز على الجميع معك – لا يمكنني أن أتمنى لك هذا بصورة جادة. كل ما أتمناه، أن لا يضيق ما تبقى من حياتك بالظروف الخارجية للتواصل مع محبيك، أما بالنسبة لزيارتك المؤقتة لأصدقائك لمدة يوم، أو أسبوع، أو أسبوعين، أو شهر، فإن كوخي غير مناسب أبداً. وهو يضم غرفة مشرقة، يمكن أن يتنازل لك عنها جميع أفراد عائلتي بكل سرور، وسيخدمونك بكل حب، لا سيما أنه ليس لدي أطفال صغار جداً يمكنهم إثارة الضجة في الوقت غير المناسب. فالابن الأصغر عمره 5 سنوات. هذا ما أعتقده، ولكن إذا كنت تفكر بطريقة أخرى، فليكن برأيك وليس برأيي، ويمكن في هذه الحالة الاحتفاظ بالغرفة للفترة التي تريدها. وبخاصة من شهر نيسان، أبريل وحتى تشرين الأول/ أكتوبر يمكنك العيش عندي دون أية مضايقة من أحدنا للآخر. نحن لا نخشى أن تضايقنا بل العكس...

الفلاح الذي يحبك ميخائيل نوفيكوف».

ملاحظة في أسفل الرسالة. يرد شرح بخصوص العزبة المستقلة.

«أنا أعتقد أنه من المستحيل بالنسبة لك العيش في كوخ مستقل بسبب ضعفك. كما أنه لا توجد أكواخ مستقلة تماماً لدى الفلاحين. عادة هناك عُزب ثانية، باردة، يسهل تهيئتها للسكن بشيء من الإصلاح، لكنها لن تكون مستقلة بل متصلة بممر. ثمة عزبة من هذا النوع طولها ستة أرشينات (مقياس روسي قديم يعادل الذراع 71 سم – م.) لدى جاري، ولن يرفض تأجيرك إياها كشقة. أو كذلك عمتي المتقدمة في السن، ستشيد لنفسها عزبة بطول ستة أرشينات في الربيع المقبل، وهي وحيدة، امرأة عجوز ذكية، وستكون مسرورة بإيوائك وخدمتك».

من الواضح، أن تولستوي، بنزعته الاستقلالية الشديدة وحساسيته ورقته

في الوقت نفسه، لن يوافق على هذه الشروط. وكان نوفيكوف يدرك هذا أيضاً، ويدرك أن تغيير مكان إقامة العجوز المريض في أواخر الخريف – هو جنون محض! يجب الانتظار حتى قدوم الربيع.

لكنّ تولستوي لم يستطع الانتظار.

رسالة نوفيكوف هذه، قرأها له بصوت عال تشرتكوف عند وصوله إلى أستابوفو في 3 تشرين الأول/ أكتوبر. استمع ليف نيقولايفتش باهتمام، وطلب منه أن يكتب على المغلف: «شكراً لك. لقد ذهبت في اتجاه آخر»

«كآبة السكة الحديدية...»

من شوكينو إلى غورباتشوفو ركبا في مقصورة عربة من الدرجة الثانية. وقد تركا خلفهما العزبة وقرية ياسنايا بوليانا، التي مرّ عبرها قبل ساعتين موكب مذهل. في العربة المقرونة بزوج من الجياد جلس الكونت العجوز في سترة مبطنة ومعطف وقبعتين (كان رأسه بارداً جداً)، وإلى جانبه الطبيب دوشان بتروفيتش، الهادئ، بتعبير وجهه الثابت في معطف رث من جلد الغنم وقبعة فرو صفراء؛ وفي الأمام، على الحصان الثالث السائس فيليا، مع المشعل المشتعل (حسب قول ساشا) أو الفانوس (حسب قول ماكوفيتسكي). يستيقظ القرويون باكراً، وفي بعض الأكواخ كانت النوافذ قد أُنيرت، والمواقد قد أُشعلت. انفكت مقاليد اللجام في الطرف العلوي من القرية. نزل ماكوفيتسكي من العربة للبحث عن نهاية اللجام، وليرى في الوقت نفسه ما إذا كانت ساقا ليف نيقولايفتش مدثرتين. كان تولستوي في عجلة من أمره، لدرجة أنه صاح على ماكوفيتسكي. وعلى هذا الصياح خرج الفلاحون من المنازل القريبة. مشهد أخرس.

عندما أخذ ماكوفيتسكي تذاكر السفر في شوكينو، أراد في البداية ذكر اسم محطة غير غورباتشوفو، من أجل إضاعة الأثر. لكنه أدرك أن الكذب عدا أنه أمر سيئ، فهو بلا غاية.

وفي أستابوفو سوف تستجوب صوفيا أندريفنا ماكوفيتسكي:

– إلى أين ذهبتم؟

– بعيداً.

– حسناً، إلى أين؟

– في البداية إلى روستوف على نهر الدون، وهناك أردنا أخذ جوازات سفر خارجية للسفر.

– وبعدها؟

– إلى أوديسا؟

– حسناً، وبعد ذلك؟

– إلى القسطنطينية.

– ثم إلى أين؟

– إلى بلغاريا.

– وهل لديكم المال؟

– لدي ما يكفي.

– حسناً، كم لديكم؟

– ...

هذه المحادثة يوردها آ. ب. سيمينوفسكي كبير أطباء مستشفى المجلس المحلي، الذي استُدعي ببرقية إلى أستابوفو في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر من مقاطعة مدينة دانكوف القريبة. ويروي في مذكراته حديثاً شخصياً مع ماكوفيتسكي، اعترف فيه الطبيب ماكوفيتسكي بأنه عندما كان يشتري التذاكر في المحطات، كان يصرح في مكتب التذاكر بأنه يشتري التذاكر لتولستوي. «ستحاسب لاحقاً». وكانوا يعطونه التذاكر.

لقد تبين أن تولستوي لا يتقن فن الاختفاء. ففي شوكينو، دخل مبنى المحطة أولاً، وسأل على الفور عامل البوفيه: هل هناك خط حديدي من غورباتشوفو إلى كوزيلسك؟ ثم استوضح عن الشيء نفسه من مناوب المحطة (وفي اليوم التالي ستعلم صوفيا أندريفنا من أمينة الصندوق، إلى أين توجه زوجها بصورة تقريبية.) وبينما كان ماكوفيتسكي يرتب العفش، ويحوِّل ما هو غير ضروري إلى ياسنايا بوليانا، كان تولستوي على بعد أربعمئة خطوة يتنزه مع صبي كان ذاهباً إلى مدرسته. اقترب القطار.

قال تولستوي: سأركب مع الصبي. هدأ ليف نيقولايفتش في القطار، ونام ساعة ونصف الساعة، ثم طلب من ماكوفيتسكي مناولته «حلقة القراءة» أو «لكل يوم» وهما مجموعتان من الأفكار الحكيمة التي كان يكتبها. لكنه لم يجدهما في الحقيبة.

إن من أشد اللحظات مرارة في رحلة تولستوي الأخيرة، أن عاداته التي استمرت سنوات طويلة كانت تتعارض باستمرار مع الظروف الجديدة، غير المألوفة للرجل العجوز. كان يبدو أنه لم يكن بحاجة إلا للقليل، إلى هذه الدرجة بسّط تولستوي حياته السابقة في ياسنايا بوليانا... ولكن حتى هذه الأشياء الصغيرة بالذات، كانت تنقصه...

بهذا الصدد، لا يبدو أبداً تعجب صوفيا أندريفنا مضحكاً بخصوص هروب زوجها:

– ليفوشكا البائس! من سوف يقدم له الزبدة هناك؟

ويبدو مؤثراً للغاية أنها عند توجهها إلى زوجها في أستابوفو لم تنس أن تأخذ معها الوسادة الصغيرة التي خاطتها بيديها، والتي اعتاد ليف نيقولايفتش النوم عليها. وقد تعرّف على هذه الوسادة. وهذا سنتناوله لاحقاً.

منذ فقدان القبعة في الحديقة، بدأت هموم صغيرة مزعجة تمزق الهارب من ياسنايا بوليانا، وكل هذا في اللحظات الأولى يهوي كعبء ثقيل على كاهل ماكوفيتسكي.

من غورباتشوفو إلى كوزيلسك كان ليف نيقولايفتش يرغب بالتأكيد السفر في عربة من الدرجة الثالثة، مع الناس البسطاء. جلس في العربة على مقعد خشبي، وقال:

– كم هو لطيف، وحريّة!

لكن ماكوفيتسكي كان أول من دق ناقوس الخطر. فالقطار «سوخينيتشي – كوزيلسك» كان قطار شحن مقروناً بعربة ركاب من الدرجة الثالثة، مزدحماً ومختنقاً بدخان السجائر. واندفع الركاب بسبب الازدحام إلى عربات الشحن الدافئة. دون انتظار تحرك القطار، ودون أن يقول كلمة لليف نيقولايفتش، أسرع ماكوفيتسكي إلى رئيس المحطة، مطالباً بربط عربة إضافية. فوجهه رئيس المحطة إلى موظف آخر، وأرسله الموظف الثاني

إلى الموظف المناوب. كان المناوب في هذه اللحظة في العربة، وقد لحظ تولستوي، الذي عرفه جميع الركاب. لقد كان سعيداً بمد يد العون، لكن تبين أنه ليس الموظف المناوب المسؤول عن عربات السكك الحديدية. «ذاك» المناوب كان واقفاً أيضاً يتأمل تولستوي. كرر ماكوفيتسكي طلبه.

كتب ماكوفيتسكي في مذكراته: «قال، بلا رغبة وبتردد، (من خلال الضغط على أسنانه) لعامل السكك الحديدية بأن يعطي الأمر لكبير الموصلين بإرفاق عربة أخرى من الدرجة الثالثة. وبعد ست دقائق قادت القاطرة العربة إلى مقربة من قطارنا. وأعلن كبير الموصلين الذي دخل إلى عربتنا للتحقق من التذاكر، للجمهور، أنه ستُقرن عربة أخرى وسيتم استيعاب الجميع، لأن كثيرين كانوا واقفين في العربة وفي مداخلها. ولكن قُرِع الجرس الثاني، وبعد نصف دقيقة الجرس الثالث ولم تُربط العربة. ركضتُ إلى المناوب. أجابني أنه لا توجد عربة فارغة. وانطلق القطار. وقد علمت من الموظف الموصل أن تلك العربة التي نقلت للربط، كانت ضرورية لنقل تلاميذ المدارس».

يتذكر ماكوفيتسكي قائلاً: «كانت عربتنا الأسوأ والأشد ازدحاماً من عربات السكك الحديدية التي ركبتها أثناء سفري في أنحاء روسيا. المدخل غير متماثل مع المسار الطولي للعربة. والراكب الداخل أثناء حركة القطار يخاطر بضرب وجهه بزاوية ظهر المقعد المرتفع، الواقعة مقابل منتصف الباب، وكان عليه أن يقوم بحركة التفاف. المقصورات في العربة ضيقة، والمسافة ضيقة بين المقاعد، ولا مكان للأمتعة والحقائب. جو خانق».

اقترح ماكوفيتسكي على ليف نيقولايفتش أن يضع تحته بطانية. فرفض تولستوي. «كان في هذه الرحلة يتردد كثيراً في قبول الخدمات التي كان يستخدمها سابقاً».

سرعان ما بدأ يختنق من انحباس الهواء والدخان، لأن نصف الركاب كانوا يدخنون. ارتدى معطفاً وقبعة من الفراء، وجزمة شتوية طويلة وذهب إلى منصة العربة الخلفية، ولكن كان يقف المدخنون هناك. فانتقل إلى المنصة الأمامية، حيث كانت تهب رياح رأسية، ولكن لم يكن هناك من يدخن، كانت هناك امرأة مع طفلها، وأحد الفلاحين...

إن مكوث ليف نيقولايفتش ثلاثة أرباع الساعة على هذه المنصة يدعوه ماكوفيتسكي «قدرياً»، قاتلاً. فقد كان كافياً لإصابته بنزلة صدرية.

عند عودته إلى العربة، تواصل تولستوي بسرعة مع الناس، تحدث إلى رجل قروي في الخمسين من عمره – عن العائلة، والأسرة، والزراعة، والشحن، وتكسير الطوب. كان ليف نيقولايفتش يهتم بجميع التفاصيل. وقال لماكوفيتسكي باللغة الألمانية: «Ein typischer Bauer» («فلاح حقيقي»).

وقد كان هذا الرجل محباً للحديث. فتحدث بجرأة عن تجارة الفودكا، واشتكى من مالك الأرض ب.، الذي لم تشاركه الجماعة في الغابة، ولهذا قامت السلطات بعملية «عقاب جماعي» في القرية. وكان يجلس على مقربة منه مسّاح الأرض الذي دافع عن مالك الأرض ب. واتهم الفلاحين بكل شيء. وتشبث الرجل برأيه.

– نحن نعمل أكثر منكم، أيها الفلاحون – قال المساح.

– هذا لا يقبل المقارنة – قال تولستوي معترضاً.

كان الفلاح يرد بـ «نعم»، والمسّاح يجادل. ولم ينزعج على الإطلاق من أنه يتجادل مع تولستوي نفسه. وقال المساح لتولستوي: «أنا أعرف أخاك سيرغي نيقولايفتش». ويرى ماكوفيتسكي أنه «كان مستعداً للجدل بلا نهاية، ليس من أجل الوصول إلى الحقيقة في الحديث»، بل من أجل إثبات أحقيته بأي ثمن. وانتقل الجدال إلى مسائل أوسع: إلى نظام الضريبة الموحدة وفق هنري جورج، وإلى داروين، والعلم والتعليم. وسيطرت الحماسة على تولستوي، فنهض وتحدث لأكثر من ساعة. وتجمع الجمهور من كلا طرفي العربة: من فلاحين وتجار وعمال ومثقفين. وهنا «يهوديان» – لاحظ ماكوفيتسكي الذي يعاني من كراهية مرضية لليهود منذ أيام الشبيبة النمساوية – الهنغارية. وكانت هناك امرأة رياضية تسجل أقوال ليف نيقولايفتش، ثم توقفت عن التسجيل وبدأت النقاش معه...

– لقد تعلم الناس الطيران – قالت الرياضية.

أجاب تولستوي: دعي الطيران للطيور، وعلى الناس أن يتحركوا على الأرض.

لقد كانت ت. تامانسكايا، خريجة مدرسة بيليفو الرياضية الشاهدة الوحيدة على رحلة تولستوي إلى كوزيلسك، التي تركت ذكريات مكتوبة عن هذه الرحلة نشرتها في صحيفة «صوت موسكو». وتقول فيها، إن تولستوي «... كان في قميص طويل أسود، يكاد يصل إلى الركبتين، وفي جزمة بكعبين عاليين. وقد وضع على رأسه قبعة سوداء حريرية بدلاً من قبعة الجوخ المدورة».

إن ماكوفيتسكي الذي كان يقدّس تولستوي، ويخشى فعلاً من تردّي حالته الصحية – كان غير راض من هذه المعاملة الندية لليف نيقولايفتش. وعندما أسقط تولستوي القفاز، وأضاء بمصباحه بحثاً عنه في الأرض، لم يفت الرياضية أن تلاحظ قائلة:

– ليف نيقولايفتش، هنا كان العلم مفيداً.

بعد أن أرهقه النقاش ودخان السجائر، توجه تولستوي إلى المنصة ليتنفس، فتبعه المسّاح والفتاة الرياضية «باعتراضات جديدة». وعند نزول الفتاة الرياضية في محطة بيليفو، طلبت منه توقيعه، فكتب لها: «*ليف تولستوي*».

سمع الفلاح من ليف نيقولايفتش أنه ينوي الذهاب إلى دير شاموردينو، وقبل ذلك يريد زيارة دير صحراء أوبتينا للرجال. فقال له المزارع ناصحاً:

– أنت، أيها الأب، كرّس نفسك للدير. عليك أن تطرح الشؤون الدنيوية وتنقذ روحك. ابق في الدير.

«أجابه ليف نيقولايفتش بابتسامة لطيفة».

في آخر العربة، بدأوا يغنّون ويعزفون على الهارمونيكا. فاستمع تولستوي بسرور وأشاد بهم. كان القطار يسير ببطء، ما يزيد قليلاً على مئة فيرستا قطعها خلال ست ساعات ونصف الساعة تقريباً. وفي النهاية، ليف نيقولايفتش «تعِب من الجلوس». وقد كتب ماكوفيتسكي: «هذا السفر البطيء على طرق السكك الحديدية الروسية ساهم في موت ليف نيقولايفتش».

حوالي الساعة الخامسة مساء نزلا في محطة كوزيلسك.

أمامهما كان الطريق إلى صحراء أوبتينا وشاموردينو.

في هذه الفترة لم يكن يعرف تولستوي ما جرى في عزبته بعد هروبه ليلاً. صوفيا أندرييفنا حاولت الانتحار مرتين. في المرة الأولى أخرجوها من البركة، وفي الثانية، أمسكوا بها على الطريق متوجهة إليها. بعد ذلك ضربت نفسها في صدرها بثقّالة الورق، وبالمطرقة، وكانت تصيح: «انكسر، يا قلبي!»، وخزت نفسها بالسكاكين، والمقص، والبكل. وعندما انتزعوها منها، هددت برمي نفسها من النافذة وبإغراق نفسها في البئر. وفي الوقت نفسه، أرسلت إلى المحطة لمعرفة: إلى أين أُخذت التذاكر؟ وبعد أن عرفت أن ليف نيقولايفتش وماكوفيتسكي توجها إلى غورباتشوفو أمرت الخادم بإرسال برقية إلى هناك، ولكن ليس بتوقيعها: «عد فوراً – ساشا». أطلع الخادم ساشا على ذلك، فأرسلت برقية محايدة: «لا تقلق، البرقيات الفعلية هي تلك التي تحمل فقط توقيع ألكسندرا».

كانت الأم تحاول التغلب في الاحتيال على الابنة، والابنة على الأم. كانت صوفيا أندرييفنا تصيح:

– سأجده. كم أنتم تقيّدونني؟ سأقفز من النافذة، وأذهب إلى المحطة. ماذا تفعلون معي؟ المهم أن أعرف أين هو! وعندها لن أدعه يخرج، سوف أحرسه ليل نهار، وسأنام على بابه.

في مساء يوم 28 تشرين الأول/ أكتوبر، تم استلام برقية باسم تشرتكوف: «نمضي الليلة في أوبتينا. غداً في شاموردينو. العنوان: بودبوركي. بصحة جيدة. ت. نيقولايف».



الفصل الثاني

الجنة الضائعة

في يوم 28 تشرين الأول/ أكتوبر في الساعة 4,50 مساء نزلا من القطار في محطة كوزيلسك. نزل ليف نيقولايفتش أولاً. وبينما نقل ماكوفيتسكي والحمّال العفش والحقائب إلى قاعة الانتظار، اختفى تولستوي، لكنه سرعان ما عاد وقال إنه استأجر سائقي عربة إلى دير صحراء أوبتينا. تناول تولستوي سلة المواد الغذائية وقاد ماكوفيتسكي والحمّال إلى العربة. وكان سائق العربة، التي استقلها تولستوي وماكوفيتسكي، فيودور نوفيكوف، ومن قبيل الصدفة، يحمل ذات الكنية للفلاح الذي كان تولستوي يودّ التوجه إلى عنده. وسرعان ما سيدلي نوفيكوف، لأول مرة في حياته، بحديث للصحفيين. وهاكم ما قاله عن المسافر الذي ركب معه:

– ليس لدي معرفة واضحة به، لكنني أشعر، أن قلبه ليس كبقية الناس. أردت أن أفتح مئزر العربة، لكنه لم يسمح لي، قال لي: فيودور، أنا سأفتحه، لديّ يدان. لا يتردد إلى الكنيسة، لكنه يتنقل بين الأديرة.

العربة الثانية كانت تنقل العفش والحوائج. في الطريق طلب الحوذي نوفيكوف من السيد السماح له بالتدخين. (بالمناسبة، في البداية، اعتبر ماكوفيتسكي هو السيد، وتولستوي فلاحاً عجوزاً). سمح له تولستوي بالتدخين، لكنه تساءل، كم من المال يصرف لقاء التبغ والفودكا؟ واتضح أنه مقابل ما يشتريه من التبغ سنوياً يمكنه شراء نصف حصان، ومقابل ما يشتريه من الفودكا حصانين. تنهد تولستوي: «كم هذا سيء!». ووافقه الحوذي: «أجل، سيء!».

على العبّارة، وعبر نهر جيزدرا الذي تقع عليه أوبتينا، تحادث مع راهب العبّارة، ونوّه لماكوفيتسكي بأن قائد العبارة من الفلاحين. سأل ليف نيقولايفتش الراهب ميخائيل ذا الشعر واللحية الأحمرين تقريباً، العامل في فندق الدير: «هل يمكنهم أن يقبلوا في الفندق الكونت تولستوي المفصول من الكنيسة؟». اندهش الراهب ميخائيل كثيراً، وأعطى للوافدين أفضل غرفة - غرفة فسيحة، بسريرين وأريكة واسعة.

- كم هذا لطيف هنا - هتف تولستوي.

في المضافة كأنك في منزلك

- أنا أغور، كأنني في جهنم، في هذا المنزل - اشتكى تولستوي للفلاح ميخائيل نوفيكوف، قبل مغادرته ياسنايا بوليانا.

وقال هذا عن المنزل الذي قضى فيه القسم الأكبر والأفضل، بلا شك، من حياته، المنزل الواقع في عقاره، حيث ولد تولستوي، وجميع إخوته وأخته، وغالبية أولاده وبعض أحفاده. المنزل الذي كتب فيه «القوزاق» و«الحرب والسلام» و«آنا كارينينا» و«سوناتة كروتزر» و«سلطة الظلام»، وغالبية مؤلفاته الكلاسيكية، ما يشكل بالمجموع أكثر من مئتي عمل أدبي. ومن هنا بدت له حتى موسكو البطريركية، ناهيك عن بطرسبورغ، جحيماً صاخباً وعابثاً.

فالخروج من ياسنايا بوليانا كان في الواقع، هروباً من روسيا! وقد كتب ليف تولستوي: «من دون بلدتي ياسنايا بوليانا يصعب عليّ تصور روسيا وموقفي منها. وربما، من دون ياسنايا بوليانا، سأرى بوضوح أكبر القوانين العامة الضرورية لوطني، لكنني لن أحبه بشغف».

كم كان من المفترض أن تتغير الحياة في ياسنايا بوليانا أو يتغير تولستوي نفسه، كي يبدو له البقاء في منزل أسرته «جحيماً»؟

عند زيارته لدير صحراء أوبتينا ووصوله إلى شاموردينو، قال لأخته، إنه سيكون سعيداً بالإقامة في أوبتينا وتحمل أقسى الأعباء، بشرط واحد هو عدم الذهاب إلى المعبد.

لقد بدت له حياة الرهبنة أكثر جاذبية من الحياة المنزلية. وكان هذا

العجوز البالغ من العمر اثنين وثمانين عاماً يجد الحياة في كوخ الفلاحين، أو في الدير، أو في فندق متواضع أكثر راحة، من الناحية النفسية، من الرفاهية بين جدران منزله.

منذ صيف عام 1909، على الأقل، كان يشعر بالراحة أكثر، عندما يحل ضيفاً مما هو في منزله. فعندما سافر إلى كوتشيتي، حيث تقيم ابنته الكبرى تاتيانا وصهره م. س. سوخوتين، كان يستريح نفسياً، ولم يكن قط يستحث الخطى للعودة إلى ياسنايا بوليانا، بل كان يؤجل عودته قدر الإمكان. وعندما حلّ ضيفاً على ف. غ. تشرتكوف في ميشيرسكوي في ضاحية موسكو في صيف 1910، لم يغادره تولستوي إلا على مضض، وعاد فقط، إثر البرقية المقلقة الثانية عن وضع صوفيا أندريفنا المرضي.

يقول سكرتير تولستوي فالنتين بولغاكوف في يومياته يوم 16 حزيران/ يونيو 1910 في ميشيرسكوي: «إن ليف نيقولايفتش، على ما يبدو، في وضع جيد جداً. فهو حيوي دوماً، يميل إلى الحديث. أعتقد أنه يستريح هنا بعد الهرج الدائم عنده في المنزل. كما أن البساطة النسبية للحياة عند أسرة تشرتكوف، كما يبدو لي، أكثر انسجاماً مع البنية النفسية لليف تولستوي من «الترف» الذي يكرهه، والأهم من ذلك، من العزلة الأرستقراطية الأكيدة، وإن كانت غير كاملة، لمنزل ياسنايا بوليانا».

كان فالنتين بولغاكوف، في ذلك الوقت، في مطلع شبابه، ومن أنصار تولستوي المتحمسين، بحيث يصعب عليه تقويم الوضع بموضوعية. ومع ذلك، فليس من قبيل الصدفة أن يضع كلمة «ترف» ضمن قوسين، ملمحاً بذلك إلى أن هذا «الترف» كان في تصور تولستوي وليس في الواقع. لم يكن هناك أي أثر للترف في ياسنايا بوليانا. لكن الأسطورة التي تزعم بظروف «الترف» التي عاش فيها تولستوي قبل مغادرته، لا تزال راسخة بثبات في الشعور الروسي. هذا في حين أن جيمس مايور عالم الاقتصاد السياسي الكندي، الذي وُلد ودرس في بريطانيا، وزار ياسنايا بوليانا في عامي 1899 و1910، كتب قائلاً: «إن مستوى المعيشة في ياسنايا بوليانا، علاوة على قِصر الفترات الزمنية، المميز لروسيا، بين الوجبات الغذائية، أدنى من المستوى الأعلى للأسرة المتوسطة الثروة في إنكلترا».

كما لم يكن هناك أي حديث عن «العزلة الأرستقراطية» للعزبة، التي كانت أقرب إلى المضافة المفتوحة. فأي متسول، أو سكّير أو مجنون، يمكنه الدخول إلى تولستوي ويحضر معه مشكلاته. لكن المدهش في الأمر، خلال جميع أوقات الحشود في ياسنايا بوليانا، لم يفكّر أي من هؤلاء الأشخاص بمحاولة اغتيال ليف نيقولايفتش أو إهانته، بطريقة أو بأخرى، أو الإساءة إليه جسدياً. وهذا على الرغم من أن تولستوي كان يتلقى العديد من الرسائل والبرقيات مع التهديدات، والطرود مع الحِبال (تلميح للشنق) وما شابه ذلك. لكن انفتاح تولستوي وسحر شخصيته كانا ينزعان أسلحة الزعران والإرهابيين المحتملين، بأمان أكثر من الشرطة.

فقط، خلال عمليات السطو والحرائق المتعمدة التي قام بها الفلاحون في الأعوام 1905–1908 توجهت صوفيا أندرييفنا إلى محافظ تولا بطلب تخصيص شرطة للحراسة في ياسنايا بوليانا. لكن حتى هذا التصرف أثار مقاومة قوية من جانب زوجها وابنتها الصغرى.

في كوتشيتي وميشيرسكوي كان تولستوي يستريح ليس من الأرستقراطية، بل على العكس، من الديمقراطية المفرطة للحياة في ياسنايا بوليانا في المرحلة الأخيرة، وكان الجاني هو تولستوي نفسه وتعاليمه التي حولت عقول الآلاف من الناس ووعيهم، فأخذ يحلم كثير منهم بالتحدث مباشرة مع المعلم نفسه. لكن عدداً أكبر من الناس، لم يكن قد قرأ كتاباً واحداً لتولستوي، سعى فقط بدافع الفضول، لإلقاء نظرة على هذا الإنسان الشهير الذي يمكن الوصول إليه. وآخرون أرادوا التباهي أمام عقولهم. وكان هناك من جاء يشكو من الحياة، وآخر جاء بقصد التسول، وطلب المال.

أثناء لقائها الشخصي مع ألكسندر الثالث، قالت عمة تولستوي ألكسندرا أندرييفنا تولستايا للإمبراطور: «عندنا في روسيا شخصان فقط يتمتعان بشعبية حقيقية: الكونت ليف تولستوي والأب يوحنا كرونشتادت». ضحك الإمبراطور من هذه المقارنة ووافقها على ذلك. لكن الأب الداعية يوحنا كرونشتادت، الذي يعدّ الآن من القديسين، كان ينشر دعوته في كاتدرائية أندريف الضخمة، أما اللقاءات الشخصية فكان يجريها في بيت للاجتماعات في كرونشتادت. لم يكن لدى تولستوي أي شيء من هذا، ولم

يكن بإمكانه أن يكون لديه أي شيء، بسبب قناعاته. لكنه لم يستطع أن يغلق على نفسه في صومعة، مثل كهنة دير صحراء أوبتينا، سامحاً للراهب الخفيّ بأن يحجز دوراً بين الزوار.

في 3 تموز/ يوليو 1909 كتب م. س. سوخوتين صهر تولستوي في ضيعته كوتشيتي: «يغادرنا اليوم حَمي الحبيب. وأنا أقول مؤكداً «الحبيب»، لأن وجوده هنا فعلاً ترك انطباعاً من الطراوة واللطافة، والسهولة الكبيرة للحياة المشتركة معه. ولولا حماتي، الغيورة بمناسبة ومن غير مناسبة، التي ترصع رسائلها لزوجها دوماً بالملاقط، لأنه وجد في كوتشيتي مكاناً للعيش أفضل من ياسنايا بوليانا، لبقي ليف نيقولايفيتش هنا فترة طويلة».

وكتبت تاتيانا سوخوتينا، ابنة تولستوي في يومياتها: «لقد رحل بابا في 3 تموز/ يوليو، أعتقد أنه شعر بالراحة عندنا: كان عندنا القليل من الزوّار، ولم يكن هناك من يتدخل في عمله الإبداعي، ولم يدفعه، ويملي عليه أوامره. كان حراً تماماً، وكان يشعر من حوله بالحب والحنان ورغبة الجميع في إرضائه».

وهاكم ما سجله ماكوفيتسكي عن يوم تولستوي في ياسنايا بوليانا في 26 تموز/ يوليو 1909: «زوّار. شاب متشرد حدّث ليف نيقولايفتش كيف أنه أشعل حريقاً عند الخوري، وضرب أيضاً شخصاً بالخنجر. إنه مهدد بالسجن والأشغال الشاقة. فهو يختبئ، ويتشرد. اليوم، ثمة الكثير من المشاة المتنزهين الفضوليين...».

ويكتب تولستوي في يومياته في الفترة الزمنية نفسها تقريباً: «إن اعتبار الإنسان لحياته وحدها هي الحياة هو الجنون بعينه. وفي أستابوفو قال عبارة أصبحت بمنزلة رسالة تولستوي الروحية قبيل موته: «أنصحكم أن تتذكروا شيئاً واحداً: ثمة أعداد غفيرة من الناس في العالم، وأنتم تنظرون إلى ليف تولستوي وحده».

ومع ذلك، من الضروري الاعتراف، بأن هذا «العدد الغفير من الناس» الذين كانوا يقدمون ويفدون إلى ياسنايا بوليانا في العقد الأول من القرن العشرين (1900) قد زادوا من تعقيد حياته وحياة القريبين منه.

بالطبع، كان من بين «العدد الغفير من الناس» أشخاص قريبون روحياً، وأشخاص غير عرضيين مثل الشاب ألكسي بيشكوف، الذي عُرف فيما بعد باسم مكسيم غوركي، وجاء سيراً على الأقدام في عام 1889 من محطة السكة الحديدية كروتايا غرازي - تساريتسينو، نيابة عن رفاقه، ليطلب من تولستوي الأرض والمال لتأسيس كومونة زراعية. وكان بين الحُجّاج إلى ياسنايا بوليانا باحثون روحيون منفردون، وطوائف دينية جادة، مضطهدة من قبل السلطات، ويائسة في بحثها عن معنى الحياة، وطلاب المدارس الرياضية، وطلاب، وعمال، وموظفون، ورجال صلبون لا يعاقرون الخمرة، يحترمون تولستوي لحبه للفلاحين.

وكانت هناك زيارات أخرى.

في 7 نيسان / أبريل. فتاة - معلمة لم تنه دراستها، لكنها ترغب بافتتاح مدرسة «خاصة» بها. المسألة بسيطة: عليها أن تنهي دراستها. علاوة على ذلك، هي بحاجة إلى المال، كي «تكون مفيدة للشعب». يتحدث ليف نيقولايفتش إليها عن شيء ما، «لكنها ليست بحاجة إلى هذا». إنها تسأله المال من أجل الطريق على الأقل، فرفض.

في 18 نيسان / أبريل. جاءه عقيد متقدم في السن صدره مغطى بالأوسمة والنياشين، أرثوذكسي، ملكي. يتنقل بين وحدات الجيش القيصري، ويعلم الجنود مبادئ القراءة والكتابة. تحدث معه ليف نيقولايفتش طويلاً. لدى خروجه من عند ليف نيقولايفتش، قال لابنته تاتيانا لفوفنا، إن لديه سراً، ولم يصرح به طويلاً. وأخيراً، حدثها أنه كتب قصائد شعرية ضد تولستوي لردته على العقيدة الأرثوذكسية وعلى الدولة الروسية. وقال: «وماذا علي الآن فعله بالقصائد؟ سأُضطر إلى إحراقها، وأنا طبعتها حديثاً ألفي نسخة».

في 19 نيسان / أبريل. وفدَ إلى ياسنايا بوليانا اثنان من اليابانيين.

وفي 30 نيسان / أبريل. حضر إيفانوف، ملازم متقاعد من سلاح المدفعية، أصبح متشرداً، ويساعد أحياناً في إعادة كتابة أعمال تولستوي مع أحد دعاة الثورة، حائك (عمره حوالي 55 سنة) فقد عقله. كان الحائك يخطب بكلمات أجنبية ساعة ونصف الساعة، مختلطة باللغة الروسية.

وكان ليف نيقولايفيتش يسمح له بتسجيل كلماته على الفونوغراف (جهاز التسجيل).

في 1 أيار/ مايو. تحدث ليف نيقولايفتش عن رجل أعمى من سفينوك، يأتي له أحياناً طلباً للمساعدة. يحرث الأرض مع صبي. ولديه ستة أطفال. فقر مدقع.

في 22 أيار/ مايو. جيلينسكي، طالب في جامعة موسكو. سافر إلى القوقاز سيراً على الأقدام. حضر من أجل الكتب. ليف نيقولايفتش تحدث معه. وفي المساء شجعه قائلاً: «أصيل». وحدّثه عن تاجر في يلتس، يسافر إلى موسكو على ظهور الخيل، احتقاراً منه للسكك الحديدية: «أنا لست ذَكَر الكلب كي أركض عند سماعي الصفارة».

في 18 أيار/ مايو. بعد الغداء، حضر فلاح شاب من منطقة تبعد 110 فيرستات (الفيرستا 1060 متراً – م) حاملاً معه أشعاراً عامية بلا وزن ولا قافية. وقال له ليف نيقولايفتش عن هذه الأشعار، إنه من الأفضل عدم كتابتها. فأجاب: «يمكنني أن أبدع في النثر أيضاً. وهل كان باستطاعة كولتسوف كتابة الشعر؟ لدي موهبة وإلهام».

في 29 أيار/ مايو. رجلان من أوسيتيا من قرية خريستيانسكايا في منطقة فلادي كافكاز، معجبان جداً بتولستوي ومتحمسان لأفكاره. لم يقرآ تولستوي إلا قليلاً، لكنهما يؤمنان به، كما يؤمنان بالإله.

في 12 حزيران/ يونيو. حضرت سيدتان شابتان. إحداهما ترجو العثور على عمل والثانية أحضرت معها مخطوطة قصة عن رجل مُقعد. الأولى بائسة، ضعيفة، لكنها تريد أن تكون مفيدة، بالمعنى المسيحي، أن تكون عاملة. والفتاة الأخرى عرجاء، من مقاطعة أورنبورغ، تحمل أسئلة عن معنى الحياة. كلتاهما تلفقان.

هذه عينة عشوائية اخترناها من يوميات ماكوفيتسكي للقاءات التي تمت في ربيع وصيف 1910 في ياسنايا بوليانا. ولكن، لا بد من الأخذ بعين الاعتبار، أن ماكوفيتسكي وتولستوي لم يمكثا دوما معاً طيلة الوقت. فقسم كبير من وقته، كان يصرفه على علاج الفلاحين في ياسنايا بوليانا والقرى المحيطة بها.

لو كان تولستوي هو تشيخوف فإن كل هذا الرتل المبرقش المتنوع من الشخصيات سيكون مفيداً له كأديب وكاتب. لكن تولستوي في أواخر أيام حياته توقف عملياً عن الإبداع الأدبي. وكرّس نفسه بالكامل للأفكار حول الله والموت. إنه مفكر وحيد بصورة رهيبة، يحتاج بادئ ذي بدء إلى السكينة والعزلة. وكل هذا النهر من البشر، الذي كان يتدفق عبر روحه مع «قمامة» حتمية لا مفر منها، لم يعد يدير عجلة إبداعه، و«القمامة» تبقى، وترسب عبئاً ثقيلاً على روحه. فهو لا يستطيع مساعدة هؤلاء الناس. وحقيقته الشخصية جداً والتي عانى من أجلها غير جلية بالنسبة لهم. وهم لم يفدوا إلى تولستوي من أجل الحقيقة. لقد ذهبوا إلى تولستوي. لكنه لم يكن معلّم اعتراف. لقد كان رجلاً شخصياً، يعاني من مشكلات منزلية معقدة، يفاقمها وضعه الصحي وانتظاره الموت.

يقول في يومياته بتاريخ 9 تموز/ يوليو 1908: «أعداد غفيرة لا تحصى من الناس، وكل هذا كان من الممكن أن يكون ساراً وبهيجاً، لو لم يسمم كل شيء الوعي بالجنون، والإثم، وقذارة الترف، والخدمة والفقر، وضغط العمل الذي لا يحتمل من حولنا. أعاني دون توقف، بألم من هذا، وأنا وحيد. لا يمكنني ألا أتمنى الموت...»

كُتبت هذه الكلمات قبل شهر ونصف الشهر من عيد ميلاده الثمانين. وقد استقبل عيد ميلاده في كرسي المقعد المتحرك بسبب تفاقم مرض ساقيه، ما خلّصه من التواصل المفرط مع الزوّار.

فمنذ فترة من الزمن بدأ يحب، أو على الأقل، يقدّر المرض، وعلى العكس، ينظر نظرة سلبية إلى الصحة. والمسألة ليست في أن المرض كان يقرّب الموت فقط، والموت أصبح، بالنسبة له، الحدث الرئيس في الحياة. فعندما يكون ضعيفاً، مريضاً، أو حتى طريح الفراش، كان يملك حقاً رسمياً بعدم مقابلة الناس، وعدم الرد على الرسائل (كان يصله يومياً ثلاثون، خمس وثلاثون رسالة)، مكلفاً ابنته ساشا وسكرتيره بالرد عليها. ولكن ما إن يزول الضعف، ويسترجع تولستوي صحته البدنية والنفسية النشيطة، حتى يهجم عليه الأشخاص الغامضون، المتسكعون، كما يهجم الذباب على العسل، الذين يعتبرون من حقهم «شحن» تولستوي بخطاياهم، وعواطفهم،

وشكوكهم، وقمامتهم الروحية المختلفة التي يستحي الإنسان المتحضر، رب العائلة، من عرضها «على الناس».

ورد في يوميات تولستوي بتاريخ 19 نيسان/ أبريل 1910: «البارحة زارني جاسوس، خدم في الشرطة وأطلق النار على الثوّار، جاء متوقعاً أن أتعاطف معه. وجاء آخر، أراد أن يتظاهر بوضوح، أنه يشتم الخوارنة. صعب جداً هذا، إنه من المستحيل، أقصد أنني لا أستطيع بصورة إنسانية، أي ربّانية، أن أساير كل واحد بحب وبصورة منطقية».

جوبيتر والثور

عندما يتحدث بولغاكوف عن «ديمقراطية» فيلّا تشرتكوف في ميشيرسكوي، على النقيض من «العزلة الأرستقراطية» لدارة ياسنايا بوليانا، هو لا يشير إلى واقعة مهمة جداً. فقد توجه تولستوي إلى تشرتكوف في 12 حزيران / يونيو 1910. وفي 13 حزيران / يونيو أرسل تشرتكوف إلى صحف موسكو «رسالة إلى هيئة التحرير»، حيث كتب أن «ليف نيقولايفتش لا يرغب بزيارة الأشخاص الغرباء هنا، الذين لديهم معه أمور محددة» وأن «على هؤلاء الأشخاص قبل السفر، أن يراسلوني حول الوقت الأنسب لليف نيقولايفتش لزيارتهم».

نُشرت الرسالة، وأثارت غضب صوفيا أندرييفنا، فكتبت لزوجها ليف نيقولايفتش من ياسنايا بوليانا: «قرأت اليوم إعلان تشرتكوف حول أن على الناس الراغبين برؤيتك طلب الإذن منه. لماذا؟ أنت تريد العودة في 24 من الشهر، وبإعلانه هذا سيجذب الزائرين».

«رسالة إلى هيئة التحرير» هذه من تشرتكوف «المنفذ الروحي لوصية» تولستوي، كما كان يدعو نفسه، مثيرة لفضول مزدوج. أولاً، إذا أراد تشرتكوف فعلاً تخليص تولستوي من عبء الزوار الملحّين في فيلّته في ميشيرسكوي، لما وجد وسيلة أسوأ من كتابة مثل هذه الرسالة. فقد حولت سيل الحجاج من ياسنايا بوليانا إلى ميشيرسكوي.

وثانياً، الرسالة أهانت من كرامة صوفيا أندرييفنا. فما يُسمح لجوبيتر لا

يُسمح للثور[1]. والثور، هنا هي زوجة تولستوي، التي لم تكن لتسمح لنفسها، في أي ظرف، بأن تنشر مثل هذا الإعلان، رغم أنها تملك حقاً أكبر بكثير. فدارة ياسنايا بوليانا تعود ملكيتها إليها رسمياً. وكانت مسؤولة عن النظام في الدارة، علاوة على هدوء وطمأنينة زوجها. وخلافاً لتشرتكوف، لم تكن من أنصار تعاليم تولستوي، ولم تكن تحب «الغامضين» - هكذا كانت تدعو أتباع تولستوي. لكنها لم تكن تجرؤ على التصريح علانية، بأن على زوار ياسنايا بوليانا أن يراسلوها مسبقاً، كي يحصلوا على التذاكر للقاء تولستوي.

كان على زوجة تولستوي أن تعرف مكانتها. وهاكم ما سجلته في يومياتها بتاريخ 13 أيلول/ سبتمبر 1908:

«حضر إلى ليف نيقولايفيتش فلاح حافي القدمين، أحمر الشعر، وتحادثا طويلاً عن الدين. أحضره تشرتكوف، وأثنى عليه كثيراً لأنه يؤثر تأثيراً طيباً على المحيطين به، رغم أنه فقير جداً. كنت أرغب بالاستماع إلى المحادثة، ولكن عندما بقيت في الغرفة، حيث يستقبل ليف نيقولايفتش زواره، كان ينظر إليّ بصمت مستفسراً، فأدركت رغبته، وكي لا أزعجه، كنت مضطرة للمغادرة».

بالطبع، كان هذا يسيء إليها، ويؤلمها. بعد ثلاثة أيام تكتب شاكية في يومياتها: «... إن ليف نيقولايفتش حكيم وسعيد. إنه كان دوماً يعمل باختياره وليس بالضرورة. أراد الكتابة فكتب، أراد الحراثة فحرث. فكر بخياطة الأحذية فخاطها بعناد وتصميم. فكر في تعليم الأطفال فعلّمهم. تعِب فتوقف. فماذا لو حاولت أنا العيش على هذا النحو؟ وماذا كان سيحدث للأولاد ولليف نيقولايفتش نفسه؟».

إن ثورة 1905-1908 لم تسبب موجة من الانتفاضات المسلحة في العاصمتين[2] فقط بل سببت أيضاً فوضى فلاّحية دعاها المربي ف. غ. كورولنكو بـ«أعمال السطو». وحدثت «أعمال السطو» هذه في ياسنايا

1- «ما يُسمح لجوبيتر لا يُسمح للثور» عبارة مأثورة للكاتب الروماني القديم بوبليي تيريتسي أفر، ترجع إلى الأسطورة الإغريقية القديمة حول تحول رب الأرباب جوبيتر إلى ثور واختطافه لأوروبا ابنة ملك فينيقيا. وتُقال العبارة لوضع حد للادعاءات غير المبررة، والإشارة إلى الوضع الاجتماعي لكل من الفريقين. - م.

2- موسكو وبطرسبورغ - م.

بوليانا، وإن كان على نطاق أضيق مما في العقارات الأخرى، بما فيها مقاطعة تولا، حيث أحرق الفلاحون بكل بساطة بيوت الملّاكين. في هذه الثورة عانى آل بيرس، وهي عائلة صوفيا أندريفنا: ففي 19 أيار/ مايو 1907 قتل الاشتراكيون الثوريون الإرهابيون (الإيسيري) أخاها الصغير، مهندس طرق المواصلات فياتشيسلاف بيرس. وقد عانت الكثير بسبب موت أخيها، لكن مصير عائلتها، عائلة تولستوي، كان يقلقها أكثر. لم تكن صوفيا أندريفنا من النساء الخائفات الخجولات، وكانت قد خضعت، منذ فترة قصيرة، لعملية جراحية خطيرة في منزلها بياسنايا بوليانا، وتصرفت خلالها بشجاعة كبيرة. لكنها كانت أيضا ملزمة بالاهتمام بالحماية الخارجية لياسنايا بوليانا، التي كان يقيم فيها زوجها المعروف في كل أنحاء روسيا، الذي كان لا يثير الحب والاحترام فحسب، بل يثير الكراهية أيضاً. ففي اليوبيل الثمانين لميلاد تولستوي عام 1908 لم تصله التهاني فحسب - كما تقول صوفيا أندريفنا في يومياتها - «بل هدايا وبرقيات ورسائل شريرة حاقدة. وعلى سبيل المثال، مع رسالة تحمل توقيع «أم» أُرسل صندوق فيه حبل وورقة كُتبت عليها العبارة التالية: «لا حاجة لتولستوي لأن ينتظر ويتمنى أن تعلّق الحكومة حبل مشنقته، يمكنه أن يعلّق بنفسه حبل مشنقته». على الأغلب، هذه الأم قُتل أطفالها بسبب الثورة أو الدعاية الثورية التي تنسبها الأم لتولستوي».

وبدأت الاضطرابات داخل ياسنايا بوليانا، التي كتب عنها ماكوفيتسكي في 5 أيلول/ سبتمبر 1907: «أضرب فلاحو ياسنايا بوليانا عدة أيام؛ كان خمسة - ستة يستفزون، وآخرون يطيعون. غادروا أماكن عملهم ولم يعودوا إليها، ولا يدفعون الإيجارات، ويُدخلون الأحصنة إلى الحقول، وليلاً يأتون مع عرباتهم لسرقة الخضار، أطلقوا النار ليلتين على الحرّاس (حقيقة؟)، فوضى كاملة... استدعت صوفيا أندريفنا الحرّاس، من أجل سحب المسدسات والبنادق منهم وتخويفهم... وامتثل ليف نيقولايفتش».

إنه يمتثل، لكنه لا يخفي انزعاجه وغضبه، من أن زوجته، ومن خلال حاكم تولا، نظمت حماية شُرَطية في ياسنايا بوليانا على شكل حارسين، ومن بين واجباتهما التحقق من جوازات سفر زوّار ياسنايا بوليانا.

وقد كتب تولستوي في يومياته في 15 أيلول، سبتمبر «كان هناك حديث

صعب مع صونيا» (المقصود زوجته صوفيا أندريفنا – م.)، ولم يكن هذا الحديث هو الأول. كان تولستوي غير راض قط عن أن الحرّاس يتعاملون بجلافة مع فلاحي وزوار ياسنايا بوليانا. وماذا يمكن الحديث عن الزوار، إذا كانوا قد أجابوا تولستوي عند رجائه بأن لا يفحصوا جوازات السفر بوقاحة، بأن «الكونتيسة ترغب بأن تكون محمية من الأشخاص المشبوهين». ومن الممكن فهم رجال الشرطة: فقد استدعتهم الكونتيسة وليس الكونت.

إن تولستوي غير راض، أما ابنته ساشا، ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً فهي بكل بساطة، ساخطة:

– وهل يحتاج بابا إلى حرّاس يحرسونه؟ كم هذا صعب عليه! لولا أبي، لغادرت البيت الآن!

يمكننا أن نفهم ساشا أيضاً... فهي شابة ومبدئية، وبكل إخلاص تشارك قناعات أبيها «اللاعنفية» التي يعرضها في هذه الأيام في يومياته:

«عمليات القتل والعنف تزداد وتتعاظم. فما العمل؟ كيف يمكن وقفها؟ يسجنونهم، ويرسلونهم إلى المنفى مع الأشغال الشاقة، ويعدمونهم. والفظائع لا تتناقص، بل العكس. ماذا نفعل؟ شيء واحد: أن يبذل كل واحد قواه كلها من أجل العيش حسب شريعة الله. هم سوف يضربون، ويسرقون، وأنا بيدين مرفوعتين إلى الأعلى، حسب أوامرهم، أتضرع إليهم أن يتوقفوا عن الحياة السيئة. «لن يطيعوني، وسوف يفعلون الشيء نفسه». فما العمل؟ لا شيء يمكنني فعله أكثر من ذلك».

لم يكن لديه شيء آخر يفعله. وبأفكاره التي ولّدها بالمعاناة، لم يبق لديه سوى رفض القبول بالعنف وعدم مقاومته. بهذه المناسبة، فكرة تولستوي «اللاعنف» كثيراً ما يفهمونها خطأً على أنها موافقة على العنف. وهذا خطأ وقف ضده تولستوي دوماً. رفض العنف مع عدم المقاومة. لأن أية مقاومة هي عنف، والعنف يولّد عنفاً جديداً.

لكن صوفيا أندريفنا ليست ليف تولستوي. فهي مالكة عقار كبير. قد لا تكون هي الفضلى، لكنها تشعر بالمسؤولية التي وضعها زوجها على كتفيها، وتعرف شيئاً واحداً مؤكداً، أنه من غير الممكن إطلاقاً السماح للفلاحين

بالتصرف على أهوائهم. وهي، ذاتها، لا تستطيع أن تفعل شيئاً ضدهم، تحتاج إلى حرّاس. ثمة قول مأثور لزوجة تولستوي، يجمع بين عجز المرأة الضعيفة وخبرة الإدارة الشخصية في الفترة المندفعة لما قبل الثورة، وهو: «الاقتصاد – هو الصراع من أجل الوجود مع الشعب».

وهي تعرف أيضاً أن الشخص من دون جواز سفر إما أن يكون مشرداً أو مجرماً هارباً، يمكن أن يتوقع المرء منهما كل شيء. وإذا ما حدث شيء لزوجها فهي أول من يُلام ولن يُغفر لها. لماذا لم تحمِ تولستوي العظيم؟ فقد كانت مؤتمنة على حياته! وليس حياته وحده، وكذلك حياة ساشا، وتانيا سوخوتينا، التي كانت تأتي إلى ياسنايا بوليانا مع ابنتها تانشكا، حفيدة ليف نيقولايفتش وصوفيا أندرييفنا – العجوزين اللذين كانا يحبانها إلى درجة الجنون.

وكانت حساسية المشكلة تكمن أيضاً في أن أنصار تولستوي الأكثر ثباتاً، ليس لديهم جوازات سفر، لأن وجود جواز سفر عند المرء يعني اعترافه بقوانين الدولة المبنية على العنف.

كل هذه المشاكل كانت تُحل من تلقاء نفسها عندما لا يكون ليف نيقولايفتش في منزله، بل في زيارة. وهنا، كان القلق على هدوئه وسكينته، على عدم إزعاجه من الزوار اللجوجين، أمراً طبيعياً. لكن الأمر لم يكن كذلك في ياسنايا بوليانا. فلا زوار الحوزة، ولا حتى الفلاحون كانوا يهتمون بأن مالك العقار والحوزة هو زوجة تولستوي وليس الكونت تولستوي. فكان يفد إليه أنصاره «التولستويون» الذين لا يحملون جوازات سفر، المنزعجون، يشتكون من سوء معاملة الحرّاس، ويأتي إليه فلاحو ياسنايا بوليانا الذين اعتقلوا لقطع أشجار الغابة أو سرقة الحقول. كان هذا الوضع مؤلماً له ولصوفيا أندرييفنا. لقد كانت هذه «عقدة غوردية» (عقدة العقد)، وكان على زوجة تولستوي حلها، شاءت أم أبت. وقد أساء هذا إلى شخصيتها وطباعها، كما زاد من حدة علاقاتها غير الودية أصلاً مع ابنتها الصغرى، وأحدث انقساماً في الأسرة بين أنصار الأم وأنصار الأب.

وقد كتب سيرغي لفوفيتش، الابن الأكبر لتولستوي، في كتابه «أحاديث

من الماضي»: «... والدتي لم يكن موقفها سلبياً من الملكية، بل العكس، كانت تتابع التفكير بأنها كلما كانت هي وأبناؤها أكثر ثراءً كان ذلك أفضل. وهي لم تكن زوجة فحسب، بل كانت أماً أيضاً، وتتميّز الأمهات بالحلم بالثروات الدنيوية لورثتهن».

ولكن كان ثمة ظرف دقيق، خفي آخر، كان يسمم السنوات الأخيرة من حياة تولستوي في ياسنايا بوليانا.

لماذا هرب الأب سيرغي؟

قصة «الأب سيرغي» واحد من أعمق مؤلفات تولستوي الشخصية. وقد كتب «الأب سيرغي» بفترات انقطاع طويلة، طيلة حوالي عشر سنين، مثلها مثل قصة «الحاج مراد». وكلتا القصتين نُشرتا بعد وفاة الكاتب، وعلى هذا الأساس، وإن كان شكلياً، يمكن اعتبارهما بمنزلة «وصيتي» تولستوي الروائيتين.

«الأب سيرغي» قصة عن المغادرة. وهي كذلك موضوعها الرئيس، والأكثر طرافة، أن معناها لم يتشكل مباشرة، دفعة واحدة، بل مع اكتمال معاناته وتجربته الروحية الخاصة، التي سجلها على الورق دون عجلة من أمره، علاوة على نشرها.

وقد رُوي موضوع «الأب سيرغي»، لأول مرة، في رسالة تولستوي لتشرتكوف في شهر شباط / فبراير 1890، حتى موضع قدوم السيدة العلمانية الجميلة ماكوفكينا إلى الأب سيرغي، بقصد قضاء الليلة في خلوته، حيث إنها راهنت على ذلك. وهذا يشكل ما يقرب ثلث مضمون قصة «الأب سيرغي».

ونحن مدينون لتشرتكوف، إلى حد كبير، في كتابة هذه القصة وإنجازها. فخشية منه من أن يبقى موضوع القصة معلّقاً وغير متجسد في عمل أدبي، ورغبة منه في اجتذاب تولستوي للعمل على هذا الموضوع، قام بنسخ الرسالة التي تلقاها من تولستوي، تاركاً بين السطور مسافات واسعة لمزيد من العمل، وأعاد له نسخة الرسالة مع الأصل. وقد فعل هذا أكثر من مرة، لتحفيز تولستوي على كتابة الأعمال الأدبية. وهذا يدحض الاعتقاد السائد

بأن تشرنكوف كان مهتماً بالجانب التعليمي التربوي من أنشطة تولستوي على حساب عبقريته الأدبية الروائية.

ولكن، وكما يحدث كثيراً مع تولستوي، فقد تجاوز معنى القصة موضوعها. لقد انتقلت بؤرة المعنى من موضوع قصة حول إغراء الأب سيرغي، الأمير كاساتسكي سابقاً، من قبل امرأتين، السيدة الجميلة ماكوفكينا وماريا ابنة التاجر، باتجاه البطلة الثالثة - باشينكا - التي يتوجه إليها سيرغي بعد مغادرته الخلوة. ومما لا شك فيه، أن الموضوع الرئيس، بالنسبة لتولستوي، أصبح في نهاية الأمر ليس القصة الدرامية المؤثرة، بل قصة سيرغي مع باشينكا التي تشغل من القصة بعض الصفحات الأخيرة.

إن الأب، الذي تمكن من التغلب على الشيطان ممثلاً في ماكوفكينا، برفع سبابة يده اليسرى، لم يصمد أمام إغراء أقل، و«يسقط» مغرماً بفتاة شبه معتوهة، لكنها ذات جسد أنثوي مغرٍ.

هذا التناقض بين الإغراءين: الإغراء اللطيف، المرهف؛ والإغراء الفظ، الوقح («- قال سيرغي: - من أنت يا ماريا؟ أنت شيطان. ولكن، لا بأس بك») - يشكل عنصر المغامرة، لكنه لا يشكل روح القصة.

فروح القصة ومعناها الرئيس ليسا في سبب هروب الأب سيرغي، بل يكمنان في السؤالين: لماذا، وممن هرب الأب سيرغي.

بعد الذي حدث له مع ماريا، لم يبق أمام الأب سيرغي من مخرج آخر سوى الفرار. لكنه كان قد خطط للمغادرة قبل ذلك بكثير، وما حدث مع ماريا كان مجرد ذريعة للهروب. ويمكن الافتراض أنّه لو لم تكن هناك ماريا، لاحتاج سيرغي إلى ذريعة أخرى للمغادرة، تاركاً تفسيراً ما لتصرفه. كي لا يُنظر إلى رحيله على أنه مرحلة جديدة من القداسة، بل شهادة على أنه إنسان آثم عادي.

«حتى إنه كان هناك وقت قرر فيه المغادرة، والاختباء. حتى إنه فكر بكل شيء، وكيف يجب فعله. وجهز لنفسه قميصاً فلاحياً، وبنطالاً، وقفطاناً، وقبعة. وشرح أنه بحاجة إلى هذا كي يعطيه للمحتاجين. وخبأ هذه الثياب عنده، مفكراً كيف سيلبسها، وسيقص شعره، ويغادر. أولاً، سوف يغادر

بالقطار، سيقطع ثلاثمائة فيرستا، ثم ينزل، ويسير بين القرى. كان يسأل جندياً عجوزاً، كيف يمشي، وكيف يقدمون الصدقة ويسمحون بالمنامة. وحدثه الجندي عن كيفية تقديم الصدقة والمنامة بالشكل الأفضل، وهذا ما كان يريد فعله الأب سيرغي. حتى إنه ارتدى ثيابه ذات ليلة، وأراد أن يذهب، لكنه لم يعرف ما هو الجيد: البقاء أم الهرب. بداية، كان متردداً، ثم ذهب التردد، واعتاد وخضع للشيطان، وحدها الملابس الفلاحية كانت تذكّره بأفكاره ومشاعره».

هذا الشيطان كان يأتيه قبل ماريا، وهروبه من خلوته كان هروباً من الشيطان. لكنه لم يستطع الهروب منه من دون مساعدة ماريا. هذا الشيطان هو المجد البشري الشخصي. فمجرد الهروب كان يعني تعزيز مجده، والتحالف مع الشيطان والخضوع له نهائياً. ولهذا السبب، أخّر الأب سيرغي هروبه، وكأنه كان ينتظر ظهور هذه الغبيّة، التي أغرته بصورة خفيفة، لأنه كان مستعداً لها منذ فترة طويلة.

«كل يوم كان يفد إليه عدد متزايد من الناس، ويبقى لديه وقت أقل ثم أقل للتنمية الروحية والصلاة. أحياناً، في اللحظات المشرقة، كان يفكر أنه أصبح مثل المكان، حيث كان في السابق ينبوع. «كان ينبوعاً ضعيفاً للماء الحي، الذي ينساب بهدوء مني، من خلالي... ولكن منذ ذلك الحين، منذ أن يبدأ الماء بالتجمع، يأتي العطاشى، ويتزاحمون، ويدفع أحدهم الآخر. وقد دفعوا كل شيء ولم يبق سوى القذارة...»»

عذاب الأب سيرغي يكمن في «أنه كان مصباحاً متقداً، وكلما شعر بهذا أكثر، شعر أكثر بضعف وذبول نور الحقيقة الإلهي المتقد فيه. «ما هو مقدار ما أفعله لله، وما أفعله للناس؟» – هذا هو السؤال الذي كان دوماً يعذبه، والذي لم يستطع قط، بل لم يجرؤ على تقديم جواب لنفسه عليه. كان يشعر في أعماق نفسه، بأن الشيطان قد استبدل جميع أعماله المكرسة لله بأعمال مكرسة للناس. لقد شعر بهذا، لأنه كان يصعب عليه في السابق أن تُقطع عليه عزلته، كما تصعب عليه الآن عزلته. كان يشعر بالعبء والتعب من الزوار، لكنه في أعماق نفسه، كان مسروراً بهم، مسروراً بالثناء الذي يحيطونه به».

وهذا الشيطان لا يمكن تجسيده في السينما. فليس لديه وجه معين، بل

لديه عديد من الوجوه. وهو بالنهاية، الحشد «الغوغاء». وقد تنبأ تولستوي في «الأب سيرغي» بأن هذا الشيطان سوف يعذبه في نهاية حياته، كما تنبأ بأن الخلاص الوحيد من هذا الشيطان هو الهروب إلى اللّامكان، إلى الغموض. فالهرب من الحشد غير ممكن إلا بالانحلال في الحشد. وإلا فإن الحشد سيلحق بك، عاجلاً أم آجلاً، ويطالبك بالإجابة عن أسئلته. ولن ينقذك منه أن تطرده وتقول له «اذهب بعيداً!». والموقف، في حالة تولستوي، كان ميئوساً منه، بشكل مزدوج، لأن نظرة تولستوي إلى العالم لم تتضمن مفهوم بوشكين الواضح لـ «الغوغاء».

كتب تولستوي في يومياته بتاريخ 13 شباط / فبراير 1907: «احكمْ على الآخرين كما تحكم على نفسك. فهم مثلك أنت. ولهذا، كن، في أعمالهم السيئة، متساهلاً، كما كنت وتكون مع أعمالك نفسك. وكذلك في آثامك وخطاياك، تأمّلْ بتوبتهم وصلاحهم».

إنها فكرة مسيحية عميقة، ولكن في حياة ياسنايا بوليانا الواقعية كان من المستحيل عليه أن يماثل نفسه يومياً بالعديد من الناس الذين كانوا يكتبون ويفدون إلى ليف نيقولايفتش، وهم على ثقة تامة بأنهم الوحيدون الذين يعيش من أجلهم على هذه الأرض. كانت الغالبية العظمى من الرسائل والطلبات الشفهية طلبات مالية. عبثاً نشر تولستوي في الصحف رسائله، ذاكراً أنه تخلى عن ملكيته وعن حقوق النشر لمؤلفاته. فهذا أدى فقط إلى إثارة السائلين وطالبي العون، وجعلهم يظنون أن الكونت تولستوي يمكر بهم.

والفئة الثانية، من حيث الحجم، من الرسائل والنداءات كانت «دفاعية»: هؤلاء الناس حاولوا إما إعادة تولستوي إلى حظيرة الأرثوذكسية والدولة، وإما بالإشارة إلى أخطائه وتناقضاته، توجيهه إلى الطريق «التولستوي» الحقيقي، كما كانوا يفهمونه.

والفئة الثالثة الأصغر فهي لأناس كتبوا ووفدوا إلى ليف نيقولايفتش، صادقين، من أجل مسائل جادة عن الحياة والله. وقد دعا هذه الرسائل والنداءات ببساطة بأنها «جيدة». حتى إنه نسب إليها تلك التي لم تحوِ أفكاراً جادة، بل اقتصرت على رغبة صادقة بالحديث، والتعبير عما في

النفس، أو حتى التذكير بأنفسهم دون أي فكرة مضمرة، مثل بوبشينسكي ودوبشينسكي، في قصة الكاتب الروسي غوغول «المفتش» اللذين طلبا من خليستاكوف أن يذكِّر بنفسه أمام صاحب السيادة. وقد نسب تولستوي إلى الرسائل «الجيدة»، على سبيل المثال، هذه:

«باسم الآب والابن والروح القدس، آمين. أجرؤ على اللجوء إلى رحمة ربي، كي يلهمني الرب، أنا الخاطئ، بكتابة هذه الرسالة إلى العديد من الشعوب التي تحترمك على الأرض الروسية، وحتى التي سمعت بك في الخارج، إن اسمك الكبير، وأنا، الرجل الخاطئ، الصغير كالحشرة، أود الزحف بهذه الرسالة نحو اسمك، ليف نيقولايفتش السيد تولستوي».

كان تولستوي يردّ دوماً على مثل هذه الرسائل البسيطة. لكن آخرين كانوا يعذّبونه. كانوا يكتبون، ويأتون إلى تولستوي، بقناعات مقولبة، جامدة إلى الأبد، بصرف النظر عن كونها مؤيدة أو معارضة لآراء تولستوي. لقد كان هؤلاء مغتصبين، متعصبين روحيين، وهنا، ومع مبدأ اللاعنف الذي يؤمن به تولستوي، كان الأمر صعباً عليه.

يتحدث فالنتين بولغاكوف عن حلم لتولستوي في شباط / فبراير 1910 فيقول: «حلُم تولستوي أنه أخذ وتداً حديدياً من مكان ما، وتوجه باتجاه ما. وها هو يرى من خلفه رجلاً يسرق، ويفتري عليه لآخرين: «انظروا، تولستوي قادم! كم من الضرر ألحقه بالجميع، هذا المرتد!» عندها التفت إليه ليف نيقولايفتش وقتل هذا الرجل بالوتد الحديدي. لكنه، بعد دقيقة، يبدو أنه انبعث، لأنه حرّك شفتيه وقال شيئاً ما».

كلا، ليس بسبب التناقضات العائلية والسعي إلى البساطة، فقط، غادر تولستوي ياسنايا بوليانا. فمن بين دوافع المغادرة أو الهروب كان شيطان المجد الدنيوي، وحب – أو كراهية الناس الشديدَيْن له، وهذا ما كان يعاني منه، ويحلم بالتخلص منه، والتحول إلى رجل عجوز عادي. في قصة «الأب سيرغي» التي أنجزها في عام 1898، قبل أكثر من عشر سنوات من اختفائه من ياسنايا بوليانا، فكّر، منذ النظرة الأولى، بصيغة لهذا الاختفاء، أصيلة للغاية، ومجربة فعلاً خلال قرون من «الجذْبة». فمن أجل الاختفاء، دون

الإكثار من مجدك الأرضي الدنيوي، عليك أن ترتكب فعلة شنيعة ما، يمكنها أن تطمس عظمتك الماضية، وقداستك الكاذبة.

للأسف أو لحسن الحظ، كان هذا النموذج أيضاً مستحيلاً، بالنسبة لتولستوي، مثل تقليد الانتحار («الجثة الحية») واستبدال جسده في التابوت («مذكرات العجوز فيودور كوزميتش بعد موته»). لم يكن هناك نماذج جاهزة لرحيل تولستوي.

كم كان الأمر جيداً «فقد مرت ثمانية أشهر على كاساتسكي، وفي الشهر التاسع أمسكوا به في مدينة المقاطعة، وأمضى ليلته في الملجأ، مع المتشردين، وباعتباره لا يحمل جواز سفر أخذوه إلى الوحدة. عندما سئل عن تذكرته وعمّن هو، كان يجيب أنه ليس لديه تذكرة، وأنه من عباد الله. فنسبوه إلى المتشردين، وحاكموه ونفوه إلى سيبيريا. فاستقر في قطعة أرض صغيرة منحه إياها رجل غني، وهو يقيم هناك الآن. إنه يعمل مع الملّاك في الحقل، ويعلّم الأطفال، ويساعد المرضى».

آثم رغماً عنه

ولكن، كان هناك وقت لم يكن فيه تولستوي يفكر بمغادرة ياسنايا بوليانا فحسب، بل كان ينظر أيضاً إلى أي سفر خارجها كواجب لا يبعث على السرور، كانقطاع مزعج في مسار حياته الطبيعية. وكان هناك وقت، على العكس، عندما كان يغادر موسكو إلى ياسنايا بوليانا سيراً على الأقدام، كأنه يحج إلى بلدته، كما يحج إلى الثالوث المقدس – دير سرجيوس، ودير صحاري أوبتينا، ودير لافرا في كييف.

في عام 1847، عندما تيتّم باكراً الإخوة تولستوي، وقاموا باقتسام ميراث الوالدين، حصل ليف، باعتباره الأخ الأصغر على ضيعة ياسنايا بوليانا. كان سعيداً بصورة لا تصدّق... ومن المستحيل على المرء أن يتصور ما حدث في نفس شاب في الثامنة عشرة من عمره، عندما أصبح مالك عقار عائلي ترتبط به الذكريات الأكثر نقاء وقداسة.

«الطفولة فترة سعيدة، سعيدة، لا يمكن أن تعود! وكيف لا أحبها، ولا

أعتز بذكرياتها؟ فهذه الذكريات تنعش نفسي، وتسمو بها وتشكل بالنسبة لي مصدراً لأفضل المتع...

بعد الصلاة، أغلّف نفسي بالبطانية، وفي نفسي شعور بالراحة، والنور، والضياء، والفرح؛ وتراودني أحلام تعقبها أحلام أخرى - حول ماذا؟ إنها أحلام بعيدة المنال، لكنها مفعمة بالحب النقي، والآمال بالسعادة النقية الطاهرة. أتذكر، أحياناً، كارل إيفانوفيتش ومصيره الأليم - فهو الشخص الوحيد البائس الذي عرفته، وأشعر بكثير من الأسى لأجله، وبالحب نحوه، بحيث تذرف عيناي الدموع، وأفكر في نفسي: امنحه السعادة يا رب، وأعطني يا الله الفرصة لمساعدته، فأنا مستعد للتبرع بكل شيء من أجله. ثم آخذ لعبة الخزف المفضلة لدي - أرنباً أو كلباً - وأدفنها في زاوية وسادة الريش وأستلطف كم هي تشعر بالراحة والدفء هناك. ثم أصلي كي يمنح الله السعادة للجميع، كي يكونوا جميعاً راضين، وكي يكون الطقس غداً جميلاً من أجل النزهة، وأنقلب إلى الجانب الآخر، فتنقلب أفكاري وأحلامي وتختلط، وأغفو بهدوء وسكينة، ووجهي مبتل بالدموع.

فهل تعود يوماً ما تلك النضارة، واللامبالاة، والحاجة إلى الحب، وقوة الإيمان التي كانت لدينا في الطفولة؟ وأي وقت يمكن أن يكون أفضل من ذلك الوقت حيث كانت الفضيلتان الرائعتان - المرح البريء والحاجة القصوى إلى الحب - دافعي الحياة الوحيدين؟

أين تلك الصلوات الحارة. أين الهدية الأفضل - دموع الحنان الطاهرة تلك؟ حطّ الملاك - المعزي ومسح بابتسامة تلك الدموع واستدعى الأحلام الحلوة لخيال الطفولة البريء.

هل من المعقول أن الحياة تركت تلك الآثار القاسية في قلبي، بحيث غادرتني إلى الأبد هذه الدموع والمسرات؟ أمعقول أنه لم يبق منها سوى الذكريات؟»

أسطر مؤثرة من عمل تولستوي الأول المنجز - قصة «طفولة»! وهي تعطي فكرة ليس عمّا بدأ به رحلة حياته فقط، بل كذلك كيف كان يحلم أيضاً بإنجازها. وفيها ينعكس في الواقع، التوجه الروحي كله لحياة تولستوي.

الحياة هي السعادة. وأعلى درجات السعادة تتحقق بالإيمان بالله ومحبة الناس جميعاً. حتى إن الإيمان والمحبة ليسا فضيلتين. إنهما حاجة النفس الأكثر إلحاحاً، وإن صح التعبير، هما حاجة أنانية. في الطفولة، إذا كانت الطفولة جميلة، تتم تلبية هذه الحاجة بصورة تلقائية. ومع النمو والتقدم في السن، تُخمد حاجاتُ الجسد الأنانية حاجاتِ النفس الرئيسة – التعطش إلى الإيمان والحب – وتحل محلها. ولكن كلما لبّى الإنسان حاجات الجسد أكثر، كان أكثر تعاسة. وكلما سار أكثر في تلبية حاجات الجسد الأنانية، ابتعد أكثر عن ينابيع السعادة.

إن العودة إلى الينابيع والمصادر تتطلب بالفعل إجهاداً روحياً هائلاً، وعملاً صعباً دقيقاً على الذات، وكل هذا من أجل اكتساب ما كان يعطى مجاناً، وبصورة تلقائية، في الطفولة.

ها هي ذي بصورة مكثفة فلسفة تولستوي الروحية كلها، التي حددت ممارسته الروحية. لكن المفارقة كانت تكمن في أن النتيجة الروحية المطلوبة بسيطة للغاية في حين أن الممارسة الروحية كانت في غاية الصعوبة. وقد كتب تولستوي: «قضية الحياة، والغرض منها هما الفرح، إفرحْ بالسماء، بالشمس، بالنجوم، بالعشب، بالأشجار، بالحيوانات، بالناس. ولاحظ كي لا يتعكر هذا الفرح بأي شيء. وإذا ما تعكر الفرح، فهذا يعني أنك أخطأت في مكان ما، ابحث عن هذا الخطأ، وصححه». «كل شيء من المحرمات وكل شيء الآن» – كان ليف نيقولايفتش يحب تكرار قول الفيلسوف الريفي العفوي فاسيلي كيريلوفتش سوتايف. ولكن أي عمل جبار يجب على الذات القيام به لبلوغ هذه الحالة! إن يوميات تولستوي كلها، بدءاً من عام 1847 وحتى وفاته، مكرسة للوقائع المستمرة لهذا العمل الشاق.

كان هذا شبيهاً بمحاولة العودة إلى الجنة. على الأصح، العودة إلى حالة النعيم الروحي، الموصوفة في «طفولة». أول ذكر لعمله على قصة «طفولة» جاء في كانون الثاني/ يناير 1851؛ وقد أنجز هذه القصة في صيف 1862. بدأ تولستوي بكتابة يومياته في شهر آذار/ مارس عام 1847 في مستوصف جامعة قازان، حيث تعالج من مرض *السيلان* الذي أُصيب به «مما يصابون به عادة». وهكذا فإن المدوّنة الأولى في اليوميات تثبت مدى بعد تولستوي

عن حالة «النعيم» الروحي الطفولي. فالقذارة البدنية المعيبة هي مجرد مظهر خارجي لنخر رهيب في النفس، لكنه في الوقت نفسه، إشارة إلى أن عليه، وقبل فوات الأوان، البدء بالعمل على الذات. وسوف يكرس لهذا العمل الرئيس حياته كلها، التي سيشير إلى هدفها وغرضها في قصته «طفولة».

كانت الحاجة إلى الحب تعيش دوماً في تولستوي. ولكن سرعان ما فقد الإيمان والبراءة قوتهما بعد أن غادر جنة الأطفال، وبلدته ياسنايا بوليانا. يقول تولستوي في «الاعترافات» في نهاية السبعينيات: «لقد تعمدت وتربيت في العقيدة المسيحية الأرثوذكسية، وعلّموني إياها منذ الطفولة، وطوال فترة مراهقتي وشبابي. ولكن عندما غادرت، وأنا في الثامنة عشرة من العمر، الجامعة منذ السنة الثانية، لم أعد أؤمن بكل ما تعلمته...

كنت أتمنى من أعماق نفسي أن أكون صالحاً، لكنني كنت شاباً، وكانت لدي عواطف، وكنت وحيداً تماماً، عندما كنت أبحث عن الخير. في كل مرة كنت أحاول فيها التعبير عن مكونات رغباتي الروحية: عن أني أريد أن أكون جيداً من الناحية الأخلاقية، كنت ألقى الازدراء والسخرية؛ وبمجرد أن أتجاوب مع المشاعر الدنيئة كانوا يمدحونني ويشجعونني. الطموح، حب السلطة، الأنانية، الشهوانية، الكبرياء، الحقد، الانتقام – كل هذا كان موضع احترام. وباستسلامي لهذه العواطف، أصبحت شبيهاً بالكبار، وشعرت بأنهم راضون عني».

لقد كُتبت هذه الأسطر عندما كان وعي تولستوي يبدِّل أقطابه وتوجهاته: فكل ما كان يعدّه أبيض صار أسود، وبالعكس. وفي الواقع، لم يكن تولستوي وحيداً إلى هذه الدرجة في شبابه. كان لديه ثلاثة إخوة رائعين يكبرونه: نيقولاي، وسيرغي، ودميتري تولستوي، تخرجوا في جامعة قازان نفسها، التي درس فيها. ولديه شقيقته الصغيرة الحبيبة ماريا. ولديه عمة وخالة: بيلاغيا إيليتشنايا يوشكوفا وتاتيانا ألكسندروفنا يرغولسكايا. والأخيرة حلّت للأولاد الصغار دميتري وماشا وليف محل أمهم في ياسنايا بوليانا. أما بيلاغيا إيليتشنايا فكانت تستقبل الإخوة تولستوي في قازان.

إن شعور الشاب ليف نيقولايفتش بالوحدة يرجع على الأغلب، إلى أنه، على الرغم من «استسلامه للعواطف» بشكل كامل، فإنه لم يكن يرغب قط

أن يصبح «شبيهاً بالكبار». ومع قبوله بالقواعد الخارجية لألعاب الكبار، بقي «طفلاً في داخله». وبالطبع، ليس من قبيل المصادفة أن العمل الأول الذي اشتهر به كان اسمه «طفولة».

إن يوميات تولستوي في مرحلة بداية العمل على «طفولة» يرسم، حقيقة، حالة نفسية محبطة. وهي النقيض الكامل لمزاج «الجنة» الذي يظهر في «طفولة». وقد يتشكل انطباع، لدى القارئ غير المطلع، أن كاتب هذا العمل ليس شاباً سليماً معافى مزدهراً، سرعان ما سيذهب متطوعاً إلى القوقاز وسوف يشارك في العمليات القتالية ضد الشيشان، بل شاب مدلل «منحط».

7 آذار/ مارس 1851: «... نقص في الطاقة».

9 آذار/ مارس: «... نقص في الطاقة».

13-14 آذار/ مارس «... قليل من الكرامة... شراهة... كسل... خداع للذات... كذب...».

16 آذار/ مارس: «كسل... جبن... إهمال... نقص في الصلابة...»

3 نيسان / أبريل: «غرور... خداع الذات... ضعيف... ذابل... غير مرتب...».

لكن هذا انطباع مضلل. فالنظرة الثاقبة التي لا ترحم، والالتزام الدقيق بالمواعيد التي كان يسجل فيها تولستوي في اليوميات أدنى مظاهر ضعف الإرادة والضعف النفسي يدلان على العكس. ومنذ بداية التدوين في اليوميات بدأ عمله الثابت المنتظم على الذات، وهو العمل الذي أصبحت نتيجته ظاهرة تولستوي الناضج المتقدم في السن. الظاهرة التي - نذكّر - كتب عنها البروفيسور ف. ف. سنيغيريف: «إن من كان يتطلع إلى حركاته، وهيئته، واستدارة رأسه، ومشيته فإنه كان يرى بوضوح دوماً وعيه وإدراكه لحركاته، أي أن كل حركة كان يصوغها ويطورها، ويعالجها، ويدركها لتعبر عن فكرة...»

وقد قارن تولستوي هذا العمل بتدريب الرياضي: «نعم، مثل الرياضي، الذي يفرح كل يوم عندما يرفع وزناً أثقل فأثقل، متأملاً خلال ذلك عضلاته البيضاء المفتولة التي تكبر وتقوى باستمرار، هكذا تماماً يمكنك إذا ما

كرست حياتك لهذا، وبدأت العمل على نفسك، وتفرح كيف ترتقي كل يوم أكثر وأكثر، وتحمل اليوم أعباء أكثر من الأمس، وقاومت الإغراء أفضل» (اليوميات. 9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1906).

كان لدى ليف نيقولايفتش ما يكفي من القوى النفسية والجسدية. ولكن لم يعد هناك ذلك الإيمان الحقيقي، والحب، والشعور البريء بالسعادة المستمرة من التواصل مع الله، والعالم، والناس. ولم يبق سوى الذكريات التي كان يسترجعها بصورة شاعرية في قصته «طفولة». أما الواقع، فكان شيئاً آخر تماماً.

كتب في يومياته في القوقاز: «عندما أستيقظ، ينتابني شعور كأنني كلب جبان يقف أمام سيّده عندما يكون مذنباً...»

وفي الفترة الفاصلة بين استلامه حقوق مالك ياسنايا بوليانا والهروب (نعم، نعم الهروب) إلى القوقاز، كان تولستوي يمارس نمط حياة عادياً لنبيل شاب غني أعزب في ذلك الوقت. وهذا يعني شرب النبيذ، اللعب بالورق، والغجر، والبغايا (سوف نسمي الأشياء بأسمائها).

«لم أستطع أن أقاوم، وأعطيت إشارة لكائن وردي بدا لي من بعيد جميلاً جداً، وأبقيت الباب موارباً. – دخلتْ. لا يمكنني النظر إليها، أشعر بالقرف، والاشمئزاز، بل الكراهية، إنني بسببها أخالف القواعد»، – كتب تولستوي في يومياته بتاريخ 18 نيسان/ أبريل 1851.

فما هي هذه القواعد؟ تلك هي: «وفقاً لقانون الدين، يُمنع امتلاك النساء» (المدونة في 24 كانون الأول/ ديسمبر 1850).

إن من لديه فضول مفرط للبحث في يوميات تولستوي عن أدلة على نمط حياة فاسد مزعوم لا يدرك جيداً نمط حياة النبلاء في ذلك العصر. وهذا يرجع إلى حد كبير، إلى تولستوي بفضل روايتيه «الحرب والسلام» و«آنا كارنينا»، وكذلك إلى تصويرهما سينمائياً. يبدو لنا النبيل المحلي الريفي في شخصية كونستانتين ليفين، والعاهر المديني في شخصية اللطيف ستيف أبولنسكي. لكن تولستوي كان يعرف صوراً وشخصيات أخرى كثيرة لم يرغب بوصفها. وعلى سبيل المثال، كان يعرف جيداً، حياة ابن عمه البعيد وزوج شقيقته فالريان بتروفيتش تولستوي. فقد كتبت عديلة ليف نيقولايفتش تاتيانا

كوزمينسكايا في عام 1924 للناقد الأدبي م. آ. تسيافلوفسكي عن فالريان تولستوي: «كان زوجها (زوج ماريا نيقولايفنا - المؤلف) يستحيل القبول به. فقد كان يخونها حتى مع الممرضات المنزليات، والخادمات وغيرهن. وقد تم العثور في العلية بمنزلهم في بوكروفسكي على هياكل عظمية لطفل أو طفلين حديثي الولادة».

إن يوميات تولستوي الباكرة تترك فعلاً، انطباعاً بشيء من انعدام النقاء النفسي، بل الجسدي غير المريح. وهذا يحدث لأن الإنسان الذي كتب هذه اليوميات كان لديه بالذات فكرة واضحة عن النقاء، الذي عبر عنه في قصة «طفولة». فالشاب تولستوي، كما يظهر من صفحات يومياته، كان غير موائم للغاية، من وجهة نظر جمالية، لنموذج الآثم التائب بشكل مستمر. ومن هنا جاءت صورة الكلب المذنب أمام سيده، وعلينا أن نفهم هنا أن المقصود بالسيد، طبعاً، هو الله.

كتب تولستوي في *7 آذار/ مارس 1851*: «بقيت مستلقياً ولم أستيقظ لفترة طويلة. زويت وصعّرت خدي، وخادعت نفسي بطريقة ما. كنت أقرأ الروايات عندما كان هناك عمل آخر؛ وكنت أخاطب نفسي: يجب أن أثمل من القهوة، وكأنه لا يمكن فعل أي شيء عندما أشرب القهوة».

كتب في *3 تموز/ يوليو 1851*: «انجررت إلى اللعب وخسرت نقودي 200 روبل ونقود نيقولاي 150، واستدنت 500، مجموع خسارتي 850. والآن أتحفظ وأعيش بوعي. سافرت إلى تشرفلونايا، ثملت، ونمت مع امرأة. كل هذا سيئ للغاية، ويعذبني... البارحة أيضاً رغبت. حسناً أنها رفضت. رجس».

في *26 آب/ أغسطس 1851*: «منذ الصباح أكتب رواية، وأمارس الفروسية، وأتعلم اللغة التترية، وأتنزه مع الفتيات».

أحياناً نادرة يعود إليه الشعور بحالة «النعيم»، كما هو الحال في القوقاز، في قرية يورت القديمة:

«بالأمس، لم أنم طوال الليل تقريباً، وبعد أن دوّنت اليوميات، بدأت أصلي لله. إنه من المستحيل التعبير عن حلاوة الشعور الذي أحسست به

أثناء الصلاة. وقرأت الصلوات التي أقرأها عادة: الأب، أم الله، الثالوث، أبواب الرحمة، نداء إلى الملاك الحارس، - وبعد ذلك بقيت في الصلاة. إذا ما عرّفوا الصلاة بالرجاء والشكر فأنا لم أصلِّ. كنت أتمنى شيئاً ما سامياً وصالحاً، ولكن ما هو لا أستطيع أن أعبر، رغم أنني كنت أدرك بوضوح أنني أتمنى. أردت أن أتماهى مع كائن شمولي. طلبت منه أن يغفر جرائمي؛ لا، لم أطلب هذا، لأنني شعرت بأنه إذا ما أعطاني هذه اللحظة السعيدة، فإنه قد غفر لي. لقد طلبت وفي الوقت نفسه، شعرت بأنه ليس لدي ما أطلبه، وأنه لا يمكنني، ولا أعرف كيف أطلب. لقد شكرت، نعم ولكن ليس بالكلمات وليس بالأفكار. لقد ربطت كل شيء في شعور واحد: الدعاء والشكر. واختفى تماماً الشعور بالخوف. لا يمكنني فصل أي من مشاعر الإيمان، والأمل، والحب عن الشعور العام. لا، هذا هو الشعور الذي عشته أنا بالأمس – إنه محبة الله. المحبة السامية التي تجمع في طياتها كل ما هو صالح، وتنفي كل ما هو طالح...»

يشير تولستوي بعد ذلك بتراخ: «أمضيت الصباح بشكل جيد، تكاسلت قليلاً، كذبت، ولكن بلا خطيئة». ولكن بعد بضعة أيام، يعترف: «سافرت إلى تشرفلونايا، ثملت، ونمت مع امرأة... رجس...»

ويضع لنفسه استنتاجاً مخيباً للآمال: «النعيم الأبدي غير ممكن *هنا*. الآلام ضرورية. لماذا؟ لا أعرف».

الكونت المغادر

تم تقسيم التركة بين الإخوة تولستوي في 11 نيسان / أبريل عام 1847، وفي اليوم التالي قدّم تولستوي طلب فصله من جامعة قازان، وفي 1 أيار/ مايو يسافر إلى ضيعته ياسنايا بوليانا. ومنذ ذلك الوقت لم تعد ياسنايا بوليانا بالنسبة له عزبة أسرته، حيث ولِد وأمضى طفولته، ولا مجرد ملكية شخصية له، بل تصبح تلك الأرض الموعودة التي سوف يعود إليها، في كل مرة، بعد اجتيازه المرحلة التالية من الشك والإغراءات. وفي كل مرة، سوف يركض إلى ياسنايا بوليانا، بفارغ الصبر، طارحاً جانباً، على طريقة الأطفال،

كل شيء في العالم: الجامعة، والجيش، والحياة الاجتماعية، والحلقات الأدبية، وحتى عائلته الكبيرة، عندما يستقر في موسكو.

إلى صاحب السعادة السيد رئيس جامعة
قازان الإمبراطورية
مستشار الدولة الفعلي والفارس
إيفان ميخائيلوفيتش سيميونوف
من طالب السنة الثانية في كلية الحقوق
الكونت ليف نيقولايفتش تولستوي

عريضة

لظروف صحية ومنزلية، ولعدم رغبتي بمواصلة دراستي العلمية في الجامعة، أرجو بتواضع من سيادتكم إصدار الأمر منكم بفصلي من عداد الطلاب وتسليمي جميع وثائقي.

أبصم بيدي على هذه العريضة
الطالب الكونت ليف تولستوي
12 نيسان / أبريل عام 1847

قبل مغادرة تولستوي للجامعة تعرّض لعقوبة إدارية: خلية عقاب لتغيبه عن محاضرات مادة التاريخ. ومنذ هذه اللحظة، بدأ يستسخف التاريخ، باعتباره علماً، معتبراً إياه مجموعة من النكات السخيفة عن أشخاص لا أخلاقيين، اعتبروهم لسبب ما شخصيات عظيمة بل وحتى قديسين. وأثناء جلوسه في زنزانة العقاب مع الطالب نازاريف، سخر بصوت عال من علم التاريخ قائلاً:

– التاريخ – ليس شيئاً آخر سوى مجموعة من الخرافات والأشياء الصغيرة العقيمة، المبخرة بكتلة كبيرة من الأرقام غير الضرورية والأسماء الشخصية. موت إيغور، الثعبان الذي لدغ أوليغ، – ما هذا، أليست حكايات خرافية، ومن يحتاج إلى معرفة أن الزواج الثاني ليوحنا من ابنة تيمريوك

تمّ في 21 آب/ أغسطس عام 1563، وأن زواجه الرابع من آنّا ألكسيفنا كولتوفسكايا تمّ عام 1572، ومع ذلك يطالبونني بأن أحفظ كل هذا عن ظهر قلب، وإذا لم أعرف يضعون لي علامة الرسوب.

ومن الأمور ذات الدلالة أن هذا الخطاب الاتهامي، المقتبس من مذكرات نازاريف، وأكده تولستوي لكاتب سيرته بريوكوف، قد أُلقي في زنزانة العقاب. واعتباراً من هذه المرحلة، سوف يفقد تولستوي أعصابه في كل مرة، ويصل إلى حالة الهيجان حرفياً، عندما يتعلق الأمر بأدنى ملامح العقاب الإداري لتقييد حريته الشخصية.

هنا، في زنزانة العقاب، يوبخ تولستوي العلْم الجامعي كله:

– ماذا سنحمل معنا من الجامعة؟ فكِّروا وأجيبوا بصدق. ماذا سنأخذ من هذا الحرم، عند عودتنا إلى منازلنا، إلى القرية. وإلى أي شيء سنكون نافعين، ومن سيحتاجنا؟

ربيع عام 1847 – مرحلة تحول في حياة تولستوي. يبدأ بتدوين يومياته، يصبح سيد ياسنايا بوليانا. لكن الأهم – هذه هي التجربة الأولى لهروبه. وبالهروب بدأ رحلته الواعية في الحياة، وبالهروب يختتمها.

يقول مؤرخ القانون الروسي ن. ب. زاغورسكين في مذكراته: «كان ليف نيقولايفتش في عجلة من أمره لمغادرة قازان، ولم ينتظر حتى انتهاء امتحانات التخرج لأخويه سيرغي ودميتري. حلّ يوم مغادرة ليف نيقولايفتش إلى موسكو، وعبرها، كان عليه أن يسافر إلى ياسنايا بوليانا. باتجاه شقة الإخوة تولستوي في فليغيل، اجتمعت في المبنى الخارجي لمنزل بيتوندي مجموعة صغيرة من الطلاب الراغبين بالذهاب لتوديع ليف نيقولايفتش في طريقه الطويل والصعب، حسب ظروف المواصلات في ذلك الزمن... وحسب العادة عند وداع المسافر يشربون، متمنين له مختلف أنواع التمنيات. رافق الرفاق ليف نيقولايفتش حتى محطة عبور نهر كازانكا، الذي كان في حالة فيضان كامل، وهنا أعطوه قبلة الوداع».

إن هذا يذكّرنا إلى حد كبير بشيء ما...

نعم، إنها بداية قصة «القوزاق»!

«في إحدى نوافذ شوفالييه، ومن خلال مصراعيها المغلقين، كانت تتوهج النار بصورة غير قانونية. كانت تقف عند المدخل عربة ومنزلقات على الجليد، وحوذيون يتزاحمون بمؤخراتهم. وعربة الترويكا البريدية كانت تقف في المكان نفسه. كان البواب ملتفاً ومنكمشاً على نفسه من البرد، كأنه يختبئ وراء ركن المنزل...

قال الخادم الشاب الذي جاء مرتدياً معطف الفرو، وعاقداً الوشاح حول عنقه:

– دميتري أندرييتش، سائق العربة لا يريد الانتظار، فالجياد مربوطة منذ الساعة الثانية عشرة، والآن الساعة الرابعة.

نظر دميتري أندرييتش إلى فانيوشا. وفي وشاحه المربوط، وجزمته الجلدية، وفي وجهه النائم سمع صوت حياة أخرى كان يدعوه – كان صوت حياة العمل، والحرمان، والنشاط.

– بالفعل، وداعاً! – قال، وهو يبحث على صدره عن الكبشة غير المثبتة.

وعلى الرغم من النصيحة بإعطاء سائق العربة بخشيشاً، ثمن الفودكا، ارتدى قبعته ووقف في وسط الغرفة. تبادلا القبل مرة، ثم مرة ثانية، وتوقفا، ثم تبادلا القبل للمرة الثالثة. واقترب ذاك الذي كان في معطف قصير من الطاولة، وشرب القدح الموضوع على الطاولة...».

دميتري أولينين يهرب إلى القوقاز، بعد أن غرق في ديونه وفي علاقاته مع النساء. وهرب تولستوي إلى القوقاز للأسباب نفسها. ولكن في الأساس المثالي، كان يكمن، بالطبع، الظمأ إلى «حياة العمل، والحرمان، والنشاط» الذي طرد ليف نيقولايفتش، في البداية، من قازان إلى ياسنايا بوليانا. أما في الأساس الخفي الكامن، فكان البحث عن الأرض الموعودة، عن «الجنة»، كما كانت تبدو له ياسنايا بوليانا، والقوقاز الذي لم تلوثه المدنية. وقبل أن يهرب إلى القوقاز، كاد يهرب إلى سيبيريا، التي أرسل فيما بعد إليها باستمرار أبطاله: الأب سيرغي، والرجل العجوز فيودور كوزميتش، وستيبان بيلاغيوشكين في قصته «القسمة المزيفة».

نشير بخط منقّط إلى بداية شباب تولستوي. المستوصف الذي تعالج فيه من مرض مخجل و... بداية تدوين اليوميات، التي ستصبح نموذجاً

عالمياً للعمل الدؤوب على تطوير الذات الأخلاقي... زنزانة العقاب، حيث يجلس بسبب غياب تافه عن المحاضرات و... يلقي خطباً جريئة حول تاريخ البشرية... التخلي عن الدراسة في الجامعة و... وأخذه السعيد على عاتقه لعبء مزرعته وعقاره...

وأخيراً، الهروب كوسيلة لحل جميع المشاكل.

من الواضح تماماً، أن تولستوي كان ينتمي إلى تلك المجموعة من الناس الذين يهتمون *بإرادتهم* الشخصية أكثر من اهتمامهم بالحرية.

هؤلاء الناس مستعدون لتحمل أقسى المسؤوليات وأثقلها، ولكن ليس تحت ضغط خارجي. وما إن يتجاوز الضغط الخارجي قوة إرادتهم الشخصية وإمكاناتها حتى يلجؤون إلى الهروب.

من بين أولى مدونات تولستوي في يومياته عام 1847 ثمة مدونة على درجة كبيرة من الأهمية: «هل سأصل يوماً ما، بحيث لا أصبح تابعاً لأية ظروف غريبة أبداً؟ إن هذا برأيي، هو الكمال الكبير؛ لأن لدى الإنسان، الذي لا يخضع لأي تأثير غريب، ستتجاوز الروح المادة من حيث حاجته، وعندها سيحقق الإنسان رسالته».

عندما سأل ب. ي. بريوكوف أول كاتب سيرة، تولستوي عن انطباعات حياته المبكرة الأولى، إليكم ما تذكره تولستوي:

«إليكم ذكرياتي الأولى... ها هي: أنا مقيّد، أريد أن أفك قيود يديّ، لكنني لا أستطيع ذلك، فأصرخ وأبكي، وأنا شخصياً منزعج من صراخي، لكنني لا أستطيع التوقف. أحد ما يقف فوقي، منحنياً، ولا أتذكر من هو. وكل هذا في الظلمة. لكنني أتذكر أنهما كانا اثنين. يؤثر صراخي فيهما، لكنهما لا يفكّان قيودي، كما أريد، فأصرخ بصوت أعلى. - يبدو لهما أن هذا ضروري (أي أن أبقى مقيداً)، بينما أنا أعرف أن هذا غير ضروري، وأريد أن أثبت لهما ذلك، وأغرق في صراخ مزعج لنفسي، ولكن لا يمكن وقفه. إنني أشعر بالظلم والقسوة، لا من الناس، فالناس يشفقون عليّ، بل من القَدَر، والشفقة على نفسي».

وهذا هو الانطباع الثاني لطفولته المبكرة: «في زيارة لابن عم ثان ما لأمي، الهوسار (ضابط في خيالة الجيش القيصري - م.) الأمير فولكونسكي. أراد

أن يداعبني، فأجلسني على ركبتيه، وكما يحدث غالباً، كان يمسك بي، متابعاً حديثه مع الكبار. حاولت التخلص منه، لكنه أمسك بي بقوة أكبر. استمر هذا دقيقتين. لكن هذا الشعور بالأسر، وانعدام الحرية، والعنف أغضبني جداً، لدرجة أنني بدأت أنفجر وأبكي وأعارك».

وهذه ذكرى أخرى لتولستوي من طفولته: مربي الأطفال الفرنسي سانت – توماس يضع ليف الصغير في غرفة ويغلقها بالمفتاح، ثم يهدده بالضرب بالقضيب. «كنت أعاني من شعور رهيب بالغضب والسخط والاشمئزاز، ليس نحو توماس فقط، ولكن نحو العنف الذي أراد استخدامه معي أيضاً. وكادت هذه الحادثة أن تكون السبب في ذلك الرعب والاشمئزاز نحو كل أنواع العنف التي أشعر بها طيلة حياتي كلها».

في غياب والديه (توفيت أم ليف قبل أن يكمل العامين، وتوفي أبوه فجأة قبل أن يكمل التاسعة من عمره) لعبت عمته وخالته دوراً كبيراً في حياته. وبعد وفاة أبيه، أصبحت أخته الكبرى تاتيانا إيليتشنا وصية على إخوتها الصغار.

في ذكرياته عن عمته، يتحدث ليف نيقولايفتش عن زوجها الكونت الأوستيزيسكي (أصله من منطقة بحر البلطيق – م.) أوستن – ساكن الذي يعاني من الغيرة بلا سبب. وعندما وصلت غيرته إلى الجنون، قرر الكونت ذات مرة، أن أعداءه الذين يريدون اختطاف زوجته منه (رغم أنها كانت حاملاً أيضاً – *المؤلف*) قد حاصروه، وأن الخلاص الوحيد، بالنسبة له، يكمن في الهروب منهم. كان هذا صيفاً. فاستيقظ صباحاً باكراً، وأعلن لزوجته أن الوسيلة الوحيدة للخلاص هي الفرار، وأنه أمر بتجهيز العربة، وأنهم سينطلقون الآن كي تستعد. وبالفعل، حضرت العربة، وأجلس عمتي فيها، وأمر بالانطلاق بأقرب وقت ممكن. في الطريق، أخرج الكونت من الصندوق مسدسين، وقام بتصويب الزناد وأعطى مسدساً لعمتي، وقال لها ما إن يعرف الأعداء بهروبه سوف يلحقون به، وعندها ستحل نهايتهما، والشيء الوحيد الذي يبقى لديهما، أن يقتل أحدهما الآخر... ولمصيبتهما، أنه ظهرت عربة على الطريق الريفي الصغير المؤدي إلى الطريق الرئيسي؛ فصرخ بأنهما هلكا، وأمرها أن تطلق النار عليه، وهو نفسه صوب مسدسه

وأطلق النار على صدر العمة. وعندما رأى فعلته، وأن العربة التي أخافته قد سارت باتجاه آخر، توقف، وأخرج العمة المصابة المدمّاة من العربة، ووضعها على قارعة الطريق وهرب. ولحسن حظ عمتي، سرعان ما رآها الفلاحون القادمون، فرفعوها عن الأرض، وأخذوها إلى القس الذي ضمد جرحها، حسب استطاعته، واستدعى الطبيب».

ما يجذب الانتباه في هذه القصة، التي يصعب تصديقها، ليس موضوعها نفسه، بل تلك التفاصيل الدقيقة التي ينقلها ليف نيقولايفتش في ذكرياته عنها. كأنه هو نفسه كان بصفة شخص ثالث في هذه العربة مع الكونت المجنون وزوجته الحامل.

الطريف في الأمر أن ماريا نيقولايفنا، شقيقة ليف نيقولايفتش، التي سمعت بهذه القصة أيضاً من عمتها، ترويها بصورة مختلفة تماماً. لم يكن هناك أي هروب على الإطلاق «من الأعداء». فالكونت الشديد الغيرة أغرى زوجته في الحديقة ليلاً، وأطلق النار عليها في صدرها. خاف الكونت من فعلته ولم يهرب، بل قاد بنفسه زوجته الجريحة إلى القس.

إذا ما افترضنا أن موضوع الهروب الذي لا يصدق من صنع خيال ليف الصغير، الذي أكمل قصة عمته، فليس من الصعب فهم الاتجاه الذي كان ينحو نحوه خياله.

كانت مخيلة ليف الصغير الأكثر غرابة وبعداً عن التصديق. ذات مرة، دخل القاعة وانحنى بمؤخرته محيياً الحضور، لافتاً رأسه نحوهم، وهو يخطو. وذات مرة حلق حاجبيه، ما شوه وجهه إلى حد كبير.

وقد روت ماريا نيقولايفنا – شقيقة تولستوي – ل ب. ي. بريوكوف: «ركبنا عربة الترويكا ذات مرة متوجهين من بيروغوف إلى ياسنايا بوليانا. أثناء أحد مواقف طاقم العربة، نزل ليف من العربة وانطلق سيراً على الأقدام. عندما انطلق الطاقم، تذكّروه، وبحثوا عنه، فلم يجدوه في أي مكان. رأى الحوذي، من على مقعده، في الأمام شخصاً بعيداً على الطريق، فانطلقوا مفترضين أنه انطلق إلى الأمام كي يركب عربة الترويكا عندما تصل إليه. ولكنه لم يكن هناك. فمع اقتراب عربة الترويكا أسرع

خطواته، وعندما أسرعت الترويكا، ركض بأقصى سرعته، كأنه لا يرغب في الركوب. كانت عربة الترويكا تسير بسرعة كبيرة، فركض ليف بكامل قوته، وبقي راكضاً حوالي ثلاثة فيرستات، إلى أن انهارت قواه نهائياً واستسلم. فأجلسوه في العربة؛ وقد كاد يختنق، وكان ينضح عرقاً، ومرهقاً من التعب».

لو أن هذا المقطع من طفولة تولستوي لم تكن قد روته ماريا نيقولايفنا قبل بضع سنوات من هروبه من ياسنايا بوليانا، وحتى قبل نشره في الجزء الأول من سيرة تولستوي الذي أصدره بريوكوف في عام 1906، كان من الممكن الشك بأنها تذكرت هذه الحادثة متأثرة بانطباع هذا الهروب. مثل المقطع التالي، الذي روته أيضاً لبريوكوف.

«ذات مرة اجتمعنا على طعام الغداء، حدث هذا في موسكو، عندما كانت جدتي حية، حيث كان يُراعى «الإتيكيت»، وعلى الجميع الحضور في الوقت المناسب، قبل حضور الجدة، وانتظارها. ولذلك استغرب الجميع أن ليف لم يكن حاضراً. وعندما جلسنا إلى مائدة الطعام، ولاحظت الجدة غيابه، سألت المربي سانت – توماس، عن معنى غيابه، وعما إذا كان «Leon ليون» معاقباً؛ لكن المربي أعلن محرجاً أنه لا يعرف، وأن «Leon ليون» سيحضر في هذه اللحظة، وعلى الأغلب، انشغل في غرفته، استعداداً للغداء. اطمأنت الجدة، ولكن أثناء الغداء، اقترب عمّنا، وهمس بشيء في أذن سانت – توماس، فقفز الأخير على الفور، وغادر المائدة...

سرعان ما اتضح الأمر، وعرفنا ما يلي: ليفوشكا (صيغة التصغير والتحبب من اسم ليف – م.)، ولسبب غير معروف (كما يقول هو الآن نفسه، فقط من أجل القيام بشيء غير عادي وإدهاش الآخرين)، قرر القفز من نافذة الطابق الثاني، من ارتفاع عدة أمتار... في طابق القبو السفلي كان المطبخ، وكانت الطبّاخة آنذاك مقابل النافذة، عندما سقط ليفوشكا على الأرض. ودون أن تفهم ما حدث، أبلغت الخادم، وعندما خرجوا إلى الفناء وجدوا ليفوشكا مستلقياً، فاقد الوعي. ولحسن حظه، أنه لم يُصب بأي كسر، واقتصر الأمر على ارتجاج خفيف في الدماغ؛ وقد تحولت حالة فقدان الوعي إلى حالة من السبات، ونام 18 ساعة متواصلة، ثم استيقظ بعدها سليماً معافى...».

عند سماعه لرواية أخته، أضاف ليف نيقولايفتش من عنده، أنه عند قفزه من النافذة، لم يقفز إلى الأسفل بل قفز إلى الأعلى. ثم أضاف قائلاً إنه عندما كان في السابعة – الثامنة من عمره، «كانت لديه رغبة شديدة بالطيران في الهواء. كان يتخيل أن هذا ممكن تماماً إذا جلس القرفصاء وعانق ركبتيه، وكلما ضغط على ركبتيه أكثر، يرتفع في الجو أكثر».

يمكن ذكر العديد من الأمثلة على غرائب تولستوي المرتبطة بتطلعه إلى الحرية الشخصية والاستقلال، وبمعاناته المرضية من أي عنف. ولكن، الأفضل، دعونا نرى ما هي تلك العادات الغريبة التي احتفظ بها حتى أواخر أيامه؟ أولاً، عادة عدم انتظار العربة، والمضي قدماً إلى الأمام. هذه العادة لم يتخلّ عنها حتى بعد هروبه من ياسنايا بوليانا. فعندما تجاوز تولستوي برفقة ماكوفيتسكي دير صحراء أوبتينا بالعربة، مضى تولستوي إلى الأمام سيراً على الأقدام.

ثانياً، يمكن الافتراض أن نزهات ليف نيقولايفتش اليومية، سيراً على الأقدام أو راكباً على ظهر الحصان، والمعقدة بدروب الغابة، مع الضياع، كانت «بروفات» لطيفة، أو محاكات للهروب. فقد كان تولستوي يفاجئ جميع من رافقه في السنة الأخيرة من عمره، بخط سيره، فعندما يُترك العجوز وحيداً يصبح ببساطة غير آمن. وهذا ما كتب عنه سكرتيره بولغاكوف، والموسيقي غولدنفيزر، والطبيب ماكوفيتسكي. حتى إنه يمكن الافتراض، أن الهروب *والضياع* كانا شغف تولستوي الكبير الذي لا يقاوم، مثله مثل النساء، والكحول، ولعب الورق للناس الآخرين.

ماذا كان يعني هذا الشغف؟ أجل، نحن نعرف أنه كان يقضي هذا الوقت في الصلاة وحيداً، متوجهاً إلى الله بكلمات لا يعرفها غيره. أجل، كان هذا الوقت، في سنوات عمره الأخيرة، الذي يمضيه خارج جدران المنزل، استراحة بالنسبة له، من الزوار ومن المشاهد العائلية. ولكن عندما أصبحوا لا يتركونه وحيداً، عندما كان يرافقه في نزهاته بولغاكوف، ماكوفيتسكي، غولدنفيزر، أو أي من ضيوفه الأعزاء، فكان على أية حال، يختار الدروب غير المطروقة، والوديان الشديدة الانحدار، كأنه يرغم عمداً رفيقه على الضياع، والبحث عن المخرج من الوضع الصعب.

– أنا الآن ركبت على ظهر الحصان في دروب الغابة، مع العزيز بولغاكوف، قمنا بجولة ونزهة رائعة – قال تولستوي بفرح أثناء تناول طعام الغداء.

وفي اليوم الأخير قبل الهروب، في 27 تشرين الأول/ أكتوبر، توجه تولستوي في نزهة على ظهر الحصان وقاد نفسه وماكوفيتسكي إلى واد كثيف مقفر.

خاف الطبيب من أن يحاول تولستوي عبور الوادي على ظهر الحصان، كما كان يفعل عادة وطلب منه النزول من على ظهر الحصان.

«... فأطاعني وهذا نادراً ما يحصل. كان الوادي شديد الانحدار، وأردت أن أقود كل حصان بمفرده، لكنني خشيت أنني ريثما أقوم بنقل الحصان الأول، يمسك ليف نيقولايفتش بالثاني ويحاول جرّه (كان ليف نيقولايفتش لا يحب قط أن يقدم له أحد ما خدمة)، فأخذت بمقودَي الحصانين معاً... وهبطت وقفزت فوق السواقي. وهنا صرخ ليف نيقولايفتش، خوفاً من أن يطأ أحد الحصانين على قدميّ. ثم صعدت بسرعة إلى الجانب الآخر من الوادي. وهنا انتظرت طويلاً. شمر ليف نيقولايفتش عن ردائه حتى الحزام، ونزل ممسكاً بحذر، بجذوع الأشجار وفروع الشجيرات. اقترب إلى النهير، ونزل، زاحفاً على الجليد، ووصل إلى الضفة زاحفاً على يديه ورجليه، ثم اقترب من المرتفع المنحدر، ممسكاً بأغصان الأشجار، كان يرتقي ويستريح طويلاً، ويلهث كثيراً. وقد أدرت وجهي كي لا يسرع ليف نيقولايفتش. كنت أرغب بمساعدته، لكنني خشيت إزعاجه...»

حتى الطبيب نفسه كان يدرك أن التدخل مستحيل في هذه العملية! فهذا التدخل سيسبب غضب الرجل العجوز العظيم. فهو تطاوُل، مثله مثل أن تدخل إلى مكتبه صباحاً وتحاول مساعدته في عمله الإبداعي. ومن يدري، ربما عندما كان ماكوفيتسكي يتأمل تولستوي – أعظم كتّاب العالم – وهو يزحف على حافة الوادي، تذكر كلماته التي قالها قبل شهرين، على مائدة الغداء:

كنت أراقب النمل. كانت تزحف على الشجرة – صعوداً وهبوطاً. ولا

أعرف، ماذا يمكنها أن تأخذ من هناك؟ فقط، لاحظت، كانت بطون النمل الصاعد إلى الأعلى صغيرة عادية، أما بطون النمل النازل فكانت سمينة وثقيلة. يبدو أنها امتصت شيئاً إلى داخلها. هكذا يزحف النمل، يعرف طريقه فقط إلى الشجرة، يتجاوز النتوءات والبروزات، ويزحف صاعداً إلى الأعلى... عند تقدمي في السن، هذا يدهشني بصورة خاصة، عندما أنظر إلى النمل، إلى الأشجار. أمام هذا، ماذا تعني هذه الطائرات! كم هذا كله فظ وغليظ!

في العديد من صور تولستوي العجوز، نحن لا نرى هذه الدينامية. فالصور الفوتوغرافية لذلك الزمن لم تكن دوماً قادرة على نقل الحركة. فمن أجل التقاط الصورة لا بد من تثبيت الوضعية بضع ثوان. ولحسن الحظ أن الفيلم السينمائي الوثائقي نقل لنا تولستوي في الحركة. وتترك انطباعاً خاصاً تلك اللقطات التي يظهر فيها وحيداً يعبر الطريق، طريق البتولا، الذي يتجه من المنزل إلى الطريق العام. إنها حركة مشّاء خبير. ساقان مسترخيتان، نصف مثنيتين عند الركبتين، والمشية تبدو فضفاضة. والقدمان ترتميان بصورة حادة إلى الجانبين. ويتشكل انطباع، كأن الساقين تتحركان بصورة منفصلة عن الجسم، مثل دمية من قماش.

ولكن، هكذا يسير المشاؤون الحقيقيون. بصورة مضحكة، وباسترخاء، كأنهم يرسمون بأرجلهم صوراً غبية، وكأنهم يتصنعون. أما في الواقع، فهم يستخدمون، إلى أقصى حد، طاقة الساق الذاتية.

إن عدم قدرة الإنسان على المشي، اعتماداً على قواه الذاتية، هو الذي أهلك بطل قصة تولستوي القصيرة «هل يحتاج الإنسان إلى كثير من الأرض» الفلاح باخوم. اقترح عليه البشكيريون أن يأخذ من الأرض لنفسه ما يستطيع قطعه من مساحة قبل غروب الشمس. وها هو باخوم، المهووس بالجشع، يقطع فيرستا إثر فيرستا، ساعياً إلى اجتياز مساحة أكبر من الأرض الموهوبة له مجاناً. لكنه عندما يصل إلى خط النهاية يسقط ميتاً. بالطبع، الحكمة من القصة، أن الجشع قد أهلك باخوم، وأن الإنسان، في نهاية الأمر، لا يحتاج من الأرض أكثر من مساحة قبره. لكن هذه القصة القصيرة تضم أيضا نظرة ماكرة خبيثة إلى الفلاح الذي قرر أن التجول على الأرض والإحاطة بها

مسألة تافهة، وليست قط مثل العمل والكدح عليها. فتولستوي، الذي كان، طيلة عدة عقود، يكاد يومياً يتجوّل في ممتلكاته في ياسنايا بوليانا، ومع ذلك فدائماً ما يضيع فيها، كان يعرف هذا الغدر، حيث تبدو للعين كأنها مساحة ممتدة مفتوحة، لكنها يمكنها بسهولة، أن تضلل، بل تميت المشّاء غير الخبير.

كما كان يعرف أن الهروب (وباخوم، قبل أن يصل إلى بشكيريا، كان قد هرب من أرض نحو أرض أخرى بحثاً عن الحصة الفضلى) لا يحل المشكلة. ومع ذلك، فإن العديد من أبطاله يغادرون دوماً إلى مكان ما، ويهربون، ويهربون ويغادرون.

الهائم على وجهه في الحقل

يفرّ أولينين إلى القوقاز، ويهرب الشاب نخليودوف في قصة تولستوي «صباح مالك الأرض» من الجامعة إلى القرية. يظهر الكونت توربين في قصته «الفارسان» في مدينة «ك.» فجأة، ويختفي منها فجأة أيضاً. يضيع في السهوب بطل قصة «العاصفة الثلجية». بولكونسكي يهرب إلى الجيش. ناتاشا روستوفا تهرب مع أناتولي كوراغين. يتجول بيير بيزوخوف في ساحات القتال وموسكو المدمّرة. آنّا كارينينا تترك زوجها، وفرونسكي بعد موتها لا يجد مخرجاً آخر سوى الهرب إلى الحرب الصربية. يهرب بدوره، ساعياً وراء كاتيا ماسلوفا، نخليودوف آخر في رواية «البعث». الأب سيرغي يهرب من المجد الدنيوي، والإمبراطور ألكسندر يختفي في سيبيريا في هيئة عجوز. يرحل البطل – الشرير في قصة «القسيمة المزيفة» ويظهر أيضاً في سيبيريا. في قصة «اثنين من كبار السن» يتوجه الفلاحون إلى القدس سيراً على الأقدام. وفي قصة «السيد والعامل» ضاع التاجر فاسيلي والعامل نيكيتا. وضاع بطل «مذكرات مجنون» أثناء الصيد وعانى من أهوال الموت. وفي سعيه للخروج من الطوق يموت الحاج مراد. إن هذه قائمة غير كاملة إطلاقاً لشخصيات تولستوي الهاربة والمغادرة.

ولكنّ ثمة شكلاً أخيراً للهروب، وهو الانتحار. ويختار هذا الطريق

نخليودوف الثالث في قصة «مذكرات حكم البلياردو»، وفيديا بروتاسوف في «الجثة الحية» ويفغيني في قصة «الشيطان». وتسقط تحت عجلات القطار آنا كارينينا، أما كونستانتين ليفين فيفكر في الوقت السعيد بالانتحار.

يبدو أنه في عمل أدبي واحد من أعمال تولستوي يحظى الهروب بنهاية سعيدة وواضحة. وهو قصة قصيرة للأطفال بعنوان «أسير القوقاز». أما في بقية مؤلفاته، فالمغادرة والهروب لا يحلان المشاكل، بل يفتتحان قائمة جديدة من المشاكل بصفحة جديدة. حتى إن الموت لا يخلّص الأبطال منها. ففي «مذكرات حكم البلياردو»، وقبل أن يقدم نخليودوف على الانتحار، يدرك فجأة أن الموت لا يحل أي شيء على الإطلاق:

«كنت أعتقد قبل ذلك أن اقتراب الموت سيسمو بروحي. لقد كنت مخطئاً. بعد ربع ساعة لن أكون على قيد الحياة، لكن نظرتي لم تتغير على الإطلاق. أرى، وأسمع وأفكر كما كنت من قبل؛ والتناقض الغريب ذاته، والتقلقل، وخفة الأفكار، المناقضة تماماً لتلك الوحدة والوضوح اللذين يعرف الله وحده لماذا منحهما الله لمخيلة الإنسان. والأفكار حول ماذا سيكون وراء القبر، وأية معان ستكون غداً عند عمتي رتيشوفا عن موتي، تبدو لعقلي بقوة واحدة».

في قصته «بوليكوشكا» تبين أن انتحار بطلها الرئيس الذي أضاع أموال السيد، حلقة عابرة تتابع بعدها الأحداث حول المال الضائع تطورها. فوفاة بروتاسوف لم تحل مشاكل زوجته وزوجها الجديد. فقد ثبت بالفعل واقع ازدواجية الزواج، أما موت بروتاسوف الطوعي فلا يشكل دليلاً للتحقيق بأن الزواج الثاني لم يكن مقصوداً. وفي الواقع، من غير المفهوم أين يكمن «إحسان» بروتاسوف لزوجته، وعلى أي نحو ينقذها موته من العار، وربما من النفي إلى سيبيريا؟

ولكن إذا كان الهروب النهائي من الحياة لا يحل مشاكل هذه الحياة ذاتها، فماذا يمكن القول عن الهروب إلى الفضاء؟ إن الإنسان الذي لا ينظر إلى العالم على أنه «نعيم»، محكوم عليه بـ «التناقض الغريب ذاته، والتقلقل، وخفة الأفكار»، وكنتيجة لذلك محكوم عليه بالضياع طيلة حياته. إنه يصبح

«الهائم على وجهه في الحقل». تحمله الريح باتجاهات لا يمكن التنبؤ بها، إلى أن يعثر على مكان هادئ، محميٍّ من الريح، حيث يمكن للنبتة البائسة أن تتشبث بالتربة.

ومثل هذا المكان، بالنسبة لتولستوي، كان من الممكن أن يكون ياسنايا بوليانا تحديداً. وليس بلا أساس، هرع إليها في بداية هروبه. لكن أول تجربة له في المزرعة كانت فاشلة. وقد عرض في قصته القصيرة «صباح مالك الأرض» بصورة رائعة أسباب هذا الفشل. إن تولستوي، بطبيعته المحبة للحرية، لم يكن بإمكانه أن يكون مالك أقنان جيداً، وقبل تحرير الفلاحين في عام 1861 كان من غير الممكن حتى التفكير ببناء جنة مستقلة للفلاحين في ظل نظام العبودية (القنانة)[1] السائد في روسيا.

لكن جميع المحاولات اللاحقة تقريباً التي قام بها ليف نيقولايفتش لإدارة مزرعة رشيدة، كانت عادة، تنتهي بالفشل. باستثناء الحدائق وزراعة الغابات. كان ملّاكاً مفرطاً في الحماسة، وإذا ما أقدم على بعض الأعمال (تربية النحل، تربية الخنازير، معمل تقطير النبيذ، مزرعة الخيول) فكان يتفرغ لها بحماسة شاعرية، في حين أن اقتصاد المزرعة يتطلب حسابات باردة وتوزيع القوى.

في أيار/ مايو عام 1847 يغادر تولستوي قازان متوجهاً إلى ياسنايا بوليانا، وفي خريف عام 1848 يهرب إلى موسكو، حيث عاش «بكثير من اللامبالاة، وبلا وظيفة، وبلا أعمال، وبلا هدف». وفي شباط/ فبراير عام 1849 يسافر إلى بطرسبورغ، مدفوعاً بـ«عطش غامض للمعارف». وكان أمامه طريقان: أن يصبح عسكرياً أو موظفاً. وقد انتصر «التعطش للمعارف» على الطموح وحب الرفعة، وفي بداية عام 1949 نجح في امتحانين بالقانون

1- نظام العبودية (القنانة): شكل من أشكال تبعية الفلاحين الاقتصادية والقانونية والإدارية الإقطاعية لمالك الأرض، وهو بعبارة أخرى شكل من أشكال الرق. فالفلاحون العاملون في مزرعة ما يباعون مع بيع المزرعة. وكان سائداً في روسيا وفي غالبية بلدان أوروبا الشرقية. وقد استمر العمل في روسيا بهذا النظام إلى أن تم الإصلاح الفلاحي في عام 1861، الذي حرر الفلاحين من حالة الرق والتبعية لمالك الأرض. - م.

الجنائي والإجراءات القضائية في جامعة بطرسبورغ. ولكن «حلّ الربيع، واجتذبني سحر الحياة الريفية من جديد إلى المزرعة».

هكذا تمر فترة ثلاث سنوات من التشتت والتأرجح المستمرين. فهو يحلم بالعمل في وزارة الخارجية تارة، وينوي أن يصبح طالب ضابط في فوج الخيالة، للمشاركة في الحملة على هنغاريا، وتارة، ومع حلول الربيع، يركض إلى «روائع الحياة الريفية»، وتارة أخرى ينوي استئجار محطة بريدية...

في تلك الفترة توقف عن كتابة يومياته التي بدأها في قازان، لكن رسائله إلى أخيه الأكبر سيرغي أوصلت إلينا حالته المزاجية آنذاك.

13 شباط/ فبراير 1849: «أكتب إليك هذه الرسالة من بطرسبورغ، حيث أنوي البقاء إلى الأبد... أعلم أنك لن تصدق أنني تغيرت، وستقول: «هذه هي المرة العشرون، وكلها من دون فائدة بالنسبة لك»، «أنني الصغير الأتفه»، – لا، لقد تغيرت الآن بشكل مختلف عن ذي قبل؛ سابقاً كنت سأقول لك: «اسمح لي بأن أتغير»، أما الآن، فأنا أرى أنني تغيرت، وأقول: «أنا تغيرت»».

1 أيار/ مايو: «سيريوجا! (تصغير التحبب لاسم سيرغي – م.) أنت، كما أظن، تقول إنني «الصغير الأتفه»، إنك تقول الحقيقة. الله يعلم ماذا اقترفت. سافرت دون سبب إلى بطرسبورغ، ولم أفعل هناك أي شيء ضروري، فقط فقدت كل نقودي واستدنت. غباء! غباء لا يصدق!»

11 أيار/ مايو: «في رسالتي الأخيرة، كتبت لك سخافات مختلفة، أهمها أنني كنت أنوي الانتساب إلى سلاح الخيّالة، والآن سوف أتخلى عن هذه الخطة إذا لم أنجح في الامتحان، وإذا كانت الحرب جدية وخطيرة».

في الربيع نفسه، يعود تولستوي «مفلساً، تحيط به الديون من كل جانب» إلى ياسنايا بوليانا مع موسيقي ألماني سكّير يدعى رودولف، وينغمس بحماس في الموسيقى. حتى إنه يبدأ بكتابة مقالة – دون أن ينهيها «المبادئ الأساسية للموسيقى وقواعد دراستها». قيّموا هاتين الكلمتين الوازنتين: *الأساسية*، و*قواعد*.

قبل سفره مع أخيه نيقولاي إلى القوقاز في نيسان / أبريل عام 1851،

كان ليف نيقولايفتش يعيش حياة مؤلمة لنفسه، مزدوجة، متمزقاً بين موسكو وياسنايا بوليانا. في ياسنايا بوليانا – جولات ونزهات، رياضة الجمباز، موسيقى، لغة إنكليزية، غوته، خطة قصة «طفولة». وفي موسكو – القمار، الولائم، الغجر، النساء، والديون، والديون... في ياسنايا بوليانا – الملاك الوصي الطيب – خالته تاتيانا ألكسندروفنا إرغولسكايا، والخادمة العانس الورعة، التي أحبها والد ليف نيقولايفتش ذات يوم، لكنها رفضت الزواج، ومع ذلك كرست نفسها لتربية أولاده. كان يجلس معها في الأمسيات، يشربان الشاي، ويتحدثان عن الأجداد، عن الحياة القديمة. وفي موسكو – حياة «بهيمية» تماماً، يحاول تنظيمها ببعض «القواعد»

يوميات بتاريخ *24 كانون الأول/ ديسمبر عام 1850*: «*قواعد*. لعب الورق فقط في الحالات القصوى. – عن نفسك، تحدثْ بأقل حد ممكن. تكلمْ بصوت عال ومتميز. – *قواعد*. مارسِ الرياضة كل يوم. – وفقاً لقانون الدين لا تمتلكِ النساء».

17 كانون الثاني/ يناير عام 1851: «*قواعد*... 1) عند وجودك في حلقة من اللاعبين، ومع توفر المال، العبْ. 2) عند وجودك في مجتمع راق، وفي ظروف معينة، تزوجْ. 3) اعثرْ على مكان مفيد لوظيفة».

أحلام تولستوي الوظيفية انتهت بتسجيله في حكومة مقاطعة تولا المدنية موظفاً في الديوان مع حصوله على لقب مسجل كلية. وهذا أدنى لقب وظيفي مدني من المرتبة الرابعة عشرة في «جدول مراتب» بطرس الأكبر. وكان يدعى هذا اللقب من باب السخرية «لا تضربني على خدّي»، لأنه كان يعطي الأشخاص من الأصل غير النبيل حق الجنسية الفخرية الوراثية، ما يحررهم من العقاب البدني. وقد كتب غوغول في «نفوس ميتة»: «ويسيء على نحو، مثل مسجل كلية بسيط، وليس كموظف تلمع النجمة على صدره...».

هذا في حين أن تولستوي الشاب كان شديد الطموح! وليس بلا سبب، أنه سيضع في «اعترافاته» الطموح في المركز الأول بين نقائص شبابه. ولكن، في أي شيء كان يتجلى، واقعياً، طموحه هذا، باستثناء تطلعاته الوظيفية الغامضة، وسعيه غير الدقيق للتوجه إلى الحرب؟ بالطبع، ليس في الهروب إلى القوقاز.

في رسالته إلى خالته ت. آ. يرغولسكايا من تفليس، يدعو هذه الرحلة بـ «خيالٍ حل فجأة في ذهني». كيف ترد إلى ذهنه فجأة مثل هذه الخيالات، يمكن الحكم من خلال أنه في خريف 1848 كاد يسافر إلى سيبيريا مع صهره المقرر فاليريان تولستوي: فقد قفز إليه في العربة مرتدياً بلوزةً فقط، بدون قبعة، ولم يسافر، على الأغلب، لأنه نسي قبعته: (أوه، هذه القبعات! وبعد مضي نصف قرن، يضيع قبعته، وهو يغادر منزله في ياسنايا بوليانا إلى الأبد، وعليه أن يعود إلى المنزل لإحضار قبعة جديدة. لقد كان هذا فألاً سيئاً، وليف نيقولايفتش، الذي لم يكن يعترف بالطقوس الدينية، كان يؤمن بعلامات الفأل.)

ومن المثير للاهتمام، أن هروب تولستوي إلى القوقاز كان أيضاً، مرتبطاً بصورة غير مباشرة، بالفاسق فاليري تولستوي، الذي كان قد أصبح في هذا الوقت زوج شقيقة ليف نيقولايفتش ماريا نيقولايفنا. ففي ضيعته بوكروفسكي بالقرب من تشورني حدث في العام الجديد (1851) لقاء الأخوين نيقولاي وليف بعد أربع سنوات من الفراق. كان نيقولاي يخدم في الجيش في القوقاز. كان يعذبه الانقسام بين حياته الخارجية والداخلية، وكان غارقاً في الديون، ومصاباً بخيبة أمل من مزرعته ومن وظيفته. فقرر الأخ الأصغر ليف اتباعه، دون أية خطة، بالكاد من أجل مرافقته في سفره، والاسترخاء فقط. لاسيما أن نيقولاي، المخترع الدائم، وضع خط سير غير عادي: السفر إلى ساراتوف، أما إلى أستراخان فالسفر بالقارب. وكانت رحلة رائعة. وفي الطريق وقع تولستوي في قازان في حب زينائيدا مولوستفوفا، ما كتب عنه في سيزران أبياتاً شعرية مبتذلة: «ما إن وصلت إلى سيزران حتى شعرت بجرحي...» لكنه وجد نفسه في 30 أيار/ مايو في قرية ستاروغلادكوفسكايا، ويكتب في يومياته بشيء من الدهشة: «كيف وصلت إلى هنا؟ لا أعرف. لماذا؟ أيضا لا أعرف».

من قرية ستاروغلادكوفسكايا توجه مع أخيه إلى قرية ستاري يورت، معجباً بمنظر الجبال والينابيع الجبلية الحارة، حيث يُسلق البيض تماماً بها خلال ثلاث دقائق، وحيث النساء التتريات الجميلات يغسلن الغسيل بأرجلهن. لقد كانت الرحلة إلى القوقاز متسرعة جداً، لدرجة أنه وجد نفسه هناك بدون الأوراق اللازمة التي انتظر وصولها من تولا أربعة أشهر، وبعدها ذهب إلى تفليس لمقابلة اللواء إدوارد فلاديميروفيتش بريمير، قائد مدفعية

فيلق القوقاز المستقل. لكن أوراق تولا لم تكن كافية، واضطر لانتظار وثائق من بطرسبورغ. رسمياً تم تجنيد تولستوي للخدمة العسكرية في شباط/ فبراير 1852. إن المنصب والوظيفة لا يصنعان بهذه الطريقة. وهما أصلاً، لم يذهبا إلى القوقاز من أجل المنصب والوظيفة.

ومع ذلك، فإن الطموح بالذات هو الذي أنقذ تولستوي من الانزلاق إلى هاوية الحياة «البهيمية» الموسكوفية. ولكن لا، لم تكن الحياة في القوقاز، حيث أمضى ما يقرب ثلاث سنوات، أقل «بهيمية»، حسب معاييره الأخلاقية المبالغ فيها. فاللعب بالورق، والديون، والفتيات المتاحات الرخيصات – لقد غبّ من هذا كله حتى الثمالة، إضافة إلى وقاحة الحامية العسكرية: «قال أحد الضباط إنه يعرف ما يريد عرضه على السيدات، واقترح فقط آخذاً في اعتباره عضوه الذكري الصغير، وأنه بالرغم من أنه من الحجم الصغير لكنه يمكن أن يعرض تلك الأفعال» (اليوميات بتاريخ 4 تموز / يوليو 1851).

لكن طبيعة القوقاز، الهواء ذاته، الشفاف، كشفافية العلاقات بين الناس، بالإضافة إلى رغبته الطموحة للإعلان عن نفسه للعالم ولأسرته، وإثبات أنه ليس «الصغير الأتفه»، كانت حافزاً رائعاً للإبداع. في القوقاز ولد تولستوي ككاتب. وعلى الفور – ككاتب عظيم، مؤلف «الطفولة» و«المراهقة».

وبنظرة صارمة إلى شبابه، اعترف تولستوي، أنه «بدأ يكتب بغرور وأنانية واعتزاز» («الاعترافات»). إن أي كاتب جاد، إذا ما وضع يده على قلبه، يعرف أن هذه هي الحقيقة، وأن المؤلفات الأولى لا تُكتب لاعتبارات روحية، أو أن الاعتبارات السامية تتغذى، على أية حال، بالرغبة بالمجد والشهرة والمال. ولكن، وكما أن القوقاز كان أسمى من طفولة ليف نيقولايفتش وشبابه، كذلك مناخ الإبداع كان أسمى وأعمق من طموحه. لكن الأهم – لقد كان هذا هو المكان حيث يمكن أن يقف «الهائم على وجهه في الحقل» ويغرز جذوره الأولى.

الفصل الثالث

صونيا والشيطان

– آه، يا للروعة هنا! – صاح تولستوي متعجباً، عندما رأى الغرفة التي قُدمت له في دير صحراء أوبتينا من قبل موظف الفندق الأخ ميخائيل. غرفة فسيحة بثلاث نوافذ، وستائر مصنوعة من الشاش، مع أصص عليها نبات الفيكوس، وصورة كبيرة للمخلص في الزاوية، مع أريكة قديمة وطاولة مستديرة أمامها – مع أريكة ثانية ناعمة، وستائر خشبية صفراء تخفي سريراً مريحاً. لقد كانت هذه أفضل غرفة في الفندق. عندما استلقى تولستوي، طلب طاولة صغيرة وشمعة. وشرب الشاي قبل النوم. الأخ ميخائيل أحضر له تفاحاً من نوع «أنطون». مدح ليف نيقولايفتش التفاح وسأله:

– ألا يوجد لديكم عسل أيها الأخ ميخائيل؟ أنت لم ترتد الشملة بعد، لهذا سوف أدعوك «يا أخي».

وجلب له ميخائيل العسل.

لكن فرحته كانت سابقة لأوانها... فالليلة التي أمضاها في أوبتينا كانت مضطربة للغاية. على الرغم من حرص ماكوفيتسكي على عدم خرق عادة تولستوي في النوم وحده في غرفة، فنام في الغرفة المقابلة. كانت القطط طوال الليل تركض في الممر، وتقفز على الأثاث الموجود على الجدار، خلف سرير تولستوي. ثم خرجت إلى الممر امرأة، وبدأت تنوح وتولول. فقد توفي في النهار شقيقها، وهو راهب – صاحب متجر. جاءت من الصباح الباكر إلى الكونت وتوسلت إليه أن يرعى أطفالها الصغار. وركعت أمامه. كان تولستوي يعاني كثيراً، ولا يحتمل عندما يركعون أمامه. وعندما كان

زواره في ياسنايا بوليانا يفعلون هذا، كان ليف نيقولايفتش يركع أمامهم، من أجل وضع حد لهذه الحالة.

في الساعة السابعة صباحاً غادر الغرفة والتقى في الممر بأليوشا سرغيينكو، سكرتير تشرتكوف، شاب في الرابعة والعشرين من العمر، وهو ابن الكاتب الذي يعرفه تولستوي بيوتر ألكسييفتش سرغيينكو. كان أليوشا ينتمي إلى دائرة مختارة من المطلعين على آخر أسرار حياة تولستوي في ياسنايا بوليانا، بما في ذلك تاريخ نزاعه مع زوجته. لهذا وقعت على عاتق ألكسي مهمة شرفية وغير سارة في الوقت نفسه، وهي إعلام تولستوي بما حدث بعد اختفائه.

ولكن، من أين عرف أليوشا سرغيينكو أن تولستوي في أوبتينا؟ الأمر بسيط جداً. فقد كان ليف نيقولايفتش قد أرسل برقية من شوكينو إلى ساشا بالكلمات التالية «سنذهب، على الأغلب، إلى أوبتينا... من فضلك، يا عزيزتي، بمجرد أن تعرفي أين أنا، وستعرفين قريباً جداً، أخبريني بكل شيء: كيف تم تلقي خبر رحيلي، وكلما أخبرتني بتفاصيل أكثر كان أفضل».

هذه هي المؤامرة كلها. ولكن، حتى لو لم تكن هناك هذه البرقية، حول أن ليف نيقولايفتش توجه مع ماكوفيتسكي إلى كوزيلسك، كان الجميع في محطة شوكينو بالقرب من ياسنايا بوليانا يعرفون بدءاً من رئيس المحطة، وانتهاءً بأمين الصندوق. وكان من السهولة بمكان التخمين بأنه من كوزيلسك سيذهب إلى أخته في شاموردينو، وفي طريقه سيمر بأوبتينا، التي زارها في سن الرشد ثلاث مرات، وحيث دُفنت عمتاه ألكسندرا إيليتشنا أوستن – ساكن وإليزافيتا ألكسندروفنا تولستايا. ومن المستبعد ألا تخمن ذلك صوفيا أندرييفنا، التي أرسلت رجلاً من عندها إلى المحطة ليعرف إلى أين أخذ التذكرة ليف نيقولايفتش.

لقد كان إرسال سرغيينكو، بصفة زائر، إلى تولستوي الهارب، قراراً غير حميد بحق صوفيا أندرييفنا، من طرف ابنتها ساشا وتشرتكوف. ومنذ البداية، كان تولستوي محاطاً بأناس غير طيبين تجاهها، يعرف من خلالهم ما يحدث في ياسنايا بوليانا من دونه.

كان والد أليوشا سرغيينكو مؤلف «وقائع مسرحية في أربعة أجزاء» «كسانتيبا» عن زوجة سقراط المشاكسة التي سمّمت له حياته مثل كأس من السم. في هذه المسرحية، التي نُشرت لأول مرة في ملحق مجلة «نيفا» عام 1899، كان يتراءى بوضوح ليف نيقولايفتش وزوجته، وهذا ما كتب عنه م. س. سوخوتين صهر تولستوي في يومياته. وإذا كانت عامة الجمهور لم تدرك ذلك، فإن عائلة تولستوي أدركت ذلك جيداً.

نحن لا نعرف، بأية كلمات وعبارات وتعليقات روى سرغيينكو محاولة صوفيا أندرييفنا إغراق نفسها في البحيرة. نعرف فقط أن هذه القصة أحدثت انطباعاً قاسياً جداً في نفس تولستوي، وأثارت تجاه زوجته ليس الشعور بالشفقة فحسب، بل الشعور غير الحميد أيضاً.

يكتب تولستوي في يومياته في 29 تشرين الأول/ أكتوبر: «كان نومي قلقاً مضطرباً، في الصباح قابلت أليوشا سرغيينكو ببهجة دون أن أدرك... لكن الأخبار التي جلبها لي رهيبة. لقد حزروا أين أنا، وطلبت صوفيا أندرييفنا من أندريه (ابن تولستوي – *ملاحظة المؤلف*) أن يعثر عليّ بأية وسيلة. وأنا الآن، مساء 29، أتوقع وصول أندريه... كان الأمر صعباً جداً عليّ طيلة اليوم، وأنا ضعيف جسدياً».

«يوميات لي وحدي»: «وصل سرغيينكو. كل شيء على حاله، بل أسوأ. المهم أن لا أرتكب إثماً، ولا أملك شراً، لا شر الآن». الشعور القاسي الذي حاربه وظن أنه انتصر عليه، كان الغضب من زوجته.

«... إذا كان هناك من يغرق فليست هي قط، بل أنا» – يشتكي تولستوي في رسالته إلى ساشا.

«أنا أتمنى شيئاً واحداً – التحرر منها، من هذا الكذب، والتظاهر، والضغينة التي تخترق كينونتها كلها... أترين، يا عزيزتي، كم أنا سيئ. لا أخفي عنك».

في شاموردينو، عندما دخل إلى صومعة أخته ماريا نيقولايفنا، بكى للمرة الأولى بعد هروبه من ياسنايا بوليانا. أخته كانت سعيدة لرؤيته، لكنها فوجئت أنه جاء في طقس سيئ.

- أخشى أن الوضع في منزلكم ليس جيداً.

- الوضع في المنزل مروع!

وتقطع حديثه عدة مرات بنشيجه وشهقاته:

«فكّري، تصوري، يا للرعب، في الماء...» اقترحت عليه ابنة أخته ي. ف. أبولنسكايا أن يشرب من الماء... رفض تولستوي.

الغارقة

بعد رحيل والدها، جلست ساشا طويلاً على الأريكة، ملفوفة بالبطانية. كانت تهتز وترتجف، كما لو أصابتها حمّى. كانت تعد الدقائق والساعات. لقد تحرك القطار من شوكينو في الثامنة. في الساعة الثامنة صباحاً، أخذت تتنقل في غرف المنزل. التقى بها الخادم القديم إيليا فاسيليفيتش. وكان قد أدرك ما حدث.

- قال لي ليف نيقولايفتش إنه ينوي السفر، والآن عرفت أنه قد سافر لعدم وجود المعطف.

كان بقية الخدم يتهامسون، واضعين الافتراضات، أما صوفيا أندرييفنا فكانت لا تزال نائمة. استيقظت متأخرة، في الساعة 11، وشعرت من خلال سلوك الخدم بشيء غير جيد، فركضت نحو ساشا:

- أين بابا؟

- غادر.

- إلى أين؟

- لا أدري.

أعطتها ساشا رسالة أبيها الوداعية. ركضت عينا صوفيا أندرييفنا بسرعة على الرسالة... اهتز رأسها، وارتجفت يداها، وتغطى وجهها ببقع حمراء.

لم تقرأ الرسالة حتى النهاية، رمتها على الأرض، صارخة: «ذهب، ذهب نهائياً، وداعاً يا ساشا، سأغرق نفسي!» - وركضت إلى البحيرة.

هكذا يبدو المشهد في مذكرات ألكسندرا لفوفنا (ساشا - م.) أما في يوميات فالنتين بولغاكوف فقد وُصف بمزيد من التفصيل.

«عندما وصلت في الساعة الحادية عشرة صباحاً إلى ياسنايا بوليانا، كانت صوفيا أندريفنا قد استيقظت للتو وارتدت ثيابها، ألقت نظرة إلى غرفة ليف نيقولايفتش ولم تجده. ركضت إلى غرفة السكرتاريا، ثم إلى المكتبة. وهنا أخبروها بمغادرة ليف نيقولايفتش، وأعطوها رسالته.

– يا إلهي! – همست صوفيا أندريفنا، ومزقت مغلف الرسالة وقرأت السطر الأول: «رحيلي سيحزنك...» لم تستطع متابعة القراءة، رمت الرسالة على الطاولة في المكتبة وركضت إلى غرفتها، مرددة:

– يا إلهي!... ماذا يفعل معي!...

– اقرئي الرسالة، ربما هناك شيء ما! – صرخت ألكسندرا لفوفنا وباربارا ميخائيلوفنا وتوجهتا نحوها، لكنها لم تصغ إليهما.

على الفور، ركض أحد الخدم صارخاً أن صوفيا أندريفنا ركضت إلى الحديقة باتجاه البحيرة.

– تابعها، أنت في حذائك الجلدي! – خاطبتني ألكسندرا لفوفنا وركضت لارتداء جزمة مطاطية.

ركضت خارجاً من الفناء باتجاه الحديقة. كان فستان صوفيا أندريفنا الرمادي يتراءى في المسافات بين الأشجار: كانت تسير بسرعة على طول طريق الزيزفون إلى الأسفل باتجاه البحيرة. ذهبت وراءها، مختفياً خلف الأشجار. ثم ركضت.

– لا تركض ركضاً – صاحت من خلفي ألكسندرا لفوفنا.

نظرت من حولي. كان يسير خلفي عدة أشخاص: الطباخ سيمون نيقولايفتش، والخادمة فانيا وغيرهما.

ها هي صوفيا أندريفنا تنعطف إلى الجانب، باتجاه البحيرة. اختبأت وراء الشجيرات. طارت ألكسندرا لفوفنا بسرعة جامحة، وتجاوزتني، وتنورتها تحف بالأشجار. فركضت بسرعة خلفها أيضاً. كان الإبطاء مستحيلاً: صوفيا أندريفنا أمام حافة البحيرة.

ركضنا نحو المنحدر. التفتت صوفيا أندريفنا ولمحتنا. كانت قد تجاوزت المنحدر. ها هي تسير على دفات الجسر الخشبية (بالقرب من الحمّام) التي

يشطفون عليها الغسيل. يبدو أنها مسرعة. وفجأة تزحلقت - وسقطت بقوة على دفات الجسر الخشبي على ظهرها مباشرة... تشبثت بيديها بألواح الخشب، وزحفت إلى الطرف الأقرب من الجسر وسقطت في الماء.

وصلت ألكسندرا لفوفنا إلى الجسر الخشبي. وسقطت أيضاً في مكان منزلق، عند بداية الجسر... وأنا أيضاً وصلت إلى الجسر الخشبي. قفزت ألكسندرا لفوفنا إلى الماء. وأنا فعلت الشيء نفسه. ومن الجسر رأيت جسم صوفيا أندرييفنا: وجهها إلى الأعلى، بفم مفتوح من المفروض أن كثيراً من الماء دخل منه، ناشرة يديها على الجانبين بلا حول ولا قوة، والماء يغمرها... لقد تغطت كلها بالماء.

لحسن الحظ، كنت أنا وألكسندرا لفوفنا واقفيْن على أقدامنا في قاع البحيرة. لقد سقطت صوفيا أندرييفنا بسعادة، منزلقة. ولو أنها رمت بنفسها من على الجسر مباشرة إلى الأمام، لما كان من الممكن الوصول إلى القاع. فوسط البحيرة عميق جداً، وكثير من الناس غرقوا فيه... أما بالقرب من الضفة، فالقاع إلى مستوى الصدر.

قمت أنا وألكسندرا لفوفنا بسحب صوفيا أندرييفنا، وأجلسناها على جذع شجرة، ومن ثم على دفة الجسر الخشبي.

وصل الخادم فانيا شورايف، ورفعت معه بصعوبة، صوفيا أندرييفنا الممتلئة بالماء، واقتدناها إلى الضفة.

ركضت ألكسندرا لفوفنا لتغيير ملابسها، وشجعتها باربارا ميخائيلوفنا التي خرجت وراءها من المنزل.

فانيا وأنا والطباخ نقود بهدوء، صوفيا أندرييفنا إلى المنزل. إنها تأسف لأنهم أنقذوها وأخرجوها من الماء. يصعب عليها السير. وسقطت في مكان على الأرض، بلا حول ولا قوة:

- سأجلس قليلاً!... دعوني أجلس!...

ولكن، كان من المستحيل حتى التفكير بهذا: كان من الضروري لصوفيا أندرييفنا أن تقوم بتغيير ملابسها...

صالبنا أيدينا، أنا وفانيا على شكل كرسي، وبمساعدة الطباخ وآخرين، أجلسنا صوفيا أندرييفنا وحملناها. لكنها سرعان ما طلبت أن ننزلها».

بعد محاولة الانتحار الأولى، بدأنا نراقب صوفيا أندريفنا. أخذنا من عندها الأفيون، وسكيناً حادة، وثقالة الورق الثقيلة. لكنها كررت، بأنها ستجد وسيلة لإنهاء حياتها. بعد ساعة تمكنت من الهرب من المنزل. لكن بولغاكوف لحق بها بسرعة، وهي في طريقها إلى البحيرة، وأحضرها إلى المنزل بالقوة.

– كأنه ابنها، كأنه ابنها! – أخبرته.

قصة محاولتَي الانتحار هذه لا يمكنها ألا تثير التعاطف. وعلى المرء أن يكون قاسي الروح جداً حتى يرى فيها مجرد رغبة لإحداث أثر، وتخويف الأقارب، وعبرهم زوجها، وترغمه على العودة.

حسناً، ولكن ماذا تفيدها الآن كلماته، حتى كلماته الألطف والأعذب والأصح؟ ماذا تفيدها الآن كلماته بالمقارنة مع فعلته، التي سيلاحظها العالم كله، والتي (وهي تدرك ذلك جيداً!) ستدخل التاريخ. كما ستدخل التاريخ هي أيضاً، التي هرب منها زوجها العظيم، بشكل أو بآخر.

حتى بالنسبة للنساء البسيطات بأزواجهن البسطاء، هجران الزوج ممرض ليس بسبب أنه ترك زوجته فحسب، بل من حيث كيف تبدو في أعين المحيطين بها. هل هذا يعني أنها كانت زوجة سيئة؟ أو ربما أصبحت سيئة عندما هرمت؟ وعندما كانت شابة كانت تناسبه؟ عندما كانت قوية، وبصحة جيدة، وجذّابة؟

إن النزاع بين الزوج والزوجة – هو أيضاً تنافس على الأحقية في رأي الآخرين. ومهما كان تولستوي عظيماً، فهو كان أيضاً مرتبطاً بهذا الرأي. فماذا يمكن القول عن زوجته؟

بعد مغادرة ليف نيقولايفتش، وجدت نفسها في عزلة و«الكل من حولها يعتبرها غير محقة». المنزل كله، بمن في ذلك ابنتها، كان إلى جانب الهارب البائس. كامرأة – تعرضت للإساءة، وكإنسان – تعرضت للإهانة. أما زوجها، كرجل، تصرف بقوة وبطريقة جميلة شخصية (لم يره سوى اثنين أو ثلاثة كيف كان يرتجف في سقيفة العربة). كإنسان، أقدم على الخيار الأخير في حياته، واختار الاستقلال والحرية الروحية (لم يخرج تولستوي بعد من

محطة أستابوفو، حيث كانوا يمسكونه من يديه، بحثاً عن سرير عادي، يمكنه الاستلقاء عليه).

قبل إدانتها على محاولتها الانتحار، الشديدة التأثير (نعم، كان من الممكن فعل الأمر بطريقة مختلفة ما، ولكن من يجرؤ على الحكم على ذلك!)، يجب تقدير درجة شعورها بالعزلة. كان يقف إلى جانب زوجها جميع أفراد المنزل والعالم المثقف كله. ولم يقف إلى جانبها سوى بعض أبنائها. ولكن في تلك اللحظة بالذات لم يكونوا حاضرين. وقد وصلوا في اليوم التالي إثر البرقيات التي أرسلتها لهم ساشا. ولكن، بادئ ذي بدء، من أجل أولادها هؤلاء، الغارقين في الديون، أقدمت صوفيا أندرييفنا على النزاع مع زوجها بسبب التركة والميراث. ولم يكن هناك من يأخذ بيدها، باستثناء بولغاكوف، وهو الغريب، مثله مثل جميع العاملين في سكرتاريا تولستوي، الذين كان يرسلهم إلى بيتها تشرتكوف الذي تكن له مشاعر الكراهية.

ليس لنا أن نحكم على ما حدث في نفس صوفيا أندرييفنا، وكيف جمعت بين حالة الهستيريا والدهاء. بالطبع، كان مشهد ركضها إلى البحيرة وسقوطها في الماء تمثيلياً (يكتب بولغاكوف - ليس من قبيل الصدفة، أنها كانت تلتفت إلى الوراء وتنظر إلى مطارديها). ولكن ليس من أجل التظاهر بالانتحار، كما فعلت عدة مرات سابقاً، عندما أطلقت النار في غرفتها من فزّاعة، أو عندما قالت إنها شربت زجاجة كاملة من الأفيون، أو عندما استلقت في فستانها على الأرض الباردة في الحديقة. الآن ليس وقت التقليد والمحاكاة، بالنسبة لها. كان عليها أن تنهي ما أخاف المنزل كله، أثناء نزاعاتها مع زوجها، وما لم تنجزه حتى الآن، ربما هي تأسف كثيراً على ذلك. آه، لو أنها أغرقت نفسها قبل مغادرته، كما هددت بذلك غير مرة! لكان هو الأخير في هذه القصة، أنه هو الذي قتل زوجته، التي خدمته بإخلاص ثمانية وأربعين عاماً، وربّت أولاده، ونسخت مخطوطاته، وأطعمته بالملعقة عندما كان مريضاً. ولكان هو *الشرير*، وهي *الشهيدة المعذبة*.

في مذكرات صوفيا أندرييفنا الضخمة التي أصدرتها بعنوان «حياتي»، ثمة فصل عنوانه «الشهيد والشهيدة». هنا، كان من الأصح تعديل العنوان ووضع «أو» بدل «و». حقيقة، من كان الضحية؟ فهي، امرأة عادية، تم تعيينها

لخدمة عبقري، أو هو، العبقري، محكوم عليه بالعيش مع امرأة عادية؟ جواب شفهي كلامي عن هذا السؤال غير ممكن. والجواب الوحيد الذي يمكن أن يقنع الجميع هو مجرد فعل. وقد كان ليف نيقولايفتش هو الأول في قيامه بهذا الفعل. فماذا بقي عليها أن تفعل؟ تقبل الهزيمة وتدخل التاريخ «مذنبة في أعين الجميع»؟ غير أن شدة كبريائها لا تسمح لها بذلك. تشتكي، تُبرّئ نفسها؟ في نهاية الأمر، هذا ما ستضطر إلى فعله في محطة أستابوفو بحضور مراسلي الصحف. ولكن، في اللحظة الأولى، وهي في حالة الصدمة، حاولت أن تقوم هي أيضاً بفعلة جميلة (كما بدا لها)، وأن تُدخل في رواية حياتها مع تولستوي موضوعها المستقل. أن تغرق، إن لم يكن أمام عيني زوجها، فأمام عيون من دعمه وأدانها.

لن ننسى أنها كانت زوجة أعظم روائيي العالم، ومؤلف رواية «آنّا كارينينا». ولو كان خط كورسك الحديدي لا يمر على بعد عدة فيرستات (كيلومترات – م.)، بل قريباً من منزل ياسنايا بوليانا، فلا شك بأن موضوع محاولة الانتحار كان سيكون مغايراً تماماً. فقد توجهت، ذات مرة إلى السكة الحديدية، مثل آنّا كارينينا، معبأة بفكرة أن «كل شيء كذب، كل شيء خداع، كل شيء شر»، لكنها التقت صدفة على الطريق بزوج شقيقتها كوزمينسكي، الذي أعادها إلى المنزل.

بعد رحيل زوجها، كان هناك، في أسلوب سلوكها، كثير من الأشياء غير السارة التي تجرح السمع والبصر. وعموماً، ليس هناك من الأشياء السارة إلا القليل في أسلوب النزاعات العائلية. وهل ثمة أسلوب ما في هذه النزاعات؟

«لا» إمكانية الجنة

لنعد إلى الماضي.

لا معنى في هذا الكتاب للتوقف بالتفصيل على الفترة العسكرية من حياة تولستوي، من عام 1851–1855 في القوقاز ورومانيا والقرم. لقد كان تولستوي جندياً وضابطاً جيداً، لكنه غير متميز، وغريباً بعض الشيء. كان شجاعاً، قوياً جسدياً، كان رفيقاً رائعاً، ومقامراً، وشاعراً مقلّاً، كتب قصيدة

ساخرة بعنوان «أغنية عن معركة النهر الأسود» التي كان يرددها الجنود والضباط في أماكن توقفهم، والتي دخلت الفولكلور الحربي بصيغ مختلفة. غرابته كانت تكمن في أنه كان يستغرق كثيراً في التأمل والتفكير، كان أصيلاً في أحكامه ولم يرغب باستعمال المال العام، حتى عندما يسمح قانون الضباط المتعارف عليه بذلك. لكن الأهم، كان على نحو ما، غير محبوب، حسب تعبير يروشكا في قصة «القوزاق». وهذا تعبير شعبي لا يمكن ترجمته إلى اللغة الأدبية دون أن يفقد معناه. ممن غير محبوب؟ من النساء، من المصير؟ من الجميع دفعة واحدة! كان تولستوي محرَجاً مع النساء، غير محظوظ في الوظيفة، في المنصب، وفي القمار. لكن هذا لا يستنفد بالطبع، الكلمة المعقدة «غير محبوب» التي كان مع ذلك، يفهمها بصورة رائعة، القوزاقي البسيط يروشكا والأمير أولينين.

ولكن، بفضل هذا أصبح تولستوي الشاب كاتباً، ليحقق في الأدب ما تفتقر إليه الحياة. وباعتباره يتيماً منذ طفولته المبكرة، كتب تولستوي أروع عمل شاعري في الأدب الروسي عن الطفولة. ورغم أنه لم يكن من أنصار الحرب، تغنّى ببطولة الجنود والضباط الروس في سيفاستوبول المحاصرة، لدرجة أنه على «سيفاستوبول في كانون الأول/ ديسمبر» بكت الإمبراطورة، وبكى الذواقة الأدبي القدير إيفان تورغينيف، والأمير الشاب (الذي أصبح فيما بعد القيصر ألكسندر الثالث)، أما القيصر ألكسندر الثاني فقد أمر بترجمة القصة إلى اللغة الفرنسية، حتى إنه، حسب الشائعات، أرسل ساعيه الخاص إلى شبه جزيرة القرم، لفرز الضابط – الكاتب الموهوب إلى مكان آمن.

كان تولستوي، كما يقولون، ضابطاً لائقاً، ولكن لا أكثر. لم تكن تجتذبه لا بطولات الحرب المشكوك فيها، ناهيك عن منصب الضابط المشكوك فيه أكثر، في أثناء فتح القوقاز وفشل الحملة الروسية – التركية. على أية حال، هذه كلها لم تسيطر عليه كلياً. وكان تولستوي إنساناً هادفاً، مخلصاً جداً، وإذا ما رغب بشيء، فإنه يرغب به وحده استثنائياً.

فما الذي أراده الشاب تولستوي؟ الحب والسعادة. وتحديداً، أراد الإقامة في ياسنايا بوليانا والزواج. فالكتابة لم تكن تجتذبه إلى تلك الدرجة مثل المستقبل العادي لحياة صاحب الأرض في ضيعته مع زوجة مخلصة وصور

أجداده على جدران منزل مريح. إن النجاح الأدبي كان يرضي غروره، لكنه لم يخضع قواه النفسية. كانت مهنة الأدب تتطلب حلولاً وسطاً – مع رؤساء التحرير، مع الناشرين، مع الرقابة – لكن هذا لم يكن يلبي فكرته عن المثل الأعلى، والكمال، و«الجنة» في نهاية الأمر.

ياسنايا بوليانا+ الزواج كانا الأقرب إلى مثله الأعلى. وكانا «الجنة» الموضوعية والمتجسدة التي رسمها في رسالته من موزدوك إلى ت. آ. يرغولسكايا في كانون الثاني/ يناير 1852:

«ستمر الأعوام، وأنا الآن لم أعد شاباً، لكنني لست عجوزاً. في *ياسنايا بوليانا* – شؤوني منتظمة، وليس هناك ما يقلق، ولا مشاكل، وأنت ما زلت تقيمين في *ياسنايا بوليانا*. لقد تقدمتِ بالعمر قليلاً، لكنك ما زلت غضة وبصحة جيدة. وتسير الحياة كما في السابق؛ أنا أعمل في الصباح، ولكن معظم اليوم نحن معاً؛ بعد الغداء، وفي المساء، أقرأ بصوت عال ما لا تملّين الإصغاء إليه؛ وبعد ذلك تبدأ المحادثة. أنا أحدثك عن حياتي في القوقاز، وأنت – عن *ذكرياتك عن الماضي*، عن أبي وأمي؛ وأنت تروين قصصاً مخيفة، وحدث أننا كنا نصغي إليها بعيون خائفة وأفواه مفتوحة. نتذكر الغالين علينا والذين غادروا الحياة؛ أنت تبكين، وأنا أيضاً، ولكن دموعنا دموع السلام... أنا متزوج – زوجتي وديعة، طيبة، مُحبّة، وهي أيضاً تحبك مثلي. أطفالنا يسمونك «جدّة» ؛ وأنت تعيشين في المنزل الكبير، في الطابق العلوي، في تلك الغرفة حيث كانت تعيش الجدة. كل شيء في المنزل كما كان في السابق، بالترتيب نفسه كما كان في حياة أبي، ونحن نواصل الحياة ذاتها، واكتفينا فقط بتغيير أدوارنا؛ فأنت أخذت دور الجدة، لكنك أشد طيبة ولطفاً منها، وأنا دور الأب، لكنني لا آمل يوماً أن أستحقه؛ وزوجتي دور الأم...»

في هذه اللوحة التي تبدو للوهلة الأولى مثالية، يرسم تولستوي بصورة استبدادية، جميع الأدوار التي يجب أن يأخذها على عاتقهم مستقبلاً سكان الحوزة الذكورية ياسنايا بوليانا، بحسب النظام البطريركي السائد. فهو – دور الأب، أي نيقولاي إيليتش تولستوي، الذي أكمل عمل حميه نيقولاي سيرغييفيتش فولكونسكي في بناء مجمع حوزة ياسنايا بوليانا. ولقريبته

البعيدة ت. آ. برغولسكايا يخصص دور «الجدة» المشرّف، أي والدة الأب بيلاغيا نيقولايفنا، المولودة الأميرة غورتشاكوفا، وهي مستبدة، متقلبة، كانت تضايق وتزعج خدمها وعبيدها، لكنها كانت تحب ابنها نيقولاي حباً جماً، ولم تحتمل موته. ويخصص لزوجته دور الأم، ماريا نيقولايفنا تولستايا، المولودة فولكونسكايا.

هذا المقطع من الرسالة مهم بشكل خاص. لو أن صونيا (تصغير صوفيا – م.) بيرس، قبل أن تصبح الكونتيسة تولستايا، قرأت هذه الرسالة لأدركت أي دور يعدّ لها زوجها المقبل. إنه يعدّها لكي تكون في الآن نفسه، زوجته وأمه.

كان تولستوي يتذكر أباه، ويحبه، ويفتخر به وأراد أن يقلده، أما أمه فلم يعرفها تقريباً، لكنه كان يقدسها، وصوّرها في شخصية الأميرة ماريا في «الحرب والسلام». واستمر تولستوي في تقديس أمه طيلة حياته، حتى إن تقديسه هذا ظهر مع تقدمه في السن بقوة أكبر بكثير. وواقع أنه لم يتذكر وجهها، ولم تكن هناك صور شخصية لها، زاد من تقديسه لها، فتحولت الأم من صورة امرأة دنيوية إلى صورة قديسة (مادونا). وليس من قبيل المصادفة أن لوحة رفائيل المنسوخة في درسدن «مادونا سيستين» بقيت معلقة في غرفة نومه من عام 1862 إلى عام 1885، ومن ثم انتقلت إلى مكتبه، حيث لا تزال محفوظة حتى الآن في متحف ياسنايا بوليانا.

لقد جسد مثله الأعلى النسائي في والدته، وطالب به، بصورة لا شعورية، زوجة المستقبل. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن تصبح أماً بالمعنى المألوف للكلمة. علاوة على ذلك، خصص للأطفال دورهم في «جنته» المنزلية. وعليهم أن يكرروا طفولة أبناء ماريا نيقولايفنا ونيقولاي إيليتش. وها هو يكتب ليرغولسكايا: «... أطفالنا لهم أدوارنا...» وكذلك عليها أن تكون ربة منزل رائعة. «إنني أتصور... كيف سوف تهتم زوجتي...» وأكثر من ذلك... ماذا كان ينتظر أيضاً من زوجته المقبلة، سنعرف ذلك من قصته القصيرة «صباح مالك الأرض»:

«أنا وزوجتي التي أحبها، كما لم يحب أحد في الكون مطلقاً، نحن نعيش دوماً وسط هذه الطبيعة الريفية، الشاعرية الهادئة، مع الأطفال، وربما مع عمة

عجوز؛ يجمعنا حب متبادل، حب الأطفال، وكلانا يعرف أن هدفنا هو الخير. نحن نساعد أحدنا الآخر في السير نحو هذا الهدف. أنا أضع الأوامر العامة، وأعطي المساعدة والفوائد العامة، والعادلة، أنظم المزارع، وبنوك الإدخار، وورشات العمل؛ وهي، برأسها الجميل، وفستانها الأبيض البسيط، ترفعه عن ساقيها النحيلتين وتخوض في الطين ذاهبة إلى مدرسة الفلاحين، إلى المستوصف، إلى الرجل البائس الذي لا يستحق، بحق، المساعدة، وتطمئن الجميع وتساعدهم... يحبها الأطفال، والمسنون، والنساء، وينظرون إليها، كما ينظرون إلى أحد الملائكة، إلى العناية الإلهية. ثم تعود، وتخفي عني أنها ذهبت إلى الرجل البائس وأعطته نقوداً، لكنني أعرف كل شيء، فأعانقها بشدة، وألثم بقوة ولطف عينيها الجميلتين، ووجنتيها المحمرتين خجلاً، وشفتيها الورديتين المبتسمتين».

فيما بعد، جسدت صوفيا أندريفنا في الحياة الواقعية، كثيراً مما في هذه الصورة. في شبابها كانت ترتدي الفساتين البسيطة القصيرة، وتعالج النساء القرويات. كانت أماً وربة منزل رائعة. في أحلام نخليودوف في قصة «صباح مالك الأرض» القصيرة، يمكن العثور بسهولة على مضامين إيروتيكية أيضاً. فالزوجة يجب أن تكون ملاكاً، ولكن بـ «ساق نحيلة»، و«رأس جميل»، و«شفتين ورديتين». لم تكن صوفيا أندريفنا جميلة، لكن الجميع أشار إلى جاذبيتها في شبابها ومظهرها الشاب رغم تقدمها في السن.

في رسالته إلى برغولسكايا، يوزع تولستوي الأدوار على إخوته أيضاً. «ثلاثة وجوه جديدة ستظهر من فترة إلى أخرى على خشبة المسرح – إنهم إخوتي، والأهم، واحد منهم، نيقولنكا الذي سيكون معنا في كثير من الأحيان. أعزب قديم، أصلع، متقاعد، طيب ونبيل كما في السابق. أنا أتخيل كيف سيروي للأطفال حكايات من تأليفه، كما في الماضي. وكيف سيقبل الأطفال يديه القويتين (اللتين تستحقان ذلك)، وكيف سيلعب معهم...»

وأخيراً – أخته ماريا نيقولايفنا، ماشنكا. ويخصص لها دور شقيقتيْ والده، ألكسندرا إيليينتشنا وبيلاغيا إيليينتشنا. غير أنها لن تكون «بائسة، مثلهما».

ولكن، يُطرح السؤال التالي: كم كان هذا كله على محمل الجد؟ ربما أن

تولستوي الذي هرب إلى القوقاز، وحلم عند توقفه في موزدوك؟ ربما أراد تسلية عمته المتقدمة في السن، وتسلية نفسه؟

بعد خمس سنوات، كتب إلى أخيه سيرغي: «عبثاً تظن أن هذا الحب للحياة العائلية – هو حلم أشمئز منه. أنا رجل عائلي بطبيعتي، وجميع أذواقي لم تتغير كما كانت في شبابي، والآن أكثر من ذلك. وأنا مقتنع بهذا، كقناعتي بأنني أحيا».

من بين الإخوة الأربعة آل تولستوي (نيقولاي، سيرغي، دميتري، ليف) حقق الأخير وحده السعادة العائلية. وهذه السعادة العائلية اختُتمت بكارثة، لكن الكارثة كان لها فاتحة في العام الثامن والأربعين، ومنها كانت الأعوام الخمسة عشرة الأولى سعيدة رغم كل شيء. نيقولاي ودميتري توفيا عازبين. أما سيرغي فقد عاش طيلة حياته مع الغجرية ماشا التي اشتراها من معسكر الغجر، ورغم أنه أحبها على طريقته الخاصة، فقد عاش معها على الأغلب بواجب الشرف، وليس بدافع الحب. البائسة الوحيدة في الزواج كانت أخت آل تولستوي ماريا، التي هجرت مع أولادها زوجها، وولدت في أوروبا ابناً غير شرعي، وفي أواخر عمرها تحولت إلى راهبة. جميع أبناء ليف تولستوي، باستثناء من توفي في الصغر، أصبحوا أناساً معروفين، موهوبين ومقتدرين. واليوم يعيش أحفاد تولستوي المباشرين في مختلف البلدان ويزيد عددهم على ثلاثمئة وخمسين، وهم جميعاً يتواصلون فيما بينهم. أليس هذا دليلاً على أن مشروع ليف نيقولايفتش وصوفيا أندرييفنا العائلي قد نجح.

ولكن، هل كان من الممكن أن تنجح الجنة العائلية؟

عندما نقرأ بانتباه رسالة تولستوي إلى يرغولسكايا تأخذنا الدهشة من مدى براعته في رسم هذه الجنة في إسقاطاتها الواقعية والصوفية. الله – الأب. وفي المنظور الواقعي يتمثل في ثلاثة أجيال من رجال آل فولكونسكي – تولستوي: الجد نيقولاي سرغييفتش (شخصية الرجل العجوز بولكونسكي في «الحرب والسلام»)، الأب نيقولاي إيليتش (نيقولاي روستوف)، والابن ليف تولستوي. وليكن ليف في أعين إخوته الأكبر سناً، لا يزال «الصغير

الأنفه». لكن ياسنايا بوليانا ملكه الشخصي، وهذا وحده يعطيه الحق الشرعي بمتابعة منظور الله – الأب. العذراء المقدسة. في الإسقاط الصوفي هي الأم، أما في الإسقاط الواقعي، فهي الزوجة المثالية، غير المعروفة بعد. أما الروح القدس، فهي بالطبع، العمة برغولسكايا، روح المنزل، وحامية تقاليد الأسرة. الملائكة هم الأطفال. والرؤساء هم الإخوة الكبار.

هذه اللوحة تنقصها شخصية واحدة هي شخصية يسوع المسيح. كان موقف تولستوي من السيد المسيح في عام 1852 غير محدد بعد. فهو يؤكد في «الاعترافات» أنه في ذلك الوقت كان ملحداً، لكن هذا غير صحيح. فيومياته في القوقاز تتحدث عن أنه كان أحياناً يتوجه بحرارة وعاطفة إلى الله – الأب، خالق الكون. أما ما يتعلق بموقفه من المسيحية فكان موقفه غامضاً جداً.

في 7 تموز/ يوليو، أثناء وجوده في رومانيا، كتب تولستوي في يومياته: «من أنا؟ واحد من أربعة أبناء لمقدّم متقاعد، تيتّم منذ السابعة من عمره، وعاش بدون والديه، تحت وصاية النساء والغرباء، ولم يحصل على تعليم علماني ولا علمي، وأصبح مالكاً لإرادته منذ السابعة عشرة من عمره، من دون ثروة كبيرة، ومن دون وضع اجتماعي، والأهم من ذلك، من دون لوائح، رجل مستاء من أحواله حتى النهاية، أمضى أفضل سنوات حياته بلا هدف ولا متعة، وأخيراً نفى نفسه إلى القوقاز، هرباً من الديون والأهم من العادات، ومن هناك تشبث بصلات سابقة كانت قائمة بين والده وقائد الجيش الذي انتقل إلى جيش الدانوب قبل 26 سنة، ضابط صف من دون موارد تقريباً، باستثناء راتبه (لأن تلك الأموال التي لديه عليه استخدامها لتسديد ديونه)، من دون رعاة، من دون معرفة بالعيش في المجتمع، من دون معرفة الخدمة، من دون مهارات وقدرات عملية، ولكن بعزة نفس كبيرة!».

هذه اللوحة ستكتمل بعد ستة أيام باعتراف مهم: «صَلاتي. أنا أؤمن بإله واحد جبّار وخيّر، أؤمن بخلود الروح والقصاص الأبدي لشؤوننا؛ أتمنى أن أؤمن بدين آبائي وأن أحترمه».

إنه يؤمن بالإله – الأب، ويتمنى أن يكون مسيحياً وأرثوذكسياً. وذلك،

بادئ ذي بدء، لأنه دين الآباء. هذه قاعدة لكنها ليست إيماناً صادقاً. فبعد ثلاثين عاماً، في عام 1881، كتب يوميات جديدة سماها «مذكرات مسيحي». وسيصبح موقفه من المسيح محدداً تماماً. لكنه سوف يعني بالذات، الانفصال عن «دين الآباء».

متلازمة بودكلوسين

عندما نتأمل في قصة خطبة وزواج تولستوي من صونشكا (صوفيا – م.) بيرس، من غير الممكن ألا نقارن بطلها بشخصية كوميديا غوغول «الزواج»، مستشار المحكمة بودكلوسين. فتلك السرعة التي جرى فيها إعداد الزفاف، ومن ناحية أخرى، تردد العريس، واستعداده للهرب قبيل حفل الزفاف يذكران بموضوع مسرحية غوغول الكوميدية «الـزواج»، حيث يهرب بودكلوسين من العروس، من النافذة، قبل الذهاب إلى الكنيسة.

ولكن، هل من الممكن مقارنة تولستوي العظيم بالتافه بودكلوسين؟ لنلقِ نظرة إلى رسالة شقيقة تولستوي ماريا نيقولايفنا، التي كتبتها من منتجع غييرا الفرنسي.

بينما كانت في غييرا، خطر في ذهن ماريا نيقولايفنا أن تزوج شقيقها ليف من ابنة أخي نائب رئيس أكاديمية العلوم م. آ. دوندوكوف – كورساكوف، المعروف من قصيدة بوشكين الهجائية:

في أكاديمية العلوم
يجتمع الأمير دوندوك.
يقال إن هذا الشرف
لا يستحقه دوندوك
فلماذا إذن يجتمع؟
لأن لديه «مؤخرة».



كان تولستوي في ذلك الوقت في بروكسل، وكان يزور عائلة الأمير، حيث تعرّف على ابنة أخيه يكاتيرينا ألكسندروفنا دوندوكوفا – كورساكوفا.

وقد أعجبته الأميرة. وكان في هذا الوقت يبحث بصورة هادفة، عن خطيبة. وقررت أخته ماريا نيقولايفنا أنه لن يجد خطيبة أفضل منها.

بعد أن تلقى رسالة من أخيه من بروكسل (الرسالة لم تُحفظ)، حيث يبدو أنه طلب منه أن يعرف من خلال الأميرة، العمة كاتنكا، عن وضع قلب الفتاة، وهل هي متعلِّقة بشاب اسمه غاردان، حسب المعلومات التي وصلته، فكتبت له العمة:

«كُرمى لله، لا تهرب من سعادتك؛ لن تقابل فتاة مناسبة لك أفضل منها؛ والحياة العائلية سترْبطك نهائياً بياسنايا بوليانا وبعملك.

تعال، ليفوشكا (تصغير ليف – م.) حقيقة، في أحوال القلب، نحن (أي النساء) نعرف أفضل، – إذا ما بدأت التفكير، سيذهب كل شيء... ليكن واحد على الأقل من أسرتنا سعيداً! لا تفكر، بل تعال... إنني بخوف أكتب لك هذه الرسالة، أخشى ألا تكون قد سافرت إلى روسيا».

فما الذي كانت تخشاه ماريا نيقولايفنا، بحيث إنها كتبت هذه الرسالة «بخوف»؟ لماذا كانت تتضرع إلى أخيها ألا يهرب من سعادته؟

«لكنني أخشى فيك بالذات *طبخة بودكلوسين*. فإذا ما تم ذلك، ربما ستتساءل فجأة، لماذا أفعل هذا كله. إن يكاترينا ألكسندروفنا إذا لم تكن تحبك، وهذا ما لا أظنه، فهي ستحبك على الأرجح، عندما تصبح زوجتك، وفي عمرها، يمكن بالطبع القول إنها لن تفقد حبك ولديها جميع المعطيات لكي تكون زوجة مدركة وجيدة، ومساعدة وأماً جيدة. فمن هذه الناحية، كل شيء على ما يرام. هل تشعر أنت أنك تريد جدياً الزواج ورعاية زوجتك، وأن ترغب ما ترغب به هي، أي أن لا تفعل، حصرياً، ما تريده أنت، وأن تكون أقل أنانية؛ ألن تحل في نفسك ذات صباح *كراهية هادئة* نحو زوجتك، وتخطر بذهنك فكرة لو أنني لست متزوجاً فـ... هذا هو الشيء الرهيب! على أية حال، كُرمى لله، – لا تُغرِق في التحليل، لأنك إذا ما بدأت التحليل، فستجد بالتأكيد في كل سؤال عادي حجر عثرة، دون أن تعرف أن تجيب بنفسك عن *ماذا ولماذا*، وستلجأ إلى *الهروب*».

إن متلازمة بودكلوسين ليست مرض الطيش وخفة العقل. إنها مرض

الذكاء والعقل. فبالنسبة لتولستوي، كذلك الأمر بالنسبة لبودكلوسين، الزواج هو «مشروع» خطير للغاية. خطير لدرجة أنه ما إن تبدأ بالشروع فيه، تبدأ بوزن جميع الإيجابيات والسلبيات، وينشأ ذلك العدد الكبير من الأسئلة، ما يجعلك ترغب بالهروب.

«بودكلوسين. طيلة الحياة، طيلة القرن، مهما حدث، عليك أن تربط نفسك وبعدها لا عذر، ولا ندم، ولا أي شيء - كل شيء قد انتهى، كل شيء قد تمّ... إيه، أيها الحوذي!»

كتب تولستوي في يومياته في 20 كانون الأول/ ديسمبر 1896: «الزواج... هو من حيث الأهمية بعد الموت، وقبل الموت من حيث الوقت، لا شيء أكثر أهمية، ولا رجعة فيه مثل الزواج. ومثله مثل الموت، جيد عندما يكون حتمياً، لا مفر منه، وأي موت مفتعل سيئ مثله مثل الزواج. ولكن الزواج في هذه الحالة ليس شراً عندما يكون غير متاح...»

إن فكرة تولستوي المتقدم في السن هذه، كان يحب تكرارها، مثل كلمات الرسول بولص، أنه من الأفضل أن تعيش متزوجاً من «أن تحترق».

ولكن في هذه الفكرة عنصراً آخر هو - *عدم التراجع عن الزواج*. فالزواج - لطيلة الحياة. والزوجة لا يمكن أن تكون إلا واحدة. وهذا يتطابق تماماً مع مزاج بودكلوسين، ومع إحساس الشاب تولستوي.

خطيب يصعب إرضاؤه

بعد حبه الطفولي لصونشكا كولوشينا، ظهرت محاولة تولستوي الأولى للاعتراف بالحب في قازان. في عام 1851، وفي طريقه إلى القوقاز، التقى تولستوي في حفلة رقص بإحدى معارفه، بصديقة، وزميلة أخته ماشا في الدراسة في معهد روديونوف بقازان، زينتشكا (صيغة التحبب من اسم زينائيدا - م.) مولوستفوفا. زينتشكا لم تكن جميلة، لكنها كانت فتاة رشيقة وحالمة. عندما وصل تولستوي وشقيقه نيقولاي إلى قازان، كانت زينائيدا شبه مخطوبة لـ ن. ف. تيلي الموظف المسؤول عن المهام الخاصة في محافظة قازان. ومع ذلك في أثناء حفلة الرقص في منزل زعيم النبلاء،

رقصت جميع رقصات «مازوركا» مع تولستوي. وكادت تتعلق به وتقع في حبه، كما هو الأمر بالنسبة له. ثم اعترفت بعد ذلك بأنها شعرت معه «بالاهتمام، ولكن بصعوبة أيضاً». ولكن لم يكن في حياتهما سوى حدث بريء – على الأغلب من أيام سنوات دراسة تولستوي.

«زينائيدا، هل تذكرين حديقة الأسقف، الطريق الجانبي. كان الاعتراف معلقاً على لساني، وكذلك على لسانك. كان عليّ أن أبدأ، ولكن، تعرفين، كما يبدو لي، لماذا لم أفعل شيئاً. لقد كنت سعيداً، بحيث لم يكن لدي شيء أتمنّاه، وخشيت أن أفسد سعادتي... ليس سعادتي، بل سعادتنا».

هذه ليست رسالة إلى الفتاة، كما قد يظن القارئ. هذا ما كُتب في يوميات تولستوي، بعد أن أصبح في القوقاز، في يورت القديمة. إن تولستوي هنا يسأل نفسه: «هل من المعقول أنني لن أراها أبداً؟... ولن أكتب لها رسالة» لا أعرف اسم والدها، وربما لهذا، سأفقد السعادة. إنه أمر مضحك...»

إنها معاناة شاب شعر، لأول مرة، بنفسه «كبيراً»، قادراً على تقرير مصيره بصورة مستقلة. ومن المستبعد أخذها على محمل الجد. يجب النظر بجدية إلى مدونة أخرى، كتبها بعد عام، في القوقاز أيضاً، عندما علم تولستوي بحفل زفاف مولوستفوفا و ن. ف. تيلي، حيث قال: «أنا منزعج، وأكثر من ذلك، لأن هذا لا يقلقني كثيراً».

هنا ظهرت عند تولستوي مركزية الأنا Egocentrism الروحية الخاصة، التي تقدر جميع الناس والأحداث ليس بحسب أهميتها الخاصة، بل بحسب انعكاسها في نفسه، وبالمشاعر التي أثارتها. إنه ليس منزعجاً لأن زينائيدا تزوجت من غيره وليس منه، بل لأنه بقي تجاه الحدث لا مبالياً. وهل هذا يعني، أن مشاعره ليست كاملة؟ وأنه شخصية باردة؟ إذن، هو غير قادر على الحب؟

قارن – عزيزي القارئ – هذا المقطع من اليوميات القديمة بمدونة متأخرة كتبها في عام 1909: «بعد الغداء، ذهبتُ إلى ساشا (ابنته – *المؤلف*)، إنها مريضة، وإذا لم تقرأ سأكتب لها شيئاً ساراً. أخذت من عندها كتاباً لغوركي. قرأته. سيئ للغاية. لكن الأهم من ذلك، من غير الجيد، أن هذا التقويم الخاطئ غير سار بالنسبة لي».

أما الضحية التالية (هذه المرة، ضحية فعلاً) لـ«مشروع» تولستوي الزواجي فقد أصبحت السيدة الريفية فاليريا أرسينيوفا. كانت ضيعتها سوداكوفو تبعد ثمانية فيرستات عن ياسنايا بوليانا. بعد موت جار آل تولستوي ف. م. أرسينيوف، عُيّن ليف نيقولايفتش وصياً على أولادها. عندما عاد تولستوي في آخر أيار/ مايو 1856 من موسكو إلى ياسنايا بوليانا، زار سوداكوفو، كان ابن فاليريا الأكبر في العشرين من عمره. كتب تولستوي في يومياته: «إنها امرأة جميلة جداً. هل أحبها بجدية؟ وهل يمكنها أن تحبني طويلاً؟ هذان سؤالان أرغب بالإجابة عنهما لنفسي، ولست قادراً على ذلك».

وقد أدى دور «الخطّابة» رفيق تولستوي، ملّاك من تولا هو د. آ. دياكوف. كان أكبر من ليف نيقولايفتش بخمس سنوات. متزوج، إنسان عاقل، ملاك ورب عمل رائع. وتولستوي نفسه كان قد تغير كثيراً خلال هذه الفترة. لم يعد شاباً، بل أصبح رجلاً، اجتاز حربين، وأصبح كاتباً مشهوراً، وخاب أمله خلال هذا الوقت من الحرب، ومن الكتّاب.

حضر تولستوي إلى بطرسبورغ من شبه جزيرة القرم في تشرين الثاني / نوفمبر1855، بصفته مراسلاً، ولم يعد إلى الجيش، وبعد عام تقاعد. وفي الفترة من خريف 1855 إلى صيف 1856، تعرّف على أفضل كتّاب روسيا، وانتسب إلى الحلقة الأدبية المرموقة والأكثر شهرة في ذلك، حلقة مجلة «المعاصر (سوفريمينيك)» التي يرأسها الشاعر نكراسوف. عاش في بطرسبورغ في شقة تورغينيف، وتواصل مع نكراسوف، وبانايف، ودروجينين، وأستروفسكي، ومايكوف، وغيرهم من الكتّاب المشهورين، لكنه لم يكوّن صداقة إلا مع أستروفسكي وفيت، بعد أن شعر أن لديهما الاستقلال ذاته عن اتجاهات موضة العصر، وعناد الشخصية الموجودَين لديه. أما علاقاته مع تورغينيف فقد تطورت منذ البداية بصورة سيئة وفضائحية. فقد كان حوض السمك الأدبي الواحد ضيقاً بالنسبة لحوتَين اثنين. وبعد بضع سنوات، كادت الأمور تصل إلى المبارزة بينهما بالبنادق.

باختصار، هرب تولستوي، في نهاية الأمر، من حلقة «المعاصر (سوفريمينيك)»، من جماعة «الكتب السوداء»، حسب تعبيره. ولهذا فإن قصة «القوزاق» وروايتي «الحرب والسلام» و«آنّا كارينينا» نُشرت في دار

نشر «النذير الروسي (روسكي فيستنيك)» لصاحبها م. ن. كاتكوف، الناشر والكاتب الليبيرالي أولاً ثم الرجعي، الذي كتب عنه تورغينيف قصيدة بالشعر المنثور بعنوان «الشنيع». لكن تولستوي اتفق مع كاتكوف ليس عن قناعة، بل لاعتبارات عملية. وعلى سبيل المثال، باع قصة «القوزاق» لكاتكوف، لأنه خسر ألف روبل في البلياردو الصيني.

سيطرت فكرة الزواج من أرسينيوفا على تولستوي، بصورة جدية، لدرجة أن «قصتهما» استمرت أكثر من نصف عام، وانعكست في قصته الطويلة «السعادة الأسرية»، حيث صمم تولستوي، بأثر رجعي، أفق حياته الأسرية مع فاليريا.

في كتاب ف. آ. جدانوف الرائع «الحب في حياة تولستوي» (1928)، الذي قدره تقديراً رفيعاً الكاتب والناقد القدير إيفان بونين، يظهر تطور العلاقات بين تولستوي وفاليريا، حيث يجدر الاعتراف بأن تولستوي لا يبرز في الشكل الأفضل. فهو رجل بعيد عن الطيبة، يحسب حساب كل شيء، ولا يخجل من اختبار قدرة حبه على الثبات. قدرة حبه بالذات وليس حبه الذي قد يكون مفهوماً ومسموحاً. أما فاليريا فهي سيدة ريفية عادية، تربت في القرية. وكان ليف نيقولايفتش، بالنسبة لها بالطبع، عريساً تُحسد عليه فهو كونت، وعسكري، وكاتب رائع، قرأت جميع السيدات كتابه «طفولة».

في أواخر الصيف، ذهبت فاليريا إلى خالتها في موسكو، وحضرت حفل تتويج القيصر ألكسندر الثاني. فاندهشت من روعة الاحتفال، وكتبت عنه إلى العمة يرغولسكايا في ياسنايا بوليانا، عارفة على الأغلب، أن هذه الرسالة سيقرأها ابن أخيها ليف نيقولايفتش. كان رد فعل تولستوي مذهلاً بلهجته القاسية. وقد أعطى تولستوي لفاليريا «ليزا كارامزين»[1] الإحساس مع أي إيراست (أي تولستوي نفسه – م.) هي تتعامل.

1- هنا تولستوي يشير إلى قصة الكاتب الروسي كارامزين «ليزا البائسة» ويشبه فاليريا بها، وهي الفتاة الفقيرة، بائعة الورد التي أحبت الشاب الغني الأرستقراطي إيراست ويشبه نفسه به. إيراست تعلق بها أيضاً لاحمرار وجنتيها من الخجل، لكنه لم ينظر إليها نظرة جدية فهي فلاحة فقيرة. وبعد أن أمضى ليلة معها، وفض عذريتها لم يعد يهتم بها. وفكرة تولستوي وكارامزين هنا، أن أية علاقة يجب أن تقوم على العاطفة والعقل، على الإحساس والتفكير. – المترجم

«لماذا كتبت هذا؟ أنت، تعرفين كيف يستفزني ويزعجني هذا الحديث. للعمة؟ صدقيني أن هذه أسوأ طريقة لتجعلي الآخر يشعر «أنا هكذا أبدو»، الأفضل أن تأتي إليه وتقولي له «أنا هكذا أبدو»... كان من المفترض (وردت بالأصل بالفرنسية – م) de toute beau أن تكوني فظيعة، صدقيني، أنت، المرأة الناضجة، بكل جمالها، وفي ثوبك العادي أفضل بمليون مرة.

إن محبة الطبقة العليا haute volee (وردت بالفرنسية – م.) وليس الإنسان غير صادقة، وخطرة أيضاً، لأنه فيها الكثير من القمامة أكثر من الطبقات الأخرى، وبالنسبة لك غير مناسبة، لأنك نفسك لست من الطبقة العليا haute volee، ولذلك فإن علاقاتك القائمة على أساس وجهك الحسن ونضجك النسائي، لا يجب أن تكون مُسرة حقاً وجديرة... بالنسبة لجناح المساعدين، يبلغ عددهم غالباً 40 موظفاً، وأعرف معرفة جيدة، أن اثنين منهم فقط ليسا شريرين ولا أحمقين، وبالتالي، لا شيء من الفرح هناك، – كم أنا سعيد لأنهم دعكوا زبيبتك في العرض، وكم هو غبي هذا البارون الغريب الذي أنقذك! لو كنت مكانه، لتحولت بكل سرور إلى حشد وأرقت زبيبتك الحمراء (يشبّه تولستوي أنوثتها الناضجة بالزبيبة اليانعة القطاف – م.) على فستانك الأبيض... لهذا، ورغم أنه كان بودي كثيراً القدوم إلى موسكو، لأغضب ناظراً إليك، فلن آتي، متمنياً لك جميع أنواع الملذات المغرورة بنهاياتها العادية الأليمة، وأبقى خادمك الأكثر تواضعاً، غير المسرور منك، *الكونت ل. تولستوي*».

بدا كأن «قصة الحب» انتهت قبل أن تبدأ. لكن تولستوي وضع نصب عينيه المهمة: الزواج! يكتب في يومياته: «تمشيت مع دياكوف. نصحني بأشياء كثيرة مفيدة عن نظام جهاز المساعدين، والأهم نصحني بالزواج من فاليريا. وبالإصغاء إليه، يبدو لي، أن هذا أفضل ما يمكنني فعله...»

إن متلازمة بودكلوسين، التي يمكن لرفيقه إقناعه بالزواج، تأخذ مجراها في رغبة تولستوي ببناء حياته حسب القواعد. وها هو ذا طيلة عدة أشهر يدرس فاليريا، مسجلاً في يومياته انطباعاته، التي يقترن فيها عقل بيتشورين (بطل ليرمنتوف في روايته الشعرية «بطل من هذا الزمان» – م.) البارد مع تردد بودكلوسين.

16 حزيران/ يونيو. «فاليريا حبيبتي».

18 حزيران/ يونيو. «تحدثت فاليريا عن الأزياء والتتويج. لديها استهتار، يبدو أنه شغف ليس عابراً بل دائم».

21 حزيران/ يونيو. «تحدثت معها قليلاً، ومع ذلك، فقد تركتْ أثراً لديّ».

26 حزيران/ يونيو. «فاليريا في فستان أبيض. إنها جذابة جداً. أمضيت أحد أجمل الأيام في حياتي...»

28 حزيران/ يونيو. «فاليريا ذات تربية سيئة جداً، إنها جاهلة، إن لم تكن غبية».

30 حزيران/ يونيو. «إنها فتاة رائعة، ولكن بالتأكيد، لا تروق لي. وإذا ما التقيت بها كثيراً، فسأتزوجها».

2 تموز/ يوليو. «مرة أخرى في رداء دارج قميء... سببتُ لها قليلاً من الألم بالأمس، لكنها عبرت عن رأيها بصراحة، وبعد قليل من الحزن، الذي عانيته، كل شيء ذهب... إنها لطيفة جداً».

25 تموز/ يوليو. للمرة الأولى أراها من *دون ثياب*، كما يقول سيريوجا. إنها أجمل بعشرات المرات، والأهم أنها طبيعية... يبدو أنها تحب الطبيعة حباً جماً. أمضيت *أمسية سعيدة*».

30 تموز/ يوليو. «فاليريا مهملة جداً. لم تعجبني قط».

31 تموز/ يوليو. «أظن أن فاليريا، ببساطة، غبية».

1 آب/ أغسطس. «فاليريا كانت في حالة نفسية متكدرة، ومتأثرة بصورة حادة، وغبية».

10 آب/ أغسطس. «تحدثت وفاليريا عن الزواج، إنها ليست غبية، ولطيفة بصورة غير عادية».

12 آب/ أغسطس. «كانت بسيطة وجذابة بصورة غير عادية. أتمنى لو أعرف، هل أنا مغرم بها، أم لا؟».

16 آب أغسطس. «جميع هذه الأيام أفكر بفاليريا أكثر فأكثر».

24 أيلول/ سبتمبر. «فاليريا تثير اشمئزازي».

ولاختبار علاقاته بفاليريا يسافر تولستوي إلى بطرسبورغ، وفي تشرين

الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر 1856 يكتب لها رسائل طويلة، تخلو من الشغف والانفعالات، وتقتصر على التوصيات التي تتخللها تصريحات غير مؤكدة بالحب.

«لا تضيعي الأمسيات من فضلك... ليس لأن الدروس المسائية ستكون مفيدة لك فقط، بل من أجل تعويد نفسك على التغلب على الميول السيئة والكسل... إن نقيصتك الرئيسة هي ضعف شخصيتك، وبسببها تحدث العيوب الصغيرة الأخرى. عززي في نفسك قوة الإرادة. تماسكي وحاربي بعناد عاداتك السيئة... كُرمى لله، تنزّهي، ولا تجلسي طويلاً في الأمسيات، وحافظي على صحتك».

«تقولين إنك مستعدة للتضحية بكل شيء من أجل رسالة مني. لا سمح الله أن تفكري على هذا النحو، نعم، ولا حاجة للكلام. في *عداد هذا كله ثمة فضيلة* لا يمكن التضحية بها، لا من أجل قمامة مثلي، بل ولا من أجل أي شيء في العالم. فكّري في هذا. من دون احترام *الخير*، أعلى من أي شيء، لا يمكن العيش حياة جيدة في العالم... اعملي على نفسك، تحلّي بالقوة، تحلّي بالشجاعة».

ولكن ثمة لحظتين قاسيتين جداً في هذه الرسائل. الأولى – اعترف تولستوي لها بالحب، رغم كل شيء: «... أنا ببساطة أحبك، *متعلّق بك*...»، والثانية، وهي الأهم بكثير...أنه يخترع زوجين: خرابوفيتسكي وديميتسكايا. وهما «يبدو أنهما يحب أحدهما الآخر» وينويان الزواج، مع أنهما شخصان من: ميول متعاكسة». ويصف صورة حياتهما المقبلة، مع التفاصيل، مع أرقام الدخل والمصاريف، وعدد الغرف في منزلهما المتخيّل وما شابه ذلك. إنه، في الواقع، يدعو فاليريا لأداء دورها في «مشروعه» العائلي. وهو، خلال ذلك، يفكّك بعناية، ليس عيوبها فقط، بل وعيوب حبيبها السابق أيضاً – عازف البيانو الفرنسي مورتيي دو فونتين، الذي كانت متعلقة به في موسكو. ويكتب لها: «لا تيأسي من أن تصبحي الكمال بعينه». وينصحها بارتداء الجوارب والمشد من دون مساعدة الخدم. وغير ذلك من هذا القبيل، مما لا يمكن أن يكتبه إلا لعروسه.

في أوائل عام 1857 سافر تولستوي إلى الخارج، وكتب لأرسينيوفا رسالة الوداع، واضعاً نقطة في نهاية «القصة»: «كوني مذنباً بحق نفسي، وبحقك، أنا مذنب بصورة رهيبة – هذا أمر لا شك فيه. ولكن، ما العمل؟... وداعاً يا عزيزتي فاليريا فلاديميروفنا، المسيح معك؛ أمامك، مثلي تماماً، طريقك الكبير الرائع، وأسأل الله أن يقودك إلى السعادة التي تستحقينها ألف مرة. المخلص لك *الكونت ل. تولستوي*».

بعد عام تزوجت فاليريا من القبطان تاليزين، وأنجبت منه أربعة أطفال، ثم تطلّقت بعد ذلك وتزوجت ثانية. وفي عام 1909 توفيت في مدينة بازل، وفيها دُفنت.

كتب تولستوي بعد عام من انفصاله عن أرسينيوفا: «لقد أحببت كلاً من تيوتشيفا، سفيربييفا، شرباتوفا، تشيتشيرينا، أولسوفييفا، ريبندير» ولكنني لا أثق كثيراً بهذا الحب. وكذلك أحببت الأختين لفوفا، والبارونة منغدين، والأميرة دوندوكوفا – كورساكوفا، والأميرة تروبتسكايا...

بعد أرسينيوفا، كانت يكاتيرينا فيودوروفنا تيوتشيفا، ابنة شاعره المفضل تيوتشيف، أطول فترة تشغل أفكار تولستوي:

29–31 كانون الأول/ ديسمبر 1857. «أبدأ أحب تيوتشيفا بهدوء».

1 كانون الثاني/ يناير 1858. «كاتيا جذابة جداً».

7 كانون الثاني/ يناير. «تيوتشيفا هراء».

8 كانون الثاني/ يناير. لا، ليست هراء. ببطء، لكنها تسيطر عليّ بصورة جدية وكاملة».

19 كانون الثاني/ يناير. «تشغلني بلا هوادة، حتى إنه مزعج، لا سيما أنه ليس حباً، وليس له سحر الحب».

20 كانون الثاني/ يناير. «تحدّثت م. سوخوتين بشكل قارص عن يكاتيرينا تيوتشيفا. ولا أتوقف عن التفكير فيها. ما هذه القمامة! ومع ذلك، أنا أعرف أنني متحمس لحبها، دون أية شفقة عليها».

21 كانون الثاني/ يناير. كاتيا تيوتشيفا تحب الناس فقط لأن الله أمرها. عموماً هي سيئة. لكنني لست لا مبالياً تجاهها، وهذا يزعجني».

26 كانون الثاني/ يناير. «ذهبت إلى تيوتشيفا بحب جاهز. إنها باردة، ضحلة، أرستقراطية. هراء!»

1 شباط/ فبراير. «مع تيوتشيفا ظهرت عبودية العادة».

8 شباط/ فبراير – 10 آذار/ مارس. «كنت عند تيوتشيفا. لا سلباً، ولا إيجاباً، إنها تتهرب».

28 آذار/ مارس. «للأسف، أنا بارد تجاه تيوتشيفا. كل شيء تغير، حتى إنه مقزز».

31 آذار/ مارس. «قطعاً تيوتشيفا لا تروقني».

في أيلول/ سبتمبر 1858، يقوم بالمحاولة المخلصة الأخيرة للزواج من تيوتشيفا. «أنا مستعد تقريباً للزواج بهدوء منها، دون حب، لكنها استقبلتني ببرود متعمد».

في نهاية هذا العام، جرى حادث لتولستوي، ليس له علاقة بالطبع، بسعيه للزواج، لكنه يوضح بدقة محاولاته لاكتساب السعادة الزوجية ضد جميع القواعد المتبعة في المجتمع الطبيعي. فقد توجه في كانون الأول/ ديسمبر إلى فيشني فولوتشيك لاصطياد الدب. وعندما وُضع في مكان معين، لم يقم بدوس الثلج من حوله وضغطه بقدميه، كما هو مفروض، وكاد يدفع حياته ثمناً لذلك. ركضت الدبّة إلى المرج، وهجمت مباشرة على ليف نيقولايفتش. أطلق عليها النار، فلم تصبها الطلقة الأولى، أما الطلقة الثانية فقد أصابتها في فمها، وتعثرت بين أسنانها. أسرعت الدبة بعيداً عنه أولاً، ثم عادت وبدأت تقضم رأسه، واقتطعت قطعة من جلدة وجهه. وصل الصياد المحترف في الوقت المناسب، وأطلق عليها النار وقتلها. وقد بقي جلد هذه الدبة التي لم يقتلها تولستوي في بيته في ياسنايا بوليانا، ثم نُقل إلى خاموفنيكي.

شعور الأيل

في طريقه إلى السعادة الأسرية، إلى الجنة الأرضية، كانت لا تزال أمامه، كما هو متوقع، سلسلة كاملة من الإغراءات.

إن أحد هذه الإغراءات الرئيسة التي كتب عنها في «الاعترافات»، وهو

الغرور، استطاع تولستوي تجاوزه ليس بسهولة، لكن هذه النقيصة لم تتعارض مع الصورة الشاعرية المرسومة في خياله للأسرة. فهو لم يصبح عسكرياً بارزاً؛ أما خيبة الأمل الأولى في تجربة إدارة الأملاك فقد جاءت متأخرة، لكنها وعدت بمحاولة ثانية ناجحة، جنباً إلى جنب مع زوجة تدير ياسنايا بوليانا. أما النجاح الأدبي فكان أكيداً لا شك فيه، وعدا الأموال الحقيقية، فقد أعطاه ضمانة بحياة ريفية جذابة للغاية، خالية من حتمية الملل الموسمي. إنه الجمع بين الملكية الزراعية والعمل الأدبي، المربح عملياً – وماذا يمكنه أن يرغب أكثر من ذلك!

إن حجر العثرة الرئيس في طريقه إلى «الجنة» كان نقيصة أخرى هي الشهوة. وقد بدا له، أنه غرق في هذه النقيصة إلى درجة تكاد تفقده عقله، وأصبحت موضوعاً دائماً ليومياته.

يبدو أن الشعور بالشهوة كان متطوراً جداً عنده، ولكن من المستبعد أن يتجاوز شعور أي شاب قوي أعزب. كانت الفلاحات – المجندات، والخادمات في الفنادق الأوروبية، وأخيراً البغايا في خدمته، لكن التواصل معهن لم يجلب سوى الأسى والانزعاج والآلام الأخلاقية. إن خدمة الشهوة لا يمكن أن تكون هدفاً لحياته، بل كانت تعيقه في حياته. «الفتيات أربكنني»، «الفتيات يزعجنني»، «بسبب الفتيات... أقتل أفضل سنوات حياتي» – ترجيع، ولازمة تتكرر في يوميات شبابه. من حيث طبيعته الأخلاقية، كان تولستوي «راهباً» بلا شك، لم ير في الشهوة الجنسية أية لحظة مشرقة. لكن الأهم – لا يمكن الهروب من هذه الشهوة إلى أي مكان. كانت تدركه في كل مكان: في ياسنايا بوليانا، في موسكو، في بطرسبورغ، في القوقاز، في الخارج، حتى إن ثمة شكاً بأن حالته السعيدة تقريباً في سيفاستوبول المحاصرة، ترجع إلى حد كبير، إلى أن القذائف والطلقات هي أفضل ما طرد الأفكار من رأسه عن الفتيات. فالخوف من الموت كان أقوى وأشد حدة من «شعور الأيل».

«شعور الأيل» – هذا تعبير تولستوي في اليوميات. وهو تعريف قوي جداً للشهوة! لكن واقع أن تولستوي بالذات هو الذي عرفها بهذه الدقة، يثبت أن هذا الشعور في نفسه لم يشغل كامل حجمه الداخلي، وأن ليف

نيقولايفتش كان قادراً على رؤية وإدانة «الأيل» في نفسه. فالأيل غير قادر على التفكير لا أثناء التواصل الجنسي ولا بعده، أما استبطان تولستوي عن الشهوة فكان أكثر إنهاكاً من «الاتصال الجنسي» ذاته.

إن يوميات تولستوي في الخارج عام 1857 قد تترك انطباعاً في نفس القارئ بأن تولستوي كان إنساناً شبقاً. فهو يذهب أولاً إلى باريس، ثم إلى سويسرا. جنيف، كلارن، بيرن... ولا يكتب عن الجمال والمعالم السياحية إلا باقتضاب. وأقوى انطباع في باريس أثر في نفسه - مشهد عقوبة الإعدام على المقصلة. أما ما يلتفت إليه باستمرار فهن «النساء الجميلات».

«امرأة نشيطة، سريعة، جمدت من الحرج». «... غازلت سيدة إنكليزية». «سويسرية رائعة، زرقاء العينين». «خادمة تزعجني». «*نساء* جميلات في كل مكان، بصدور بيضاء». «جميلات أخريات...». «امرأة جميلة ذات نمش. أرغب بامرأة جميلة، بشكل مريع». «فتاة جميلة للنزهة - ممتلئة الجسم». «*فتيات*. غازلتني *فتاتان* من شتانز، إحداهما ذات عينين رائعتين. فكرت بصورة سيئة، لكن الخجل عاقبني على الفور. كنيسة جميلة بجهاز كامل، ممتلئة *بالراهبات الجميلات*، وتغص بالهاويات *المؤنسات والمقبولات*... التقيت بشاب ألماني وسيم عند مفترق الطرق، أمام منزل قديم، حيث رأيت فتاتين جميلتين». «التقيت *بفتاة صغيرة*، لكنني *هربت منها*».

لكن، لننظر إلى الأمور نظرة عقلانية. باريس، سويسرا، بحيرة جنيف... وأخيراً - الربيع، فيومياته الأولى في الخارج دُوّنت في آذار/ مارس، ونيسان/ أبريل، وأيار/ مايو. وهروب تولستوي إلى الخارج يذكرنا إلى حدّ ما بهروبه إلى القوقاز قبل ست سنوات، وفي الربيع أيضاً. وبقيت في روسيا ديونه و«قصته» مع أرسينيوفا التي يشعر بالخجل منها. لكن أحلام الزواج لا تفارقه، ففي درسدن كان مستعداً لأن يقع في حب الأميرة يكاتيرينا لفوفا («جميلة، ذكية، صادقة، ذات طبيعة رائعة»)، لكن ثمة شيء ينقصها في نظره «ما هذه النزوات عندي؟». وفي جنيف كان قريباً إلى درجة خطيرة من الوقوع في حب ألكسندرين Alexandrine ابنة عم عمته ألكسندرا أندريفنا تولستايا، خادمة الشرف، التي كانت توافق أكثر من جميع النساء مَثَله الروحي الأعلى. ولولا أنها كانت أكبر منه بعشر سنوات لـ...

هذا ليس بعد ليف تولستوي – عجوز ياسنايا بوليانا، الذي تجتذب كل لفتة وكلمة منه انتباه العالم كله. إنه هنا، ذلك الرجل المعقد، الذي التقى به الكاتب الروسي تورغينيف في باريس، وكتب عنه لـ ب. ف. أنانينكوف بأنه: «... إنه إنسان غريب، لم أقابل مثله ولا أفهمه تماماً. إنه مزيج من شاعر، وكالفيني، ومتعصب، ونبيل – يذكّرنا بجان جاك روسو، لكنه أكثر صدقاً من روسو – كائن رفيع الأخلاق، لكنه غير ودود في الوقت نفسه».

«جميلات»، «صغيرات»، «رائعات» – هذا مجرد طلاء إضافي لرؤية العالم تلك المعقدة المتعددة الألوان التي تميز بها تولستوي دائماً. وهذا ليس «سباقاً نحو الجنس». لكن تولستوي نفسه يرى في هذا إغراءات الشيطان، ولهذا يدونها بدقة في يومياته. وفي سن الشيخوخة، عندما أعاد قراءة يومياته، وفكر كيف ستنشر بعد موته، اقترح في البداية، حذف تلك المقاطع، لكنه بعد ذلك نصح بالإبقاء عليها ونشرها كما هي، للدلالة، على أنه حتى هو هذا الإنسان الخاطئ، الضعيف لم يتخلّ عنه الله.

وسرعان ما ذكّره الله بوجوده. ففي تموز/ يوليو عام 1857 خسر في مدينة بادن في لعبة الروليت «حتى آخر قرش»، مما اضطره إلى الكتابة لتورغينيف، وطلب إرسال خمسمائة فرنك بأسرع وقت. وسرعان ما ورده خبر من روسيا، أن شقيقته ماشا هربت مع أطفالها من زوجها، بعد أن عرفت بحياته الفاسدة. وكتب تولستوي في يومياته: «لقد خنقني هذا الخبر».

وفي يومياته نفسها، في أواخر تموز/ يوليو – وأوائل آب/ أغسطس، بدأ يشكو، بشكل مثير للريبة من «اعتلال صحته». وهو «اعتلال الصحة» ذاته الذي بدأ به تدوين يومياته في قازان في ربيع عام 1847. لقد كان مرض الزهري.

وصل تورغينيف على جناح السرعة إلى بادن – بادن، فوجد تولستوي في حالة يرثى لها. كان مريضاً، خاسراً كل أمواله، مُهاناً بسبب أخته. وعلاوة على ذلك، كان زوجها فاليريان هو الآمر الفعلي في ياسنايا بوليانا في غياب تولستوي، لأن أخاه سيرغي رفض إدارتها. فغادر تولستوي إلى روسيا مطحوناً، مسحوقاً.

وهنا، يمسك الشيطان بتلابيب تولستوي بشكل نهائي.

الشيطان

كتب تولستوي قصة طويلة بهذا الاسم في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1889، بسرعة، خلال عشرة أيام دفعة واحدة. بيد أنه لم يكتف بعدم محاولة نشرها، بل أخفاها عن زوجته في حاشية الكرسي المنجّد. وهذا هو العمل الأكثر حميمية لليف نيقولايفتش عن نفسه. حتى إنه أكثر حميمية من قصته «طفولة».

بقي هذا «الهيكل العظمي في الخزانة» (أو بالأحرى في حاشية الكرسي المنجد) للقصة مجمّداً طيلة عشرين عاماً، إلى أن اكتشفته زوجته.

كتب ماكوفيتسكي في 13 أيار/ مايو 1909: «سيطر الشر والغضب اليوم على صوفيا أندرييفنا، ووجهت اللوم لليف نيقولايفتش، بغضب وشراسة، على هذه القصة... التي لا يذكر ماذا وأين كتبها».

لا يذكر؟ في 19 شباط/ فبراير من العام نفسه، كتب تولستوي في يومياته: «ألقيت نظرة إلى «الشيطان». شيء قاس، لا يبعث على السرور».

إن قصة «الشيطان» كانت تمس إحدى أكثر الصفحات حميمية وألماً في حياتهما العائلية. فهي تتحدث عن علاقة تولستوي بفلاحة متزوجة من ياسنايا بوليانا هي أكسينيا بازيكينا، وهي أطول وأقسى علاقة مع امرأة قبل زواجه. وكانت نتيجتها ابناً غير شرعي، وهذا ما كانت تعرفه صوفيا أندرييفنا.

في 26 نيسان / أبريل 1909 كتب سوخوتين، صهر تولستوي في يومياته:

«توجهت مع ليف نيقولايفتش إلى آل تشرتكوف. عرّجنا في طريقنا على امرأة توفي لديها ليلاً غريب غير معروف. كان المتوفى يرقد على الأرض، على القش، وكان وجهه مغطى بقطعة قماش. أمر ليف نيقولايفتش بالكشف عن وجهه، ونظر إليه طويلاً. كان وجهه وسيماً، هادئاً. هناك كان يجلس عدد من الرجال. توجه ليف نيقولايفتش إلى أحدهم قائلاً:

– من أنت؟

– أنا الناظر، يا صاحب السعادة.

– ما اسمك؟

– تيموفي أنيكانوف[1]

– آه، نعم، نعم – قال ليف نيقولايفتش وخرج إلى الممر. وتبعته ربة المنزل.

– من هذا أنيكانوف؟ – سأل ليف نيقولايفتش.

– تيموفي، ابن أكسينيا، يا صاحب السعادة.

– آه، نعم، نعم – قال ليف نيقولايفتش مستغرقاً في التفكير.

جلسنا في العربة.

– ولكن، كان لديكم ناظر آخر، شوكايف – قال ليف نيقولايفتش متوجهاً إلى الحوذي إيفان.

– لقد عزلناه، يا صاحب السعادة.

– ولماذا عزلتموه؟

– بدأ يتصرف بضعف شديد، يا صاحب السعادة، وكان يشرب المسكرات كثيراً.

– وهذا، ألا يشرب؟

– يشرب أيضاً، يا صاحب السعادة.

كنت أراقب باستمرار ليف نيقولايفتش، ولم ألاحظ أي حرج عليه. والحقيقة، أن تيموفي هذا – الابن غير الشرعي لليف نيقولايفتش، يشبهه كثيراً، بيد أنه أطول قامة وأكثر جمالاً. إن تيموفي هو حوذي رائع، كان يقيم بالتناوب عند إخوته الثلاثة الشرعيين، لكنه لم ينسجم مع أي منهم، بسبب إدمانه على الفودكا. وهل نسي ليف نيقولايفتش حبه الشديد للمرأة أكسينيا، الذي يتحدث عنه بصراحة في يومياته القديمة، أم إنه يرى من الضروري إظهار لا مبالاته الكاملة بماضيه، هذا أمر لا يمكنني أن أقرره».

ولد تيموفي بازيكين عام 1860 قبل عامين من زفاف ليف نيقولايفتش

1– «أنيكانوف» – هكذا كانوا يدعون في ياسنايا بوليانا ابن تولستوي وأكسينيا بازيكينا تيموفي بازيكين. وكما يتذكر الفلاحون «كان رجلاً ذكياً جداً، يتكلم بسلاسة واتزان، مع الفكاهات، وكان يشبه أبناء تولستوي. لم يعش في القرية إلا قليلاً، كان يخدم حوذياً لدى أبناء تولستوي». – المؤلف

وصوفيا أندرييفنا. عندما انتقل العروسان للإقامة في ياسنايا بوليانا، كان تيموفي طفلاً صغيراً. عن هذا الطفل الصغير بالذات تكتب صوفيا أندرييفنا في يومياتها، ساردة حلمها بعد أربعة أشهر من زفافها:

«جاءت إلينا في حديقة كبيرة العاملات لدينا من ضيعة ياسنايا بوليانا فتيات ونساء، وقد ارتدين جميعاً ثياباً فاخرة كالنبيلات. كنّ يخرجن، واحدة إثر أخرى، من مكان ما، وكانت أكسينيا آخرهنّ، وقد ارتدت فستاناً من الحرير الأسود. تحدّثتُ إليها، وسيطر عليّ غضب شديد، فأخذت طفلها من مكان ما، وبدأت بتمزيقه إلى أشلاء. الساقين، والرأس – مزّقت كل شيء، وأنا في حالة غضب رهيب. حضر ليف، فقلت له، سوف ينفوني إلى سيبيريا، جمع ليف الساقين واليدين وجميع أجزائه، وهو يقول، هذا لا شيء – إنه دمية».

لقد كان هذا مجرد حلم «غير سار». ولكن، كم كان معبراً! لقد كانت صوفيا أندرييفنا غيورة جداً. لكن، في هذا الموقف، الغيرة ليست وحدها. لقد دونت هذه العبارة في يومياتها في كانون الثاني عام 1863، عندما كانت حاملاً بالفعل. وقد تم تحديد اسم مولودهما الأول: سيرغي، إذا كان ذكراً، وتاتيانا، إذا كانت أنثى. ولكن، هل هناك حاجة للقول إن الفكرة ذاتها، فكرة أن المولود سيكون مولودها الأول، وليس مولوده الأول أبداً، كان من غير الممكن ألا تمزق قلب الزوجة الشابة والأم المقبلة؟

كانت الشائعات، حول أنه يعيش في ياسنايا بوليانا ابن غير شرعي للكونت، تنتقل بين الفلاحين، وتصل إلى صوفيا أندرييفنا. وعندما كبر أولادهما، وصاروا يعملون في الحقل، مقتدين بوالدهم، سمعوا بهذه الشائعات أيضاً.

لقد تم تدنيس «جنة» ياسنايا بوليانا منذ البداية. وترك الشيطان فيها آثاره التي كان من المستحيل أن تُمحى.

أقام تولستوي علاقة مع الفلاحة أكسينيا بعد عام من عودته من الخارج. هذا حدث في عيد الثالوث الأقدس في أيار/ مايو عام 1858. «كان يوم ثالوث رائع. أزهار بطم الشمال الذابلة في الأيدي المجعدة، صوت فاسيلي

دافيدكين المختنق. لمحتُ أكسينيا مرة واحدة. امرأة رائعة. جميع هذه الأيام كنت أنتظر عبثاً. اليوم، في الغابة الكبيرة القديمة، كنّة، أنا أحمق. أنا حيوان. سفح الاحمرار بشرة رقبتها... أنا عاشق، أكثر من أي وقت في حياتي. ليست لدي فكرة أخرى. أنا أتألم. غداً، *سأبذل كل قوتي*».

لقد أصبح صيف عام 1858 واحداً من أقسى الفصول في حياة تولستوي. ويكتب في يومياته: «لقد هرمت كثيراً. تعبت من الحياة في هذا الصيف». استمرت علاقته مع أكسينيا عامين، وحطّمته معنوياً أشد من جميع علاقاته السابقة. لقد كانت هذه العلاقة «استثنائية»، وأدت إلى أنه شعر مع هذه المرأة القروية المتزوجة لأول مرة، ما لم يشعر به مع سيدات الأقاليم والعاصمة – ليس كامرأة فقط، ولكن كزوجة. وليست زوجة غريبة، بل زوجته.

إذا ما كان «يتذكر» بعد عام من بدء علاقته مع أكسينيا «باشمئزاز، عن الكتفين»، ففي شهر تشرين الأول/ أكتوبر يلتقي بها «بصورة استثنائية». وبعد نصف عام يدرك أنه في حيرة نهائية من أمره. «لا أجدها في أي مكان. كنت أبحث عنها، لم يعد إحساس شعور الأيل، بل شعور الزوج نحو زوجته. غريب. أحاول استعادة الشعور السابق بالشبع، ولكن لا أستطيع».

لقد كان هذا اكتشافاً جدياً، بالنسبة لتولستوي، وأول ضربة رهيبة لـ «مشروعه» العائلي.

لكن، ما الذي حدث. سيد شاب أخطأ مع امرأة قروية، كان زوجها في المدينة يعمل لتأمين لقمة العيش لعائلته، والجزية لسيده. مسألة، بالطبع، سيئة، لكنها عادية.

لم يكن هذا حبه الأول لامرأة من عامة الناس. على الأرجح، كان حبه الأول للقوزاقية الشهيرة ماريا من قصة «القوزاق» التي كان لها نموذج واقعي باسم سولومونيدا. ويكتب عنها تولستوي في يومياته القوقازية: «السكّير بييشكا (في القصة: العم يروشكا – *المؤلف*) قال بالأمس، إن الوضع يجري على ما يرام مع سولومونيدا. بودي أن أمتلكها».

عند عودته من سيفاستوبول، وإقامته في ياسنايا بوليانا تارة وفي موسكو تارة أخرى، يشير تولستوي إلى نفسه بأن المسألة لم «تعد مزاجاً»، بل «عادة

الفجور والدعارة». «فالشهوة الرهيبة تصل إلى حدود الألم الجسدي». «أتجول في الحديقة، بأمل غامض لذيذ، بأن أصطاد امرأة ما في دغل. لا شيء يمنعني من هذا العمل. ولهذا، قررت أن أحوز خلال هذين الشهرين على عشيقة، بأي شكل وفي أي مكان». «فلّاحة جيدة، ذات جمال رائع. أنا سيئ بشكل لا يطاق لزحفي الضعيف إلى الرذيلة. الأفضل أن أكون أنا الرذيلة».

وها هو قد حصل على «الرذيلة نفسها»، وعلى عشيقة دائمة، وليس لشهرين، بل لعامين.

فلماذا تعلّقه بالقوزاقية سولومونيدا ولّد عنده قصة «القوزاق» الشاعرية، بينما علاقته بفلّاحة ياسنايا بوليانا أودت به إلى قصة «الشيطان» الرهيب، الميئوس منه؟

كان السبب هو «مشروع» تولستوي العائلي. ففي رسالته إلى يرغولسكايا، وفي قصته «صباح مالك الأرض»، صاغ تولستوي برنامجاً كاملاً لحياته العائلية المقبلة، وفي أواخر الخمسينيات كان يبحث عن مرشحة لمكان سيدة جنة ياسنايا بوليانا. لو أنه فكر بكل شيء كرجل اقتصادي عادي... لكنه كان روائياً عبقرياً. فقد رسم هذه الجنة في مخيلته إلى تلك الدرجة من الوضوح والشفافية، وإلى تلك الدرجة من التحديد الملموس، بحيث إنه عاش، عملياً، فيها. أما علاقته بأكسينيا فكان ينظر إليها في البداية، على أنها حالة مؤقتة.

وفجأة، تبين أنها هي الزوجة. وأن الشهوة وإرضاءها ليسا ظاهرة مؤقتة، ليسا «مدّاً» و«جزراً»، بل أساس، و«قلب» الحياة العائلية ذاته.

في قصة «الشيطان» مالك الأرض يفغيني إرتينيف (يحمل الكنية ذاتها تقريباً مثل نيقولنكا إرتينيف في قصة «طفولة») هو، بلا شك، تولستوي نفسه، مع بعض التحفظات. حتى إن تولستوي نفسه لا يكلف نفسه عناء إخفاء ذلك. أنهى يفغيني كلية الحقوق. حاول تولستوي الحصول على شهادة حقوقي في بطرسبورغ بالمراسلة. يفغيني حصل على الميراث بعد اقتسام التركة مع إخوته، والشيء نفسه حصل في حياة تولستوي. بدأ يفغيني

الخدمة في الوزارة (على الأغلب في وزارة الداخلية)، حيث كان يريد أن يخدم تولستوي الشاب في فترة من الزمن. يفغيني يستقر في القرية، حالماً بـ «بعث نمط الحياة ذاك الذي كان في عهد جده، وليس في عهد أبيه – كان أبوه ملّاكاً سيئاً». والد تولستوي لم يكن ملّاكاً سيئاً، لكن ما كان يفعله في ياسنايا بوليانا، كان يتابع خط حميه الأمير فولكونسكي، الذي أراد، كما يظهر من الرسالة إلى يرغولسكايا، أن يتابعه ابنه وحفيده ليف. كان يفغيني قوياً جداً، جسدياً، «متوسط طول القامة، قوي البنية بعضلات نامية بفعل الجمباز، دموي المزاج، بخدين متوردين مشرقين، وأسنان براقة، وشفتين لامعتين». أما تولستوي فقد كان مدمناً على لعب الجمباز. ومن الشباب حتى الكهولة كان يرفع الأثقال، ويدور على العارضة.

لكن هذه تفاهات، مقارنة بالشيء الرئيس. والرئيس، هو الذي يعذب يفغيني ويمنعه من ممارسة الزراعة، وهو الشهوة. «لم يكن داعراً، لكنه لم يكن راهباً، كما يقول عن نفسه. وقد استسلم للشهوة فقط، بالقدر الضروري للصحة البدنية والحرية العقلية، كما كان يقول...»

ولمن كان يقول هذا؟ هذا ما كتبه تولستوي نفسه في يومياته: «لا شيء يمنعني من العمل مثل هذا» (مثل الشهوة).

إن يفغيني – مثله مثل الشاب تولستوي – هو رجل برنامج، «مشروع». فقد حدد لنفسه هدف تحويل مزرعته إلى مزرعة نموذجية والزواج من فتاة فاضلة. ليس لحسابات مالية، ولكن ليس أيضاً بطريقة عشوائية، بل وفق القناعات الداخلية والتصورات عن نعيم الأسرة.

ولكن ثمة مشكلة! «فالامتناع القسري عن ممارسة الجنس بدأ يؤثر عليه سلباً. وهل يجب السفر إلى المدينة من أجل هذا؟ وإلى أين؟»

وعندها تظهر في حياة يفغيني ستيبانيدا. واسم هذه المرأة هو مزيج من اسمي سولومونيدا وأكسيونا، ومتوسط حسابي منهما. هو اسم شعبي بسيط، لكنه غير منتشر، وفيه عنصر «ذكوري» واضح.

في نهاية القصة، عندما يصحو يفغيني، يقول عن ستيبانيدا: «إنها شيطان. يا للعنة. إنها سيطرت عليّ رغم إرادتي». في صيغة أخرى، ترِد على النحو

التالي: «يا إلهي! لا وجود لأي رب! هناك شيطان. وهي الشيطان ذاته. وأنا لا أريد. لا أريد. شيطان. نعم. شيطان». في الصيغة الأولى من القصة يطلق يفغيني النار على نفسه. في الصيغة الثانية، يقتل ستيبانيدا. وفي كلتا الحالتين، اعتبروه فقد عقله مؤقتاً. والجمل الأخيرة في كلتا الصيغتين متماثلة تقريباً. «وبالفعل، لو كان يفغيني أرتينيف مريضاً نفسياً، فإن جميع الناس أيضاً مرضى نفسياً. – هذا أمر لا شك فيه، فأولئك الذين يرون في الناس الآخرين علامات الجنون، لا يرونها في أنفسهم».

وهكذا، فقد رأى تولستوي في قصة يفغيني، كما في قصة أكسينيا، وضعاً عالمياً شمولياً. إنه مصير جميع الرجال. وأولئك الرجال الذين لا يفهمون هذا هم مرضى نفسيين أكثر من أرتينيف.

لقد كُتبت قصة «الشيطان» بعد قصة «سوناتة كروتز»، ولكن في الوقت نفسه عندما كتب تولستوي خاتمة «سوناتة كروتز»، حيث أصدر حكمه الأخلاقي ليس على الحب الجنسي فحسب، بل على الزواج أيضاً: «لا يمكن أن يكون هناك زواج مسيحي ولم يكن في يوم من الأيام...»

لقد كُتبت «سوناتة كروتز» في فترة سابقة، لكنها من حيث الموضوع، تعد تتمة لقصة «الشيطان». بعد أن قتل يفغيني ستيبانيدا، تم اعتباره مريضاً عقلياً وحُكم عليه بالتوبة الكنسية. ومن سجن التحقيق والدير عاد مدمناً ميئوساً منه على الكحول. بوزدنيشيف، بطل قصة «سوناتة كروتز» قتل أيضاً زوجته، يُطلق سراحه أيضاً، بفضل محاكمة من هيئة محلفين. أثناء محادثته مع رفيق طريق، يشرب بوزدنيشيف الشاي الثقيل جداً، المركّز، الذي هو «مثل البيرة». إنه رجل محطّم نفسياً، لكنه مقتنع بأنه معافى عقلياً ونفسياً أكثر من المحيطين به. وقد أدرك بوزدنيشيف (ولكن بعد *فوات الأوان*)، أنه لا فرق مبدئياً بين الجماع مع الزوجة أو مع أية امرأة أخرى. فالزواج – هو جريمة مخفية.

موقف تولستوي، المتقدم في السن، من الزواج لم يكن سلبياً بصورة كاملة. لكنه كان مقتنعاً بأن على الرجل أن يتزوج المرأة الأولى التي «دخل فيها». وقد عبر عن هذه الفكرة عدة مرات، دون أي حرج من وجود صوفيا أندرييفنا. ولم يبدل فكرته هذه حتى أواخر عمره.

كان هذا اكتشاف تولستوي - إرتينيف - بوزدنيشيف. ولو أن تولستوي في أواخر الخمسينيات أوصل هذه الفكرة إلى نهايتها، لما كان زواجه من صوفيا أندريفنا الذي استمر خمسين عاماً، ولما كانت هناك رواية «الحرب والسلام» ولا رواية «آنّا كارينينا».

ولكن، وطالما كان هناك وقت متاح، خاف من هذه الفكرة، وكتب في يومياته في 1 كانون الثاني/ يناير 1859: «يجب الزواج في هذا العام، وإلا فلن أتزوج أبداً».

آل بيرس

في آخر أيار/ مايو 1860 يعترف تولستوي في يومياته: «لم أرها (يقصد أكسينيا - *المؤلف*). ولكن بالأمس، شعرت حتى بالرعب، كم هي قريبة مني». في هذا الوقت يعاني تولستوي من خيبة أمل جديدة في الزراعة: «الزراعة بالمقدار الذي تجري فيه، تسحقني» (رسالته إلى ك. فيت).

في تموز/ يوليو يسافر تولستوي مع شقيقته ماريا إلى الخارج، إلى مدينة سودن. في طريقه، في موسكو، يدون عبارة صغيرة: «موسكو. آل بيرس». في سودن، أصيب شقيقهما نيقولنكا بمرض السل الرئوي. وقد مات في فرنسا، في غييرا، في 20 أيلول/ سبتمبر. وقد ترك هذا الحدث انطباعاً كبيراً على تولستوي.

وكتب تولستوي إلى الشاعر فيت: «ولماذا الاهتمام، والمثابرة، طالما أن ما كان عليه نيقولاي نيقولايفتش تولستوي لم يبق منه شيء».

إن اللارجعة بعد الموت واستحالة تفسيره عقلانياً تذهلان تولستوي لدرجة أنه يقرر التخلي عن الإبداع الأدبي. وما الهدف منه؟ طالما أنه «غداً ستبدأ آلام الموت، بكامل رجس حقارتها، وكذبها، وخداعها للنفس، وتنتهي بالتفاهة، والصفر للذات». والشيء الوحيد الذي يبقى هو «الرغبة الغبية بمعرفة الحقيقة وقولها»، «ولكن ليس في صيغة فنكم. إن الفن هو كذب، ولم أعد قادراً على محبة الكذب الرائع».

في الوقت نفسه، يقنع تولستوي نفسه، بأنه هو نفسه مريض بالسل الرئوي.

وينطلق في أنحاء أوروبا، وكأنه يسعى للهرب من المرض. مدن: غير – باريس – نيس – فلورنسا – ليفورنو – نابولي – روما – لندن – بروكسل – فرانكفورت – آيزناخ – فايمار – درسدن – برلين – تلك هي خريطة هروب تولستوي، التي خلالها، مع ذلك، لم يضع وقته عبثاً، بل درس الممارسة الأوروبية للتعليم في المدارس. ويعود في أيار/ مايو إلى ياسنايا بوليانا، ويكرس نفسه لشغف جديد هو التربية، التي يدعوها بـ «عشيقته الأخيرة».

كيف كان تولستوي عشية زواجه من صوفيا بيرس في أيلول/ سبتمبر 1862؟

1) كان يعد نفسه مريضاً، رغم أنه كان قوياً ومعافى من الناحية البدنية.
2) كان يخاف الموت خوفاً مرعباً.
3) كان يخاف من العلاقة الجسدية مع النساء، مع سيطرة الرغبة الجنسية الجامحة عليه.
4) كان الرائد الثاني للأدب الروسي بعد تورغينيف، لكنه كان مستعداً لترك الكتابة الأدبية من أجل هواية جديدة هي التربية.
5) لم يتمكن من أن يصبح إقطاعياً رائعاً.
6) كان رجلاً عاطفياً، لكنه لم يكن عفوياً، كان رجل «مشروع».
7) كان بلا شك، أنوياً egocentrist، نظرته تتجه دوماً نحو داخل نفسه، لكنه يتمتع في الوقت نفسه بتقبل شديد للعالم الخارجي، وبنظرة جشعة إلى الناس.
8) كان يؤمن بالله، رغم أنه ليس مسيحياً.
9) كان يرغب حقاً بالزواج.

تلك هي «الباقة» التي لا يمكن تصورها التي ستقع على الزوجة التي سيختارها. لهذا ليس من المستغرب أنه لم يتعجل في تسليمها للأيدي الضعيفة الأولى. أخيراً توقفت نظرته على آل بيرس...

وهنا، كل شيء كان رائعاً وعملياً، في الوقت نفسه. وكانت والدة زوجة المستقبل صديقة تولستوي في الطفولة، وكان معجباً بها، وبحسب

الشائعات – لكن حماة المستقبل دحضتها – دفعها في ذروة الغيرة من شرفة منزل ياسنايا بوليانا.

كان والد لوبوف ألكسندروفنا بيرس – إسلافينا (إسلافينا – حسب شهادة الميلاد) ألكسندر ميخائيلوفيتش إيسلينييف، جار نيقولاي إيلتش تولستوي (والد ليف تولستوي – م.). وكان سيداً روسياً حقيقياً، وهو الذي شكل بالدرجة الأولى شخصية الأب في قصة «طفولة» وليس والد تولستوي.

كانت ضيعة آل إيسلينييف (كراسنوي) تبعد خمسة وثلاثين فيرستا عن ياسنايا بوليانا. وكان نيقولاي إيليتش وألكسندر ميخائيلوفيتش يمارسان الصيد معاً ويتبادلان الزيارات مع أسرتيهما لأسابيع كاملة، جالبين معهما الطهاة، والخدم، والوصيفات. وكان كل هؤلاء الناس يتجمعون في الغرف والممرات، وينامون على الأرض، على فرشات من الصوف وجلود الحيوانات.

كانت لوبوف ألكسندروفنا ابنة غير شرعية من زواج ثالث غير مسجل لايسلينييف على الأميرة كوزلوفسكايا، التي هربت من زوجها الأول وتزوجت سراً من إيسلينييف في ضيعة كراسنوي. هذه القصة أثارت ضجة كبيرة في المجتمع الراقي، لأن الأميرة كوزلوفسكايا كانت قبل الزواج، خادمة الشرف في قصر الإمبراطور. وبناء على شكوى الأمير كوزلوفسكي، اعتبر الزواج غير شرعي، واضطر أولاد إيسلينييف من زوجته الثالثة للتكنّي بكنية إسلافين «المصححة».

في تاريخ عائلة زوجة تولستوي من طرف أمها كان هناك كثير من الشاعرية الروسية الحقيقية العريقة، ما كان لا يمكن أن لا يدفئ روح مؤلف قصة «طفولة»، التي عرفت فيها أسرة بيرس – إسلافين أقاربها، وأحبت هذه القصة إلى درجة الحماسة الدينية تقريباً. وقد حفظت صونشكا (صوفيا – م.) بيرس غيباً، عن ظهر قلب مقاطع كاملة من هذه القصة.

وهكذا تصاهر تولستوي مع الأسرة التي كانت تحترمه وتوقره ككاتب. ومن ناحية أخرى، كان يتخاطب مع والدة زوجته المقبلة بصيغة المفرد، ويسمي أحدهما الآخر بصيغة التحبب، فيناديها «لوبشكا» وتناديه «ليفوشكا». وهذا حذف مسبقاً العلاقات المتوترة بين الصهر والحماة.

كما كانت ليوبوف ألكسندروفنا للشخص الرئيس بعد تولستوي، وهي العمة يرغولسكايا، الإنسانة الموثوق بها، فقد كانت تعرفها منذ طفولتها المبكرة. وهذا زرع في نفسه الثقة بأن ابنتها أيضاً ستتعايش مع العمة تاتيانا ألكسندروفنا.

كان يجد الراحة أثناء وجوده لدى آل بيرس. كان تولستوي منزوياً في التواصل، ويعد نفسه قبيحاً «رهيباً» (بأنفه الكبير، وأذنيه الكبيرتين، وحاجبيه الكثيفين، وعينيه الصغيرتين السماويتين الغائرتين).

أما لدى آل بيرس فكل شيء يجري بسلاسة.

وباعتباره صديق طفولة ربة البيت، كان تولستوي يتردد إلى منزلهم لتناول طعام الغداء، أثناء وجوده في موسكو، وكان يزورهم في بيتهم الصيفي في بوكروفسكوي بالعربة أو سيراً على الأقدام، ويمضي الليل عندهم، وفي الصباح كان زوج لوبشكا الطبيب أندريه يفستافيفيتش بيرس يوصله إلى موسكو بعربته، في طريقه إلى الكرملين.

كان أندريه يفستافيفيتش يعمل طبيباً في الكرملين. وهو أيضاً من أصول قديمة ألمانية. أما من طرف أمه فكان ينتسب إلى السلالة الكبيرة في روسيا من نبلاء فيستفاليان Westphalian (ذات الأصول الهولندية – م.). وكان والده صيدلانياً موسكوفياً ثرياً، أفلس أثناء حريق موسكو عام 1812، لكنه استعاد فيما بعد ثروته نسبياً. أنهى ولداه ألكسندر وأندريه مدرسة Schletser أفضل مدرسة خاصة ألمانية في موسكو، ثم كلية الطب في جامعة موسكو. وبعد انتهاء دراسته، ذهب أندريه يفستافيفيتش بيرس، بصفته طبيباً للأسرة، إلى باريس مع أسرة سيرغي نيقولايفتش وباربارا بتروفنا تورغينيف، مع ابنهما إيفان، الرائد الكلاسيكي المقبل للأدب الروسي. عندما عاد من باريس باشر خدمته في مجلس الشيوخ. وقد خُصصت له شقة حكومية في بناء قصر الكرملين. في عهد الإمبراطور نيقولاي بافلوفيتش حصل على لقب طبيب القصر. ثم سعى لاستعادة مزايا النبلاء وشعار النبالة (احترقت جميع وثائقه في عام 1812) وتمت إعادتها إلى الأخوين معاً، ولكن من دون الدب على الشعار (بيرس باللغة الألمانية تعني «دب»).

كان أندريه يفستافيفيتش في شبابه معبود النساء. حتى إن باربارا بتروفنا تورغينيفا حملت منه، وولدت ابنة غير شرعية، أصبحت على هذا النحو الأخت غير الشقيقة لتورغينيف ولزوجة تولستوي. وقد تركت باربارا جيتوفا بعد وفاتها مذكرات رائعة. وبحسب الشائعات، فإن الأمير بيوتر ألكسييفيتش كروبوتكين، زعيم الحركة الفوضوية الروسية، كان بالفعل أيضاً ابن بيرس طبيب عائلة كروبوتكين.

كان أندريه يفستافيفيتش رجلاً عملياً وعاطفياً. وهذه السمة الألمانية الأصيلة انتقلت إلى ابنته الوسطى صونشكا، التي تعايشت فيها النزعة العملية مع الحساسية الزائدة التي كثيراً ما تتحول إلى الهستيريا. لقد كان رجلاً عنيداً، ثقيلاً أحياناً على أفراد منزله، لكنه أباً محباً بلا حدود، وراعياً لـ «بناته»، وكما اتضح فيما بعد، حماً رائعاً، حيث لا يمكن قراءة رسائله إلى صوفيا أندريفنا وليف نيقولايفتش في ياسنايا بوليانا من دون ابتسامة لطيفة.

24 أيلول/ سبتمبر 1862 : «كيف وصلتما صديقي العزيزين الغاليين؟ أتصور اللقاء الذي أعد لكما. أرجو أن تشهدا باحترامي لتاتيانا ألكسندروفنا، وانحنائي الودي لسيرغي نيقولايفتش (شقيق تولستوي الأكبر – *المؤلف*). أعانقك، يا عزيزتي صونيا، وقبّلي زوجك نيابة عني. أمك تقبلكما وتمنحكما بركاتها. طيلة اليوم كنا نتحدث عنكما. أودعكما. الوالد المحب المخلص».

27 أيلول/ سبتمبر: «هل تقبّلين زوجك الطيب والعزيز بقوة؟ – قبّليه، وربّتي على ذقنه جيداً، عنيّ».

بعد مغادرة العروسين الشابين إلى ياسنايا بوليانا مباشرة، دعاهما بإصرار، ولكن دون فرض إلى موسكو، واعداً بوضع شقة من الكرملين تحت تصرفهما، أو بالعثور على شقة مريحة غير مكلفة بالقرب من الكرملين. وهو مستعد للذهاب إلى المراكز التجارية وشراء مخصصات لهما، فهذا سهل للغاية بالنسبة له، وهذا ما يفعله لأسرته. ومن خلال وصف وعكة صونيا، هو، كطبيب، أول من حزر بأنها حامل، ولم يطمئنها، بل طمأن ليف نيقولايفتش، وأوصى بإصرار صونيا بعدم ركوب الزلاجات، وعدم تناول الطعام الثقيل، لأنه يضغط على الرحم، وأن تستخدم ضد الغثيان الدواء

الفرنسي الفعال المعروف باسم شريحة الليمون «Tranche de citrone»، بشرط أن لا تبلعه مع القشر.

عندما أخذ ابنتهما الوسطى بعد الزفاف مباشرة تقريباً، من الكرملين إلى ياسنايا بوليانا، ترك تولستوي لدى آل بيرس أثراً قاسياً تجلى في صورة ابنتهما الكبرى ليزا، التي كانت تُعدّ خطيبة ليف نيقولايفتش حتى اللحظة الأخيرة، وأقنعت نفسها بأنها متعلقة به.

كانت هناك ثلاث أخوات في أسرة بيرس: ليزا، صونيا، وتانيا. وبالطبع، كن ثلاثتهن متعلقات به! إنه هو كان يظن، أنه قبيح جداً «رهيب»، بأنفه وأذنيه وحاجبيه. ولكن، بالنسبة لفتيات من أسرة طبيب الكرملين المتواضعة، ابن الصيدلاني الذي تزوجته لوبوف إسلافينا – الابنة غير الشرعية – على مضض («أنت، يا ألكسندر، سوف تزوج بناتك قريباً للموسيقيين»، – بغضب كانت تقول الجدة داريا ميخائيلوفنا إيسلينيفا لأبيهم، متذكرة علاقتها بعائلة شيريميتيف ذاتها)، لهؤلاء «الفتيات اللطيفات»، كما عبر تولستوي عرضاً في يومياته، كان تولستوي الرجل الأكثر إثارة لاهتمامهنّ، الذي يمكنهن تصوره.

آنذاك لم يكن قد ارتدى بعد الرداء السميك العريض الشهير، الذي سوف تخيطه فيما بعد صوفيا أندريفنا مع البنطال العريض. كان يخيط ثيابه عند أفضل وأغلى الخياطين في موسكو وبطرسبورغ. كاتب شهير، وضابط ميداني، كانت الأسرة الإمبراطورية مستعدة لملاطفته لولا شخصيته الخاصة. وكان تقديس الأسرة الإمبراطورية في أسرة طبيب القصر بلا حدود. ولم تتخلص صوفيا أندريفنا منه حتى بعد أن أصبحت زوجة تولستوي، عندما أصبح ألد أعداء الحكم الاستبدادي. ولكن سحر تولستوي لـ «الفتيات اللطيفات» لم يكمن، بالطبع، في مظهر المجتمع الراقي الذي كان يتحلى به الملازم تولستوي. إذن، أين كان يكمن؟ ربما في أنه كان يغني بصورة لائقة ويعزف الموسيقى؟ أو لأنه، وهو المساوي في السن للوالدة، كان «يرقص» مع بناتها كما يرقص مع الكبار؟ أو في الابنة الصغرى منهن، تانشكا، التي كانت تستخدمه كحصان، فتركب على ظهره، وتنتقل في أنحاء الغرفة مع صيحة النصر؟

كتب أندريه يفستافيفيتش بيرس إلى آل تولستوي في ياسنايا بوليانا، لإقناعهما بالقدوم إلى موسكو: «متى سنشاهد عندنا في الصالة الركوب على الحصان، إن تانشكا تنتظر هذا اليوم كي تصعد على ظهر زوجك».

بالطبع، أصبح تولستوي معبود الأخوات الثلاث جميعهن، معبود قلوب هؤلاء الفتيات غير المتشابهات، اللواتي وَحّدهن الإعجاب بليف نيقولايفتش الرائع، حيث أصبحت كل زيارة له إلى الكرملين أو إلى بوكروفسكي، قبل مغادرته إلى الجيش الميداني أو إلى الخارج، حدثاً فريداً من السعادة، كن يتذكرنه طيلة الوقت، وحتى زيارته التالية.

وتولستوي نفسه، كان يدرك، ويشعر، ويتنفس هذا الجو من التعلق الشمولي به، هذا الجو الذي من دونه يختنق أي إنسان ذي طبيعة فنية.

أفلا يشعره بالسرور لاستلامه في يوم عيد ميلاده «رسالة الدعوة» هذه:

«على رأس جميع الكتّاب، أرفع لك، عزيزي الكونت ليف نيقولايفتش، تهنئتي القلبية المخلصة بيوم ميلادكم، وأدعوكم للقدوم إلينا لتناول طعام الغداء والمبيت. وأتعهد في صباح يوم الأربعاء بنقلكم إلى موسكو، إذا كنت ترغب في السفر معي. آمل أن ليف نيقولايفتش الطيّب لن يرفض في طمأنتنا جميعاً – وخاصة في هذا اليوم الذي كان راحة للكثيرين بولادتكم ووجودكم الحاضر في هذا العالم. لذلك كلي أمل، وإلى اللقاء.

بيرس المحب لكم بصدق».

على أية حال، على ظهر الورقة، دوّنت، بخط مغاير، عبارة من المستبعد أن تعجب العريس المحتمل:

«في الأيام الخوالي، كان ليفوشكا ولوبوشكا يرقصان في هذا اليوم، والآن، عند الهرم، لا يضيرنا أن نتناول معاً الطعام بهدوء، في بوكروفسكي، وأن نتذكر، في وسط عائلتي، الشباب والطفولة. ل. بيرس».

إن تذكيره بعمره، من جانب حماته في المستقبل، لا يمكن أن يرضي ليف نيقولايفتش. لا سيما في آب/ أغسطس 1862 *عندما تقرر مصيره*. وتقرر مصيره ليس لمصلحة الابنة الكبرى ليزا، بل الوسطى صوفيا.

لقد دخل تولستوي في عائلة بيرس على الأسس القانونية للمعرفة القديمة بينهما، لكنه أحدث في بناتها دماراً، كمذنّب خارج عن القانون.

يمكن تقسيم قصة خِطبة تولستوي، التي تبدو للنظرة الأولى مربكة للغاية، وحتى كوميدية، إلى عدة مراحل. في أيار/ مايو عام 1856، وفي طريقه من سيفاستوبول إلى ياسنايا بوليانا، توقف في موسكو، وقرر زيارة رفيقة طفولته لوبوف ألكسندروفنا بيرس في بوكروفسكي، وللمرة الأولى التفت إلى بناتها الجميلات الثلاث اللواتي كنّ يكبرن. وبسبب الغياب المؤقت للخادم، كُلِّفت البنات (ليزا - عمرها اثنا عشر عاماً، صوفيا - أحد عشر عاماً، تانشكا - تسعة أعوام) بتجهيز المائدة للضيفين العزيزين (تولستوي، وخالهن كونستانتين ألكسندروفيتش إيسلافين) والعناية بهما. وكم كنّ سعيدات بهذا!

كانت الأخت الوسطى تعمل في البيت أكثر من أختيها. وبحسب التوزيع الأسري غير المعلن، كان يقع على الأخت الوسطى القسم الأكبر من الأعمال. فالأخت الكبرى - ذكية، مثقفة، «قويمة»، لكنها كالعادة، ليست المفضلة. والأخت الصغرى - غنِجة، طريفة، مدللة، ومحبوبة من الجميع. وعلى الأخت الوسطى أن تجمع في ذاتها بين حيوية الصغرى ودقة الكبرى، دون توقع احترام، ولا هيام مقابل ذلك. والقسم الأكبر من الأعمال يقع على كاهلها، بالطبع، لأن الكبرى تجلس دوماً مع كتبها، والصغرى تهتم بنفسها فقط.

كانت أسرة بيرس أسرة كلاسيكية، من جميع النواحي. فالأب كان يدلل البنات، بالطبع؛ أما الأم فكانت، بالطبع، تربيهن لتكونن نساء حقيقيات وزوجات المستقبل. وقد تربت الابنة الصغرى تانيا على الدلال أكثر من الجميع، أما ليزا وصونيا فقد عُوّدتا منذ الطفولة الباكرة على أعمال المنزل. وتتذكر صوفيا أندريفنا: «عدا دروسنا، نحن الأختين، كان علينا أن نخيط ونصلح البياضات، وأن نطرزها... حتى الأعمال المنزلية كانت على عاتقنا، أنا وأختي ليزا. ومنذ أن بلغنا الحادية عشرة من العمر، كان علينا أن نستيقظ باكراً، وأن نغلي القهوة لوالدنا. وبعد ذلك كنا نناول الطباخة المواد الغذائية من غرفة المؤونة. وبعد ذلك وحتى التاسعة مساء كنا نحضر دروسنا للصف... عموماً، كان الأب يدللنا ويحب أن يقدم لنا ليس ما هو ضروري فحسب، بل ما هو فاخر أيضاً. أما أمي فكانت لديها وجهات نظرها الخاصة

المميزة. كانت تخشى من تقديم الرفاهية لنا، وتعويدنا عليها، وأرغمتنا على أن نخيط ملابسنا الداخلية بأنفسنا، وأن نطرز، ونصلح، ونْدير، وننظف كل شيء... في حين أنها لم تكن تتصور أن نتنزّه نحن الفتيات، من دون حوذي بثياب رسمية، أو نركب عربة أجرة».

كتب تولستوي في يومياته في 26 أيار/ مايو: «تناولنا طعام الغداء عند لوبشكا بيرس. الفتيات كنّ يخدمننا. يا لهن من فتيات لطيفات مرحات!».

وقبل عشرة أيام وردت في يومياته مدونة: «لا تفوّت أبداً فرص المتعة والملذات، ولا تبحث عنها أبداً. - أُعطي لنفسي قاعدة بأن لا أدخل إلى الأبد إلى أية حانة وإلى أي بيت دعارة...» ولكن في شباط/ فبراير من العام نفسه، أثناء وجوده في بطرسبورغ في أشغال رسمية وأدبية، يكتب: «تشاجرت مع تورغينيف، ولدي عاهرة».

لا بد للقارئ من أن يدرك المسافة السيكولوجية الكبيرة التي كانت تفصل بين الرجل الخبير و«الفتيات اللطيفات المرحات»، اللواتي كنّ يخدمنه على المائدة. وبعد ست سنوات تصبح إحدى هذه الفتيات زوجته. من أجل تصور عالمها الداخلي نتجه إلى مقطع من مذكراتها:

«عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، جاءت لزيارتنا ابنة عمي لوبا بيرس، التي تزوجت أختها ناتاشا حديثاً آنذاك. وبصورة سرية، حدثتني لوبا هذه، أنا وأختي ليزا، عن جميع أسرار العلاقات الزوجية. وكان هذا الاكتشاف، بالنسبة لي، أنا الفتاة المثالية، مرعباً بكل معنى الكلمة. أُصبت بحالة من الهستيريا، وهرعت إلى السرير وشرعت بالبكاء الشديد، لدرجة أن أمي ركضت تسأل عما أصابني، لم أستطع أن أجيب سوى بقولي: «ماما، اجعليني أنسى...»»

تتابع صوفيا أندريفنا القول في مذكراتها: «وهكذا قررت آنذاك أنني إذا ما تزوجت يوماً ما فلن أتزوج إلا من الإنسان الذي سيكون نظيفاً، نقياً مثلي...»

في عرْض هذا الموضوع ملاحظة واحدة تدعو إلى الشك. لقد بدأت بكتابة مذكراتها عام 1905، بعد أن عرفت عن زوجها كل شيء بالفعل، بصورة حاسمة، بما في ذلك يومياته لعام 1856، حيث تتجاور بعبث

«الفتيات اللطيفات» مع «العاهرات». إضافة إلى ذلك، بحلول هذا الوقت، كانت رواية «البعث» قد أنجزت. وبطلتها الرئيسة التي تغنى بها زوجها هي امرأة عاهرة، على أية حال. وهذه الرواية لم ترق لصوفيا أندرييفنا. ليس لعيوبها الفنية، بل لهذا السبب.»... لم أشعر بالرضا والسرور بقراءة تفاصيل حياة العاهرات والبغايا، هذه المخلوقات التي كان يزورها رجالنا وأبناؤنا، والرجال عامة. وتبين أننا نحن الفتيات البريئات، الطاهرات، الصغيرات ورثة هذه المخلوقات الساقطة؛ وقد ذكّرني وصفهنّ من جانب ليف نيقولايفتش بزياراته المتكررة لبيوت التسامح (المقصود بيوت الدعارة – م.)، وهذا ما حدثني عنه وكتبه في يومياته الباكرة. وفي تلك الفترة (عندما كان يكتب رواية «البعث» – *المؤلف*) كنت أعمل بمثابرة على نسخ يومياته، بحيث تُحفظ نسخة في المتحف، ونسخة أخرى في ياسنايا بوليانا. وقد كان هذا لنفسي عذاباً كبيراً».

ولكن، آنذاك، في بوكروفسكي، في ربيع عام 1856، كان يجلس أمام صوفيا السعيدة ليس مؤلف «اليوميات» ولا «البعث»، بل مؤلف «الطفولة». وكان أيضاً مؤلف «المقالات» الوطنية في مجلة «المعاصر» (سوفريمينيك) حول المدافعين عن سيفاستوبول، تلك المقالات التي حازت على إعجاب القيصر.

كانت هذه بداية المرحلة الأولى. بعد عامين، في أيلول/ سبتمبر 1858 يزور لوبوف بيرس في عيد التسمية وبعد ذلك يكرر في يومياته عبارته ذاتها التي كتبها عام 1856: «فتيات لطيفات!» – ولكن من جديد بصورة غامضة غير محددة. «فتيات لطيفات»، أخوات ثلاث. ولكن تظهر هذه المرة إشارة تعجب، وهي نادرة في يومياته. كانت صونيا (صوفيا – م.) في تلك الأثناء في الرابعة عشرة من عمرها، أي فتاة ناضجة، حسب معيار تلك الأيام. لكن تولستوي لم يرها بصورة منفصلة عن الترويكا «اللطيفة». إلا أنه كان قد وقع في الحب، ليس في حب صونيا، بل آل بيرس.

دعونا نلقي نظرة على يوميات تولستوي لعام 1858، كي نكوّن فكرة عن مزاج هذا الإنسان.

«تيوتشيفا... باردة، سطحية، أرستقراطية. *هراء!*» «ألكسندرين تولستايا لقد كبرت ولم تعد امرأة بالنسبة لي». «كنت عند تيوتشيفا، لا تنفع لشيء...» «يوم رائع. النساء في الحديقة وفي الساحة. أنا كالمجنون...» ناديجدا نيقولايفنا كانت وحيدة. هي غاضبة مني، لكن ابتسامتها رائعة. لولا أن يديها طويلتان». «أعيش مع عمتي بصورة رائعة، كما في سالف الأيام». «لمحت أكسينيا. إنها رائعة جداً... أنا أعشقها أكثر من أي وقت في حياتي. ليست لدي فكرة أخرى». «لقد امتلكت أكسينيا...: لكنها أصبحت كريهة». «إن تورغينيف يتصرف برعونة مع ماشنكا (المقصود شقيقة تولستوي – م.)». «رأيت فاليريا – لست بآسف على مشاعري».

في هذه المدونات يمكننا تتبع ثلاث ملاحظات مهمة. الحب الحقيقي، وحتى الحنان لا يتوقدان عند تولستوي إلا فيما يتعلق بالناس المقربين – بالعمة يرغولسكايا، وبأخته ماشا التي كانت تحب تورغينيف في تلك الفترة، وتأمل، بصورة يائسة، بتطور قصة حبها له. لكن هذا الحنان يتحول بسرعة إلى حقد تجاه من يسيء إلى أقربائه. فيصف تورغينيف بأنه «قمامة»، وذنبه الوحيد أن لديه تردداً أبدياً في جميع قصص الحب مع النساء. ملاحظة ثانية – شعوره القوي الساطع، ولكن الحيواني، نحو القرويات عامة، وأكسينيا بازيكينا خاصة. والملاحظة الثالثة – موقفه البارد، الخالي من الحيوية، تجاه الخطيبتين المحتملتين – يكاتيرينا تيوتشيفا وفاليريا أرسينيوفا.

ولكن، هل أحب تولستوي النساء، عموماً؟ إنه سؤال معقد للغاية.

فمن ناحية، معروفة «فوبيا النساء» عند تولستوي المتقدم في السن، التي كانوا يسخرون منها في أسرته، والتي كانت تزعج صوفيا أندرييفنا كثيراً. ومعروفة تصريحات ليف نيقولايفتش الحادة حول تحرير المرأة، وحول الموضة الدارجة بين الفتيات للدراسة والعمل معلمات أو ممرضات. وقد أصبحت عبارته على كل لسان، حيث يقول، إن الحقيقة عن المرأة لن يقولها إلا على حافة القبر: سيقفز من التابوت ويقول الحقيقة، ثم يعود ثانية ويغلق الغطاء. ومن ناحية أخرى، كان تولستوي يحب بناته تانيا، ماشا، ساشا عاطفياً، وهذا ما سبب لهن بعض المشاكل الحياتية، فعدا سعادتهن بالتواصل مع أبيهن، كان بحبه لهن، يغار من عرسانهن.

إن مصطلح «الخوف من النساء» لا يحدد موقف تولستوي من النساء، كما أنه من المستغرب الحديث عن «الخوف من النساء» لدى مبدع ناتاشا روستوفا، وماريا بولكونسكايا، وكيتي ليفينا، وكاتيوشا ماسلوفا...

ومع ذلك فإن موقف تولستوي من النساء لا يمكن تسميته حباً. فمنذ شبابه وحتى آخر أيامه كان شعوره نحو النساء مزيجاً من الخوف، والاهتمام الحارق والأفكار الثقيلة حول الطبيعة الشيطانية للحب الجنسي.

إن «الخوف من النساء» عند تولستوي لا يمكنه ألا يولّد في القرن العشرين أسطورة الشذوذ الجنسي الكامنة وراءه. ولسوء الحظ أنه هو نفسه قدم الأوراق لهواة تشويه صورة كبار الكتّاب واعتبارهم شاذين جنسياً. والمقصود بذلك مدونته في اليوميات، التي سنوردها بكاملها، لأنها تمثل اعتراف تولستوي نفسه.

«لم أكن في يوم من الأيام مغرماً بالنساء. بيد أنني شعرت بعاطفة قوية، قريبة من الحب، عندما كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري، لكنني لا أود أن أصدق أن هذا كان حباً، لأن موضوع الحب كانت خادمة سمينة (كان وجهها جميلاً جداً، حقيقة)، على الرغم من أن الفترة بين 13-15 سنة هي العمر الأكثر اضطراباً للصبي (المراهَقة): ولا يعرف إلى أين يرتمي، فالشهوة في هذه المرحلة تندفع بقوة غير عادية. لقد أحببت كثيراً من الرجال، الحب الأول كان لاثنين باسم بوشكين، والحب الثاني لسابوروف، ثم الثالث لزيبين ودياكوف، والرابع لأوبولينسكي وبلوسفيلد وإسلافين، ثم لغوتييه وكثيرين آخرين... لقد أحببت الرجال قبل أن تكون لدي أية فكرة عن إمكانية *اللواط*، ولكن بعد أن عرفت لم تخطر في ذهني إطلاقاً فكرة الجماع معهم. مثال غريب لا يمكن تفسيره من التعاطف هو غوتييه. فرغم عدم وجود أية علاقات بيني وبينه سوى شراء الكتب. كنت أشعر بسخونة شديدة عندما يدخل إلى الغرفة. لقد دمّر حبي لإسلافين ثمانية أشهر من الحياة في بطرسبورغ. رغم أنني في اللاشعور لم أهتم بأي شيء آخر سوى محاولة إرضائه. وكان يشعر جميع الناس الذين أحببتهم بذلك، وأنا كنت أشعر، كان من الصعب عليهم أن ينظروا إليّ. في كثير من الأحيان، ولعدم عثوري على تلك الشروط الأخلاقية التي يطلبها العقل في أي موضوع، أو

بعد أية مشكلة ما معه، كنت أشعر نحوه بالكراهية؛ لكن هذه الكراهية كانت قائمة على الحب. نحو إخوتي لم أشعر أبداً بمثل هذا النوع من الحب. كثيراً ما كنت أغار من النساء. أنا أفهم المثل الأعلى للحب - التضحية الكاملة بالذات للشخص المحبوب. وهذا هو بالضبط ما كنت أشعر به. لقد أحببت دوماً الأشخاص الذين كانوا ينظرون إليّ ببرود، ويقدرونني فقط. وكلما كبرت أصبح هذا الشعور عندي أقل. وإذا ما شعرت به فليس بتلك القوة، ونحو أولئك الذين يحبونني، أي عكس ما كان في السابق. إن للجمال دوماً تأثيره الكبير في الاختيار، ومع ذلك، مثال دياكونوف؛ فإنني لن أنسى أبداً كيف ركبنا العربة معاً من بيروغوف، وكان بودي أن أتخلص من الملحفة، وأقبله وأبكي. وكانت هناك شهوانية في هذا الشعور، ولكن من المستحيل عليّ تقرير كيف ظهرت هناك؛ لأنني، كما قلت، لم يرسم لي خيالي أبداً صور حب شاذة، بل لدي اشمئزاز كبير».

يعود هذا الاعتراف إلى عام 1851. ما يثير الدهشة التحليل الجريء الذي لا يرحم، الذي يقوم به تولستوي البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً لمعاناته ومشاعره.

وفي عام 1858 نفسه، عندما كتب عن الأخـوات بيرس «الفتيات اللطيفات!» مع إشارة التعجب - سجل في يومياته حلماً غريباً، يظهر فيه شقيقه نيقولاي تولستوي الذي كان لا يزال على قيد الحياة: «رأيت في الحلم نيقولنكا في ثوب أزرق نسائي مرصّع بوردة يذهب إلى حفلة الرقص». كان تولستوي ينظر نظرة جدية إلى الأحلام، ويسجلها باستمرار في يومياته، ويكرس لها أماكن خاصة في مؤلفاته بل وأحياناً يكرس مؤلفات خاصة («حلم القيصر الشاب»، «ما رأيته في الحلم...» وغيرهما.)

هذا الحلم «الشاذ» لعام 1858 يطرح نفسه للبحث عن مغزاه في جمالية القرن الفضي. مثله مثل حلم آخر - في بداية عام 1859: «رأيت حلماً - ثمرة الفراولة، الدرب، هي، تم التعرف عليها فوراً، رغم أنني لم أرها من قبل، وتشابيج (اسم غابة بلوط صغيرة خلف منزله في ياسنايا بوليانا - م.) في أوراق البلوط الخضراء، دون أي فرع يابس أو ورقة يابسة...»

إنها «الغريبة» التي «تم التعرف عليها» قبل نصف قرن من ظهورها في شعر الشاعر بلوك! وهذا يرغمنا على النظر بشكل جديد إلى نظرة تولستوي – العريس.

عندما أصبحت زيارة تولستوي لعائلة بيرس تتكرر كثيراً، واكتسبت بوضوح طابع العريس، قررت الأخت الكبرى أنها هي التي اختارها ليف نيقولا يفتش. وكيف لا؟ ذلك أنه بحلول ذلك الوقت عندما بدأ يميز «الفتيات اللطيفات» الثلاث كشخصيات مستقلة، كانت يليزافيتا بيرس الأخت الوحيدة في سن الزواج. كما أن النظام المتبع كان يتطلب أن تتزوج الأخت الكبرى أولاً.

وليس من باب العبث، أن تقول جدة الأخوات الثلاث بيرس عمة أبيهن ماريا إيفانوفنا فولفيرت، عن صوفيا، التي كانت تحبها أكثر من جميع أخواتها: «Sophie a la tete abonnee» وهذا نوع من التورية «رأس صوفيا محجوز». ما يعني أن صوفيا أول من سيتزوج.

كان شيء ما ينقص الأخت الكبرى ليزا. كانت فتاة لطيفة، جميلة، وجدّية، لكنها لا تحب التواصل والاختلاط. كانوا يرونها دوماً، وكتابها في يدها.

– ليزا، تعالي العبي معنا – كانت أختاها الأصغر، وأخوها ساشا، ينادونها محاولين صرفها عن القراءة.

– انتظر، أريد أن أنهي ما أقرأه حتى النهاية.

وتتذكر ت. آ. كوزمينسكايا فتقول: «لكن هذه النهاية كانت تطول كثيراً. فنبدأ اللعب من دونها. لم تكن تهتم بحياتنا كأطفال، وكان لها عالمها الخاص، وتأملها الخاص، الذي لا يشبه تأملنا نحن الأطفال. الكتب كانت أصدقاءها، وكان يبدو أنها أعادت قراءة كل ما هو متاح لها في عمرها».

لقد بدا كأن هذه الجدية يجب أن تجذب تولستوي. فما الذي كان يزعجه أكثر من أي شيء آخر في أرسينيوفا؟ إنه الدلال، وحب الأزياء وحفلات الرقص والفراغ العقلي. وكانت ليزا نقيضتها الكاملة. وقد قدّر تولستوي هذا في البداية، حتى إنه دعا الفتاة للتعاون معه في مجلته التربوية «ياسنايا بوليانا». وبدا كأنه وجد في شخص الشقيقة الكبرى زوجة جاهزة ومساعدة له في حياته ككاتب. في هذا الوقت تبدأ المرحلة الثانية من دخوله إلى عائلة

بيرس، حيث يحدث ما يشبه توزيع صلاحيات الأخوات الثلاث. إنه يتعاون مع ليزا، ويعزف الموسيقى مع صونيا، وينتقدها بلا رحمة للأصوات غير الصحيحة؛ ويغني مع تانيا ويمزح ويتحامق.

في هذا الوقت، يعلن تولستوي لأخته ماريا، التي تربطها صداقة متينة بلوبوف بيرس:

- ماشا، عائلة بيرس لطيفة جداً بالنسبة لي، إذا ما تزوجت يوماً ما، فلن أتزوج إلا من عائلتهم.

إنه لم يعرف بعد، من سيتزوج، لكنه يعرف من أين. هذه الكلمات التي استمعت إليها خلسة مربية أطفال ماريا نيقولايفنا ونقلتها لأختها، مربية أطفال بيرس، قُيمت في عائلة بيرس على طريقتها الخاصة. فالعروس الوحيدة الجاهزة في المنزل كانت ليزا. أما صونيا فكانت ببساطة «فتاة ناصحة، وردية بعينين بنيتين داكنتين، وجديلة شعر داكن»، كما تتذكرها أختها تاتيانا. أما تانيا فكانت لا تزال طفلة.

واستناداً إلى اليوميات، كان تولستوي يراقب باهتمام الأخوات الثلاث جميعهن، ملاحظاً باهتمام ودهشة مسار نموهن، الذي يحدث في هذه السن بصورة سريعة مندفعة: بالأمس كانت طفلة في فستان صغير، واليوم أصبحت عروساً. ولم تتوقف هذه الملاحظات حتى بعد زواجه من صونيا، بالنسبة لتانيا، التي شكلت النموذج الأولي الرئيس لناتاشا روستوفا (بطلة رواية الحرب والسلام - م.). وصورة ناتاشا روستوفا بالذات، تعكس بوضوح كل تعقيدات علاقة تولستوي بالأخوات بيرس. وقد قال ليف نيقولايفتش مازحاً: «لقد أخذت تانيا وخلطتها بصونيا فنتجت عندي ناتاشا».

وقال مازحاً بحضور زوجته وشقيقة زوجته: «لو كنتما حصانين، لأعطت مزرعة الخيول ثمناً كبيراً لقاء هذا الثنائي؛ صونيا وتانيا - أنتما ثنائي مدهش، تُناسب إحداكما الأخرى». للأدباء يُغفر الكثير. ولكن من المستبعد أن صوفيا أندرييفنا كانت مسرورة أثناء قراءتها في يوميات زوجها الاعتراف الذي كتبه بعد ثلاثة أشهر من زفافهما: «إنني أرنو باستمرار إلى تانيا»، وقوله بعد ثلاثة أيام: «خوفي من تانيا هو اشتهاؤها».

لم تكن تاتيانا أندريفنا كوزمينسكايا سعيدة في حياتها الزوجية. وقد كاد آل تولستوي يكونون السبب الرئيس في ذلك. فقد كانوا رجالاً كاريزميين، مثيرين جداً للاهتمام، يتلاشى أمامهم جميع الرجال الآخرين. وكان ليف نيقولايفتش تولستوي رقم 1. واختار صونيا. وكان هناك أخوه الكبير الرائع، سيرغي نيقولايفتش، الذي أحبته تانيا في العام التالي بعد زفاف أختها، عندما أصبحت هي في سن الزواج. غير أن سيرغي نيقولايفتش، الذي شكّل النموذج الأولي لأندريه بولكونسكي (في رواية الحرب والسلام – م.)، كان في الحياة الواقعية مرتبطاً بالغجرية ماشا، وعاش معها في بيروغوفو، وكان لديه منها أطفال غير شرعيين. وبعد أن وقع في حب تانيا (قال عن حبها له: لقد أهدت المتسول مليوناً)، لم يقرر، رغم كل شيء، ترك ماشا والأطفال، وعذب الاثنتين بتردده: «لا نعم، ولا، لا»، وأخيراً قرر العيش مع الغجرية، وتصرف معها كرجل شريف، لكنه في الواقع، أطلق النار على تانيا في ذروة تألق أنوثتها.

بزياراته المتكررة لآل بيرس، وأحاديثه مع أخته حول أنه كان بوده العثور على زوجة من هذه الأسرة، أعطى تولستوي الذريعة لليزا، كي تأمل بأنها هي ستكون هذه الزوجة. والأختان بدورهما، مربيتا أطفال بيرس وماريا نيقولايفنا، «بدأتا تقنعان ليزا بأن ليف نيقولايفتش معجب بها». وبدأت ماريا نيقولايفنا، بدورها في «إقناع» أخيها بأن ليزا ستكون زوجة رائعة. فقد كانت شديدة الرغبة بتزويجه!

كانت ليزا في البداية غير مبالية بهذا كله، ولكن فيما بعد، حسب أقوال تاتيانا، «اتقدت فيها إما عزة النفس الأنثوية، وإما نداء القلب... فأصبحت أكثر حيوية، ولطفاً، وأخذت تلتفت إلى مظهرها الخارجي أكثر من السابق. وأخذت تجلس طويلاً أمام المرآة، كما لو أنها تسألها: «كيف أبدو أنا؟ وأي انطباع أُحدث؟». كانت تبدّل تسريحة شعرها، وعيناها الجديتان تنظران أحياناً، نظرة حالمة بعيدة».

كانت تانيا تتعاطف معها، أما صونيا فكانت تضحك عليها. كانت تعرف، في تنافسها مع أختها الكبرى، أن سحر الأنوثة والجاذبية إلى جانبها. كان يقع في حبها الفتيان في الرابعة عشرة من العمر والرجال في الخامسة والثلاثين،

الذين كانوا يزورون بيت آل بيرس. وقع حادث طريف في بوكروفسكي. جاء إلى آل بيرس بقصد الزيارة أصدقاؤهم آل بيرفيليف، ومعهم الصبي ساشا، في الرابعة عشرة من العمر، وهو «صبي متخلف عقلياً، وساذج». تقول كوزمينسكايا: «جلس بالقرب من صونيا، وكان ينظر إليها دوماً بحنان. وفجأة أمسك بكمّ ثوبها، وأخذ يمسِّده بقوة بأصابعه. ابتسمت صونيا محرجة، لا تعرف ماذا يعني بذلك.

– Pourquoi touchez la robe de m – lle Sophie? (لماذا تلمس فستان الآنسة صوفي؟) – سُمع فجأة صوت حاد لأناستاسيا سيرغييفنا والدة ساشا.

– لأنني عاشق.

ضحك الجميع بمودة معاً، وتوجهت جميع الأنظار إلى صونيا المحرجة أكثر من المعجب بها».

لا شيء من هذا القبيل كان من الممكن أن يحدث مع ليزا. فالأستاذ نيل ألكسندروفيتش بوبوف، البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، «الرزين، ذو الحركات البطيئة، والعينين الرماديتين المعبرتين» هذا الرجل وقع في حب صونيا. وكذلك معلم اللغة الروسية فاسيلي إيفانوفيتش بوغدانوف، الذي اضطر نتيجة حبه للتخلي عن منزله. وكذلك ابن صيدلي القصر. وابن المقاوم الشهير والشاعر دينيس دافيدوف. وكذلك يانيخين نجل طبيب التوليد الشهير.

لقد كان في صونيا شيء ما يجذب إليها الرجال من جميع الأعمار. وهذا الـ «شيء ما» يمكن تسميته بكلمة واحدة: الأنوثة. إنها مزيج من الطبيعة الحية، والحزن الفوري، وغريزة الأمومة المبكرة. كانت صونيا امرأة في غاية الجودة *par excellence*. كما كانت ممثلة رائعة في المسرح المنزلي، وكان بإمكانها حتى تصوير الرجال، لإدراكها بصورة مرهفة نقاط ضعفهم المميزة.

كتبت كوزمينسكايا: «كانت ليزا تنظر، لسبب ما، بشيء من الازدراء إلى الأعمال الأسرية واليومية – فالأطفال الصغار، وإطعامهم، والحفاضات – كل هذا كان يثير لديها إما الاشمئزاز أو الملل. خلافاً لصونيا، التي كانت

تجلس كثيراً في غرفة الأطفال، وتلعب مع إخوتها الصغار، وتسلّيهم أثناء مرضهم، وتعلمت من أجلهم العزف على الهارمونيكا، وكثيراً ما كانت تساعد أمها في الأعمال المنزلية».

في الوقت نفسه، كانت لدى صونيا سمة لا يمكن ألا تثير حذر رجل آخر، لكنها لا يمكن ألا تشكل عنصر جذب لتولستوي بتصوراته الحالمة حول الزوجة المثالية.

تكتب كوزمينسكايا: «كانت صونيا تتمتع بشخصية حيوية للغاية، مع ظل خفيف من النزعة العاطفية، التي كانت تنتقل بسهولة إلى الحزن. إن صونيا لم تستسلم قط للمتعة الكاملة أو السعادة الكاملة مما كانت تقدمها لها حياتها الفتية... وكأنها لم تكن تثق بالسعادة، ولم تستطع أن تأخذ بها وتستخدمها بكاملها. كان يبدو لها أن شيئاً ما سيعيق الآن هذه السعادة... كان والدها يعرف هذه السمة في شخصيتها ويقول «صونيا المسكينة لن تكون أبداً سعيدة بشكل كامل»».

لكن مثل هذه الطبيعة المعقدة وحدها كانت تناسب تولستوي إلى حد كبير. ولا ننسى أنه في هذا الوقت، ومن ثم طيلة حياته، كان يهتم كثيراً بالموسيقى. كانت لدى صونيا «موهبة موسيقية»! لا، كانت لديها بعض المشكلات بالذات بموهبة السمع والأداء. لكن «الروح الموسيقية» كانت طبيعتها ذاتها، وفي أفعالها وتصرفاتها، وجوانب مزاجها.

إليكم هذه الحادثة التي قد تبدو كأنها لا تعني شيئاً، لكنها ترسم بصورة تعبيرية، «ترتيب القوى» في الترويكا اللطيفة في عيني ليف نيقولايفتش. بوكروفسكوي، الربيع، توجهت ليزا وصونيا وتانيا وأخوهن بيتيا في نزهة مع ليف نيقولايفتش، والبروفيسور بافلوف، ومعلم اللغة الفرنسية باكو. وبحسب عادته، قادهم تولستوي في طريق غير معروف، وسرعان ما ظهر أمامهم إما خور وإما بركة عميقة. فما العمل؟ تقفز تانيا على كتفي ليف نيقولايفتش، فينقل تولستوي «مدام فياردوت»، كما كان يدعوها مازحاً لصوتها الجميل، إلى الطرف الثاني من البركة. ليزا تنتقل على أغصان الأشجار التي أحضرها باكو، رافعة فستانها. تنظر تانيا إليها وتفكر: «لم يعرض عليها أحد أن ينقلها

إلى الطرف الثاني. لماذا؟ إنها مختلفة تماماً». أما صونيا؟ فقد عرض بوبوف مساعدته لنقلها.

– صوفيا أندرييفنا، لا تقْدمي ولا تبحثي عن مكان للعبور. سأساعدك، سأحملك.

– لا! – صرخت صونيا، وانصبغت كلها بالاحمرار خجلاً، يبدو خوفاً من نواياه. وقفزت مباشرة في الماء، وعبرت إلى الطرف الثاني ناشرة الماء في كل الاتجاهات.

لاحظت تانيا في نفسها: «إن بوبوف لا يتحلى بالذوق والشعور، لا يمكن حمل صونيا – إنها كبيرة، وأراد أن يفعل مثل ليف نيقولايفتش. يمكن حملي أنا».

قد تتساءل، وماذا يمكن أن نستنتج من هذا؟ لا شيء. ولكن قبل الخلود إلى النوم، تتناقش صونيا وتانيا (تنامان معاً، أما ليزا، فتنام بعيداً) بحرارة حول هذا «الحدث». ويتضح فجأة أن هذا «الحدث» قد أثار قلق تولستوي أيضاً. قالت صونيا:

– لقد أيدني بشدة، لأنني لم أسمح لبوبوف بحملي. وقال لي: هذا ما توقعته منك. ثم أخذ يسألني ماذا فعلت خلال هذه الفترة، وبماذا اهتممت.

ثمة أشياء لا يمكن تفسيرها. على سبيل المثال، بالنسبة لتولستوي، لماذا كانت جميع الحجج المؤيدة «مع» إلى جانب صونيا وجميع الحجج المعارضة «ضد» إلى جانب ليزا. كانت تانيا الصغيرة تدرك هذا جيداً. ولهذا كانت تانيا «في اللعبة» بينما كانت ليزا «خارج اللعبة».

ذات يوم سألت تانيا أختها:

– صونيا، ?tu aimes le comte هل تحبين الكونت؟

– Je ne sais pas – لا أعرف – أجابت صونيا بهدوء، دون أن تشعر بأي دهشة أو مفاجأة.

ثم أضافت بعد قليل:

– آه، يا تانيا، لقد توفي شقيقاه بالسل الرئوي...

كانت هذه بداية المرحلة الثالثة لتردد تولستوي على آل بيرس التي لم يكن لها أن تنتهي إلا بزواجه من صونيا.

لم يكن تولستوي مغرماً بعد، ولم تكن صونيا مغرمة بعد. بل على

الأصح، كانت صونيا مغرمة قليلاً برجل آخر - بطالب ضابط الكلية الحربية ميتروفون بوليفانوف، صديق أخيها ساشا. «كان شاباً طويل القامة، أشقر، ذكياً، لطيفاً، مهذباً للغاية». كانت صونيا «مخطوبة» سراً لبوليفانوف، تماماً كما كانت تانيا «مخطوبة» سراً لابن عمها ساشا كوزمينسكي.

هذه العلاقات بين المراهقين الطفولية، لكنها الجادة والواعدة للغاية، كان من الممكن في موقف آخر (ولنقل صراحة، في حال غياب تولستوي) أن تنتهي، على الأغلب، إلى نشوء زيجات وعائلات موفقة. فساشا كوزمينسكي كان قريباً لآل بيرس، وهو ليس غريباً عن العائلة. وميتيا بوليفانوف هو ابن جنرال إسطبلات الإمبراطورية، وأصبح هو نفسه جنرالاً فيما بعد، كان يشبه آل بيرس، من حيث وضعه الاجتماعي بترتيبه «البرجوازي»، «الصيدلاني». أما زواج تولستوي من صونيا فقد كان غير متكافئ Mesalliance، رغم كل شيء. فصونيا لم تكن كونتيسة، ولم يكن لديها فلس من المهر.

بعد كارثة سيرغي نيقولايفتش، تزوجت تانيا من كوزمينسكي الذي أصبح رئيس محكمة، ثم أصبح عضواً في مجلس الشيوخ، لكن هذا الزواج لم يكن بالإمكان أن يؤدي إلى تكوين أسرة رومانسية سعيدة. فمنذ البداية، تسممت حياتهما بغيرة الزوج من آل تولستوي. ليس من سيرغي نيقولايفتش تولستوي فقط الذي بقيت تانيا تحبه طيلة حياتها، بل من آل تولستوي عامة، ومن أسرتهم الموهوبة العريقة، ومن أن زوجته كانت تعشق ياسنايا بوليانا إلى أبعد الحدود، ولا تتصور حياتها من دونها، وبالتالي من دون آل تولستوي. علاوة على ذلك، لم يكن باستطاعتها أن تفصل نفسها عن ناتاشا روستوفا.

لقد حزرت صونيا وتانيا بتعلق الكونت بصونيا قبل والديهما وليزا. وكانت لوبوف ألكسندروفنا وأندريه يفستافيفيتش في البداية متأكدين من أن الكونت إذا ما تقدم بطلب يد إحدى بناتهما، فسيطلب يد ليزا بالتأكيد. وانتشرت الشائعات في موسكو حول زواج تولستوي القريب من ليزا بيرس. أما تولستوي نفسه، فلم يشعر بنفسه متعلقاً بليزا، وليس هذا فحسب، بل كان واثقاً مسبقاً بأنه لن يتزوج أبداً من ليزا.

في 22 أيلول/ سبتمبر عام 1861 يكتب تولستوي في يومياته: «إن ليزا

بيرس تغريني؛ لكن هذا لن يكون». بعدها يوقف يومياته لمدة ستة أشهر، ويعود إليها في أيار/ مايو 1862، عندما يهرب إلى سهوب سماري ليتعالج بلبن الجمل (الكوميس). لقد كان مريضاً بالفعل، بصورة جدية، وأصيب بالهزال، بل ساء منظره في أعين الناس. وكان شبح السل الرئوي الذي قضى على أخويه، يلاحقه، على الرغم من تأكيدات أ. ي. برس أن ما أصابه ليس السل الرئوي بل «بلغم في الدم».

لكن الهروب إلى بشكيريا في ربيع 1862 يذكِّرنا كثيراً بهروبه من أرسينيوفا إلى بطرسبورغ. ويكتب تولستوي، قاصداً علاقاته المتوترة مع ليزا التي كانت تنتظر طلب يدها وقلبها: على الباخرة، تولستوي» انبعث إلى الحياة من جديد» و«إلى إدراكها». «... لقد أعطوني حريتي قليلاً». ومن جديد، وكما حدث في قصته مع تيوتشيفا، كان تقريباً مستعداً للزواج. ولكن، ببرود، ودون حب. وكتب في يومياته، قبل أسبوع من طلب يد صونيا: «يا إلهي! كم كانت ستبدو بائسة بجمال لو كانت زوجتي». ويكتب: «أبدأ بكراهية ليزا من كل قلبي». وكتب بعد يومين، عندما تحددت علاقته نهائياً بصونيا: «إنني عاشق، كيف لم أصدق، أنه من الممكن أن أحب».

ماذا عن صونيا؟ لم تعد صونيا تلك الفتاة الصغيرة التي تحمر من الخجل والإعجاب، عند تجهيزها المائدة لمؤلف «طفولة». صونيا تدرك جيداً، أن الكونت ربما يكون مريضاً بالسل الرئوي، وقد يتركها أرملة قبل أن تستمتع بالسعادة العائلية. وقد أصبحت قادرة بالفعل على إدانة عيوبه، مثل شغفه بالقمار.

وماذا عن ليف نيقولايفتش؟ في الأيام الأخيرة قبل أن يطلب يد صونيا، كان لا ينام الليالي ويعاني بصورة مريعة! ولأول مرة يشعر تولستوي بالخوف. ليس خوفاً من أنه أقدم على خيار خاطئ، بل الخوف من رفض طلبه. كان يشعر بنفسه، أنه هرم عجوز و«صبي في السادسة عشرة من عمره» في الآن نفسه. يحمل معه رسالة اعترافه بحبه، ويطويها في جيبه بحضور صونيا، ولا يجرؤ على تسليمها. حتى إنه كان مستعداً للجوء إلى وساطة تانيا. يقول عن نفسه، نعم أنا متقدم في السن، «لكنني رائع بحبي». وببساطة. إنه يفقد عقله. «أنا مجنون، سأطلق النار على نفسي، إذا استمر الوضع هكذا».

بالطبع «نعم»

قد يبدو لنا، أن قصة حب ليف نيقولايفتش وصونيا بيرس انتقلت ببساطة وبصورة طبيعية إلى رواية «آنا كارينينا»، «من دون أي تحرير» عملياً. في الواقع أن خطبة وزواج ليفين من كيتي تتطابق بأدق التفاصيل مع ما جرى بين تولستوي وصونيا.

ولكن هنا يكمن السر الأعظم لتولستوي الروائي، و«التركيز» الإعجازي لعبقريته الروائية. كيف للحياة الحية أن تتدفق، دون أي تغيير جوهري، في جسد الرواية وتعيش فيه لقرون؟ إنها الأحجية ذاتها مثل ولادة إنسان من جماع سِفاح، مع فارق وحيد، هو أننا في حالة تولستوي لا نرى عملية الانتقال من حالة إلى أخرى. وحدث كل شيء فجأة ودفعة واحدة. وليس هناك من حدود والتغلب عليها.

يبدو أن السر يكمن في أن قصة خطبة وزواج ليفين، مثله مثل الصفحات العائلية الأخرى من «آنا كارينينا» و«الحرب والسلام» قد أبدعها تولستوي *قبل أن* يسجلها على الورق. وبعد نصف قرن، سوف يأتي الرمزيون والمستقبليون وغيرهم من ممثلي التيارات الجذرية في الفن والأدب الروسي ليحلموا بالفنان الأديب – المبدع الذي يصهر الفن والحياة في كل واحد. وقد فعل تولستوي هذا قبل وقت طويل. فالقصص الواقعية التي «مثلها» في الحياة، أو التي «مُثلت» بمراقبته وإشرافه، كانت أكمل وأكبر من الروايات «الورقية». وعلى سبيل المثال، المشهد الشهير في «آنا كارينينا»، عندما يكتب ليفين على طاولة اللعب الأحرف الأولى من رسالة حبه لكيتي، كانت تشمل في الحياة الواقعية عدة تفاصيل لم تدخل في «آنا كارينينا».

أولاً، لا توجد في الرواية ليزا وتنافسها مع أختها الوسطى. وليست هناك تلك اللحظة المثيرة من تنافس النساء، حيث كان على المحك تولستوي وليس شخصاً آخر.

ثانياً، هذا المشهد تنقصه الشخصية الثالثة. ثانيا، السريعة الخطوات، الموجودة في كل مكان، ناتاشا روستوفا المستقبل. في قرية إيفيتسا – قرية إيسلينييف جد الأخوات بيرس – عندما كتب على الطاولة: «B. м. и п.

«с. с. ж. н. м. м. с. и н. с.» («شبابك وحاجتك إلى السعادة تذكرانني بصورة حيوية جداً بتقدمي في السن واستحالة السعادة») لم يكونا وحدهما في غرفة الضيوف. كانت تجلس تحت البيانو تانيا، مختبئة من الكبار، الذين كانوا يرغمونها على الغناء. وهذه العين الحشرية التي لا تطاق أصبحت شاهداً على ما أخفاه تولستوي في روايته. وعلى وجه التحديد: أن صونيا، بالاختلاف عن كيتي، لم تستطع فهم هذا الاختصار المعقد. وتكتب ت. آ. كوزمينسكايا: «إن أختها قرأت بعضها بشيء من الإلهام... وقال لها ليف نيقولايفتش بعض الكلمات». وإذا ما أردنا الحقيقة، فقد اعترفت صونيا فيما بعد لأختها بأن ما كتبه الكونت على كرسي الطاولة لم تستطع فهمه قط.

لكن تولستوي لم يطرح مهمة اختبار صونيا في الذكاء السريع. كان يحتاج إلى إطلاعها على *السر*. وإرغامها على الانحناء معه على طاولة اللعب وجعلها شريكة في المؤامرة ضد أختها الكبرى. نعم، المؤامرة! فبالاختلاف عن الرجل الصالح ليفين، كان تولستوي – الخطيب يتصرف بعيداً عن الكمال. وبإعطائه لليزا ذريعة للحلم بالزواج منه، كان يدرك أن طلب يد الأخت الوسطى وتجاوز الكبرى – هو على أقل تقدير تصرف غير لائق не comme il faut ليس كما يجب – بالفرنسية. فهو ليس مجرد إصابة نفسية، بل نسف خطير لسمعة الفتاة كخطيبة.

في الواقع، إن ما كتبه تولستوي على طاولة اللعب ليس كلمات رفيعة حول «استحالة السعادة» فقط. لقد كتب أيضاً أنه تشكلت في عائلة بيرس تصورات خاطئة حول علاقاته بليزا. وطلب من صونيا، بالاشتراك مع تانيا (وهي كانت إلى جانبهما، من دون علم منهما)، المساعدة في الخروج من هذا الموقف المحرج.

فإذا ما كانت صونيا قد حزرت، من الأحرف الأولى، اعترافه غير المباشر بالحب، فكان عليها أن تحزر أيضاً عرضه للمشاركة في المؤامرة ضد شقيقتها.

هل كان هذا قاسياً بحق ليزا؟ بالطبع! بعد شهر، وبعد أن أصبحت سيدة ياسنايا بوليانا، كتبت الكونتيسة تولستايا نادمة في يومياتها: «ليزا البائسة كم عانت من العذاب، إنني أتعذب لأجلها، وأشعر بحزن شديد...»

قبل وصولهم إلى إيفيتسا، توقف آل بيرس في ياسنايا بوليانا. كان هذا في شهر آب/ أغسطس 1862. خُصصت للفتيات «غرفة تحت الأقواس»، كانت في السابق مخزناً، وفيها مكتب تولستوي. كان ينقصهم مكان نوم لشخص واحد، واقترح المالك استخدام كنبة عريضة منزلقة.

- أنا سوف أرقد هنا. - قالت صونيا على الفور.

- سأجهز لك الآن كل شيء. - قال المالك.

وشرع تولستوي يهيئ السرير لصونيا... وقد وُصف هذا المشهد في ذكريات ت. أ. كوزمينسكايا بروح الدعابة، كيف بدأ تولستوي «بيدين غير معتادتين، عديمتي الخبرة، يبسط الشراشف ويضع الوسائد، وكيف ظهرت لديه الرعاية المنزلية المادية بصورة مؤثرة». لكن هذا المشهد ظهر في ذكريات صوفيا أندريفنا بمغزى آخر:

«مددت الشراشف والوسائد مع الخادمة العمة دونياشا، وفجأة دخل ليف نيقولايفتش، فتوجهت إليه دونياشا قائلة، وضعنا البياضات على الأرائك لثلاثة أشخاص، ولكن لا مكان للشخص الرابع. «يمكن ذلك على الكرسي»، - قال ليف نيقولايفتش وحرك كرسياً طويلاً، وأسند إليه كرسياً صغيراً. فقلت: «سوف أنام على الكرسي». «وأنا سأجهز لك السرير» - قال ليف نيقولايفتش، وبحركات غير خبيرة، بدأ يبسط الشرشف. شعرت بالخجل، وكنت أشعر بشيء لطيف، حميمي في هذا التجهيز المشترك للمنامة...»

عندما خرج تولستوي، أقامت ليزا فضيحة لصونيا. ولكن، كان كل شيء قد انتهى.

لعل صونيا نفسها لم تتوقع حدوث مثل هذا التحول في المصير. في صيف عام 1862 كتبت صونيا قصة بعنوان «ناتاشا»، وقد عرضتها على تولستوي بعد شك خطير. وللأسف، تم إتلاف هذه القصة بعد الزفاف، مثلها مثل يومياتها قبل الزواج. وهذا مؤسف على نحو خاص، لأن قصة «ناتاشا» أحدثت انطباعاً قوياً في تولستوي وحددت بعض ملامح بل وأسماء آل روستوف في «الحرب والسلام». وفي الواقع، وقبل أن تصبح عروس الكاتب، كتبت صوفيا أندريفنا له مسودة الصفحات الأسرية المقبلة من روايته.

نتعرف على مضمون القصة من ذكريات ت. أ. كوزمينسكايا.

في القصة بطلان: دوبليتسكي وسميرنوف. دوبليتسكي: رجل في منتصف العمر، غير جذاب من حيث المظهر، حيوي، ذكي، نظراته متغيرة نحو الحياة. سميرنوف: شاب، في الثالثة والعشرين من عمره، يتمتع بمثل عليا، وشخصية إيجابية هادئة، سريع التصديق، يبني مستقبله.

بطلة القصة – يلينا، فتاة شابة، جميلة، ذات عينين سوداوين كبيرتين. أختها الكبرى زينائيدا، غير جذابة، شقراء، فاترة، والأخت الصغرى – ناتاشا عمرها خمسة عشر عاماً، فتاة رقيقة ومرحة.

يتردد دوبليتسكي على منزلهم، دون أية أفكار خاصة بالحب.

سميرنوف مغرم بيلينا، وهي متعلقة به. يتقدم لخطبتها وطلب يدها، فتتردد في الموافقة. والداها ضد هذا الزواج لصغر سنه. يسافر سميرنوف لدواعي الخدمة. وصف أوجاع قلبه. وهنا عديد من الوجوه التمهيدية. وصف تعلّق زينائيدا بدوبليتسكي، طرائف ناتاشا وألعابها المختلفة، حبها لابن عمها، إلخ.

يتابع دوبليتسكي زيارة أسرة يلينا. فتقع في حيرة، ولا يمكنها تحديد مشاعرها، ولا تريد أن تعترف أمام نفسها، أنها بدأت تحبه. تعذبها فكرة أختها وسميرنوف. إنها تصارع عاطفتها، لكنها عاجزة أمام هذا الصراع. دوبليتسكي يهواها ولا يهوى أختها، وبالتالي يجذبها إليه أكثر. إنها تدرك أن نظراته المتغيرة نحو الحياة ترهقها. وعقله المدقق، الملتزم يقيدها. إنها تقارنه، ذهنياً، مع سميرنوف، وتقول لنفسها: «سميرنوف يحبني ببساطة وصدق، ولا يطالبني بأي شيء».

يعود سميرنوف من السفر. عند رؤية يلينا لآلامه الروحية، وتعلقها في الوقت نفسه بدبوبليتسكي، تفكر بالالتحاق بالدير.

تنتهي القصة بقيام يلينا بترتيب زواج زينائيدا من دوبليتسكي، ثم بعد ذلك تتزوج سميرنوف.

لقد رتبت المبدعة الحصيفة لقصة «ناتاشا»، رغم كل شيء، زواج دوبليتسكي من الأخت الكبرى، أما هي نفسها ففضلت الصيغة الأكثر ليونة

لمصير الأنثى – مع سميرنوف. لقد أتلفت صوفيا أندريفنا الواقعية قصة «ناتاشا»، واختارت لنفسها دور خدمة العبقري. لكن تضحيتها هذه لم تنسها. إن الزواج من عبقري هو دوماً غير متكافئ، دوماً غير متعادل. ولكن من في هذا التفاوت «أكثر تكافؤاً» تجاه «الضحية»؟ لقد كانت هذه المسألة كامنة بصورة غير مرئية في أساس جنة عائلة تولستوي قبل الزفاف. ولكن كان لابد من مرور كثير من الوقت كي ينضج من بذرة هذه المسألة نزاع حقيقي.

لقد كان موقف تولستوي من قصة «ناتاشا» معقداً. فهذه القصة الكبيرة أربكته من ناحية، ومن ناحية أخرى حفّزت مشاعره نحو صونيا، تلك المشاعر التي اكتسبت منذ تلك اللحظة بالذات، طابعاً لا رجعة عنه.

ليست هناك وسيلة أفضل لإشعال نار العاطفة في غصين خامد من «الإرغام على الشعور بقليل من الغيرة».

تذكرت صوفيا أندريفنا أن ليف نيقولايفتش أعاد لها قصة «ناتاشا» بـ «برود». عموماً، هو طلب منها أن تعرض عليه يومياتها، لكنها رفضت، وعندها وافقا على القصة. وكتب تولستوي في يومياته: «ما هذه الطاقة، طاقة الحقيقة والبساطة؟»

هل ثمة حاجة للقول إن صورة دوبليتسكي نالت من تولستوي؟ «قرأت كل شيء دون أن أتأثر، دون إشارة إلى الغيرة أو الحسد، ولكن «مظهر غير جذاب» و«تغيّر الأحكام» مسّتني بشكل كبير. لقد هدأت. إن كل هذا ليس عني...».

«ليس عنه» إمكانية السعادة العائلية مع صونيا. إنه هرم، دميم، وهي شابة، جميلة. «أنت أحمق، لم يُكتب هذا عنك...» «ليس عنك، أيها الشيطان العجوز، – اكتب مقالات نقدية!» «دوبليتسكي، لا تحشر نفسك حيث الشباب، والشعر، والجمال، والحب – هناك، أيها الأخ، طالب حربية»، «هراء – الدير، العمل، هذا هو مجالك، ومن الأعالي يمكنك النظر بهدوء إلى حب الآخرين وسعادتهم...» «آه، يا دوبليتسكي، لا تحلم!» «يا إلهي، ساعدني، علّمني. يا أم الله، ساعديني» «أنا مغرم، وكيف لم أصدق، أنه من الممكن أن أحب».

إنه لأمر مدهش! بقي تولستوي يحلم بالزواج طيلة عشرين عاماً تقريباً، منذ أن كان في الخامسة عشرة من العمر. وعاش مع زوجته قرابة نصف قرن. أما مرحلة الاستمالة والخطبة فلم تستغرق سوى شهر واحد. وأية استمالة أو مغازلة؟ فحتى اللحظة الأخيرة، لم يعرف أحد في عائلة بيرس، بمن فيهم صونيا، على من وقع خيار ليف نيقولايفتش. في 16 أيلول/ سبتمبر تقدم بطلب يد الخطيبة، وفي 23 أيلول/ سبتمبر كان الزفاف، وفي المساء نفسه، غادر العروسان الشابان إلى ياسنايا بوليانا.

بالفعل، لم يشعر تولستوي بنفسه بأنه خطيب، ولا صونيا لم تشعر بأنها خطيبة.

وكم كانت مغايرةً لخطبة أبيها لأمها. حيث كان هناك شعر قديم، وقراءة الحظ وتبصير لفتيات ساحة الفناء مع صحن من الماء وعيدان ممتدة عبره على شكل «جسر». وقد وضع الصحن ليلاً تحت سرير ليوبشكا إيسلافينا. ويجب أن ترى في حلمها الخطيبة وأندريه يفستافييفيتش هذا «الجسر» في الحلم، وقد شاهداه في الحلم بالطبع. لا يعرف أي شيء عن أحلام الخطوبة عند صونيا. أما الحلم الوحيد الذي يسجله تولستوي في يومياته في تلك الفترة، فلا يَعِدُ بأي شيء جيد: «في المنام رأيت كلباً سلوقياً مريضاً بائساً».

لقد تذكرت صونيا الأسبوع الذي قضته كعروس قبل الزواج دون أي حماس. «كانوا يقتادونني إلى المتاجر، وكنت أقيس بلا مبالاة، الملابس الداخلية والفساتين، وغطاء الرأس. يأتي ليف نيقولايفتش، ويحضر معه قلقه، وقبلاته، وعناقه وملامسته – إنها لرجل يعيش بلا نظافة – وقد أخافتني بشكل رهيب، وأصابتني بشعور سيئ. لقد شعرت بنفسي مريضة، غير طبيعية. ولم أستطع أن آكل أي شيء سوى الخيار المملح والخبز الأسمر...»

في 16 أيلول/ سبتمبر، جاء تولستوي إلى بيت بيرس حاملاً في جيبه رسالة طلب يد ابنتهم. وتكتب صوفيا أندريفنا: «طلب الزواج كان مكتوباً على ربع ورقة كتابة عادية قذرة، وقد حمله ليف نيقولايفتش في جيبه أسبوعاً كاملاً، دون أن يجرؤ على إعطائه لي».

«صوفيا أندريفنا!

أصبحت في حالة لا تطاق. ثلاثة أسابيع، وأنا أقول كل يوم: «الآن سأقول كل شيء»، وأذهب بالكآبة نفسها، والندم، والخوف والسعادة في نفسي. وكل ليلة، كما هو الحال الآن، أراجع الماضي، أتألم وأقول: لماذا لم أقل، وكيف، وماذا أقول. أحمل معي هذه الرسالة، من أجل تسليمها لك، إذا لم أتمكن ثانية أو لا تسمح لي نفسي بأن أقوله لك. إن نظرة أسرتك الخاطئة إليّ تكمن، كما يبدو لي، في أنني مغرم بأختك ليزا. هذا مناف للعدل. إن قصتك قد مكثت في رأسي، لأنني بعد أن قرأتها، اقتنعت بأن دوبليتسكي، حسب رأيي، لم يستحق أن يحلم بالسعادة، وأن متطلباتك الشعرية الرائعة بالحب... بحيث إنني لم أحسد ولن أحسد من سوف تحبينه. يبدو لي، أنني يمكنني أن أفرح بك كما أفرح بالأطفال. في إيفيتسا كتبت لك: «حضورك يذكرني بصورة حية جداً بتقدمي بالسن وباستحالة السعادة، وأنت بالذات...»

ولكن، آنذاك، وفيما بعد كنت أكذب على نفسي. وفي تلك الأثناء، كان باستطاعتي قطع كل شيء والذهاب إلى ديري – دير للعمل وحيداً، والاهتمام بأموري. أما الآن فلا يمكنني عمل أي شيء، وأشعر بأنني قد عبثت عندك في عائلتك، وأن العلاقات البسيطة والغالية معك كصديقة، كإنسانة شريفة، أصبحت مفقودة. ولا يمكنني المغادرة ولا أجرؤ على البقاء. أنت إنسانة شريفة، ضعي يدك على قلبك، لا تستعجلي، كرمى لله لا تستعجلي، قولي، ماذا أفعل. ما تضحكين عليه ستدفعين ثمنه. لقد كنت سأموت من الضحك لو قيل لي قبل شهر إنني سأتعذب كما أتعذب، وأتعذب بسعادة الآن. قولي كإنسانة شريفة، هل تريدين أن تكوني زوجتي؟ إذا كان يمكنك من كل قلبك، فقولي بجرأة «نعم»، وإلا الأفضل أن تقولي «لا» إذا كان لديك ظل من الشك في نفسك.

كرمى لله، اسألي نفسك جيداً. سأشعر برهبة من سماع كلمة «لا»، لكنني أتنبأ بها وسأجد في نفسي القوة على تحملها؛ ولكن إذا لم أكن زوجاً محبوباً، كما أحب أنا، فهذا سيكون أشد سوءاً».

صونيا، الفتاة العملية والعاقلة، كانت تتمتع بميزة لا تتوفر لدى أختها الكبرى. لم تكن فتاة العقل فحسب، بل أيضاً فتاة الاندفاع والعاطفة، إنها قادرة على اتخاذ القرارات المصيرية بسرعة البرق. بعد استلامها الرسالة

من الكونت، ذهبت إلى غرفة الفتيات وأغلقت على نفسها بالمفتاح. لحقتها الأخت الكبرى، وأخذت تقرع الباب. وتصرخ:

– صونيا! افتحي الباب، افتحي الآن!

فتحت الباب. ووقفت صامتة، ممسكة بيدها الرسالة.

– قولي، ماذا يكتب لك الكونت! – صرخت ليزا.

– Il m'a fait la proposition لقد طلب يدي.

– ارفضي! ارفضي طلبه الآن!

ذهبت صونيا إلى غرفة أمها، حيث كان تولستوي ينتظر جوابها، وقالت:

– بالطبع «نعم».

بعد دقائق قليلة بدأت التهاني. وبدأت ليزا تبكي وتنوح في غرفة البنات.

فيما بعد، عندما علم بـ «خيانة» صونيا، أصيب طالب الضابط بوليفانوف بالهستيريا. كان يشعر بخجل شديد، لكنه لم يستطع كبح جماح نفسه. وعندما تكللت صونيا وليف نيقولايفتش في كنيسة الكرملين، حمل بوليفانوف تاج العروس فوق رأسه. وتذكرت صوفيا أندريفنا: «لقد شرب بوليفانوف الكأس حتى الثمالة».

عند وداع صونيا، بكت أسرة بيرس كلها. ما عدا الأب أندريه يفستافيفيتش الذي كان مريضاً، ومتعكر المزاج، لأنه لم ترق له شقلبة الكونت للعرف وزواجه من الأخت الوسطى متجاوزاً الأخت الكبرى. دخل العروسان لوداعه إلى غرفته وحدهما.

من أجل السفر، اشترى تولستوي خصيصاً عربة جديدة من ماركة Dormez، وهي عربة ضخمة يمكن للمرء فيها الاستلقاء بطوله كاملاً. نقتبس من يوميات ليف نيقولايفتش:

«في يوم الزفاف: خوف، عدم ثقة، رغبة بالهروب. الاحتفال بطقس الزفاف. إنها باكية. في العربة. إنها تعرف كل شيء وببساطة. في بريولوف. خوفها. شيء ما مؤلم. سيريوجكا (شقيق تولستوي – *المؤلف*) ناعم، مدلل، العمة بدأت تعد الهموم والمعاناة. الليل. حلم رهيب. ليست هي».

ليست هي؟ ليست تلك التي حلم بها في تشيبيج، «التي عرفتها على

الفور، ولم أرها قط»؟ وماذا بالنسبة لصونيا؟ يكتب تولستوي عن انطباعه عن الخطيبة بعد موافقتها على الزواج: «إنها مثل طائر أطلقت عليه النار».

كما يكتب أيضاً عن الرؤية الغريبة التي ظهرت بينهما، عندما بقيا وحدهما، كعريس وعروس: «غير مفهوم كيف مر الأسبوع. لا أذكر أي شيء، سوى القبلة أمام البيانو، وظهور الشيطان...»

في مساء 24 أيلول/ سبتمبر 1862 وصل الكونت ليف نيقولايفتش تولستوي والكونتيسة صوفيا أندريفنا تولستايا إلى جنتهما في باسنايا بوليانا.

الفصل الرابع
الرأس في القلنسوة

للوهلة الأولى، لم يبق تولستوي لفترة طويلة في أوبتينا - حتى الساعة الثالثة من مساء السبت 29 أكتوبر/ تشرين الأول. لكن إذا لم نحسب نهار الأمس وليله، الذي أمضاه في الفندق من 28 إلى 29. ويجب ألا ننسى أن تولستوي كان له حسابه الخاص للوقت.

استيقظ تولستوي في وقت مبكر، في الساعة السابعة صباحاً. وهكذا فالوقت النشيط الذي أمضاه في الدير كان ثماني ساعات - يوم عمل كاملاً. خلال هذا الوقت حاول مساعدة الملتمسة والأرملة القروية داريا أوكايموفا وأطفالها، وذلك بتسليمها رسالة مع رجاء المساعدة إلى أسرة ابنه سيرغي لفوفيتش، وأملى على ألكسي سيرغيينكو، سكرتير تشرتكوف الشاب الذي قدم لعنده، مقالة حول عقوبة الإعدام «العلاج الفعال»، وهي المقالة الأخيرة التي كتبها بناء على طلب كورني تشوكوفسكي، وحاول مرتين الالتقاء بشيوخ دير صحراء أوبتينا.

على الرغم من أنه ليس من الواضح تماماً، لماذا في هذه الحالة يتحدثون عادة عن «الشيوخ». فالحديث كان يدور عن شيخ عجوز واحد - عن يوسف، تلميذ المرشد الروحي أمبروز. كان أمبروز (ومن بعد موته - يوسف) المرشد الروحي لشقيقة تولستوي الراهبة ماريا نيقولايفنا تولستايا، التي كانت خلوتها في الدير المجاور بالقرب من قرية شاموردينو، وكانت قد شيدت حسب مشروع أمبروز الشخصي.

إن هذا أمر عجيب! - فالكاتب الأكثر إثارة للجدل في علاقاته مع

الكنيسة الروسية كان مرتبطاً معها بأوثق العرى حميمية وقرابة. وحقيقة أن تولستوي هرب من ياسنايا بوليانا موجهاً خطواته نحو أوبتينا وشاموردينو - هذه الحقيقة وحدها تقول الكثير، وقد كان هذا خياره.

لقد كان هذا خيار تولستوي القلبي وليس العقلي بالذات. وأي ذكاء هنا، وأي فخر! إنه يهرب. فقد اختلط عليه كل شيء في التناقضات العائلية. لقد مزقوه إلى قطع: تشرتكوف وصوفيا أندرييفنا، و«أتباع مذهب تولستوي» والورثة، وطالبو العون والمساعدة... إنه ضعيف، خاطئ، مريض، ويدرك هذا جيداً. وفي حالة اليأس الكامل، يقدم تولستوي على الخيار الإنساني - الودي الوحيد. يذهب إلى أخته، إلى الدير! من غير الممكن الإقامة في الدير في شاموردينو - فهو دير نسائي. غير أنه مستعد لاستئجار عزبة في القرية. حتى إن هذا أفضل، فهو هكذا كان يحلم بأن يعيش مع الشعب! ولكن لننظر إلى الأمور نظرة عقلانية. عجوز في الثانية والثمانين من عمره في عزبة، في قرية؟

سأل ألكسي كسيونين مراسل صحيفة «نوفوي فوريميا» (الزمن الحديث)، بعد وفاة تولستوي، فلاحي قرية شاموردينو، أين حاول الهارب استئجار منزل.

- الثلج يتساقط بشدة في الشتاء - قال الفلاحون للكونت مشتكين من حياتهم البائسة - والمسافة إلى المدينة سبعة عشر فيرستا، أحياناً لن تتمكن من الخروج.

- الثلج لا شيء، وليس فيه خطيّة - طمأن تولستوي الفلاحين - وسيذوب مع قدوم الربيع.

ولكن قبل الربيع، كان عليه تمضية فصل الشتاء والبقاء حياً. وقد أصيب في هذه الفترة بنزلة برد، عندما وقف على المدخل المكشوف للقاطرة وتعرض للريح الجليدي.

وهكذا، وبالنظر من جميع الجوانب، كان التوقف في أوبتينا في تلك الفترة، المخرج الطبيعي السليم لتولستوي. ولو لفترة مؤقتة، من أجل جمع أفكاره واتخاذ قرار جديد. فمن المفهوم، أنه بعد خروجه من ياسنايا بوليانا

كان دون أي تفكير. وتولستوي الذي اعتاد طيلة عشرات السنين على الحياة المستقرة، لم يكن لديه خبرة جدية بالترحال. وحقيقة أن تولستوي أراد فعلاً التوقف في أوبتينا لا مجال لأي شك فيها. ففي أثناء حديثه مع أخته في شاموردينو حضرت ي. ف. أبولنسكايا ابنتها، وابنة أخته الحديث:

«أثناء شرب الشاي، أخذت أمي تسأله عن دير صحراء أوبتينا، وقد حاز على إعجابه كثيراً (فقد كان هناك مرات عديدة من قبل) وقال:

– أقبل أن أعيش هناك بكل سرور. ويمكنني تحمل أقسى الواجبات بشرط أن لا يجبروني على رسم علامة الصليب والذهاب إلى الكنيسة».

هذا الحديث مع أخته تذكرته أيضاً رئيسة دير شاموردينو في تقريرها إلى فينيامين أسقف كالوغا:

«في الساعة السادسة مساء وصل الكونت إلى شاموردينو، إلى خلوة أخته؛ اللقاء كان مؤثراً جداً: عانق الكونت أخته، وقبلها وانتحب على كتفها لمدة خمس دقائق؛ جلسا بعد ذلك طويلاً معاً؛ حدثها عن أحزانه: خلافه مع زوجته. ثم حل الغداء. ودُعي إلى الغداء طبيبه والراهبة ن... كانت هناك أربعة أطباق: البطاطا، الفطر، العصيدة، الحساء، وضعها الكونت في صحن واحد، وأكل كثيراً، وتحدث كثيراً؛ وها هي كلماته:

– أختاه، كنت في أوبتينا؛ كم الوضع جيد هناك، وبكل سرور يمكنني الآن أن أرتدي الثوب وأن أعيش، منفذاً أحط وأصعب الأعمال؛ بشرط: أن لا يرغموني على الصلاة، فهذا لا أستطيعه.

أجابت الأخت:

– حسناً، يا أخي، ولكن في هذه الحالة سيفرضون عليك شرطاً: أن لا تبشر بأي شيء ولا تدعو لأي شيء، ولا تعلّم أي شيء.

أجاب الكونت:

– وماذا أعلّم؟ هناك يجب أن أتعلم؛ لم أر إلا المعلمين في سكان القرية. نعم، يا أختاه، هذا صعب بالنسبة لي الآن. وماذا عندكم؟ أليس مثل جنات عدن؟ وهنا كان يمكنني أن أغلق نفسي في معبدي، وأستعد للموت؛ فثمانون عاماً، والموت لا بد منه!»

أما ماريا نيقولايفنا ففي رسالتها إلى صوفيا أندرييفنا التي كتبتها بعد فترة من وفاة ليف نيقولايفتش، فقد تحدثت بتحفظ أكثر عن رغبته في البقاء في أوبتينا أو شاموردينو:

«عندما أتى إليّ ليفوشكا (تصغير ليف – المترجم) كان مغتماً جداً في البداية، وعندما روى لي كيف رميتِ نفسك في البحيرة، بكى بكاءً مراً، ولم أتمكن من رؤيته من دون دموع؛ لكنه لم يخبرني بشيء عن نفسه، قال فقط إنه جاء إلى هنا لفترة طويلة، وإنه فكر باستئجار عزبة من قروي والعيش هنا. يبدو لي أنه أراد العزلة، كانت حياة ياسنايا بوليانا تثقل عليه (قال لي هذا في المرة الأخيرة عندما كنت عندكم) والجو كله يتعارض مع قناعاته؛ إنه ببساطة، أراد ترتيب أموره حسب ذوقه والعيش في عزلة، حيث لا يزعجه أحد».

وفي رسالتها إلى مترجم أعمال تولستوي الفرنسي شارل سالومون المؤرخة في 16 كانون الثاني/ يناير 1911 كتبت ماريا نيقولايفنا: «رغبت أن تعرف عمّن كان يبحث أخي في دير صحراء أوبتينا؟ عن المرشد الروحي العجوز أو الحكيم الذي يعيش في عزلة مع الله ومع ضميره، الذي يمكن أن يفهمه ويخفف قليلاً من مصيبته الكبيرة؟ أرى أنه لم يكن يبحث لا عن هذا ولا عن ذاك. فمصيبته شديدة التعقيد، لقد أراد أن يهدأ ويطمئن نفسه، ويعيش في جو روحي هادئ».

لقد أراد تولستوي بوضوح البقاء في أوبتينا. كانت أوبتينا تروقه. ولكن، لا مجال هنا لأي حديث عن التوبة إلى الكنيسة أو عن العودة الشكلية إلى الأرثوذكسية.

لقد جاء إلى الدير الأرثوذكسي بوذا العجوز. إنها عبارة تتردد باستهجان، ولكن يجب ألا ننسى أنه بوذا الروسي. وفي الدير المجاور المتفرّع عنه تعيش أخت بوذا، شقيقته العزيزة، والإنسانة الوحيدة التي يمكنها أن تقبله كما هو.

– كم أشعر أنني بحالة حسنة هنا! – قال تولستوي ل آ. ب. سيرغينكو في شاموردينو – لقد فهمتني أختي جيداً.

إن بوذا العجوز لا يريد أن يعلّم أحداً. إنه متعب، يتوق إلى السلام

والهدوء، والعزلة. وإذا ما جرت محادثات حكيمة، على مهل، مع أناس حكماء، كما يرى مرشدو أوبتينا الروحيون.

فهل هذا كان ممكناً؟

«لا!» – صرخوا بالأمس ويصرخون اليوم حماة الأرثوذكسية الغيورون على الكونت تولستوي «الرهيب» – «انظروا لما يخطط! العيش في الدير، وعدم الذهاب إلى الكنيسة! فمن هو هذا الكونت عموماً! كان عليه أن يزحف على ركبتيه أمام الحكماء وكبار السن!»

ولكن دعونا نستمع إلى أصوات أصحاب التسلسل الهرمي الروحي التي ترددت في ذلك الوقت. نشرت صحيفة «روسكوي سلوفو» (الكلمة الروسية) في 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1910 بعد رحيل ليف نيقولايفتش تولستوي من أوبتينا بيومين، رأي الأساقفة الأرثوذكس حول إمكانية أو استحالة بقاء ليف نيقولايفتش في الدير.

الأسقف مكاريوس: «نحن بحاجة إلى معرفة، إلى أين ذهب – إلى اليمين (الأرثوذكسية) أم إلى البوذية. إذا كان إلى الأرثوذكسية، فإن الكنيسة ستقبل بسرور الابن الضال، على الرغم من أن هذا يتطلب تبرؤ تولستوي من تعاليمه المعادية للمسيحية، بصورة احتفالية، مثل الحرمان».

الأسقف أرسيني: «إن اعتراف تولستوي بالكنيسة الرسمية، ورحيله إلى الدير سيجلب بلا شك فائدة كبيرة للكنيسة».

الأسقف نيكون: «لكن تولستوي ليس ضد الكنيسة فحسب، بل ضد المسيح ذاته أيضاً».

الأسقف يولوجيوس: «بقناعتي العميقة، يمكن للدير أن يستقبل ليف نيقولايفتش، حتى ولو لم يأت للتوبة، بل لمجرد البحث عن الراحة الروحية».

وكما نرى، لم تكن هناك وجهة نظر واحدة حول إمكانية بقاء ليف نيقولايفتش في الدير لدى أعلى المراتب الهرمية الكنسية. فالأسقف ماكاريوس، أسقف تومسك وألتاي كان قطعياً، أما الأسقف الأكبر يولوجيوس، أسقف خولمسك ولوبلان (اسمه المدني فاسيلي غيورغيفسكي، وأصبح فيما بعد مطران الكنائس الروسية الأوروبية الغربية،

توفي في باريس عام 1946 ودفن في مقبرة القديس جينيفييف دو بوا) فقد قدر الموقف بحيادية وموضوعية أكثر.

كان الأسقف يولوجيوس من محبي الشاعرين بوشكين وليسكوف، كما كان يحب الكاتبين منشيكوف - بيتشورسكي وتولستوي.

إن رأي الأسقف المستنير قد تطابق بصوة مذهلة مع رأي المستمع البسيط ميخائيل في فندق الدير. ففي «سفر مَنسَك القديس يوحنا المعمدان ومعمد الرب في كوزيلسك بدير صحراء أوبتينا» ترد تفاصيل حديث تولستوي مع الأخ ميخائيل:

«كانا معاً هما الاثنين - يروي والد ميخائيل - قرعا الباب، ففتحته. يسأل ليف نيقولايفتش: «هل يمكنني الدخول إلى بيتكم؟» قلت: «تفضل» فقال: «ربما غير ممكن، أنا تولستوي» أجبته: «يسرنا جميعاً من يرغب بزيارتنا». فقال عندئذ: «حسناً، مرحباً يا أخي». أجيبه: «مرحباً، يا صاحب السعادة» فقال لي: «ألم تشعر بالإهانة لأنني سميتك أخاً؟ جميع الناس أخوة». أجبته: «أبداً، على الإطلاق، وهذا صحيح أن الجميع أخوة». وأمضيا الليلة عندنا. وأعطيتهما أفضل غرفة. وفي الصباح الباكر أرسلت الخادم إلى رئيس المنسك الأب بارسانوفيوس، للتنبيه بأن تولستوي سيذهب إلى منسكهم».

تصرف ميخائيل مثل مارتا الإنجيلية: آواه أولاً، وفيما بعد كل شيء. وإذا كان تولستوي، بالنسبة ليولوجيوس هو تولستوي بادئ ذي بدء، فإنه بالنسبة لميخائيل هو الكونت تولستوي. ويجب ألا ننسى أن دير أوبتينا في أوائل القرن العشرين، وإن كان مشهوراً بين الحجاج، من الرعاة الفقراء والأغنياء، لكنه كان ديراً عادياً في الضواحي. وكان لا يمكن الوصول إليه من الطريق إلا بواسطة العبّارة عبر نهر جيزدرا، وعندما يفيض النهر في الربيع كان الدير ينقطع عن العالم. جميع القاطنين في الدير كانوا 50 شخصاً في عام 1910، أحدهم رئيس الدير بارسانوفيوس، وواحد منهم - المرشد الروحي يوسف، و6 كهنة مترهبين، و8 رهبان الشملات، و17 - رهبان المسوح، و17 - رعاة المسوح. وكانت مدينة كوزيلسك الأقرب - مدينة مقاطعة عادية. فالظهور المفاجئ لتولستوي «المطرود» كان حدثاً مذهلاً غير عادي في حياة الدير الهادئة!

هذا في حين أن تولستوي كان يُستقبل سابقاً في أوبتينا كضيف شرف. وكان الجميع يرغب بلقاء الكاتب الشهير والحديث معه – بدءاً من الأرشمندريت وحتى الراهب البسيط.

في مذكرات خادم تولستوي سيرغي أربوزوف الذي ذهب معه إلى دير أوبتينا سيراً على الأقدام في عام 1881، وكذلك في مذكرات صوفيا أندرييفنا التي كتبت غالباً، على لسان الخادم وزوجها، يظهر بوضوح الموقف الكنسي الهرمي من الحجاج في الدير.

يتذكر أربوزوف أولاً، كيف جهز ليف نيقولايفتش نفسه للرحلة في الطريق: «... ارتدى الكونت بمساعدتي على قدميه وفق أصول الفن الريفي، خفاً من ألياف لبية مع الكتر (قطعة قماش للف القدم) وربطها على رجليه بحبل... وجُهزت لنا حقيبتان على الكتف لحمل الأشياء الضرورية؛ كانت حقيبة الكونت تحوي ملابس النوم، وزوجين من الجوارب، ومنشفتين، وعدة مناديل للأنف، وقميصين من الكتان، وشرشفاً، ووسادة صغيرة، وجزمة جلدية».

في الطريق اعترض طريقهما في إحدى القرى مساعد ثمل، وأخذ يضايق ليف نيقولايفتش، آملاً بالحصول على رشوة من رجل بسيط، وربما لا يحمل جوازاً، كي يطلق سراحه، وعندما رأى في وثائقه أن هذا الكونت تولستوي شعر بخوف رهيب، وبذل قصارى جهده لخدمته.

وصلنا إلى الدير مساءً، في وقت العشاء. «رن الجرس داعياً إلى العشاء، دخلنا بحقيبتينا على كتفينا إلى المطعم؛ لم يسمحوا لنا بالدخول إلى المطعم النظيف وأرسلونا للعشاء مع الفقراء... بعد العشاء، ذهبنا إلى النوم في فندق الدرجة الثالثة... عندما رآنا الراهب نرتدي الأخفاف لم يعطنا غرفاً، وأرسلنا إلى المنامة العامة، حيث مختلف أنواع القاذورات والحشرات».

في رواية صوفيا أندرييفنا هذه الحادثة تبدو أكثر سوءاً. «في فندق الدير نظروا إلى ليف نيقولايفتش الذي يرتدي قميصاً ريفياً أزرق وثوباً وخفاً على أنه من عامة الناس، وتحدث معه الراهب المسؤول عن الفندق يفيم بوقاحة:

– هنا منزل للغرباء، نم هنا. أنت أكلت وشبعت، أما أنا فلم آكل. اجلس هنا!

حتى إن الخادم سيرغي الذي كان يرتدي قبعة مدورة، لقي احتراماً أكبر».

مقابل روبل أعطونا غرفة صغيرة وسخة مع البق، حيث كان ينام شخص ثالث، إسكافي، كان يشخر بصوت قوي مزعج. يكتب أربوزوف قائلاً: «قفز الكونت من الخوف وقال لي:

– سيرغي، أيقظ هذا الشخص، واطلب منه أن لا يشخر.

اقتربت من الأريكة، وأيقظت الإسكافي وقلت:

– عزيزي، أنت تشخر بقوة، أنت تخيف شيخي كبير السن؛ إنه يخاف عندما ينام معه في الغرفة شخص ويشخر.

– حسناً، وماذا تأمرني من أجل شيخك، أن لا أنام؟»

ولكن بعد يومين تغير كل شيء.

فقد رآه راهب أوبتينا، القن السابق في ياسنايا بوليانا. فدُهش لرؤية سيده في هذا الشكل:

– يا صاحب السعادة، كيف قبلت بهذا الوضع!

وبدأوا بالبحث عن تولستوي بأمر من الأرشمندريت والمرشد الروحي أمبروز. ويتذكر أربوزوف: «جاء راهبان، من أجل حمل أمتعة الكونت والطلب منه للانتقال إلى فندق الدرجة الأولى، حيث الأثاث منجّد بالمخمل. رفض الكونت الذهاب إلى هناك فترة طويلة، وأخيراً وافق على ذلك».

استغرق استقبال رئيس الأساقفة لتولستوي ثلاث ساعات. ثم ذهب تولستوي للقاء الأب أمبروز في صومعته وبقي عنده أربع ساعات. ويتذكر أربوزوف، طيلة هذا الوقت كان ينتظر الاستقبال قرب صومعة الأب العجوز حوالي ثلاثين شخصاً. «وقال بعضهم إنهم هنا منذ خمسة أو ستة أيام، يتواجدون في المنسك وبالقرب من صومعة و. أمبروز ولا يستطيعون رؤيته ولا الحصول على بركته. ولما سألت عن سبب عدم استقبال أمبروز لهم، قالوا إن هذا ليس بسبب أمبروز بل بسبب الراهب في الصومعة الذي لا يعلمه بوجودهم».

بعد استقباله تولستوي، استقبل أمبروز خادمه أربوزوف، وعبر كثيراً عن أسفه: ألم يدعك الكونت قدميه أثناء المشي؟ وفي الفندق كان ينتظرهما حفل استقبال على أعلى مستوى. «ينفتح الباب ويدخل الراهب ويسأل:

ألا يرغب صاحب السعادة بتناول طعام الغداء... ويسأل الرهبان متعجبين هل من المعقول أننا قطعنا الطريق كله سيراً على الأقدام...» وقد تناولوا طعام الغداء في هذه المرة في فندق الدرجة الأولى، حيث كان يخدم الرهبان تولستوي.

كان تكريم أصحاب الألقاب في الدير شائعاً. وعلى سبيل المثال، في عام 1887 زار الدير لأول مرة الأمير المعظم كونستانتين كونستانتينوفيتش رومانوف. وقد جاء في «حولية» مَنسك أوبتينا حول هذا الحدث: «إن الأمير المعظم الذي استقبله جميع الأخوة القاطنين في البوابات المقدسة، توجه إلى غرف عميد الدير التي اقترحها عليه صاحب السمو الأب. وكانت هناك حفلة – عشية العيد. وحسب العادة في الدير دُعي الضيف الرفيع إلى حفل عشاء أقامه على شرفه عميد الدير. بيد أن الأخير لبساطته تخلى عن هذا الشرف، قائلاً إنه سيكون غداً في الخدمة الكنسية، وفي هذه الحالة لم يعتد تناول طعام العشاء. إن بساطة الأب إسحاق قد أحدثت بهذه المناسبة انطباعاً ساراً لدى الأمير المعظم، الذي أعرب أكثر من مرة عن أنه لم يسبق له رؤية مثل هؤلاء الناس».

كانت حفلات استقبال الرهبانية تتميز بتقاليد خاصة بالدير. فكان يمكن لعميد الدير أن يسمح لنفسه برفض تناول العشاء مع الأمير المعظم، متذرعاً بأنه لا يتناول الطعام عشية الخدمة الكنسية. رغم أن العشاء نفسه كان يجري في صومعته التي يغادرها من أجل الضيف السامي. في أيار/ مايو 1901 زار الدير أبناء الأمير المعظم كونستانتين. وكان الأب في ذلك الوقت في حوزة الملّاك كاشكين في قرية بريسكي، وبمناسبة قدومه طليت جدران المنزل بالرخام. وقد جاء في «الحوليات»: «بناء على طلب أصحاب السمو لم يجر لهم لقاء احتفالي لا في الدير ولا في المنسك. تم فقط قرع لجميع الأجراس...». في 21 أيار/ مايو تم الاحتفال بيوم اسم الأمير «وسافر الأب عميد الدير مع كبير الشماسين الأب فيودوسيوس إلى قرية بريسكي من أجل تقديم التهنئة للأمير المعظم، الذي حمل له الأب أيقونة عيد تجلي مريم العذراء في الهيكل مغطاة بالذهب والفضة وكتاب «وصف دير صحراء أوبتينا»».

إن انعدام العدالة هذا، كما قد يبدو للوهلة الأولى، له نظامه وتقاليده. لكن

غير المألوف والمهين للدير كان سلوك الكونت «المتنكر». أمام الله الجميع متساوون ولكن ليس أمام رئيس الدير الذي كان المسؤول الأول عن النظام الداخلي المعقد لحياة الدير، بما فيه تنظيم تدفق الزوار، وخاصة في الصيف.

إن تولستوي «المتنكر» قد انتهك بشكل صارخ آداب الدير وتطاول على أنظمته.

إن الموقف في عام 1881 قد كرر بصورة مطابقة تقريباً قدوم تولستوي إلى الدير عام 1877، عندما وصل إليه آنذاك باعتباره كونتاً، مع صديق له هو الناقد الشهير ن. ن. ستراخوف، لكنه طلب رغم ذلك النزول في فندق الدرجة الثالثة مثل حاج عادي بسيط. لقد كان هذا حقه القانوني. لكن الشائعات حول هذا سيطرت على الدير كله، وطلبوا منه ورفيقه بإلحاح الانتقال إلى الفندق الجيد. حيث استقبله الأب الشيخ أمبروز، وتحادثا طويلاً، وكان تولستوي، حسب اعترافه، سعيداً بهذا الحديث.

فلماذا يمثِّل في الدير، بعد أربع سنوات، مسرحية غريبة بكل المعايير؟ ولماذا يتعذب في غرفة مع البق، والإسكافي الشاخر، فارضاً الصمت على لسان «الحلاق فيغارو» – أربوزوف، الذي نشر بعد بضع سنوات مذكراته الساخرة صراحة من زيارة سيده لأوبتينا؟ ولماذا يضع سلطات الدير في موضع حرج؟

ثمة أسباب عديدة لذلك. لقد أراد تولستوي فعلاً الاندماج بالشعب ورؤية الدير بعيونه، وليس بعيني سيد محترم. كان تولستوي لا يرتاح، حقيقة، في العيش في ظروف فاخرة وتناول الطعام من أيدي الرهبان الخدومين. وهنا تجلت «وحشية» نوعية تولستوي، التي لم تكن تحسب حساب القواعد المرعية، ويتجلى عناد تولستوي وليس «كبرياءه» أبداً، كما هو شائع. على الأغلب، كان هذا الفضول الخاص الشخصي لكاتب رواية «الأب سيرغي» لاحقاً و«مذكرات العجوز فيودور كوزميتش بعد موته»، حيث أراد تولستوي أن يعيش في روايته المستقبلية بكامل جسده.

لقد كان تولستوي في الدير جسماً غريباً. وهيئة الدير شعرت بهذا واضطرت، بصورة طبيعية، للتصرف وفق قواعدها وقوانينها، وليس حسب «سيناريو» الكاتب.

إن تولستوي لم يكن مجرد رجل غريب الأطوار. بل كان كاتباً عظيماً، وكل كلمة منه، بل كل لفتة، كانت تنتشر في كل أنحاء روسيا، وفي كل العالم. ها هو ذا في متجر الدير يلتقى امرأة عجوزاً. إنها لا تستطيع شراء طبعة رخيصة من الإنجيل. يشترى لها تولستوي طبعة ثمينة فاخرة. قد يتساءل البعض، وماذا في الأمر؟ لكن هذا الإنجيل الثمين لم يشتره سيد كريم عادي، بل رجل أخذ على عاتقه مهمة إنقاذ عقيدة الإنجيل من العقيدة الكنسية. وسرعان ما أصبحت هذه اللفتة العادية رمزاً.

في تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1910 لم يظهر في الدير الكونت والكاتب ليف تولستوي فحسب، بل ظهر أيضاً تولستوي «المطرود من الكنيسة». اليوم، نحن يمكننا التحقق من تعقيدات تعريف السينودس لعام 1901 للحرمان الذي أصبح تولستوي بموجبه شخصاً غير مرغوب فيه في الكنيسة الأرثوذكسية. اليوم، يمكننا أن نتجادل فيما إذا كان هذا «الطرد» طرداً. ولكن، في تلك الأثناء، نُظر إليه في الدير على أنه «مطرود».

وهذا كما في الأسرة... زوج هجر زوجته ويعيش بعيداً عن أسرته. الزوجة تصبر، وتصبر، ثم تطلب الطلاق، الذي يُصاغ بالشكل القانوني المرعي. وبعد ذلك يمكن للزوج أن يعود إلى زوجته ولكن ليس كزوج، بل كعشيق. ويمكنهما من جديد إجراء عقد زواج، لكن هذا سيكون محرجاً، ومعقداً، ومؤلماً.

هذا الإحراج كان يظهر في كل خطوة يخطوها تولستوي في خريف 1910 في أوبتينا، وفي كل كلمة يقولها، وفي كل التفاتة.

ووفقاً لإحساسه الداخلي، كان يجب أن يطردوه. لكن ميخائيل يفتح باب أفضل غرفة في الفندق. يسرع تولستوي إلى شرح الوضع من باب الاحتياط: «أنا ليف تولستوي، مطرود من الكنيسة، جئت للحديث مع كبار شيوخكم، وسأغادر غداً إلى شاموردينو». فيحمل له ميخائيل التفاح والعسل، ويرتب له الغرفة حسب ذوقه.

ويذوب تولستوي روحياً... وفي هذه الفترة يتذكر غالباً، أنه في أوبتينا عاشت سنوات هرمها وتوفيت شقيقة والده، عمته ألكسندرا إيليتشنا

أوستن – ساكن، التي أصبحت بعد موت أخيه نيقولاي إيليتش وصية على القاصرين من أبناء تولستوي. وأنها دُفنت هنا. وكانت في زمنها سيدة علمانية رائعة، و«نجمة» حقيقية في القصر. ولكن... زواجها غير الموفق، والمرض النفسي لزوجها... وقد كتب تولستوي عنها: «كانت عمتي امرأة متدينة حقاً. وكان أفضل أشغالها قراءات حياة القديسين، والأحاديث مع الهائمين على وجوههم، والمجذوبين، والرهبان والراهبات... العمة ألكسندرا إيليتشنا لم تكن متدينة من حيث المظهر فقط، تحافظ على طقوس الصيام والصلاة فحسب... لكنها نفسها كانت تعيش حياة مسيحية حقيقية، سعت للابتعاد عن أية رفاهية وخدمات، كما سعت، قدر الإمكان، لخدمة الآخرين».

زار تولستوي أوبتينا لأول مرة في عام 1841 عند دفن عمته ألكسندرا إيليتشنا. كان ليف آنذاك في الثالثة عشرة من عمره. وفي وقت لاحق، وضع أبناء أخيها على القبر نصباً تذكارياً متواضعاً كُتب عليه العبارة المؤثرة التالية:

بعد رحيلكِ من الحياة الأرضية
انتقلتِ إلى مسار غير معروف
إلى مساكن الحياة السماوية
أنتِ في سكينة حلوة تحسدين عليها.
على أمل لقاء جميل بك،
مع الإيمان بالحياة الآخرة،
أبناء أخيك أقاموا هذه العلامة
للذكرى، تكريماً لرفاتك

هنا أيضاً، عاشت وتوفيت ودفنت يليزافيتا ألكسندروفنا يرغولسكايا، شقيقة «عمة» تولستوي المفضلة تاتيانا ألكسندروفنا يرغولسكايا. العمتان ألكسندرا إيليتشنا ويليزافيتا ألكسندروفنا لم تكونا راهبتين. بل عاشتا في الدير فقط. ووجدتا فيه السكينة الأبدية.

في الطريق إلى المَنسك، التقى تولستوي بنزيل آخر من نزلاء الفندق،

الأب باخوم، الجندي السابق في الحرس. ولعلمه بقدوم تولستوي إلى الدير، خرج الأب باخوم لاستقباله.

– ما هذا المبنى؟

– فندق.

– وكأنني نزلت هنا. مَن مدير الفندق؟

– أنا، الأب باخوم، الآثم. وهذا أنت يا صاحب السعادة؟

– أنا – ليف نيقولايفتش تولستوي. أنا ذاهب للقاء الأب يوسف، الشيخ، وأخشى أن أزعجه، يقولون إنه مريض.

– ليس مريضاً، إنه ضعيف. اذهب يا صاحب السعادة، سيستقبلك.

– وأين خدمت في السابق؟

ذكر باخوم اسم فوج من الحرس في بطرسبورغ.

– آه، أعرفه... إلى اللقاء، يا أخي. آسف لأنني هكذا أدعوك؛ أنا الآن هكذا أدعو الجميع. نحن جميعاً أخوة أمام ملك واحد.

وكان هناك لقاء آخر، مع صبي الفندق. وقد روى الصبي بفخر: «تحدث معي أيضاً ليف نيقولايفتش. كان يسألني، هل أنا من بعيد أم من قريب، ومن هما والداي، ثم ربت على كتفي بدلال وقال: «وأنت أيضاً أتيت لتصبح راهباً؟»

منذ بداية وصول تولستوي «المطرود» إلى أوبتينا استقبلوه كأب: سائق العبّارة والمسؤولون عن الفندق والصبي... كلهم كانوا مسرورين لظهور هذا الإنسان البارز، هذا الكاتب الشهير، وفي الآن نفسه «الجد» البسيط المتواضع. وفي هذه المرة لم يرتدِ تولستوي أي لباس رسمي. فقد كان جدّاً. وكان قادراً دوماً على العثور على أقرب طريق إلى قلب الإنسان البسيط، وسؤاله بالتفصيل عن حياته، والاهتمام بكل شيء صغير.

كل شيء كان رائعاً إلى أن وصل تولستوي إلى الدير.

هذه هي اللحظة الأكثر إثارة في زيارة تولستوي الأخيرة لأوبتينا! لماذا لم يلتق مع يوسف، وهو الذي جاء إلى الدير من أجله، غير حاسب أي حساب

للاستقبال الحميم الذي أعده له سكان الدير البسطاء؟ ولماذا يوسف لم يدع تولستوي إلى مكتبه، الذي دعاه أمبروز نفسه إلى مكتبه؟

في تقييم هذا الحدث تنقسم بصورة مستقطبة أصوات أنصار الأرثوذكسية وأعدائها. «الكبرياء!» – يقول فريق. «الكبرياء!» يكرر الفريق الآخر.

حقيقة، وللنظرة السطحية، هنا اصطدمت سلطتان كنسية ومدنية. شيخان عجوزان كبيران. أحدهما لم يَدعُ، والثاني لم يذهب. وماذا لو دعا؟ وماذا لو لم يذهب؟ ربما كانت تتم المصالحة بين الكنيسة وتولستوي، ليس المصالحة الشكلية، وليس من أجل السينودس، وليس من أجل القيصر وستوليبين[1] اللذين كانا، بالمناسبة، مهتميْن بكل السبل في مثل هذه المصالحة أمام أوروبا. ليس من أجل الخطاب، ولا من أجل التسلسل الهرمي الكنسي، ولا من أجل الدولة. من أجل العاملين البسيطين في الفندق ميخائيل وباخوم، من أجل الصبي كيريوشكا، الذي كان سيفتخر عندما يكبر ويصبح راهباً بلقائه بكاتب روسيا العظيم. من أجل أولئك الرهبان البسطاء الذين احتشدوا قرب العبارة، حسب شهادة ماكوفيتسكي، عندما أبحر ليف تولستوي، بعد فشل مراميه، من أوبتينا إلى الأبد، باتجاه خلوده الخاص، كأن الخلود في روسيا ليس واحداً للجميع.

– كم نتأسف على ليف نيقولايفتش، آه، يا إلهي! – همس الرهبان – أجل! ليف نيقولايفتش البائس!

في هذا الوقت كان ليف تولستوي واقفاً أمام الحاجز الحديدي، يتحدث مع راهب عجوز ذي شعر شائب جميل، يضع نظارات على عينيه. سأله على طريقة المتقدمين في السن عن نظره. وتذكر نكتة من شبابه في قازان، حيث اقترح تتري عليه، وهو طالب: «اشتر نظارات»، «أنا لا أحتاجها»، – «كيف لا تحتاجها! الآن جميع السادة المحترمين يلبسون النظارات».

كتب ماكوفيتسكي يقول: «كان المعبر قصيراً. دقيقة واحدة». بدقيقة واحدة، وإحدى أهم المسائل الروحية لروسيا ما قبل الثورة، نزاع تولستوي

1- ستوليبين: بيوتر (1862–1911) آخر إصلاحي في الإمبراطورية الروسية، من كبار رجال الدولة. مات مقتولاً. المترجم.

والكنيسة، تم تأجيل حله، بالإهمال الروسي «لما بعد». رغم أنه آنذاك، كان من غير الممكن تأجيل أي شيء «لما بعد». لأنه كان من المستحيل إصلاح أي شيء فيما بعد.

عندما توفي تولستوي ودفن في ياسنايا بوليانا، على طرف الوادي، حسب النظام القديم، جاءت باراشا الفتاة الحمقاء إلى حافة القبر وأقامت له قداساً على طريقتها، بالطريقة الشعبية:

إلى أين أنت ذهبت، يا غير المستوعِب،
إلى أين أنت ذاهب،
وعلى أي طريق،
ولمن تركتنا نحن الأغبياء؛
لمن رميتنا...
لمن أودعتنا...

كانت النساء القرويات يسخرن من باراشا. هذه الحمقاء تصلي للكونت! لكن هذه الحمقاء، بالطبع، أذكى بألف مرة من المشاركين «الأغبياء» و«غير المستوعبين» في القصة المحرجة التي جرت في 29 تشرن الأول/ أكتوبر في أوبتينا. وهذه الحمقاء بالذات لم يكن ينقصها شيء سوى أن تأخذ بيد تولستوي وتقوده إلى الرجل العجوز (المرشد الروحي).

تصرف الجميع بغاية الذكاء، كأن الجميع كانوا محقين. عميد الدير الأرشمندريت كسينوفونت كان مريضاً. ومنذ بضعة أيام عاد إلى الدير من موسكو بعد عملية جراحية. ولم يستطع رئيس الدير استقبال زنديق بهذا المستوى مثل تولستوي، دون الحصول على موافقة من مطران كالوغا.

«يشرفني أن أنقل إلى سيادتكم أنه في 28 من تشرين الأول/ أكتوبر الماضي، وصل إلى دير الصحراء الموكل إليّ على القطار المسائي في الساعة الخامسة القادم من بيليفو الكونت ليف نيقولايفتش تولستوي برفقة الدكتور... حسب قوله. وفي الساعة السابعة صباحاً من 29 تشرين الأول/ أكتوبر جاءه من المحطة شاب، وجلسا طويلاً، وكتبا شيئاً ما في الغرفة، ومع

هذا الحوذي ذهب طبيبه إلى كوزيلسك. وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم نفسه، توجه تولستوي في نزهة؛ مشى وحيداً في المرتين. في المرة الثانية شوهد وهو يمر بالقرب من مبنى فارغ يقع خارج سور الدير، يدعى البناء «القنصلي» الذي كان قد زاره في حياة الشيخ المتوفى أمبروز، عند الكاتب الراحل ك. ليونتيف؛ ثم مرّ بالقرب من الدير، ولكن لم يدخل لعند الرهبان الشيوخ، ولا لعندي، عميد الدير. لم يدخل داخل الدير والمنسك. وعاد تولستوي من هذه النزهة في الساعة الواحدة ظهراً، فتناول طعام الغداء، وفي الساعة الثالثة من اليوم نفسه سافر إلى شاموردينو، حيث تقيم شقيقته – الراهبة. وقد كتب في سجل الزوار في الفندق: «ليف تولستوي يشكركم على حسن الاستقبال»».

هذا مقتطف مأخوذ من «تقرير» رئيس الدير كيسنوفونت إلى كبير الأساقفة بنيامين. ومنه يمكن فهم الآتي... لم يزر تولستوي المنسك، ولا حتى الدير. وفي الحقيقة، إذا ما قرأنا ماكوفيتسكي، وسيرغيينكو، وكسيونين، ويوميات تولستوي، لن نجد أي ذكر حول أن تولستوي عبر البوابات المقدسة ودخل إلى حرم الدير. إن تولستوي، بالمعنى الحرفي، تجول «حول الجدران الكنسية»، حسب تعبير ف.ف. روزانوف.

إن الفندق والمنسك يقعان خارج أراضي الدير. يقول ماكوفيتسكي: «ليف نيقولايفتش مشى يتنزه باتجاه المَنسك. اقترب من زاويته الجنوبية الغربية. مر أمام جداره الجنوبي... وذهب إلى الغابة... في الساعة الثانية عشرة ظهراً خرج للنزهة قرب المنسك. خرج من الفندق، واتجه يساراً، وصل إلى البوابات المقدسة، وعاد ومشى باتجاه اليمين، وعاد باتجاه البوابات المقدسة، ثم ذهب ودار من خلف البرج باتجاه المنسك».

لقد كانت هذه كأنها نزهة عادية... كان تولستوي يمسك بيده عصا – كرسي قابلة للطي، كان يحملها دوماً في نزهاته في ياسنايا بوليانا. لكن «ليف نيقولايفتش لم يتنزه قط صباحاً مرتين». يلفت ماكوفيتسكي الانتباه إلى غرابة تصرف تولستوي. «يبدو أنه كانت لدى ليف نيقولايفتش رغبة قوية للحديث مع الرهبان الشيوخ».

لكن شيئاً منعه. عند عودته من النزهة الثانية، قال تولستوي:

– لن أذهب بنفسي إلى الرهبان الشيوخ. لو أنهم دعوني لذهبت.

يرى الباحثون في هذه الكلمات تجلي «كبرياء» تولستوي. وبالفعل، لماذا لم يطرق ببساطة باب بيت يوسف، الذي يقع على الشرفة وراء سور المنسك، بالذات من أجل أن يتمكن كل حاج أن يطلب مقابلة المرشد الروحي من خلال راهب الصومعة؟ لماذا كان ينتظر «دعوة» بالتأكيد؟ وحتى إذا لم ينقل ماكوفيتسكي بدقة كلماته، فواضح من دون أي كلام، أن تولستوي كان ينتظر دعوة، ومن دونها لم يرغب بالقيام بالخطوة الأولى: ولكن هل كان يوسف على عِلم بهذا؟

نعم، كان على عِلم. وهاكم ما يرويه راهب صومعة المرشد الروحي يوسف في «الحولية...»:

«كان المرشد الروحي يوسف مريضاً، وأنا كنت جالساً بالقرب منه. جاء إلينا المرشد الروحي بارسانوفيوس وقال إن الأب ميخائيل أرسل للتنبيه بأن ليف تولستوي يأتي إلينا. ويقول: أنا سألته: «من قال لك؟» فأجاب: «تولستوي نفسه قال». فقال المرشد الروحي يوسف: «إذا ما جاء فسنستقبله بود واحترام وسرور، رغم أنه مطرود، فطالما أنه جاء بنفسه، ولم يرغمه أحد، ولا يمكننا خلاف ذلك». ثم أرسلاني للنظر خلف السور. فرأيت ليف نيقولايفتش وأبلغت المرشدين الروحيين، أنه يمشي بالقرب من البيت، يقترب تارة ويبتعد تارة أخرى. فقال المرشد الروحي: «أمر صعب بالنسبة له. لقد جاء إلينا من أجل ماء الحياة. اذهب، ادعه، إن جاء يقصدنا. اسأله». ذهبت، فلم أجده، لقد غادر. وابتعد نهائياً، وهو بالعربة، ولا أستطيع اللحاق به...».

بيد أن التفسير الأخير يتناقض مع ما جرى في الواقع، وسُجل بالدقائق في يوميات ماكوفيتسكي. فبعد النزهة الثانية عاد تولستوي إلى الفندق سيراً على الأقدام وتناول طعام الغداء حتى الشبع («حساء الملفوف، وعصيدة الحنطة السوداء مع زيت عباد الشمس اللذين يحضرهما الدير اللذيذين جداً، وقد أكلت منهما كثيراً» – جاء في يوميات ماكوفيتسكي). سدد لراهب

الفندق («كم أنا مدين لكم؟ – بالتأكيد – ثلاثة روبلات كافية؟»). ووقع في سجل ضيوف الشرف وذهب سيراً على الأقدام إلى العبّارة، حيث سبقه على عربتين سيرغيينكو وماكوفيتسكي. وقد ودعه عند العبارة خمسة عشر راهباً، وفق حساب ماكوفيتسكي.

لم تكن هناك حاجة للحاق بتولستوي. كان يجب، ببساطة، دعوة تولستوي. لم يذهب بنفسه إلى المرشد الروحي يوسف لأنه كان يعرف أنه مريض، وببساطة، لم يرغب بإزعاج إنسان مريض من دون دعوة. وقد تحدث عن هذا صراحة لأخته ماريا نيقولايفنا في شاموردينو. وقال لها أيضاً إنه خشي أن لا يستقبلوه باعتباره «مطروداً». إن الوداعة الأرستقراطية، من حيث المبدأ، هي التي أوقعت تولستوي في هذا المطب. والمرشد الروحي يوسف، بدوره، لم يكن يعرف بدقة، لماذا جاء تولستوي. حول أنه كان يريد الحديث معه، علم من خلال الإشاعات فقط. وأخيراً، لم يكن بإمكان يوسف أن يعرف الشيء الرئيس – وهو هروب تولستوي. وهذا لم يعرفه أحد سوى المقربين. والتقارير الصحفية عن هذا الهروب لم تنشر إلا في اليوم التالي.

بعد وفاة تولستوي وبحضور ماكوفيتسكي، الذي زار الدير في كانون الأول/ ديسمبر 1910، أنّبت رئيسة الدير الأب باخوم: لماذا لم يأخذ تولستوي إلى المرشد الروحي، رغم علمه أن الكونت يريد الحديث معه؟ قال الأب باخوم مبرئاً نفسه: «نعم، لم أجرؤ... لم أرغب بأن أكون حشرياً لجوجاً».

من المستحيل قراءة بعد هذه الواقعة، دون مرارة. فالجميع، كما يبدو، يتصرفون بصورة صحيحة. بل بطريقة نبيلة. ولكن خلال ذلك، الجميع... مرضى، وضعفاء. ولم يقرر أحد اتخاذ الخطوة الأولى نحو الطرف الآخر. وبالنتيجة، يحوم الكاتب الروسي العظيم، مثل الذي لا يعرف الهدوء، «حول جدران الدير».

في شاموردينو، قال تولستوي لأخته إنه ينوي العودة ثانية إلى أوبتينا والحديث إلى يوسف. ولكن كان الوقت قد تأخر. كانت ثمة قوة غير مرئية تطارد تولستوي إلى أبعد، أكثر وأكثر.

على حين غرة!

في سيرة حياة تولستوي يمكن تمييز ثلاثة أحداث لم تترك أثرها الكبير على مسيرة حياته فحسب، بل غيرتها تغييراً جذرياً، وقلبتها أيضاً 180 درجة. وهذه الأحداث هي: الزواج، انقلابه الروحي في أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات، والهروب من ياسنايا بوليانا.

بيد أن الحدث الأخير مجاور للغاية لمأساة أستابوفو ولموت تولستوي، ومندمج معهما عملياً. وعلاوة على ذلك فهو لا يشغل سوى عشرة أيام فقط، بحيث لا يمكن الحديث عن مرحلة جديدة في حياة تولستوي. وبالتالي، فقد كان هناك حدثان رئيسان في *حياته*: الزواج والانقلاب الروحي.

إن أية أحداث أخرى، لا رحيله إلى القوقاز، ولا حملة سيفاستوبول، ولا «رعب أرزامس»[1]، ولا موت أطفاله المبكر، حتى أحبهم إلى قلبه فانيا وماشا، لم تغير إلى هذه الدرجة البنية الداخلية لحياة تولستوي، ولم تحوله *على حين غرة* إلى إنسان جديد من حيث المبدأ.

إن تولستوي قبل الزواج وبعده - شخصان مختلفان مبدئياً، تماماً مثل تولستوي قبل الانقلاب الروحي وبعده. *على حين غرة* يتغير كل شيء، كلياً! والعالم يبدو في ضوء جديد كلياً، أما معنى وأهمية هؤلاء أو أولئك الناس، والأشياء، والعواطف، والمواقف - فيتغيران من علامة «+» إلى علامة «-» وبالعكس.

تولستوي قبل الزواج - كان شخصاً بائساً وغير محتمل في عيون المحيطين به! فهو في الوقت نفسه، يخطئ بين الفتيات، يخسر آخر نقوده،

1- رعب أرزامس - هذا هو الاسم الذي أطلقه تولستوي على الحادث الذي جرى في أرزامس، في منطقة نيج غورود حيث انهار بناء في عام 1869. وكان تولستوي في جولة في هذه المنطقة، وقد نزل في فندق على مقربة من هذا البناء. وكتب انطباعاته عن هذه الرحلة وهذا الحادث في قصة بعنوان «مذكرات مجنون» تحدث فيها عن ظاهرة «رعب أرزامس»، عالج فيها معاناته ليلاً وأفكاره حول الحياة والموت. ويرى بعض الباحثين أن «رعب أرزامس» شكل الدافع الذي أعقبته أبحاث تولستوي عن الذات، التي أدت في نهاية الأمر إلى انفصاله عن الكنيسة. - المترجم.

يعيش مع زوجة غريبة كما لو كانت زوجته، يتشاجر مع الكاتب تورغينيف، كاد يوصل الفضيحة إلى حد المبارزة...

جليّ أنه في مثل هذه الظروف لا مجال للحديث عن أي بنية توافقية منسجمة للحياة. وكان تولستوي يدرك ذلك. ولم يحاول قط البحث عن أسباب هذه الأزمة الروحية في الخارج. بل في ذاته فقط! وأية شتائم وكلمات قاسية لم يوجهها لنفسه في اليوميات عشية الزواج. «أحمق»، «خنزير»، «حيوان»، «شيطان قديم»، «مجنون» وما شابه ذلك.

«كثيراً ما كان يحدث أن أسأل نفسي برعب: ما الذي أحبه؟ لا شيء...» «أشعر بالغثيان والضيق عندما أنظر إلى نفسي...» «لقد كنت في حالة سكر شديدة مع فاسينكا (بيرفيلييف - المؤلف) والآن نحن نشخر، مستلقيين أحدنا مقابل الآخر...»

كل شيء يسقط من يديه... قبل الزفاف يكتشف أن القميص النظيف بقي في العربة مع الحوائج وليس لديه قميص للذهاب إلى الزفاف. تنشأ عثرة. في الكنيسة ينتظرون العريس، والعريس لم يحضر. بدأت تظن صونيا أنه قد هرب، مثل بودكوليوسين. وهذا ليس مستغرباً... فقد كان قد هرب، عملياً، قبل ذلك من أختها الكبيرة ليزا إلى سهوب سامارا، كما هرب من أرسسينيوفا إلى بطرسبورغ... بهذا الصدد، ثمة عبارة في يوميات تولستوي: «في يوم الزفاف خوف، وانعدام الثقة ورغبة بالهرب». وإذا ما تذكرنا أن تولستوي كان أيضاً إنساناً يؤمن بالخرافات وطيلة حياته كان يعتقد أن المرء عندما يرتدي صباحاً القميص بالمقلوب فهذه علامة شر، فإن غياب القميص في يوم الزفاف يمكن أن يلعب دوراً مصيرياً.

في صباح يوم الزفاف، جاء ليف نيقولايفتش فجأة، إلى منزل آل بيرس وذهب مباشرة إلى غرفة البنات. ليزا لم تكن في البيت، أما تانيا فخرجت بسرعة من الغرفة وركضت تبلغ أمها بقدوم عريس صونيا المفاجئ. فوجئت الأم ولم تكن راضية: فهذا غير مفترض في يوم الزفاف. ذهبت إلى غرفة البنات وفاجأتهما معاً «بين الأمتعة والحقائب والأشياء الموزعة». كانت آثار البكاء ظاهرة على خدي صونيا. اتضح أن ليف نيقولايفتش لم ينم طيلة الليل والآن

«كان يسألها، هل تحبه أم لا»، «ربما ذكريات الماضي مع بوليفانوف تحرجها» أوَليس «الأفضل الانفصال في هذه الحال». أكدت له صونيا أن الأمر ليس كذلك. وفي نهاية الأمر استنفذت قواها النفسية، وانخرطت في البكاء.

ولكن تم العثور على القميص، وتم حفل الزفاف، لكن الفرحة لم تكن حاضرة، ولم تأت.

فالجمهور المجتمع في حفل الزفاف استرعى انتباهه الفرق في العمر بين العريس والعروس، وعينا العروس الباكيتان واستخلص نتائجه. «هذا يعني، أنهم يزوجونها قسراً...» «يا لها من عروس شابة، وهو عجوز...» «وبالمقابل هو كونت، ويقال إنه غني...»

كان الزوج غير راض عن دموع صونيا عند مغادرتها لأسرتها. وقد كتبت صوفيا أندريفنا: «إنه لم يدرك آنذاك، أنني إذا كنت أحب بهذه القوة العاطفية وهذه الحرارة عائلتي - فإن هذه القدرة على الحب سأنقلها إليه وإلى أطفالنا. وهذا ما حدث فيما بعد».

سافرا قرابة يوم كامل... الليل في العربة كان قاسياً بالنسبة لزوجة شابة. «الخجل وحده كان يكفي!» - تستغرب صوفيا أندريفنا في مذكراتها. وعدا ذلك لم تحتفظ ذاكرتها بأي شيء عن هذه الرحلة: أين توقفا، وعم تحادثا؟

الليلة الأولى التي أمضياها في ياسنايا بوليانا، حسب شهادة تولستوي كانت «قاسية». في الصباح، مع فنجان القهوة، كان الزوج والزوجة يشعران بـ «الإحراج».

ولكن *على حين غرة* تحدث المعجزة! في اليوم نفسه 25 أيلول/سبتمبر، يكتب في يومياته: «سعادة لا تصدق... لا يمكن أن ينتهي هذا كله بالحياة وحدها».

صوفي Sophie التي لا تعرف الكلل

إن صونيا التي اعتادت على حياة الكرملين وأسرة الوالدين المحبين، شعرت بالارتباك من «وحشية» عادات زوجها «العزّابية» والأرستقراطية القديمة في الوقت نفسه. وكان بالنسبة لها عدم وجود أطقم الفضة أثناء

ترتيب مائدة الطعام أمراً غريباً. وأي حديث عن الفضة هناك... فالأخوة تولستوي اعتادوا على النوم في البيت على القش، من دون شراشف. وكانت رائحة القش تغطي جميع أنحاء البيت، وحول البيت كانت تنمو الأعشاب. والمسارات كانت غير واضحة ولا محددة، وملابس الخدم غير مرتبة. وأي حديث عن الخدم وملابسهم... فسيد البيت كان يرتدي في النهار ثوباً طويلاً قديماً يمسح به الأرض، وهو في الوقت نفسه بيجاما للنوم ليلاً.

طبّاخ تولستوي، نيقولاي ميخائيلوفيتش، الذي نُقل منذ عهد فولكونسكي إلى طباخ بعد أن كان موسيقياً، لأنه أضاع فوهة *الناي*، كان «قذراً بصورة استثنائية»، حسب رأي صوفيا أندرييفنا. كان يسكر كثيراً، رغم أنه «يطهو بشكل جيد». ذات مرة، أثناء الغداء، بكت صوفيا أندرييفنا عندما عثرت في صحن حسائها على «حشرة مثيرة للاشمئزاز. وكانت شُوَك الطعام الحديدية القديمة توخز فمها، أما منظر زوجها الذي ينام تحت بطانية من قطن وعلى مخدة بدون غطاء، فكان مرعباً».

علاوة على ذلك، فإن الإحساس في الحياة اليومية بياسنايا بوليانا باليتم المبكر، ونقص رعاية الآباء والأمهات، كان شديداً. أي ما كانت صوفيا أندرييفنا محاطة به في طفولتها وشبابها. وليس من العبث أن الحديقة السفلى بزواياها العاطفية، وجسورها الصغيرة وشرفتها، كانت تثير في نفس زوجها مشاعر لطيفة للغاية، فهي تذكره بالنزهات اللطيفة المؤثرة لأبيه وأمه. وهذه الظروف، إلى جانب «وحشية» تولستوي، كان على صوفيا أندرييفنا، ذات الثمانية عشر عاماً، أن تشعر بها وتتقبلها بقلبها، وتستوعبها بعقلها. كانت مطالبة بروح عملية، ولطافة ووداعة في استيعاب المساحة الروحية الجديدة.

«Sophie صوفي التي لا تعرف الكلل» – هكذا دعتها ألكسندرا أندرييفنا تولستايا، فهي لم تنجح في هذه المهمة فحسب، بل أعادت تشكيل حياة ياسنايا بوليانا، من جديد، حسب ذوقها. وإذا ما كانت ناتاشا روستوفا في بداية «الحرب والسلام» هي تانشكا أصغر الأخوات بيرس، فإن ناتاشا المتزوجة – هي بالطبع صونيا.

المظهر الخارجي الساحر، من دون جمال مبهرج مزعج. جاذبية القوام

والجسم. العقل الحي، السريع الاستيعاب والإتقان. الرزانة - في أسرة بيرس لم يُدللوا البنات. غريزة الأمومة القوية والموهبة التربوية الأكيدة. وفي الوقت نفسه، اهتمام حقيقي، أصيل بإبداع زوجها... بالإبداع بالذات وليس بالاقتصاد، الذي كان الشغل الشاغل لليف نيقولايفتش فترة من الوقت، بتربيته النحل، والخنازير اليابانية والبناء، ومعمل تقطير النبيذ. أما الزراعة فلم تحبها صوفيا أندرييفنا ولم تُخفِ هذا

وقد تم الحفاظ على كتاب مدوناتها في ياسنايا بوليانا، حيث كتبت بالتفصيل، «ما تحبه» و«ما لا تحبه».

ماذا أحب:

السَّكينة في النفس.
الحلم في الرأس.
محبة الناس لي.
أحب الأطفال.
أحب جميع أنواع الأزهار.
والشمس والكثير من الضوء.
والغابة.
أحب أن أزرع، وأن أقلّم، وأرعى الأشجار.
أحب أن أصور، أي أن أرسم،
وأن ألتقط الصور الفوتوغرافية، وأمثل الأدوار.
أحب أن أخلق شيئاً ما - أن أخيط على الأقل.
أحب الموسيقى مع بعض التحفظات.
أحب الوضوح، والبساطة، والموهبة عند الناس.
الملابس والزينة.
المرح، الاحتفالات، الألق، الجمال.
أحب الشعر.
اللطافة والرقة، العاطفية.
أحب العمل المنتج.
أحب الصراحة، والصدق...

ماذا لا أحب:

العداوة وسخط الناس
الفراغ في النفس والفكر، وإن كان مؤقتاً،
الخريف، والظلام، والليل.
الرجال (مع بعض استثناءات نادرة).
القمار.
الناس المظلمين بالخمرة والنواقص.
الأسرار، التصنّع، الكتمان، الكذب.
السهوب.
الأغاني المعربدة والصاخبة.
عملية تناول الطعام.
لا أحب أية مزرعة.
لا أحب: الحماقة والمكر، والتظاهر والكذب.
لا أحب الوحدة.
لا أحب السخرية، والنكات، والمحاكاة، والنقد، والكاريكاتير.
لا أحب الخمول والكسل.
يصعب عليّ تحمل أي قباحة.

من المستحيل تصور أن يكتب تولستوي شيئاً من هذا القبيل. فطريقة كتابته في اليوميات أكثر رهافة، وأكثر «أنوثة» إن صح التعبير. لقد سعى تولستوي بمختلف السبل، لفهم «الغريب» وقبوله، وإيجاد تبرير له، وبالعكس، لم يكن يجد قط تبريراً لنفسه. وبالنسبة له، لم تكن هناك حدود صارمة بين ما «له» وما «للغير». فإذا ما كان يشعر بها، كان يسعى لتجاوزها. وعموماً، وبصورة قاطعة، «لا أحب» ليست مطلقاً من مفردات تولستوي.

كان ليف نيقولايفتش وصوفيا أندريفنا من طبيعتين مختلفتين للغاية، بل على طرفي نقيض.

فهي كانت تجسد في ذاتها، بصورة نسبية، النموذج الأنثوي «البرجوازي»

بكل عيوبه وفضائله التي انعكست بصورة رائعة في رواية شارلوت برونتي «جون إير»، رواية صوفيا أندرييفنا المفضلة.

إن صوفيا أندرييفنا هي *نموذج البراغماتي المؤمن*. من يومياتها قبل الزواج، وصل إلينا مقطع بالصدفة، أوردته في مذكراتها، وقد جاءت فيه العبارة التالية المثيرة للاهتمام:

«الطباع، والأخلاق - كل هذا يرتبط ببنية الدماغ، والأعصاب، والأوردة، والأحشاء... كما يرتبط بالمناخ الدافئ، المشرق، وبالطعام الجيد، والمسكن الدافئ. المادة، المثالية، الروح... يا إلهي، يا لها من فوضى! يا لها من مسائل مهمة، ومن يقدر على حلها؟ هل هناك شيء غامض في العالم؟»

عندما كانت فتاة صغيرة، زارت ديراً في القدس الجديدة بالقرب من موسكو، وصُدمت من صلب المسيح بالحجم الطبيعي: «... تمثال بالطول الكامل، مطلي بالكامل، يرتدي رداءً مخملياً أسود اللون، مقيد اليدين... كان النظر مرعباً إلى هذه الدمية، وهنا على الفور تظهر فكرة، إن هذه عبادة للصنم، ويجب إضفاء الصبغة المثالية على كل شيء - لا سيما أن هذه ديانة، وعلى أية حال، فالموقف من المسيح يجب أن يبقى في مجال التجريد».

كانت صوفيا أندرييفنا طيلة حياتها إنسانةً مؤمنة، كنسيةً، وربّت أطفالها على ذلك، وكانت تغضب من مواقف زوجها المعادية للكنيسة. ولكن، وبالاختلاف عن ليف نيقولايفتش، كانت نزعتها الدينية تخلو من النزعة الصوفية. فالله، بالطبع، موجود... بيد أنه بعيد جداً وغير مفهوم، لدرجة أن على الإنسان أن يعيش حسب القوانين الأرضية، ومن ضمنها القوانين الكنسية.

أما ليف نيقولايفتش فقد جسّد في ذاته نمطاً مغايراً تماماً، نمطاً «أرستقراطياً»، بصورة نسبية، ينعكس على أفضل وجه في رواية غونتشاروف «أبلوموف»[1].

كان تولستوي *مثالياً مؤمناً*. والله ليس في مكان ما بعيد... إنه حولنا، وفي

1- رواية «أبلوموف» للكاتب الروسي إيفان غونتشاروف من أهم الروايات الروسية الكلاسيكية في القرن التاسع عشر. وباسم بطلها أبلوموف نشأ مصطلح فلسفي «الأبلوموفية» ويطلق على نزعة الكسل والتراخي عند الطبقة الأرستقراطية الروسية. المترجم

نهاية الأمر، إنه داخلنا، في أنفسنا. ومن هنا فإن قوانين الحياة الأرضية هي غير المفهومة، وهي الغامضة، وهي التي من الضروري فهمها ليس بصورة مجردة، بل بكامل قلوبنا وعقولنا، بالتوافق مع الإرادة الإلهية المباشرة البادية في العالم.

كانت صوفيا أندريفنا عملية في التدبير المنزلي. كانت تعد قائمة الطعام لمدة شهر، كي لا تصرف مالاً زائداً أثناء شراء المخصصات. وفي الوقت نفسه، كانت تحب الحياة الاجتماعية، وحفلات الرقص، والأزياء الدارجة. كان زوجها غير عملي في الحياة المنزلية وكان لا يطيق الحفلات والألعاب الاجتماعية، كان يميل إلى أناقة المفروشات المنزلية في خاموفنيكي، وكان بخيلاً في استخدام ورق الكتابة وحتى بطاريات المصباح اليدوي، ليس «أسفاً على المال»، بل لأن هذا عمل الغير، ومن المعيب هدره بصورة غير اقتصادية.

تميزت صوفيا أندريفنا بمزاج برجوازي في إدارة أمور المنزل، وفي الوقت نفسه كانت عاطفية، شديدة الحساسية حتى للأشياء الصغيرة، دون أن تخجل من التعبير عن عواطفها.

لم يكن ليف نيقولايفتش أقل حساسية. لكنه كان بخيلاً للغاية في التعبير الخارجي عن عواطفه. كان يخجل من مداعبة الأطفال وتدليلهم، ولم يكن يحتمل نوبات هستيرية زوجته، التي للأسف تميل إليها.

كانت صوفيا أندريفنا في سلوكها مع الناس مباشرة وصريحة، تقول في وجه كل إنسان كل ما تفكر وتشعر به. أما ليف نيقولايفتش فكان لبقاً للغاية في التعامل مع الغرباء، يخشى من إيذائهم بكلمة غير حذرة. فهو وحده كان يمكنه اختراع هذه التسلية العائلية مثل «الفرسان النوميديين equites Numidarum»[1]. فبعد انتظار رحيل الضيف الثقيل الممل، كان يقف هو وأفراد العائلة على شكل دائرة ويقفزون حول الطاولة، رافعين أيديهم فوق رؤوسهم. وعلى هذا الشكل يخففون التوتر الناشئ في البيت بسبب دخول

1- الفرسان النوميديون - سكان قبائل في الجزائر وتونس حالياً كانت تستخدمهم قرطاج في حروبها مع روما كمرتزقة. - المترجم

شخص غير مريح. أما الإيحاء للضيف بأنه مزعج، وحان وقت مغادرته، فهذا أمر كان من غير الممكن التفكير فيه.

كانت صوفيا أندريفنا تعشق الطبيعة، لكنها لم تكن تحب القرية والقرويين، وبقيت ابنة المدينة. وعندما كانت في موسكو أو في بطرسبورغ، لم يكن يفوتها أي حفل موسيقي مهم، أو مسرحية أو معرض. أما ليف نيقولايفتش فلم يكن يحب المدينة، حتى موسكو، حيث الناس لا يحيّ أحدهم الآخر، وبقي بصورة حصرية ابن القرية. وبعد انقلابه الروحي لم يعد يعترف بالحفلات الموسيقية، وينظر بصورة حذرة للغاية إلى المسرح، رغم أنه أصبح كاتباً مسرحياً شهيراً، مؤلف مسرحية «سلطة الظلام»؛ وتميز بضيق وجهة نظره في رؤيته للرسم، ولم يقبل بالاتجاهات الجديدة، لا بل لم يعترف على سبيل المثال، بأهمية تصوير الطبيعة.

يبدو من غير المفهوم، كيف أمكن لشخصين مختلفين جداً لهذه الدرجة أن يحب أحدهما الآخر.

لكن، كان هناك حب! ليس حباً فقط، بل «سعادة لا تصدق». إن من الخطأ الاعتقاد أن الحب قد غادر تولستوي مع الرغبة الجنسية، مع «عاطفة الغزال»، كما كانت تظن أحياناً صوفيا أندريفنا. ففي آخر كتابات تولستوي في يومياته ثمة تعابير عن حبه هذا لزوجته يستحيل تقليدها.

في نيسان/ أبريل 1863 في عيد الفصح، تكتب صوفيا أندريفنا لأختها الصغرى في موسكو: «كنت أشعر بالملل في استقبال الأعياد، أنت تفهمين، في الأعياد يشعر المرء أكثر، وقد شعرت بأنني لست معكم، وأصابني الحزن. لم تكن عندنا لا فرحة صبغ البيض، ولا صلاة الغروب مع الأناجيل الاثني عشر المملة، ولا كفن، ولا تريفونوفنا (مديرة منزل بيرس – *المؤلف*) مع كعكة عيد الفصح الضخمة على بطنها، ولا انتظار صلاة السحر – ولا شيء... وهكذا سيطر عليّ اليأس في مساء السبت المقدس، لدرجة أنني بدأت أشتم، وأبكي. وشعرت بالملل، من أنه لا عيد في يوم العيد. وشعرت بالخجل أمام ليف، ولم يكن هناك ما أفعله...

في يوم القيامة المشرقة تسليت، وأخذت أنا وليف ننظر إلى كل شيء من

«جانب» نقدي... القس عندنا، الأب كونستانتين خطب وكذب، وقال هذا الهراء، بحيث يجب أن يكون لدى المرء صبر مسيحي حقيقي حتى يستطيع الاصغاء إليه...»

غير أن انعدام الطقوس الدينية عند زوجها لم يثقل كثيراً على صونيا. وعلى كل حال، ليس كثيراً كما سوف تعاني لاحقاً من «مسيحيته الجديدة». على الأغلب، أنها كانت تفتقد أمها وأختيها، وحياة الكرملين، متذكرة بهذا الصدد، كيف كانوا يحتفلون بعيد الفصح في موسكو. في الرسالة نفسها إلى تانيا، ترجوها: «أيضاً، تانيا، اكتبي لي، يا عزيزتي، ماذا يلبسون عندكم وماذا سوف يلبسون. ما نوع القماش، ماهي الألوان، أية قبعات...»

من ناحية أخرى، كانت حياة عزبة ياسنايا بوليانا كلها مشبعة بالتقاليد القديمة والتقوى الدينية، التي تذكر بأم تولستوي. في غرفة العمة يرغولسكايا ووليفتها القديمة ناتاليا بتروفنا عُلقت أيقونات سوداء قديمة. وفي الجناح المجاور كانت تعيش كائنة هرمة عجيبة – أغافيا ميخائيلوفنا الوصيفة السابقة لجدة تولستوي بيلاغيا نيقولايفنا. وكانت ترتدي دائماً سترة قديمة، تخرج منها قطع القطن، وكانت تجمع في المنطقة الكلاب الشاردة، وتسكنها في جناحها متمتعة بحقوق صاحبة الجناح. وكانوا يدعونها بـ «مربية الكلاب». ومثلها مثل العمة يرغولسكايا، كانت أغافيا ميخائيلوفنا عانساً كبيرة السن، وعاشت حصراً من أجل الآخرين. ولكن كانت لديها كبرياؤها، التي تكتب عنها ابنة تولستوي الكبرى تاتيانا لفوفنا:

«ذات مرة، مرضت خالتي تاتيانا أندريفنا بيرس، شقيقة والدتي الصغيرة، التي كانت تزورنا. وكالعادة، أرسلوني لإحضار أغافيا ميخائيلوفنا. تروي أغافيا ميخائيلوفنا:

– لقد جئت للتو من الحمام، شربت الشاي، واستلقيت على الموقد. فجأة سمعت شخصاً يطرق النافذة. «ماذا تريد؟» – صرخت. «أرسلتني إليك تاتيانا أندريفنا، مرِضت، ترجوك أن تأتي لعندها». وأنا الآن فقط شعرت بالدفء، لا أريد النزول، وارتداء الثياب، والمشي في البيت بهذا البرد. فأجبت: «قل، لا يمكنها المجيء، أغافيا ميخائيلوفنا خرجت للتو من

الحمام». غادر الشخص المرسل، وأنا مستلقية أفكر: «إنني أتصرف تصرفاً سيئاً، أرأف بنفسي، ولا أرأف بإنسان مريض». أنزلت رجليّ من الموقد، وبدأت بارتداء الجزمة. فجأة، أسمع طرقاً في النافذة. «فأسأل، وماذا أيضاً؟» – «أرسلتني تاتيانا أندرييفنا وتقول لك أن تحضري بالتأكيد – سوف تشتري لك ثوباً» – «ماذا! أقول ستشتري لي ثوباً... قل لها ما قلت لك، إنني لن آتي، لن آتي». خلعت الجزمة من رجلي، وصعدت من جديد إلى الموقد، ولم أستطع النوم فترة طويلة. أشفق على المرضى وليس من أجل الثوب... كنت أحب تاتيانا أندرييفنا، ولكن أي إساءة أساءت لي...»

إن أغافيا ميخائيلوفنا مؤمنة، متدينة، ومع ذلك، كان يمكنها أن تقلب أيقونة القديس إلى الحائط، عندما لم يكن يساعدها «كما يجب». وفي الآن نفسه، كانت تتمتع بوعي «وجودي» وقد أذهلت، ذات يوم، ليف نيقولا يفتش بقصة كان يحب تذكرها حتى آخر أيامه:

«ذات مرة، كنت مستلقية بهدوء، باستثناء الساعة التي تدق: من أنتِ، ماذا أنتِ؟ من أنتِ، ماذا أنتِ؟ من أنتِ، ماذا أنتِ؟ وأنا استغرقت في التفكير: حقيقة، أفكر: من أنا؟ ماذا أنا؟ وهكذا طيلة الليل كنت أفكر في هذا الموضوع».

كانت أغافيا ميخائيلوفنا تشفق على الذباب والصراصير وتطعم الفئران، التي أصبحت في جناحها منزلية أليفة تقريباً. وقد تذكرت سوخوتينا – تولستايا: «توفيت أغافيا ميخائيلوفنا عندما لم يبق منا أحد في ياسنايا بوليانا. توفيت بهدوء، من دون تذمر أو خوف. وقبل وفاتها طلبت نقل شكرها لجميع أفراد عائلتنا لمحبتنا لها. وقد قالوا، عندما تم نقل جثمانها إلى ساحة الكنيسة، خرجت جميع الكلاب من جحورها ورافقت الجنازة بعوائها خارج القرية في الطريق إلى المقبرة.

وتتابع سوخوتينا – تولستايا: «كان يعيش في العزبة أناس غرباء... عاش لفترة طويلة الراهب فويكوف. كان شقيق الوصي على أبي وإخوته وأخته. كان فويكوف يرتدي الثوب الرهباني، ما كان لا يتناسب مع إدمانه على النبيذ. وكان يعيش أيضاً قزم. وكان من واجباته تكسير الحطب، وعلاوة

على ذلك، كان يلعب دوراً كبيراً في الألعاب المختلفة وحفلات التنكر في ياسنايا بوليانا. كما كانت تعيش العجوز الجوّالة ماريا غيراسيموفنا، التي كانت ترتدي ثوباً رجّالياً. وهي كانت عرابة عمتي ماريا نيقولايفنا».

بالطبع، كان هذا يختلف إلى حد كبير عن حياة عائلة بيرس في الكرملين، حيث أثناء نزهة الفتيات كان يرافقهن خادم بخوذة معدنية ذات رأس حاد. وفي المقابل، في ياسنايا بوليانا كان من الممكن رؤية الغجر مع دب حي حقيقي.

– ميخائيل إيفانيتش[1]، انحنِ احتراماً للسادة.

أنّ الدب، ووقف على قائمتيه الخلفيتين وقرع بجرس السلسلة، وانحنى بظهره.

– أرِنا، كيف يسرق أولاد القس البازلاء.

استلقى الدب على الأرض وتسلل نحو البازلاء المتخيّلة.

– أرِنا كيف تتجمل السيدات.

جلس الدب على قائمتيه الخلفيتين، وأمسكوا أمامه مرآة، وأخذ يمسح وجهه بقائمتيه الأماميتين.

– مُتْ!

شخر الدب، واستلقى، وبقي مستلقياً بلا حراك.

وكتب سيرغي لفوفيتش الابن الأكبر لتولستوي يقول: «وانتهى هذا كله بشكل عادي، بأن قُدمت الفودكا للجميع بمن فيهم الدب. وبعد أن شرب الدب الفودكا، غدا محباً طيباً، واستلقى على ظهره كأنه يبتسم...»

إن شاعرية ياسنايا بوليانا اليومية هذه، تركت سحراً لا يمحى في نفوس أبناء تولستوي، لدرجة أنهم جميعاً كانوا يتذكرون طفولتهم في ياسنايا بوليانا، كما لو أنها الجنة، لكن تركت على أمهم البالغة من العمر ثمانية عشر – تسعة عشر عاماً انطباعاً غامضاً مغايراً. وفي نهاية الأمر اعتادت عليها.

تتذكر صوفيا أندريفنا: «في الأيام الأولى من زواجي جاؤوا لتهنئتنا: العاملون في العزبة، الفلاحون، التلاميذ. أعطتني أمي لمصاريفي، كي لا

1- ميخائيل إيفانيتش: لقب الدب المتعارف عليه في روسيا. – المترجم

أطلب المال من زوجي في الفترة الأولى 300 روبل، وقد وزعتها كلها تقريباً على المهنئين. كان يبدو لي آنذاك، أنهم جميعاً طيبون، ويحبوننا كثيراً، وقد أسعدتني هذه التهاني، رغم أنها ضايقتني. كانت هنا الزوجة القديمة للعم نيقولاي دميرتيف – آرينا إغناتيفنا وابنتها باربارا؛ وراعية البقر آنّا بتروفنا وابنتاها أنوشكا ودوشكا، والعمدة فاسيلي يرميلين، وبائع الحلويات مكسيم إيفانوفيتش، والخادمة القديمة للجدة بيلاغيا نيقولايفنا – أغافيا ميخائيلوفنا الجافة والصارمة، والغسّالة المرحة أكسينيا مكسيموفنا مع ابنتيها الجميلتين بوليا ومارفا؛ والحوذيون، وعامل الحديقة *وكثير من الناس الغرباء والبعيدين، الذين اضطررت فيما بعد للعيش طويلاً معهم*» (التأكيد من قبل المؤلف).

إن جميع هؤلاء الأشخاص المجهولين، الذين غذوا الخيال الإبداعي لزوجها، مؤلف «طفولة» و«مراهقة» و«بوليكوشكا» وقصته اللاحقة «أليوشا غورشوك» العبقرية ببساطتها الشعرية – بقوا غرباء بالنسبة لصوفيا أندرييفنا. ومن الأمور ذات الدلالة، موقف زوجة تولستوي من النموذج الحقيقي لأليوشا غورشوك، وهو ريفي أجدب، كان يعيش فعلاً في ياسنايا بوليانا. وقد تذكرت صوفيا أندرييفنا تقريباً في الوقت نفسه الذي كان فيه تولستوي يكتب قصته «أليوشا غورشوك»: «على سبيل المثال، كان يأتي من القرية غبي أجدب باسم أليوشا غورشوك، وكانوا يجبرونه على إصدار أصوات مخجلة، فيقهقه الجميع، لكنني شعرت بالاشمئزاز وأردت البكاء».

قد ينشأ انطباع كاذب لدى قارئ مذكرات صوفيا أندرييفنا غير المطلع، كأن سيدة العاصمة المتنعمة المثقفة قد أحضروها إلى مكان ناء ريفي «متوحش»، بدببه وحمقاه، و«مربي كلابه» وبلهائه المضرّطين. لكن الواقع، بالفعل، كان غير كذلك.

فالأرستقراطي كان زوجها بالذات. لكن أرستقراطية تولستوي ليست للتفاخر والعرض، بل أرستقراطية منزل مأثور. وقد كتب إيليا لفوفيتش، ابن تولستوي: «لقد كان أبي، بولادته، وتربيته، وأخلاقه، وعاداته، أرستقراطياً حقيقياً. على الرغم من قميص العمال الذي كان يرتديه باستمرار، وعلى الرغم من استخفافه الكامل بجميع الأحكام المسبقة للنبلاء، فقد كان نبيلاً، وبقي نبيلاً حتى آخر أيامه».

حصلت صوفي Sophie على تعليم جيد، كانت تعرف اللغتين الفرنسية والألمانية، وحصلت على الإجازة الجامعية كمدرسة منزلية بالدراسة الخارجية، وكانت تتقن الرسم والعزف على البيانو، وتمتلك موهبة أدبية أكيدة، سمحت لها بكتابة قصص للأطفال (كتاب «ألعاب الهيكل العظمي») وترجمة المؤلفات الفلسفية لزوجها إلى اللغة الفرنسية. وفي السنوات الأخيرة، كانت مولعة بالرسم، وحققت فيه نجاحات كبيرة.

لكن موهبتها الرئيسة، رغم ذلك، كانت في الإدارة المنزلية وتربية الأولاد. وليس من العبث أن جدتها كانت تقول: «إن رأس صونيا في القلنسوة». وهذه القلنسوة بالذات هي رمز ربة البيت، وأصبحت الجزئية الأولى التي لفتت انتباه ليف نيقولايفتش في رسالته الأولى من ياسنايا بوليانا، حيث يتحدث عن سعادته العائلية. فقد كتب في 25 أيلول/ سبتمبر 1862 رسالة إلى تانيا بيرس في موسكو:

«... ليمنحك الله مثل هذه السعادة التي أشعر بها، فلا وجود لأكثر منها. إنها (أي صونيا – *المؤلف*) تضع على رأسها *قلنسوة* بلون حبات التوت – جيد. وكيف أدت في الصباح عملها كسيدة كبيرة بصورة مماثلة وممتازة».

كان هذا اليوم الأول من حياتهما الزوجية المشتركة. بعد ثلاثة أيام أكمل تولستوي العام الرابع والثلاثين من عمره، وقبل شهر أكملت صونيا العام الثامن عشر من عمرها. صونيا بالمقارنة معه لا تزال «تحبو على رؤوس أصابعها». هو عظيم، عبقري! هو مالك ضيعة كاملة. وليس ضيعة واحدة – بل وكذلك مئة فيرستا من نيكولسكي الجميلة التي بقيت له بعد وفاة أخيه نيقولاي. إنه كاتب، مربٍّ، وصياد متحمس واختير وسيطاً عالمياً في قضية تحرير الفلاحين. وأخيراً، هو رجل قوي جداً، جسدياً. عندما أخذ «صعلوك» من المارة يختلس النظر إلى زوجته التي كانت تسبح في البركة، لحقه وضربه ضرباً مبرحاً. لا مجال لأي حديث عنده عن «عدم المقاومة». *إنه تولستوي الغاضب*. وكم كان غضبه شديداً، قبل الزفاف، عندما جاءت الشرطة وفتشت منزله، محاولة العثور على كتب محظورة، وربما مطبعة، مع مؤلفات هيرتسن الجديدة. ولكن لحسن حظه كان آنذاك في سهوب سامارا، وإلا كان ليف نيقولايفتش سيطلق النار بالتأكيد على رئيس الدورية.

بسلطته وقوته الجسدية، تولستوي يقمع صونيا: «هو، الموهوب بعبقرية، والذكي والأكبر سناً وأكثر خبرة في الحياة الروحية – كان يقمعني معنوياً». «والقوة الجسدية للرجل وتجربته الحياتية في مجال الحب – وشهوته الوحشية وقوته – كانت تقمعني جسدياً».

لم يكن لديها، كما يبدو، الكثير: الشباب و«القلنسوة». شابة، جميلة، إنها على حق بأي شكل، حتى لو لم تكن محقة. إن رسائل تولستوي لعامي 1862–1863 تشع ببساطة، بسعادة العروسيْن الغبية.

«تانيا! أتعرفين أن صونيا في لحظات الصداقة تدعوني سُرّة. لا تسمحي لها بأن تسميني «سرة»، فهذا مسيء. كم أحب عندما كنت أنت وصونيا تسميانني دريسينكا... تانيا! لماذا سافرت إلى بطرسبورغ؟... شعرتِ بالملل. هناك...»

بعد ذلك تابع صونيا كتابة الرسالة، حسب العادة المتعارف عليها بينهما أن تُكتب الرسائل «بيدي الاثنين».

في الصراع الفردي الممتع بين الزوج والزوجة كان شباب صونيا وجاذبيتها أقوى من قوة تولستوي الجسدية. ورسائل ويوميات تولستوي في السنوات الأولى من زواجه تترك انطباعاً بالسعادة النشوى.

«... أكتب وأسمع في الأعلى صوت زوجتي التي تتحدث مع أخيها والتي أحبها أكثر من أي إنسان في الدنيا – يكتب تولستوي ل آ. آ. تولستايا – لقد عشت 34 عاماً، ولم أعرف أنه يمكن للمرء أن يحب هكذا وأن يكون سعيداً... الآن لديّ شعور دائم، كأنني سرقت سعادة غير شرعية لا أستحقها ولا تخصني. ها هي تأتي، وأنا أسمعها، وأنا بأحسن حال».

«فيتوشكا، يا عمي، ويا صديقي العزيز أفاناسي أفاناسيفيتش. – أنا متزوج منذ أسبوعين وسعيد، وأنا إنسان جديد، جديد كلياً».

رسالته إلى ي. ب. كوفاليفسكي: «... ها قد مر شهر على زواجي وأنا سعيد بحيث لم أكن لأصدق قط أن الناس يمكنهم أن يكونوا كذلك».

رسالته إلى م. ن. تولستايا: «أنا خنزير كبير، عزيزتي ماشا، لأنني لم أكتب لك منذ هذه الفترة الطويلة. إن الناس السعداء أنانيون».

رسالته إلى ي. ب. بوريسوف: «في المنزل عندنا كل شيء بحمد الله، ونعيش نحن بحيث لا نشتهي الموت».

لقد ودّع مؤقتاً «عشيقته الأخيرة» - التربية. ليس لأن مجلة «ياسنايا بوليانا» التربوية لم تثر اهتماماً اجتماعياً جدياً فحسب. وليس لأن أطفال الفلاحين أثناء أعمال الحقل لم يتوفر لديهم وقت للدراسة. بل يكاد السبب الرئيس يكون عدم توافق التربية والزوجة الشابة. وعلى سبيل المثال، كان معلمو الريف الوافدون إلى ياسنايا بوليانا لتلقّي ما يشبه «التطبيق العملي» و«تبادل الخبرات»، كانوا يدخنون في غرفة الضيوف، وصونيا التي حَمَلت بسرعة، لم تكن تحتمل الدخان.

تتذكر صوفيا أندريفنا: «جميع هؤلاء الشباب كانوا يشعرون بكثير من الحرج لوجودي، وبعضهم كان ينظر إليّ نظرة عدائية، مدركين أن تواصلهم القريب الآن سينتهي مع ليف نيقولايفتش الذي سينقل جميع اهتمامه إلى الحياة الأسرية».

وهكذا نشأ لأول مرة الصراع: وجود تولستوي لمن؟ للأسرة أم للجميع؟ في المعركة الأولى فازت صونيا بسهولة، لأن ليف نيقولايفتش في تلك الفترة كان ميالاً إلى التربية، وأصبحت «عشيقته» الجديدة الزراعة، وتربية النحل، والخنازير، والخيول، ومعمل تقطير النبيذ. ولكن تم طرح السؤال، ولم تكن هناك صُدف في حياة تولستوي.

ولكن ماذا يعني «إنسان جديد»، الذي يكتب عنه للعم فيتوشكا؟ إنه فعلاً تولستوي جديد. لكنه في الوقت نفسه، تولستوي انتقالي، مرحلي. تولستوي بين الشباب والشيخوخة. تولستوي بين عصر الهروب الكلي (من قازان! إلى القوقاز! إلى سيفاستوبول! إلى الخارج! إلى سهوب سامارا!)، والأبحاث المضنية عن السعادة، وبين عصر الانقلاب الروحي الساحق.

إنه تولستوي السعيد. والواقع كانت هذه هي المرحلة الوحيدة في حياته عندما كان سعيداً، وعندما كان يبدو أنه لا يرغب بأي شيء آخر. وهي تشغل حوالي خمسة عشر عاماً من عمره... وهذه تعني الكثير جداً! وبالطبع، لم تكن سعادة مطلقة من دون منغّصات. وقد تشاجر أول مرة مع زوجته في

اليوم الخامس لوصولهما إلى ياسنايا بوليانا. وقد كتب في يومياته في 30 أيلول/ سبتمبر: «اليوم كان هناك مشهد». وكانت هناك مشاهد ونوبات غضب، ونزاع شديد في مسألة إطعام الأطفال... ولكن، مع ذلك، إذا ما قارنا هذه الفترة مع آلام تولستوي في فترة الشباب، ومع ما عاناه بعد الانقلاب الروحي، فقد كانت هذه الفترة سعادة، قريبة من الجنة. وبالطبع، في تلك الفترة بالذات، كان من الممكن أن تُكتب روايتا «الحرب والسلام» و«آنا كارينينا».

كان *الحب* هو القوة المحركة الرئيسة لهاتين الروايتين. ليس الحب للناس عامة، ولا حتى الحب لـ «الأهل» بل حب المرأة، الذي صاغ، بصورة غامضة، لفترة مؤقتة، قوة عفوية باسم «تولستوي». وقاد هذه القوة إلى شواطئها. ووضع على رأسه قلنسوته غير المرئية، التي يلمع عليها بصيص ذلك التاج الذي أمسكوه فوق رأس ليف نيقولايفتش في كنيسة الكرملين.

أول ما فعلته صونيا كربة منزل ياسنايا بوليانا - أنها ألبست جميع الطهاة قبعات بيضاء. ومنذ تلك الأثناء لم تعد تظهر «الحشرات المثيرة للاشمئزاز» في الحساء. لقد كانت هذه مسألة نظافة عادية. لكنها كانت لفتة رمزية بشكل مذهل. ثم تمّ مسح المسارات وتسويتها، واقتلاع الأعشاب والقراص من جذورها، وخيطت الشراشف البيضاء فوق البطانيات الحريرية، التي حلت محل البطانيات القطنية، ووضعت أغطية على المخدات، ووضعت أطقم فضية على المائدة أثناء الغداء. لكن القبعات أولاً! وعلى أية حال، فقد تذكرتها بادئ ذي بدء، في وصفها خطواتها الأولى كربة بيت في «حياتي».

إن تولستوي، الذي ضحك على الخادم الذي يرتدي الخوذة المعدنية ذات الرأس الحاد، الذي كان يرافق بنات بيرس أثناء النزهة، لم يقبل فحسب، بل كان سعيداً أيضاً أكثر من أي وقت...

«أحبها أنا، عندما أستيقظ ليلاً أو صباحاً وأرى - أنها تنظر إليّ وتحبني. ولا أحد - المهم، أنا - لا أتدخل في حبها، كما تعرف، وبطريقتها الخاصة. أحب عندما تجلس بالقرب مني، ونحن نعرف، أننا نحب أحدنا الآخر، كما نستطيع، وهي تقول لي: ليفوشكا، - وتتوقف، - لماذا أنابيب الموقد

مستقيمة، أو لماذا الخيول تعيش فترة طويلة وما شابه ذلك. أحب عندما نبقى وحدنا فترة طويلة وأنا أقول: ماذا نفعل؟ يا صونيا، ماذا نفعل؟ فتضحك. أحبها عندما تغضب مني، وفجأة في غمضة عين، لديها فكرة، وكلمة حادة أحياناً: دغ، هذا ممل؛ بعد دقيقة تبتسم لي بخفر. أحبها عندما لا تراني ولا تعرفني، وأحبها بطريقتي الخاصة. أحبها عندما تكون كالفتاة الصغيرة، في فستان أصفر وتبرز فكها السفلي ولسانها، أحبها عندما أرى رأسها ملقى إلى الخلف، ووجهها الجدي والخائف، والطفولي، والشهواني، أحبها، عندما...»

«اليوم استيقظت، وهي تبكي وتقبلني. ماذا؟ أنت مُتّ في الحلم... أحبها أفضل وأكثر».

شعرنا مؤخراً أن سعادتنا مخيفة. الموت. وينتهي كل شيء. وهل ينتهي حقاً؟ يا الله. لقد صلينا».

وأخيراً، في 8 شباط/ فبراير1863 تظهر في يومياته مدونة تضع كل شيء في مكانه: «إنها لا تعرف ولن تدرك كيف هي تغيّرني، بلا شك أكثر مما أنا أغيّرها. ولكن ليس بصورة شعورية. شعورياً أنا وهي عاجزان».

ومن المثير للاهتمام، أنه قبل هذه المدونة بفترة قصيرة كانت هناك مدونة في يوميات صوفيا أندريفنا ذاتها: «أحياناً أشعر برغبة شديدة بالتحرر من نفوذه، الثقيل بعض الشيء... ونفوذه ثقيل لأنني أفكر بأفكاره، وأنظر بنظراته، أرهق نفسي، ولن أكون هو، وأفقد نفسي».

شقوق

إن أية سعادة عائلية لا يمكنها أن تكتمل من دون نزاعات، وغيرة، ومصالحات. كلاهما، ليف نيقولايفتش وصوفيا أندريفنا كانا غيورين. كان تولستوي يغار على صونيا من معلم شاب، وهي كانت تغار على تولستوي ليس من أكسينيا فحسب، بل من... أختها الصغرى أيضاً.

تانيا بيرس كانت تتردد باستمرار إلى ياسنايا بوليانا وتستمتع بالصيد مع تولستوي. أختان تحب إحداهما الأخرى بلا حدود. لكن صونيا تكتب في

يومياتها: «أختي تانيا تحشر نفسها أكثر من اللازم في حياتنا». وكيف لا... الأخت الصغرى، ترتدي ثياب الفارسة الضيق، رشيقة ومثيرة، تقفز مع تولستوي في الغابات والسهول، بينما الأخت الكبرى، الحامل، والمملة، تجلس في البيت. إن تانيا تغدو نوعاً من «الموديل» لتولستوي. ومنها، بالمعنى الحرفي للكلمة، ينقل صفات ناتاشا لروايته «الحرب والسلام». وعلى صونيا أن تنقل وتعيد كتابة كل هذا عدة مرات. لدى تانيا تتوالى قصص الحب الفاشلة واحدة إثر أخرى - مع ابن عمها أناتول شوستاك (أناتول كوراغين في الرواية)، مع شقيق تولستوي سيرغي نيقولايفتش (أندريه بولكونسكي في الرواية)، الذي بسببه كادت تموت، بعد أن تجرعت السم. ولدى صونيا «قصصها» المؤلمة أيضاً - نزيف في الثدي، إسهال الأطفال، الطاهي السكران، وعليها، وهي الحامل أن تقلي الإوزة... ولكن خلال هذا كله تانيا - «بائسة»، وصونيا «سعيدة». أية عدالة هذه!

تتذكر صوفيا أندريفنا: «أذكر، اجتمعنا جميعاً لركوب العربة: وضعنا السروج على الخيول، ربطنا الطواقم - البكرات وأداة التحويل: كانت هنا أولغا إيسلينيفا، أختي تانيا، وضيوف آخرون. وخرجت أنا إلى الشرفة، منتظرة بخفر أمر ليف نيقولايفتش، أين سيجلسونني، لأنه هو الذي كان ينظّم كل شيء. ولكن، عندما جلس الجميع، ودون أن يسألني، ماذا أرغب، توجه إليّ ليف نيقولايفتش وقال: «وأنت، بالطبع، ستبقين في البيت؟» رأيت أنه لم يعد هناك مكان شاغر، وبصعوبة كبيرة، أمسكت دموعي، ولم أحر جواباً. ولكن، ما إن ابتعدوا، حتى شرعت ببكاء مرير، كما يبكي الأطفال؛ بكيت طويلاً، وبصورة مؤلمة، ولم أنس هذه الدموع حتى الآن، رغم أنه مضى أكثر من أربعين عاماً على هذه الحادثة».

وستكتب صوفيا أندريفنا بعد أربعين سنة: «*لا يمكن أبداً السماح، لا للرجال ولا للنساء، بالاقتراب من الحياة الحميمة الخاصة للزوجين. فهذا خطر دائم*».

ولكن ليس الغيرة من تانيا ولا حتى من أكسينيا أصبحت السبب الرئيس لـ«الشقوق» الأسرية. فأحياناً يبدأ زوجها داخلياً بالتذمر، ويشعر بشيء من الضيق وبنقص في حريته الداخلية والخارجية. رغم أنه، أية حرية أخرى يمكن

أن يرغب بها؟ أراد الاهتمام بالمدرسة – اهتم بها، اشتغل بها، شعر بالملل، وتركها. اهتم بتربية النحل – أخذ يمضي أياماً كاملة أمام المنحل، وزوجته تحمل له بخنوع طعام الغداء. أراد تربية سلالة خاصة من الخنازير اليابانية، وزراعة نوع خاص من التفاح – فتم طلبها. لكن الخنازير ماتت، أما جذور التفاح فرسخت في الحديقة. في الربيع يصطاد كل يوم تقريباً نقار الخشب؛ أما في الخريف، والشتاء فيرحل مع كلاب الصيد السلوقية لصيد الثعالب والأرانب البرية. بدأت الكتابة الأدبية تعطي دخلاً ملحوظاً. ومن مكافأة رواية «الحرب والسلام» أعطى تولستوي عشرة آلاف روبل لكل من ابنتي أخيه ليزا وفاريا، كمهر لعرسيهما. وقد تفهمت زوجته هذه البادرة السخية وأيدتها.

ومع ذلك... «تطابقت جميع شروط السعادة بالنسبة لي. شيء واحد ينقصني غالباً (طيلة هذا الوقت) وهو – الوعي بأنني فعلت كل ما علي أن أفعله من أجل التمتع بشكل كامل بما أعطيته، ومنحت الآخرين، *كل شيء*، حسب عملهم، لقاء ما أعطوني».

في ربيع 1863 يبدأ بكتابة قصة «ميرين – خلوستومير»، وهي قصة «إنسانية» مذهلة عن الحصان الذي أنهكوه بالعمل والذي كرس نفسه، حتى آخر عظمة، حتى آخر قطعة من جلده، *للآخرين*. وفي ذروة السعادة، عندما توفرت جميع ظروفها، بدأ تولستوي، فجأة، كتابة هذه القصة التي تعدّ تمجيداً للزهد الروسي، والتي لا تقارن إلا بقصة تورغينيف «الرفات الحي». لماذا؟

لكن «ميرين» كما سُميت القصة آنذاك، لم يُكتب عنها، أما قصة «القوزاق» فيكتب عنها. رواية «الحرب والسلام» – يُكتب عنها. ورواية «آنّا كارينينا» سوف يُكتب عنها – وكيف لا! هو نفسه، بدا كأنه لم ينظر بجدية إلى روايته الثانية، وشعر هو نفسه بالدهشة، لماذا أثارت هذا الاهتمام الكبير لدى القرّاء. إن السبب واضح. لأن الناس في العالم كله يسعون إلى *السعادة*، وليس إلى المعاناة. بل إلى السعادة – ولو تحت القطار!

لكن شيئاً ما في هذه السعادة بدأ يزعج تولستوي. «أين أنا – أنا، ذاك الذي كنت أحبه بنفسي وأعرفه، الذي يخرج أحياناً، كله إلى السطح، ويفرحني

ويخيفني؟ أنا صغير وتافه. وأنا هكذا منذ أن تزوجت من المرأة التي أحبها».
ظهرت هذه المدونة في اليوميات بعد أقل من عام على الزفاف.

فجأة في ذروة السعادة العائلية يخرج من ريشة تولستوي حوار الأمير أندريه وبيير بيزوخوف، حيث أندريه يقنع بيير: يا صديقي، لا تتزوج! لا تتزوج إلى أن تصبح عجوزاً هرماً، غير مجد لأحد. فجأة كونستانتين ليفين، السعيد بلا حدود مع زوجته كيتي الرائعة (وهي تقريباً صونيا)، في «آنّا كارينينا» يبدأ التفكير جدياً بحبل متين وعارضة قوية تحت السقف. وخالقه نفسه (تولستوي – المترجم) يخفي في هذه الفترة الحبل من أمام عينيه، ويخشى الخروج إلى الصيد وحده مع البندقية. ما الذي حدث؟

ليس في اليوميات، بل في مفكرة تولستوي التي يكتب فيها كل شيء، يجدر البحث عن مدوناته، حيث اهتم بالعلوم الطبيعية: «الهيدروجين يصعد إلى الأعلى، أي من مجال الهواء يصعد إلى مجال الهيدروجين». «الهيدروجين» – هو تولستوي، أما «الهواء» – فهو الأسرة. هذا «الهواء» يمكن تنفسه الآن بصورة رائعة. علاوة على ذلك – لا يمكنه العيش من دونه. لكن قوة مذهلة ما، تدفعه وتدفعه إلى فضاء آخر، ولا يستطيع مقاومتها، لأنها تنتمي لـ «مجال» آخر. وملاحظات تولستوي حول الجاذبية الطبيعية وتأثير الكواكب بعضها على بعض أكثر إثارة للاهتمام:

«القمر يدور حول الأرض، لأنه أخف وزناً، ويشكل أحد الأجسام المرئية التي تدور حول الأرض.

الأرض تدور مع الكواكب الأخرى حول الشمس. أي بدرجة كثافتها نسبة إلى مجالات الشمس، تجد طريقها في أحد هذه المجالات. واتجاهها محدد بمجال دوران الشمس، المتصل مباشرة بمجالها ومجالات الكواكب الأخرى».

هذا هو «نموذج» الحياة الأسرية، حسب تولستوي. فالزوجة – هي القمر الذي يدور حول الأرض، الزوج، مع الأقمار الصغيرة الأخرى – الأطفال، التابعين لـ «مجالها». لكن الأرض ليست مستقلة وهي خاضعة لـ «المجال» الشمسي، وبدورها... وإلخ.

تُركز زوجة تولستوي اهتماماً كبيراً، في مذكراتها المتأخرة، على غيرتها من أكسينيا، وغيرتها من أختها... وقد شكلت مسألة إرضاع الطفل الأول – سيريوجا «شقاً» خطيراً. كانت صوفيا أندريفنا تعاني من مرض شديد في الثديين، ولم يكن الحليب يكفي لإطعامه، وكان ليف نيقولايفتش يغضب كثيراً لأن طبيباً (رجلاً غريباً) يحق له فحص ثديي زوجته. وكأنه «أحد المسلمين». «فكان يبتعد عني ويتركني، ممضياً الوقت بمرح مع أختي المرحة المعافاة تانيا...»

وبحسب قناعة ليف نيقولايفتش، لم يكن هناك أي مجال للحديث عن أخذ مرضعة والتوقف عن إرضاع الطفل. وقد كتبت صوفيا أندريفنا بعد عشرة أشهر من السعادة العائلية: «إنني أنهار معنوياً بشكل رهيب. أبحث بصورة آلية عن الدعم، كما يبحث رضيعي عن الثدي. والألم يعتصرني ويقوس ظهري، ليف القاتل». «يزداد الألم، وأنا تقلصت على نفسي كالحلزون، وقررت الصبر حتى النهاية». «من القبح أن لا ترعى الأم طفلها؛ ومن يقول عكس ذلك؟ ولكن ما العمل مع العجز الجسدي؟» «لا يمكنني إصلاح الوضع، سوف أعتني بالطفل، سأبذل كل جهدي، بالطبع، ليس من أجل ليف، فهو يستحق الشر، مقابل الشر الذي يلحقه بي».

وعلى أية حال، جلبوا مرضعة، لكن «الشق» بقي. «عبّر لي ذات مرة عن فكرة حكيمة بخصوص نزاعاتنا، بقيت أذكرها طيلة حياتي ونقلتها للآخرين. لقد قارن الزوجين بنصفي صفحة ورقة بيضاء. ابدأ بتمزيقهما أو قصهما من الأعلى – وتابع، وتابع، فسينفصل النصفان نهائياً».

هناك خطأ ما...

كانت صوفيا أندريفنا تنظر إلى هذه «الشقوق» من وجهة نظرها النسائية. أما ليف نيقولايفتش، بعناده الرجولي، فكان أحياناً، قاسياً في معاملة زوجته الشابة، العديمة الخبرة. وفي الوقت نفسه، كان هو نفسه، عديم الخبرة، بعيداً عن الاتساق، وحتى قبل انقلابه الروحي كان غير مرة يبدل «قواعد اللعبة». «فتارة كان يسعى إلى البساطة، وينقلني على عربة، ويطالب بكتّان خشن

للابن الأول. وفيما بعد، أخذ مني كلمة شرف بأن أسافر بالدرجة الأولى وليس بالدرجة الثانية، كما كنت أرغب، وجلب لي من موسكو القبعات والفساتين من عند مدام مينانغوي Minangoy، أغلى خيّاطة في موسكو في ذلك الوقت، وأحذية ذهبية اللون من محل بينيه Pinet؛ تارة كانت مربية روسية قذرة ترعى أولادنا، وتارة أخرى يطلب مربية إنكليزية من الخارج...»

بعد أربع سنوات، عندما كانت صونيا حاملاً في المرة التالية، حصل بينهما شجار لم يستطيعا تبريره، لا هو ولا هي، شجار «بلا معنى وبلا رحمة». تكتب ت. آ. كوزمينسكايا: «حدثتني صونيا، أنها كانت تجلس في غرفتها في الطابق الثاني على أرض الغرفة مقابل صندوق صوان الثياب، تفرز العقد في البقج. (كانت في وضع مثير للاهتمام.) دخل ليف نيقولايفتش إلى غرفتها وقال:

– لماذا تجلسين على الأرض؟ انهضي!

– الآن، عندما أفرز كل شيء.

– أقول لك، انهضي الآن، – صرخ بصوت عال وخرج إلى مكتبه.

لم تفهم صونيا سبب غضبه الشديد. وهذا ما أزعجها، فذهبت إلى المكتب. سمعت من غرفتي صوتيهما المتهيجين، تنصتّ ولم أفهم شيئاً. وفجأة سمعت صوت سقوط شيء ما، وصوت زجاج يتكسر، وصيحة:

– اذهبي بعيداً، اذهبي بعيداً!

فتحت الباب. كانت صونيا قد خرجت. على الأرض كانت الأطباق مرمية ومكسّرة وكذلك ميزان الحرارة، الذي كان معلقاً على الجدار. كان ليف نيقولايفتش يقف في وسط الغرفة شاحباً، وشفته ترتجف. وكانت عيناه تنظران إلى نقطة واحدة. شعرت بالشفقة والرعب – لم أره قط بهذا الشكل. لم أقل له شيئاً وركضت إلى صونيا. كانت بائسة جداً. كالمجنونة، تردد باستمرار: «لماذا؟ ماذا به؟»

وقد حدثتني فيما بعد فقالت: – ذهبت إلى المكتب وسألته: – «ليفوشكا، ماذا بك؟» – «اخرجي، اخرجي!» – صرخ بغضب. اقتربت منه بخوف وحيرة، فأبعدني بيده، وأمسك بصينية القهوة والفنجان ورمى بهما

على الأرض. أمسكت يده. فغضب، وانتزع من الجدار ميزان الحرارة ورماه على الأرض».

وقد كتبت صوفيا أندريفنا في «حياتي»: «إن هذه الحادثة تسببت في إجهاض حملي...»

العام السابع والستون، عندما جرت هذه الحادثة، كان عاماً حرجاً في حياة تولستوي. فطيلة فصل الشتاء، كان ينهي الجزء الثلث من «الحرب والسلام» «منزعجاً بالدموع والاضطراب»، شاعراً خلال ذلك بآلام في الرأس لا تطاق. وفي ليلة من ليالي آذار/ مارس احترقت جميع البيوت البلاستيكية والزجاجية التي كان قد شيدها جده فولكونسكي. وبالكاد استطاع ليف نيقولايفتش سحب أبناء البستاني من النار. وفي شهر آذار/ مارس نفسه ماتت زوجة أفضل صديق له دولي دياكوفا. وفي جنازتها في موسكو، علم بالموت السخيف ليليزافيتا أندرييفنا، شقيقة آ. آ. تولستويا، في إيطاليا - اختنقت بعظمة في حنجرتها. وقد كتب لـ آ. آ. تولستايا: «هناك أوقات ينسى الإنسان فيها الموت، وهناك أوقات، مثل العام الحالي، عندما تجلس مع أحبائك، كامناً، خائفاً من التذكير بهم، وتسمع، برعب، أن الموت هنا تارة وهناك تارة أخرى، يحصد بغباء وقسوة، الناس الأفضل والأغلى». وأخيراً، تولستوي نفسه، في هذا العام، أصبح ضحية شك كبير في موضوع صحته. فالشك باحتمال إصابته بالسل الرئوي يرغمه على التوجه إلى الطبيب الموسكوفي زاخارين. وينتظر بخوف النتيجة. ولم يتم العثور إلّا على حصى في مرارته.

في هذا العام، سافر تولستوي مراراً إلى موسكو: من أجل دفن دولّي، ومن أجل ترتيب مسألة طباعة «الحرب والسلام»، ومن أجل الفحص الطبي عند الطبيب زاخارين.

وخلال فترات الغياب هذه، كان يتراسل مع زوجته كل يوم! في هذه المراسلات للعام السابع والستين ثمة شيء مؤثر غير عادي و... شاذ، كما في كل مراسلات تولستوي مع زوجته التي اختتمت بالمراسلة الرهيبة «الصماء» أثناء رحيله.

«عزيزي ليفوشكا، أخشى أن لا يتوفر لدي وقت للكتابة إليك غداً، لهذا أبدأ بكتابة رسالتي منذ المساء الساعة 11، حيث ينام الأطفال، وحيث أشعر بالحزن الشديد والوحدة. وغداً سترسل العمة إيفان مراسلاً ولن أتمكن من إرسالها بصورة متأخرة. صباحاً، على أية حال، سأكتب لك فيما إذا كان كل شيء على ما يرام عندنا. أما الآن فنحن جميعاً بصحة جيدة، والأطفال، يبدو لي تعافوا بالكامل الآن، والألم الذي كنت أشعر به صباحاً قد زال، ولم يحدث لدينا شيء يسترعي الاهتمام. الآن أبذل جهدي، بنشاط غير عادي، كي أخمد في نفسي جميع الأفكار القاتمة، ولكن كلما بذلت جهدي أكثر ظهرت بعناد أكبر في رأسي الأفكار الأكثر حزناً. فقط عندما أجلس وأعيد كتابة روايتك، أنتقل بصورة لا إرادية إلى عالم آل دينيسوف ونيقولاس (أبطال «الحرب والسلام» – *المؤلف*)، وهذا يسرّني كثيراً. لكنني لا أعيد الكتابة إلا قليلاً، فالوقت لا يسعفني لسبب ما.

غداً، لن تصلني منك رسالة بأية حال وأنا أنتظر هذه الرسالة بفارغ الصبر وبألم. فكّر، أنا لا أعرف شيئاً سوى مضمون البرقية المقتضب، أما خيالي فقد عذّبني حقاً. أتعرف، طيلة اليوم، أمشي كالمجنونة، لا أستطيع تناول الطعام، ولا أستطيع النوم، وأفكر فقط بما حل بتانيا وبآل دياكوف، وأتخيل نفسي دولّي، وأشعر بالحزن، والرهبة، ولا سيما أنك غير موجود، وأفكر فيك دوماً، وفي ما يمكن أن يحدث لك. تعال، بأسرع وقت».

أما أجوبة ليف نيقولايفتش فلا تقل رقة ولطفاً وعناية، لكنها، ربما أكثر حساسية وعاطفية.

«أجلس وحيداً في الغرفة في الشقة (شقة آل بيرس – *المؤلف*) كلها؛ قرأت الآن رسالتك، ولا يمكنني أن أصف لك كل الحنان، حنان حتى الدموع، الذي أشعر به نحوك، وليس الآن فقط، ولكن في كل دقيقة من اليوم. يا روحي، يا حبيبتي، الأفضل في الدنيا! كرمى لله، لا تتوقفي عن الكتابة لي كل يوم حتى يوم السبت... من دونك أشعر بالحزن، بالخوف وليس هذا فحسب رغم أنه يحدث، لكن الأهم، من دونك – أنا ميت، أنا لست إنساناً على قيد الحياة. وأحبك كثيراً في غيابك».

على أية حال، فإن هذا الشغف العاطفي المتوقد لزوجها لم يكن يروق كثيراً لصوفيا أندريفنا. فقد كتبت: «على الرغم من أنه يتبادر إلى ذهني أن أسباب حنانك الأكبر من الأسباب التي لا أحبها أنا؛ لكنني بعد ذلك لا أريد الآن أن أفسد فرحتي، وأطمئن نفسي وأقول لها: من أية أسباب مهما كانت، لكنه يحبني، وحمداً لله».

وقد كان الأولاد، واحداً إثر الآخر، نتيجة لهذا الشغف والحنان العاطفي. كانت صوفيا أندريفنا تحب الأطفال بلا حدود، وقد تجلت موهبتها الحياتية الرئيسة في رعايتهم وتربيتهم. لكن وضعية الحمل الدائمة، دون استراحة تقريباً، بدأت تشكل عبئاً عليها، وعلاوة على ذلك، سرعان ما أخذت تلاحظ أن زوجها لا يختلف بأي شيء عن غالبية الرجال العاديين: فهو يحب زوجته المعافاة وليس المريضة.

وقد كتب إيليا لفوفيتش ابن تولستوي: «من بين الأطفال الثلاثة عشر الذين أنجبتهم، أحد عشر طفلاً أرضعتهم من ثدييها. ومن السنوات الثلاث عشرة الأولى من حياتها الزوجية كانت حاملاً مئة وسبعة عشر شهراً، أي عشر سنوات، وأرضعت أطفالها بثدييها أكثر من ثلاثة عشر عاماً...»

لكن ما كان يثير سخط صوفيا أندريفنا بشكل خاص، أن زوجها الذي تميز بشهوة جنسية رجولية قوية حتى سنواتهما المتأخرة (وُلد ابنهما الأخير فانشكا في آذار/ مارس 1888، عندما قارب تولستوي الستين من عمره وبلغت صوفيا أندريفنا الرابعة والأربعين)، بيد أنه كان خلال ذلك يؤكد على نظرته السلبية إلى العلاقة الجنسية، معتبراً إياها آثمة وغير جديرة بالكائن الروحي. والمدهش أن هذا الموقف لم يتغير طالما كان يعاني من «عاطفة الغزال» تجاه الفتيات والنساء الفلاحات. «ولكن، ما العمل؟» – كان يقول لزوجته في مثل هذه الحالات، موضحاً لها أنه إذا كان غير قادر على السيطرة على «عاطفة الغزال»، التي يشعر بها نحوها، فهذا لا يعني أنه مستعد أخلاقياً لتبرير هذه العاطفة. وعباراته في اليوميات مثل: «*نمت معها بصورة آثمة*»، – كانت تفجّر صوفيا أندريفنا بالمعنى الحرفي للكلمة. فهي لا تلمح إلى أنها مجرد شريكة في هذا «الإثم»، بل والدافع والمحرض الرئيس عليه. لكن الأهم – الأهم! – والذي كان

يخرجها عن طورها، أن زوجها لم يجد فرقاً مبدئياً بينها وبين تلك النساء اللواتي سبقنها.

كان تولستوي يعتبر الإنجاب المبرر الوحيد للعلاقة الجنسية. وها هو يكتب في مفكرته: «إن علاقة الزوج بالزوجة ليست قائمة على العقد ولا على الاقتران الجسدي. إن في الاقتران الجسدي شيئاً ما رهيباً وتجديفياً. ويخلو من التجديفي فقط عندما ينتج ثمرة. لكنه مع ذلك، هو رهيب، مخيف مثل الجثة. إنه لغز». وهو هنا يكتب عن علاقة «الموت» التي لا تنفصم بين الزوج والزوجة، مشيراً إلى أن ثمة حالات نادرة للغاية لموت الأخ والأخت، لكن حالات موت الأزواج كبار السن كثيرة جداً. وهنا نحتاج إلى الشعور بدقة موقف تولستوي من العلاقة الجنسية. فهو لم ير فيها إثماً فحسب، بل لغزاً أيضاً، لغزاً مماثلاً للموت. والموت كان دائماً يفتن تولستوي. وهو لا يمكنه ألا يدرك أن الحلقة الأولى في سلسلة: الولادة – الحياة – الموت هي العلاقة الجنسية. ومن هنا، كانت هذه العلاقة تخيفه. فإذا لم تصبح نتيجة العلاقة الجنسية ثمرة – ولادة وحياة، فإن هذه العلاقة تعني «جثة».

هذه الدقة في موقف زوجها من العلاقة الجسدية لم تكن تفهمها صوفيا أندريفنا. ولم تكن قادرة على ذلك. فهذه العلاقة كانت تعني، بالنسبة لها، أشياء محددة: وضعية الحمل القاسية، آلام الولادة، التهاب الثدي، الليالي من دون نوم، برودة الزوج تجاه زوجته المريضة وغيرتها من النساء الشابات والمعافيات، مثل أختها... «أعترف بأنني آنذاك قد بدأت أنحط، وأصبح أكثر أنانية، مما كنت سابقاً. شكراً لأن ليف نيقولايفتش لم يحب أحداً غيري، وشكراً لإخلاصه الصارم، الكامل، ونقاوته في موقفه من النساء كانت مذهلة. وهذا يميز سلالة آل تولستوي...»

حتى فترة معينة، لم تكن صوفيا أندريفنا تشعر بذلك الحد الذي كان يمكنها أن تفهم زوجها، والذي بعده لا حاجة لأن تحاول ذلك وتشغل رأسها، مكتفية بالاهتمام بما قسمه الله لها: الحياة الداخلية للأسرة والأطفال.

ولكن وضعها هذا كانت له دقته ورهافته أيضاً. فتولستوي لم يكن فيزيائياً ولا فلكياً. ولم يكن حتى «أديباً» بالمعنى العادي، الذي يرتزق من إبداعه

ليعيش. لقد كان تولستوي *خالقاً للحياة*. لتلك الحياة ذاتها التي كانت تتدفق بحرية وعضوية من حياة ياسنايا بوليانا في «الحرب والسلام» وفي «آنا كارينينا» وبالعكس. وهي، زوجته، كانت شريكة في هذه العملية الإبداعية، علاوة على ذلك، هو نفسه كان يصر على ذلك، مكسباً الزواج ليس معنى عملياً براغماتياً فحسب، بل معنى مثالياً إبداعياً أيضاً. فكيف كان يمكنها تعيين ذلك الحد الذي تنتهي عنده صلاحيتها، ويبدأ حصرياً مجال زوجها؟

طالما بقي هذا المجال مكتب زوجها كل شيء كان واضحاً، بدرجة من الوضوح أقل أو أكثر. وحقيقة أن مكتب الأب – هو مكان مقدس، وأن الوقت الذي يكتب فيه أو يقرأ – هو أهم الساعات التي توجد من أجلها ياسنايا بوليانا – هذه الحقيقة لم تكن تدركها زوجة تولستوي فحسب، بل أوحت بها بعمق أيضاً لأطفالها.

كان من غير الممكن تصور إزعاج الأب أثناء عمله! ومن غير الممكن تصور الدخول في هذا الوقت إلى مكتبه، وتجاوز حدود هذا «المجال». ولكن عندما كان تولستوي يغادر المكتب لم يتوقف الإبداع عنده. ولم يصبح زوجاً وأباً عادياً. فقد تابع البقاء في «مجاله»، لكنه هنا في التفاعل مع «مجالات» أفراد أسرته. وكيف يمكنها هنا إيجاد الحدود؟

تكتب صوفيا أندرييفنا لزوجها أثناء سفره: «كم أحسنت لأنك تركت لي نصوصاً لنقلها. كم تروق لي الأميرة ماريا! وكأنك تراها أمامك. يا لشخصيتها الجميلة والرائعة. سوف أنتقد لك كل شيء. برأيي، أن الأمير أندريه ما يزال غير واضح. ولا تعرف، ما هو هذا الإنسان. فإذا كان ذكياً، فلماذا لا يفهم ولا يمكنه أن يشرح لنفسه علاقاته مع زوجته».

«أجلسُ في مكتبك، أكتب وأبكي. أبكي على سعادتي، أبكي عليك، وأبكي لأنك غير موجود...»

«منذ فترة قريبة، روايتك تسمو بي معنوياً كثيراً من الناحية المعنوية والأخلاقية. وما إن أجلس وأعيد كتابتها، أنتقل إلى عالم شاعري ما، حتى إنه يبدو لي أنها ليست روايتك رائعة إلى هذه الدرجة... بل أنا ذكية».

«أرسل إليك، عزيزي ليفوشكا... الأيقونة الصغيرة التي كانت ترافقك

دائماً، ولهذا فلتبق معك الآن أيضاً. قد تستغرب أنني أرسلها لك، لكنني سأكون مسرورة إذا ما أخذتها وحافظت عليها».

علاقات الأمير أندريه غير الواضحة بزوجته، الأيقونة الصغيرة التي طلبت الأميرة ماريا منه أن يأخذها معه إلى الحرب والتي أخذها بدهشة، كي يرضي زوجته - كل هذا إما أنه انتقل من حياة ياسنايا بوليانا إلى رواية «الحرب والسلام» أو أنه عاد من الرواية إلى الحياة. لقد كان هذا دوراناً، نظاماً للأوعية الدموية، وليس تحديداً جامداً للمجالات.

كانت صوفيا أندريفنا استبدادية في حبها لزوجها. واستبداديتها هذه كانت استمراراً لفضيلتها الأساسية - التفاني ونكران الذات. هكذا تربت على يد أبيها وأمها، وغير معروف على يد من أيضاً.

كانت لديها أيضاً جوانبها الدقيقة في فهم علاقات الزوجين، التي غرستها في نفسها منذ الطفولة أمها وأبوها، لكنها لم تتوافق مع رؤية العالم المثالية في ياسنايا بوليانا. وتكتب صوفيا أندريفنا في يومياتها: «أحياناً، أجد نفسي غاضبة، أن لا داعي، لأن أحب، إذا لم يعرف كيف يحبني، والأهم، أغضب لأنني أحب بهذا القدر من القوة والذل والألم. أمي تفخر كثيراً أن أبي أحبها فترة طويلة. هذا ليس هي التي كانت تعرف كيف تربطه، بل هو الذي كان يعرف كيف يحب. إنها مهارة وقدرة وخاصة. ما هو المطلوب كي أشده وأجذبه؟ لا وجود لوسيلة من أجل ذلك. أوحوا لي أن أكون شريفة، أن أحب، أن أكون زوجة وأماً جيدة. هذا مكتوب في الأبجدية - وكل هذا هراء. يجب أن لا أحب، يجب أن أكون ماكرة، يجب أن أكون ذكية ويجب أن أتعلم إخفاء كل ما هو شرير في طباعي، لأن الناس لم يكونوا، ولن يكونوا من دون الشر. والمهم، أن لا أحب. فما الذي فعلته بحبي القوي هذا، وماذا سأفعل الآن بحبي؟ لقد سببت لنفسي الألم، والمذلة، والرعب أيضاً. ويبدو له هذا أنه غباء».

إنها يوميات هذا العام السادس والسبعين نفسه، المشبعة بالإحساس المسبق بالكارثة. لكن، كأن صوفيا أندريفنا وحدها كانت تشعر بها. فقد كان تولستوي مستغرقا كلياً في «الحرب والسلام» وبمرضه. إنه يستشير

الطبيب زاخارين، ويقيس برجليه ساحة بوروديـنو، واثقاً من أنه سيكتب مشهد معركة، لم يحلم به حتى ستاندال، أكبر شخصية بالنسبة له بين «كتّاب المعارك». لكن صوفيا أندرييفنا طيلة الوقت «تشعر».

هناك خطأ ما... هناك خطأ ما...

الهوامش

قضية مدهشة! قامت صونيا بيرس، كما هو واضح، بتمزيق يومياتها البريئة قبل الزواج، ولم تظهرها لتولستوي. أما هو، فملاحظاته غير البريئة، في حياة العزوبية، لم يظهرها لخطيبته، فحسب، *بل أجبرها* على قراءتها أيضاً. لماذا.

لن نجد تفسيراً واضحاً لهذا الفعل، لا في يومياته، ولا في روايته «آنّا كارينينا»، حيث كونستانتين ليفين يرتكب مثل هذا الفعل. لكن بعض الدوافع يمكن العثور عليها على السطوح.

أولاً، هو لم يكن واثقاً من أنه، كما هو، جدير بعروسه، وأراد أن تعرف بأنه لا يستحقها، وأنها أقدمت على خيار واع وليس خياراً أعمى. وهذا دافع نبيل.

ثانياً، لعزمه على إحضار زوجته، وأم أولاده مستقبلاً، إلى ياسنايا بوليانا، كان يعرف أنها ستصطدم، بصورة حتمية، بأكسينيا وابنه غير الشرعي. فرأى أنه من الأفضل فتح هذا الخرّاج قبل الزفاف من صدم الزوجة الشابة التي من المحتمل أن تكون حاملاً في لحظة سماعها «الخبر السعيد». ليس بالدافع الأنبل، وليس بالدافع الأسوأ. حسناً، ولكن علام كان إظهار اليوميات؟

لقد تصرف تولستوي ضد القواعد المرعية. وهذا التصرف «المتوحش» أذهل صونيا ووالديها. لكن الوالدين نسبا هذا التصرف إلى «غرابة» العريس: وقد عرفا بعضها بالفعل. وكان على صونيا أن تعيش مع هذه «الحقيقة».

تقول في كتابها «حياتي»: «... كل ما هو نجس، عرفته وقرأته في اليوميات السابقة لليف نيقولايفتش، *وهو لم يخرج قط من قلبي وبقي معاناة طيلة حياتي*».

تشكو صوفيا أندريفنا في يوميات السنة الأولى من زواجها: «إن كل ماضيه (ماضي زوجها – *المؤلف*) رهيب بالنسبة لي، بحيث يبدو لي أنني لن أصالحه وأقبل به، إلى أن تظهر هناك أهداف أخرى في الحياة، كالأطفال، الذين أتمنى أن يكون لدي مستقبل كامل، كي أتمكن من أن أرى في أطفالي ذلك النقاء، من دون الماضي، من دون القذارة، من دون كل ما هو مُرّ أراه الآن في زوجي. إنه لا يدرك أن ماضيه هو حياة كاملة مع آلاف العواطف المختلفة، الجيدة والسيئة، التي لا يمكنها أن تنتمي إليّ، تماماً مثل شبابه الذي لن ينتمي إلي، هذا الشباب الذي هدره، ولا يعرف إلا الله على من، وعلى ماذا...»

كان يظن تولستوي، بتقديمه يومياته العزّابية لصوفيا، أنه يختبر ثبات عواطفها ويبين لها «الألغام» التي يمكن أن تواجهها في ياسنايا بوليانا. لكنه في الواقع، وضع تحت حياته العائلية المقبلة عبوة ناسفة!

إن جميع عيوب صوفيا أندريفنا قد نتجت عن فضائلها وبالعكس. فنكران الذات والتفاني في الحياة العائلية كانا يتجاوران مع الاستبداد، وحبها المخلص لزوجها يتجاور مع الغيرة المتهورة. وبيومياته هذه أيقظ تولستوي فيها الجوانب المظلمة في طبيعتها، وأرغمها على المعاناة، ليس من الغيرة فحسب، بل من شعورها بعجزها أمام الجوانب المظلمة من شخصيتها أيضاً. وإذا ما كان هذا درساً روحياً، فقد كان بالغ القسوة.

بالطبع، أكثر ما جرحها كلماته عن أكسينيا كزوجة. فعبارته «عاشق كما لم أعشق من قبل!» كانت صوفيا أندريفنا تولي أهمية خاصة لبعض الكلمات التي قالها أو كتبها زوجها. فكانت تتشبث بهذه الكلمات، فتضخمها بمعنى إضافي لا يفهمه أحد غيرها. وهذا كان مرضها.

وكتبت في يومياتها بعد ثلاثة أشهر من الزفاف، عندما رأت أكسينيا في بيتها: «يبدو لي أنني لن أستطيع السيطرة على نفسي من الغيرة «عاشق كما لم أعشق من قبل!» إنها مجرد امرأة عادية، سمينة، بيضاء، مريعة. نظرتُ بمتعة كبيرة إلى الخنجر، والبندقية. ضربة واحدة – سهلة. طالما ليس لدي طفل بعد. وهي هنا، على بعد بضع خطوات. إنني كالمجنونة... ولو استطعت

لقتلته هو أيضاً، ولخلقت تولستوي جديداً، تماماً كما هو، لفعلت هذا بكل سرور».

وبجعله يومياته عندما كان عازباً مكشوفة وشفافة أمام زوجته، ارتكب تولستوي خطأ آخر، ندم عليه بلا شك، في سنوات شيخوخته، قبل مغادرته. فقد أهداها حق اعتبار نفسها «ضحية». فبإيقاظه فيها جانباً مظلماً – وهو الغيرة – قدم لها الأساس للاستبداد العائلي، لأنه ليس هناك أكثر استبدادية من الحب القرباني، الأضحية. وقد نما في نفسها هذا الشعور بـ «الضحية» منذ بداية حياتهما المشتركة. وستصرخ وتتردد هذه اليوميات في أذني ليف نيقولايفتش طيلة ثمانية وأربعين عاماً من علاقاتهما العائلية. وهذا «الهيكل العظمي في الخزانة» سيكتسب جسداً بالتدريج، ويتغذى بالدم، وسيبقى حاضراً دائماً في البيت أثناء أقسى النزاعات.

وهذا كله... من أجل ماذا؟

اكتسبت البداية الأولى لحياة عائلة تولستوي طابعاً هامشياً marginal غريباً. فاليوميات (من حيث الجوهر، مجرد كلمات مكتوبة) فجأة بدأت تلعب دور شخص *ثالث*. كلاهما يدوّن يوميات، وكأنهما يتباريان فيما بينهما في الصراحة. لكن الأهم – أن كليهما لا يقتصران على سماح أحدهما للآخر بقراءة هذه اليوميات، بل يجعلان هذا عنصراً مبدئياً لاكتمال السعادة العائلية. عائلة بلا أسرار!

فماذا يقرآن في هذه اليوميات؟

هي

«إنه مقرف مع شعبه، بالنسبة لي...»

«يلعب عنده الجانب الجسدي من الحب دوراً كبيراً. وهذا مريع – عندي، على العكس، هذا الجانب لا يلعب أي دور...»

«إنه رجل سيئ لأنه ليس لديه تلك الشفقة المتوفرة لدى كل إنسان عادي، غير شرير تجاه كل كائن يعاني...»

«لا يوجد حب، إذن لا توجد حياة...»

«سيعود الطقس الجيد، ستعود الصحة، وسيكون هناك نظام، وفرحة في الأسرة، وسيكون عندنا طفل، وستعود المتعة الجسدية، - مقرفة...»

«أقدم على التضحية بابني...»

«لن يكون لديه أطفال بعد الآن...»

«أنا مهجورة. لا نهار، ولا مساء، ولا ليل. أنا - لتلبية الرغبة، أنا - مربية، أنا - قطعة أثاث، أنا - *امرأة*».

هو:

«لا يمكنني العمل. اليوم كان عندنا مشهد. شعرت بالحزن، لأن عندنا كل شيء، كما عند الآخرين. قلت لها إنها أهانت مشاعري تجاهها، وأنا بكيت...»

«هذا الكسل يغدو قاسياً بالنسبة لي. لا يمكنني أن أحترم نفسي... أشعر بالأسف على حياتي وحتى على حياتها. لا *بد من العمل*...»

«كنت غير راض قط عنها، كنت أقارنها بالأخريات، وكدت أشعر بالأسف، لكنني كنت أعرف أن هذا مؤقت، وانتظرت، وزال...»

«تانيا - هي الشعور الحسي...»

«منذ الصباح ارتدت الفستان. استدعتني من أجل أن أقول إنني ضد ارتدائه، وأنا كنت ضده، وقلت - الدموع، المبررات المبتذلة... أصلحنا الوضع بطريقة أو بأخرى. أنا دوماً غير راض عن نفسي في مثل هذه الحالات، وخاصة القبلات، إنها طلاء كاذب... بعد الغداء زال الطلاء، وحلت الدموع، والهستيريا...»

«إن طباعها تسوء كل يوم... لقد تصفحت يومياتها - حنق خفي عليّ مغطى بكلمات الرقة والحنان...»

«منذ الصباح أدخل سعيداً (بعد النزهة - *المؤلف*)، مرحاً، وأرى *الكونتيسة* الغاضبة التي تمشط *الفتاة* دوشكا شعرها... وأنا، كالمسلوق، أخاف من كل شيء، وأرى أنني فقط هناك، حيث أكون وحيداً، أشعر بالراحة والشاعرية».

«لقد أصبحت الساعة الواحدة ليلاً، وأنا لا أستطيع النوم، ولدي رغبة أقل بالذهاب للنوم في غرفتها، بمثل هذا الشعور الذي يتملكني، أما هي فتئن عندما يسمعها الآخرون، أما الآن فهي تشخر بطمأنينة».

إن حواشي تولستوي في يوميات زوجته، المازحة تارة، والتائبة تارة أخرى، لا تدع مجالاً للشك في أنه قرأ يومياتها. ولم يكن يحق له على الإطلاق إخفاء يومياته، بعد أن فرض يوميات شبابه على عروسه. فبجعله ماضيه عبئها الروحي، فتح تولستوي بذلك الباب إلى مخبأ روحه، ولم يعد يستطيع إغلاقه.

إن من بين الرموز الخارجية لصوفيا أندرييفنا، كربة منزل، ليس القلنسوة فقط، بل الربطة الثقيلة لمفاتيح الحوزة كلها كذلك بما فيها المباني الملحقة، التي كانت دائماً على حزامها، على بطنها، حتى عندما كانت حاملاً. ولكن من أجل اختراق مخبأ زوجها لم تكن بحاجة إلى مفتاح. فكل شيء مفتوح.

ولكن، هل كان من الممكن أن يستمر الوضع هكذا طيلة حياتهما؟ وعلام كان شخصان راشدان متزوجان يتناولان الطعام على مائدة واحدة وينامان في غرفة نوم واحدة، إجراء مثل هذه «المراسلة» الغريبة والغامضة»؟

لقد حازت هذه اللعبة على إعجاب صوفيا أندرييفنا. وعلى أية حال، جاءت على ذوقها وكانت تطالب زوجها دائماً بالصراحة المطلقة. لكن انعدام أي سر بينهما سرعان ما أزعج تولستوي. ففي صيف عام ثلاثة وستين يكتب في اليوميات متعجباً: «كل ما هو مكتوب في هذا الكتيّب تقريباً كذب – زيف. فالفكرة أنها هنا أيضا تقرأ خفية، فتنقص وتفسد حقيقتي».

وفي نهاية الأمر، هذه اليوميات، التي كان عليها حسب فكرة تولستوي الأولى، أن توحد الزوجين في جسد روحي واحد لا ينفصم، أصبحت أحد أهم أسباب النزاع العائلي الذي انتهى بكارثة عام 1910...

«لقد تكسرت الحياة»

هكذا يدعى أحد فصول ذكريات صوفيا أندرييفنا. كانت ولادة الابنة

الثانية، والطفل الخامس، من حيث العدد، ماريا - في 12 آب/ أغسطس 1871 حدثاً أثر بصورة جدية على العلاقات بين الزوجين، قبل الانقلاب الروحي لتولستوي، وأصبح ليس «الشق» بل الانكسار الأول في الحياة الزوجية. فهي كانت الطفل الأول الذي سيقف فيما بعد إلى جانب الأب في النزاع مع الأم، راسماً بذلك الانقسام بين أبناء تولستوي. إن ماريا التي توفيت في ريعان الشباب، كانت، في كثير من الجوانب، طفلة غير عادية، ومتميزة، مثل الطفل الأخير فانيا. وكانت ماريا ابنة تولستوي المحبوبة المفضلة.

بعد ولادة ماريا مرضت صوفيا أندرييفنا بحمى النفاس وكادت تموت. ونصحها الأطباء بعدم الحمل بعد هذا المرض. لكن تولستوي لم يتصور الحياة الزوجية من دون الإنجاب. وبعد ماريا ولدت زوجته ثمانية أطفال، من بينهم الأطفال الثلاثة الأوائل - بطرس (ولد عام 1872)، نيقولاي (ولد عام 1873) وفاريا (ولدت عام 1875) - ماتوا في سن الرضاعة. فقط مع ولادة الابن أندريه في عام 1877، ومن ثم ميخائيل في عام 1879 بدأ نسل تولستوي يكتسب القوة. لكن ألكسي الذي ولد في عام 1881 توفي في عمر خمس سنوات، وفانيا الذي ولد عام 1888 مات في السابعة من عمره. لكن الابنة التي ولدت رغم رغبة أمها، في عام 1884 أصبحت المعمرة الرئيسة في أسرة تولستوي. إنها ألكسندرا لفوفنا التي عاشت خمسة وتسعين عاماً.

لقد كان ثمة شيء أسطوري (مقدس) في قوة تولستوي المثمرة. وكل طفل من أطفاله لم يكن شبيهاً بالسابق ولا باللاحق. وكل منهم كان يتمتع بشخصية أصيلة، بل وحتى ببداية شخصية متضخمة. وجميع أبنائه كانوا متعددي المواهب.

في عام 1871 لم يسجل تولستوي يوميات، ولكن وصلت إلينا مدونات من مفكرته، حيث يدين العلوم الطبيعية لمماثلتها القوانين الطبيعية بسر الإنجاب البشري: «إن العلوم الطبيعية هي السعي إلى إيجاد عامل مشترك في حياة العالم الخارجي مع حياة الإنسان. الإنسان يولد من بيضة مخصبة. دعونا نبحث عن البيضة في السليلة (البوليب) وعن التخصيب في السرخس...»

إن الإنجاب، بالنسبة لتولستوي، هو سر لا يمكن السيطرة عليه. لكن هذا السر كان يعني لصوفيا أندريفنا أشياء أكثر تحديداً. وها هي مدونتها في يومياتها لعام 1870:

«اليوم هو اليوم الرابع منذ أن فطمت ليفوشكا (ليف هو الابن الرابع لآل تولستوي – المؤلف) عن الرضاعة. شعرت بالشفقة عليه تقريباً أكثر من جميع الآخرين. باركته، وودعته، وبكيت، وصليت. إنه صعب جداً هذا الانفصال الأول الكامل عن طفلي. المفروض، أنني حامل، مرة أخرى».

في بداية السبعينيات يتابع تولستوي العيش حياة ذهنية مكثفة للغاية. يعود إليه تعطشه إلى التربية، ويضع كتاب «الأبجدية» للأطفال (تقوم صوفيا أندريفنا بتبييضه). يتعلم اللغة الإغريقية، من أجل قراءة هوميروس وكسينوفونت باللغة الأصلية. يجمع المواد لرواية بطرس الأول. وفي عام 1873 يبدأ العمل في رواية «آنا كارينينا». وفي هذه الفترة سافر تولستوي مرتين إلى سهوب سامارا من أجل العلاج بالكوميس.

عادت حياة الأسرة إلى طبيعتها. ولكن، لم تعد هناك «السعادة التي لا تصدق». فقد ارتسمت في حياة أسرة آل تولستوي جميع الشقوق، التي سوف تتسع في المستقبل. ولكن كان لا بد من دفعة خارجية ما، كي يبدأ الانقسام.

وكانت هذه الدفعة انتقال الأسرة إلى موسكو.

في عام 1871، عندما حدث انشقاق في الأسرة، غادرت ياسنايا بوليانا ملاكها المجنح، وشيطانها في الوقت نفسه – تانيا بيرس التي كانت تمكث ضيفة عند أختها الأكبر منها من الربيع حتى الخريف. فبعد «قصة» حبها الفاشلة والشاقة مع شقيق تولستوي سيرغي نيقولايفتش، تزوجت رغم ذلك من ابن عمها كوزمينسكي وغادرت معه إلى القوقاز، حيث حصل على وظيفة. لقد كانت هذه كارثة كبرى بالنسبة لصوفيا أندريفنا. فقد كانت أختها الصديقة الوحيدة الموثوقة في القضايا العائلية، وتقاسمت معها جميع أفراحها وأحزانها في علاقاتها مع زوجها. ومع رحيل تانيا انقطعت صلتها الحية والدائمة مع أسرتها السابقة، مع آل بيرس. واعتباراً من هذه اللحظة أصبحت الكونتيسة تولستايا فقط.

وفي هذا الوقت يفكر تولستوي بالرحلة إلى أوبتينا. هذه الرحلة لم تتم، لكنها تمت بعد ست سنوات. وفي حديثه عن هذه الرحلة بعد سنوات عديدة، لكاتب سيرته الأول بافل بريوكوف، يخلط تولستوي في ذاكرته بين العامين 1871 و1877، ويتحدث عن تلك «الرحلة» الأولى كأنها تمت بالفعل. وسيقول لبريوكوف، إنه سافر إلى أوبتينا للحديث مع المرشد الروحي أمبروز عن مشاكله العائلية.

الفصل الخامس

الروسي الجديد

بعد يوم من مغادرة تولستوي، في 29 تشرين الأول/ أكتوبر وصل إلى أوبتينا سكرتير تشرتكوف الشاب أليوشا سرغيينكو، وأجلسه ليف نيقولايفتش على الفور إلى الطاولة من أجل كتابة رد تولستوي على تحقيق كورني تشوكوفسكي حول قضية عقوبة الإعدام. وفي أثناء العمل رأى سرغيينكو في الطرف المقابل للطاولة صفحة ورق ضيقة كتب عليها شيء ما بخط تولستوي الكبير. كان يرغب كثيراً بمعرفة ما هو مكتوب، لكنه شعر بالحرج.

«بعد انتهائه من الإملاء، اقترب ليف نيقولايفتش من المغسلة، وعليها وعاء فخاري كبير. سكب الماء من الإبريق في الحوض وأخذ يرغي الصابون بيديه. وفجأة هتف بحسرة:

– آه، إنه مؤسف!

– ليف نيقولايفتش، ما هو المؤسف؟

– لقد نسيت فرشاة الأظافر...

– ليف نيقولايفتش، سأسعى لأحضرها لك.

– لا، لا، لا حاجة. أنا سأكتب، طالباً إرسالها لي من المنزل...»

كانت آلام حالة تولستوي المعنوية، بعد مغادرته ياسنايا بوليانا، تنبع من عدم رغبته الشديدة بإثقال كاهل الآخرين بشخصه. وكلما بذل جهداً أكبر للتخفيف من عبئه سبب لهم مشاكل أكثر.

عندما ذهب تولستوي للنزهة سيراً على الأقدام، سحب سرغينكو الورقة وقرأ:

«صابون

فرشاة الأظافر

مفكرة».

لو ورد في هذه القائمة «المشرط» بدلاً من «المفكرة»، لما شك المرء بأن هذا الطلب للمنزل من جرّاح، غادر البيت مؤقتاً في مهمة جراحية. لكن هذا كان طلب كاتب تعد الصابون وفرشاة الأظافر بالنسبة له ذات أهمية كبيرة، لأن أداة الكاتب الرئيسة هي اليدين اللتين يجب أن تكونا في نظافة مثالية. علاوة على أن تولستوي كان مميزاً بنظافة غير عادية.

في رسالته إلى ابنته ساشا، التي لم تتمكن من استلامها لسفرها إلى شاموردينو، طلب تولستوي أن ترسل أو تجلب له «قطعة صغيرة لتعبئة الحبر» (لم ينس أخذ الحبر معه)، وكذلك – «مقصاً صغيراً، وقلم رصاص، ورداء حمام». بالمناسبة، كان بحاجة إلى صابون نباتي وليس صابوناً حيوانياً. وقد أضيف فيما بعد إلى القائمة التي رآها سرغينكو على الطاولة «قهوة، إسفنجة». وفي رسالته إلى ساشا، طلب إرسال كتب مونتيني، ونيكولايف، والجزء الثاني من «الإخوة كارامازوف». بسبب سفره ليلاً لم يأخذ معه الكتب الضرورية، وفي القطار الأول أخذ يعاني من غيابها. وكان يفتقر بصورة خاصة إلى الكتب التي وضعها بنفسه «حلقة القراءة» و«لكل يوم» حيث جمع فيهما مؤلفات وأفكار الكتاب والمفكرين العظماء وغير العظماء، معتبراً هذا عمله الرئيس في أواخر أيامه. وسيرى بعض هذه المجموعات في مكتبة أخته في شاموردينو، وسيخطفها على الفور، بفرح، بموافقة ماريا نيقولايفنا.

كل هذا – الكتب، الصابون، الفرشاة، «القطعة الصغيرة» للحبر، المقص، المفكرة، رداء الحمام – احتاج إليها ليف نيقولايفتش في اليومين الأولين من مغادرته. وغيابها عكّر مزاجه المتعب، من دون ذلك، مهما حاول طمأنة نفسه والآخرين بأنه يشعر بـ «الحرية» ووضعه «جيد». وقد كتب في اليوميات

وفي رسالته إلى ساشا، أن الرحلة في عربة الدرجة الثالثة إلى كوزيلسك مع عامة الناس كانت «مفيدة» له و«ممتعة». ولكن عندما تحركوا بعد كوزيلسك وظهر احتمال السفر بالقطار نفسه وبعربة الدرجة الثالثة نفسها (لم يكن هناك عربة أخرى في هذا القطار)، شعر تولستوي بكثير من الخوف، وقد لاحظ ماكوفيتسكي ذلك وسجله في يومياته...

لقد كان هناك العديد من هذه الأشياء الصغيرة والتافهة... ومنها بالذات تشكلت رحلته على العربة بالجياد وعلى القطار من ياسنايا بوليانا إلى أستابوفو. على سبيل المثال، أين وماذا يأكل؟ ليس في المحطات دائماً؟ في ياسنايا بوليانا كان هناك نظام غذائي خاص ومعقد للنباتي، الذي يعاني من آلام في الكبد والأمعاء. وهذا النظام الغذائي جاء نتيجة بحث طويل قامت به صوفيا أندريفنا التي تميزت بحرفية غير عادية في إعداد قائمة الطعام المنزلية. وهنا كانت حِيل عائلية خاصة، ففي حساء الفطر المحضر خصيصاً لليف نيقولايفتش، كانت تضيف بصورة غير ملحوظة عدة ملاعق من مرق اللحم. وكانت هناك مشكلة كبيرة بالنسبة لزهرة القنبيط، والملفوف البنفسجي، وشراب الكيسيل التي كان ليف نيقولايفتش يحبها كثيراً، وغير ذلك مما لن نتحدث عنه، كي لا نثير شهية من يظن أن تولستوي في المرحلة المتأخرة عاش حياة «نبيلة». لم تكن حياة «نبيل» بل حياة «زاهد» يعامل برعاية شديدة وعاءه الثمين، الذي يحمل روحه الخالدة من أبدية إلى أخرى – أي جسده. لقد كان هذا نوع خاص من الزهد، من دون قمل وقيود حديدية.

ولكن، ما العمل مع هذا الوعاء الثمين في القطارات والفنادق الروسية السيئة، وعلى مطبات طرقنا المتعطلة دائماً بسبب الأوحال؟

«كانت الطريق مرعبة، قذرة، غير مستوية، وكان الحوذيون يأخذون يسار الطريق، عبر مروج مدينة كوزيلسك؛ وعدة مرات اضطررنا لعبور الخنادق. لم يكن الظلام دامساً، كان الهلال يضيء من تحت الغيوم. والخيول تركض. ربطها الحوذي في مكان واحد، فاندفعت، واهتزت العربة بشكل رهيب، فأخذ يئن ليف نيقولايفتش» – هكذا يصف ماكوفيتسكي الطريق من كوزيلسك إلى أوبتينا.

عند وصولهما إلى شاموردينو، أحضرت ساشا وفيوكريتوفا معهما الشوفان، والفطر المجفف، والبيض، والمصباح الكحولي. في أوبتينا، وفي شاموردينو، وفيما بعد في القطار، كان تولستوي يأكل كثيراً وبشغف على عادة كبار السن، وهذا ما لاحظه كل من كان معه. وربما كان لهذا تفسيره الفيزيولوجي: أعصابه، أو ضعفه، أو ربما كان جسمه يستعد ببساطة، لموت صعب؟

كل هذا وقع على أكتاف ماكوفيتسكي وحده أولاً، ثم ساشا وفيوكريتوفا. وعندما كتب تولستوي لساشا من صحراء أوبتينا: «روحي تتمزق، لكن جسمي بحالة رائعة»، - كان يقصد فقط أنه يقدر عالياً عناية مرافقه، لكنه يعاني لأنه يسبب للمحيطين به هذا القدر من الاعتناء والرعاية.

ولكن، كان هناك إنسان، لم يكن يخاف من إثقاله بالرعاية والاعتناء بل كان يسره رعايته وعنايته، بلا شك. إنها كانت أخته ماشنكا، الراهبة ماريا نيقولايفنا تولستايا.

كانت ماشا وأخوها ليفوشكا الأصغرين في أسرة آل تولستوي ولهذا كان ينجذب أحدهما إلى الآخر، بشكل خاص، منذ الطفولة الباكرة. كانت ماريا نيقولايفنا أصغر من ليف نيقولايفتش بسنة ونصف السنة فقط. وغطت مراسلاتهما قرابة نصف قرن، ومن خلالها يمكن الحكم على مدى رقة ولطافة العلاقات بين الأخ والأخت. وقد شاركت أخته مشاركة حية في شؤونه، سواء العاطفية منها أو الإبداعية. وكان هو عرّاب ابنتها باربارا، ابنة أخته التي أعطاها كمهر عشرة آلاف تذكرة من مكافأة «الحرب والسلام». وبعد قصة حب ليف نيقولايفتش الفاشلة مع أرسينيوفا، حاولت ماريا نيقولايفنا أداء دور خطّابة وتزويج أخيها من الأميرة دوندوكوفا - كورساكوفا. كانت تعرف جيداً سيكولوجية أخيها، وهي أول من حدس فيه متلازمة «بودكوليوسين» الهارب.

وتولستوي بدوره، باعتباره الأكبر في الأسرة بالنسبة لماشا، كان يهتم بها بعناية خاصة، ويعاني من مصائبها كأنها مصائبه الشخصية. وقد قُدِّر لها كثيرٌ من المصائب، ومصيرها يذكرنا إلى حد ما بمصير آنا كارينينا.

عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها، زُوّجت من قريبها فاليريان تولستوي، وانتقلت إلى ضيعة بوكروفسكوي قرب تشيرني من مقاطعة تولا وأنجبت منه أربعة أطفال. كانت تحب زوجها بإخلاص، وشعرت بالإهانة عندما علمت بعلاقاته الغرامية العديدة، بمن في ذلك مع المربيات والمرضعات (مصيرها في هذه الناحية سبق مصير دولّي أوبلونسكايا). ولتمتعها بطباع أبية وشخصية مستقلة، تركت ماريا نيقولايفنا زوجها عام 1857. وقد «خنق» هذا الخبر ليف نيقولايفتش الذي كان في هذه الأثناء في بادن – بادن. فترك كل شيء وأسرع إلى روسيا لإنقاذ أخته. استأجر تولستوي في موسكو منزلاً، استقر فيه مع أخته ماريا وأولادها. لكن مصائب أخته لم تنته عند هذا الحد. فقد توجهت مع أطفالها إلى الخارج، حيث تعرّفت على شاب جميل، لكنه مريض، هو هيكتور فيكتور دون كلين. وسرعان ما تحولت صداقتهما إلى حب عاصف. عاشوا ثلاثة فصول شتاء في الجزائر. وفي عام 1863 أنجبت ماريا نيقولايفنا ابنة غير شرعية – يلينا. وقد حصلت على اسم أبيها من عرابها، الأخ الأكبر لماريا ولليف، سيرغي نيقولايفتش تولستوي.

شارك ليف مشاركة حقيقية في مأساة أخته حتى إنه اقترح عليها أن يربي ابنتها غير الشرعية ويرعاها. وفي عام 1873 عندما نشرت رواية «آنّا كارينينا» في مجلة «النذير الروسي»، ومات دو كلين، فكرت ماريا نيقولايفنا جدياً بالانتحار. ولعدم معرفتها بنهاية رواية أخيها، كتبت له: «إن فكرة الانتحار بدأت تلاحقني، بصورة إيجابية، وبلا هوادة، بحيث أصبحت مثل مرض أو جنون... يا إلهي لو عرفت جميع النساء أمثال آنّا كارينينا ماذا ينتظرهن، لهربن من ملذات الدقائق، لأن كل ما هو غير شرعي، لا يمكن أن يقود إلى السعادة...»

وعند عودتها إلى روسيا مع ابنتها يلينا، التي أصبحت فتاة واعية، ناشئة على الطريقة الأوروبية وتتكلم الروسية بشكل ضعيف، كانت ماريا نيقولايفنا في الفترة الأولى، تخشى من الاعتراف بها أمام الناس بأنها ابنتها وتسميها تلميذتها. الأخوان سيرغي وليف لم يفهما موقفها هذا، وكانا يسميانها صراحة بابنة الأخت. ولهذا كانت علاقة الابنة بأمها معقدة. وقد

انفصلت عنها في وقت مبكر، وعاشت بمفردها، وتزوجت من المحامي، الضابط القضائي إيفان فاسيليفتش دينسينكو في فورونيج أولاً، ثم في نوفوتشيركاسك. وقد توجه إليه تولستوي، إلى دينسينكو، عندما هرب من شاموردينو.

بعد المآسي الشخصية مع فاليريان تولستوي، ودو كلين وابنتها يلينا، استقرت ماريا نيقولايفنا في دير بيليفو للراهبات في مقاطعة تولا، ومنه كتبت لأخيها في عام 1889:

«أنت تهتم، بالطبع، بحياتي الروحية الداخلية، وليس كيف *استقررت*، وتود معرفة هل وجدت لنفسي ما كنت أبحث عنه، أي الراحة الأخلاقية والاطمئنان الروحي وإلخ. وهذا بالذات، يصعب علي شرحه لك، لك بالذات: لأنني إذا ما قلت إنني لم أجد (فإن هذا مبكر جداً)، لكنني آمل بأن أجد ما أحتاج إليه، فعندها علي أن أشرح، بأي طريقة ولماذا هنا بالذات، وليس في أي مكان آخر. أنت لا تعترف بأي من هذا، لكنك تعترف بأنه من الضروري التخلي عن كل ما هو فارغ، عابث، زائد، وعلى المرء أن يعمل على نفسه لإصلاح نقائصه، ومجابهة نقاط ضعفه، وبلوغ الحلم والرزانة، أي اللامبالاة الممكنة تجاه كل ما يزعج الهدوء النفسي.

في المجتمع لا يمكنني تحقيق ذلك، هذا صعب جداً؛ حاولت التخلي عن كل ما يلهيني – عن الموسيقى، وقراءة الكتب غير الضرورية، واللقاء مع مختلف الأشخاص غير الضروريين، والأحاديث الفارغة... لا بد لي من قوة كبيرة جداً من الإرادة، كي أنظم حياتي في دائرة بحيث لا يمس شيء مزعج راحتي النفسية، ولا يمكن أن أقارن نفسي بك: فأنا امرأة عادية للغاية؛ إذا ما سلمت كل شيء، أحتاج للعيش مع شخص ما، للعمل، أي أنني لا أستطيع أن أعيش بعملي. فماذا سأفعل؟ ما هو القربان الذي سأقدمه لله؟ ومن دون تضحية، من دون عمل لا يمكن للمرء إنقاذ نفسه؛ وبالنسبة لنا، نحن النساء الضعيفات الوحيدات، برأيي، المكان الأفضل، واللائق، هو الذي أعيش فيه الآن».

هذا الاعتراف من راهبة المستقبل (غادرت مجتمع المدينة نهائياً في

عام 1891، لتستقر في دير شاموردينو الذي تأسس لتوه، في بيت - مَنسك، شُيّد حسب تصميم مرشدها الروحي أمبروز، المرشد الروحي لدير أوبتينا) مهم للغاية. فهو يتحدث عن مدى تقارب ليف نيقولايفتش وأخته في فهم الإيمان، بصرف النظر عن الاختلاف الكبير في طرق تجسيده في الحياة. كلاهما كانا عمليين في موقفهما من الإيمان. إذا كان الإيمان هو السعادة، أي «الراحة الأخلاقية والاطمئنان الروحي»، فيجب البحث عن أقصر السبل المتاحة لك شخصياً للسعادة. وهذا السبيل، بالنسبة لتولستوي (حسب مفهومه) كان يكمن خارج الكنيسة، وبالنسبة لأخته - كان يكمن في الدير.

كانت ماريا نيقولايفنا، بالطبع، التي سارت بثبات على طريق الرهبنة، تشعر بالقلق والمعاناة من أجل أخيها، وقد كتبت لأخيها في عام 1909: «... أنا أحبك جداً جداً، وأصلي من أجلك، وأشعر أنك إنسان جيد، وأنك أفضل من جميع أصدقائك من آل فيت وستراخوف وغيرهم. ولكن، مع ذلك كم هو مؤسف، أنك *لست أرثوذكسياً*، وأنك لا تريد التواصل *بشكل ملموس* مع المسيح... لو أردت فقط التواصل معه... لشعرت *بالاستنارة* والسلام في روحك، ولاتضح لك الكثير مما هو غير واضح الآن، وأصبح جلياً لك كالنهار! أنا غداً، إذا سمحت لي قواي، سأذهب إلى الكنيسة».

وقد رد تولستوي على محاولات أخته هذه إعادته إلى حظيرة الأرثوذكسية في مذكراته بقوله: «نعم، تمتلك حياة الرهبنة الكثير من الجوانب الخيّرة: والأهم أنها تستبعد الإغراءات وتشغل الوقت بالصلوات المفيدة. وهذا رائع، ولكن لماذا لا تشغل الوقت بالعمل من أجل إطعام النفس والآخرين، وهو العمل المميز للإنسان».

إن عناد تولستوي في الدفاع عن رؤيته الدينية، ونفيه للكنيسة، كثيراً ما كانا يؤديان إلى الجدال بين الأخ والأخت، لكن هذا الجدال لم يصل قط إلى احتمال قطع العلاقات. فهو دائماً كان ينتهي بنكتة أو مزاح... فكلاهما كان يقدر حدة الذهن. ذات مرة، بعد أن زار أخته في شاموردينو، قال تولستوي مازحاً: «أنتن هنا سبعمئة راهبة حمقاء، لا تقمن بأي عمل». لقد كان هذا مزاحاً شريراً، سيئاً. حقيقة، كان دير شاموردينو غاصاً بالفتيات والنساء، خاصة من الفئات الأكثر فقراً والأقل تطوراً، لأن منظّم الدير أمبروز، قبل

وفاته، أمر بقبول جميع الراغبات في الدير. ورداً على هذا المزاح السيء، سرعان ما أرسلت ماريا نيقولايفنا إلى ياسنايا بوليانا وسادة جميلة مطرزة بيديها، نقشت عليها عبارة «واحدة من السبعمئة شاموردينو الحمقاوات». لم يقدر تولستوي عالياً هذا الرد فحسب، بل خجل أيضاً من عبارته التي قالها منفعلاً.

ولا تزال هذه الوسادة حتى الآن في غرفة نوم تولستوي في متحف – حوزة ياسنايا بوليانا.

إن ماريا نيقولايفنا نفسها لم تكن راهبة عادية. على أية حال، كانت تتميز بصورة قوية على الخلفية العامة للراهبات. قبيل وفاتها، وبعد أن أخذت السكيم (المسوح)، أخذت تهذي باللغة الفرنسية. فهي التي اعتادت العيش على هواها، كان من الصعب عليها الاستسلام، وطلب الإذن دوماً من الأب الروحي أو رئيس الدير. كانت تشتاق إلى التواصل مع الناس القريبات لها بمستوى تعليمها، وكانت تقرأ الصحف والكتب الحديثة. وتتذكر ابنتها ي. ف. أوبولونسكايا: «في صومعتها، في كل غرفة أمام الأيقونات وفي غرفة النوم أمام إطار الأيقونة كانت تتقد الشموع، وهذا كان يروقها كثيراً، لكنها في الكنيسة لم تكن تشعل الشموع كما يفعل الآخرون، ولم تكن تنحني أمام الأيقونات، ولم تقم بالترتيل لتمجيد الله، بل كانت تصلي ببساطة وهدوء في مكانها، حيث كان كرسي وبساط. في الفترة الأولى كان بعضهن ينظرن باستغراب، وبعضهن يدنّها، لكنهن اعتدن فيما بعد».

«جئت إلى والدتي، ذات مرة، برفقة ابنتي ناتاشا التي كانت مريضة بالملاريا. فكلفت أمي راهبة شابة، جميلة جداً بمرافقتها، فذهبت معها للنزهة في كل مكان، ولكن عندما أرادت أخذها إلى البئر المقدسة، مؤكدة بأن الحمى ستزول ما إن تغطسها بالماء المقدس، قالت أمي:

– حسناً، ناتاشا، مع أن الماء مقدس، مع ذلك الأفضل عدم تغطيسها.

شعرت الراهبة بحرج رهيب من هذه الكلمات».

مرة واحدة في العام، لمدة شهري الصيف، كانت تحل ضيفة على أخيها في ياسنايا بوليانا. ولم يكن سهلاً الحصول على موافقة لهذه الزيارة، كانت

تضطر للتوجه إلى أسقف كالوغا. آخر مرة كانت في ياسنايا بوليانا في صيف عام 1909، وبحسب شهادة ابنتها، عند رحيلها، بكت بألم شديد، قائلة إنها لن ترى أخاها بعد الآن.

ومع ذلك، كان وصول تولستوي المفاجئ في أواخر الخريف إلى شاموردينو ليس غير متوقع. فقد رأت في زيارتها الأخيرة لياسنايا بوليانا أنه قد استفحل في أسرة أخيها نزاع غير قابل للحل، وكانت، مع ذلك، في هذا النزاع إلى جانبه.

كان لقاؤهما في منزل ماريا نيقولايفنا مؤثراً للغاية. فبعد أن وصل مع ماكوفيتسكي وسرغيينكو إلى شاموردينو في وقت متأخر من مساء 29 تشرين الأول/ أكتوبر، لم ينظر تولستوي حتى إلى غرفة الفندق التي نزلوا فيها. وتوجه بسرعة إلى أخته. إن سرعته هذه بعد ضياعه أمام مناسك دير أوبتينا تتحدث عن الكثير. فقد اندفع إلى أخته من أجل الإفاضة بمكنون نفسه، والبكاء، وسماع كلمة دعم. وربما، حتى كلمة تبرير لخروجه من العائلة...

لقد كانت لحظة دقيقة للغاية. باعتبارها راهبة، كان على أخته أن تؤنب أخاها، بالطبع، لأنه رفض حمل صليبه حتى النهاية. فماريا نيقولايفنا ذاتها، كانت قد أدانت نفسها لأنها، بسبب كبريائها، انفصلت عن زوجها فاليريان، في ذلك الوقت، وبالتالي حكمت على نفسها بالسلسلة اللاحقة من الوقوع في الإثم. بيد أنها لم تنطق بكلمة واحدة عن عدم موافقتها على تصرف ليف نيقولايفتش وأيدته تأييداً كاملاً.

في ذلك الوقت كان في صومعة ماريا نيقولايفنا ابنتها يليزافيتا فاليريانوفنا أبولونسكايا وأخت رئيس الدير. وقد أصبحتا شاهدتي عيان لمشهد ميلودرامي غير عادي، عندما كان تولستوي العظيم يروي، منتحباً بالتناوب على كتفي أخته وابنة أخته، ما حدث في ياسنايا بوليانا في الفترة الأخيرة... كيف كانت زوجته تتابع كل حركاته، وكيف أخفى يومياته السرية في ساق جزمته، واكتشف في الصباح اختفاءها. وتحدث كيف كانت صوفيا أندرييفنا تتسلل ليلاً إلى مكتبه وتفتش أوراقه، وإذا ما لاحظت أنه لا ينام في الغرفة

المجاورة، كانت تدخل عليه، متظاهرة بأنها تسأل عن صحته... وأخبرهما، برعب، ما رواه له سرغيينكو من أن صوفيا أندريفنا حاولت الانتحار، وإغراق نفسها في البحيرة...

وقد بدا تولستوي لابنة أخته «بائساً وعجوزاً». «كان يربط رأسه بقلنسوته البنية، ومن تحتها برزت بصورة بائسة لحيته الشائبة. أما الراهبة التي رافقته من الفندق فقالت لنا فيما بعد، إنه كان يترنح عندما جاء إلينا».

أشارت إلى منظر أبيها المثير للشفقة، ابنته ساشا التي وصلت في اليوم التالي إلى شاموردينو. وقد قالت لابنة عمتها ليزا أبولونسكايا: «يبدو لي أن أبي قد ندم بالفعل، لأنه غادر».

في الفندق، كان ليف نيقولايفتش ذابلاً، ناعساً، مشتتاً. ولأول مرة دعا ماكوفيتسكي خطأ دوشان إيفانوفيتش (والصواب دوشان بتروفيتش)، «وهذا لم يحصل قط». وعندما نظر إليه، وجس نبضه، استنتج الطبيب أن حالته تشبه حالته قبيل النوبات التي تعتريه.

ومرة أخرى كان تولستوي يضيع باستمرار... في اليوم التالي، عند خروجه من عند أخته بعد الزيارة الثانية، ضاع في الرواق ولم يعرف الباب الأمامي. وقبيل هذا كانت أخته قد حدثته، أنه في الليالي يأتي لعندها «عدوّ» ما، ويتجول في الرواق، ويتلمس الجدران، ويبحث عن بابها. فقال تولستوي مازحا بكآبة، أثناء الزيارة التالية لأخته: «أنا أيضاً ضعت مثل عدو»، قاصداً بذلك عندما ضاع هو نفسه في الرواق. وفي وقت لاحق، عانت ماريا نيقولايفنا الأمرين، لأن هذه الكلمات كانت آخر ما قاله لها.

بعد زيارته الثانية في 30 تشرين الأول/ أكتوبر، عاد تولستوي إلى الفندق، وعلم أن ساشا وصلت وذهبت إلى عمتها، ظناً منها أنها ستجد أباها عندها. ولم يلتقيا في الطريق لأن ماكوفيتسكي قاد تولستوي بطريق أقصر. فعاد تولستوي، على الفور، من حيث أتى، لكن ماكوفيتسكي، شعر بأن هناك شيئاً ما غير صحيح، انطلق خلفه، على بعد مئة خطوة. «وبالفعل، تجاوز ليف نيقولايفتش منزل ماريا نيقولايفنا، وتوجه بعيداً إلى اليسار. لحقت به وأعدته، وعندها دخلت معه إلى منزل ماريا نيقولايفنا».

يبدو، أن كل شيء كان يدل على أن تولستوي يقع في المنحدر الأخير، في الحد الأخير من قواه النفسية والجسدية. وأنه من غير الممكن الذهاب أبعد من ذلك! والذهاب أبعد من ذلك يعني الانتحار!

ولكن، كما هو الحال في أوبتينا، يسيطر نوع ما من الذهول على الجميع. وكما في أوبتينا، لم يكن هناك شخص واحد يمكنه أن يقود تولستوي ويأخذه إلى الشيوخ والمرشدين الروحيين، كذلك في شاموردينو كان الجميع يدرك، من حيث المبدأ، أن السفر أبعد من ذلك خطر مميت وأن شاموردينو – هي المرفأ الأخير للعقل السليم، ولكن لم يقم بأية خطوة من أجل إيقاف ليف نيقولايفتش، بل عملياً، كان يدفعه إلى الهروب اللاحق. وعلى الرغم من أن أخته الحبيبة تقيم هنا. وهنا الجميع يحب تولستوي. وقد سبق أن زار شاموردينو غير مرة، وحاز على تعاطف راهبات الدير البسيطات. وهنا يوجد فندق. وبجواره – قرية، وجد فيها ليف نيقولايفتش في صباح 30 تشرين الأول/ أكتوبر لنفسه بيتاً صغيراً عند الأرملة آلينا خومكينا، فيه غرفة نظيفة ودافئة بأرضية خشبية، مقابل خمسة روبلات شهرياً.

تولستوي كعادته، فضولي، محب للمعرفة للغاية. إنه يريد دراسة وضعية الأمور في الدير، ومشاهدة الورشات والمطبعة. وفي يومياته خطط لأربعة مؤلفات، كان قد كتبها في أوبتينا: «1) فيودوريت والحصان الميت؛ 2) الكاهن المتحول؛ 3) رواية ستراخوف. غروشنكا – مدبرة المنزل؛ 4) الصيد؛ المبارزة والجبهات». وعندما عثر في مجموعة كتب شقيقته على «المكتبة الدينية – الفلسفية» لـ م. آ. نوفوسوليوف، بدأ يدرسها في الفندق باهتمام، وبخاصة مقالة هيرتسن حول الاشتراكية، متذكراً أنه ترك في ياسنايا بوليانا مقالته التي لم ينهِها حول الموضوع نفسه. وأملى رسالة ودية إلى نوفوسوليوف وتمنى متابعة مقالته. كان تولستوي لا يزال يتمتع بقدر من القوة يكفي للتفكير والإبداع.

عندما جاءت ساشا وفيوكريتوفا إلى والدها، كان تولستوي قد قرر تقريباً البقاء في شاموردينو. وإلا لما اتفق على استئجار البيت في القرية، وبالتالي يخدع الأرملة البائسة التي تحتاج إلى المال. حقيقة، أن الأرملة لم تكن في عجلة شديدة من أمرها: ففي مساء اليوم نفسه، جاءت إلى الفندق من أجل

الاتفاق النهائي. لكن تولستوي، كما يقول ماكوفيتسكي، كان يناسبه الفندق - روبل في اليوم.

لقد حسّن وصول ابنته من مزاجه. وكانت ساشا شابة فتية، وذات مزاج معارض لأمها وإخوتها. وعلاوة على ذلك، كانت متحمسة للرحلة إلى شاموردينو، بالطريق الدائري عبر كالوغا. لماذا؟ من أجل أن تفقد صوفيا أندرييفنا أثر زوجها.

ومثل جميع الناس العنيدين، كان تولستوي متبدلاً للغاية في حالته المزاجية وخاضعاً للتأثيرات المفاجئة من الخارج. كان من المستحيل تقريباً بالنسبة له تغيير وجهة نظره إلى العالم، فهذا كان يتطلب سنوات وسنوات من العمل الذهني، والتراكم الكبير للتجربة الروحية الإيجابية والسلبية. لكن تبديل مزاجه لم يشكل أي عبء. وخاصة في تلك اللحظة، عندما كان غير واثق، بصورة رهيبة، من صحة تصرفه حتى إنه كتب صراحة لساشا أنه «يخاف» مما فعله. ففي هذه اللحظة كان شبيهاً بحكاية القيصر سلطان الذي كانت تكدره الأخبار التي يحملها كل رسول، وكل ساع.

في البداية، قام بدور رسول الأخبار السيئة سرغيينكو، وهو أيضاً شاب، ويقف موقفاً معادياً من زوجة تولستوي. ومنه بالذات، سمع ليف نيقولايفتش لأول مرة، أن صوفيا أندرييفنا تنوي اللحاق به. وليس وحدها بل مع ابنها أندريه. وقد أكدت ساشا التي جاءت إلى شاموردينو هذا الخبر، وبمظهرها المنفعل أضافت توتراً إضافياً على الجو العام.

إنه من غير الممكن لومها على ذلك. ففي نزاع الأب والأم، كان نصيبها أكبر من الجميع. فبالاختلاف عن بقية أبناء تولستوي الذين كانوا يعيشون مع أسرهم ويأتون إلى ياسنايا بوليانا عندما يرغبون بذلك، أو عندما يحتاجون إلى ذلك، كانت ساشا تقيم بصورة دائمة في ياسنايا بوليانا. إن ساشا، الوفية لأبيها بلا حدود، والتي كانت بالنسبة له سكرتيرة رئيسة، وكاتمة أسراره بصورة رئيسة (بقدر ما كان يسمح بذلك شبابها)، كانت في أعماق نفسها، بالطبع، تحب والدتها وتشفق عليها، ولكن بتأثير شبابها وطباعها الحادة، وفي ذروة النزاع، كانت تتصرف بالنسبة لها بصورة قاسية. فقد كانت تؤكد

لنفسها (والأسوأ من ذلك - أنها حاولت إقناع والدها) بأن أمها ليست مريضة على الإطلاق، وإنما تخادع وتتظاهر بالمرض. وبالحكم من خلال يوميات صديقتها باربارا فيوكريتوفا (بهذه المناسبة، تم أخذها من منزل صوفيا أندرييفنا كمحررة لمذكراتها)، فإنها كانت واثقة من ذلك. وقد قدِمت الاثنتان إلى شاموردينو لمساعدة تولستوي، ولكن في الحقيقة، من أجل دفعه إلى الهروب اللاحق، والموت الحتمي.

ومع ذلك، فإن وصول ساشا وحالتها الانفعالية وحدهما، بالطبع، كان من غير الممكن لهما أن يغيرا قرار تولستوي بالبقاء في شاموردينو. فهو الذي عاش مع زوجته ثمانية وأربعين عاماً، يعرف أكثر بكثير من ساشا ما الذي يمكن توقعه منها. وإذا ما كان ينوي عشية وصول ابنته، بل في يوم وصولها، البقاء بالقرب من أخته، فهذا يعني أنه كان يأمل بحل آخر للنزاع وكان ينتظر من ساشا أخباراً أخرى، غير التي حملتها له.

على سبيل المثال، دعونا نفكر، لماذا اختارت صوفيا أندرييفنا، كرفيق لها، أندريه بالذات؟

في المرة الثانية، عندما سمع بهذا الاسم من ساشا، لم يستطع تولستوي أن لا يعاني من الشعور بمشاعر قاسية. ليس لأن أندريه كان بالنسبة له غير محبوب، بل بالذات، لأن تولستوي كان يحب أندريه بالذات أكثر من جميع أبنائه. وهذا ما كان أحياناً يثير عجب صوفيا أندرييفنا. فأندريه لفوفيتش، الأكثر خلاعة بين أبنائه، كان أحب أبنائه إلى قلبه. وهذا على الرغم من أن جميع عادات الابن كانت تتعارض كلية مع حياة أبيه ومع ما كان يدعو إليه. كان أندريه لفوفيتش متعلقاً جداً بالمشروبات الكحولية والموائد والمنادمة والنساء. وكانت علاقاته بنساء ياسنايا بوليانا تذكر ليف نيقولايفتش بإثمه المعيب في شبابه. وأندريه لفوفيتش، هو الوحيد من أبناء تولستوي، الذي اختار المهنة العسكرية، حتى إنه أقدم على التطوع في الحرب الروسية - اليابانية. في حين كان مئات الشباب، بتأثير تعاليم والده، يتخلون عن الخدمة الإلزامية في الجيش، ويتوجهون لهذا السبب إلى السجون وإلى كتائب التأديب. ودعم ابن تولستوي، بحرارة وبصورة علنية، عقوبات الإعدام التي فرضها ستوليبين في مرحلة قمع الثورة في عامي 1905-1907. وساعد أمه

في تنظيم الحراسة المسلحة لياسنايا بوليانا، حتى إنه كان المبادر للشروع في عمليات التفتيش في بيوت الفلاحين بحثاً عن الملفوف المسروق من مزرعتهم.

أخيراً، لم يترك أندريه لفوفيتش زوجته الأولى أولغا كونستانتينوفنا (وهي سلفة تشرتكوف في الوقت نفسه) مع طفلين فحسب، بل هجرها وهرب مع زوجة حاكم تولا أرتسيموفيتش، التي كان لديها ستة أطفال. إن إثم آنا كارينينا وفرونسكي كان نكتة أدبية بريئة بالمقارنة مع ما اصطدم به تولستوي بمثال ابنه المفضل، وهذا ما اضطر إلى شرحه كتابياً لحاكم تولا، صديقه العزيز.

ومع أن صوفيا أندريفنا في رسالتها إلى ت. آ كوزمينسكايا استغربت: «من غير المفهوم، أن أندريوشا (المقصود أندريه – المترجم) وهو أسوأ الأبناء في سيرة حياته – هو الابن الأكثر حباً عند الأب».

وشعر ليف نيقولايفتش نفسه بالدهشة في يومياته حيث قال: «إنه أمر مدهش، لماذا أحبه – غير صحيح القول لأنه مخلص وصادق. فهو غالباً غير صادق... لكنني أشعر بالسهولة، والطيبة في التعامل معه، أحبه. لماذا؟»

كان أندريه لفوفيتش يعتقد أن فيديا بروتاسوف في قصة أبيه «الجثة الحية» منقول عنه بالذات. إن فيديا بروتاسوف – هو الهارب المرضي الشاذ، نوع من الجوهر الأساسي لجميع أبطال تولستوي الهاربين، بدءاً من الأمير دميتري أولينين (في قصته «القوزاق») وانتهاءً بالأب سيرغي (في قصة «الأب سيرغي»). إن بروتاسوف هو شخصية تولستوي الدرامية المكتوبة بموهبة أكبر. وإذا ما كان ابن تولستوي على حق، فإننا نكتشف حقيقة مهمة. إن ليف نيقولايفتش لم يجسد أياً من أبنائه وبناته العديدين في أية شخصية أدبية حية ساطعة. هذا في حين أن تولستوي «نسخ» بكل معنى الكلمة العديد من أبطاله من زوجته، وإخوته، وسلائفه وأقاربه الأكثر بعداً، ومن معارفه، ومن أشخاص عرضيين. من بين أولاده، أندريه فقط كان يستحق ذلك. على أية حال، يمكننا «قراءة» مصير أندريه في رواية «آنا كارينينا» التي أنجزها في عام 1877، عام ميلاد أندريه، وفي «الجثة الحية» التي كتبها تولستوي سنة 1900، عندما تحددت شخصية الشاب البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً.

ويمكننا القول إن من بين جميع أبناء تولستوي، كان أندريه لفوفيتش الابن الأكثر تجسيداً في الأدب.

في الوقت نفسه، كانت لدى تولستوي جميع المبررات ليس لكي لا يحب أندريه فقط بل ليكرهه أيضاً.

أندريه هو من وصف أباه العظيم بـ «العجوز المجنون». ومن بين جميع أبنائه، كان بصراحته، أكثر شبهاً بأمه، ولهذا ليس عبثاً أنه في النزاع مع الأب، وقف أندريه بصورة مكشوفة، إلى جانب أمه. فقد رأى أن من الهراء تخلي والده عن حقوقه في التأليف لأعماله، ولم يخجل قط من القول إن حياة السادة تروقه، وإنه لا يرغب بالتخلي عنها. منذ أن كان أندريه في الخامسة عشرة من عمره كان أندريه يحتقر «الجهلاء» وقال إن الخدم لا يحصلون منهم على «البخشيش».

لكن الغريب... أن والده اعتبر أندريه الأكثر «طيبة». فقد كتب له: «إن قلبك طيب». «لديك أغلى وأهم صفة، هي أغلى شيء في الدنيا – إنها الطيبة». «أنت طيب في روحك».

وهذا لم يكن مفارقة من جانب الأب... يبدو أن أندريه، على الرغم من صراحته ووقاحته، كان فعلاً «طيب النفس». وليس عبثاً أن تحبه النساء وتسامحنه. فالزوجة الأولى، أولغا كونستانتينوفنا، لم تسامح زوجها فحسب، بل تصادقت مع زوجته الثانية يكاتيرينا أرتسيموفيتش. وعندما مات أندريه لفوفيتش فجأة في عام 1916 بتسمم نادر للدم، سارت خلف التابوت، مع زوجته وأمه، عشيقاته النادبات.

ليس من الصعوبة فهم ماذا يعني قدوم أندريه مع أمه المفاجئ إلى شاموردينو، بالنسبة لتولستوي. فهذا كان يعني، أن يعاني من جديد مجمل العلاقات الأسرية الصعبة، وكل «شقوقها» وتصدعاتها. ومن هذا بالذات هرب تولستوي. وهذا بالذات ليس أنه لم يكن يريده الآن فحسب، بل خاف منه أيضاً أكثر من الموت.

علاوة على ذلك، حملت ساشا إلى أبيها رسالة من أندريه، كان من الواضح فيها أنه لم يتردد قط في إدانة والده. وكانت رسالة أندريه لفوفيتش

هي الأكثر جلافة والأقل لباقة من رسائل أبنائه الأربعة التي حملتها ساشا معها إلى شاموردينو والتي قرأها تولستوي بسرعة في صومعة أخته. وفي الوقت نفسه، كانت الرسالة الأكثر صراحة، دون أية محاولة للتخفيف من جوهر المشكلة العائلية في عيني الأب، التي طرحت بكاملها الآن بالذات. فالمشكلة الأساسية كانت تكمن في أن الأب ترك لأولاده أماً مريضة نفسياً، تهدد كل دقيقة بالانتحار، وليس من المستبعد مطلقاً أن تنفذ تهديدها، حتى إذا ما حدث هذا بالصدفة.

ولكن بالعودة إلى ياسنايا بوليانا التي وصل إليها جميع أبناء تولستوي، بناء على البرقيات التي استدعتهم، باستثناء ليف لفوفيتش الذي كان في باريس.

ستة من أبناء تولستوي (سيرغي، تاتيانا، إيليا، أندريه، ميخائيل، ساشا) كانوا مضطرين لبحث قضية غير قضية الأب. فقضية الأب ستطرح بعد بضعة أيام، عندما سيموت في أستابوفو. أما الآن، فقد كان على الأبناء (باستثناء ساشا بالطبع، المخلصة لأبيها بلا حدود) بحث مسألة أن أباهم لم يختر الطريق الأسهل، لكنه طريق التخلص من مشاكل الأسرة في ياسنايا بوليانا. وهم الآن، الأبناء مقيدون بأم مريضة. ولا يعرفون ما العمل معها.

يتذكر الابن سيرغي لفوفيتش: «خرجت الأم إلينا في الصالة. كانت في غير ملابسها، غير مسرحة الشعر، في روب دي شامير قديم. أذهلني وجهها، الذي أصيب فجأة بالهرم والتجاعيد بنظرته المرتجفة غير المستقرة. لقد كان تعبير وجهها هذا جديداً بالنسبة لي. شعرت بالأسى والخوف عليها. كانت تتكلم بلا نهاية، وأحياناً تبكي وتقول إنها ستقتل نفسها، وإنه لم يسمحوا لها بالموت غرقاً، لكنها ستموت جوعاً. فقلت لها بحدة كافية، إن سلوكها هذا سيحدث رد فعل عكسي عند الأب، وإن عليها أن تهدئ وتعالج أعصابها؛ وعندئذ سيعود أبي. فردت علي بقولها: «لا، أنتم لا تعرفونه، يمكن التأثير عليه بالشفقة فقط» (أي باستثارة الشفقة في نفسه). وفكرت في نفسي بأن هذا صحيح، لكنني اعترضت، مع أنني شعرت أن اعتراضاتي ضعيفة. على أية حال، قلت، طالما أن الأب قد غادر الآن فلن يعود قريباً، وعلينا الانتظار، وبعد فترة قريبة، ربما يعود إلى ياسنايا بوليانا. لكن الأمر الصعب للغاية كان أنه يجب إخضاعها دوماً للمراقبة. نحن لم نثق بأنها ستقدم على محاولة

جدية للانتحار، ولكن في محاكاتها محاولة الانتحار، قد لا تنتبه إلى درجة الخطورة وتلحق الضرر بنفسها فعلاً...»

الحديث الرئيس كان يدور حول الأم. وهذا مفهوم. فهي التي كانت حاضرة، والخطر كان يتهدد حياتها. حسناً، وماذا عن الأب؟ غير معروف أين هو، وقد بلغ الثانية والثمانين من العمر! عن هذا أندريه «تحدث بشكل صحيح، حيث قال إنه لا قيمة الآن للبحث عن الأب، وإن الحاكم والشرطة، على الأغلب، يعرفون أين هو، ومن السذاجة الاعتقاد أن ليف تولستوي يمكنه الاختفاء في مكان ما. فالصحف أيضاً بدأت تسترق الأخبار. وسيتم إنشاء نوع جديد من الرياضة: من هو أول من يعثر على ليف تولستوي».

بدا الوضع برمته في تلك الأثناء للأبناء كما يلي: الأب هجر أمهم. وأن ساشا وحدها وتاتيانا بصورة جزئية كانتا تعرفان أية آلام كلفته هذه المغادرة وماذا عليه أن يعاني الآن. إن تولستوي دوماً كان أكثر صراحة مع بناته منه مع أبنائه. وبناته دوماً كن إلى جانب أبيهن، خلافاً لأبنائه. هكذا تشكلت هذه الأسرة التي كان رأسها الحقيقي هو الأم، لكن الأب كان مضمونها ومعنى وجودها. ومع مغادرة الأب فقدت الأسرة معناها، وأما المسائل التي كانت تعالجها الأم وحدها فقد بقيت. وقد وقعت الآن على الأبناء... مع أمهم المريضة...

هنا، لا بد من نأخذ في اعتبارنا سيكولوجية الأبناء في علاقتهم بالأب. فهم اعتادوا، منذ الطفولة، على النظر إلى أن الأب هو «جوهر في حد ذاته». إنه قمة عظيمة دائمة، لا تتزعزع، كوكب مستقل. بل على الأصح، نجم تدور من حوله جميع كواكب منظومة «آل تولستوي»، لكنها لا تدخل في تماس مباشر معه، نظراً لعظمة قوة طاقته. وكانت أية محاولة من الأبناء للاقتراب روحياً من أبيهم تنتهي بالفشل، وأحياناً بصورة مأساوية، كما حدث مع ليف لفوفيتش. فمنذ أن كان مراهقاً، تعلق بأفكار أبيه، وتصادق مع تلميذه الرئيسي – تشرتكوف، وأصغى بشغف إلى أحاديث «الجهلاء» المعدمين في منزل خاموفنيك، وأخيراً، حاول نفسه أن يصبح كاتباً ووقع مؤلفاته باسم «الكونت ليف تولستوي – الابن». وقد انتهت هذه المحاولة باكتئاب شديد، كاد يؤدي إلى وفاة مبكرة، وعلاج أليم في روسيا، ومن ثم

في الخارج، وعلاقات متردية للغاية مع الأب. «نمر نمروفيتش»[1] – «تيغر تيغروفيتش» – كانوا يدعون ليف لفوفيتش على سبيل المزاح، دون إدراك مدى إهانة هذا اللقب له، كان يحب أباه، غالباً، أكثر من جميع إخوته، لكنه كان الأقل محبة من أبيه.

بعد أن قرأ الرسائل التي جلبتها معها ساشا من المنزل، كان تولستوي مستاءً للغاية. وهذه الرسائل بالذات، وليس وصول ساشا ولا كلامها، أصبحت السبب الرئيس لهروب تولستوي اللاحق.

حقيقة، أنّ الرسالة التي كتبتها صوفيا أندريفنا بموهبة جنونية كانت رهيبة، بحيث يستحيل علينا اليوم فهم أين تنتهي الموهبة وأين يبدأ الجنون:

«ليفوشكا، عزيزي، عد إلى المنزل، حبيبي، أنقذني من انتحار ثان. ليفوشكا، صديق حياتي كلها، سأفعل كل، كل ما تريده، سأتخلى عن كل رفاهية على الإطلاق؛ سنكون جميعاً ودودين مع أصدقائك، سوف أتعالج، سأكون مطيعة، حبيبي، حبيبي، عدْ، عليك أن تنقذني، فقد ورد في الإنجيل، لا يصح هجر الزوجة تحت أية ذريعة. حبيبي، عزيزي، صديق روحي، أنقذني، عدْ، عد على الأقل لوداعي قبل انفصالنا الأبدي.

أين أنت؟ أين؟ هل صحتك جيدة؟ ليفوشكا، لا تعذبني، يا عزيزي، سوف أخدمك بحبي وبكامل كينونتي وبروحي، عد إليّ، عدْ كرمى لله، عد كرمى لمحبة الله التي تتحدث عنها للجميع، سأمنحك مثل هذا الحب الوديع، المتفاني! أعدك بصدق وثبات، يا عزيزي، ونحن سوف نبسط كل شيء بطريقة ودية؛ وسنرحل، حيثما تريد، وسنعيش، كما تريد.

حسناً، وداعاً، وداعاً، ربما إلى الأبد.

حبيبتك صونيا

1- تيغر تيغروفيتش تعني بالعربية نمر نمروفيتش. هنا، يجب أن لا ننسى، لفهم مدى الاستهزاء في هذا اللقب، أن اسم تولستوي «ليف» بالعربية يعني «أسداً»، وابن تولستوي أيضاً اسمه ليف لفوفيتش، فكانوا يسخرون منه ويلقبونه «تيغر تيغروفيتش» – أي «نمر نمروفيتش»، دون أن ننسى أن الجزء الثاني من الاسم يصاغ باللغة الروسية من اسم الأب – م.

هل تركتني حقاً إلى الأبد؟ إنني لن أحتمل هذه المصيبة، أنت بذلك ستقتلني. حبيبي، حبيبي، أنقذني من الخطيئة، فأنت لن تكون سعيداً ومطمئناً إذا ما قتلتني.

ليفوشكا، صديقي العزيز، لا تختبئ عني، أين أنت، واسمح لي بالقدوم ورؤيتك، يا عزيزي، لن أزعجك، أعدك، بأنني سأعاملك بطاعة وحب.

هنا جميع أبنائي، لكنهم لن يساعدوني بثقتهم بأنفسهم واستبدادهم؛ فأنا بحاجة إلى شيء واحد، بحاجة إلى حبك، من الضروري أن أراك. صديقي، اسمح لي على الأقل أن أودعك، أن أقول لك للمرة الأخيرة، كم أحبك. استدعِني أو تعال بنفسك. وداعاً، ليفوشكا، أنا أبحث عنك وأدعوك باستمرار. أي عذاب لروحي».

رسالة مخيفة! بيد أنه من جنونها المطول لم يكن بإمكان تولستوي سوى الوصول إلى استنتاجين محددين. الأول، يكمن في أن الزوجة لن تتركه مطمئناً وحده. فهي إما ستلحق به، وإما ستلاحقه من ياسنايا بوليانا بالتهديد بالانتحار. والاستنتاج الثاني كان أن الأبناء لن يحلوا مشاكل أمهم المريضة. «... لن يساعدوني بثقتهم بأنفسهم واستبدادهم» - تكتب صوفيا أندرييفنا، موضحة له أن آماله المعلقة على الأبناء بلا طائل. فالأبناء لن يتمكنوا لا من عزلها، ولا من علاج أعصابها، ولا حتى من تقديم ضمانة أكيدة لحياتها. «... فأنا بحاجة إلى شيء واحد، بحاجة إلى حبك».

مع رسالة صوفيا أندرييفنا، كانت هناك رسالة من تشرتكوف. «لا يمكنني التعبير بالكلمات عن فرحي بخبر مغادرتك... أنا واثق من أن تصرفك سيجعل الجميع بوضع أفضل، وبادئ ذي بدء البائسة صوفيا أندرييفنا ولن ينعكس عليها خارجياً بأي شكل من الأشكال».

لكن هذه اللهجة الواثقة كان من غير الممكن أن تطمئن ليف نيقولايفتش. فهو يدرك بصورة جيدة، أنه من المستحيل، ببساطة و«بفرح»، قطع علاقة عمرها ثمانية وأربعين عاماً مع أقرب الناس إليك.

الرسالة الأكثر متعة كانت رسالة سيرغي لفوفيتش. فقد اختار الابن الأكبر لهجة مناسبة في مخاطبة والده، مدركاً مدى صعوبة هذا الهروب بالنسبة له.

«أنا أعتقد، أنها مريضة في أعصابها ولا تتحمل المسؤولية إلى حد كبير، وأنه كان عليكما الافتراق (ربما، منذ زمن)، مهما كان هذا قاسياً بالنسبة لكما. أعتقد أيضاً أنه حتى لو حدث شيء لأمي، وهذا ما لا أتوقعه، فليس عليك أن تلوم نفسك على أي شيء. لقد كان الوضع متأزماً، بلا مخرج، وأعتقد أنك اخترت المخرج الحقيقي...»

أما تاتيانا لفوفنا فقد كانت الوحيدة التي وعدت الأب في رسالتها بكبح أمها عن خطوات قاتلة، باستخدام «الخوف أو السلطة».

وأبدى إيليا لفوفيتش أسفه، لأن الأب «لم يحمل هذا الصليب حتى النهاية». «كلاكما عشتما حياتكما، ولكن عليكما الموت بصورة مشرفة». فهو عملياً، أعفى نفسه من أية مسؤولية.

لم يخف أندريه لفوفيتش الأسباب الرئيسة التي تمنع الأبناء من عدم تحمل مسؤولية أمهم. «إن الطريق الوحيدة هي وضع حراسة دائمة عليها من قبل أشخاص مستأجرين. غير أنها، ستعارض ذلك، بكامل قوتها، وإنني واثق من أنها لن تخضع. فوضعنا نحن الأخوة، في هذه الحالة، مستحيل، لأنه لا يمكننا ترك عائلاتنا وأعمالنا، والبقاء دوماً إلى جانب أمنا».

الموقف الذي كان من المفروض أن يجد تولستوي نفسه فيه كان ميئوساً منه. وقد أشاروا إليه بما حدث في الواقع، وهو الذي لم يرغب بتصديقه، ربما، حتى اللحظة الأخيرة، تاركاً لنفسه حق الوهم الجميل. فرحيله الليلي لم يقرر أي شيء. وكما قالت له أخته، محقة، في عام 1873 البعيد، عندما بدأ بكتابة «آنا كارينينا»: «كل ما هو غير شرعي، لا يمكن أبداً أن يجلب السعادة».

في الصباح الباكر هرب تولستوي من شاموردينو.

في ساعة الذروة

منذ منتصف الستينيات وحتى آخر السبعينيات، لم يكتب تولستوي في اليوميات تقريباً، متوجهاً إليها في بعض الأحيان. وهذه علامة صادقة على أنه لم تحدث في نفسه تغيرات جذرية، ولكن كانت تسير عملية بطيئة من تراكم تجربة روحية جديدة، كي تكون هذه التحولات فيما بعد، نهائية، بلا عودة.

إن صورة تولستوي في السنوات السبعينيات انعكست بصورة مثالية في لوحته الشهيرة بريشة الرسام إيفان كرامسكي. جبهة المفكر الكبيرة، ملامح الوجه الضخمة، عيناه غير الكبيرتين بنظرتهما النافذة الخارقة. يدان كبيرتان، قويتان، تنطلقان من كتفين عريضتين وتنتهيان بكفين كبيرين أيضاً لكنهما ناعمان ومرنان. أذن كبيرة تكاد لا تغطيها خصلة من الشعر المتمردة، وكل شيء موجه إلى حاسة السمع، كما لدى كلب الصيد. هناك شيء ما من مظهر الصياد في فتحتي الأنف المتورمتين، وفي الشاربين الممشطين عمودياً. واللحية الغزيرة المشذّبة بالتساوي تحيط بالجزء السفلي من الوجه والرقبة، وكأنها طوق من فرو ثمين مع شيب في الأطراف. وتحت الياقة قميص بثنيات ناعمة متساقطة وأزرار كبيرة في المنتصف. وبالطبع، يشكل الأخدود العميق العمودي بين الحاجبين مركز اللوحة الحيوي، يصرف نظر المُشاهد عن العينين الثاقبتين، المختبرتين لصدق المُشاهد. وهذا الأخدود يدل على التركيز المذهل للإرادة والفكر، القادرين على التمركز في نقطة واحدة، من أجل تغيير العالم كله، مثل عتلة أرخميدس.

يبدو تولستوي في لوحة الرسام كرامسكي *عملاقاً، بطلاً أسطورياً*، وفي الوقت نفسه، روسياً متميزاً، ومتجاوزاً بوضوح الحدود الوطنية. ولا عجب أن قارن الفنان الكبير هذه اللوحة بأعمال الفنان الهولندي المعروف فان ديك.

في السبعينيات كُتبت رواية «آنا كارينينا» التي قال عنها الروائي الكبير فلاديمير نابوكوف إنها أفضل رواية روسية، ثم فكر وأضاف، ولماذا روسية فقط؟ بل أفضل رواية عالمية أيضاً».

وفي الأعوام السبعينيات كُتبت قصة «أسير القوقاز»، التي أرست بداية أسلوب شعبي جديد، من حيث المبدأ، في إبداع تولستوي في المرحلة المتأخرة. وفي هذه الفترة يضع تولستوي «مبادئ الألفباء»، وهو كتاب مدرسي، يعلم مبادئ القراءة، معدٌ، حسب فكرة مبدعه لأطفال جميع الفئات الاجتماعية – من أبناء القصر الإمبراطوري وحتى أبناء الفلاحين وصانعي الأحذية.

في هذه السنوات يبدأ تولستوي، ثلاثاً وثلاثين مرة، كما في الحكاية

الروسية تماماً، الرواية التاريخية عن بطرس الأول، يبدأ بجمع كمية كبيرة من المواد الوثائقية. ولكن جميع هذه الصيغ والبدايات لم يستمر فيها ولم ينجز أي واحدة منها. وحتى الآن يتساءل الباحثون: لماذا ترك هذه الفكرة المثمرة، التي سوف يحققها بعد نصف قرن نسيبه البعيد، وحامل كنيته ألكسي نيقولايفتش تولستوي في روايته «الكونت الأحمر»؟ أحد التفسيرات الأكثر إقناعاً، يقول إن تولستوي لم يجد في نفسه إمكانية «الاندماج» روحاً وجسداً في حياة الناس البسطاء لذلك العصر. ذلك أن حرب عام 1812 التي صورها في رواية «الحرب والسلام»، القريبة من حيث الزمان، كانت بعيدة عنه، أما «الانتقال» إلى حياة شخصيات «آنّا كارينينا» فلم يشكل عبئاً عليه. هنا، كانت ثمة حاجة فقط إلى آلية سرية لخيال تولستوي، الذي كان يعمل في تلك السنوات كالساعة. فصورة آنّا كارينينا تشكلت من عدة أشخاص، من ابنة بوشكين الكبرى، زوجة العقيد ماريا ألكسندروفنا غارتونغ، التي بقيت «خصلات شعر نقرتها العربية المجعدة» في ذاكرته في حفلة رقص المنطقة، إلى مدبرة منزل وعشيقة جاره الإقطاعي آ. ن. بيبكوف، آنّا ستيبانوفنا بيروغوفا التي رمت بنفسها على قضبان محطة ياسنكا في الخط الحديدي موسكو – كورسك، انتقاماً من مُساكنها الغادر، الذي نوى الزواج من المربية.

ولكن، على الأغلب، كان السبب الرئيس للتخلي عن الفكرة مغايراً. فقد كان يشعر بالاشمئزاز والقرف من بطرس الأول، كشخصية. ومثل هذه الرواية كانت بحاجة إلى روائي أقل دراية منه بالجانب الأخلاقي، وهذا القول لا يشكل إساءة إلى «تولستوي الثالث» (المقصود الجيل الثالث من آل تولستوي، نسيب ليف، ألكسي تولستوي الذي كتب رواية «الكونت الأحمر» عن بطرس الأول بعد خمسين عاماً – المترجم). إن تولستوي الأول لم يستطع، دون الشعور بالاشمئزاز، أن يكتب رواية عن عربدة «جماعة المهرجين»، وكيف قطع السكير بطرس الأول، بيده غير الخبيرة شخصياً، بعد عدة محاولات، رؤوس المحكوم عليهم بالإعدام. أثناء تفكيره بكتابة رواية عن تصوره لبطرس الأول حسب قانون «الحرب والسلام»، كمنفذ لإرادة غير إرادته الشخصية، كان عليها أن توجّه روسيا نحو الغرب، لم

يستطع تولستوي أن يفصل نفسه نهائياً عن المعاناة من أفعاله. منذ البداية، لم يتقدم عمله على الرواية قيد أنملة، وخلافاً لفكرة رواية الديسمبريين، التي كانت تقلقه طيلة حياته، لم يعد قط إلى موضوع رواية بطرس الأول. «السكير المريض بالزهري بطرس مع مهرِّجيه» - هكذا وصف تولستوي شخصية القيصر بطرس الأول في كتابه «مملكة الله في نفوسكم»، وفي عام 1905، سيقول لسكرتيره ن. ن. غوسيف: «برأيي، هو لم يكن ظالماً، بل مجرد أحمق مخمور. كان عند الألمان، وأحب كيف يشربون...»

في تلك السنوات نفسها، من فكرة رواية الديسمبريين، التي ولّدت رواية «الحرب والسلام»، تتبرعم فكرة كبيرة أخرى. فمصائر الديسمبريين قادته إلى سيبيريا، لكنه لم يصل إليها في حياته، بيد أنها كانت تقلقه بقوة. وفي أواخر السبعينيات، فكر بعمل أدبي عن «القوة المسيطرة»، عن الهجرة الكبرى للمزارعين الروس إلى جنوب سيبيريا وأبعد، حتى حدود الصين. وبالفعل، ففي رواية «آنا كارينينا» تتكرر مرتين على لسان المؤلف وأناه الآخر كونستانتين ليفين فكرة أن مهمة الروس الرئيسة - هي الفتح السلمي للمساحات الشرقية الشاسعة. وهكذا فمن تطلعات بطرس الأول نحو الغرب استدارت فكرة تولستوي كسهم البوصلة الكبير ببطء نحو الشرق. لكنها لم تتوقف عند هذه النقطة (فالفكرة لم تتجسد ولم تتحول إلى رواية) وتابعت حركتها اللاحقة إلى النقطة المقدرة لها من الأعلى.

في الوقت نفسه، السبعينيات هي مرحلة استقرار في حياة تولستوي. فباستثناء الرحلات السنوية الصيفية للعلاج بالكوميس إلى مقاطعة سامارا، كان يعيش تولستوي في ياسنايا بوليانا فقط ولا يتواصل مع جيرانه، باستثناء بيبيكوف. إنه يعيش مع عائلته في منزل واحد، لم تعد جدرانه تستوعب الأسرة المتزايدة العدد، ويضطرون إلى توسيع المبنى. وفي هذا العقد من السنين المثمر، من جميع الجوانب، تولد ماريا وأندريه وميخائيل، ويترعرع إضافة إليهم سيرغي وتاتيانا وإيليا وليف؛ ويولد ويموت في سن الطفولة بطرس ونيقولاي وباربارا.

يحتاج الأطفال إلى رعاية دائمة وقلق، وكل هذا يقع على عاتق صوفيا أندريفنا. لفترة من الوقت تردد تولستوي بآرائه المميزة في الإرضاع

والتغذية، والتربية وتعليم الأطفال، لكنه يسلم مواقعه في نهاية الأمر لزوجته. وتظهر في منزلهم، كما في جميع منازل السادة، المرضعات، والممرضات، والمربيات، والمدرسون المنزليون. وتنشأ مع بعضهم لدى الأطفال علاقات قرابة تقريباً، كما لدى الإنكليزية الرائعة حنّا تاردزي، على سبيل المثال، ابنة بستاني قصر وندسور، التي طلبها تولستوي من لندن. الأب يعلّم الأبناء الجغرافيا، والحساب، لكنه يهتم بصورة رئيسة بتربيتهم البدنية والأخلاقية. في أسرة تولستوي لا يمكن لأي فرد أن يكون ضعيفاً مسحوقاً، ولا يُسمح بالكذب والمراءاة. ولا يُسمح بأن ينفذ الفرد عمله بصورة سيئة - الأفضل أن لا يفعل شيئاً. ولا يمكنك تحميل مسؤوليتك للآخر. وعقوبة ذلك - إعراض الأب، الذي يخافه الأطفال بشدة بالغة، لأن الأب بالنسبة لهم - سلطة لا تقبل الجدل. وخلال ذلك، وحتى عندما أصبحوا مراهقين، لم يكونوا يدركون أن أباهم كاتب عظيم. ومن غير المتعارف عليه الافتخار بذلك في الأسرة. ولذلك فالكاتب العظيم هو جول فيرن الذي كانوا يقرؤون مؤلفاته باللغة الفرنسية مع أبيهم، ويشاهدون اللوحات في كتابه التي رسمها الأب خصيصاً لهم.

كان تولستوي يتمتع بمفتاح سري ما إلى قلوب الأطفال الصغار. وعلى سبيل المثال، من المستحيل تفسير ما الذي يفتنهم في الألعاب والقصص التي يخترعها.

«كانت هناك لعبة، وكان بابا يلعبها معنا، وكنا نحبها كثيراً. وقد اخترع بابا هذه اللعبة - تتذكر ابنته ت. ل. سوخوتينا - تولستايا - وكانت اللعبة على الشكل التالي: فجأة، دون أي تنبيه، يجعل بابا وجهه خائفاً، وينظر في جميع الاتجاهات، ويمسك اثنين منا بيديه، رافعاً ساقيه إلى الأعلى دون إحداث ضجة، وقافزاً على رؤوس أصابعه، ويركض للاختباء في مكان ما في زاوية، جاراً بيديه كل من يصادفه في طريقه.

«إنه قادم... إنه قادم...» - قال بابا بصوت هامس خائف.

واحد من ثلاثتنا، الذي لم يتمكن من الإمساك به، يندفع متهوراً نحوه ويتشبث ببلوزته. انحصرنا كلنا الأربعة في الزاوية خائفين، ننتظر وقلوبنا

تضطرب من الخوف كي يمر «هذا» ويبتعد. بابا يجلس معنا على الأرض القرفصاء ويتظاهر أنه يتابع بتوتر وجهد هذا «الشخص». بابا يتابعه بعينيه، ونحن نجلس صامتين، وقد التصق أحدنا بالآخر، خائفين من أن يرانا هذا «الشخص».

كانت قلوبنا تضرب بقوة، حتى بدا لي أن هذا «الشخص» قد يسمع نبضها، ويعثر علينا.

أخيراً، بعد بضع دقائق من الصمت المتوتر، أصبح وجه أبي هادئاً ومرحاً.

– لقد رحل! – قال لنا عن هذا «الشخص».

قفزنا بمرح، ومشينا مع بابا بين الغرف، وفجأة؟... ارتفع حاجبا بابا، وحملق بعينيه، وأصبح وجهه رهيباً وتوقف: لقد اتضح أن هذا «الشخص» قد ظهر من جديد.

إنه قادم – قادم! – نهمس نحن معاً ونندفع من جانب إلى آخر، بحثاً عن مكان منعزل نختبئ فيه «منه». ومن جديد، نتلاصق معاً في زاوية من الزوايا، وننتظر بقلق، إلى أن يقوم بابا بمرافقته، وهو يغادرنا، بعينيه. وأخيراً يخرج هذا «الشخص»، دون أن يكتشف مخبأنا، فننطلق مسرورين، ويبدأ كل شيء من البداية، إلى أن يملّ بابا من اللعب معنا ويرسلنا إلى المربية حنّا.

كان يبدو لنا أن هذه اللعبة لا يمكن أبداً أن نملّ منها».

تكتب ابنته سوخوتينا – تولستايا: «كذلك من المستحيل تفسير بم كانت تأسر جميع الأطفال دون استثناء، أطفاله والأطفال الغرباء، حكاية «عن الخيارات السبع». «ففي حياته كم من المرات رواها لي وبحضوري للأطفال الآخرين، بحيث إنني حفظتها عن ظهر قلب. وها هي الحكاية:

– ذهب صبي إلى المزرعة. ورأى خيارة مستلقية على الأرض. إنها خيارة بهذا الحجم (ويبيّن بأصابعه حجم الخيارة). قطفها – قضمها: هَامْ! وأكلها! (تُروى الحكاية بصوت هادئ وبنغمة عالية.)

– ثم سار الصبي إلى الأمام – ورأى خيارة ثانية على الأرض. خيارة بهذا الحجم! قطفها – قضمها: هام! وأكلها (هنا الصوت أعلى قليلاً.)

– ثم سار إلى الأمام فرأى خيارة ثالثة على الأرض... (وبابا يبين بأصابعه طولها تقريباً نصف ذراع) – قطفها، قضمها هَامْ...هَامْ – وأكلها. ثم رأى خيارة رابعة مستلقية على الأرض – خيارة بهذا الحجم! قطفها وقضمها: هَام...هَامْ! وأكلها.

وهكذا حتى الخيارة السابعة. وصوت بابا كان يرتفع ويزداد غلاظة بصورة متزايدة.

– سار الصبي إلى الأمام ويرى الخيارة السابعة! إنها خيارة كبيرة جداً! بهذا الحجم! (ويمد بابا يديه في الاتجاهين على طوليهما) قطفها الصبي وأخذ يقضمها: هامْ... هامْ... هامْ! هامْ... هامْ... وأكلها.

عندما يبيّن بابا كيف يأكل الصبي الخيارة السابعة، فإن فمه الخالي من الأسنان ينفتح إلى مقاييس هائلة، بحيث يصبح من المخيف النظر إليه، وبيديه يظهر، كيف يدفع الصبي الخيارة السابعة بصعوبة بالغة إلى فمه... ونحن ثلاثتنا، نتابعه، وبصورة لا إرادية، نجلس، بأفواه فاغرة، ونتابعه بأعيننا».

في هذه المرحلة من حياتهم، كان الصبيان يعشقون أباهم ليس أقل من الفتيات بل ربما أكثر. فالأب، بالنسبة لهم هو صيد الحيوانات، وصيد الأسماك، والرياضة البدنية. إنه الركض المتكرر في السباق مع الضحك العجيب الذي كان يعيق الأطفال الصغار، الضاحكين المرحين، من تخطي أبيهم ذي الوزن الثقيل. إنه تنظيف البركة الكبيرة شتاء، للتزلج على الجليد – وهو العمل الذي كان يروق للأطفال حتى أكثر من التزلج على الجليد، الذي كان الأب فيه معلماً كبيراً. إنه pas – de – geant («خطوات العملاق»)، التي كان يرسلها لهم والدهم من موسكو، عندما كان يسافر إلى سامارا. هذه وغيرها من المسرات والمتع الأخرى التي ترتبط في أذهان الأبناء الصبيان عن والدهم.

عند قراءتنا لذكريات أبناء تولستوي عن طفولة ياسنايا بوليانا، لا يمكن للمرء ألا يستنتج فكرة أن تولستوي لو حلم بجعل ياسنايا بوليانا قطعة من الجنة لأمكنه، بالتأكيد، تحقيق ذلك. ولكن ليس أبداً فيما يخص علاقاته بزوجته، بل فيما يتعلق بالأطفال الصغار.

وليس من قبيل المصادفة أن أفضل عمل أدبي كتبه الابن ليف – هو القصة الطويلة بعنوان «ياشا بوليانوف». في هذا الاسم الرائع الذي يجمع بين شخصية الطفل وشخصية العزبة ياسنايا بوليانا. إنهما يغدوان كلاً واحداً لا يتجزأ. إن أطفال تولستوي في مرحلتي الطفولة والمراهقة كانوا إلى حد كبير، مثله «ياشا بوليانوف».

وهاكم كيف وصف ليف لفوفيتش تولستوي طفولة ياسنايا بوليانا: «أمي، أبي، إخوتي، أخواتي، المربيات، مدبرات المنزل، الخدم، الضيوف، الكلاب، ونادراً الدب مع الدبدوب، الخيول، صيد الأب والإخوة، أعياد الميلاد، شجرة عيد الميلاد، الصوم الكبير والفصح، الشتاء – مع الثلج، الزلاجات، وعصافير الدغناش، والتزلج على الجليد؛ الربيع – مع النهيرات الموحلة والسجاد الفضي اللامع للثلج الذائب، مع أوراق البتولا الأولى، وعنب الثعلب، مع الشوق، والزهور الأولى والنزهة الأولى «من دون معطف»؛ الصيف – مع الفطر، والسباحة، والألعاب المختلفة، مع ركوب الخيل وصيد الأسماك؛ الخريف – مع بداية الدراسة والعمل لجميع الأسرة، مع الأوراق الصفراء في ممرات الحديقة وتفاح أنتونوف اللذيذ، مع الثلج الأول – تلك هي الحياة السعيدة لطفولتي...»

وليست طفولته وحده، بل طفولة جميع إخوته وأخواته الآخرين – سيريوجا، تانيا، إيليا، ماريا، أندريه، ميشا، ساشا والابن المحبوب من أبويه آل تولستوي، فانيا الذي لم يعش سوى سبع سنين. وبالطبع، الحصة الرئيسة من هذه السعادة، التي لا تقدر بثمن، قد جاءت في السنوات السبعينيات، التي لم يطغ عليها الانقلاب الروحي للوالد والشق العميق، الذي مزق الأسرة. وهاكم حقيقة ثابتة، لا تقبل الجدل. لقد كان الابن الأكبر والابنة الكبرى – سيرغي وساشا هما الأكثر ثباتاً والأكثر استقراراً من الناحية الأخلاقية من أولاد تولستوي – ففترة مراهقتهما جاءت في السبعينيات. ولم تمس روحيهما، كطفلين وكمراهقين، العاصفة التي اندلعت في الأسرة في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات. وتعززت روحاهما وصمدا في وجه العاصفة وبقيا سالمين.

ولكن، هل كان كل شيء رائعاً مع ليف نيقولايفتش وصوفيا أندريفنا

نفسيهما في السنوات السبعينيات؟ وهل يمكن تسمية هذه الفترة سعادة عائلية كاملة؟

بالطبع – لا.

إذا كانت الشمس تحمل في مدارها الكواكب الأخرى، فهذا لا يعني، أن الشمس موجودة من أجلها. وإذا كانت الشمس تعطي الدفء للأرض، إذا ما اختفت خلف الغيوم فهذا لا يعني أنه لا وجود للشمس. (خطوات العملاق تلك) pas – de – geant التي كانت تحرك تولستوي في السنوات السبعينيات في اتجاه لم يكن يدركه جيداً هو نفسه، كان من غير الممكن أن تتوافق مع مسار حياة أسرته. ولهذا فإن مأساة السنوات الثمانينيات أرست أساسها في السبعينيات.

إن كل ما يفعله تولستوي في السنوات السبعينيات فائض عن الحاجة إلى حد ما. فالنوايا والأفكار الضخمة أكبر من القوى الحقيقية لتجسيدها. و«مبادئ الألفباء» التي اخترعها تتطلب، حسب رأيه، ما لا يقل عن مئة عام من العمل، في حين أنه كتبها وأصدرها في صيغتها الأولى خلال عام واحد. وغير معروف كم يحتاج الإنسان العادي لدراسة اللغة الإغريقية القديمة. في حين أن تولستوي تعلمها خلال شهر ونصف الشهر، في شتاء عامي 1870–1871، في الشهر الأخير من حمل صوفيا أندرييفنا بماشا. «إنني أعيش في أثينا، في الليالي أتحدث باللغة الإغريقية» – يكتب تولستوي للشاعر فيت قبل بضعة أيام من ولادة زوجته، التي كادت أن تموت خلالها. كما أن تولستوي نفسه، بجهوده التي لا توصف في تعلم اللغة الإغريقية قوّض صحته، ما اضطره في حزيران عام 1871 إلى السفر إلى سهوب سامارا للعلاج بالكوميس (بلبن الناقة المخمر – المترجم)، مع سِلفه، شقيق صوفيا أندرييفنا، طالب الحقوق ستيبوشكا بيرس.

من هم «الكوميسيون»، أي القادمون للعلاج بالكوميس؟ هم، عموماً، مرضى بذات الرئة، والسل الرئوي، محكومون في غالبيتهم بالموت المبكر. يمكننا أن نتخيل أمزجة هؤلاء الناس. أما تولستوي وبيرس فيعيشان مثل البشكيريين البدائيين، في خيمة بأرضية ترابية، ويستمتعون بحياة السهوب

الحرة في قرية كاراليك. تولستوي يمارس الصيد باستمرار (للحيوانات البرية الكثيرة في السهوب)، ويسير في السهب بقميص واحد من الصباح إلى المساء، في حالة سكر من الكوميس. في السهب «يشم رائحة هيرودوت» الذي يترجمه شخصياً لنفسه، مهما حاولت صوفيا أندريفنا في رسائلها أن تنهاه عن دراسة «اللغة الميتة» التي ستقتله. إنه يلعب مع البشكيريين لعبة الداما، ويجذب «الكوميسيين» إلى ركوب الخيل. ويقطع مسافة تسعين فيرستا مع بيرس إلى بازولوك لحضور المعرض، كي يبدي إعجابه بخيول الأورال وسيبيريا والقرغيز. ويفتش لنفسه عن العقار الذي سيشتريه في العام القادم.

في ياسنايا بوليانا، وبعد انقطاع لمدة عشر سنوات، يعود تولستوي إلى «عشيقته الأخيرة» – التربية. في منزل تولستوي الصغير يجتمع يومياً أكثر من ثلاثين طفلاً من أطفال القرية، يعلمهم القراءة والكتابة والحساب ليف نيقولا يفتش نفسه، وزوجته وأبناؤه الكبار سيرغي، وتاتيانا، وإيليا. لكن إيليا صغير السن ومشاكس. وفي نهاية الأمر، يتشاجر «المعلم» مع تلاميذه.

وبطرس الأول... والديسمبريون... والمساحة الإنسانية الهائلة لـ «آنّا كارنينا»... ومقالة أخرى كتبها وأتلفها عن «الإصلاح العسكري». وولعه الكبير بالعلوم الطبيعية، الفيزياء وعلم الفلك. «طيلة الليل وحتى الصباح كان ليفوشكا يتأمل النجوم» – كتبت صوفيا أندريفنا في يومياتها. والأعمال الزراعية التي تولع بها تولستوي بحماسة مثل غيرها، ومن جديد كان مستعداً لأن يتخلى عن الأدب، كما كتب للشاعر فيت عن ذلك... في الربيع والخريف الصيد كل يوم تقريباً... وإعادة بناء منزل ياسنايا بوليانا. ومقالة «حول التعليم الشعبي».

خلال رحلاته السنوية إلى العلاج بالكوميس، ينظم تولستوي سباقات طويلة على ظهور الخيل لخمسين فيرستا للبشكيريين، من أجل أن يحيي فيهم روح الحياة القديمة الحرة. حيث يتوافدون من كثير من القرى، ويتغطى السهب كله بالخيام والعربات. وقبل السباق ينظم تولستوي المسابقات، والصراع «بالعصا». حيث يجلس المتصارعان كل واحد مقابل الآخر، ويضغط بنعاله على نعال المصارع الآخر، ويمسك كل مصارع طرف

العصا ويسعى كل منهما لرفع الآخر. ويتذكر ابنه سيرغي: «كان أبي يسحب الجميع، باستثناء رئيس العمال؛ لم يستطع رفعه ببساطة، لأن الرئيس كان وزنه لا يقل عن عشرة بودات».

في عزبة سمارا التي وسّعها تولستوي لأكثر من 6000 هكتار أقام مزرعة كبيرة لتربية الخيول. ومن اندماج الدماء الروسية والإنكليزية للجياد مع أحصنة السهوب القصيرة كان من المفترض الحصول على جياد سريعة، شديدة القدرة على التحمل، صالحة لسلاح الخيالة. وبعد عشر سنوات، أصبحت هذه الفكرة التي أتى بها تولستوي، والتي سببت للأسرة خسارة كبيرة، الدافع الخارجي المثير لشجار عائلي، كاد يؤدي إلى خروج ليف نيقولايفتش من العائلة.

جميع خطط تولستوي كبيرة وضخمة. إنه الوقت عندما يكون وحيداً، من دون مساعدين وأمناء، لا يتمتع سوى بدعم زوجته الحامل باستمرار، التي تقوم بأعمال لا تحصى. لكن الغريب، إذا ما قرأنا يوميات صوفيا أندرييفنا ورسائلها ينشأ لدينا انطباع أن زوجها مريض جداً. وليس مريضاً فحسب، بل يعاني من حالة شديدة من الاكتئاب.

«... قلقي مستمر على صحة ليفوشكا. فالكوميس الذي شربه طيلة شهرين لم يشفه، والمرض لا يزال يستقر في جسمه؛ وهذا لا أراه بعقلي، بل أراه بشعوري بتلك اللامبالاة بالحياة وبجميع اهتماماتها التي كان يبديها منذ الشتاء الفائت».

«الأيام الثلاثة السابقة عند ليفوشكا قشعريرة، وكل شيء ليس على ما يرام».

«ظهر ليفوشكا يقشعر من البرد، وهو بحالة صحية سيئة»

«إنه كئيب، محبط، يجلس دون اهتمام، دون عمل، دون طاقة، دون فرح طيلة أيام وأسابيع كأنه استسلم لهذه الحالة. إنه أشبه بالموت المعنوي الداخلي. وأنا لا أريد فيه هذا الشعور، وهو نفسه لا يمكنه العيش هكذا طويلاً» (اليوميات.)

«ليفوشكا غير معافى، وأنت سافرتِ.» (رسالة إلى أختها.)

تعد مراسلات ليف نيقولايفتش وصوفيا أندريفنا أثناء علاج تولستوي في بشكيريا وثيقة سيكولوجية لا تقدر بثمن.

إذا ما كانت الرحلة الأولى إلى السهوب قد أملتها الضرورة، بلا شك، (لقد أضنى صحته بكل معنى الكلمة في دراسة اللغة الإغريقية)، فإن الرحلات السنوية اللاحقة وشراء عزبة في سامارا (لم تتحمس لها صوفيا أندريفنا) كانت توحي بأن ليف نيقولايفتش يشعر بنفسه في الطبيعة العذراء أفضل منه في البيت في ياسنايا بوليانا. فهواء السهوب، والكوميس، ولحوم الخراف، وركوب الخيل، وبقايا حياة البدو الرّحل القديمة - كل هذا ترك أثره الإيجابي على تولستوي وبعثه إلى الحياة من جديد. وربما بإبحاره على ظهر السفينة من نيجني إلى سامارا، قد تذكر هروبه الأول إلى القوقاز، عندما توجه على ظهر المركب مع نيكولنكا من قازان إلى آستراخان. وعلى أية حال، فإن إصرار ليف نيقولايفتش على التوجه سنوياً إلى السهوب يدل على أن روح «الهارب» لم تختف فيه خلال السنوات العشر الأولى من الحياة العائلية المستقرة. فقد امتدت نفسه إلى تلك اللحظة التي بدأ فيها الزواج: ذلك أنه عرض على صونيا الزواج، عائداً من سامارا.

إن صوفيا أندريفنا، بحساسيتها الزائدة تجاه هذه «العلامات» في مزاج زوجها كان من غير الممكن أن لا تشعر بالقلق حيال ذلك. لم يكن بإمكانها السفر مع زوجها، باعتبارها كانت مريضة بعد الولادة. (في عام 1873 ستذهب مع ابنها الرضيع بين ذراعيها.) هنا لم تكن أية إساءة صريحة، لكن الإساءة حصلت مع ذلك. إن أية مغادرة لليف نيقولايفتش كانت تتعامل معها زوجته بصورة مرضية. ولنتذكر الشجار الرهيب الذي حدث بين كيتي وليفين (في «آنا كارينينا» - المترجم)، عندما نوى السفر من دونها، إلى أخيه الذي كان يحتضر. في خريف عام 1869 عندما توجه تولستوي إلى مقاطعة بينزا لمشاهدة العقار من أجل شرائه، استلم رسالة من ياسنايا بوليانا:

«تسيطر عليّ دقائق، أصل فيها بكاملي إلى اليأس، لأنك بعيد عني، وماذا يحدث معك، يا حبيبي ليفوشكا، وخصوصاً عندما ينتهي اليوم وأنا متعبة، أبقى وحيدة مع أفكاري السوداء، وافتراضاتي، وخوفي. يا له من عبء قاس، العيش في الدنيا من دونك؛ كل شيء ليس كما يجب، كل شيء يبدو لي ليس

كذلك، ولا يستحق ذلك. لم أكن أرغب بأن أكتب لك شيئاً من هذا، ولكن لم أسيطر على نفسي... ليس من المستحسن أن تسافر بعيداً عني، ليفوشكا؛ يبقى في نفسي شعور شرير من هذا الألم الذي يسببه لي غيابك. أنا لا أقول إنه عليك ألا تسافر، ولكن فقط لأن هذا يلحق الضرر بي؛ كذلك لا أقول إنه يجب ألا أنجب، بل أقول فقط، لأن هذا مؤلم».

الإشارة إلى الولادة شفافة للغاية. إنها إشارة إلى أن كل رحلة لليف نيقولايفتش تتضمن شيئاً من الظلم بحق صوفيا أندرييفنا، المرتبطة دوماً بالحَمْل والأطفال.

وفي رسائلها في صيف 1871، تقنع زوجها بإصرار بأن يبقى في السهوب الفترة الضرورية. وهذه الرسائل مفعمة بكثير من الحنان المؤثر والاهتمام بصحته. «أرجوك، كن حازماً، عش على الكوميس فترة أطول، والأهم، لا تدع الخوف والحنين يتغلغلان إلى نفسك، فهما سيعيقان شفاءك... وداعاً، مرة ثانية، أقبل هامتك، وشفتيك، ورقبتك، ويديك، كم أحب تقبيلك، عندما تكون إلى جانبي. الله معك، احترس، واحم نفسك قدر استطاعتك».

ومع ذلك فهي تلمّح بصورة غير مباشرة، لليف نيقولايفتش بأن غيابه الطويل عن الأسرة غير طبيعي، لكنها تنقل هذا التلميح على لسان صديقه المفضل دياكوف. «يوم الجمعة حضر إلينا على طعام الغداء دياكوف وماشا. كان يعظ ويتحدث عن مبادئ الحياة الزوجية ووبخني أنا وتانيا لأننا افترقنا عن زوجينا لمدة شهرين. إنه لم يزعجني. فهذه مسألة خطيرة جداً بالنسبة لي، وكان من المؤلم جداً بالنسبة لي أن أجرؤ على مناقشة هذه المسألة مع دياكوف. فلو قررنا كلانا نحن الاثنين ذلك، لكان هو الضروري. ومع ذلك، فقد أزعجني دياكوف قليلاً، وكنت غير مسرورة».

لكن الأهم هو نهاية الرسالة.

«وداعاً، يا صديقي العزيز؛ الآن، لن أنصحك بشيء، ولا أصر على شيء. إذا ما شعرت بالاشتياق، فهذا يضرّ بك. افعل ما تريد، بحيث تكون بحالة جيدة. حاول أن تكون حذراً وأن تكون رؤيتك واضحة لما هو جيد لك. لقد كنت متعباً، وأنت غيرت فجأة نمط حياتك كله؛ ربما بعد أن تعيش، ستجد

نفسك من جديد قادراً على العيش معافى أكثر من عقد واحد من السنين. الله معك، يا صديقي العزيز؛ أعانقك وأقبلك. لو كان بإمكاني إعطاؤك ذرة على الأقل من صحتي وطاقتي وقوتي. فأنا لن أموت أبداً. يكفيني حبي القوي لك من أجل تعزيز قواي المعنوية والحيوية. وداعاً، الساعة الثانية بعد منتصف الليل، أنا وحيدة وكأنني معك. صونيا».

في الخمسة عشر عاماً الأولى من الحياة العائلية على الأقل، لم ترغب صوفيا أندرييفنا أن تشعر بنفسها بأنها الجانب الأضعف والأكثر معاناة. بالطبع، كان زوجها قمة لا يمكن بلوغها على صعيد الإبداع، أما على الصعيد الإنساني، فقد أرادت أن تكون أقوى، إن لم تكن أعلى. وهكذا كان، بمعنى ما. فمن الصعب على المرء أن يتصور ما عانته زوجته، في شباط/ فبراير 1875، عندما مات بين ذراعيها ابنها نيكولشكا (نيقولاي – م.) وعمره سنة واحدة.

«ثلاثة أسابيع استمر القيء المؤلم، لمدة أسبوع كان نيكولشكا فاقداً للوعي، وثلاثة أيام كان يعاني من تشنجات مستمرة. واعتقاداً مني أنه في النزع الأخير، توقفت عن إرضاعه قبل أسبوع، وأخذت أسكب له بالملعقة ماء في فمه. لكنه كان يمسك بالملعقة بنهم، حتى شعرت بالخوف، وظننت أن الصغير يموت من الجوع. فأرضعته من الثدي من جديد. لا يمكنني أن أتذكر، دون رعب، كيف أمسك هذا الطفل، الفاقد لوعيه، بالثدي، كالحيوان الصغير، وعصره بأسنانه السبع. ثم أخذ يمتص الحليب بنهم. إن منظر فقدان الوعي الإنساني والحماقة في العينين اللتين كانتا بالأمس القريب تنظران إليّ بمرح ودلال – كان مرعباً. وهكذا أرضعته حوالي أسبوع. وقبل موته بيوم، تخدرت جميع أعضاء نيكولشكا الصغيرة في وضعية جامدة بلا حراك، فانغلقت يداه والتوى وجهه».

عندما دُفن الطفل في مقبرة كوتشاكوفسكي، هبت «عاصفة ثلجية رهيبة». «كنت خائفة على ليف نيقولايفتش، وهو كان خائفاً عليّ».

مع ذلك، كانت الأحزان، والأمراض، والفراق تجمع بين الزوجين وتقرّب بينهما أكثر من الحياة الهادئة، الرتيبة، حيث كان ليف نيقولايفتش

يكرس نفسه للعمل، كما حدث أثناء كتابته «الحرب والسلام» و«آنا كارينينا». كانت صوفيا أندريفنا تقدر هذا الزمن كأنها تحلم به. وليس من قبيل المصادفة أن نجد في يومياتها وفي رسائلها إلى زوجها وأختها هذا القدر من الشوق والحزن. فقد كان زوجها إنساناً كبيراً جداً بالنسبة لها، حتى تشعر نحوه دوماً بقرابتها معه وصلتها به. أما عندما يكون ضعيفاً، أو مريضاً أو بحاجة إليها، فهذا شيء آخر...

لقد كانت هذه سعادة أسرية صعبة للغاية. ولم يكن تولستوي محقاً تماماً، عندما بدأ روايته «آنا كارينينا» بالتأكيد أن «الأسر السعيدة جميعها متشابهة». متشابهة – نعم، من السطح الخارجي، وليس في العمق. ولعل مثال أسرته الشخصية يدل على أن كل سعادة أسرية لها عديد من المكونات الفردية العميقة التي لا تتشابه مع مكونات أسرة أخرى. لكن تولستوي كان محقاً تماماً، وبصورة استثنائية، في قوله إن «كل أسرة غير سعيدة هي غير سعيدة بطريقتها الخاصة». فما حدث في أسرة آل تولستوي في أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات لا مثيل له، حقيقة.

تبرّؤ تولستوي

إن الأزمة الروحية التي عاشها تولستوي خلال الفترة من عام 1877 حتى عام 1884 (أيُّ تحديدٍ لسنوات هذه الأزمة هو تحديد اصطلاحي، شرطي، بالطبع)، والتي اختتمت بمحاولته الأولى لمغادرة العائلة، يختلف معاصروه وكتّاب سيرته اللاحقون على تسميتها. فهي بالنسبة لبعضهم «أزمة»، بينما هي «تطور» بالنسبة لبعضهم الآخر، وهي «انقلاب» بالنسبة لآخرين، أما ب. ي. بريوكوف الكاتب الأول لسيرة تولستوي فقد سماها «صحوة». لكن البديهي الواضح شيء واحد: في هذه المرحلة يتغير تولستوي تغيراً يصعب تصديقه، وأكثر بكثير من تغيره بعد الزواج.

بدلاً من «الرجل القديم»، كما كان هو يعتبر نفسه، ظهر «رجل جديد». وهذا لم يكن مجرد رجل جديد، بل *رجل روسي جديد*، لأن كل ما كان يجري في تولستوي في تلك الفترة كان يحمل طابعاً قومياً صرفاً ومن الناحية

الخارجية كان يشبه سلوك الروس أنصار النزعة السلافية في الأربعينيات والخمسينيات، الملتحين الذين يرتدون القفطان الروسي التقليدي، مذهلين بذلك الرأي العام العلماني المتمدن. وفي ذروة نجاحه الأدبي وسعادته الأسرية، عرض تولستوي على جميع المثقفين الروس أسلوباً من السلوك غير معروف من قبل، والأهم – منظومة من الآراء ووجهات النظر للعالم غير معروفة من قبل، حيث كل شيء فيها «بالمقلوب». فالأبيض أصبح أسود، والأسود أبيض. روسي جديد.

إن تولستوي نفسه لم يعتبر هذا انقلاباً. ويشير ب. ي. بريوكوف إلى أن «تولستوي نفسه، في أحد مؤلفات سيرته الذاتية، يصرح بأنه لم تحدث في حياته أزمة ولا نقطة تحول، وأنه دوماً كان يسعى إلى البحث عن معنى الحياة، وأن الظواهر والأحداث الخارجية المعقدة، وعواطفه الخاصة وهواياته وحدها هي التي أجّلت حل مسائل الحياة وكثفت القوى الكامنة في ثورة داخلية جبارة أطاحت بالبناء القديم». وهذا بالطبع، صحيح، ولكن فقط بالنسبة للوعي الذاتي لتولستوي. أما بالنسبة لأسرته فقد كان هذا انقلاباً بالذات، وكارثة كبيرة، لأن «البناء القديم» الذي أطاحت به «الثورة الداخلية الجبارة» لم يكن يخصه وحده، بل يخص عقداً ونصف العقد من الحياة العائلية التي شيدت بشق الأنفس.

ليس من العبث أن تطيل النظر صوفيا أندرييفنا باهتمام إلى وضعية ليفوشكا الفاترة الخاملة غير المبالية، وإلى «وقفات الحياة» التي أصبح يتعرض لها في السبعينيات. لقد أحست بالكارثة. وكان إحساسها مذهلاً! لكنها لم تدرك على الفور مدى جدية وقطعية تلك التحولات التي بدأت تحدث في ليف نيقولايفتش اعتباراً من عام 1877.

في هذا العام سافر مع ستراخوف إلى دير صحراء أوبتينا.

هنا نحن نتعامل مع لغز اختلف على حله أكبر كتاب سيرة تولستوي نيقولاي غوسيف وفلاديمير جدانوف. ذلك أنه أول مرة نوى زيارة الدير (لا نحسب هنا رحلته عندما كان طفلاً لحضور جنازة العمة أوستن – ساكن) كانت في عام 1870. وتدل على ذلك جملة له في رسالته إلى فيت بتاريخ 20 تشرين

الثاني/ نوفمبر 1870: «عند استلامي لرسالتك، قررت فوراً الذهاب إليك... لولا أوروسوف الذي استدعيته من أجل الرحلة إلى دير صحراء أوبتينا...»

كان من الممكن ألا يكون لهذه الجملة أهمية كبيرة، لأن الرحلة لم تتم. ولكن فيما بعد، وبعد سنوات عديدة، في حديثه مع بريوكوف، تحدث تولستوي عن هذه الرحلة، كما لو أنها حدثت فعلاً في الماضي، وربطها بخلافاته مع زوجته. وهاكم ما يقوله بريوكوف: «في عام 1906 تقريباً، ومن أجل عملي على السيرة الذاتية لتولستوي، سألت ليف نيقولايفتش في ياسنايا بوليانا في مائدة مستديرة عن بعض أحداث حياته. بقينا وحدنا في الصالة. أنا بالمناسبة، سألته، من أجل أي هدف زار في المرة الأولى دير صحراء أوبتينا. أجابني ليف نيقولايفتش التالي تقريباً: «كان بودي الحديث مع المرشد الروحي آنذاك أمبروز، الذي كنت على قناعة عالية بصفاته الأخلاقية. كان في نفسي شك كبير، سبب اضطراباً للعلاقات الأسرية. فزوجتي بعد مرض قاس، وبناء على نصيحة مجلس من الأطباء، رفضت إنجاب الأطفال. وقد كان تأثير هذا الظرف عليّ شديداً، وقلب مفهومي كله عن الحياة العائلية، لدرجة أنني لم أستطع أن أقرر طويلاً كيف كان يجب أن تستمر. حتى إنني طرحت في نفسي مسألة الطلاق. ومن أجل حل هذا الشك قررت التوجه إلى المرشد الروحي أمبروز»».

حسب أقوال بريوكوف، تولستوي لم يكن راضياً عن هذه «الرحلة» (التي لم تحدث في الواقع).

في الواقع، ذهب تولستوي إلى أوبتينا في صيف عام 1877، وكان راضياً جداً عن حديثه مع أمبروز. ويقول، بحق، كاتب آخر لسيرة تولستوي وهو ن. ن. غوسيف: «يبدو أن ليف نيقولايفتش في ذكرياته هذه، قد ربط في سلسلة واحدة عدة مراحل من حياته، جرت في أوقات مختلفة».

ويتابع غوسيف: «جرت زيارته الأولى لدير صحراء أوبتينا في 22 تموز/ يوليو 1877. وليست هناك أية معطيات عن أية اضطرابات في حياته العائلية في تلك الفترة، ولا عن حديثه مع أمبروز حول شؤونه العائلية، ولا عن استيائه من أمبروز بعد لقائه الأول معه». وليست هناك أية أدلة تقول إن ليف

نيقولايفتش في النصف الأول من عام 1877 (كان تولستوي يستعد للرحلة مسبقاً، بدءاً من الشتاء) قد تشاجر على نحو شديد مع زوجته، علاوة على أن يفكر بالطلاق. في حين أنه في تشرين الثاني/ نوفمبر، عندما كتب لفيت عن زيارته المتوقعة لأوبتينا، لم يكن هناك أي شجار حقيقي. وكانت صوفيا أندريفنا حاملاً بابنتها ماشا، ولم تكن هناك أية نصائح للأطباء حول عدم الإنجاب. يبدو أن رغبة تولستوي بزيارة الدير كانت ترتبط في وعيه بشكل ما بمشاكله العائلية.

ولكن، من يمكنه أن يعرف جميع الأسباب التي دفعت تولستوي لأن يقرر زيارة الدير؟ ولماذا بعد مضي سنوات عديدة ربط هذه الزيارة، خطأً، بوضعه العائلي في عام 1871؟

بالاختلاف عن غوسيف، فإن ف. آ. جدانوف، مؤلف كتاب عن حياة تولستوي العائلية، مقتنع بأن تولستوي في عام 1877 أيضا قد ذهب إلى الدير لأسباب عائلية أيضاً. فلا أحد يعرف عن أي شيء تحدث مع أمبروز عدة ساعات من دون شهود. وقد بقي حديثه مع أمبروز سراً. بيد أننا نعرف من ذكريات زوجته عن زيارات تولستوي الأربع لأوبتينا، ومن كلماته، أنه كان بعد هذا اللقاء «مسروراً جداً، معترفاً بحكمة الشيوخ والقوة الروحية للأب أمبروز».

بهذا الصدد، في صيف عام 1877 كانت صوفيا أندريفنا أيضاً حاملاً بأندريه. وقد انتظر الزوجان بخوف هذه الولادة وبخوف أكبر من ولادة ماشا في عام 1871. فموت ثلاثة أطفال على التوالي – بطرس (عام 1872)، نيقولاي (عام 1874) وباربارا (عام 1875) – كان من غير الممكن أن لا يقود تولستوي إلى فكرة أن استمرار النسل والذرية هو مبرر العلاقة الجنسية، فإن هذه المبرر يحرمه الله. أو غير الله؟ وهل الله موجود؟

إن عائلة تولستوي لم تنشأ نتيجة اتحاد عابر لشخصين متحابين. كما لم تكن «عقداً مسبقاً على الزواج». لقد كانت «*مشروع سعادة*». وكان هذا العقد يستند إلى أساس ديني ويعكس وضعية العقيدة عند تولستوي، كما كانت في الستينيات والنصف الأول من السبعينيات. لقد كانت تجربة مديدة

في تأسيس جنة على الأرض على قطعة من الأرض اتسعت في السنوات السبعينيات إلى عقار سامارا المترامي الأطراف. لكن من المثير للاهتمام، أنه عندما بدأ تولستوي بتوسيع المساحة الجغرافية لهذه «الجنة»، ليس لحاجة اقتصادية بقدر ما لكونه مسحوراً ببدائية سهوب بشكيريا العذراء، لم تعد هذه «الجنة» ترضيه. فروح تولستوي التي تشعر بالضيق في حدودها (ومن هنا إرادته نحو التوسيع، والبحث عن مساحات جديدة لم تمسها المدنيات الفاسدة)، وفجأة يفقد مشروعه نفسه معناه في عينيه.

بحلول وقت الأزمة الروحية، كان قد أكمل العام التاسع والأربعين. عاش نصف قرن. إن فكرة الموت كانت سابقاً تقلق تولستوي، لكنه كان يتهرب منها من فترة إلى أخرى، بالحرب تارة، والمزرعة، والأدب، والحياة المنزلية تارة أخرى. لكنه لم يستطع أن يكذب على نفسه، والسؤال الملعون «لماذا؟». وفي نهاية الأمر يباغته، ويغطي على جميع الأسئلة الأخرى. ويحدث «توقف الحياة».

كانت صوفيا أندريفنا، بقلق متزايد، تتابع كيف أن زوجها، مغزى ودعامة أسرتها، التي تأسست بإرادته، ولكن بجهودها بصورة رئيسة، «يبتعد» عنهم، ببطء، ولكن بثبات، ليس جسدياً ومادياً بعد، ولكن روحياً ونفسياً. ومن غير الممكن قراءة يومياتها ورسائلها إلى أختها دون الشعور بالتعاطف نحو امرأة ذكية ومتفانية، لا يمكنها أن تفهم حتى النهاية ما الذي يجري، لكنها تشعر بأن الذي يجري أمر غير طبيعي، ورهيب. فزوجها يتغير يومياً أمام عينيها، حتى من حيث المظهر الخارجي. وهي بيأس، تحاول تفسير ذلك بمرضه وانحراف صحته، وإلا، كيف يمكنها أن تفسر ما لا تفهمه في حالة زوجها، إن لم يكن «مرضاً». إنها تُثبّت فيه، بأمل، استعادته للاهتمامات الأدبية، لأن هذه الاهتمامات «مُضمّنة» في مشروعهما الحياتي، خلافاً لاهتمامات زوجها الجديدة. وهذا، بكلمة موجزة ما «وقّعت عليه» عند زواجها منه. وهي على استعداد للموافقة على مصالحه في شراء العقار في مقاطعة سامارا، وإن كانت بقلب مفجوع، رغم أنها لا تحب السهب والحرارة والظروف غير الصحية. لكن بشكيريا، بالنسبة لزوجها – هي مجرد متنفس هواء، أما المسائل الأساسية فتبدأ في ياسنايا بوليانا.

«ليفوشكا متجهم، عابس؛ فإما أن يمضي أياماً كاملة في الصيد، أو يجلس في غرفة أخرى، بصمت، ويقرأ، وإذا جادل أو تكلم، بكآبة، وليس بمرح».

«ليفوشكا يقول باستمرار إن كل شيء انتهى بالنسبة له، وإنه قريباً سيموت، ولا شيء يدعو للفرح، ولا شيء يتوقع أكثر من الحياة. وأية أفراح يمكن أن تكون عندي من دونه».

«... مشغول جداً بأفكاره حول رواية جديدة، وأنا أرى، أنها ستكون رائعة جداً، تاريخية، من عصر الديسمبريين، كما يبدو، مثل «الحرب والسلام». فلينعم الله عليه بالصحة بأسرع وقت، فقد أصبحت صحته تتوعك غالباً، وعندها سيتحرك العمل».

«ليفوشكا... استغرق الآن كلياً في كتاباته. عيناه تتوقفان، غريبتان، إنه لا يتحدث تقريباً أبداً، أصبح بعيداً عن العالم، وغير قادر أبداً على التفكير في المسائل الحياتية اليومية».

«أنا أخيط، وأخيط، حتى الدوار، حتى اليأس؛ التهاب في حنجرتي، صداع في رأسي، شوق وحنين، وأستمر في الخياطة. أعمال لا تنتهي وتدفع إلى الموت، ولا نهاية لها، ولا أرى نهايتها، سبعة أشخاص، وأنا الثامنة...»

إن أزمة زوجها الروحية تتزامن مع أزمة صوفيا أندريفنا النفسية، حيث بدأت الحياة المنعزلة في القرية تشكل عبئاً على المرأة التي تربت في المدينة. فبعد خمسة عشر عاماً من نكران الذات في الزواج، والحمل المستمر دون انقطاع، والولادات العسيرة المرضية، والولادات المجهضة، وموت ثلاثة أبناء وهموم الأعمال اليومية وتربية الأطفال، تتذكر صوفيا أندريفنا فجأة، أن ثمة حياة أخرى - خارج إطار اهتمامات زوجها.

لكنها، منذ بداية حياتهما المشتركة، لم يُسمح لها بالنفوذ بشكل كامل إلى مجال اهتماماته. وها هي تكتب في يومياتها بعد عام من زواجها، مبدية غيرتها على ليف نيقولايفتش ليس من أكسينيا المرأة البسيطة فحسب، بل من قريبته ومراسلته الروحية آ. آ. تولستايا أيضاً: «كان بودي أن أحيط به كله، أن أفهمه، بحيث يكون معي كما هو مع ألكسندرين Alexandrine، وأنا أعرف أن هذا غير ممكن، ولا أشعر بالإهانة، بل أستسلم لواقع أنني من أجل ذلك

شابة، وغبية، ولست شاعرية بما يكفي. وكي أكون مثل Alexandrine، وباستثناء المعطيات الوراثية، يجب أن أكون أكبر سناً، ومن دون أولاد، بل وغير متزوجة أيضاً».

بدأت صوفيا أندريفنا تحسد أختها الصغرى، المتزوجة من كوزمينسكي، التي يمكنها أن تعيش حياة اجتماعية طبيعية في المدينة. وقد كتبت لأختها: «نحن في هذا الشتاء نعيش منعزلين جداً، وكثيراً ما أشعر بالملل، وبدأت أكتئب من العزلة القروية. ومن أجل الترفيه عن نفسي، بدأت بحياكة سجادة كبيرة بطول قدره أربع أذرع وعرض ثلاث أذرع ونصف على الطراز الفارسي. إن هذا العمل سيستغرق ثلاث سنوات. هكذا في القديم كان النساك في صومعاتهم يقومون بأعمال كبيرة كي يشغلوا أنفسهم في وحدتهم».

وتعترف في يومياتها في عام 1875: «إن حياة القرية المنعزلة للغاية أصبحت أخيراً، بالنسبة لي، لا تطاق. خمول كئيب، لا مبالاة تجاه كل شيء، فالآن، وغداً، والأشهر، والسنوات القادمة – كل شيء يتكرر، الأشياء نفسها. أستيقظ صباحاً ولا أنهض. وما الذي يدفعني للنهوض، وما الذي ينتظرني؟ أعرف أن الطباخ سيأتي، ثم ستشكو المربية من أن الناس غير راضين عن الطعام، وأنه لا يوجد سكر، ويجب إرسال أحد لجلبه، ثم أجلس مع ألم كتفي اليمنى وأرتق الثقوب، ثم تعليم قواعد اللغة والموسيقى، وهذا ما أفعله بسرور، لكنني أفعله بشعور حزين لأنني لا أفعله بشكل جيد، ليس كما كان بودي أن أفعله. وفي المساء أيضا أرتق الثقوب، واللعبة الأبدية التي أكرهها، لعبة العمة وليفوشكا بالورق (السوليتير). القراءة تمنحني متعة قصيرة – ولكن هل ثمة كثير من الكتب الجيدة؟ في الحلم، كما الآن، أعيش. أعيش، ولا أغفو. تارة أذهب إلى كنيسة ما، إلى صلاة الغروب وأصلي، كما لم أصلّ قط في اليقظة، وتارة أرى معارض فنية رائعة، وأزهاراً رائعة في مكان ما، وأرى تارة أخرى حشداً من الناس الذين أكرههم ولا أستغربهم، وأتعاطف مع الجميع وأحبهم».

في مسار حياة ياسنايا بوليانا المشتركة، ينشأ بالتدريج، لدى ليف نيقولايفتش وصوفيا أندريفنا، عدم تطابق موسمي للأمزجة. فهو يقدّر عالياً على نحو خاص الخريف والشتاء، حيث يجلسون في ياسنايا بوليانا كنسّاك

حقيقيين وهو يمكنه أن يتفرغ لعمله. في الربيع والصيف يبدأ تدفق الضيوف الذين يدخِلون التسلية على قلب صوفيا أندريفنا ويحزنون زوجها. حتى إن تولستوي شيد عزبة صغيرة في الغابة في تشيبيج، كي يتهرب من الضيوف. ومع بداية الخريف ينتعش ليف نيقولايفتش للعمل، أما صوفيا أندريفنا فتكتب في يومياتها: «أخيراً عشت حتى خريفي وكآبتي المرضية. بصمت، وعناد أحيك السجادة أو أقرأ؛ أشعر باللامبالاة وبالبرود حيال كل شيء، أشعر بالملل، والانقباض، وظلام المستقبل».

ولكن، كان من الممكن التغلب على كل شيء، وأن تسير الحياة في ياسنايا بوليانا في مسارها المحدد، لولا أن تولستوي بدأ اعتباراً من عام 1877، عندما زار أوبتينا، وعندما ولد ابنه أندريه، بالتبرؤ بصورة ثابتة، في نفسه في البداية، من كل شيء علّمه هو بنفسه لأسرته: من أهمية دراسة الأدب، ومن مغزى وجود ياسنايا بوليانا.

في «الاعترافات» وصف تولستوي بالتفصيل هذه العملية الداخلية:

«هكذا عشت، ولكن قبل خمس سنوات (اعتباراً من عام 1874 – *المؤلف*) بدأ يحدث لي شيء غريب جداً: بدأت تظهر عندي في البداية دقائق من الحيرة، من توقف الحياة، كأنني لا أعرف كيف أعيش، وماذا أفعل، وكنت أتوه، وأشعر بالانقباض. لكن هذه الحالة انقضت، وتابعت حياتي كالسابق. ثم أخذت دقائق الحيرة هذه تتكرر بصورة متزايدة أكثر فأكثر وفي الشكل نفسه. وتوقفات الحياة هذه كانت تتجلى دوماً بالأسئلة نفسها: لماذا؟ حسناً، وماذا بعد؟...

بدت الأسئلة كأنها بسيطة وسهلة، أسئلة أطفال. ولكن عندما قاربتها وحاولت حلها، اقتنعت على الفور، أولاً، أنها ليست أسئلة أطفال، وليست سهلة وغبية، بل هي الأسئلة الأهم والأعمق في الحياة، وثانياً، اقتنعت بأنني لا أستطيع، لا أستطيع مهما فكرت، حلها. وأن علي قبل أن أهتم بعقاري في سامارا، وبتربية ابني، وبتأليف الكتاب، عليّ أن أعرف، لأي هدف سأفعل هذا كله. من بين أفكاري حول المزرعة، التي شغلتني كثيراً في ذلك الوقت، ظهر في ذهني سؤال فجأة: «حسناً، سيكون لديك 6000 هكتار في مقاطعة سامارا،

و300 رأس من الخيول، وماذا بعد؟..» ذهلت تماماً ولم أعرف، بماذا أفكر فيما بعد. فإذا ما بدأت التفكير بتربية الأطفال، كنت أقول لنفسي: «لماذا؟» أو إذا ما فكرت كيف يمكن للشعب أن يحقق الرفاهية، كنت أقول لنفسي فجأة: «وماذا يهمني؟» أو إذا ما فكرت في الشهرة التي ستكتسبها مؤلفاتي، كنت أقول لنفسي: «حسناً، ستكون أكثر شهرة من غوغول، وبوشكين، وشكسبير، وموليير، وجميع كتاب العالم - حسناً، وماذا في الأمر!...»

ولم أستطع الإجابة على أي شيء، أي شيء.

لقد توقفت حياتي. كان بإمكاني أن أتنفس، وآكل، وأنام، ولم يكن باستطاعتي أن لا أتنفس ولا آكل ولا أنام، ولكن لم تكن هناك حياة.

لو جاءت لعندي ساحرة وعرضت عليّ تحقيق رغباتي، لما عرفت ما أقوله لها. فإذا لم تكن لدي رغبات، بل عادات الرغبات السابقة، في لحظات الثمالة والسكر، فإنني في لحظات الصحو أعرف أن هذا خداع، وأنه ليس هناك ما أرغبه. حتى إنني لم أستطع أن أرغب بمعرفة الحقيقة، لأنني خمنت أين كانت تكمن. فالحقيقة كانت، أن الحياة هراء».

في «الاعترافات» يورد تولستوي أمثولة عن مسافر هاجمه في السهب وحش غاضب، فقفز إلى بئر خوفاً منه، ورأى في قعر البئر تنيناً بفم مفتوح. فتعلق بغصن شجيرة ينمو على شق البئر، وهنا يرى فأرين، فأراً أبيض، وفأراً أسود (النهار والليل)، يحيطان بالتساوي بجذع الشجيرة ويعملان على قضمه. وسرعان ما سيسقط حتماً في فم التنين (الموت). وبينما هو معلق، يبحث المسافر حوله، فيجد على أوراق الشجيرة قطرات من العسل فيلعقها بلسانه.

ويعترف تولستوي: «إن قطرتي العسل اللتين أبعدتا عيني وقتاً أطول من العوامل الأخرى عن الحقيقة القاسية هما حب الأسرة والكتابة التي يمكن تسميتها بالفن - لم تعودا لذيذتين بالنسبة لي».

ومن المثير للاهتمام، أن الأسرة يدرجها في الموقع الأول. وقد كان التخلي عنها، بالنسبة له، اللحظة الأصعب في الأزمة.

إنها لم تكن أزمة افتراضية، تأملية، بل أزمة «توقف الحياة»، ونتيجتها

يمكن أن تكون إما الانتحار، وإما الإجابة عن الأسئلة التي طرحها تولستوي على نفسه. ويمكننا الحكم على مدى اقترابه من الانتحار، من خاتمة رواية «آنا كارينينا» (ليس من خلال المعروف للجميع، حيث تلقي آنا بنفسها تحت القطار، بل من خلال الحاضر، حيث إن كونستانتين ليفين بعد ارتباطه بزواج سعيد، كان أيضاً قريباً من الانتحار)، ومن خلال اعترافه الشخصي في «الاعترافات»: «وهأنذا الإنسان السعيد، أخرجت الحبل من غرفتي، حيث كنت في كل مساء عندما أكون وحيداً أخلع ثيابي من أجل أن أعلق نفسي على العارضة بين الخزائن، وتوقفت عن الذهاب إلى الصيد بالبندقية، كي لا أغري نفسي بالطريقة السهلة لأخلص نفسي من الحياة...»

في بداية السبعينيات يبدأ تولستوي كتابة قصتين دون أن ينهيهما، وموضوعهما هو الموت الوهمي كوسيلة للهروب من الحياة السابقة. ثم يعود إلى الموضوع نفسه في قصتي «الجثة الحية» و«مذكرات العجوز فيودور كوزميتش بعد موته». في القصة الأولى من دون عنوان، صاحب الأرض جليابوجسكي يقتل امرأته الخائنة، ويهرب من السجن بمساعدة الخادم، يأتي إلى معبر النهر، حيث ازدحم كثير من الناس العاديين، فيخلع ثيابه ويدخل إلى النهر. تطوّر أحداث الموضوع جاء في القصة الثانية بعنوان «ستيبان سيمينوفيتش بروزوروف»، حيث صاحب الأرض الغني، الذي أهدر جميع أمواله وأموال أولاده، يهرب أيضاً، ويصل إلى النهر، يخلع ثيابه ويدخل إلى الماء. وعندما يخرج من الماء، يرتدي ثياب فلاح وجدها على الشاطئ ويبحر على متن باخرة في مقصورة من الدرجة الثالثة؛ في البداية، وحسب عادته، يذهب إلى الدرجة الأولى، لكنهم يطردونه منها.

مما لا شك فيه أن مسار الموت الوهمي، يبدو لتولستوي، ليس المسار الأكثر جاذبية، لكنه على أية حال، طريقة مقبولة لحل المشاكل المستعصية. فهو على أية حال، أفضل من إثم الانتحار. لكنه في الحياة سيجسّد هذه الفكرة جزئياً عندما يتخلى في بداية التسعينيات عن جميع ممتلكاته لمصلحة زوجته وأولاده، «كأنه مات».

في منتصف السبعينيات، حدث لتولستوي حادث كان نذيراً لما سيحدث له أثناء هروبه من ياسنايا بوليانا. لقد ضاع تولستوي... في منزله.

وقد تذكر سيرغي لفوفيتش تولستوي: «كان أبي قبل النوم يخلع ثيابه عادة ويغسل وجهه في غرفة تحت القاعة، التي كانت مكتبه سابقاً، ثم يذهب في رداء النوم إلى غرفة النوم المشتركة مع أمي في الأعلى. أنا وأخي إيليا كنا ننام في تلك الفترة في الغرفة الواقعة بين البوفيه وغرفة الخزائن. ذات يوم خريفي، استيقظت حوالي الساعة الثانية عشرة ليلاً على صرخة يائسة من أبي «صونيا، صونيا!» نظرت من الباب. في الممر كان الظلام دامساً. خرجت إلى الرواق وسمعت كيف ركضت أمي بسرعة على الدرج، تحمل شمعة في يدها.

وسألت بصوت قلق للغاية: «ماذا بك، ليفوشكا؟»

فأجاب: «لا شيء، لقد ضِعت»...»

في نهاية عام 1879، عندما كتب تولستوي «الاعترافات» وكان انقلابه الروحي قد أصبح بلا رجعة، اكتملت عائلة آل تولستوي. فقد ولد الابن ميشا. إن مدونة صوفيا أندريفنا في يومياتها التي سجلتها قبل يومين من الولادة، ترسم جواً قاتماً، قاسياً، ثقيلاً، خالياً من الهواء في ياسنايا بوليانا، حيث لا شيء يدعو إلى البهجة في العائلة الكبيرة التي كانت ودودة سابقاً:

«أجلس وأنتظر كل دقيقة الولادة التي تأخرت. إن المولود الجديد يدفع إلى الكآبة، والأفق كله تحرك، وأصبح قاتماً مظلماً، والعيش في الدنيا أصبح ضيقاً. الأبناء والمنزل كله في حالة متوترة... صقيع رهيب... ليفوشكا سافر إلى تولا... يكتب كثيراً حول مواضيع دينية».

مؤلم بشكل لا يوصف

إن شغف تولستوي بالكنيسة الأرثوذكسية يرجع إلى عام 1877، إلى بداية أزمته الروحية. لقد كان شغفاً بالذات، استسلم له بكامل عواطفه، كما يستسلم لأية هواية، لكنه ترك في نفسه راسباً مزعجاً للغاية.

لقد نشأ تولستوي في طفولته وتربى، بحيث لا يمكن لروح الشعر الاحتفالي الكنسي أن يخترق موقفه من العالم. كان أبوه وأمه متدينين يؤديان جميع الطقوس الدينية المرعية، وكانت عمتاه المقيمتان في ياسنايا بوليانا

في مرحلة طفولته، آ. ي. أوستن – ساكن و ت. أ. يرغولسكايا، شديدتي التدين (العمة الثانية كان لها أثر كبير عليه)، ولكن لا يصح القول إن الصبي تلقى التربية الكنسية العميقة.مكتبة مو حد ثاني

في قصة تولستوي الطويلة «طفولة» يصلّي بطل القصة الرئيس كثيراً وبحرارة، وبخاصة قبل أن يغفو. وهذه الحاجة للتوجه إلى الله بقيت بصورة دائمة عند تولستوي طوال عمره، حتى في مرحلة إلحاده عندما كان شاباً.

وتجسيداً لصورة والدته، التي لم يعرفها تقريباً، فقد صوّرها تولستوي في شخصية الأميرة ماريا بولكونسكايا في «الحرب والسلام». بيد أن كاتب سيرة تولستوي ن. ن. غوسيف، يعتقد أن أمه الحقيقية ماريا نيقولايفنا تولستايا لم تكن شديدة التدين، ولم يكن هناك تناقض جوهري بينها وبين الأب غير المتدين. يكتب غوسيف: «لم يكن هناك أي اختلاف ملحوظ في النظرة إلى العالم بين الأب والابنة، كما نرى في «الحرب والسلام» (في المسائل الدينية، على سبيل المثال)، في يوميات ماريا نيقولايفنا». ولكن من المعروف، أنها كانت على درجة رفيعة من الثقافة، وكانت تعرف أربع لغات أوروبية وتعرف اللغة الروسية معرفة ممتازة، وهذا كان نادراً بين النساء العلمانيات في ذلك الوقت. فهي التي تربت على يد أبيها، جد تولستوي، ن. س. فولكونسكي أرستقراطي القرن الثامن عشر المثقف، سعت لأن تغرس في أولادها أولاً ليس المحبة القلبية بل الإرادة والحصافة. وأولت اهتماماً كبيراً لنمو الأولاد العقلي، ولتربية عادة القراءة في وقت مبكر، وتربية الرجولة وحتى الوطنية عندهم، ولكن غير معروف لنا أي غرس جدي في نفوس الأبناء لمحبة الكنيسة من جانب الأم.

كان والد تولستوي أرستقراطياً عادياً بالنسبة لعصره، وكانت الكنيسة بالنسبة له، كما هي بالنسبة لجد تولستوي ليست أكثر من مؤسسة مدنية. نعم، إنها مؤسسة ضرورية للتكليل وحفل الزفاف، والتعميد وما شابه ذلك، وليست أبداً «ركيزة وإثبات الحقيقة». والأرستقراطية الروسية المثقفة كانت تنظر منذ القرن الثامن عشر إلى الطقوس الكنسية، في أفضل الأحوال، بالتسامح. ولنتذكر بداية رواية «الحرب والسلام»: فالأمير العجوز بولكونسكي وابنه أندريه – الملحدان بكل معنى الكلمة، يفسران تقوى

الأميرة ماريا الكنسي فقط بسوء مظهرها واستحالة عثورها على عريس وسيم. وقد كان النموذج البدئي الأصلي للأمير أندريه الأخ الأكبر لليف نيقولايفتش سيرغي نيقولايفتش. فحتى وفاته، بقي سيرغي رجلاً ملحداً، يسخر من الرداء الرهباني لأخته ماشا، عندما كانت تحل ضيفة عليهم في ياسنايا بوليانا أو في بيروغوفو، وكان يطلق على غطاء رأسها مازحاً، «الأسطوانة». وعندما طرحت مسألة المناولة وتناول القربان قبيل موته، توجهت زوجته المؤمنة، الغجرية السابقة، إلى ليف نيقولايفتش ليطلب من أخيه ألا يتخلى عن ذلك، لا سيما أن سيرغي نيقولايفتش رغب بذلك قبيل وفاته. أيد ليف نيقولايفتش نفحتهما، وقام أخوه بالاعتراف وتناول القربان.

ويكتب غوسيف: «كان موقف عمّات تولستوي من الكنيسة مغايراً. وخاصة عمته ألكسندرا إيلينتشنا، شقيقة والده. فقد كانت بائسة في حياتها الشخصية، وكانت تجد العزاء في الدين. وكان عملها المفضل الذهاب إلى الكنيسة، وأصحابها المفضلين - الجوّالين والجوّالات، والرهبان والراهبات، والجذْبان. وعندما كانت أم تولستوي على قيد الحياة كان الجوالون والجوالات يجدون مضافة وملجأ في ياسنايا بوليانا، وبعد وفاتها أصبحت أعدادهم أكبر بكثير. فكانت هناك نصف راهبة ماريا غيراسيموفنا، وكانت أيضاً أولغا رومانوفنا، وفيدوسيا، وفيودور، ويفدوكيموشكا وغيرهم. لم يمنع نيقولاي إيليتش أخته من استقبال الدراويش من الجوالين والجوالات، لكنه بما يتميز به من فكر سديد، لم يشاركها موقفها المتحمس من هؤلاء الناس». وفي هذا كان ليفوشكا متفقاً مع أبيه الذي كان يحترمه كثيراً. لكن ميول عمته الدينية غرست في نفسه خوفاً محدداً من الله. في مقطع من سيرته الذاتية «ما أنا؟» يروي كيف أنه أكل خبز القربان الذي أرسله الكاهن، ليس على الريق، كما هو مفروض، بل بعد أن شرب الشاي. وقد تعذب بعد ذلك كثيراً، ولاحظ لنفسه، بأن «الله قد عاقبه» على ذلك.

إن أعمق تأثير ديني على تولستوي كان تأثير العمة تاتيانا ألكسندروفنا يرغولسكايا. فقد عاشت في منزله منذ منتصف السبعينيات، وكانت على تواصل ودي مع تولستوي، وزوجته وأولاده. لكن آراء يرغولسكايا الدينية كانت متميزة للغاية، ومهما بدى الأمر غريباً، فقد سبقت التحديث الديني.

كانت تأخذ بجميع العقائد الكنسية باستثناء عقيدة عذاب الحياة الآخرة. أي أنها كانت تنفي وجود جهنم. وكانت تقول: «إن الله الذي هو الخير ذاته، لا يمكنه أن يرغب بآلامنا». وقد كتب الشيء نفسه في بداية القرن التاسع عشر الفيلسوف الديني ن. آ. بيردياييف. وهذا النفي نفسه للجحيم في الحياة الآخرة نجده أيضاً في آراء تولستوي الدينية. فقد كتب في عام 1884 لـ ف. غ. تشرتكوف: «أنا منذ طفولتي لم أكن أؤمن قط بآلام ما بعد الموت».

في مرحلة الفتوة والشباب، يبتعد تولستوي نهائياً عن الذهاب إلى الكنيسة، ليس بسبب عدميته الدينية بقدر ما هو بسبب انعدام وجود عادة التردد إلى الكنيسة وأداء الطقوس الذي كان ميزة للشباب من حلقته. فقبل الزواج لم يكن يخطر في أذهانهم، أنه من الضروري زيارة المعابد، وأداء الواجبات الدينية، والصيام، والاعتراف، وتناول القربان. ولنتذكر الحرج الذي شعر به كونستانتين ليفين عندما دخل المعبد أثناء التكليل. وقد عانى خلال ذلك من مشاعر حنونة عميقة، وذلك لأن ما كان يجري معه كأنه في الحلم، وليس في واقع جديد ما، بالنسبة له.

في أواخر السبعينيات، وبحثاً عن معنى الحياة والإيمان الراسخ، يتوجه تولستوي إلى الشعب الروسي البسيط، ويجد فيه وحده الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يدمر عقله التحليلي. لطالما شعر تولستوي بالذهول من الموقف الهادئ للفلاح والجندي الروسي من الموت. وهو في هذا لم يكن وحيداً. فلنتذكر قصيدة ليرمانتوف «بورودينو»، وقصة تورغينيف «الجثث الحية»، وأشعار نكراسوف. ولكن، إذا كان الفلاح لا يخاف من الموت، فهذا يعني أنه يعرف جواباً ما عن سؤال الوجود الرئيس: عن معنى الوجود الإنساني. فقد كان هذا اللغز دوماً مصدر قلق لتولستوي وكان السبب الرئيس لـ«شعبويته». وفي توجهه إلى الشعب البسيط للحصول على جواب عن معنى الوجود، لم يكن بإمكانه أن لا يعترف أن الشعب الروسي، بجوهره، شعب أرثوذكسي. ومن هنا أتت محاولة تولستوي في عام 1877 التوجه إلى الكنيسة وإلى أدب الحياة.

يصرخ تولستوي في «الاعترافات» من العجب: «كم من المرات كنت أحسد الفلاحين على جهلهم وأميتهم. فمن أحكام الإيمان التي كانت تبدو

لي هراء واضحاً، لم يظهر فيها بالنسبة لهم شيء زائف؛ وقد كان يمكنهم الأخذ بها ويمكنهم الإيمان بالحقيقة التي أؤمن بها. ولكن، بالنسبة لي، أنا البائس، كان من الواضح، أن الحقيقة متشابكة بخيوط دقيقة للغاية مع الكذب، ولا يمكنني قبولها على هذا الشكل».

إن صوفيا أندرييفنا، هي إنسانة مؤمنة وكنسية، قد فوجئت إلى حد ما بتلك العاطفة التي أبداها زوجها فجأة نحو الكنيسة.

وقد قالت في ذكرياتها عن أحداث عام 1877: «كان يراعي بدقة قواعد الصيام، لدرجة أنه في نهاية أسبوع الآلام اقتصر طعامه على خبز الجودار وحده وشرب الماء؛ والقسم الأكبر من الوقت كان يمضيه في الكنيسة. وقد عدا الأولاد بذلك فأخذوا يقلدونه؛ حتى أنا الحامل، كنت أصوم بدقة...»

وقد روت ابنة كاهن كنيسة كوتشاكوفو، الموجودة على مقربة من مقبرة آل تولستوي، لماكوفيتسكي: «كان يحدث أن أبي يذهب صباحاً إلى صلاة السحر، ويجد ليف نيقولايفتش جالساً على الحجارة. كان أبي يتردد كثيراً إلى ليف نيقولايفتش في بيته، ويعود من عنده في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. كانا يتحدثان كثيراً عن الإيمان».

سمع المأمور ف. ر. تشايفسكي من الفلاحين القصة التالية: «سادتنا، أي الكونت وعائلته كل عيد يزورون الكنيسة؛ يفدون بالعربات العائلية عدة أسر، أما الكونت نفسه فيأتي سيراً على الأقدام... قبل بداية القداس. نجلس نحن الفلاحين على رواق الكنيسة، ننظر والكونت يأتي، ويجلس معنا، ويتحدث عن الأحوال وعن الأمور الإلهية...»

الخادم سيرغي أربوزوف، الذي ذهب في عام 1881 مع تولستوي إلى أوبتينا، يتذكر عن عام 1877، أن الكونت، عند توجهه صباحاً إلى الكنيسة، سرج الحصان بنفسه، كي لا يوقظ الحوذيين.

كان تولستوي يفهم الدين بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة على أنه «ارتباط». لكن طقوس الأرثوذكسية لم تكن تعني بالنسبة له، بوضوح، الارتباط بالله، بل تعني، إن صح التعبير، ارتباطاً «أفقياً» – بأجداده، الذين كانوا يمارسون الطقوس نفسها، وبملايين الفلاحين الروس.

وقد كتب تولستوي في «الاعترافات»: «بأدائي لشعائر الكنيسة، سلّمت عقلي وأخضعت نفسي لذلك التقليد الذي كان لدى البشرية كلها. لقد ارتبطت مع أجدادي الذين أحبهم – مع أبي، وأمي، وأجدادي، وجداتي. فهم وجميع السابقين كانوا يؤمنون ويعيشون، وهم أنجبوني. كما اتّحدتُ مع الملايين من الناس الذين أحترمهم من الشعب».

بيد أن عقل تولستوي العنيد لم يستطع التوقف على أنه يتصرف مثل الجميع، وبالتالي، فهو يتصرف تصرفاً سليماً. فالتجربة الأولى للقربان بعد سنوات عديدة من التخلي عن هذا يثير فيه رفضاً روحياً.

«لن أنسى أبداً الشعور المؤلم الذي عانيت منه في ذلك اليوم، عندما تناولت القربان للمرة الأولى بعد سنوات عديدة. فالصلاة، والاعتراف، والقواعد – كل هذا كان مفهوماً بالنسبة لي، وترك في نفسي وعياً بهيجاً بأن معنى الحياة ينكشف أمامي. أما القربان نفسه فقد فسرته لنفسي كعمل يؤدى في ذكرى المسيح ويعني التطهير من الخطيئة، والقبول الكامل لتعاليم المسيح. حتى لو كان هذا التفسير مصطنعاً، فإنني لم ألاحظ اصطناعه. كنت سعيداً جداً بإذلال نفسي وإرضاخها أمام معلم الاعتراف، الكاهن البسيط، الخجول، وأن أقتلع جميع الأوساخ من روحي، وأعترف بجميع أخطائي، وكان من المفرح لي أن أندمج بأفكاري مع تطلعات الآباء الذين كتبوا قواعد الصلاة، ومن المفرح لي أن أتحد مع جميع الذين آمنوا ومع المؤمنين، بحيث إنني لم أشعر باصطناع تفسيري. ولكن عندما اقتربت من الأبواب الملكية وأرغمني الكاهن أن أكرر ما أؤمن به، وأنّ ما سأبلعه هو جسد حقيقي ودمّ، فإن هذا ضربني في قلبي، وعلاوة على أنه مذكرة مزيفة، فهو مطلب قاس من شخص ما، واضح أنه لم يعرف قط، ما هو الإيمان».

في هذه اللحظة، شعر تولستوي «بألم لا يمكن وصفه». وقد كتب في «الاعترافات»: «لكنني وجدت في نفسي شعوراً ساعدني على تحمل ذلك. إنه الشعور بإذلال الذات والخضوع. لقد خضعت، وابتلعت هذا الدم والجسد من دون مشاعر التجديف، مع الرغبة بالتصديق، لكن الضربة قد تم توجيهها بالفعل. ولمعرفتي ما قد ينتظرني مستقبلاً، لم أعد أستطيع الذهاب مرة أخرى».

لا الصيام، ولا الصلاة، ولا الاعتراف، ولا القربان بحد ذاته – لم تثر في نفسه الرفض، بل على العكس، أثارت شعوراً من البهجة (لنتذكر تعريفه للحياة بأنها «مسرة»). وقد شعر بالمسرة أيضاً عند قراءته لأدب الحياة، وخاصة «ميني الرابعة» (جداول الشهداء في الكنيسة الأرثوذكسية – المترجم). لكن طلب الكاهن منه بأن يثبت إيمانه بأن النبيذ والخبز هما دم وجسد المسيح كان «مؤلماً بشكل لا يمكن وصفه». هنا يتعثر الضمير العقلاني لتولستوي، ولا يمكنه قبول ذلك.

النقطة الثانية المهمة التي أبعدت تولستوي عن الكنيسة، كانت الطلب منه أن يصلي في المعبد من أجل السلطة والجيش. إن تولستوي لم يجد مثل هذا الطلب في الإنجيل بل وجد شيئاً معاكساً. ومن جديد، يتمرد ضمير تولستوي العقلاني، ويقاوم العنف الخارجي بإجباره على الإيمان بشيء لا يراه ولا يقبل به.

يتذكر ابنه إيليا لفوفيتش تولستوي: «أرثوذكسية أبي انتهت فجأة، وبشكل غير متوقع. كان الوقت صياماً. وقد أعدوا لأبي وللراغبين بالصيام غداء الصيام، أما للأطفال الصغار، والمربيات والمعلمين فأعدوا لهم اللحوم. الخادم الذي أحضر الأطباق، وضع الأطباق التي تحوي كرات اللحم على المائدة الصغيرة، ونزل إلى الأسفل لحاجة ما. فجأة يتوجه الوالد نحوي (كنت دائماً أجلس إلى جانبه) ويشير إلى الصحن ويقول:

– إيليوشا، أعطني هذه الشرحات.

– ليفوشكا، أنت نسيت، أن اليوم صيام – تدخلت ماما.

– لا، لم أنس، ولن أصوم بعد الآن، ومن فضلك لا توصي لي بعد الآن على طعام الصيام.

وعلى الرغم من رعبنا جميعاً، كان يأكل ويمدح الطعام. وعند رؤيتنا هذا الموقف من الأب، سرعان ما فتر اهتمامنا بالصيام، ومزاجنا المتدين المهيأ للصلاة انقلب إلى لا مبالاة كاملة بالدين».

Enfant terrible [1]

كان من المفترض، أن تولستوي الناضج، والمتزوج، قد ابتعد عن عادات الشباب المشاكسة، لكنه في أثناء أزمته الروحية عاد إليها من جديد. ففي موسكو سوف يخيط بصورة استعراضية الأحذية والجزمات عندما تتوجه زوجته وابنته إلى حفلات الرقص. وبحضور المعجبين بأدبه سوف يتحدث بعبارات ساخرة عن «الحرب والسلام» و«آنّا كارينينا»، وقد حدث هذا في مكتب مدير الثانوية الخاصة بوليفانوف، حيث ذهب لتسجيل ابنيه إيليا وليف. وقد كانت في المكتب زوجة المدير والمدرس السابق في ثانوية تولا، ماركوف، صديقه القديم، المعجب بأدب تولستوي.

«سأل ماركوف تولستوي، هل صحيح، أنه لا يكتب شيئاً الآن؟

– صحيح، – أجاب تولستوي بتحدٍ، – وماذا في الأمر؟

– كيف يمكن هذا؟ – صاح، متعجباً، ماركوف المعجب الشديد بأعمال تولستوي الروائية – كيف يمكن حرمان المجتمع من مؤلفاتك؟

أجاب تولستوي بهدوء:

– لو أنني فعلت أشياء سيئة، هل يجب علي الاستمرار في فعلها؟ فأنا في شبابي كنت أتردد على الغجريات، وأشرب الشمبانيا، وهل علي أن أفعل هذا من جديد؟

فرد يفغيني ماركوف، المهان بعمق، بعتاب ولوم:

– كيف يمكن إجراء مثل هذه المقارنات؟

ومرة أخرى، يسمع رد تولستوي الهادئ:

– حسناً، وإذا كنت أعتبر مؤلفاتي بالضبط، مثل هذا الهراء والانخراط في ممارسة «الفنون» عملاً لا يستحق؟»

ومن ذكريات زوجة بوليفانوف، ينتج أن تولستوي لم يعتبر مؤلفاته وحدها «هراء».

«لقد كان بوشكين قد كتب كثيراً من الهراء. وضعوا له تمثالاً. إنه يقف

1– طفل رهيب – وردت بالفرنسية في الكتاب الروسي الأصل

في الساحة، تماماً مثل خادم قصر يقدم تقريره، بأن الطعام جاهز... دعنا نشرح للفلاح معنى هذا التمثال ولماذا استحقه بوشكين».

في مارس/ آذار 1881 كتب تولستوي إلى القيصر ألكسندر الثالث رسالة وقحة، يرجوه فيها أن لا يعدم قتلة أبيه القيصر ألكسندر الثاني، بعد الحدث المشهور في 1 مارس/ آذار. وهذه الرسالة بذلك الشكل الذي حاول ن. ن. ستراخوف تسليمها إلى القيصر بواسطة بوبيدونوستسيف، غير معروفة لنا، لكن مسودتها بقيت محفوظة. إن الواقعة بحد ذاتها – أن ينصح نبيل القيصر بأن لا يعدم القتلة المباشرين لقيصر – يمكن أن تكلف نبيلاً آخر عواقب وخيمة. وهذا ما كانت تدركه جيداً صوفيا أندرييفنا التي وقفت بحزم ضد هذه الرسالة، ودخلت منذ البداية في نزاع مع زوجها بسبب ميوله «الانشقاقية». حتى إنها هددت «بطرد» المعلم المنزلي ف. ي. ألكسييف الذي أيد دافع زوجها. كانت تخاف على الأسرة وعلى الأطفال. لكن هذا المنطق ليس حجة بالنسبة لتولستوي. وقد سُلمت الرسالة لستراخوف، لكن بوبيدونوستسيف أخّرها.

ورداً على رسالة تولستوي، كتب له: «... لا تؤاخذني لأنني امتنعت عن تلبية طلبك. في مثل هذه القضية المهمة، يجب أن يجري كل شيء حسب العقيدة. وبعد قراءتي لرسالتك، رأيت أن عقيدتك شيء وعقيدتي وعقيدة الكنيسة شيء آخر، وأن مسيحنا ليس مسيحك. أنا أعرف مسيحنا بأنه رجل القوة والحقيقة، الذي يشفي الضعفاء، أما في مسيحك فقد رأيت ملامح الضعيف الذي يحتاج هو نفسه إلى من يشفيه. ولهذا، وبسبب عقيدتي، لم أستطع تلبية طلبك. لك مني الاحترام والإخلاص. ك. بوبيدونوستسيف».

إن الإشارة إلى «الضعف» وضرورة «الشفاء» من جانب عضو مجلس الدولة، الذي عين مؤخراً رئيس نيابة المجمع المقدس (السينودس) كانت شفافة للغاية. فقصة رسالة تشادايف (وهي لم توجه إلى القيصر بل إلى مستوى أدنى)، التي بسببها اعتبروه مجنوناً، مازالت حية في الذاكرة. ومن هذه الرسالة إلى القيصر ألكسندر يبدأ طريق تولستوي الانشقاقي. إن الرسالة لم تصل إلى القيصر، لكنه علم بمضمونها.

إن تولستوي ينخرط في مسار خطير، حيث لا ضمانة لسلامته سوى اسمه الأدبي الكبير. لكن هذا الاسم بالذات، هو أقل شيء يقدّره آنذاك. وفي الوقت نفسه، عندما كانت ابنته تانيا، كما يظهر من يومياتها، تقرأ بإخلاص «الحرب والسلام»، مثل جميع الفتيات المتعلمات في عصرها، كان أبوها مهتماً بمسألة كيف أن الرقابة لا تسمح بطباعة «اعترافاته» المعادية للكنيسة. يقول تولستوي: «إذا ما أردت وصف كيف أحبت سيدة ضابطاً، يمكنني ذلك؛ وإذا ما أردت أن أكتب عن عظمة روسيا ومديح الحرب، يمكنني جداً ذلك، ولكن الكتاب الذي تحدثت فيه عن معاناتي وأفكاري وهواجسي، فلا يمكنني حتى التفكير بطباعته في روسيا».

أطروحته الفلسفية – الدينية الجديدة «ما هي عقيدتي؟» (1884) فقد تولستوي الأمل بنشرها بعد أن ابتُرت «اعترافاته» من عدد شهر أيار/ مايو لعام 1882 من مجلة «روسكايا ميسل – الفكر الروسي». وقد طبعت الأطروحة بأموال تولستوي بخمسين نسخة في مطبعة كوشنيرف، وبعد فرض الحظر والتوقيف على هذه الطبعة من قبل الرقابة الروحية، تم توزيعها سراً في بطرسبورغ في المجتمع الراقي، يداً بيد. وهذه أصبحت بمنزلة «نشرة محظورة».

كانت صوفيا أندريفنا خائفة بصراحة، من احتمال أن تصبح زوجة منشق. وقد أخبرت زوجها في يناير/ كانون الثاني 1884: «قال لي ماراكويف (الناشر – *ملاحظة المؤلف*) إن الرقابة سلمت كتابك الجديد إلى الرقابة الروحية، وأن الأرشمندريت رئيس لجنة الرقابة الروحية، قد قرأه وقال إن هذا الكتاب يحوي الكثير من الحقائق السامية التي لا يصح عدم الاعتراف بها، وإنه من ناحيته، لا يجد أي سبب لعدم السماح بنشره. لكنني أعتقد أن بوبيدونوستسيف، بعدم لباقته وحذلقته، سيمنعه من جديد».

بالطبع، حُظر نشره. ولكن في هذه الحالة، كان الأهم موقف زوجة تولستوي من هذا الكتاب. في هذه الفترة، كانت تستعد لنشر مؤلفات زوجها، وكانت غير راضية تماماً، لأن «مؤلفاته» الجديدة يتم نشرها وتوزيعها من دون معرفتها.

«وجدتُ كوشنير (صاحب المطبعة - *ملاحظة المؤلف*) مريضاً، في الروب دوشامبر، واعتذر أشد الاعتذار، ولكن كنت بحاجة للحصول على النسخ، وسألته عنها. فقال - هذه بطاقتي، واسألي ماراكويف. ولكن بالأمس مساء أرسلت ابني سيريوجا إلى ماراكويف؛ لكن ماراكويف أعلن بكل بساطة، بما أن الجميع يهتمون بهذا العمل فقد وزع جميع النسخ عليهم وعلى المشتركين. فغضبت جداً حتى إنني ذهبت بنفسي إليه اليوم وقلت له إن «النسخ ليست نسخك، بل نسخ الكونت، وهو لم يطلب منك ولم يكلفك بتوزيعها. واسمح بأن أهل الكونت والمقربين منه لهم الحقوق نفسها بالاهتمام بمؤلفاته». وقد وعدني أن يحضر غداً نسختين؛ لكن لا تغضب مني، فقد تأكدت أكثر أنه شخص وقح للغاية، وعليك أن تكون معه أكثر حذراً» - تكتب صوفيا أندريفنا بسخط رسالة لزوجها في كانون الثاني/ يناير 1884 في ياسنايا بوليانا. إنها صرخة روح زوجة الكاتب التي تصطدم للمرة الأولى بحقيقة أن الغرباء يندسون في المصالح العائلية، مكتسبين حقوقاً لهم من مؤلفات زوجها الجديدة.

يقول فلاديمير جدانوف: «إن ما كان مصدر خير لتولستوي، انقلب الآن إلى شر بالنسبة له. وما كان يجعل الأسرة سعيدة - حياة ليف نيقولايفتش الروحية الإبداعية - أصبح الآن يجعلها بائسة. في السابق كان هو والأسرة يغذي أحدهما الآخر، بصورة متبادلة، والآن مصالحهما متناقضة، فالارتباط مقطوع، وقد دخلا في صراع، حيث يدافع كل طرف عن حقه في الحياة، يشتد حيناً، ويتصالحان حيناً آخر وينهار من جديد».

إن الدراما العائلية لآل تولستوي نجد شرحها الأكثر صراحة في ذكريات إيليا لفوفيتش الذي كان عمره يتراوح في تلك الفترة بين ثلاثة عشر وأربعة عشر عاماً. إنها مرحلة المراهقة الأكثر صعوبة، والمدعوة بالمرحلة «الانتقالية». وربما لأن الانقلاب الذي حدث في أبيه قد شعر به الابن بصورة حيوية، كما لو أن ليف نيقولايفتش في هذه الفترة كان يتصرف كمراهق راشد.

«هو، الذي اعتبر الحياة الأسرية مثالية، ووصف الحياة العائلية للسادة بحب في ثلاث روايات، وخلق محيطه الخاص المشابه، بدأ فجأة يدينها

ويصمها بشدة؛ هو، الذي أعدّ أبناءه للمدرسة الثانوية وللجامعة، حسب البرامج التي كانت آنذاك، بدأ يسم بالعار العلم الحديث؛ هو، الذي سافر إلى موسكو من أجل استشارة الدكتور زاخارين وطلب الأطباء إلى منزله لزوجته وأولاده من موسكو، بدأ ينكر الطب؛ هو، الصياد المتحمس، صياد الدببة، ومعه الكلاب السلوقية ورامي الأسهم على الطرائد، بدأ يدعو الصيد «مطاردة الكلاب»؛ هو، الذي جمع الأموال طيلة خمسة عشر عاماً واشترى في سامارا أراضي بشكيريا الرخيصة، أخذ يسمي المُلكية جريمة والمال فجوراً؛ وأخيراً، هو الذي كرس حياته كلها للأدب الراقي، أخذ يندم على نشاطه الأدبي وكاد يهجره إلى الأبد».

ويكتب إيليا لفوفيتش لاحقاً: «وماذا كان على أمي أن تعاني في هذا الوقت! كانت تحبه بكامل كيانها. إنها خُلقت من قبله تقريباً. فمن طينة لطيفة حميدة، كما كانت صونيا بيرس ابنة الثمانية عشر ربيعاً، شكل أبي منها زوجة له، كما كان يريد، فاستسلمت له بالكامل، وعاشت من أجله – وها هي ترى أنه يعاني بقسوة، وبمعاناته، يبدأ بالابتعاد عنها، أكثر فأكثر، واهتماماتها التي كانت في السابق اهتماماتهما المشتركة، أخذ ينتقدها، وبدأ يتبرم بالحياة المشتركة معها. وأخيراً بدأ يخيفها بالفراق والانفصال النهائي، وفي هذا الوقت كان لديها عائلة كبيرة وصعبة. من أطفال من سن الرضاعة وحتى تانيا في السابعة عشرة من عمرها وسريوجا في الثامنة عشرة من عمره.

وماذا تفعل؟ هل كان بإمكانها آنذاك أن تتبع رأيه، وتوزع كل ممتلكات الأسرة، كما كان يريد، وتحكم على الأولاد بالفقر والجوع؟

كان أبي في تلك الفترة في الخمسين من عمره، بينما كانت أمي في الخامسة والثلاثين. أبي – خاطئ تائب، أما أمي، فليس لها ما تتوب عنه. أبي – بقوته الأخلاقية الهائلة وعقله، وهي – امرأة عادية؛ هو – عبقري، يسعى إلى الإحاطة بنظرة واحدة، بأفق الفكر العالمي كله، وهي – امرأة عادية بغرائز الأنثى المحافظة، التي بنت عشها وتقوم بحمايته.

وأين المرأة التي كان يمكنها أن تتصرف خلاف ذلك؟ أنا لا أعرف مثلهن لا في الحياة، ولا في التاريخ، ولا في الأدب.

في هذه الحالة، من الممكن الإشفاق على والدتي، ولكن لا يمكن إدانتها. لقد كانت سعيدة في السنوات الأولى من حياتها الزوجية، ولكن بعد الثمانينيات، تلاشت سعادتها ولم تعد.

ولكن، أكثر من الجميع، كان أبي يعاني».

في هذه الفترة، تكتب صوفيا أندريفنا لأخيها: «لو عرفت وسمعت الآن ليفوشكا. لقد تغير كثيراً. لقد أصبح المسيحي الأكثر صدقاً وثباتاً. لكن الشيب غزاه، وأصبحت صحته واهنة وأصبح أكثر هدوءاً، واكتئاباً مما كان».

وتكتب بسخرية قلقة لأختها: «ليفوشكا يعمل باستمرار، بحسب تعبيره، ولكن للأسف، إنه يكتب أحكاماً دينية، كي يظهر كيف أن الكنيسة لا تتفق مع تعاليم الإنجيل. ومن الصعوبة بمكان، العثور في روسيا على عشرة أشخاص سوف يهتمون بهذا الموضوع. وليس هناك ما يمكنني فعله، أتمنى شيئاً واحداً أن ينتهي هذا بأسرع وقت، وأن يمر، إنه كالمرض».

من السهل الإمساك بصوفيا أندريفنا من خلال كلماتها، وإثبات عدم حساسيتها تجاه تنقيات زوجها الروحية، ومدى خطئها في تنبئها حول الأشخاص «العشرة» الذين سيهتمون بها. لكن أبحاث تولستوي في تلك الفترة أثارت حيرة فيت وتورغينيف أيضاً، وحتى هذا الشخص القريب بروحه من تولستوي مثل ستراخوف، كان غير متفق معه. وأخيراً، فقد أثار هذا الانقلاب الروحي نزاعاً خطيراً بين ليف نيقولايفتش وعمته آ. آ. تولستايا، تلك التي اعتادت صوفيا أندريفنا اعتبارها أعلى منها بمسافة رأس.

وقد حازت صوفيا أندريفنا على دعم أقاربها لها. ففي 3 آذار/ مارس 1881 (أي بعد يومين من اغتيال القيصر، وبعده سار تولستوي صراحة على طريق الانشقاق) تكتب لأختها أن أخاها ألكسندر بيرس، الذي حل ضيفاً عندهم في ياسنايا بوليانا، وجد في ليف نيقولايفتش «تغيراً نحو الأسوأ، أي يخاف على عقله». وتضيف من عندها أن «المزاج الديني الفلسفي هو الأشد خطراً».

أسير موسكو

يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: ماذا لو أن أسرة آل تولستوي، في عام 1881، لم تغادر ياسنايا بوليانا إلى موسكو؟

ربما لم يكن ليحصل هذا التنافر الذي لا رجعة عنه؟ ولما تغيرت آراء تولستوي إلى هذه الدرجة، بحيث أصبحت في تناقض مباشر مع آراء أفراد أسرته؟

كان انتقال الأسرة بسبب الضرورة. فقد كبر الأولاد الأكبر سناً، سيرغي وتاتيانا. سيرغي كان يستعد للانتساب لجامعة موسكو. وتاتيانا أصبحت فتاة بالغة، وحان الوقت لإخراجها إلى المجتمع. علاوة على ذلك، حققت تاتيانا نجاحاً في الرسم وأرادت الانتساب إلى معهد الرسم والنحت. إيليا وليف كانا بحاجة للدراسة في المدرسة الثانوية. فالإعداد المنزلي لسيرغي، مع تقديم الامتحانات سنوياً في تولا، تبين أنه مسألة مزعجة. كما أن مصالح النشر لتولستوي وزوجته كانت بحاجة للانتقال إلى موسكو. وهذا كانت تدركه ليس صوفيا أندريفنا وحدها بل تولستوي نفسه أيضاً. وقد كان، بخوف كبير، ينتظر الانتقال، ويتخوّف منه. لكنه خضع واستسلم للأمر.

لم يكن تولستوي يحب موسكو.

في قصته الطويلة «طفولة» نجد العلامات الأولى لعدم محبته لها. عند زيارته لموسكو، نيكولنكا إيرتينييف فوجئ بعدم ارتياح من مظهر سكان المدينة: «لا يمكنني أن أفهم، لماذا توقف الجميع عن الاهتمام بنا في موسكو – ولم يرفع لنا أحد قبعته، عندما يمر، حتى أن بعضهم كان ينظر إلينا نظرة عدائية». هذه وجهة نظر طفل، ولكن لا ننسى، أنه بحلول زمن الانتقال إلى موسكو، بدأ تولستوي يطرح على نفسه أسئلة غبية، بسيطة، طفولية.

إن المدينة الكبيرة قد أثارت في نفسه كراهية جمالية وأخلاقية. ويصعب الفهم، أيهما أكثر هنا. على سبيل المثال، كان شعور تولستوي الجمالي يتأذى من منظر الشرطي الواقف في منتصف الشارع بمسدسه الكبير. وقد بدا له هذا سخافة مثل سخافة الخادم، ذي الخوذة وبرأسها الشيشة، الذي كان يرافق زوجته المقبلة في الكرملين، عندما كانت فتاة صغيرة.

كانت موسكو في السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر مدينة مبرقشة، ترتبط فيها بصورة مذهلة منجزات حضارة المدينة بحياة القرية القديمة. وباستثناء بضعة شوارع رئيسة، فقد كانت مجموعة من عزب السادة النبلاء المتلاصقة والمتقاطعة بعضها مع بعض، بفوضى وبلا نظام. على أية حال، هكذا بدت موسكو لتولستوي الذي يتمتع بمهارة بصرية عمرها سنوات طويلة، تربّت على المناظر الطبيعية والبنية التحتية لعزبة ياسنايا بوليانا. إنها قرية كبيرة.

وقد كتب المؤرخ م. م. بوغوسلوفسكي عن موسكو في السبعينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر: «ذلك الجزء من موسكو، الممتد من ضفة نهر موسكفا وتقريباً حتى مالايا دميتروفكا وطريق العربات، ذلك الجزء الذي تمر في نصفي قطره شوارع أوستوجنكا، بريتشينستنكا، آربات، بوفارسكايا، نيكيتنسكي الكبير والصغير، مع المتاهات المتشابكة من الأزقة بينها – كانت في غالبيتها للنبلاء والموظفين. وهنا، وضمن حدود طريق سادوفايا الدائري، وخارج هذا الطريق في بعض الأماكن كانت تقوم على الشوارع الرئيسة قصور السادة الكبيرة – قصور بأعمدة وتماثيل من طراز إمبراطوري empire. وهنا، وفي الشوارع الرئيسة، وفي الأزقة، كان العديد من القصور الخشبية، غير الكبيرة، من طابق واحد، مع طابق علوي أو علالي للنبلاء، وكثيراً ما تكون أيضاً مزينة بالأعمدة والتماثيل، التي تظهر عليها الشعارات والقبعات والعباءات الأميرية أو تيجان النبلاء وخوذات الفرسان وريش النعام. وهذه القصور الكبيرة والصغيرة تشبه إلى حد كبير منازل النبلاء في ضواحي موسكو والمناطق الأبعد، لا سيما أن ساحاتها تضم الكثير من الخدمات والمباني الملحقة – كالحظائر، والأقبية، والإسطبلات، والآبار – ولا تختلف إلا قليلاً عن عقارات القرية وعزبها لأصحابها أنفسهم. لم يكن للشارع الموسكوفي آنذاك واجهتان عاليتان، صلبتان، ممتدتان تنظر الواحدة إلى الأخرى بملل، حيث كل بناء ينتقل بصورة غير ملحوظة إلى البناء الآخر. آنذاك كانت تحد بين المنزل والآخر ليس واجهات المنازل، بل الملكيات المنفصلة على شكل عزب، منفصلة الواحدة عن الأخرى بأسوار من الأشجار. وكانت تقود إلى هذه المنازل، على الغالب، بوابات خشبية،

مفتوحة غالباً، للانتقال من الشارع إلى الباب الأمامي للشرفة. ومما يزيد من شبهها بالعزب الريفية كثرة الخَضار والأشجار. ويندر جداً أن لا يكون في هذه القصور على الأقل حديقة صغيرة. بينما كانت الحدائق في عزب وقصور أخرى كبيرة وضخمة، تشبه الحدائق العامة».

هكذا بدت موسكو في الثمانينيات، حيث كان على تولستوي أن ينتقل إليها. إن استبدال القرية بالمدينة شيء. والانتقال من عزبته البسيطة، من حصنه الحر، إلى حشد من القلاع والحصون الغريبة شيء آخر تماماً.

وحتى الجزء الحضري المديني من العاصمة لم يرضِ ذوق تولستوي الجمالي. وقد قال متذكراً موسكو في ذلك العصر كاتب ذكريات آخر هو ن. ف. دافيدوف: «إن شارع تفيرسكايا، وبخاصة جسر كوزنيتسكي قد حققا نجاحاً كبيراً فيما يتعلق بمظهر المخازن الموجودة فيهما، لكن غالبية المؤسسات والمحلات التجارية في الشوارع الأخرى حافظت على يافطاتها التي تعود إلى العصور القديمة، بكتاباتها وصورها المضحكة غالباً، التي تصور بسذاجة جوهر الشركة التجارية؛ وتلفت النظر خاصة «محلات التبغ»، التي كان يجلس فيها بالضرورة على جانب واحد من الباب الأمامي رجل آسيوي الهيئة في عمامة، يدخن الغليون، وفي الجانب الآخر زنجي أو خلاسي (في الحالة الأخيرة – في قبعة من القش)، يمص سيجاراً، أما صالونات الحلاقة فكانت تصور في يافطاتها عادة، عدا الرؤوس النسائية والرجالية الممشطة، الأوعية الزجاجية مع العلقات، وحتى مشاهد إخراج الدم؛ وفي المخابز كانت توضع صور أنواع الخبز مثل كالاتشي، والبريتزل وسايكي، وفي محلات المستعمرات – رؤوس من السكر، والشموع والثمار، ومن ثم الصناديق والبالات للإبحار بعيداً على ظهر السفينة؛ وعلى لافتات الخياطين رسمت مختلف أنواع الثياب، ولدى باعة الرداء الروسي – ستر الحوذيين والخطاطيف؛ وصور القبعات، والصواني مع أطقم الشاي، وأطباق مع الخنازير والنقانق، والمرتديلا، والجبن، والأحذية، وحقائب السفر، والنظارات، والساعات – وباختصار، لم يأمل التجار بثقافة الجمهور ولا بالعرض الداخلي لمعروضاتهم، وقدموا للمشترين بضاعتهم بصورة مرسومة وملونة سمجة، زد على ذلك، أن اللافتات ذاتها كانت قميئة وبعيدة عن الجمال بالكامل...»

علاوة على ذلك، فإن للمدينة الكبيرة مشكلة كبيرة من وجهة نظر الصرف الصحي. يكتب ن. ف. دافيدوف: «إن موسكو حتى الآن (عام 1914 - *المؤلف*)، وعلى الرغم من تمديدات مياه الشرب والصرف الصحي، لا يمكنها الوصول إلى هواء نظيف، ومن الأفضل عدم الاقتراب حتى الآن من بعض الأفنية والأحواش، ولكن في الستينيات كانت الرائحة تهيمن بدرجات مختلفة فوق موسكو. هذا دون الحديث عن عربات القاذورات العديدة البدائية، السيئة التنظيم، التي تتألف غالباً من أحواض تحرك محتوياتها أثناء الحركة وفي أفضل الأحوال، براميل خشبية عادية غير مغطاة بمغارفها الكبيرة البارزة، تبدأ حركة قوافلها في جميع الشوارع بعد منتصف الليل، وأحياناً قبل ذلك، وتستمر حتى الصباح، مسمّمة، حتى في فصل الشتاء، الحي بكامله، - والرائحة الكريهة كانت منتشرة - بدرجة أقل أو أكثر - في جميع ساحات الأبنية التي ليس فيها أية تجهيزات خاصة وأية حفر تصريف أو بالوعات. إن أماكن وقوف سائقي العربات، الساحات، «الخانات»، والمطاعم الشعبية وغيرها من الأماكن المشابهة، وأخيراً جميع زوايا الشوارع تقريباً، رغم وجود لوحات في الأسفل، وزوايا وشقوق مختلفة (وكانت أعدادها كثيرة)، وبوابات المنازل المغطاة، رغم وجود عبارة «ممنوع منعاً باتاً»، - هذه كلها كانت بؤراً للهواء الفاسد...»

نشأ النزاع الأول عند تسجيل الأولاد في الثانوية. في البداية، كان ليف نيقولايفتش يود تسجيل إيليا وليف في ثانوية حكومية عادية. ولكن هناك طالبوه بالتوقيع على جدارة الأبناء بـ «الثقة». وقد أثار هذا غضب تولستوي! «لا يمكنني إعطاء هذا التوقيع حتى عن نفسي، فكيف أعطيها عن أبنائي». وبالنتيجة. قرروا تسجيلهم في ثانوية بوليفانوف، حيث لا يُطلب مثل هذا «التوقيع».

كانت ثانوية بوليفانوف جيدة ومناسبة أيضاً، لأن منزل الأميرة س. ف. فولكونسكايا في جادة دينيجني، بين شارعي بوفارسكايا وأوستوجينسكايا، الذي عثرت عليه صوفيا أندريفنا، والذي استأجرته أسرة تولستوي في خريف عام 1881، كان مجاوراً للثانوية. إن أحد الأسباب الرئيسة التي جعلت تولستوي يوافق على الانتقال إلى موسكو، كان *الخوف على*

الأطفال. فقد كان من غير الممكن الحديث عن إقامة إيليا وليف في نُزل خاص، ولا أن يبقى سيرغي الشاب في موسكو وحده من دون رقابة والديه الدائمة. فقناعات تولستوي البطريركية (الأبوية) في التربية البيتية لم تتزعزع قط بتأثير ميوله المعادية للكنيسة وللدولة.

أحد أسباب انتقال تولستوي إلى موسكو كان خشيته من تعرض أبنائه في الثانوية والجامعة لتأثير النزعة العدمية عند الشبيبة. فهو يذكر جيداً سنوات دراسته في جامعة قازان، حيث اضطر إلى الذهاب إلى عيادة الأمراض الزهرية. ومن ناحية أخرى، فإن تولستوي، برؤيته الدينية الجديدة، لم يكن لديه أي أساس لأن يحب الجامعة عامة، وكلية العلوم الطبيعية خاصة التي انتسب إليها ابنه سيرغي. فتولستوي، المناهض للداروينية (من هذه الناحية كان حليفاً لستراخوف الذي ألّف كتاباً ضد داروين) لم يسامح ابنه حتى آخر أيامه على هذا الاختيار. وقبل موته بفترة قصيرة، أثناء وجوده في أستابوفو، أملى تولستوي على ابنته ساشا رسالة لسيرغي وتاتيانا، وردت فيها الكلمات التالية: «أردت أن أضيف لك، سيريوجا، نصيحة بأن تفكر في حياتك، من أنت وماذا أنت، وما هو معنى حياة الإنسان وكيف يجب أن يعيشها كل إنسان عاقل. إن ما تعلمته من آراء الداروينية والارتقاء والصراع من أجل الوجود لا تفسر لك معنى حياتك ولا تقدم لك دليلاً مرشداً في تصرفاتك، والحياة من دون تفسير أهميتها ومعناها، ومن دون ما ينتج من ذلك من إرشاد ثابت هي وجود بائس. فكر في هذا الأمر، ولمحبتي لك، على الأغلب، أقول لك هذا، عشية موتي».

تعليقاً على هذه الرسالة، يكتب سيرغي لفوفيتش أنه بحلول عام 1910، آراؤه قد «تغيرت إلى حد كبير». ويبدو أن أباه تذكر مناقشتهما في مرحلة الدراسة الجامعية.

لم يرق للأب اختيار الابن للكلية، ولم ترقه الجامعة عموماً، لكنه كان يهتم أكثر من الجميع بأن يستعد سيرغي بجدارة للامتحانات الجامعية.

إن ليف نيقولايفتش بالذات هو الذي كان يبحث للأطفال عن مدرّسي المنزل، مثل المدرسين الأجانب والمعلمين. واتفق بحيث أن سيريوجا

الذي كان يدرس في البيت تمكن سنوياً من تقديم الامتحانات في ثانوية تولا على قدم المساواة مع التلاميذ العاديين. وكما يبدو من رسائله، كانت نتائج هذه الامتحانات تثير اهتمامه وقلقه كثيراً.

وفجأة، وبعد الانتقال إلى موسكو، بدأ الأب يشتُم الجامعة بحضور الابن، ويتحدث عن العلم عامة بصورة سلبية. في ذكرياته، ينقل سيرغي لفوفيتش تصريحات والده الشفوية عن العلم والعلماء التي سمعها أثناء مناقشاتهما:

«العلم يهتم بكل شيء، عدا المسائل الواجب معرفتها، وكيف يجب أن نعيش».

«لا يميز العلماء بين المعرفة المفيدة والمعرفة غير اللازمة. إنهم يدرسون تلك المواضيع غير الضرورية، مثل الأعضاء التناسلية للأميبا، لأنهم بذلك يمكنهم العيش بطريقة محترمة كالسادة».

«يتلقى جميع العلماء مرتباتهم من الدولة، وليس أنهم لا يستطيعون قول الحقائق التي لا ترضي الحكومة، بل عليهم أن يرقصوا على مزمارها...»

لا يمكن لأي عدمي، ولا يمكن لأي شخص عدمي النزعة مثل بازاروف[1] أن يقول بحضور سيرغي شيئاً من هذا القبيل. فالقوة المدمرة لإنكار الأب كانت عظيمة لدرجة أن الشاب، ابن الثمانية عشر ربيعاً، أصيب بالذهول. أين كان أبوه على حق؟ عندما بذل المال وقواه الروحية من أجل إعداده للجامعة، أو عندما كان يندد بالعلم والعلماء؟

في «مذكرات مسيحي» – نوع من اعترافات تولستوي في أوائل الثمانينيات، يرِد اسم الابن الأكبر مراراً. مما لا شك فيه، أن تولستوي كان يشعر بذنبه تجاهه، لكنه لم يستطع التخلص من هذا الموقف العدائي من الابن. ويظهر من اليوميات أنهما كانا يتجادلان باستمرار، زد على ذلك، أن الأب هو الذي كان يحث ويستفز للجدال، وكان الابن مضطراً لصده. ويكتب تولستوي: «لقد اعترف سيريوجا بأنه يحب الحياة الجسدية ويؤمن بها» ويلاحظ بفتور: «يسعدني هذا الطرح الواضح للمسألة».

1- بازاروف – طالب – عدمي، شخصية في رواية تورغينيف الشهيرة «الآباء والبنون» – المترجم

وماذا بالنسبة لتانيا؟ إنها فتاة في السابعة عشرة من عمرها، بالطبع كانت تحلم بالانتقال إلى موسكو! وليس لأنها أرادت الانتساب إلى معهد الرسم والنحت فقط. فموسكو هي حفلات الرقص، والأزياء، والمعجبين. إضافة إلى هذا كله، تانيا لم تكن غير مبالية. إنها فتاة ذكية، ذات تعليم جيد، وذات موهبة أكيدة في الرسم، وهي أيضاً فتاة ريفية عادية، وآنسة متحمسة لـ «روايات» الحب. كانت تحب سراً تربها كوليا كيسلينسكي، ابن رئيس مجلس مقاطعة تولا. وكان يغازلها صديق أخيها سيريوجا، الأكبر منها بسنوات، أنطون ديلفيغ، ابن أخي الشاعر الشهير والصديق بوشكين، ابن أصدقاء تولستوي آل ديلفيغ من تولا. لقد قرأت «الحرب والسلام»، وكان تعاطفها إلى جانب ناتاشا روستوفا وليس الأميرة ماريا. وكانت معبودتها بين النساء العمة تانيا كوزمينسكايا.

لقد كتبت هذه الفتاة الرائعة، هي نفسها، بصورة تستحق الذكر في مذكراتها، ما كان يدور في رأسها. لكن مدونتين في يومياتها لعامي 1879 و1880 تعبران أفضل تعبير عن حالتها الذهنية والروحية.

«على شجرة عيد الميلاد، أهدوني منظاراً، وأوراق طغرة بالأحرف الأولى من اسمي بـ4 روبلات و50 كوبيكاً. وأرسلت لي جدتي خاتماً من بطرسبورغ. وأهدتني أمي أيضاً مؤلفات أبي ومزهريتين، وزجاجة عطر ورواية إنكليزية «Jane Eyre»[1]...»

«أنا أعرف، ماذا كان يرغب أبي: هو كان يرغب بأن أكون الأميرة ماريا، بأن لا أفكر أبداً بالمرح، ولا بآل ديلفيغ، ولا بكوليا كيسلينسكي، وإذا كان هذا ممكناً، أن لا أسافر بعد الآن إلى تولا. ولكن لقد فات الأوان: ولماذا أخذوني إلى هناك في المرة الأولى؟».

من هذه الأسطر القصيرة ترتسم صورة كبيرة لتانيا الشابة. يبرز فيها عقلها، وجاذبيتها، وثقافتها، وقدرتها على حساب النقود، وإحساسها بالشكر لهدايا الأهل، وقوة الملاحظة النفسية، والمهارة المبكرة على تحليل الذات. وكل هذا جاء نتيجة التربية الأسرية الطويلة والشاملة، التي لعب فيها

1- رواية الكاتبة الإنكليزية شارلوت برونتي «جون إير» - المؤلف.

الأب دوراً بارزاً لا يقل أهمية عن دور الأم. وقد اعترفت فيما بعد ت. ل. سوخوتينا – تولستايا «أن تأثير الأب في البيت كان أقوى من تأثير الأم. وهذا كان يدركه الجميع».

«عندما انزلقت تانيا على الأرض المغطاة بالمشمع، وانكسر عظم الترقوة عندها، أخذها أبوها إلى أفضل جراح في موسكو، وكان يسأله فيما إذا كانت ستبقى أية آثار بعد العملية؟ «كان يريد أن يتأكد أنه لن تظهر أية سماكة ملحوظة، عندما اضطر لإظهارها ذلك في تواليت حفلة الرقص...»

في موسكو، قاد تولستوي بنفسه ابنته إلى أول حفلة رقص وقدّمها للناس من مجتمع المدينة الراقي، من الذين احتفظ بصلاته القديمة معهم.

عند قراءتنا لـ «مذكرات مسيحي» نرى موقفاً مغايراً تماماً من الأب نحو ابنته. ولكن علينا أن نعرف، أن هذه اليوميات، من حيث الجوهر، هي سجل لمعاناة بلا نهاية للشعب. لقد تفتحت عينا تولستوي. إنه يرى الآن من حوله، ما كان يراه سابقاً، لكنه لم يلاحظه. إن الشعب البسيط يجوع، ويمرض بمختلف الأمراض، ويموت «من الكآبة»، من السل الرئوي، ويفقد آخر معيليه، ولا يعرف ما يُطعم أطفاله الصغار، ويتعرض للعقوبات الجسدية لأدنى خطأ يرتكبه ويصبر بصمت على هذا كله.

«فلاح من شوكينو. مصاب بالسل الرئوي. قيح ممزوج بالدم، عرق. منذ عشرين عاماً يسعل ويتقيح دماً».

«كنّة يغور، الذي فقد ذراعه. جاءت على الحصان تطلب صدقة»

«فلاح سكير كان ينظف حزمة أغصان بالمنجل، فقطع أنفه».

«صبي من كولبينو عمره 12 عاماً، هو الأكبر، وله شقيقان أصغر منه عمرهما 9 و6 سنوات. مات أبوهم وأمهم».

«جندي من شوكينو يعاني من الحمى».

«إيفان كولتشانوف احترق».

«امرأة من سوداكوفو. حدث عندها حريق. فخرجت من النار كما كانت. الابن يقترب من النار. لا فرق عندي، لا يوجد حصان. الحصان أخذه القضاة».

«مريضة من شوكينو مع فتاة صغيرة مشت ثلاثة أيام لتراني طلباً للمساعدة».

«شقيق من بوديفانكوفو، أخته مريضة، أنف أخته متقيّح».

«فلاح من سالاماسوفسكويا. بقرته ماتت».

«عاهرة متغندرة عرجاء. تطرد ابن عمها».

«امرأة محروقة، حِرفية مع طفل، الطفل مات محترقاً، وزوجها مصاب بحروق...»

هذا جزء صغير من الحزن البشري والشر العالمي، الذي يطغى على «مذكرات مسيحي»، محولاً إياها إلى قراءة مؤلمة. لقد أصبحت نظرة تولستوي انتقائية. فهو من حوله لا يرى سوى الكوارث والآلام والمعاناة. إنه مثل بوذا، الذي حموه في طفولته وشبابه من مشاهد آلام الناس، ولكنه عندما رآها، لم يعد بإمكانه رؤية شيء غيرها.

وعلى خلفية هذا كله – الأسرة. في المنزل عيد. الجميع يتهيؤون للذهاب في نزهة. «عندنا حفل غداء كبير مع الشمبانيا. تانيا وتاتيانا كوزمينسكايا متزينتان في أزهى حلة. وأحزمة ثمينة بخمسة روبلات لدى جميع الأطفال. يتناولون طعام الغداء، وقد بدأت العربة تنطلق في نزهة بين عربات الفلاحين التي تنقل الشعب المنهك من العمل».

وهذا كله يجري في ياسنايا بوليانا وليس في موسكو. لكن تولستوي لم يعد قادراً على النظر إلى أهله وأحبائه كما كان ينظر إليهم من قبل. «صونيا تمر في نوبة. أنا اجتزت الأزمة بشكل أفضل، ولكن لا أزال بوضع سيئ. عليّ أن أفهم أنها مريضة، وأن أشفق عليها، ولكن لا يمكن الإعراض عن الشر. – الحديث مع تانيا حول التربية استمر حتى الصباح – إنهم ليسوا بشراً».

هذا الموقف الجديد من النساء من جانب مؤلف «سوناتة كروتز» سوف يرتد على ابنته التي تعد نفسها بصبر في هذه الفترة لتصبح امرأة. ومنذ أن كان في ياسنايا بوليانا، كما جاء في اليوميات، كان تولستوي «يوقظ» زوجته وابنته، ويشاكسهما، ويستفزهما نحو النقاش، وفيما بعد يعاني هو نفسه من ردة فعلهما.

وها هم الآن في موسكو...

«نتن، حجارة، رفاهية، بؤس، فجور. لقد اجتمع الأشرار الذين سرقوا الشعب، وعبأوا الجنود والقضاة لحراسة حفلاتهم الخلاعية، ويحتفلون. ولا يبقى أمام الشعب سوى استغلال عواطف هؤلاء الناس لاسترجاع ما سرقوه منه. والرجال هم أكثر مهارة. النساء في بيوتهن، أما الرجال فيمسحون الأرضيات والأجساد في الحمامات، ويعملون حوذيين في العربات».

وماذا في البيت؟ «كل شيء يجري ترتيبه. ومتى يبدؤون حياتهم؟ كل شيء ليس للعيش، بل لكي يكونوا مثل الناس. يا لهم من بؤساء! وليس هناك حياة».

البيت الذي عثرت عليه صوفيا أندرييفنا في جادة دينيجني كان صاخباً، «بيت من كرتون». والجدران بين الغرف كانت رقيقة، بحيث كان يُسمع كل ما يقال ويجري في الغرف الأخرى. ومن أجل إرضاء زوجها، اختارت صوفيا أندرييفنا لمكتبه غرفة كبيرة تطل نوافذها على الفناء وتقع بعيداً عن بقية الغرف. لكنها كتبت في مذكراتها: «بيد أن هذا المكتب الرائع قد دفع ليف نيقولايفتش إلى اليأس لاحقاً، لأنه كان واسعاً للغاية، وفي غاية الفخامة».

قبل عشرين عاماً تقريباً، عندما جلب ليف نيقولايفتش صونيا إلى بيته العزّابي في ياسنايا بوليانا، لم يكن من السهل عليها، وهي ابنة المدينة التعوّد والتكيف مع الحياة الريفية. والآن، هما تبادلا دوريهما. وقد كتبت صوفيا أندرييفنا لأختها: «أخيراً، أصبح لدينا تفسير. يقول ليفوشكا، لو أنني كنت أحبه وأفكر بحالته النفسية، لما اخترت له هذه الغرفة الكبيرة، حيث لا يوجد هدوء لدقيقة واحدة، وحيث أية كنبة يمكن أن تشكل سعادة للفلاح، أي أن هذه الـ 22 روبلاً – قيمتها – يمكنها أن تشتري له حصاناً أو بقرة، لدرجة أنه يود البكاء وما شابه ذلك.».

وتكتب من جديد لأختها: «كنت أبكي يومياً وباستمرار طوال الأسبوعين الأولين. لأن ليفوشكا لم يصب بالكآبة فحسب، بل حتى في خمول يائس. إنه لم يكن ينام، ولا يأكل بكل معنى الكلمة، ويبكي أحياناً، حتى إنني ظننت أنني سأفقد عقلي».

وكي يعمل في ظروفه المألوفة، يستأجر ليف نيقولايفتش، بصورة إضافية، غرفتين صغيرتين في الخارج، مقابل ستة روبلات في الشهر.

ولكن ماذا يكتب؟ العمل الوحيد الذي أنجزه في عام 1881 كان قصة قصيرة «كيف يعيش الناس» لمجلة للأطفال.

في خريف العام نفسه، 1881، عندما أنهى العمل على قصته «كيف يعيش الناس»، جرت زيادة جديدة في منزل آل تولستوي بموسكو. فقد ولد الطفل الثامن (باستثناء الثلاثة المتوفين) الابن ألكسي. والمصيبة كانت في أن صوفيا أندرييفنا لم ترغب بهذا الطفل. فمنذ أن كانت في ياسنايا بوليانا كتبت لأختها: «إن الرضيع ميشا يتقيأ كمية الحليب القليلة التي يمتصها من ثديي، وفي كل مرة، أشعر بالسوء. هذا يعني، على الأغلب، ولرعبي الشديد، أنني حامل».

إنها متعبة. وزوجها لا يأخذ في اعتباره إمكاناتها الجسدية والنفسية. إنه مستغرق تماماً في آرائه الجديدة وفي أبحاثه عن الناس الذين استجابوا لهذه الآراء، ولم يعتبروه، ببساطة، مجنوناً. وعلى كاهلها رضيعان، وطفلان صغيران، وطالبان في الثانوية، وطالب جامعي، وفتاة في سن الزواج. وفي هذه الفترة يتحدث الزوج عن أنه يجب التخلي عن ملكيته كلها، وعن مداخيله من مؤلفاته، وعن عادات السادة التي اكتسبها، وتوزيع كل شيء على الفقراء والفلاحين والعيش من عرق جبينهم في قطعة أرض صغيرة.

وهذه *ليست مجرد أقوال*.

في يوميات تولستوي لعام 1884 نجد برنامجاً كاملاً للحياة الأسرية الجديدة، التي كانت تبدو لتولستوي، والتي يبدو أنه اقترحها على زوجته وأبنائه. وسنوردها من البداية حتى النهاية، مع الحفاظ على الأماكن التي شطبها.

«العيش في ياسنايا (شطب: في الفترة الأولى استخدام الدخل من ياسنايا بوليانا) دخل سامارا يوزع على الفقراء وعلى المدارس في سامارا (شطب: تأسيس) توجيه ومراقبة الدافعين أنفسهم. دخل نيكولسكي (تسليم الأرض للفلاحين) تماماً بنفس الطريقة. لي ولزوجتي وأطفالي الصغار (شطب:

تخصيص) تخصيص دخل ياسنايا بوليانا بما يتراوح بين 2–3 آلاف. (تترك لفترة من الوقت، ولكن برغبة وحيدة وهي إعطاؤها كلها للآخرين، ونحن نلبي حاجاتنا بأنفسنا، أي تقليص حاجاتنا قدر الإمكانات، وأن نعطي أكثر مما نأخذ، وهذا ما يجب أن نوجه له جميع قوانا وفي هذا يجب أن نرى هدف الحياة وفرحتها.) توفير الحرية للأبناء الثلاثة الكبار: إما أن يأخذوا لأنفسهم من الفقراء الجزء التالي من أموال سامارا أو نيكولسكي، أو لمعيشتهم هناك، العمل بحيث تذهب الأموال لعمل الخير أو عند معيشتهم معنا، يساعدوننا. ويجب تربية الصغار بحيث يعتادوا على مطالب الحياة بقدر أقل. تعليمهم ما يميلون إليه، ولكن ليس العلوم وحدها، بل العلوم والعمل. يُستخدم الخدم بقدر الحاجة إليهم، من أجل مساعدتنا على إعادة البناء وتعليمنا، ولفترة مؤقتة، وبعد أن نتعلم، نستغني عنهم. نعيش كلنا معاً. الرجال في غرفة، والنساء والفتيات في غرفة أخرى. ويجب أن تكون هناك غرفة لمكتبة الدروس العقلية، وغرفة مشتركة للعمل. وغرفة لتدليل أنفسنا وغرفة منفصلة للضعفاء (شطب: و). وعدا عن إطعامنا أنفسنا وأطفالنا والتعليم، والعمل، والعمل المنزلي، والمساعدة في الخبز، والعلاج والتعليم. في أيام الآحاد وجبات الغداء للبؤساء والفقراء والقراءة والحديث. الحياة، الطعام، الثياب (شطب: الفن، العلوم وما شابههما) أبسط الأشياء (شطب: وأقربها). كل ما هو غير لازم (شطب: يباع): البيانو، الأثاث، العربات – تباع وتوزع. أما العلم والفن فيُمارس منهما فقط ما يمكن مشاركته مع الجميع. والتواصل يجب أن يكون متماثلاً ومتشابهاً مع الجميع من الحاكم إلى المتسول. الهدف واحد وهو السعادة، سعادة الفرد والأسرة، علماً أنّ السعادة هي في الاكتفاء بالقليل وفعل الخير للآخرين».

لقد كانت هذه كومونة عمل، مفصّلة على مقاس أسرة واحدة. وبالطبع، لم توافق صوفيا أندريفنا عليها. ولم تكن المسألة في أنها لا هي ولا الأبناء، ولا ليف نيقولايفتش نفسه أخيراً – لم يكن لديهم أية مهارة للعيش في مثل هذه الظروف. كانت المسألة تكمن أيضاً في أن تولستوي عرض على زوجته شطب وتدمير كل ما بنته خلال عشرين عاماً بإرادته. وعرض عليها بدء حياة أسرية من جديد. زوج جديد، هموم جديدة، مشاجرات ومصالحات جديدة.

لم يكن لديها لمثل هذا التغيير قوى معنوية ولا جسدية. وكانت ولادة

ألكسي القطرة الأخيرة في كأس صبرها الأنثوي. وعندما كانت ترضع ميشا كتبت لأختها من ياسنايا بوليانا: «أحياناً، كم أود، أن أطير إليكم، إلى ماما، إلى موسكو - إلى أي مكان، إلى أي مكان، من غرفة النوم هذه شبه المظلمة، حيث أنحني من شدة الألم على الوجه الأحمر للصبي الجديد، و14 مرة في اليوم أتعذب وأموت من آلام في الحلمتين. لقد قررت أن أكون مبدئية، أي أن أرضع الأخير وأتحمل ثانية هذه الآلام، وأن أتحملها بصبر».

لم يكن ميشا، ولا أليوشا الطفلين الأخيرين. فانيا سيكون الأخير. وقبله ستلد ساشا، التي كادت صوفيا أندريفنا تتخلص منها، بالذهاب إلى قابلة في تولا وطلب إجهاض اصطناعي. وبهذا الصدد، في هذا العام بالذات، كتب تولستوي مشروع الكومونة العائلية.

لقد أصبح عدم التطابق - ليس عدم تطابق الاهتمامات والمصالح فحسب، بل عدم تطابق وتيرة الحياة ذاتها - بين الزوج والزوجة - كارثياً. وحياة تولستوي في أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات أخذت تتباطأ، وتتوقف أحياناً («لا حياة»)، أما زوجته التي تولّد وترضع دون انقطاع تقريباً، فليس لديها الوقت لأن تفكر وتحلل الوضع العائلي الجديد. في هذه الفترة كان تولستوي يتصرف مع زوجته وأولاده بقسوة شديدة. وفيما بعد سوف يشعر بالندم على هذه المرحلة من حياته، حيث حاول بعناده واستقامته الشديدة تحطيم أسرته، بفرض متطلبات عليها لم تكن قادرة على تنفيذها.

بحث ومصالحة[1]

مع ذلك، كانت أسرة آل تولستوي عائلة قوية ومتينة بصورة مدهشة! وحتى في عام 1881، في إحدى الفترات الأكثر مأساوية من الحياة الأسرية، لم تخطر في ذهن ليف نيقولايفتش فكرة أن «يفصل» نفسه عن الأسرة.

وقد كتب في يومياته في عام 1881: «الأسرة هي لحم، والتخلي عن

1- اسم رواية سيرة ذاتية للكونت ليف تولستوي الابن (ل. ل. تولستوي) في أربعة أجزاء، نُشرت في مجلة «المؤلفات الشهرية» الروسية، عام 1902، الأعداد 1-12. - المؤلف.

الأسرة هو الإغراء الثاني – كقتل النفس. الأسرة – جسم واحد. ولكن لا تخضع للإغراء الثالث – لا تخدم الأسرة، بل أُخدم الله الواحد الأحد».

وهكذا، فالتخلي عن الأسرة يعني *قتل النفس*. والمقصود هنا بالطبع، ليس الوجود المادي دون عنايتك بأفراد أسرتك. المقصود أن تولستوي لا يمكنه حتى الآن أن يفصل حياته الروحية عن زوجته وأولاده. فموت الأسرة – هو موت له، لتولستوي، ليس مادياً بل روحياً. لهذا تولستوي لا يمكنه أن «يترك ميتاً ليدفن موتاه». إنهم ليسوا «أمواتاً» بل جسد روحي متحد معه، مريض ولكن لا يمكن تقطيعه ببساطة إلى أجزاء «مريضة» وأجزاء «سليمة». ويحاول تولستوي معالجة هذا «الجسد» ومعالجة نفسه. ومن هنا هذا التوتر العاطفي لمناقشاته مع أفراد أسرته.

قد يبدو سلوك تولستوي في موسكو للنظرة الأولى، متناقضاً، غير متسق. فهو ينكر الملكية، ولكن في ربيع – خريف عام 1882 يشرع بهمة عالية في البحث عن شراء وتجهيز بيت جديد في موسكو. «البيت الكرتوني» لفولكونسكايا في جادة دينيجني لا يناسبه. إنه لا يريد مأوىً مؤقتاً، بل عشاً عائلياً مريحاً، ومتيناً، مثل عزبته في ياسنايا بوليانا.

وليس من قبيل الصدفة، أن تسبق تفتيشه وعثوره على منزل، هروب تولستوي عدة مرات في شباط/ فبراير ونيسان / أبريل عام 1882 إلى ياسنايا بوليانا، حيث يمكنه، في الوقت نفسه، أن يعالج أعصابه المتوترة، وأن يقيّم إمكانات حياته من دون أسرة. وقد كانت تنقلاته بين ياسنايا بوليانا وموسكو بمنزلة الاختبار الأول لصمود الأسرة وقوتها، وللبحث عن شكل جديد للحياة الأسرية. لم تعرقل صوفيا أندرييفنا، بحكمة، تنقلاته، لكنها لم تحاول أن تتظاهر بأن كل شيء على ما يرام. لقد أعطت لزوجها بطاقة بيضاء carte blanche لكي يختار بنفسه الشكل الجديد للحياة الأسرية وفقاً لقناعاته الجديدة. ولم تستطع التصرف بشكل أفضل.

إنهما يتراسلان يوميا تقريباً، وأحياناً رسالتين في اليوم الواحد. في الرسالة الأولى، تضع صوفيا أندرييفنا النقاط على الحروف. إنها تحب زوجها بلا حدود. وكانت سعيدة لو عاشت معه بهدوء وطمأنينة في ياسنايا

بوليانا. فحياة المدينة لا تروقها أيضاً. لكنها لن تضحي بمصالح أبنائها من أجل طمأنينة زوجها، ومن حقه هو أن يختار كيف يعيش لاحقاً.

«الآن نزلت من الأعلى، من غرفة أندريوشا، حيث صاح بقوة، وهو بين النوم واليقظة. عندما ألقيت نظرة من هناك إلى النافذة، رأيت السماء الجميلة المرصعة بالنجوم وفكرت بك. وهذه السماء أثارت فيك في ياسنايا ذلك المزاج الحزين الشاعري، اليوم مساء، تذكرت عندما ذهبت للنزهة كعادتك. أردت البكاء، وأخذت أشعر بالأسف على تلك الحياة الهادئة، لم أستطع التعامل مع المدينة، وأنا هنا مرهقة، ربما جسدياً أكثر، لكنني لست بخير».

ترسم في الرسالة بالتفصيل وبدقة، بهرجة حياة موسكو وبلبلتها، بعرباتها وأكشاكها، ومسارحها الصغيرة والكبيرة، وحفلات رقصها، والأقارب، ورفاق الأولاد. «في يوم السبت سنذهب إلى حفلة رقص عند آل أولسوفييف، وفي يوم الجمعة تدعونا أوبولنسكايا لزيارتها. وعليّ تهيئة الفستان لابنتي، والحذاء لابني، وغير ذلك». لديها «تشنجات في حنجرتها وثدييها»، وفي الليالي ترى الكوابيس. «رأيت اليوم ليلاً، ولم أشعر بالخوف، امرأة في ثوب من كتان بقدمين عاريتين وحذاؤها يدب على الأرض ويطرقها. عندما اقتربت من رأسي. سألت: «من هذا؟» فاستدارت وذهبت باتجاه غرفة الضيوف...»

إنها تذكّر زوجها بالرضيع أليوشا: «صغيري ليس على ما يرام، وأنا أحبه كثيراً وأشفق عليه. أنت وسيوتايف قد لا تحبان كثيراً أبناءكما، أما نحن، الناس البسطاء، فلا يمكننا ذلك، وربما لا نريد أن نشوه أنفسنا ونبرر عدم محبتنا بأي حب آخر للعالم كله».

إنها لا تحاول، ولا بسطر واحد، «تلم» النزاع العائلي، ووقفه بالفرامل. «أشعر بالاشمئزاز، ليست صحتي على ما يرام، أكره حياتي، أبكي طيلة اليوم، ولو كان السم في متناول يدي، لتناولته، كما يبدو لي، وسممت نفسي. لا أدعوك لتشاركنا هذه الحياة، ومرة أخرى أنا لا أكذب. وحضورك أيضاً يسيئني، لا سيما أنني لا أستطيع إدخال الطمأنينة والهدوء، لا على نفسك ولا على نفسي. وداعاً».

رداً على هذه الرسالة، تصلها رسالة «هادئة، مستكينة» (حسب تعبيرها)، يُستنتج منها أن الحياة في ياسنايا بوليانا مهما كانت جيدة، فإن ليف نيقولايفتش يشتاق إلى عائلته، وهو ينتظر دعوة منها للعودة. «أكتب إليك، يا روحي من ياسنايا، في غرفة ألكسي ستيبانوفيتش، حيث أشعر أنني بحالة جيدة للغاية... نام معي على الموقد بيتر شتياكوف. البارحة ماريا أفاناسيفنا وأغافيا ميخائيلوفنا شربنا الشاي وتبادلنا الحديث، والآن، ركبت أنا على ظهر الحصان، وشربت القهوة، وبدأت العمل، ولكن لم أنجز إلا القليل – رأسي يؤلمني بسبب الشقيقة، وأشعر بالضعف. أنا لا أرهق نفسي وأقرأ المجلات القديمة وأفكر. أستمتع بالهدوء والصمت. أتجنب الزوّار. أرغب كثيراً بالكتابة بما فكرت به. في البيت يشعلون المدفأة في غرفة العمة. سأعود عندما سيكون في موسكو هواء دافئ وخفيف. سأبقى هنا، حسب ما يملي الله على قلبي، وحسب ما تكتبين لي».

ترد عليه صوفيا أندريفنا: «لا، أنا لا أستدعيك إلى موسكو. عِش المدة التي تريدها، ولأحترقْ أنا وحدي، ولماذا الاثنان: الحاجة إليك أكبر مني للجميع ولكل شيء. إذا ما مرضت من جديد، سأرسل لك برقية، حيث لا شيء آخر يمكنني فعله. استمتع بالهدوء والسكينة، اكتب ولا تقلق؛ في الحقيقة الشيء نفسه بوجودك ومن دونك، فقط الضيوف أقل. أراك نادراً حتى في موسكو، وحياتنا ذهبت إلى التباعد. ومع ذلك، أي حياة هذه – إنها فوضى العمل، والجلبة، وانعدام الفكر، والوقت والصحة وكل ما يمس كيف يعيش الناس... وداعاً، حبيبي ليفوشكا، كن بصحة جيدة. أين أنت؟ أي أين مما كنت عليه في السابق نحوي. منذ فترة طويلة لم أرك كما كنت. وداعاً، الساعة الثانية ليلاً، وما يزال لدي الكثير من الأعمال».

في هذه الرسالة، ثمة عبارة قارصة صريحة، عبارة مقتبسة مخفية من عنوان قصته القصيرة الجديدة «كيف يعيش الناس».

تسرد صوفيا أندريفنا في الرسالة من جديد أنواع اللهو والترفيه للأطفال في المدينة، رغم معرفتها بالطبع، لموقفه منها.

«اليوم الصبية كانوا في الأوبرا، إيليا وليليا، وكذلك كوليا أوبولونسكي

وإيفان ميخائيلوفيتش وسيريوجا. وقالوا إن ليليا بكى في «فاوست» عندما قتل أحدهم الآخر في المبارزة. في المساء ذهبوا إلى السيرك مع كيللر وآل ليارسكي وآبولونسكي وأولسوفييف. حجزوا خمس مقصورات. غداً في الصباح، سآخذ الفتيات وأندريوشا إلى السيرك، وفي المساء سنذهب إلى أمسية عند آل أوبولونسكي. وفي يوم السبت سنذهب في المساء إلى آل ليارسكي: آل أولسوفييف ألغوا أمسيتهم».

في الرسالة التالية – يرد من جديد وصف حفلات الرقص: «الآن عدنا من عند آل أوبولونسكي، حبيبي ليفوشكا، متعبين، ولكن كان الحفل مرحاً بالنسبة للأطفال، كما يبدو لي. تانيا رقصت، وتانيا أولسوفييفا كانت، وأبناء ليارسكي، وأبناء كيللر – المجموع 15 زوجاً. حتى العجوز أولسوفييف حضر وكان يقول دائماً «أشعر بمرح شديد»... في النهار كنا في السيرك: عرض رائع في السيرك، وشعرت أنا بالمرح وأنا أنظر لأندريوشا، مع أنني أدرك، أن مثل هذه العروض مضرة للأطفال. لكنه كان يعبر عن رأيه بصوت مسموع، ويضحك، حتى إنه صفق للصبي والمهر» – وشكوى من انشغالها الزائد: «اضطررت إلى التوقف عن كتابة الرسالة، وإرضاع الصغير، وبدلت ثيابي، وأنهيت جميع أعمالي، قريباً ستكون الساعة الثالثة ليلاً، سأرقد للنوم مثل كل يوم». ونصيحة بأن لا تتسرع بالعودة: «تعافَ، استعد صحتك، عِش في ياسنايا، بقدر ما تريد، اكتب واستمتع. إذا ما انطلقت الحياة كلاً على حدة، فعلى كل واحد منا أن ينظم حياته بأفضل شكل ممكن، وهذا ما أسعى إليه بالنسبة لنا، أي بالنسبة لي وللأولاد. حتى الآن، هذا بالنسبة لي صعب للغاية وغير مألوف، لكن الناس تعتاد على كل شيء».

على هذا النحو تقريباً تنحو جميع رسائل صوفيا أندرييفنا إلى ليف نيقولايفتش في هذه المرحلة. متعة الأطفال ومرحهم، تعب الأم والزوجة ولياليها التي لا تعرف النوم، وهدوء الزوج وطمأنينته. وهي موافقة على هذا كله. وهذا هو المطلوب. طالما أن *الحياة انطلقت كلاً على حدة*. لكنها لا تخفي، أن هذا يؤلمها.

تعترف أحياناً، بأن رسائلها «حاقدة» و«سيئة». وتحلم أحياناً بأن تنتقل هي نفسها إلى ياسنايا بوليانا. لكنها لا تطلب من زوجها العودة إلى موسكو.

بل على العكس: «لأول مرة في حياتي، يا حبيبي ليفوشكا، لم أشعر اليوم بالفرح لعودتك القريبة. أنت تكتب أنك ستغادر يوم الإثنين أو الثلاثاء، يعني، غداً ستصل وستبدأ بالمعاناة والسأم وتريد أن تكون حياً وصامتاً، وتوجه لومك لحياتي في موسكو. يا إلهي، كم يؤلمني هذا، وكم يعذب روحي! هذه الرسالة قد لا تصلك؛ فإذا ما وصلتك، فلا تظن أنني أرغب كثيراً بعودتك؛ بل العكس، إذا كنت بصحة جيدة وتعمل، وبخاصة إذا كنت تشعر بالراحة، فلماذا تعود؟ فمما لا شك فيه، أنني لست بحاجة إليك لأية أمور حياتية. إنني أحافظ على كل شيء في نظام واتزان حتى الآن: الأولاد مطيعون ومؤتمنون، صحتي أفضل وكل شيء يجري في البيت كما هو مطلوب. أما ما يتعلق بحياتي الروحية، فهي مسدودة لدرجة أنه لن أتمكن قريباً من الوصول إليها. ولتبق الآن مسدودة، لأنني أخشى كثيراً البحث عنها وإخراجها إلى النور الإلهي، فماذا سأفعل آنذاك. إن هذا الجانب الروحي الداخلي من الحياة لا يتوافق لهذه الدرجة مع الجانب الخارجي».

في أواخر الحياة الزوجية، سوف تسعى بمختلف الوسائل لربط زوجها بها. ولن تسمح له بالمغادرة وحده، حتى إلى ابنته وصهره، علاوة على تشرتكوف. وسوف تعيق بمختلف الوسائل سفره إلى استوكهولم. وكآخر حجة في نزاعاتهما سوف تردد وعودها بمشاركتها الكاملة لحياته الروحية والعيش معه ولو في عزبة صغيرة. وهو... يهرب من ياسنايا بوليانا. في رسالتها إلى زوجها بعد هروبه، سوف توافق على كل شيء، على جميع مطالبه، كي يعود. وسوف يهرب من شاموردينو.

ولكن الآن، في ياسنايا بوليانا، وبعد تلقيه رسائل، تمنحه، كما يبدو، حرية العمل والحق الأخلاقي بعدم المشاركة في «بهرجة البهارج» للحياة الموسكوفية، حيث تكسّر ابنته الشابة كعبها العالي في حفلات الرقص، ويصفق ابنه الأصغر بيديه في السيرك، وحيث زوجته لا تنتظر عودته، بل تكتب أن حياتهم أهدأ من دونه – هو لا يعود إلى موسكو فحسب، بل يبدأ بهمة عالية ببناء عشه العائلي الوطيد. إن انتصار صوفيا أندريفنا في هذه المبارزة بالمراسلة بين الزوجين من أجل حقوقها كان كاملاً. وهذا بالذات، لأنها لم تتعد على حقوقه. وأوضحت له أن الأسرة سوف تعيش ومن دونه.

مع ذلك، فإن رسائل ليف نيقولايفتش الجوابية لم تكن خالية من «القرصات». على سبيل المثال، لقد ذكّرها بأرسينيوفا. «الآن، أدخلت أغافيا ميخائيلوفنا المرح إلى قلبي بقصصها عنك، وعن كيف كنت سأصبح لو تزوجت من أرسينيوفا. «أما الآن، فقد غادروا، تركوها مع الأطفال، - اعمل، كما تعرف، وأنت نفسك تجلس هنا، وتشذب لحيتك». كان هذا جيداً».

ولكن، بصورة عامة، كانت لهجة رسائله حزينة. فهدوء الحياة الريفية يؤثر فيه بصورة نافعة، ولكن في الهدوء بالذات يدرك تولستوي أنه لا يستطيع العيش من دون أسرة. وبصورة محددة – لا يمكنه العيش من دون صوفيا أندرييفنا.

«لا يمكنني العيش معك متباعداً... يلزمني بالضرورة، أن يكون كل شيء عندنا معاً... أنت تقولين «أنا أحبك، وهذا بالنسبة لك الآن غير ضروري»... هذا هو وحده الضروري. ولا شيء يمكنه إنعاشي كما أريد، ورسائلك أنعشتني».

هذا هو جوابه المطيع المتسامح على رسالة زوجته، التي تشفق فيها على زوجها، ومع ذلك، تذكره بأن سبب النزاع العائلي – قناعاته الجديدة:

«من المفضل أن تتعالج. أقولها من دون أية خلفية، فهذا يبدو لي واضحاً. إنني أشفق عليك كثيراً، ولو أنك فكرت، دون إحباط، في كلماتي، وفي وضعك، فلربما وجدت مخرجاً. هذه الحالة الكئيبة الحزينة كانت لديك في السابق، منذ زمن؛ وقد قلت: «كنت أود أن أعلق مشنقتي لعدم إيماني». وماذا الآن؟ – أنت الآن لا تعيش بلا إيمان، فلماذا أنت بائس؟ وفي السابق، ألم تعرف أن هناك أناساً جائعين، ومرضى وبؤساء، وأناساً أشراراً؟ انظر نظرة أفضل: هناك أيضاً أناس مرحون، وأصحاء، وسعداء، وطيبون. فليكن الله في عونك، وماذا يمكنني أنا أن أفعل؟ وداعاً يا صديقي العزيز؛ ومن أجل طمأنتك يا عزيزي، لا يمكنني إلا شيء واحد – أن أحبك وأشفق عليك، لكنك لم تعد الآن بحاجة إليه. فما الذي تحتاجه؟ لو كنت أعرف».

كانت المصيبة، أنه هو نفسه في تلك الفترة، لم يكن يعرف ما الذي يحتاجه. ففكرة عدم عدالة منظومة الحياة الواضحة بالنسبة له، لم تجد

مخرجاً إيجابياً. فطباعة «الاعترافات» غير مسموح بها. وليس لديه أصدقاء ولا شركاء في الرأي. تعثر في الكتابة...

إلى جانب صوفيا أندريفنا - الأبناء، وجميع الأقارب ومجتمع موسكو كله. وإلى جانب ليف نيقولايفتش - لا أحد. حتى أقرب المقربين إليه في الوسط الأدبي، فيت وستراخوف، لا يدركان معنى الانقلاب الذي يجري عند تولستوي. وفي هذه الفترة، تشاجر مع مراسلته الروحية ألكسندرين تولستايا. عندما التقيا في بطرسبورغ في شتاء عام 1880، احتد النقاش بينهما. كانت آ. آ. تولستايا مؤيدة متحمسة للفهم الكنسي للإيمان. وعند مغادرته للعاصمة كتب لها ليف نيقولايفتش: «لن آتي إلى عندك وسأسافر الآن. من فضلك، اعذريني، إذا ما أهنتك، ولكن إذا ما آلمتك، فإنني لا أطلب الصفح عن هذا. من غير الممكن ألا يشعر الإنسان بالألم، عندما يبدأ بالشعور بأنه يجب الانفصال عن الكذب المألوف والهادئ».

وفي الرسالة التالية، حاول تولستوي العثور على طريق للمصالحة، فكتب، على الرغم من أنه لا يعتقد بأن «رجلاً» بمثل ثقافتها يمكنه أن يؤمن بالطقوس الكنسية، «ولكن لا أعرف بالنسبة للنساء».

لا يمكن للأبناء، الأكبر سناً، سيرغي وتاتيانا، أن يدعما الأب. فهما ما زالا في ريعان الشباب، ومأخوذين بإغراءات المدينة ومتعها. علاوة على ذلك، سيرغي، مثل كل طالب محترم، متحمس لبيساريف وتشرنيشيفسكي، ويتردد على التجمعات الطلابية، ويوزع المنشورات ضد الحكومة وما شابه ذلك. إنه شاب من أنصار نظرية الوضعية الإيجابية، ويعتقد أن الرياضيات والعلوم الطبيعية هما المعرفة الحقيقية. ويشعر بالاستياء من أبيه لازدرائه التعليم الجامعي.

أما تاتيانا فموقفها أكثر دفئاً من أبيها. إن جميع بنات تولستوي، عند كبرهنّ ونموهنّ، أصبحن موظفات مخلصات للأب، وبفرح وغيرة، كنّ يقمن بدور السكرتيرات... إلى أن تزوجن.

لكن تاتيانا في أوائل الثمانينيات لم تستطع ببساطة مشاركة أبيها مؤلفاته وأفكاره. فقد أصبحت تانيا آنسة المجتمع الراقي، وهذا كان يروقها جداً، خلافاً لتعاليم أبيها الأخلاقية المملة.

«منذ فترة قريبة، تجادل بابا وماما مع الخالة تانيا، وتحدث بصورة رائعة جداً حول الحياة وكيف تكون جيدة، وكيف تعيق الثروةُ الحياةَ الجيدة - وهنا ماما بدأت تحثنا للمغادرة والذهاب للنوم، وأنا ومانيا والخالة تانيا بدأنا نخرج، لكن الأب أمسكنا ووقفنا وتحادثنا قرابة ساعة كاملة. يقول أبي إن الجزء الرئيس من حياتنا يمضي في محاولاتنا أن نكون مثل (فيفي دولغوروكايا)، وإننا نضحي بأجمل عواطفنا من أجل فستان ما. قلت له إنني أتفق معه في كل ما قاله، وإنني بعقلي أفهم هذا، لكن نفسي وروحي تبقيان لا مبالية تجاه كل ما هو جيد، وفي الوقت نفسه، فإن نفسي تقفز، عندما يعِدوني بفستان جديد أو قبعة جديدة...»

كما أن موقف «الخالة تانيا» (ت. آ. كوزمينسكايا) لم يكن إلى جانب تولستوي. فقد أبدت إعجابها الشديد به ككاتب، وخاصة باعتباره مؤلف «الحرب والسلام»، حيث أصبحت النموذج البدئي الأصلي للبطلة الرئيسة. وفي الثمانينيات، كتبت هي نفسها، بتأثيره وإشرافه، مجموعة قصص عن حياة الفلاحين، ونشرتها في مجلة «نذير أوروبا». لكن عاداتها وموقفها من الحياة لم يتطابقا مع قناعات تولستوي الجديدة.

كتب تولستوي في يومياته لعام 1863 معبراً بصورة مبدعة عن العالم الداخلي لشقيقة زوجته: «إن تانيا هي جمال سذاجة الأنانية والحس المرهف. أحبها ولا أخاف منها».

لقد كانت مناوشاتها مع تولستوي في ياسنايا بوليانا أمثولة على لسان الجميع. ذات مرة، وكان تولستوي قد أصبح نباتياً وأصاب بذلك أولاده بالعدوى، وبمناسبة حضور «الخالة تانيا» التي لم تعترف بالنزعة النباتية، أمر بتجهيز مائدة الغداء، وإحضار دجاجة حية ووضعها على المائدة ووضع سكيناً إلى جانبها. «أنت تريدين لحم الدجاج؟ خذيها واذبحيها».

لكن، لم يكن من السهل إحراج «الخالة تانيا». تذكر ابن تولستوي ليف لفوفيتش مقطعاً من حياة ياسنايا بوليانا:

«هنا، على سبيل المثال، صباحاً أمام طاولة الكروكيت مقابل البيت - تم تجهيز طاولتين لقهوة الصباح. طاولة لآل تولستوي، وأخرى لآل

كوزمينسكي. كان الخدم والخادمات يحملون من بعيد، من المطابخ، القهوة اللذيذة، والمعجنات الطازجة اللذيذة، والخبز الساخن مع الزبيب، والقشدة الدهنية ويصفّون هذا كله على مفارش بيضاء كالثلج. نهض السادة من أسرّتهم، تمشوا قليلاً، تحمموا وتهيأوا للطعام. وصل ليف نيقولايفتش إلى طاولة الكروكيت...

– ألا تشعرون بالخجل، – وفجأة يتوجه ليف نيقولايفتش إلى الخالة – «وأنت، تانيا، ألا تشعرين بالخجل، أن تجلسي هنا هكذا وتأكلي، وتري الفلاحين ينقلون القش أمامنا؟ ولا تخجلي من أن الغسالات يغسلن لك مفارش المائدة هذه عند النبع؟

– لا، على الإطلاق – أجابت الخالة تانيا بشجاعة. – أنا بحاجة إلى شرب القهوة! ولا يمكنني غير ذلك.

فلاذ ليف نيقولايفتش بالصمت حينذاك، وجلس إلى المائدة، وشرب كوباً من القهوة».

في رسائلها إلى أختها الكبرى، احتجت تانيا كوزمينسكايا على موقفها المفرط في الخضوع لزوجها. فردت عليها صوفيا أندرييفنا: «الرجال دوماً يجهدون العقل، وبالتالي الأعصاب، ولهذا علينا المحافظة على عقولهم وأعصابهم بادئ ذي بدء، وبفضل هذا الهدوء، ومراعاة أعصابهم، فهم بعد العمل يجلبون للأسرة التعاطف الروحي الجيد...»

لم يكن من الممكن أن يلقى أي دعم، لا من جانب الأبناء، ولا من جانب «الخالة تانيا».

ولكن، ربما كان يمكن أن يحظى تولستوي بالدعم من جانب إخوته، أخته وأخيه؟

لا، ومن هذا الجانب، لم يكن باستطاعته انتظار أي دعم. بل على الأغلب، أخته وأخوه كانا بحاجة إلى دعمه المعنوي، والمادي. «العم سيريوجا»، سيرغي نيقولايفتش تولستوي، كان إنساناً رائعاً، لكنه لم يستطع تثبيت أقدامه في الحياة، بثبات وأمان. لم تنتظم علاقاته مع أبنائه، وخاصة مع ابنه غريشا، ولم تترتب مزرعته في بيروغوفو، ولم تجلب له دخلاً كافياً.

ولم ينجح نجاحاً حقيقياً إلا في الصيد، ولعل صفوف أسنان الذئاب على طول مسار حديقة بيروغوفو دليل حيّ على ذلك. من حيث قناعاته، كان محافظاً، كان يقرأ مجلة «أخبار موسكو»، ومن ثم «العصر الحديث»، ومن أجل التسلية، كان يقرأ الروايات الإنكليزية، ومن أجل هذا تعلم اللغة الإنكليزية. كان من خيرة العارفين بالأغاني الروسية والغجرية، وانتقل مع عائلته إلى موسكو في الوقت نفسه الذي انتقل فيه أخوه الأصغر ليف إليها. ذات مرة أخذ سيرغي نيقولايفتش ابن أخيه سيريوجا إلى ستريلنا – ليسمع أغاني الغجر.

تذكر سيرغي لفوفيتش تولستوي: «كان عمي يتعامل مع الغجر على طريقة النبلاء، فكان يخاطب فيودور سوكولوف، قائد الأوركسترا الشهير، الذي كنا نحن الشبيبة نكن له الكثير من الاحترام، بصيغة المفرد، ويطلب منه أغاني قديمة، ويشتم الغجر لأنهم نسوا الأغاني الغجرية والروسية الحقيقية. وكان الغجر يعاملونه باحترام كبير، وبذل فيودور سوكولوف جهده كي يرضي سعادته. في تلك الليلة، أدركت جمال الغناء الغجري أفضل من أي وقت مضى».

لقد أصاب سيرغي نيقولايفتش طارئٌ حقيقي. فمراسلات الأخوين في بداية الثمانينيات تدل على أن الأخ الأكبر كان بحاجة دائمة إلى المال، وكان يتوجه بطلب المال إلى أخيه الأصغر؛ الذي كانت أموره المالية تسير على ما يرام.

«كانت الأحوال المالية لأسرتنا في عام 1881 في حالة ممتازة. أقول الأحوال المالية لأسرتنا، وليس لأبي، لأن أبي كان يعتبر دوماً، أملاكه لا تخصه وحده، بل تخص العائلة كلها، ولم تكن هناك أية مسألة في إعطاء أمي من المال المبلغ الذي يلزمها. وفي تلك الفترة، تراكم لديه الكثير من الأموال. فقد باع الطاحون في نيكولسك – فيازيمسك مقابل 9.500 روبل، وباع قسماً من الغابة (توصية) في ياسنايا بوليانا، لا أذكر بأي مبلغ، وحصل مقابل مؤلفاته الكاملة على 25.000 روبل من الإخوة سالايف».

كما تذكر سيرغي لفوفيتش: «كنت أسمع منذ طفولتي، أن عمي رب

عمل ممتاز، لكنني اقتنعت فيما بعد بأن هذا غير صحيح. كان يعرف جيداً ظروف إدارة العمل والمزرعة آنذاك، لكنه كان يخطئ في الحسابات، وكان غير عملي، ويدير المزرعة على طريقة النبلاء... كان شكّاكاً، وفي كثير من الأحيان يشك بمن لا يجدر الشك بهم. وبالمحصلة، أخذ وضعه المادي يتردى عاماً بعد عام». بعد أن مضى في موسكو أربعة فصول شتاء، لم يتحمل الأخ الأكبر حياة المدينة، ليس بسبب مزاجه وقناعاته، بل بسبب نقص المال. وعاد من جديد ليغلق نفسه في بيروغوفو.

كان سيرغي نيقولايفتش يحب أن يقول لأبناء أخيه الشهير: «ولكن، أنتم تعيشون على المكافآت الناتجة عن كتابة أبيكم. أما أنا فعلي أن أحسب كل كوبيك. ناظر الضيعة يسرق أبوكم بمبلغ 1000 روبل، فهو يقدم له قائمة المصروفات ويحصل لقاء القائمة على 2000 روبل، فيضع 1000 روبل في جيبه... لا يمكنني إدارة مزرعتي بهذا الشكل....»

كان تولستوي، طيلة حياته، يحب ويحترم، بلطف، أخاه، السيد الروسي الجميل الحقيقي والمستقل، لكنه لم يكن يستطيع الاعتماد على أي دعم له من جانبه، في أبحاثه.

ولم يستطع توقع الدعم من أخته أيضاً. فحياتها الخاصة انحدرت إلى الأسفل. وبعد طلاقها من زوجها وقصة حبها غير السعيدة مع دو كلين، تعالجت لدى طبيب المعالجة المثلية د. س. تريفونوفسكي وتصادقت مع هذا الرجل «الطيب القلب، الغريب الأطوار، النزيه والمتدين». وقد أثّر هو وفالنتين أمفيتياتروف الأسقف الشهير لكاتدرائية أرخانغلسك فيها تأثيراً دينياً، لكنه ليس ذلك التأثير الذي يمارسه عليها أخوها ليف. وقد كانت لديها، كما لدى سيرغي نيقولايفتش، مشاكل خطيرة مع أبنائها. فقد كانت ذات طباع صعبة ومزاجية. ولم تستطع أن تتوافق وتجد لغة مشتركة، لا في مزرعتها في بوكروفسكوي، ولا في موسكو، ولا في الخارج. حاولت أن تعيش في ياسنايا بوليانا، ولكنها لم تجد لغة مشتركة في علاقاتها مع صوفيا أندريفنا. لقد كانت متقلبة المزاج وحادة الذكاء. ذات يوم لحق بها زير نساء، فاقتادته إلى الفانوس، ورفعت الحجاب عن وجهها وقالت: «انظر إليّ، وغالباً، سوف تبتعد عني». عندما طلبت جماعة من المصطافين على مقربة

من ياسنايا بوليانا منها أن تقودهم إلى ليف تولستوي، أجابتهم: «اليوم لا يعرضون الأسد (ليف – وهذا معنى اسمه. المترجم) إنهم يعرضون القردة الصغار فقط». وفي نهاية الأمر، لم تجد طبيعتها الأبية المستقلة هدوءها وانسجامها إلا في الدير.

وهكذا، إذا نظرنا من أي جانب، فإن زوجته وحدها كانت الإنسان الوحيد من الدائرة القريبة من تولستوي، الذي كان يمكنه أن يفهمه بطريقة أو بأخرى.

في الأدبيات الواسعة عن تولستوي التي ظهرت في حياته، كان يسيطر رأي تقليدي واسع الانتشار، مفاده أن صوفيا أندرييفنا في أوائل الثمانينيات لم تفهم زوجها، وكان هذا سبباً لنزاعهما العائلي. وهذا بعيد عن الحقيقة. فزوجته بالذات كانت الوحيدة التي فهمته. و*هذا* أصبح سبب نزاعهما العائلي.

أولاً: كانت صوفيا أندرييفنا امرأة ذكية جداً. وبرأينا، أذكى بكثير، ليس من أختها الصغرى فقط، بل من ماريا نيقولايفنا، وحتى من ألكسندرا أندرييفنا تولستايا أيضاً. وعقلها أو ذكاؤها لم يكن وحيد الجانب، ولم يقتصر على مجال المصالح المادية. في مراسلاته مع زوجته في أوائل الثمانينيات لم يناقش تولستوي تقريباً المسائل الروحية، ليس لأنها لا تخصها، بل لأنه كان لديهما الكثير من الوقت لمناقشتها من دون مراسلات. هذا النقاش، الحامي الوطيس، الذي كانت تدور رحاه في ياسنايا بوليانا وفي منزل آل تولستوي في موسكو، يدل على أن صوفيا أندرييفنا كان لها موقفها الخاص الصارم بشأن هذه القضايا. فهي كانت تمسها شخصياً بكل معنى الكلمة. وهي لم تستطع ألا تحسب عواقب الانقلاب الروحي لزوجها على أسرتها، وكانت ترى بوضوح، أن هذه العواقب تعني الموت لأسرتها في بحبوحتها السابقة. وهذه المسائل، بالنسبة لها، لم تكن مسائل تأملية، افتراضية، كما هو الأمر بالنسبة لألكسندرين Alexandrine، بل مسائل حياة ومستقبل سعادة أو بؤس أسرتها مستقبلاً.

وقد فسرت دورها في الانقلاب الروحي لزوجها على النحو التالي: «يبدو أنني لم أكن على تلك الدرجة من الذكاء، كي أدرك نظرة زوجي الروحية إلى العالم تلك التي توصل إليها بعد مسار قاس، وطويل ومعقد؛ ولم أكن على

تلك الدرجة من الغباء بحيث أتبعه وأسير وراءه، بصورة عمياء، دون تفكير، وبخضوع غبي. كما أنه لم يكن هناك وقت للتفكير والتأمل».

ثانياً، صوفيا أندرييفنا كانت تعرف أصول هذه الرؤية الروحية الجديدة للعالم. فقد حدثت ولادتها أمام عينيها، في تلك المؤلفات التي كانت تبيّضها، وفي مسوّداتها، وفي يوميات ليف نيقولايفتش التي كانت تقرأها، والتي كان تولستوي يكتبها، مدركاً أن زوجته ستقرأها. وأخيراً، كانت تعرف، وهذا أيضاً على درجة كبيرة من الأهمية، نقاط ضعفه الجسدية وانحرافات صحته: نفسيته المضطربة، كبِده المريض، وصداع الرأس المستمر. وكانت تعرف الأسباب السرية لتبدل مزاجه، بما في ذلك تلك التي تجري في الحياة الزوجية الحميمة لرجل كهل، لكنه لا يزال قوياً جداً من الناحية البيولوجية، وامرأة شابة، لكنها ولّادة ومرضعة بصورة دائمة.

كان تولستوي يعرف أن هذا تعرفه. ولهذا ففي مراسلاتهما نجد ما بين الكلمات والحروف أكثر من النص نفسه. وأحياناً، جزئية صغيرة، مثل زهرة صغيرة يضعها بصورة عاطفية في الرسالة، ويرسلها تولستوي البالغ من العمر ستين عاماً من ياسنايا إلى زوجته في موسكو، تحكي الكثير، أكثر من الكلمات.

عندما يحب الرجل والمرأة أحدهما الآخر هذا الحب الكبير، وعندما يربط بينهما هذا العدد الكبير من أبنائهما الأحباء، فإن عليهما، عاجلاً أم آجلاً، رغم جميع الخلافات الناشئة بينهما، أن يجدا شكلاً جديداً من العلاقات الأسرية، يناسب الطرفين إلى حد كبير.

أحياناً، قد ينشأ إحساس غريب كأن هذا الشكل الجديد كان المراسلة بين الزوجين أثناء سفر ليف نيقولايفتش إلى ياسنايا بوليانا أو إلى مقاطعة سامارا. إن رسائل تولستوي إلى زوجته تشغل مجلدين كاملين في مؤلفاته الكاملة. وهناك مراسلان اثنان فقط حازا على هذا الحق الحصري في تصنيف ودراسة رسائله، أحدهما هو فلاديمير غريغوريفيتش تشرتكوف.

من بين عدة مئات من رسائل تولستوي إلى زوجته، لا يمكننا العثور على رسالة واحدة شريرة، أو قاسية، علاوة على أن تكون مهينة. حتى في رسائله في أثناء هروبه عام 1910، لا يوجد أي سطر مسيء.

«روحي»، «حبيبتي»، «صديقي العزيز» - ذلك هو الشكل العادي لمخاطبة تولستوي في الرسائل لزوجته. وجميع المشاجرات والخلافات في رسائله تكتسب طابعاً مغايراً، ذا مغزى.

وقد كتب لزوجته في 26 أيلول/ سبتمبر عام 1896 بعد أربعة وثلاثين عاماً من حياتهما الأسرية المشتركة: «لديك كثير من القوة، لا الجسدية فحسب، بل المعنوية الأخلاقية أيضاً، ولكن ينقصك شيء صغير، وهو الأهم، وأنا واثق أنك ستكتسبينه. لكنني سأشعر بالحزن في العالم الآخر عندما سيأتيك بعد وفاتي. كثيرون يحزنون لأن الشهرة تأتيهم بعد موتهم؛ أنا لا آسف على أي شيء؛ ويمكنني أن أتنازل عن الكثير من شهرتي بل عن شهرتي كلها، مقابل أن تتوافقي معي بروحك خلال حياتي كما تتوافقين بعد موتي».

إن هذا الاعتراف، أولاً، مدهش لأن تولستوي يعترف فيه بالخلود الشخصي وباحتمال نظرة الإنسان من الحياة الآخرة إلى عالم آخر والناس المقربين له الذين تركهم في هذا العالم. وهذا لا يتوافق مع فلسفة تولستوي الدينية التي تنفي أي خلود فردي، ما يدفعنا إلى الشك في انتمائه لـ «البوذية». وثانياً، لقد كان تولستوي محقاً تماماً! فبعد وفاته، بدأت صوفيا أندريفنا بالفعل بالنفوذ إلى آرائه، وكرست السنوات التسع الأخيرة من حياتها لهذا «التوافق الروحي» الصعب.

في الرسائل يفهم الزوج والزوجة أحدهما الآخر، بشكل أفضل وأوضح وأكثر تميزاً. كأن الحجاب الفاصل في علاقاتهما يتداعى، وشجارهما ذاته يكتسب فجأة معنى ما آخر، أكثر عمقاً.

قد يبدو أن مثلهما العليا متعارضة تماماً. هو يدعو إلى المستقبل، وهي إلى الماضي. هو يقترح حرق الجسور وعدم الخوف من أي شيء. وهي تأخذ على عاتقها مهمة الحفاظ على بنية المنزل القديم. هو يدعو إلى الرحيل والتجول، وهي إلى البقاء في مكانهما القديم.

عندما تظهر هذه المواقف في رسائلهما تفقد كونها مجرد خلافات عائلية.

هي: «عندما أفكر فيك (وهذا تقريباً كل يوم)، فإن قلبي يؤلمني لأن

الانطباع الذي تتركه الآن – أنك غير سعيد. وأشعر بالشفقة عليك، كما أشعر بالحيرة: لماذا أنت غير سعيد؟ حولك كل شيء جيد وسعيد».

هو: «هذا الذي يشحذ، وذاك المصاب بالصرع، وذاك المصاب بالسل الرئوي، وذاك المستلقي يتلوى ألماً، وذاك يضرب زوجته، وذاك هجر أولاده. وفي كل مكان آلام وشرور، واعتاد الناس على أن هذا ما يجب أن يكون».

هي: «... أنا أشعر بقوة بكامل مأساوية وضعك...»

هو: (يتحدث عن حريق حدث في ياسنايا بوليانا، حيث احترق 22 بيتاً من بيوت الفلاحين): «أشعر بالأسف الشديد على الفلاحين. يصعب على المرء أن يتصور ما عانوا وما سوف يتحملونه... الآن مشيت أمام البيوت المحروقة. أشعر بالأسف، والرعب، والعظمة – هذه القوة، هذه الروح المستقلة، والثقة بقواهم، والطمأنينة».

هي: «نعم، نحن في مسارين مختلفين منذ الطفولة: أنت تحب القرية، الشعب، تحب أطفال الفلاحين، تحب هذه الحياة البدائية كلها، التي خرجت منها عندما تزوجتني. وأنا – مدينية، ابنة مدينة، ومهما فكرت وسعيت إلى محبة القرية والشعب – إلى محبة هذا كله، بكامل كياني، فلن أتمكن ولن أحبه أبداً؛ أنا لا *أفهم* ولن أفهم أبداً الشعب الريفي... عندما تذهب إلى هذا الجو الأخلاقي الريفي، أنا أتابعك بألم وغيرة، وأرى، أننا هنا، *غالباً* لسنا معاً؛ وهذا ليس لأنني لا أريد، بل لأنني أقل، من أي وقت آخر، *لا أستطيع*».

قد تكون صوفيا أندريفنا لم – تفهم زوجها، عندما لم يكن هناك من يفهمه إلا نادراً. لكنها لم تكن لتسمح قط للأبناء، في حضورها، أن تتطرق إلى نفوسهم الشك في أن أفعال الأب وكتاباته تمليها اعتبارات سامية. وها هي تكتب لزوجها: «وداعاً، يا حبيبي ليفوشكا، أود أن تكتب لك تانيا (الابنة – *المؤلف*)، وهي تقول: «إنه يكتب ثلاثة أسطر، فلماذا نحن ثلاثة أشخاص سنكتب له ثلاثة أوراق». فأقول لها: «وبالمقابل، هو يكتب 300 صفحة للعالم كله». أقبّلك».

وتعترف في رسالة أخرى: «إن خيرك ولطفك يغمران الأسرة كلها. أو كما عبّر أوروسوف في الأحد الماضي، «إنكم أنتم جميعاً تعيشون في ظل

أشعته ولا تقدِّرون هذا!» ولا شعاع ضوء من دونك، وأضطر بنفسي للإضاءة ولو بضوء خافت».

الرحيل الأول

في 14 تموز/ يوليو عام 1882 وقع الكاتب بالعدل في المحكمة الجزائية بموسكو عقد سند تمليك لشراء تولستوي مقابل 27000 روبل للمنزل رقم 15 في جادة دولغو – خاموفنيكي على أقساط من سكرتير الكلية ي. أ. آرناؤوتوف. وقد نصحه بشراء هذا المنزل عم زوجة تولستوي كونستانتين إيسلافين. وقد كتب يقول: «الأزهار فيه أكثر مما في حدائق غافيز؛ الفراولة وعنب الثعلب بلا قرار. شجر التفاح – عشر، والكرز ثلاثون؛ والخوخ شجرتان أو ثلاثة، والعديد من شجيرات التوت وحتى القليل من البرباريس. المياه متوفرة في المكان نفسه، وربما أفضل من مياه ميتيشي! أما الهواء، والهدوء فحدث عنهما بلا حرج! وهذا كله وسط حشد العاصمة الحضري. من غير الممكن عدم شرائه».

يبدو أن الهدوء ووجود حديقة كبيرة للفواكه يمكن للمرء فيها أن يضيع، قد اجتذبا تولستوي. بيد أن المنزل نفسه كان قديماً جداً، وليس واسعاً إلى حد الكفاية. تم تشييد المنزل عام 1808، ونجا من غزو نابليون لموسكو ولم يحترق، لأن المباني النادرة لمنطقة خاموفنيك كانت تفصلها عن موسكو مساحات خضراء كبيرة. لم يمدد في المنزل التيار الكهربائي الذي كان متوفراً في موسكو في تلك الفترة. وأخيراً، كان سياجه يستند إلى جدار من الآجر لمعمل البيرة. والمنطقة كلها كانت منطقة مصانع في طرف موسكو. الجيران كانوا جيدين، آل أولسوفييف.

من أجل قضاء الصيف، عادت أسرة تولستوي من موسكو إلى ياسنايا. وهنا، في آب/ أغسطس وقع الحدث، الذي كانت صوفيا أندريفنا تخشاه أكثر من أي شيء آخر. وربما توقعته، فحاولت ثني زوجها عن العودة المتسرعة إلى موسكو. ولكن ليس في موسكو، بل في ياسنايا عبّر تولستوي لأول مرة عن رغبته بمغادرة الأسرة.

كان يشعر في موسكو بضعف رهيب ورغبة بالموت. وقد كتب لستراخوف: «لقد تعبت وضعفت، بصورة مرعبة. شتاء كامل انقضى بكسل وخمول. وما هو، حسب رأيي، أهم شيء للناس، يتبين أنه عديم الفائدة للجميع. أحياناً، بودي أن أموت. إن الموت، بالنسبة لقضيتي، سيكون مفيداً...»

في ياسنايا بوليانا، وفي الذكرى السنوية الخامسة والعشرين لحياتهما الزوجية، هبت العاصفة. وكتبت صوفيا أندرييفنا في يومياتها:

«للمرة الأولى في حياتي، هرب ليفوشكا مني وأمضى الليل في مكتبه. اختلفنا حول أشياء تافهة، هاجمته لأنه لا يهتم بالأبناء، لأنه لا يساعد في زيارة المريض أليوشا وخياطة السترات لهم. لكن المسألة لم تكن في السترات، بل في برودته نحوي ونحو الأطفال. وصرخ اليوم بصوت عال بأن فكرته المسيطرة اليوم هي أن يغادر الأسرة. سوف أموت لكنني لن أنسى صيحته الصادقة تلك، كأنه كان يقتطع قلبي. أدعو الله كي أموت، فحياتي من دون حبي له رهيبة، لقد شعرت بهذا بوضوح آنذاك، عندما غادرني هذا الحب. لا يمكنني أن أُظهر له إلى أية درجة أحبه بقوة، كما كنت قبل عشرين عاماً، فهذا يهينني ويشعره بالملل. لقد استغرق تماماً في المسيحية وفي أفكار تطوير الذات. أنا أغار عليه... لن أرقد اليوم على السرير الذي هجره زوجي. ساعدني، يا إلهي! أريد أن أحرم نفسي من الحياة، أفكاري تتضارب. تدق الآن الساعة الرابعة ليلاً. تساءلت في نفسي: إن لم يأت، فهو يحب امرأة أخرى. ولم يأت».

يتحول ليف نيقولايفتش من زوج «هادئ، مطيع» إلى وحش في قفص، وتتحول صوفيا أندرييفنا من سيدة حكيمة، واثقة إلى امرأة مجنونة تخشى أن يهجرها زوجها. وما يبدو أثناء الانفصال سطحياً، يتبين في الواقع أنه الأهم. حيث تكاد تصبح بعض «السترات» سبب الطلاق. ولكن، لنحاول الافتراض، ماذا كانت صوفيا أندرييفنا تعني بـ«السترات». في موسكو، كان تولستوي يقطع الحطب ويخيط الأحذية. وهذا كان عمله كرجل، وكفلاح. فلماذا إذن لا يخيط السترات للأطفال؟

وقد تصالحا في وقت لاحق. وكتبت صوفيا أندريفنا في يومياتها: «لقد جاء، لكننا تصالحنا بعد يوم. بكينا نحن الاثنين، ورأيت بسرور أن ذلك الحب الذي حزنت عليه في تلك الليلة الرهيبة لم يمت. لن أنسى أبداً ذلك الصباح الجميل، الصافي، البارد، اللامع بنداه الفضي، عندما خرجت بعد ليلة لم أعرف فيها طعم النوم، على طريق الغابة إلى حوض الاستحمام. منذ زمن طويل لم أر هذا الجمال الآسر للطبيعة. جلست طويلاً في الماء المثلج، وبرأسي فكرة أن أصاب بالبرد وأموت. لكنني لم أصب بالبرد، وعدت إلى البيت، وشرعت بإطعام أليوشا الذي فرح بعودتي وكان سعيداً».

في هذه المدونة، تلفت النظر فكرة الانتحار المسيطرة. في رسالتها لمّحت إلى «السم»، والآن في أثناء الاستحمام في البركة تحلم بأن تُصاب بالبرد وتموت. إن هذا الطابع الانتحاري لصوفيا أندريفنا يرجع إلى حد كبير إلى حملها المتكرر، ومشاكل الأم المرضعة، وأمراض الأطفال المستمرة، والموت المبكر لثلاثة منهم (وسيموت لاحقاً اثنان آخران). وهو مرتبط أيضا بسلوك زوجها المعقد. ولكن ثمة في طباعها خصائص مميزة، متأصلة منذ البداية. لقد كانت زوجة تولستوي *متطرفة في حبها*، إن صح التعبير. وهذا واضح من جميع يومياتها، بما فيها يومياتها الأولى. فتلك الغيرة التي كانت تشعر بها تجاه أكسينيا، متمنية أن «تقطّع إلى قطع» ابنها، وتجاه جميع نساء زوجها السابقات، لا يمكن تفسيرها بطريقة أخرى سوى السمات الأصلية لشخصيتها الأنثوية.

«إن كل ماضيه مرعب للغاية، بالنسبة لي، بحيث يبدو لي أنني لن أتهادن معه أبداً».

«لدي ذلك القدر من الغرور الغبي، لدرجة أنني لو رأيت أدنى قدر من عدم الثقة أو عدم الفهم فسيذهب كل شيء أدراج الرياح. أنا أغضب. وما يفعله بي؛ سأنغلق على نفسي شيئاً فشيئاً، وسوف أسمم له حياته».

«إنه يقبلني، وأنا أفكر «ليست المرة الأولى التي أغريه فيها»».

«يا له من مسكين، يبحث في كل مكان عن التسلية، كي يتخلص مني بأي طريقة. لماذا أنا أعيش في الدنيا».

«... كدت أغرق في الضحك من الفرح، عندما هربت وحدي من البيت بهدوء».

«كنت سأذهب، سأذهب إلى مكان ما بعيداً، ولأنظر، ماذا سيحدث في البيت، ثم سأعود ثانية إلى البيت».

«يمكن أن أموت من السعادة والمذلة مع هذا الإنسان... من دونه حالي أحسن».

«لو أمكنني قتله، ثم إعادة خلقه من جديد، تماماً كما هو، لفعلت بكل سرور».

«لدي زوج فقط هو ليفوشكا، هو كل شيء بالنسبة لي، وهذا بفضلي أيضاً، لأنني أحبه حباً رهيباً، وليس لدي عزيز غيره».

«لقد كنت منحرفة المزاج، وانزعجت لأنه يحب كل شيء، ويحب الجميع، وأنا أريده أن يحبني وحدي».

«... كي يعيش، ويفكر ويحب - كل شيء من أجلي».

«مصيبتي هي الغيرة».

«كنت أبكي كالمجنونة، وبعد ذلك لم أفكر، كما يحدث دائماً - لماذا، ولكني كنت أعرف وأدرك أن هناك ما يستدعي البكاء، وحتى الموت أيضاً، إذا كان ليف لن يحبني، كما كان يحبني».

«أنا غير موجودة، بالنسبة لليف».

«لا حياة. لا حب، إذن لا حياة. البارحة كنت أركض في الحديقة، وأفكر، هل من المعقول ألا أرمي بنفسي».

«لا وجود لأي شيء، بالنسبة لي، سواه، واهتماماته ومصالحه».

جميع هذه المقتطفات من يومياتها قبل ولادة طفلهما الأول. وقد كتبتها صونيا ابنة الثمانية عشر ربيعاً، وليس امرأة متعبة، منهكة.

كانت تريد دوماً أن تكون مع زوجها باستمرار، وعلى الدوام. وتكتب في يومياتها لعام 1866: «منذ ولادة أليوشا، نعيش معه في غرفتين منفصلتين، وهذا لا ينبغي أن يكون، لأننا لو كنا معاً لما صبرت وقلت له كل ما حدث معي في المساء، وكل ما كان يغلي في داخلي، أما الآن فلن أذهب إليه، وكذلك الأمر من طرفه».

ولكن هل فعلاً لم يكن يهتم تولستوي بالأطفال عشية شجاره مع زوجته في آب/ أغسطس عام 1882؟ نقرأ في يوميات تانيا تولستايا: «مرض أليوشا مرضاً شديداً. فاستدعينا الطبيب، وقال إنه مصاب بالتيفوئيد. نقلناه إلى الطابق العلوي، إلى الغرفة ذات الشرفة. وأصابني أيضاً خُراج في اللثة، وعالجني بابا – عمل لي لبخات من الخل والملح والكحول والنخالة، التي ساعدتني كثيراً... ذات مرة، كنت مستلقية في غرفة أليوشا بألم شديد، وأليوشا أيضاً كان يئن من ارتفاع حرارته، دخل بابا فجأة وسأل – كيف نحن، ويقول: «حتى إنه مضحك»». وفجأة بدأنا ثلاثتنا نضحك كثيراً بصوت عال، لدرجة أن أبي كاد يسقط على الأرض من الضحك، ولا أذكر كيف ضحكت بقوة على هذا النحو طيلة حياتي، وكذلك إيليا».

لكن شجار الوالدين كان يبدو مختلفاً في عيون الأطفال، عنه في يوميات صوفيا أندرييفنا «منذ أيام تشاجر بابا وماما بصورة مروعة، بسبب أشياء تافهة، وماما أخذت تؤنب بابا بأنه لا يساعدها وما شابه ذلك، وانتهى الشجار بأن أمضى بابا ليلته في مكتبه، وكأنه كي لا يعيق ماما من النوم، التي كانت تنهض كل دقيقة لتراقب إيليا. وفي اليوم التالي حدثت المصالحة. يقول إيليا إنه دخل عن طريق الخطأ إلى المكتب، ورأى كيف كان الاثنان يبكيان. وكانا فيما بينهما متعاطفين، متحابين، كما لم يكونا منذ فترة طويلة. ووعد بابا بأن يهتم أكثر بشؤون الأسرة وأن يعبر عن إرادته، وهذا ما كانت ماما تريده».

في 10 أيلول / سبتمبر يغادر تولستوي إلى موسكو – تاركاً العائلة في ياسنايا، ليباشر إصلاح المنزل في خاموفنيكي وتجهيزه بوسائل الراحة والرفاهية. وهو يهتم بهذا الأمر بكثير من الحماس، ما أصاب أسرته بحالة من الذهول. كان يذهب في سوق سوخاريف إلى متجر الأثاث المستعمل ويختار طقم المفروشات من الخشب الأحمر، ويقوم مع المهندس المعماري بتصميم غرف المستقبل لجميع أفراد الأسرة. وبلغة العمارة اليوم، هو يجهز المنزل «على المفتاح» ويحلم بتلك اللحظة عندما ترى الأسرة هذا المنزل – الروعة.

كأن تولستوي أخذ عصا السباق من زوجته، قبل عشرين عاماً، عندما

وصلت إلى عرين زوجها – عرين النبلاء – في ياسنايا بوليانا، وطبقت فيه النظام «البرجوازي». والآن هو يريد عرض ذوقه واختياره.

حتى إن زوجته بدأت تشعر بالقلق...

«استلمت الآن رسالتك، عزيزي ليفوشكا، وقد أربكتني. من خلال لهجتك، أرى أن البيت غير جاهز أبداً، والله وحده يعرف متى سننتقل إليه. أما من حيث المحتوى، فلا يصح فهم أي شيء من هذا القبيل. ما هو غير الجاهز في الطابق العلوي، هل الغرفتان من الرواق وغرفة الفتيات جاهزة، والمطبخ؟ أنت دوماً تنسى الناس. ثم إذا ما شغل الأثاث الطابق الأرضي، فأين سنعيش؟ فالأثاث كثير، وحجمه كبير، ولضيق المكان قد يتكسر، إذا ما عشنا بوجوده. لا يمكنني قول أي شيء على الإطلاق، ماذا أفكر، ومتى سأنتقل؛ يجب أن أعرف كل شيء بالتفصيل».

يقوم تولستوي بنفسه بشراء واختيار كل شيء: من الطواقم إلى لون ورق الجدران. هو بنفسه يمارس كل شيء: من نقل الموقد الروسي إلى نقل الأثاث والأشياء من منزل جادة دينيجني. إنه في عجلة من أمره، بوضوح، لإسعاد أسرته. لقد احتاج إلى شهر واحد فقط من أجل تجهيز المنزل الجديد. وتتذمر الزوجة في رسالتها: «يا له من أمر غبي للمهندس المعماري أن يصدر أمره بطلاء الأرضيات في الخريف. كل شيء أفضل الآن من أرضية رطبة، يلتصق بها كل شيء، ورائحة الطلاء تهلكنا».

أخيراً، في 10 تشرين الأول انتقلت الأسرة إلى البيت الجديد. وقد صُورت هذه المرحلة بصورة رائعة في يوميات تانيا تولستايا باعتبارها عيداً رائعاً.

«وصلنا إلى حي أرناؤوتوفكا مساء. كان المدخل مناراً، وكذلك القاعة. وكانت مائدة الطعام جاهزة، وعلى المائدة فواكه في مزهرية. عموماً، كان الانطباع الأول في غاية الروعة: والإنارة في كل مكان، رحابة، وواضح من كل شيء أن بابا فكر في كل شيء، وبذل جهده لترتيب كل شيء، على أفضل وجه، وهذا ما حققه إلى حد كبير. لقد تأثرت إلى حد كبير باهتمامه بنا، وهذا كان رائعاً جداً لأنه لا يشبهه. إن منزلنا رائع، ولا أجد فيه أية عيوب، تسترعي الانتباه. أما غرفتي والحديقة – فيا للبهجة!».

منذ هذه اللحظة تبدأ مرحلة جديدة مشرقة في حياة عائلة آل تولستوي. إنها، بالطبع، ليست أبداً جنة ياسنايا بوليانا، لكنها شيء قريب منها. في كتاب أوبولسكي «بيت في خاموفنيكي» يرد وصف اليوم الموسكوفي للعائلة على النحو التالي:

«كان يتناول آل تولستوي طعام الفطور حوالي الساعة الواحدة ظهراً، ويتناولون طعام الغداء في السادسة، يجتمعون على شرب الشاي مساء في التاسعة. كانت المائدة تُجهز للعشاء لـ 12 شخصاً. حول المائدة وبالقرب من الجدران كراس من صنع فيينا. كانت ربة المنزل صوفيا أندرييفنا تجلس في رأس المائدة، وظهرها للنافذة. مقابلها يجلس الابن الأكبر سيرغي لفوفيتش، وإلى يسارها الابن الأصغر فانتشكا، وإلى اليمين - البنت الصغرى ساشا. كان ليف نيقولايفتش يجلس عادة إلى جانب فانتشكا، وإلى جانبه ابنتاه تاتيانا وماريا، ومقابله أبناؤه إيليا، ليف، ميخائيل وألكسي. ومع ذلك، كان من النادر أن تجلس الأسرة وحدها: كان هناك ضيوف دوماً.

في أثناء الغداء، كان يوضع أمام صوفيا أندرييفنا دوماً قصعة تحوي حساء من اللحم، ومن طرف اليسار كانت ثمة كومة من الأطباق العميقة. كانت تسكب الحساء، واقفة، في الأطباق، ويوزعها الخادم ويضعها أمام الجالسين خلف المائدة على صحون صغيرة... لم يقدموا النبيذ على مائدة العائلة، ولكن كان هناك دوماً إبريق من الماء، ووعاء زجاجي يحوي مشروب «الكفاس» المصنوع في المنزل...»

وما إن أصبح تولستوي نباتياً، حت بدأوا يعدون له طعاماً خاصاً - العصائد، وسلطات الشمندر والبصل، وسحلب الفواكه، وعصير الفاكهة... في البوفيه الجانبي المصنوع من خشب الجوز، وبجانب الأواني الفضية كان هناك دوماً إبريق مطلي بالمينا البيضاء للقهوة. ومنذ الصباح الباكر كانوا يسكبون فيه قهوة الشعير. وكان ليف نيقولايفتش كل صباح يأخذه مع كأس ورغيف إلى مكتبه في الطابق العلوي.

على المائدة، كانت دوماً حركة نشيطة جداً. وقد تذكرت الناشرة ل. يا. غوريفيتش:

«إنني أراه بوضوح كامل، عندما كان يجلس على مائدة الغداء الطويلة، ويلوك الخبز في فمه الذي أصبح بلا أسنان، ويروي شيئاً ما ويضحك... عندما يجتمع الجميع على مائدة الغداء، كان الجو ممتعاً وصاخباً أحياناً. كانوا يمزحون، ويشاكس أحدهما الآخر، ويلعبون بالبريد. وكان المراهقون يضحكون ويقهقهون بملء حناجرهم، إلى درجة الصراخ... وأحياناً يبدأ على الفور نقاش جدي ما».

وهل هناك من لم يزر منزل خاموفنيكي! الفنانان غي وريبين، النحات تروبيتسكي، الكتّاب فيت، غريغوروفيتش، تشيخوف، غوركي، الفيلسوفان ستراخوف وسولوفيوف، المؤلفون الموسيقيون روبنشتين، ريمسكي - كورساكوف، آرينسكي، راحمانينوف، سكريابين. وقد أشاد الجميع بالحفاوة غير العادية وحسن ضيافة منزل آل تولستوي. وفي الوقت نفسه، نحت النحات باولو تروبيتسكي في غرفة الطعام تمثالاً نصفياً لليف نيقولايفتش، أما نيقولاي غي فرسم صورة لصوفيا أندرييفنا. وقد حُفظت النسخة الأصلية للصورة في ياسنايا بوليانا، أما نسختها، فتم حفظها في غرفة نوم الزوجين في موسكو فوق الأريكة من الخشب الأحمر، المنجدة بالأطلس الأصفر. وكانت غرفة النوم تطل على الشرفة. وعند مخرجها كان هناك مكتب لصوفيا أندرييفنا، كذلك من الخشب الأحمر، كانت تبيّض عليه رواية «البعث»، ومسرحيات زوجها ومقالاته.

وقد كتب ريبين عنها بحماسة الفنان وإعجابه: «إنها امرأة طويلة القامة، ممشوقة القد، جميلة، ممتلئة القوام، ذات عينين سوداوين حيويتين».

بعد إعادة بناء منزل آل تولستوي في موسكو، أصبح المنزل أكبر وأكثر راحة ورفاهية. صالون، غرفة طعام، مضافتان كبيرة وصغيرة، غرفة نوم، مكتب ليف نيقولايفتش، وغرفة عمل مستقلة، حيث كان يخيط الأحذية، غرفة للأطفال، غرفة للأولاد، غرفتان لتانيا وماشا، وإضافة إلى ذلك - غرفة زاوية وغرفة للأدوات المنزلية، وغرفة لمدبرة المنزل، وغرفة للخياطين، وغرفة للخدم.

وإلى جانب المنزل الرئيس، كان هناك مبنى خارجي، وحظيرة، وغرفة

للحراسة، ومطبخ وتعريشة للمحادثة. حديقة كبيرة جداً. وحلبة للتزلج على الجليد شتاءً أمام المنزل.

ولكن إذا ما ألقينا نظرة إلى يوميات تولستوي... ينشأ لدينا انطباع أن تولستوي لا يعيش في الجنة بل في الجحيم.

في عامي 1882 و1883 لم يدون تولستوي أي شيء تقريباً في يومياته، ولكن اعتباراً من عام 1884 بدأ يدون بصورة دورية.

17 آذار/ مارس. «في الصباح في الطابق الأرضي، كأنه أغاظ زوجته وتانيا بأن حياتهما سيئة».

18 آذار/ مارس. «الناس في المنزل. الأمر محرج، ومغرٍ. موسيقى، أغانٍ، أحاديث. تماماً مثل بعد العربدة».

23 آذار/ مارس. «ركبت على الحصان. الركوب ممل. سخافة – لا أحد. حاولت الحديث بعد الغداء مع زوجتي. غير ممكن. أجابت بجفاء وهي مريضة. ذهبت إلى صانع الأحذية. يكفي أن أدخل إلى سكن العامل حتى أشعر بالانتعاش. قمت بخياطة 10 أحذية. حاولت الحديث من جديد، مرة أخرى جفاء – ومن غير محبة. ذهبت إلى سيريوجا. تحدثت إليه وجهاً لوجه. أمر قاس، وبصعوبة، ولكن كأن الحديث قد تم».

24 آذار/ مارس. «مرتين بدأت الحديث مع زوجتي – مستحيل».

31 آذار/ مارس. «بقيت وحدي معها. محادثة. جوبهت بسوء الحظ والقسوة لأنني مسست غرورها، وبدأتْ. أنا لم أسكت. تبين أنني أزعجتها منذ ثلاثة أيام صباحاً، عندما جاءت تقاطعني. إنها مريضة جداً، نفسياً».

24 نيسان/ أبريل. «لماذا لا أتحدث مع الأطفال: مع تانيا؟ سيريوجكا غبي بشكل مستحيل. إن عقله مخصي مثل أمه. أنتما الاثنين، إذا كنتما ستقرآن هذا يوماً ما، فاعذراني، هذا مؤلم جداً بالنسبة لي».

26 نيسان/ أبريل. «توجهت إلى مخازن الكتب، ولكنني لم أصل إليها، لأنه لم يكن هناك من يصرف لي 10 روبلات في ترام الجر بالجياد. اعتبرني الجميع محتالاً. عدت إلى البيت، تناولت وحدي طعام الغداء... ذهبت إلى المتجر، ولسبب ما اشتريت جبناً وكعكاً. كما في الحلم – أشعر بالضعف...

تحدثت في البيت مع مدام سيرون Seuron (المربية - *المؤلف*) ومع إيليا. كان يبحث عن التواصل معي. شكراً له. شعرت بكثير من السرور. ثم جاء أفراد الأسرة. كل شيء ميت».

3 أيار/ مايو. «... وجدت رسالة زوجتي. مسكينة، كم هي تكرهني. ساعدني، يا إلهي. هل لي بصليب، بصليب ليسحقني، ويحطمني. واختلاج الروح هذا - رهيب وليس مؤلماً فقط، إنه مؤلم وصعب. ساعدني!»

4 أيار/ مايو. «يا رب، خلّصني من هذه الحياة الكريهة، التي تدمرني وتتلفني. شيء واحد جيد أنني أريد أن أموت. الموت أفضل من مثل هذه الحياة».

5 أيار/ مايو. «رأيت في الحلم أن زوجتي تحبني. شعرت بكثير من الراحة، وأصبح كل شيء واضحاً! لا شيء من هذا القبيل في اليقظة. وهذا يدمر حياتي. ولن أحاول الكتابة. الموت جيد!»

6 أيار/ مايو. «في البيت ضجيج آل كيسلينسكي. كآبة، موت».

في الربيع، يرجعون، كالعادة لقضاء الصيف في ياسنايا بوليانا. وهنا أيضاً، لا فرح عند تولستوي.

28 أيار/ مايو. «أحاول أن أكون واضحاً وسعيداً، ولكن صعب جداً. كل ما أفعله رديء، وأنا أعاني بصورة رهيبة من هذه الرداءة. تماماً كأنني الوحيد غير المجنون أعيش في بيت المجانين ويديره أشخاص مجانين».

في 18 حزيران/ يونيو عام 1884 توجه تولستوي لقطع الأعشاب أمام البيت، ثم استحم في البركة. وعاد نشيطاً ومرحاً. وفجأة بدأ عتاب زوجته على خيول سمارا، التي ربّاها، ويتكبد منها الآن الخسائر، والتي تموت، وهو عموماً يريد التخلص منها. واكتسب الجدال طابعاً حاقداً هستيرياً. توجه تولستوي إلى مكتبه، وجمع حقيبته التي ذهب بها سابقاً إلى صحراء أوبتينا سيراً على الأقدام، وانطلق إلى الشارع في الأسفل. لحقته زوجته وسألته: إلى أين أنت ذاهب؟ «لا أعرف، إلى مكان ما، ربما إلى أمريكا، وإلى الأبد. لا يمكنني العيش بعد الآن في المنزل!» - صاح تولستوي بغضب والدموع تملأ عينيه. ذكّرته صوفيا أندريفنا بأنها حامل، وأنها على وشك الولادة. فزاد من سرعة خطوته وسرعان ما اختفى.

عاد من نصف الطريق إلى تولا. يكتب في يومياته بشيء من الكراهية: «في البيت ابناي الشابان، رجلان ملتحيان، يلعبان بالبرغي». وذهب إلى مكتبه ونام على الأريكة. في الساعة الثالثة ليلاً، أيقظته زوجته: «سامحني، أنا ألد، وقد أموت». ليلاً وُلدت ابنتهما ساشا.

لا الأب، ولا الأم كانا سعيدين بهذا الخبر.



الفصل السادس

الصديق العزيز

كان رحيل تولستوي من شاموردينو في الصباح الباكر من 31 تشرين الأول/أكتوبر يكرر بشكل عجيب ودقيق هروبه قبل ثلاثة أيام من ياسنايا بوليانا.

شاهدا الحدث والمشاركان فيه ساشا فيوكريتوفا وماكوفيتسكي كان عليهما أن يشعرا بعاطفة سبق أن رأيناها déja vu، عندما أيقظهما فجأة، تولستوي المسكين، القلق، والحازم في الفندق في بداية الساعة الرابعة صباحاً.

وقد كتب ماكوفيتسكي: «في بداية الساعة الرابعة صباحاً دخل ليف نيقولايفتش إلى غرفتي، وأيقظني، وقال، إننا سنغادر، لا أعرف إلى أين، وإنه نام أربع ساعات، ورأى أنه لن ينام أكثر (ولهذا) قرر السفر من شاموردينو في القطار الصباحي. ومرة أخرى، جلس يكتب رسالة لصوفيا أندرييفنا في الصباح الباكر، كما قبيل مغادرته ياسنايا بوليانا، ثم كتب رسالة لماريا نيقولايفنا. بدأت بترتيب حوائجي. وبعد 15 دقيقة أيقظ ليف نيقولايفتش ألكسندرا لفوفنا وباربارا ميخائيلوفنا».

تتابع الأحداث ذاته. الوجوه ذاتها. الجو ذاته. في أعماق الليل المتحول إلى الصباح الباكر. ظلام دامس وهدوء مسيطر. عدا عن الهاربين، لم يحو فندق الدير أي نزيل آخر. مفاجأة قرار ليف نيقولايفتش ذاتها. فبالأمس مساء، لم يودع شقيقته. وعند مغادرته صومعتها، أكد لماريا نيقولايفنا الثقة المقدسة بأنهما سيلتقيان مجدداً في اليوم التالي. وقبل فترة من هروبه،

محادثته مع الفلاحين حول استئجار بيت. في الحالة الأولى مع الفلاح ميخائيل نوفيكوف، وفي الحالة الثانية، مع الأرملة ألينا خومكينا من قرية شاموردينو.

وأخيراً، الجانب التفصيلي الرئيس المشترك والمخيف: الغموض الكامل في السؤال: إلى أين يتوجهون؟ وكما في ياسنايا بوليانا، لم يقل للمقربين إلى أين يتوجه بصورة دقيقة، كذلك في شاموردينو، كأنه أخفى عنهم ذلك.

قد ينشأ شك غريب، بأنه، بصورة واعية مقصودة، أربكهم، ولم يسمح لهم بالتفكير، وأخضعهم لإرادته بصورة استبدادية. وهكذا بالذات يتصرف الشيوخ والحكماء، مذهلين طلابهم بالطاعة المفاجئة، دون أن يفسروا لهم أهمية هذا أو ذاك من أقوالهم وتصرفاتهم، التي قد تكون غريبة وربما تجديفاً للنظرة الأولى. لقد كان حلم تولستوي السري المكنون أن يصبح مجذوباً مقدساً. فهل حاول تولستوي أثناء مغادرته اختبار هذا النموذج من السلوك عملياً؟

سنضطر للتخلي عن هذه الفرضية. ففي سلوك تولستوي في شاموردينو يظهر قدر أقل من الثقة منه أثناء مغادرته ياسنايا بوليانا. ولكن الشيء الرئيس، هنا، كما هو الأمر في ياسنايا، كان ثمة شخص خامس غير ظاهر للعيان، لكنه موجود، وهو صوفيا أندرييفنا. فهي بالذات التي توجه جميع تصرفات تولستوي الشاذة. زد على ذلك، فهي تقوم بهذا ليس فقط ضد إرادتها، بل حتى دون أن تشعر بذلك.

إن صوفيا أندرييفنا ترغب عكس ذلك: إيقاف زوجها، إبقاءه بالقرب منها. لكن جميع تصرفاتها تثير فعلاً معاكساً تماماً: فيتخلى تولستوي عن كل شيء ويهرب. ولو أنها أخذت بعين الاعتبار في الوقت المناسب الخاصية الجذرية التي تعرفها لطبيعة زوجها، ومقاومته الداخلية العنيفة للقسر والضغط الخارجي، لتصرفت، بالطبع، بطريقة أخرى. لكن مجادلة زوجته، بالإضافة إلى إدانة سلوك صوفيا أندرييفنا هو عمل لا أخلاقي أولاً، وبلا طائل، ثانياً.

بعد هروب تولستوي مباشرة، قام الطبيب النفسي ب. ي. راستيغايف

بفحص صوفيا أندرييفنا وأعطى تشخيصاً محدداً، وإن كان حذراً، بسبب قصر فترة الفحص، لحالتها النفسية وذكر أنها «تعاني من اضطراب عقلي (هستريائي)» وأنها «بتأثير بعض الظروف يمكن أن تحدث لها نوبات، بحيث يمكن الحديث عن الاضطراب النفسي القصير الأمد».

الحقيقة هي الحقيقة: تولستوي، سواء في ياسنايا بوليانا أو شاموردينو، كان خائفاً بذعر من زوجته، وبعبارة أصح كان خائفاً من لقاء مفاجئ معها. ففي ياسنايا، كان خائفاً من أن تستيقظ، وتصبح شاهد عيان على هروبه. وفي شاموردينو، خاف من قدومها المفاجئ، الذي عرف بإمكانية حدوثه من رسالتها ومن رسائل الأولاد. وقد تذكرت آ. ل. تولستايا: «كان من الممكن لأبي أن يبقى في شاموردينو. فقد وجد لنفسه شقة في القرية... لكن الأخبار والرسائل التي حملتها له أقلقته. كنا جالسين في صومعة العمة ماشا الدافئة والمريحة نتحدث. وكان أبي يسمع صامتاً. وفجأة، اتكأ بيديه على يدي المقعد وبحركة سريعة نهض وخرج إلى الغرفة المجاورة. وكان واضحاً، أنه اتخذ قراراً ما، حاسماً».

حتى في ذكرياتها اللاحقة، تركز ساشا على رسائل المنزل، محاولة إعفاء نفسها من مسؤولية هروب أبيها من شاموردينو، الذي كان جنوناً صرفاً. لكنها في الواقع، ساهمت مساهمة كبيرة في زيادة الخوف من شبح الأم المريضة، التي كانت تعاملها في تلك الفترة بروح عدائية. أما ماكوفيتسكي فيصور بطريقة أخرى مشهد الحديث في صومعة ماريا نيقولايفنا.

«روت ألكسندرا لفوفنا أن صوفيا أندرييفنا تريد بالتأكيد اللحاق بليف نيقولايفتش؛ وأنها تستعلم (عن طريق الحاكم، ومن خلال رجُلها، ومن خلال مراسلي «الكلمة الروسية – روسكوي سلوفو») مكان وجود ليف نيقولايفتش، وأنهم يفترضون أنه في شاموردينو ويمكن توقع قدوم صوفيا أندرييفنا وأندريه لفوفيتش.

قال ليف نيقولايفتش إنه سيكون مسروراً بقدوم أندريه لفوفيتش، وإنه سيقنعه بأنه من غير الممكن أن يعود، وإنه من غير الممكن أن يكون مع صوفيا أندرييفنا، من أجلها ومن أجلي.

عندما عبرت ألكسندرا لفوفنا عن خشيتها من أن صوفيا أندريفنا قد أصبحت بالفعل بالطريق إلى هنا؛ وأنها قد تصل في الصباح؛ وأنه يجب جمع الحوائج والسفر إلى مكان آخر. قال ليف نيقولايفتش:

– يجب التفكير في الأمر. الوضع في شاموردينو جيد.

وتحدث عن الشقة في القرية، التي سيسكن فيها:

– لا أريد التحدث عما سيكون مستقبلاً.

جاءت باربارا ميخائيلوفنا (فيوكريتوفا – *المؤلف*) وتحدثت الكثير عن حالة صوفيا أندريفنا وعن القلق في ياسنايا بوليانا.

كان واضحاً عليها، وبخاصة على ألكسندرا لفوفنا، الخوف المرعب الذي سيطر عليهما.

أصرت ألكسندرا لفوفنا وباربارا ميخائيلوفنا على أنه من الضروري الهروب بعيداً، وبأسرع وقت ممكن. حتى إن ألكسندرا لفوفنا تركت حوذيها حتى الصباح، من أجل الذهاب في عربتهم للوصول إلى قطار الساعة الخامسة صباحاً على خط سوخينيتشي – بريانسك».

كانت ضد هذا الهروب المتسرع لتولستوي أخته وابنتها يليزافيتا. أما ماكوفيتسكي فاتخذ الموقف المحايد للطبيب، ومهمته متابعة الحالة الصحية للهارب، أما ما تبقى – فكما يقرر هو بنفسه.

فيما بعد، وفي ترتيبه لمدوناته، أنّب ماكوفيتسكي نفسه، بصدق، لأنه أغفل بداية مرض تولستوي، ورداً على سؤال يليزافيتا فاليريانوفنا المباشر «هل يُسمح له بالسفر؟» أجاب: «يُسمح، الضعف قد زال».

ويبدو أن حقيقة أن تولستوي لم ينتظر «الفلاّحة» من القرية، التي كان عليها أن تؤكد له أن العزبة جاهزة للإيجار، قد لعبت دوراً. وقد سأل ليف نيقولايفتش ماكوفيتسكي عدة مرات عنها، وآخر مرة سأله في طريق العودة مساء من صومعة أخته إلى الفندق. لكن «الفلاحة» لم تأت. ومن المحتمل، أنه وصلت الأخبار إلى القرية عن المستأجر الذي ينوي الإقامة عندهم (الكونت تولستوي نفسه)، فخافوا ببساطة. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يكرر تماماً قصة محاولة ليف نيقولايفتش السكن في القرية عند ميخائيل نوفيكوف أو بالقرب منه.

لكن السبب الرئيس للهرب هو شبح صوفيا أندريفنا. لماذا خاف تولستوي هذا اللقاء معها، لدرجة أن هذا الخوف أيقظه في منتصف الليل ودفعه لمغادرة المكان الذي كان يروق له بوضوح، والذي أراد البقاء فيه، وربما الموت فيه أيضاً؟

هذا جانب مهم! إن تولستوي لم ينو الهرب بصورة حتمية. وجميع الفرضيات الزاعمة بأن قوة لا عقلانية ما كانت توجهه نحو الهرب، إما من الموت، أو نحو الموت، أو أن روحاً رومانسية، استيقظت في أواخر أيام حياته، للسفر، والرغبة بزيارة الأماكن التي أمضى فيها شبابه، كالقوقاز – برأينا – لا أساس لها من الصحة إطلاقاً. فهي لا تأخذ بعين الاعتبار الخاصية الرئيسة لمزاج تولستوي في المرحلة المتأخرة. لم يكن لديه أي فرق إطلاقاً، أين سيكون. المهم أن يدَعوه بسلام وهدوء مع أفكاره، مع إلهه. المهم أن تكون ظروفه الخارجية متقشفة لدرجة لا يعذبه فيها ضميره، ولا تصرف اهتمامه عن أفكاره حول الله، والالتحام السريع به.

كان مستعداً للعيش في أوبتينا، وفي شاموردينو، وفي فندق الدير. كان مستعداً لأن يصبح راهباً مبتدئاً وأن ينفذ أي عمل يدوي مجهد. بشرط ألا يكون هناك فوق روحه أي قمع خارجي، بشرط ألا يرغموه على التصنع، والصلاة والاعتراف، لأنه لم يعتبر هذا لنفسه ممكناً.

إن تمركزه الروحي حول ذاته في أواخر أيامه يصل إلى الذروة. وهو لم يعد يرغب بتقديم تنازلات والقبول بالحلول الوسط لمتطلبات الحياة الخارجية ويرغب بخدمة «الأنا» الداخلية الخاصة به حصراً، بخدمة «ليف تولستوي» الذي سيقف اليوم أو غداً أمام محراب الله.

الكوخ الذي أراد استئجاره في شاموردينو كان يتألف من غرفتين صغيرتين، تعيش في إحداهما امرأتان أرملتان. ولم يكن فيه حتى سرير لائق، مجرد أريكة. ومع ذلك، وافق تولستوي دون تفكير على هذه الصيغة. وعندما لم تأت «الفلّاحة» من القرية، قرر الإقامة في الفندق.

في رسالته إلى تشرتكوف التي كتبها قبل الهروب من شاموردينو، كتب تولستوي: «نتوجه إلى الجنوب، غالباً إلى القوقاز. وبما أنه لا فرق عندي

أين سأكون، قررت اختيار الجنوب، خاصة لأن ساشا تعاني من السعال».
لقد كان القرم أفضل مكان لرئتي الابنة المريضتين، حيث إنها منذ فترة قريبة تعافت بنجاح من السل الرئوي. واتجاه القرم وليس القوقاز هو الاتجاه الذي فكرا به في البداية، عشية السفر في الفندق، وهما منحنيان فوق خريطة برويل للسكك الحديدية. ويكتب ماكوفيتسكي: «لقد قرروا القرم، ثم رفضوه، لأن ثمة خط سكة حديدية واحداً، وباتجاه واحد، وليس هناك من قطار للعودة. كما أن المكان هو منتجع للاصطياف، أما ليف نيقولايفتش فيبحث عن أجمة وغابة».

وهاهما المطلبان اللذان وضعهما ليف نيقولايفتش للمكان الأخير، كما هو واضح لإقامته. يجب أن يكون المكان «موحشاً»، أجمة، ولكن يجب أن تتوفر في هذه الأجمة إمكانية الهروب إلى مكان أبعد، إذا ما أصبح معروفاً أن صوفيا أندرييفنا قررت، رغم كل شيء، ملاحقته.

ولكن، كيف يعرف بصورة دقيقة؟ لقد اهتم بهذا الأمر في الرسالة الأخيرة ذاتها إلى تشرتكوف. «الشيء الأهم، أن تتابع، من خلال شخص ما، لما يجري في ياسنايا بوليانا، وتعلمني، عند معرفتك أين موقعي، تخبرني ببرقية، كي أتمكن من المغادرة. فاللقاء معها يمكن أن يكون رهيباً».

ونتساءل من جديد: لماذا كان يخشى هذا اللقاء، لدرجة أنه بدلاً من القرم المبارك يختار القوقاز المتوحش، حيث كان من الأسهل عليه أن يختبئ من زوجته؟

هنا، بالإضافة إلى مزاج تولستوي الروحي، على الباحث أن يأخذ بعين الاعتبار الخاصية الجذرية لطبيعته. فهو، مع عدم احتماله لأي ضغط وقسر خارجي عليه، كان في الوقت نفسه يكره المشاجرات والهستيريا. ففي المواقف الحرجة، بالإضافة إلى المواقف الفضائحية، كان دوماً يستسلم لزوجته. وعدا عن لطافته الفطرية، كان هذا مظهراً من مظاهر نزعته الهروبية escapism ومتلازمة الهارب. فقد كانت الموافقة أبسط وأسهل عليه من إثبات أحقيته وصحة وجهة نظره. لقد كان التستر على الفضيحة بالموافقة الظاهرية أسهل عليه من الإصرار بقوة على رأيه. وطيلة ثمانية وأربعين

عاماً من حياته مع صوفيا أندرييفنا كان يتنازل باستمرار، ويتنازل ويتنازل. حتى في الخمسة عشر عاماً الأولى من الحياة العائلية السعيدة، عندما كان، وهو الرجل الناضج والخبير، يربّي زوجته الشابة الفتية، فقد اعترف بأن زوجته تؤثّر فيه أكثر مما هو يؤثّر فيها. وبالتدريج، سلمها دائرة كاملة من حقوقه وواجباته. فقد أصبحت هي مالكة ياسنايا بوليانا، وهي التي تتصرف بمداخيله من مؤلفاته التي كتبها قبل عام 1881 (مؤلفات بعد هذا العام أصبح تشرتكوف يمارس هذه الصلاحية)، وهي التي استأجرت عناصر الأمن لحماية العقار، وهي التي كانت تصمد أمام ضغط الأبناء بخصوص طلباتهم المتكررة من المال.

بثمن التنازلات وإخلاء نفسه من المسؤولية، اشترى لنفسه حق الوحدة الروحية، التي احتاج إليها، كفيلسوف، في نهاية الأمر، أكثر من التواصل مع أكثر الأشخاص محبة لديه. لقد تنازل عن صوفيا أندرييفنا، وحتى عن تشرتكوف، على الأصح عن إمكانية التواصل معه. لكن شيئاً واحداً لم يستطع تولستوي التنازل عنه - عن ذات «ليف تولستوي» الداخلية التي كانت تستعد باهتمام كبير للتوحد مع الإله.

لاحظوا: الشيء الوحيد الذي لم يتنازل عنه تولستوي لزوجته أثناء الفضائح الرهيبة في الشهر الأخير، قبيل مغادرته، كان يومياته. وهنا وقف حتى الموت بكل معنى الكلمة، مخاطراً بتمزّق قلبه.

خلاف ذلك، كان مستعداً للإقدام على أية تنازلات. ولو أن صوفيا أندرييفنا أدركته في شاموردينو، أو في القرم، أو في القوقاز أو على سطح القمر، لعاد معها بالطبع إلى ياسنايا بوليانا. ولما تحمّل دموعها وهستيريتها. ولكانت عودة مخجلة بالنسبة له. وعدا عن ترهات الآخرين (عاد إلى البيت العجوز الهارب المجنون)، كان هذا يمكن أن يعني قهراً رهيباً لروحه وجسده، أشد رهبة من الموت في الطريق.

حتى في العشية مساء في الفندق، لم يكن لدى تولستوي نية ثابتة بالمغادرة. لكنه بحث مع ساشا وفيوكريتوفا وماكوفيتسكي هذا الاحتمال. فوضعوا على الطاولة الخارطة الكبيرة الزرقاء لدليل برويل الشهير للسكك

الحديدية. وقد كان هذا دليلاً مرجعياً رائعاً لجميع خطوط السكك الحديدية في روسيا ما قبل الثورة، يعاد نشره مرتين في السنة - في نيسان / أبريل وفي تشرين الأول/ سبتمبر. «الدليل الرسمي للخطوط الحديدية، والبواخر ووسائل نقل الركاب الأخرى» وكان يصدر في إصدارين صيفي وشتوي. ولم يكن رخيص الثمن: 85 كوبيكاً من دون غلاف سميك و1 روبل و15 كوبيكاً بغلاف سميك. إن حجمه المناسب، القريب من حجم الجيب، سمح مع ذلك بوضع خرائط كبيرة مطوية فيه، تشغل كل واحدة منها بعد فتحها طاولة كاملة. وإحدى هذه الخرائط لم تقتصر على طرق روسيا وحدها، بل شملت أوروبا كلها، وجنوب آسيا، والصين أيضاً. لكن الهاربين كانت تهمهم غالباً الخارطة الثانية - الأكثر تفصيلاً.

بعد أن تخلوا عن القرم، باعتباره طريقاً مسدوداً، تحدثوا عن القوقاز، عن بيساربيا. نظروا إلى خريطة القوقاز ثم إلى مدينة لغوف (في منطقة كورسك - المترجم). ويتذكر ماكوفيتسكي: «لم يقرروا شيئاً محدداً، على الأغلب قرروا لغوف، حيث تعيش على بعد 28 كيلومتراً منها ل. ف. آنيكوفا، وهي صديقة ليف نيقولايفتش الروحية المقربة. ورغم أن لغوف بدت قريبة جداً منها، لكن صوفيا أندرييفنا لم يكن باستطاعتها القدوم إليها...»

على ما يبدو، كانت ساشا تقصد لغوف، حسب تعبير ماكوفيتسكي «عندما تركت حوذييها حتى الخامسة صباحاً، من أجل الذهاب على عربتهم واللحاق بقطار الساعة الخامسة صباحاً سوخينتشي - بريانسك». لكن ساشا نفسها، عندما تذكرت سهرتهم المسائية على الخارطة، ذكرت اسم نوفوتشركاسك: «اقترحنا السفر إلى نوفوتشركاسك. والتوقف في نوفوتشركاسك عند يلينا سيرغييفنا دينيسنكو، ومحاولة الحصول على جوازات سفر خارجية بمساعدة إيفان فاسيليفتش، فإذا تمكنا سنسافر إلى بلغاريا، وإذا لم نتمكن فسنذهب إلى القوقاز - إلى شركاء والدي في الرأي».

إن الخيارات كانت سيئة، وكل خيار كان أسوأ من الآخر. فقد كان من المستحيل الاختباء في لغوف عن أعين الصحفيين وعن صوفيا أندرييفنا. رغم أن لغوف كانت مدينة مقاطعة إقليمية صغيرة، وكان يعيش فيها، وفقاً لقاموس بروكهاوس، حسب معطيات عام 1895 ما يزيد قليلاً على خمسة

آلاف نسمة. وهي تقع على بعد ستين كيلومتراً من كورسك على نهر سيم. وكانت عزبة المعجبة بتولستوي ليونيلا فومينيتشنا آنيكوفا على بعد ثمانية وعشرين كيلومتراً عن المدينة، وبالطبع، كانت ستستقبل تولستوي بأذرع مفتوحة. وقد قال تولستوي متعجباً في إحدى رسائله عن آنيكوفا: «يا لها من امرأة متدينة!». وقد زارت آنيكوفا غير مرة تولستوي في بيته في موسكو وفي ياسنايا بوليانا. لم تكن صوفيا أندرييفنا تحبها، مثلها مثل جميع النساء «الجاهلات». علاوة على ذلك، كانت آنيكوفا ترسل لتولستوي علامات اهتمام حميمة للغاية، فقد أرسلت له إلى ياسنايا بوليانا أشياء خاطتها وغزلتها بيديها: جوارب دافئة، محارم، مناشف، قبعة صيفية. وبالتالي، فهي ولجت، بذلك، في منطقة صوفيا أندرييفنا. في أيلول/ سبتمبر 1910، زارت للمرة الأخيرة ياسنايا بوليانا، وكونت تصوراً كاملاً عن جدية النزاع بين ليف نيقولايفتش وصوفيا أندرييفنا. وفي رسالتها إلى تولستوي بعد رحيلها، حثّت معبودها على عدم الاستسلام لزوجته. فردّ عليها تولستوي برسالة متعاطفة، مثل «صديق قديم».

إن انتقال ليف نيقولايفتش إلى آنيكوفا كان يمكن أن يشكل ضربة قاسية لصوفيا أندرييفنا. لكن تولستوي لم يفكر قط بالبقاء هناك بشكل دائم. بل بقصد «الاسترخاء». ولكن لو أنهم اختاروا الخط الحديدي سوخينيتشي – بريانسك، فإن طريقهم اللاحق سيقودهم إلى كييف، وليف نيقولايفتش لم ينو إطلاقاً الذهاب إليها. وإلا كان عليه أن يعود من حيث أتى، مخاطراً في كل مرة، بأن يكون ملاحقاً من قبل صوفيا أندرييفنا.

كانت المشكلة في أنه من غير الممكن الوصول إلى لغوف عن طريق سوخينيتشي – بريانسك. وكانت الإشارة إلى لغوف على خط سوخينيتشي – بريانسك في خريطة بريول خطأ، وهذا ما لم يدركه الهاربون على الفور.

وكانت المشكلة الثانية تكمن في أنه على هذا القطار، كان يمكن لصوفيا أندرييفنا أن تصل من غورباتشوفو إلى كوزيلسك. وهذا الاحتمال بالذات هو ما قصدته ساشا، بإلحاحها على الرحيل السريع من شاموردينو. وإذا ما حدث هذا، فإنه من المؤكد تقريباً أن يلتقي ليف نيقولايفتش بزوجته في كوزيلسك أثناء ركوبه القطار الذي استقلته للحاق به. حول مدى جدية هذا الاحتمال (في

أعين الهاربين على الأقل) يمكننا الحكم من خلال يوميات ماكوفيتسكي. عندما انطلقوا في الصباح الباكر من شاموردينو باتجاه كوزيلسك، كان واضحاً أنهم لن يلحقوا قطار الساعة الخامسة صباحاً، فخافوا كثيراً أن يلتقوا على الطريق بصوفيا أندرييفنا. وقد حث تولستوي الحوذي على السرعة، أما ماكوفيتسكي فاقترح رفع غطاء العربة إلى الأعلى. لم يوافق ليف نيقولايفتش على هذا (شيء معيب!)، وحينئذ قال الطبيب للحوذي «إذا ما سألوك في العربات القادمة من تنقل، فلا تجب». وبهذا التوتر توجهوا إلى كوزيلسك.

من أجل الوصول إلى لغوف، كان من الواجب الذهاب ليس إلى سوخينيتشي (إلى الغرب، الاتجاه الخاطئ)، بل إلى غورباتشوفو (الشرق) ومن ثم إلى الجنوب: أوريول – كورسك. ولكن في هذه الحالة، فإن طريق الهروب سيتوجه نحو خاركوف وسيمفيروبل، أي نحو القرم من جديد، وهو المكان الذي لم يرغب ليف نيقولايفتش بالذهاب إليه. علاوة على ذلك، لم يكن هناك خط مباشر إلى كورسك عبر غورباتشوفو من كوزيلسك. كان من الضروري تغيير القطار في غورباتشوفو والانتظار ثماني ساعات، مع المخاطرة الدائمة بالالتقاء في عقدة المواصلات هذه بصوفيا أندرييفنا، التي كان بإمكانها أخذ القطار إلى كوزيلسك عبر غورباتشوفو بالذات.

وهكذا، فقد انقلبت الرحلة الروحية إلى أوبتينا وشاموردينو عبر كوزيلسك «المقفرة» لليف نيقولايفتش إلى مصيدة حقيقية: لا يمكن الخروج منها إلا عبر غورباتشوفو نفسها، ومنها وصلوا إلى كوزيلسك، ولكن إلى أين، ففي حال ملاحقتها لزوجها، لوصلت زوجته البائسة إليها حتماً.

وهكذا، مدفوعاً بالخوف، يختار تولستوي الأسرع، من وجهة نظر الجدول الزمني للقطارات، والطريق الأطول، جغرافياً: كوزيلسك – غورباتشوفو – فورونيج – نوفوتشيركاسك.

إنها القوانين الصارمة للخطوط الحديدية الروسية وليس أبداً محبة القوقاز الرومانسية، كانت السبب الرئيس الحاسم الذي دفع تولستوي لأن يهرب لا إلى الغرب، ولا إلى الجنوب، بل إلى الجنوب الشرقي، عبر سهوب الدون التي لا نهاية لها.

لهذا من المضحك والمؤلم جداً أن يقرأ المرء أن تولستوي توفي في «محطة الله المنسية». إن أستابوفو بالذات لم تكن «محطة الله المنسية». لقد كانت أستابوفو محطة – عقدة كبيرة بين دانكوف ورانينبورغ. ولو لم يتطور مرض تولستوي بهذه السرعة، ولو تجاوزوا دون تبديل القطار غورباتشوفو، دانكوف، أستابوفو، بوغويافلنسك، كوزلوف، غريازي، غرافسكايا، وفورونيج أخيراً، لامتد الطريق عبر السهوب الفارغة، عبر مئات ومئات الكيلومترات إلى أول بلدة كبيرة قرية القوزاق الكبيرة ميليروفو.

الشرق – مسألة دقيقة...

ليست صحراء حقاً

تحدثنا في الفصل السابق، أن تولستوي في أبحاثه وتنقيباته في بداية الثمانينيات، كان وحيداً. وهذا لم يكن دقيقاً بكل معنى الكلمة. لقد كان تولستوي يشعر بالوحدة، عندما فقد الدعم من أسرته. وقد كتب لميخائيل إنغلغاردت في أواخر عام 1882، معترفاً أمام شاب غريب، أظهر تعاطفاً نحو حالته المزاجية: «... لا يمكنك أن تتصور إلى أية درجة أنا الآن، في الحاضر، محتقر من جميع المحيطين بي». ولكن في الواقع، ومنذ خريف عام 1881، وبعد انتقال آل تولستوي إلى موسكو، بدأ يظهر من حوله أشخاص، رغم أنهم لم يكونوا «تولستويين»، لكنهم كانوا قريبين منه روحياً، ولطفاء معه.

من بين هؤلاء، كان الفيلسوف ن. ف. فيودوروف، الذي كان يعمل أميناً لمكتبة متحف روميانتسيف. إنه من عمر ليف نيقولايفتش، لكنه كان آنذاك يبدو طاعناً في السن، نحيفاً، قصير القامة، يمضي العام كله في رداء قصير لا يبدله. كانوا يلقبونه بـ«سقراط موسكو». لقد كان زاهداً مطلقاً: عاش في غرفة صغيرة تابعة للمكتبة، وكان ينام على دفوف خشبية يغطيها بمعطفه نفسه، وكان يصرف راتبه الكبير، باعتباره كبير أمناء المكتبة، لشراء الكتب للمكتبة نفسها، ويوزعه على الفقراء. وكان خفراً وخجولاً، لكنه في الوقت نفسه، كان يتّقد بناره الداخلية كمدافع شديد عن الثقافة العالمية، وخاصة

الكتب. وقد رآه ابن تولستوي، إيليا لفوفيتش، وقال مفترضاً، «إذا ما كان هناك قديسون فيجب أن يكونوا مثله».

كمفكر، كان لنيقولاي فيودوروف مؤلف «فلسفة الشأن العام» – الذي نشره بعد موته بترسون، المعلم السابق في مدرسة تولستوي في ياسنايا بوليانا – أثر في الفلاسفة تسيولكوفسكي، وفرنادسكي، وتشيجيفكي. كما كان له أثر أيضاً في كثير من الكتّاب السوفييت في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين من أندريه بلاتونوف وحتى فلاديمير ماياكوفسكي. وتكمن فكرته الرئيسة في ضرورة بعث وإحياء جميع الناس الموتى، جسدياً، «جيل الآباء» باستخدام أحدث منجزات العلم. وقد بدت هذه الفكرة في حياة فيودوروف، وبعد مماته، فكرة طوباوية علمية مزيفة. ولكن اليوم، في عصر موضة «النسخ»، لا تبدو أبداً هراءً مطلقاً. ومن أجل استيعاب الناس المبعوثين، اقترح مخرجاً لذلك غزو الإنسان للفضاء وإعماره. وهذا كان يبدو أيضاً في أواخر القرن التاسع عشر مجرد طوباوية.

لقد رأى تولستوي ن. ف. فيودوروف للمرة الأولى في عام 1878 عندما كان يعمل في مكتبة روميانتسيف على وثائق الديسمبريين. وفي تشرين الأول/ أكتوبر عام 1881 بعد الشهر الأول الذي قضاه في موسكو (يشكو تولستوي في يومياته: «... الشهر الأكثر إيلاماً في حياتي»)، التقى به من جديد ورآه بعيون أخرى تماماً. يقول في يومياته بتاريخ 5 تشرين الأول/ أكتوبر: «إن نيقولاي فيودوروفيتش قديس، خزانة. إنجاز كامل! وهذا أمر بديهي. ليس لديه ملايات، ولا سرير».

ولكن ليس لتولستوي علاقة بـ«فلسفة الشأن العام» ولا يمكن لها أن تكون. ففكرة البعث المادي لـ«الآباء» كانت تناقض جذرياً ما كان يبحث عنه تولستوي في المجال الروحي. كان تولستوي يبحث عن ملكوت الله في *داخل ذاته* وليس خارج الإنسان. أما فيودوروف فكان يمكن أن يجذبه فقط كإنسان اكتسب ملكوت الله داخل ذاته. كان تولستوي ذا نزعة أنانية روحية، أما فيودوروف فكان ممارساً طوباوياً. كانت إعادة الإنسان القسرية، خلافاً لإرادة الله وتجسيده الأرضي الأثم ليست عملاً خاطئاً فحسب، بالنسبة لتولستوي، بل عملاً رهيباً. وأخيراً، كان لديهما مدخلان متناقضان لفهم

«الشأن العام». فـ«الشأن العام»، كما يفهمه تولستوي، هو العمل الطبيعي الذي يمارسه الفلاحون. أما فيودوروف فيدعو إلى خدمة فكرة واحدة، وهو بالتالي، يعد شيوعياً روحياً.

كان فيودوروف معجباً جداً بـ«الحرب والسلام». ولكن لماذا؟ لقد كتب فيودوروف: «في «الحرب والسلام»، بقدر ما يملك من قوى، يبعث آباءه، موظفاً موهبته العظيمة في هذه المسألة، - بالطبع، يبعثهم بالكلام فقط». وبعد أن تعرف على مؤلف الرواية، كان فيودوروف يتوقع منه إن لم يكن بالدعاية لفكرة الإحياء، فعلى الأقل «البعث» الكلامي المطرد للآباء في إبداعه. وقد تذكر ابن تولستوي الأكبر سيرغي لفوفيتش: «عند كل لقاء مع أبي، كان يطالب بأن ينشر أبي هذه الأفكار. هو لم يكن يرجو رجاء، بل يطلب بإلحاح، وعندما رفض أبي بعبارة شديدة التهذيب، استاء، وغضب، ولم يستطع أن يغفر لأبي هذا».

ولكن، في ذلك الوقت بالذات، كان تولستوي يبتعد عن النثر التاريخي، وأحلامه بكتابة «الشعر» يخفيها عميقاً في ذاته، معترفاً بذلك فقط في رسائله لزوجته. علاوة على ذلك، كانت ثقافة الكتب في هذه الفترة تثير في تولستوي الكراهية. ذات مرة، جاء تولستوي إلى مكتبة رومیانتسیف، فدعاه فيودوروف إلى مستودع الكتب، كي يختار بنفسه الكتب التي يحتاجها. نظر تولستوي إلى الصفوف الطويلة من الخزائن العالية، ذات الدرفات الزجاجية، المكتظة بالكتب، وقال بصوت هامس بعد تفكير:

- آه، لو أمكن تفجيرها بالديناميت!

كان سخط فيودوروف بلا حدود! وقد تذكر صديقهما المشترك: «كان فيودوروف دوماً هادئاً، طيباً مرحباً؛ أما في هذه المرة فقد كاد يحترق كله غضباً، وسخطاً، وكان حانقاً ممتعضاً».

أما الانفصال النهائي بينهما فقد جاء إثر مقالة تولستوي «الجوع» التي لم تُنشر في روسيا لاعتبارات الرقابة، لكنها صدرت باللغة الإنكليزية في صحيفة «Daily Telegraph» في 14 كانون الثاني/ يناير عام 1892. لقد كتب تولستوي هذه المقالة، متأثراً بصور مجاعة الفلاحين في عامي 1891-1892،

عندما شارك تولستوي نفسه وأبناؤه الكبار مشاركة مباشرة في تقديم المساعدة للجائعين. إن الطابع الراديكالي لهذه المقالة، إضافة إلى النص المترجم إلى اللغة الإنكليزية بروح معادية للحكومة الروسية، قد استفزتا فيودوروف. وربما تذكر فيودوروف «الديناميت»، وقرر أن تولستوي يدعو إلى التمرد والانتقام من السلطة. وقد وصف غ. ب. غيورغيفسكي رئيس قسم المخطوطات في متحف روميانتسيف لقاء تولستوي وفيودوروف بعد المقالة:

«عندما رأى تولستوي يسرع نحوه، سأله فيودوروف بحدة: «ماذا تريد؟»

– انتظر – أجاب تولستوي – دعنا أولاً نتصافح... أنا لم أرك منذ فترة طويلة.

– لا يمكنني مصافحتك بيدي – اعترض فيودوروف – لقد انتهى كل ما بيننا.

أبقى نيقولاي فيودوروفيتش يديه بعصبية خلف ظهره، منتقلاً من جانب إلى آخر في الممر، محاولاً الابتعاد عن محاوره.

– اشرح لي، نيقولاي فيودوروفيتش، ماذا يعني كل هذا؟ – سأل تولستوي، وسُمعت في صوته كذلك زفرات عصبية.

– أليست رسالتك المنشورة في «Daily Telegraph»؟.

– نعم، رسالتي.

– أفلا تدرك، ما هي المشاعر التي أملتها وإلى أي شيء تدعو؟ لا، ليس لدي معك قضية مشتركة، ويمكنك المغادرة.

– نيقولاي فيودوروفيتش، نحن كبار في السن، تعال على الأقل، نودع أحدنا الآخر...

لكن نيقولاي فيودوروفيتش ظل مصراً على موقفه، واستدار تولستوي، بتهيج واضح، وذهب.

بيد أن موقف تولستوي نفسه من فيودوروف كإنسان لم يتغير. ففي رسائله إلى أشخاص كثيرين، كان يدعوه «إنساناً عزيزاً، لا ينسى»، «إنساناً رائعاً»، كان يكن نحوه، وما يزال «أعمق الاحترام».

أما الشخص الرائع الآخر الذي التقى به تولستوي في عام 1881 فكان الفيلسوف الفلاحي – الطائفي فاسيلي كيريلوفيتش سيوتايف. كان سيوتايف

من أوائل «الجهلاء» الذين زاروا آل تولستوي في بيتهم بموسكو، وافتتح مرحلة جديدة في حياة هذه الأسرة، حياة رغم كامل حزن صوفيا أندريفنا، أصبح من غير الممكن تصورها، اعتباراً من ذلك الوقت، دون تدخل الغرباء في الحياة اليومية للأسرة.

بالاختلاف عن فيودوروف، كان سيوتايف شريكاً كاملاً لرأي تولستوي تقريباً، في المسائل الروحية، أما في الحلول التطبيقية لهذه المسائل، فيمكن حتى اعتباره معلماً لتولستوي.

عن سيوتايف، فلاح منطقة نوفوتفورجسكي في مقاطعة تفير، ترك ذكريات رائعة آ. س. بروغافين، باحث الطائفة الروسية، حيث كتب: «في عام 1880، انتشر الخبر في الصحف نقلاً عن «نشرة تفير» عن ظهور طائفة دينية جديدة في منطقة نوفوتفورجسكي، واسمها «الطائفة السيوتايفية» باسم مؤسسها فلاح قرية شيفيلين، فاسيلي كيريلوفيتش سيوتايف».

توجه شخصياً بروغافين إلى مقاطعة تفير للتعرف على الطائفة الجديدة ومؤسسها. وهاكم كيف وصف مظهره الخارجي:

«... رجل قصير القامة، ضعيف، عمره قرابة خمس وخمسين سنة، يرتدي قفطاناً قماشياً رثاً، بكمين ضيقين، بأزرار مشدودة ضيقة، تظهر من تحته قطع قماشية زرقاء مبرقشة للف القدمين وجزمة كبيرة ثقيلة، وقد أمسك بيديه قبعة، مثل التي يلبسها العمال في المدن عادة... وشعر نادر، متناثر، لونه بين الأحمر والأشقر، رطب وملتصق دوماً على جبينه البارز. وجهه نحيف يميل إلى اللون الزهري، بأنف دقيق وصغير، وتجعيدين بارزين يبدآن من زاويتي الفم وينتهيان بذقن حادة يظهر عليها إسفين أو ليفة على الأصح، وهي لحية غير كبيرة، محمرّة وشاحبة دائماً».

ليس المظهر الخارجي هو الأكثر جاذبية... لكنه كان يثير دهشة أي مثقف من أبناء المدينة. فهو ليس مثل الفلاح، وليس مثل العامل؟

ونجد تفسيراً مهماً لهذا النمط من الناس في مقالة باحث آخر للطائفة الروسية هو م. ف. موراتوف. إنه يسمي هؤلاء الناس مثل سيوتايف «الإنتليجنسيا الشعبية». يقول موراتوف: «إن الرأي القائل بوجود شعب

روسي واحد ليس أكثر من خرافة. ومن الأصح القول إن هناك شعبين مختلفين: هناك من ناحية – المجتمع الروسي، ومن ناحية أخرى – جماهير الفلاحين والعمال. لدى هذين الشعبين حياة مختلفة، مفاهيم مختلفة وحتى لغة مختلفة: فالمقالة الصحفية العادية غير مفهومة للفلاح العادي. لكن هذا لا يكفي. لدى كل من هذين الشعبين الإنتليجنسيا الخاصة به، ولديه مناضلوه من أجل الحقيقة، وأبطاله وشهداؤه».

في عام 1876 فُتحت قضية ضد سيوتايف بوشاية أنه لا يعمّد حفيده. أثناء الاستجواب، أعلن سيوتايف، أنه «لا يعمد حفيده لأنه جاء في الكتاب المقدس: «توبوا وليتعمّد كل واحد منكم»، – لكن الطفل لا يمكنه التوبة بعد». كان من بين قضاة الصلح آ. آ. باكونين، الأخ الأصغر للفوضوي الشهير ميخائيل باكونين. وكانت عزبة آل باكونين (برياموخينو) في مقاطعة نوفوتفورجسكي ذاتها. وهكذا، اصطدمت في الواقع إنتليجنسيتان اثنتان، الإنتليجنسيا «الشعبية» والإنتليجنسيا «المدينية».

بحسب رأي سيوتايف، «المهم ليس الإيمان، بل ترتيب شؤون الحياة»، «عليك أن تتأمل الحياة». عليك أن ترتب «الحياة في الحقيقة»، بحيث «لا تلحق الضرر بأخيك الإنسان» – هذا هو «ناموس الله» الذي عرضه سيوتايف أثناء لقائه بـ آ. س. بروغافين.

لم يكن سيوتايف منظراً طائفياً عادياً. وقد كتب موراتوف أن المنظر الطائفي العادي «ليس بارداً ولا حاراً». «تتجلى عاطفته الدينية بشيء من التوازن... إنه يعرف أنه سيتم خلاصه، ويعرف حتى عندما يتحدث، أن هذا لا يعرفه أحد مسبقاً، ويسيطر على نفسه وضوح وطمأنينة».

«لقد كان سيوتايف طائفياً متحمساً». يكتب موراتوف: «إيمان المتحمس، على العكس، ليس له حدود. إنه يكرس له روحه، ومعاناته الدينية يعتبرها دوماً واقعاً مثل ما يراه ويسمعه...»

وقد نصح مودعاً بروغافين بقوله: «ابحث عن الحقيقة، يا ألكسندر، ابحث عن الحقيقة، عن الحقيقة، كي يعيش الجميع بخير على هذه الأرض! من الضروري أن نستفسر، هل سيأتي المنقذ!»

«كل شيء في ذاتك، كل شيء الآن» - إن مفهوم الله هذا أنه داخل كل إنسان، عند سيوتايف، كان قريباً على نحو خاص من ليف نيقولايفتش الذي يئس في تلك الفترة من أي وسطاء بين الإنسان والله.

سمع تولستوي بسيوتايف في تموز/ يوليو عام 1881، عندما كان في مقاطعة سمارا، حيث تعرف على آ. س. بروغافين. وقد حدثه الأخير عن فلاح غير عادي، يدعو إلى الحب والتآخي بين جميع الناس والشعوب وإلى شيوعية كاملة للملكية». فقال تولستوي: «إن كل هذا مهم جداً، لدرجة أنني مستعد عند أول فرصة للسفر إلى سيوتايف، للتعرف إليه». وكتب لزوجته: «هناك أناس أذكياء، ومذهلون بجرأتهم».

في أواخر أيلول/ سبتمبر توجه تولستوي إلى مقاطعة تفير، ليلتقي بسيوتايف. ولكن في طريقه - وهذا بصورة رمزية! - يعرّج على برياموخينو، كي يأخذ برفقته ألكسندر باكونين نفسه القاضي الذي نظر في قضية سيوتايف. كان تولستوي يعرف الإخوة باكونين الثلاثة: بافل (الكاتب)، وألكسندر الذي خدم معه في سيفاستوبول، وميخائيل، الفوضوي، الذي كان في فترة ما، قد هرب من سيبيريا إلى باريس، وأول خطوة قام بها أوصى على المحار مع الشمبانيا - وفي أثناء حصار درسدن الثائرة اقترح وضع لوحة رافائيل «مادونا» على جدار المدينة: وكأن الملكيين لن يجرؤوا على إطلاق النار على التحفة الفنية.

كان تولستوي معجباً بسيوتايف وأسرته. ومما لا شك فيه، أن في مشروع الحياة المشتركة الشيوعي لأسرته الذي سجله في يومياته في عام 1884، ترددت أصداء ما رآه وسمعه ليف نيقولايفتش في عام 1881.

في عائلة آل سيوتايف الكبيرة لم تكن هناك ممتلكات شخصية. فصناديق النساء الفلاحات كانت مشتركة. كان لدى كنة سيوتايف وشاح. سألها الكونت: «والوشاح أليس وشاحك؟» «لا، ليس وشاحي - أجابت الكنة - بل لأمي، ولا أعرف أين وضعت وشاحي». قاده سيوتايف إلى جندي سابق، كان قد زوجه ابنته. وقال سيوتايف لتولستوي: «عندما قررنا تزويج ابنتنا له، اجتمعنا مساء، وأعطيتهما مواعظي وإرشاداتي، كيف يجب

أن يعيشا، وجهزنا لهما السرير، وأرقدناهما للنوم معاً، وأطفأنا النور، وهذا هو العرس كله».

لم يكن سيوتايف وأتباعه يحتفظون بالأيقونات في منازلهم، ولم يؤمنوا بقواها المقدسة ولم يترددوا إلى الكنيسة. وكانوا يدفنون موتاهم حيثما كان: تحت الأرض، أو في الحقل المكشوف. كان سيوتايف يبشر: «يقال إن أرض المقبرة مُنارة، أما الأماكن الأخرى فليست منارة. هذا غير صحيح: الأرض كلها مُنارة، حيثما كان فالأرض واحدة». بهذه المناسبة، كان فيما مضى يصنع آثاراً للذكرى على القبور، وكان له محله لهذا العمل. لكنه ذات يوم، ترك هذه المهنة، ووزع النقود ومزق سندات الديون.

كان سيوتايف ينفي حق ملكية الأرض، وعدالة الحروب وعموماً كل ما يفرق بين الناس. وعلى جميع الناس أن يعملوا على الأرض المشتركة «متعاونين». يجب على السادة إعطاء الأرض للفلاحين، وعلى الفلاحين ألا يتخلوا عن السادة رحمة بهم. لقد كان سيوتايف شيوعياً مسيحياً بالمعنى المطلق، وكل ما اقترحه فيما بعد تولستوي لستوليبين بخصوص الأرض لم يخرج بعيداً عن نطاق مشروع سيوتايف. لكن الشيء الرئيس الذي اجتذب تولستوي في تعاليم سيوتايف كان فكرة *الحب* باعتبارها القوة المحركة الجديدة للمدنية. عندما نفى سيوتايف أداء يمين الولاء والبيعة، قيل له: «وإذا ما سيطر علينا التركي، على سبيل المثال – ماذا سيحصل؟» أجاب سيوتايف: «إنه سيسيطر علينا عندما لن يكون لدينا حب. سيسيطر علينا الأتراك، وسنسيطر عليهم بالحب. وستكون عندنا وحدة، وستكون عندنا وحدة فكر وإجماع. وعندها سيكون كل شيء جيد والجميع بخير».

من جديد – في خطب ومواعظ تولستوي لن نعثر تقريباً على أي شيء جديد مبدئياً، بالمقارنة مع فكر سيوتايف البسيط هذا. عدم مجابهة الشر بالشر، ومجابهته بالحب، وسيتوقف الشر عن كونه شراً. الله في روح كل إنسان سيبين له الطريق إلى الوحدة الشاملة في الحب، علينا فقط أن لا نعيق الله.

إن ما أذهل تولستوي في سيوتايف هو أن جميع الأفكار التي توصل إليها

تولستوي نفسه، بطريق معقد وأليم، وعرضه في «الاعترافات»، ترددت على شفتي فلاح تفير ببساطة ووضوح وبداهة. والأهم – أن سيوتايف قد وافق بصورة مثالية صورة الفلاح الروسي الذي أراد تولستوي أن يراه في جماهير الفلاحين والذي بدأ يبحث عنه في أوائل الأعوام الثمانينيات. وإذا كان في المدينة لا يرى فقط بل يبحث عن مختلف أنواع الشرور وانعدام العدالة، وإذا كان في القرية يرى (ويبحث) هذا الشر وانعدام العدالة في كل ما يجري من ملكية النبلاء للأراضي، ومن «بذخ السادة»، ففي أعماق الشعب كان يحلم بالعثور على بذرة الحقيقة من اللؤلؤ، التي يمكنها أن تجسد في ذاتها نمطاً أو طابعاً شعبياً محدداً.

في أواخر كانون الثاني/ يناير عام 1882 يقوم سيوتايف برد الزيارة إلى تولستوي في موسكو. ويحل في بيت آل تولستوي في جادة دينيجني، وبخطبه ومواعظه، ولكن بمظهر خارجي أكثر غرابة يجتذب اهتمام ضيوف المنزل المدينيين. وتنشأ في موسكو موضة دارجة حقيقية متأثرة به. فتباع صوره في صالون أفانتسو الفني عند جسر كوزنيتسكي. والفنان الشهير ريبين يرسم له لوحة (بورتريه). وهذه اللوحة باسم «الرائد الطائفي» اقتناها بافل تريتياكوف بتوصية من تولستوي. كما تهتم بسيوتايف ماريا نيقولايفنا أخت ليف نيقولايفتش، حتى إنها تلتقي به.

في هذا الوقت، يشارك تولستوي في تعداد سكان موسكو، واختار لنفسه أحد الأحياء الأكثر عهراً ومقامرة، في جادة بروتوتشني بين ممر بيريغوفوي وجادة نيكولسكي. ويكتب مقالة: «حول تعداد السكان في موسكو» ويدعو المجتمع إلى تقديم الصدقات للبؤساء. لكن سيوتايف لم يؤيده. ويقترح مشروعاً آخر للقضاء على البؤس والفقر.

– سنوزعهم فيما بيننا. أنا لست غنياً، وسآخذ معي الآن اثنين. وإذا كانوا عشرة أضعاف – سنوزعهم جميعهم فيما بيننا. أنت ستأخذ، وأنا سآخذ. وسوف نذهب للعمل معاً – إنه سوف يرى، كيف أعمل، وسوف يتعلم، كيف يعيش، وسنشرب الشاي معاً على طاولة واحدة، ويسمع الكلمة مني ومنك. وهذه هي الصدقة.

هل ثمة حاجة للقول إن ظهور سيوتايف كان من غير الممكن أن يُسرّ صوفيا أندريفنا؟ ففي هذه الفترة بالذات، عندما بدأ زوجها «الابتعاد» عن العائلة، يظهر في بيتهم أناس غرباء، وواضح أنهم خطرون، وقد دعتهم بـ «الجهلاء».

فماذا كانت تقصد بهذه الكلمة؟

تذكرت فيما بعد صوفيا أندريفنا: «نعم كانوا، بالنسبة لي أناساً مجهولين، لا أعرف عنهم شيئاً، من هم، ومن أين هم، ومن هم آباؤهم، وأين هو موطنهم، وماذا يريدون. وحياة أسرتي كانت تعاني منهم، وكنت أتجنبهم وأخافهم».

وكان هناك أشخاص آخرون، ناسبوا تطلعات تولستوي الروحية. ومنهم على سبيل المثال، فلاديمير فيودوروفيتش أرلوف. وهو ابن كاهن ريفي من مقاطعة فلاديمير، عضو سابق في حركة «نيتشايف»[1] أمضى في السجن عامين وصدر حكم ببراءته، كان فلاديمير أرلوف يعمل معلماً في مدرسة الخطوط الحديدية بالقرب من موسكو. وقد أصبح قريباً جداً من تولستوي في مساعيه الروحية وكتبه المفضلة. وكان لطيفاً ومقبولاً بالنسبة لليف نيقولايفتش، كشخصية، بمثابرته وصبره على الحرمان والمعاناة، رغم أنه لم يكن خالياً من العيوب، كالإدمان على الكحول الروسي التقليدي. وقد زار غير مرة بيت آل تولستوي في موسكو، وأمضى الليل فيه، وقد كتب ليف نيقولايفتش بسرور في يومياته، كيف كان يعد بنفسه السرير لأرلوف، ويحمل له حتى القعادة الليلية. لقد كان هذا اهتماماً بأخ، بأخ، هو مفهوم من الدير أو مفهوم طائفي، شبيه بـ «غسل القدمين»، وهو أمر لا يمكن أن لا يؤذي عيون أفراد الأسرة وفي الوقت نفسه، كان يبدو طبيعياً بالنسبة لليف نيقولايفتش.

كما كان إنساناً قريباً من تولستوي المعلم المنزلي فاسيلي إيفانوفيتش ألكسييف، الذي ترك بعد وفاته مذكرات رائعة.

1- نيتشايف: غينادي سيرغييفتش نيتشايف (1847-1882) ثوري روسي متطرف، كان يؤمن بالعنف والتدمير والاغتيالات لتحقيق الثورة. أسس منظمة إرهابية، اعتقل وأمضى حياته في السجن. - المترجم.

كانت تربط تولستوي مودة عميقة بالأمير ليونيد دميتريفيتش أوروسوف، الذي أطلق عليه سيرغي لفوفيتش، ابن ليف نيقولايفتش «التولستَوي الأول». أوروسوف، الذي كان يشغل نائب حاكم مقاطعة تولا، بالاختلاف عن «الجهلاء» كان صديقاً مقرباً لأسرة تولستوي. وقد ارتبطت بعلاقات الصداقة معه صوفيا أندرييفنا، بل وجعلته بطل قصتها «ذنب من؟». كان الأمير أوروسوف معجباً بمؤلفات ليف نيقولايفتش الدينية. وقد ترجم إلى اللغة الفرنسية أطروحته «ما هي عقيدتي» (وساعد في نشرها في باريس). وقد تذكرت صوفيا أندرييفنا: «في المنزل كان الأطفال يحبون الأمير، حتى الخادمة أيضاً كانت تحبه».

تولستوي الذي لا يُحتمل

قبل فترة قصيرة من الانقلاب الروحي لتولستوي، حلمت زوجته بحلم رهيب روته لـ Alexandrine ألكسندرين:

«رأت نفسها واقفة في معبد المخلص، الذي لم يكتمل بناؤه آنذاك؛ وأمام بوابة المعبد ارتفع صليب كبير، وعليه المسيح المصلوب حياً... فجأة أخذ الصليب يتحرك، ودار حول المعبد ثلاث مرات، ثم توقف أمامها، أمام صوفيا أندرييفنا... نظر إليها المخلّص - ورفع يده إلى الأعلى، وأشار لها إلى الصليب الذهبي الذي كان يلمع فوق قبة المعبد».

وها هي تشكو لأختها: «أصبحت المشاجرات مع ليفوشكا أكثر تردداً، حتى إنني أردت مغادرة المنزل. هذا صحيح، لأننا أصبحنا نعيش على *الطريقة المسيحية*، وبرأيي، من دون هذه المسيحية كان أفضل بكثير». إن هذا الاعتراف يعكس بصورة دقيقة الوعي الذاتي الديني لصوفيا أندرييفنا. فمع مثل هذه المسيحية، الأفضل من دونها تماماً!

لا يصح القول إن صوفيا أندرييفنا كانت صماء ولا مبالية بالمطلق، تجاه متطلبات زوجها الدينية. فهي قد نشأت في أسرة أرثوذكسية. وعلاوة على ذلك، في أسرة مقربة من القصر، وإن كانت عن بعد. وكان أبوها كبير الأطباء. لقد كانت الأرثوذكسية، بالنسبة لصوفيا أندرييفنا، كما كانت في روسيا القرن

التاسع عشر – اتحاد الدين والدولة. ولهذا فعندما غدا زوجها منشقاً دينياً فإن هذا جعلها تخاف أكثر بكثير مما لو كان ملحداً، لكنه موالياً للسلطة الملكية.

حاولت لبعض الوقت عدم الكشف عن خلافاتها مع زوجها، وحتى في رسائلها إلى أختها لم تنقل الخلافات خارج العزبة. «ليفوشكا هادئ للغاية، إنه يعمل، يكتب مقالات ما، تظهر عنده أحياناً أقوال ضد سلطة المدينة وعموماً ضد حياة *الأسياد*. هذا يؤلمني، لكنني أعرف، أنه لا يمكنه بطريقة أخرى. إنه إنسان طليعي متقدم، يسير أمام الحشد ويشير إلى الطريق، الذي يجب على الناس اتباعه. وأنا من الحشد، أعيش مع تيار الحشد، ومع الحشد أرى ضوء القنديل، الذي يحمله كل إنسان طليعي متقدم، وليفوشكا أيضاً، أعترف أنه هو *النور*، ولكنني لا يمكنني السير أسرع، فالحشد يدهسني، وكذلك الوسط وعاداتي. وأنا أرى كيف تضحكين من كلماتي، *إلى أقصى حد*، كما يقول الأطفال، بيد أن هذا يوضح لك بعض الشيء، كيف يتعامل أحدنا مع الآخر».

لكنها ذات يوم ترتكب خطأً فادحاً. أثناء تبييضها في غرفتها لعمل زوجها الديني «نقد علم اللاهوت العقائدي»، لم تحتمل مشاعر التمرد الواردة فيه، فتأخذ المخطوط إلى مكتب ليف نيقولايفتش، وتضعه على الطاولة وترفض تبييضه. إنها، عملياً، تتخلى عن أن تكون مساعدته بعد خمسة عشر عاماً من التعاون الإبداعي. وكان دافعها لهذا الفعل رائعاً! قالت لليف نيقولايفتش إنها «تشعر بقلق كبير» عند تبييضها له.

ولكن إذا كانت «تشعر بالقلق»، فهل هذا يعني أنها تفهم؟

إن مقال «نقد علم اللاهوت العقائدي» – هو، مع «الاعترافات» أول عمل ديني لتولستوي بدأ كتابته في عام 1879. وهو العمل الأكثر تدميراً من مؤلفاته ليس للعقيدة الأرثوذكسية فحسب، بل وللفهم الكنسي كله للمسيحية. ومن حيث قوته التدميرية يمكن مقارنة كتاب «نقد علم اللاهوت العقائدي» فقط بكتاب نيتشه «المسيحيّ الدجال» الذي أخضع المسيحية لتحليل لا يرحم. لكن تولستوي بالذات يدافع عن المسيحية. بيد أنه يدافع عنها بطريقة لا يترك حجراً على حجر من تقاليد ألفيّة من تعاليم آباء الكنيسة.

كانت مناسبة كتابة هذا المقال هو صدور كتاب مطران موسكو ماكاريوس

(بولغاكوف) «علم اللاهوت العقائدي الأرثوذكسي» الذي صدر في روسيا بأعداد كثيرة من النسخ، باعتباره كتاباً رئيساً للتعليم الروحي. وفي تحليله لكتاب ماكاريوس، يطيح تولستوي بثبات بجميع أركان العقيدة المسيحية: الثالوث المقدس، ألوهية المسيح، قصة سقوط الذنوب، التكفير عن الذنوب بمعاناة المسيح، طقس القربان وما شابه ذلك. ومن حيث الجوهر، المقال ليس انتقاداً لكتاب معين، بل نفي لمجمل تاريخ المسيحية الكنسية الذي تحول بريشة تولستوي إلى مأساة رهيبة، إما إلى وهم ساذج أو إلى احتيال متعمد.

إن نظرة الأطفال إلى الأشياء هي التي سلّطت ضوء تولستوي على هذا المقال. فماذا يعني الله «واحد في ثلاثة»؟ ذلك أن واحداً لا يساوي ثلاثة. ولماذا هذه الصيغة المعقدة للإله الواحد؟ لماذا حرّم الله على آدم وحواء تذوق ثمرة شجرة معرفة الخير والشر؟ هل أراد أن يكون الناس كالحيوانات؟ والله وعد أول الناس الذين سيأكلون من ثمار هذه الشجرة بأنهم سيموتون. لكن هذا لم يحدث. هل هذا يعني أن الله قد كذب؟

إن الجدال مع تولستوي مثل الجدال مع طفل يصرخ بأن الملك عار. فإذا لم يكن الملك عارياً، فيجب إغلاق فم الطفل، أما إذا كان عارياً، فيجب موافقته على ذلك.

يتساءل تولستوي: «الكنيسة الأرثوذكسية؟ لا يمكنني الآن أن أربط بهذه الكلمة أي مفهوم آخر، سوى قلة من الناس غير حليقين، وشديدي الثقة بأنفسهم وضعيفي الثقافة، يرتدون الحرير والمخمل، والأنكلوبيونات والألماس، ويسمون أنفسهم أساقفة ومطارنة، وآلاف آخرين من الناس غير الحليقين، الموجودين في خضوع عبودي لدى أولئك العشرات، المشغولين، تحت ستار إنجاز أسرار ما، بخداع الشعب وسرقته. كيف يمكنني أن أؤمن بهذه الكنيسة وأعتقد بها عندما تجيب عن أعمق الأسئلة عن روحي بخداع مثير للشفقة وسخافات، بل تؤكد أنه يجب أن لا يجرؤ أحد على أن يجيب عن هذه الأسئلة بطريقة أخرى، وأنه عليّ أن لا أجرؤ على الاسترشاد بشيء آخر سوى تعاليمها. يمكنني اختيار لون بنطالي، يمكنني اختيار زوجتي، يمكنني تشييد بيتي حسب ذوقي، لكن ما تبقى، ذلك الشيء الذي أشعر به

أنني إنسان، في كل هذا، علي أن أسألهم هم – أسأل هؤلاء الناس المتعطلين والمخادعين والجاهلين. في حياتي، في مقدساتي كان عندي قائدي – راع، كاهن أبرشيتي – خريج المدرسة الروحية، بليد متخدر، شاب شبه أميّ، أو عجوز يَسْكر، لديه هم واحد جمع أكبر عدد من البيض والنقود. يأمرون بأن يصيح الشماس، طيلة نصف وقت الصلاة، بطول عمر البارّة، التقية كاترين الثانية الزانية، أو التقيّ قاطع الطريق، القاتل بطرس الأول، الذي جدّف بالإنجيل، وعليّ أن أصلي عليهما. يأمرون بأن ألعن، وأحرق، وأن أعدم إخوتي، وعليّ أن أصرخ وراءهم اللعنة؛ يأمر هؤلاء الناس باعتبار إخوتي ملعونين، وعليّ أن أصرخ: اللعنة. يأمرونني بأن أشرب النبيذ من الملعقة وأن أقسم أنه ليس نبيذاً، بل جسد ودم، وعليّ أن أفعل ذلك.

لكن هذا فظيع!»

وبحسب تعبير تولستوي، الكنيسة موجودة فقط لـ «ضعاف العقول»، و«المحتالين» و«للنساء». لهذا، ليس من المستغرب، أن هذا المقال «أثار قلق» صوفيا أندرييفنا.

كانت تعرف زوجها جيداً. وتعرف أن لهجة المقال المشاكسة، التي لا تحتمل، لا تعكس موقف تولستوي الحقيقي من الأرثوذكسية، ومن رجال الدين، وخاصة قاعدتهم الشعبية، علاوة على إيمان الشعب بالكنيسة. إن هدف وعنوان المقال في الوقت نفسه يمكن أن يكونا فقط كبار رجال الدين وسلطة الدولة، الذين كان زوجها *يشاكسهم* بالذات كالمراهق. كانت تعرف جيداً هذا الجانب من طباعه المميز لجميع آل تولستوي. لقد أخافتها في تولستوي حدة الأقوال والتعابير و«تبدل الأحكام» قبل الزواج. فكيف كانت حالتها عندما اكتشفت، بعد مرور حوالي عشرين سنة من الحياة الزوجية، أن الدروب القديمة قد اختمرت عند زوجها؟

وأخيراً، لقد شعرت صوفيا أندرييفنا بالخوف بكل بساطة. فمن دواعي الأسف أن الانقلاب الروحي عند تولستوي حدث عندما وصلت أسرة تولستوي إلى عددها الأعلى ووصل عدد أبنائها إلى تسعة! وكانت مشاعر الأمومة عند صوفيا أندرييفنا متطورة بصورة غير عادية، وقد قدّرها تولستوي

نفسه تقديراً رفيعاً. هذا في حين أنه، واعتباراً من ربيع عام 1881، بعد رسالة تولستوي إلى القيصر ألكسندر الثالث، بدأت تترابط «خيوط» الصراع بين ليف نيقولايفتش ومنظّر روسيا الأيديولوجي الرئيس – بوبيدونوستسيف. وبوبيدونوستسيف هو الحبل السري للدولة والسلطة الروحية. وقد عبر عن موقفه من تولستوي «الجديد» على الفور، وبشكل لا لبس فيه، عندما رأى أنه لا ضرورة لنقل الرسالة إلى ألكسندر الثالث. وموقفه من الحركة الطائفية عبّر عنه أيضاً بصورة محددة للغاية، بطرده خارج روسيا «دون حق العودة»، في عام 1884، للعقيد المتقاعد فاسيلي باشكوف – مؤسس طائفة «الباشكوفيين».

في بداية الثمانينيات لم تكن صوفيا أندرييفنا سيدة مجتمع. كانت مالكة أراضٍ ريفية، زوجة ملّاك. على أية حال، بفضل طبعها المنفتح والواثق، اكتسبت صوفيا أندرييفنا بسرعة كبيرة خبرة التواصل مع رجالات المجتمع، وحتى مع السادة الأقوياء فيه. وفي عام 1885 التقت مع بوبيدونوستسيف، محاولة الدفاع عن حق نشر المقالين المحظورين «ما هي عقيدتي؟» و«ماذا علينا أن نفعل؟» ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات تولستوي.

وبلقائها بوبيدونوستسيف، كانت صوفيا أندرييفنا تسعى إلى إصابة ليس عصفوراً، ولا اثنين، بل ثلاثة عصافير بحجر واحد. فقد أظهرت لزوجها تعاطفها مع آرائه الجديدة، وحاولت أن تجعل مؤلفاته الجديدة مصدر دخل للأسرة، وفي الوقت نفسه، ترفع عنه وصمة «الانشقاق»، لأن ما يسمح به بوبيدونوستسيف لن يجرؤ على حظره أي رقيب روحي. لكن بوبيدونوستسيف لم يتردد ثانية واحدة ورفض طلب زوجة تولستوي. لكن حقيقة لقائها الشخصي معه، الذي جرى في جو من الاحترام بل والتعاطف قد أدخل الطمأنينة على نفس صوفيا أندرييفنا. وقد تذكرت هذه الزيارة فيما بعد، بكل فخر.

وفي كتابها «في حياتي» تورد حديثها مع بوبيدونوستسيف:

«– علي أن أقول لكِ إنني أشعر بكثير من الأسف نحوكِ؛ كنت أعرفك منذ الطفولة، وكنت أحب وأحترم والدك، وأرى أنه من المؤسف أن تكوني زوجة هذا الرجل.

– هذا جديد بالنسبة لي – أجبته – لست أنا فقط أعتبر نفسي سعيدة، فالجميع يحسدونني، لأنني زوجة هذا الإنسان الموهوب والذكي.

– عليّ أن أقول لكِ – قال بوبيدونوستسيف – إنني لا أعترف لزوجك بالذكاء. فالذكاء هو تناغم، انسجام، وزوجك لديه في مكان تطرف وزوايا.

– ربما – أجبته – لكن شوبنهاور قال إن العقل هو مصباح يحمله الإنسان أمامه، أما *العبقرية* فهي شمس تظلل كل شيء».

وقف تولستوي من لقاء زوجته ببوبيدونوستسيف موقفاً لا مبالياً، بل على الأصح موقفاً غير ودي. فقد كان ينتظر منها شيئاً آخر تماماً. كان يريد منها أن تشاركه قناعاته الجديدة، لا أن تحاول تهدئة الصراع المحتوم بينه وبين السلطة. كان يحتاج إلى رفيق درب، وليس إلى محام.

في كانون الأول/ ديسمبر عام 1885، عند مغادرته إلى ضيعة آل أولسوفييف (نيكولسكوي – أوبليانينوفو)، التي تبعد 60 كيلومتراً عن موسكو، حيث هرب من ضجيج حياة المدينة، ليرتاح نفسياً كضيف عزيز، ترك ليف نيقولايفتش في بيته بموسكو رسالة مسهبة لصوفيا أندرييفنا. لكنها لم تقرأها، وفيما بعد، عندما كانت تجمع أرشيف زوجها، وضعت علامة في أول الرسالة: «رسالة ليف نيقولايفتش إلى زوجته التي لم تُسلّم ولم تُرسل لها».

هذه الرسالة – صرخة الروح! إنها تنقطع عند عبارة رهيبة: «يدور بيننا صراع مميت – **الله** أو من دون الله». وهذه الرسالة ليست موجهة إلى صوفيا أندرييفنا وحدها بل إلى الأسرة كلها التي يريد ليف نيقولايفتش من جديد الخروج منها.

تكتب صوفيا أندرييفنا لأختها: «حدث ما سبق أن حدث عدة مرات. جاء ليفوشكا في مزاج عصبي وكئيب للغاية. ذات مرة أجلس، أكتب، يدخل، أنظر – وجهه رهيب. حتى الآن، عشنا حياة رائعة، لم تصدر ولا كلمة سيئة، ولا كلمة إطلاقاً. «جئت أقول إنني أريد أن أطلقك، لا يمكنني العيش على هذا النحو. سأذهب إلى باريس أو إلى أمريكا».

أتفهمين، تانيا، لو أن البيت كله انهار على رأسي لما تفاجأت كما تفاجأت من قوله. سألت مستغربة: «ماذا حدث؟» – «لا شيء، ولكن إذا ما

حمّلت العربة حمولة أكبر فأكبر فسيئنّ الحصان ولن ينقلها». ماذا يحمل – غير معروف. ولكن بدأ الصراخ، والعتاب، والكلمات الفظة، وازداد الأمر سوءاً شيئاً فشيئاً، وأخيراً، صبرت، صبرت، ولم أجب بأي شيء تقريباً، وأرى أنه إنسان مجنون، وعندما قال: «حيثما تكوني، يكن الهواء ملوثاً»، أمرت بإحضار الصندوق، وبدأت بتجهيز حوائجي. أردت الذهاب لعندكم لبضعة أيام.

تراكض الأطفال، هدير. تقول تانيا: «أنا سأذهب معكم، لماذا هذا كله؟» أخذ يتوسل: «ابقي». بقيت، وفجأة بدأ النحيب الهستيري، شيء مرعب؛ تصوري: ليفوشكا، كله يرتجف ويهتز من النحيب. هنا شعرت بالشفقة عليه؛ الأطفال الأربعة – تانيا، إيليا، ليليا، ماشا – يبكون بصوت عال. تخشبت، صُعقت، لا أتكلم، ولا أبكي، كان بودي أن أقول كلاماً فارغاً، لكنني أخاف وألوذ بالصمت لمدة ثلاث ساعات، وأنا صامتة – ولا يمكنني أن أتكلم. وهكذا انتهت. لكن الحزن، والألم، والفجوة، وحالتي المرضية، والاغتراب – كل هذا بقي في داخلي. أتفهمين، كثيراً ما أسأل نفسي حتى الجنون: حسناً، والآن من أجل ماذا؟ لا أخطو خطوة خارج المنزل، أعمل على إعداد المؤلفات حتى الساعة الثالثة ليلاً، هادئة، أحببت الجميع كثيراً وأتذكر ذلك الزمن كما لم يسبق له مثيل، وعلام هذا كله؟»

إن هستيريا تولستوي لا يمكن تفسيرها بشيء آخر سوى أن الهيجان المتراكم أياماً وأسابيع وأشهراً قد ظهر على السطح فجأة، من دون سبب ظاهر. لو أنه تشاجر مع زوجته كل يوم – لكان أسهل عليه. لكن هذا لم يكن من طباع تولستوي. عند سفره، بعد هذه الهستيريا مع ابنته تانيا إلى نيكولسكوي – أوبليانينوفو في «الزلاجات الصغيرة»، يحاول في رسالة شرح سبب «جنونه».

«تخيلي أنني أعثر على يومياتك التي تعبرين فيها عن عواطفك الروحية وأفكارك، وعن جميع دوافعك لهذا العمل أو ذلك، فبأي اهتمام كبير سأقرأ هذا كله. إن أعمالي التي لم تكن شيئاً آخر سوى حياتي لم تهمك ولا تهمك إلا قليلاً، ولو من باب الفضول، كعمل أدبي، وكذلك الأبناء لا يهتمون بقراءتها. يبدو لكم، أنني أنا شيء وكتاباتي شيء آخر.

كتاباتي كلها هي كلّي أنا. في الحياة لم أستطع أن أعبر عن آرائي بشكل كامل، في الحياة أتنازل أمام ضرورة الحياة المشتركة في الأسرة؛ أنا أعيش وأنكر في روحي هذه الحياة كلها، وهذه التي ليست حياتي تعتبرونها حياتي، أما حياتي التي تولد في الكتابة فتعدونها مجرد كلمات ليس لها واقع».

يقصد بـ«*كتاباتي*» – مؤلفات تولستوي الروحية بعد الانقلاب: «الاعتراف»، «نقد علم اللاهوت العقائدي»، «ما هي عقيدتي؟»، «توحيد وترجمة وبحث الأناجيل الأربعة». وهذا المقال الحاد اللهجة «ماذا علينا أن نفعل؟»، الذي كان يعمل على إنجازه في عام 1885. في هذا المقال الذي يرسم فيه الحالة المرعبة للمدنية الأوروبية، حيث تستغل طبقة من «المتعلمين»، بصورة ماجنة، العمل القاسي لملايين «غير المتعلمين»، يدين تولستوي التطور السياسي – الاقتصادي العالمي. لقد كان هذا المقال خاتمة إنكار تولستوي لحياة الطبقات المتعلمة، وهي تشمل النبلاء ورجال الدين ورجال العلم والفن. فهم كلهم، حسب قناعته، طفيليون على جسد الشعب، «متطفلون»، والمخرج الوحيد لأي من ممثلي هذه الطبقات لا يمكن أن يكون سوى بالنظرة الجريئة إلى وضعه ومحاولة العيش على أسس جديدة، والتخلي عن ملكيته وأمواله الفائضة، وعن جميع امتيازاته الطبقية وكسب خبز يومه بعرق جبينه. وإلا، فإن تولستوي يتنبأ بالثورة:

«نحن بالكاد نتشبث في زورقنا فوق البحر الهائج الذي يغمرنا، والذي يكاد يبتلعنا ويلتهمنا بغضبه. والثورة العمالية، مع أهوال التدمير والقتل، لا تهددنا فحسب، لكننا نعيش فيها منذ ثلاثين عاماً، لكننا ببعض الحيل المختلفة، نؤجل انفجارها».

وتستحق خاتمة هذا المقال الاهتمام والاعتبار. ففيها يتوجه تولستوي إلى النساء – الأمهات. فهنّ بالذات، وحتى النساء ممثلات الطبقات أصحاب الامتيازات، يعرفن، ما هو العمل الشاق للولادة، وإرضاع الأولاد وتربيتهم. يتوجه تولستوي إلى مشاعر الواجب والحقيقة الداخلية الطبيعية عندهن، فهو يرى في هذه المشاعر البداية الموحدة للإنسانية الجديدة المشرقة.

لكن هذه الخاتمة أقل إقناعاً من المقال كله. فهي لا تأخذ في اعتبارها الأنانية الطبيعية للمرأة - الأم في مصالح أسرتها. فليست هناك امرأة طبيعية ترغب لأولادها العمل والحرمان وذلك الطريق الذي دعا إليه تولستوي. كان من المفروض أن تجربة حياته مع صوفيا أندرييفنا يجب أن تلزم تولستوي بالشك في صحة اختيار إلى من يتوجه في دعايته الروحية. ومن ناحية أخرى، عند قراءتنا لهذه الخاتمة، لا يمكننا أن لا نلاحظ، أنه في توجهه إلى النساء - الأمهات عموماً، كان تولستوي يقصد في ذهنه شخصاً محدداً. كان يقصد زوجته.

«هذه الأم» (المثالية - *المؤلف*) هي *نفسها ستلد بنفسها، وبنفسها* سترضع، وهي قبل أي أحد آخر سوف تطعم أطفالها وتعد لهم الطعام، وسوف تخيط لهم، وتغسل، وتعلم أولادها، وترقدهم للنوم، وتتحدث معهم، لأنها تفترض في هذا قضية حياتها. لكن هذه الأم لن تبحث لأولادها عن حاجتهم الخارجية إلى الأموال من زوجها، وإلى شهادات أولادها، بل سوف تربي فيهم تلك القدرة على الأداء المتفاني لإرادة الرب، التي تعرفها في ذاتها، القدرة على تحمل العمل مع النفايات والخطر على الحياة، لأنها تعرف أن في هذا تأمين الحياة وخيرها. مثل هذه الأم لن تسأل الآخرين ماذا عليها أن تفعل - فهي سوف تعرف كل شيء، ولن تخاف من أي شيء».

الصراع بين ليف نيقولايفتش وصوفيا أندرييفنا له جذور عميقة وقديمة. هذا الصراع نفسه نلتقيه في رواية «تاراس بولبا» لغوغول. إنه نزاع *الأم والأب*. الأب، مثل النبي إبراهيم، يعرف القيم التي هي أسمى من حياة ابنه، وهو مستعد لتقديم ابنه ضحية لهذه القيم. ليس الجوهر، ما هي هذه القيم: الله؛ «شراكة الكوزاك» أو «الخير»، «قضية الحياة»، كما كان تولستوي يفهم المسيحية. المهم في هذه المسألة أنه لا يمكن لأية أم، أن تقف، *بشكل طبيعي*، إلى جانب الأب.

في كانون الأول/ ديسمبر عام 1885 يحاول تولستوي مغادرة الأسرة، وفي 18 كانون الثاني/ يناير من العام التالي توفي ابن تولستوي الأصغر أليوشا وعمره أربع سنوات. توفي في موسكو، وطُرح سؤال أين يمكن دفنه؟

في مقبرة دير العذراء يطلبون سعراً لا يمكن تصوره – 200 روبل من الفضة. والمسألة ليست فقط في المال، بل في أن تلك المقبرة مزدحمة جداً، «وقبر فوق قبر»، كما تكتب صوفيا أندرييفنا لأختها.

تختار زوجته بنفسها مقبرة جديدة بالقرب من بوكروفسكي، حيث كانت تمضي في طفولتها العطلة الصيفية، في الضفة العليا لنهر خيميكي. وتكتب إلى أختها: «وضعنا اليوم تابوتاً صغيراً على زلاجتنا الكبيرة، التي نقلته عليها منذ فترة قصيرة إلى حديقة الحيوان، وإلى مسرح القرود، وقد جلست أنا والمربية... وصلنا؛ هناك استقبلنا الكاهن وعدة أشخاص... عندما علموا أنني ابنة أندريه يفستافيفيتش بيرس، أحاطوني بجو من الحب والمشاركة، والذكريات الطيبة عن أبي، بحيث إنني فهمت، كم كان طيباً، وشعرت بالرضا. ساعدني الجميع في حمل التابوت الصغير؛ الجميع بلطف، وعناية، كامرأة محبة (في حين أنهم كلهم رجال)، تعاملوا مع حزني، وكذلك مع التابوت ومع الدفن في القبر ورمي التراب، والوعود بأن يتذكروا الطفل، وأن يهتموا بالقبر، وبالصلاة عليه».

لا يرد ذكر لزوجها في وصف الجنازة. ولكن يرد ذكره باختصار، فيما بعد: «ليفوشكا أصبح وجهه ضامراً، وغدا نحيفاً، وشديد الحزن».

في كانون الثاني/ يناير عام 1886 يدرس تولستوي البوذية بصورة مكثفة. إنه يريد عرض تعاليم بوذا في كتاب مبسط للشعب. يكتب تولستوي *لصديقه* في 17 كانون الثاني/ يناير: «بودي، بمعونة الله، وضع هذا الكتاب». وفي رسالته التالية إلى صديقه، يكتب عن وفاة ابنه: «إن ما ترك جسد أليوشا قد تركه، وليس ما اتحد مع الله. لا يمكننا أن نعرف، هل اتحد، أم بقي كما كان، دون الاتحاد السابق مع أليوشا. نعم وهذا ليس كذلك. لا يصح الحديث عن هذا. – أنا أعرف فقط، أن موت الطفل، الذي كان يبدو سابقاً، غير مفهوم وظالماً، يبدو الآن لي معقولاً، وجيداً».

إن ما بقي بعد أليوشا، جثة الطفل، نقلته صوفيا أندرييفنا والمربية على الزلاجة. هذا «الموضوع» يثير لا مبالاة كاملة عند ليف نيقولايفتش. إنه مستغرق بالكامل في أفكاره وعواطفه، بعيداً. وهو تلك المنطقة التي لا

يستطيع مناقشتها مع زوجته. وبالمقابل، يمكنه أن يناقش هذا الموضوع مع صديقه *العزيز* الجديد، الموالي بلا حدود.

الفارس الرائع

كان فلاديمير غريغوريفيتش تشرتكوف (1854–1936) الشخصية الأكثر نفوذاً في الدائرة الأقرب من تولستوي منذ منتصف الثمانينيات وحتى وفاة الكاتب، وكان «المنفذ الروحي لوصيته».

إنه شخصية معقدة. من المستحيل عدم احترامه. ولكن من الصعب أيضاً التعاطف معه. من المستحيل عدم تقدير مساهمته الكبيرة في الحفاظ على تراث تولستوي وتنظيمه بعد عام 1880، والأهم أن مجموعة المؤلفات اليوبيلية الأكاديمية لتولستوي، ورسائله ويومياته التي نشرها، لا تزال حتى اليوم هي الأفضل. ودوره في الثلاثين سنة الأخيرة من حياة تولستوي كبير ومتعدد الجوانب، بحيث من غير الممكن تصور تولستوي من دون تشرتكوف، كما لا يمكن تصوره من دون صوفيا أندريفنا. لقد كان تشرتكوف في حياة تولستوي الشخص الثاني من حيث الأهمية، بعد زوجة الكاتب، بينما كان يعده أنصاره الشخص الأول. وفي الوقت نفسه، لا يمكن من دون الارتباك النفسي، والاشمئزاز أحياناً، متابعة نفوذه على الحياة الأسرية لآل تولستوي، التي لعب فيها تشرتكوف دوراً قاتماً للغاية.

لكن سر تشرتكوف الحقيقي لا يكمن فيه. فهو، في نهاية الأمر، كان ببساطة الرفيق الأكثر ولاءً وثباتاً لتولستوي في مرحلة عمره المتقدمة. فقد كرس للعبقري حياته كلها، مخضعاً كل يوم منها لخدمة، كما كان يعتقد، بوذا الجديد، أو المسيح، أو محمّد. ومن أجل هذا تخلى عن منصب رفيع، وعن فرصة الحياة الرغيدة المرفهة، وخاصة عن الحياة الشخصية كلها. رجل ذكي، حيوي، ذو همة، مثقف، موهوب، وأخيراً جميل في شبابه وفي مرحلة نضجه، أرستقراطي حقيقي مئة بالمئة. تشرتكوف أخذ على عاتقه، بصورة طوعية، دور التلميذ والناسك الأول للرجل الحكيم العظيم. وقد قام بهذا

ليس في أوج شهرة تولستوي ومجده كمعلم، بل عندما كانت ترى عائلته والمقربون منه في آرائه هواية جديدة أو نوعاً من الجنون.

يمكن الجدال حول شخصية تشرتكوف نفسه، لكنه يبقى ابن عصره، فهو من ذوي القناعات السياسية «اليسارية». كان معادياً للإكليروس ورجال الدين أكثر من تولستوي نفسه، وكان نباتياً أساسياً جذرياً، ومعادياً لقتل أي كائن حي، بما في ذلك الذباب والبعوض. والعنوان القوي لمقالته ضد الصيد «اللهو الشرير» يتحدث عن كاتبها باعتباره أحد رواد حركة «الخضر» المعاصرة. وكان أباً حنوناً وزوجاً مخلصاً. ولكن، وبصرف النظر عن نزعته «التولستَوية»، لم يتخلص حتى آخر أيام حياته من عاداته الأرستقراطية. فقصره في إنكلترا، خلال فترة الهجرة القسرية، كان يفوق من حيث حجمه ورفاهيته منزل المعلم في ياسنايا بوليانا. ومنزله في تيلياتينكي بالقرب من عزبة تولستوي كان أفضل وأشمل من بيت تولستوي. وحتى بعد الثورة، وأثناء جنازة الشاعر سيرغي يسينين، الذي كانت زوجته الأخيرة حفيدة تولستوي، حضر تشرتكوف إلى الجنازة مع خادمه.

كان تشرتكوف من ذوي «الاتصالات» الواسعة، وقد شملت دائرة معارفه ممثلي الأوساط الأرستقراطية العليا في روسيا وإنكلترا، والبلاشفة – غير الشرعيين مثل بونتش – برويفيتش. لكن هذه الحالة بالذات التي قد تبدو مريبة، سمحت له بإصدار ونشر مؤلفات تولستوي قبل الثورة وبعدها. وهذه الحالة بالذات هي التي ساعدته بعد الثورة على انتشال «التولستَويين» وساشا ابنة تولستوي من السجون. فرسالته إلى ستالين في سنوات اضطهاد «التولستَويين» كانت دليلاً صادقاً على ضمير هذا الرجل وجرأته.

كان الدور الذي لعبه تشرتكوف في النزاع العائلي لآل تولستُوي غامضاً وغير مفهوم. وهنا اكتسبت شخصية تشرتكوف بصورة لا إرادية طابعاً شيطانياً[1]، مطابقاً لكنيته «الناطقة» بهذا. فهنا ليس مجرد إنسان، مناصر، مترجم، ناشر، جامع، بل *شيطان*، *شيطان* موجود دائماً إلى جانب

1- تشرتكوف: كنية مشتقة من كلمة تْشورت черт وتعني بالروسية «الشيطان». – المترجم

ليف نيقولايفتش وصوفيا أندريفنا عندما يجب ألا يكون موجوداً، وحيث عليه أن يكون بعيداً في الجانب، ويعطي الفرصة للزوجين والأولاد لحل مشاكلهم العائلية.

بالطبع، في هذا تجلى الجانب السلبي من طبيعة تشرتكوف، بتصوره المتضخم عن أهميته أمام «جثة» تولستوي. لكن هذا ما كان يميز جميع تلاميذ تولستوي الأوائل ورهبانه. والخفي بل وغير المفهوم كيف كان تولستوي نفسه يتقبل هذا. فاللغز هنا ليس تشرتكوف، بل المعلم في موقفه من تلميذه الأول.

إن تشرتكوف، في نهاية الأمر، بحضوره في حياة تولستوي، قد أظهر أسراراً كثيرة من علاقات ليف نيقولايفتش بعائلته، وبزوجته بادئ ذي بدء. وربما لو لم يكن تشرتكوف، لما ظهرت هذه الأسرار، أو لظهرت بطريقة ما، مختلفة. ولكن بالطبع، لم يكن تشرتكوف هو السبب الرئيس لمغادرة تولستوي لعائلته. لقد ساهم في هذه المغادرة، وكان سعيداً بها. لكنه لم يكن هو المحرك الرئيس لهذا الحدث. وقد قال تولستوي في إحدى رسائله، بهذا الخصوص:

«لو لم يكن تشرتكوف موجوداً، لكن من الواجب خلق شخصيته».

وقد تم عرض تاريخ صداقة تولستوي وتشرتكوف في كتاب كبير من تأليف م. ف. موراتوف بعنوان: «مراسلات ل. ن. تولستوي و ف. غ. تشرتكوف». وقد صدر عن متحف تولستوي عام 1934، ولم ينشر من جديد في روسيا.

سمع تولستوي باسم تشرتكوف للمرة الأولى في ياسنايا بوليانا من نصيره غ. آ. روسانوف في آب/ أغسطس عام 1883. وبحلول هذا الوقت، كان قد ظهر أتباع لتولستوي «الجديد». وفي تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه جرى لقاء التعارف بينهما في بيت آل تولستوي بموسكو. ويلاحظ موراتوف، منذ تلك الفترة «كان تولستوي يكتب لتشرتكوف أكثر من جميع معارفه الآخرين، بل أكثر من أفراد عائلته». وقد حُفظت 931 رسالة ليف نيقولايفتش بما فيها البرقيات. ومن أجل نشر رسائل تولستوي لتشرتكوف مع التعليقات تطلب الأمر خمسة مجلدات وأكثر من 175 ملزمة. وكان

تشرتكوف يكتب لتولستوي رسائل أكثر، علاوة على ذلك، كانت رسائله في أحيان كثيرة متعددة الصفحات.

بدا أن الظهور الأول لتشرتكوف في منزل تولستوي لم يكن يوحي للأسرة بأي خطر. وقد تذكر ليف لفوفيتش ابن تولستوي: «فارس رائع، يلبس خوذة بنسر ذي رأسين، رجل وسيم، ابن أسرة ثرية ونبيلة، فلاديمير غريغوريفيتش قَدِم إلى تولستوي ليقول له إنه يشاركه آراءه بالكامل، ويريد أن يكرس له حياته إلى الأبد. في بداية تعارفه على أسرتنا كان تشرتكوف ساحراً فاتناً. كان محبوباً من الجميع. وكنت قريباً منه، وأخاطبه بصيغة المفرد».

ثمة خطأ في هذه الذكريات. ففي خريف عام 1883، كان من غير الممكن قط، أن يتمنى تشرتكوف تكريس حياته كلها لآراء تولستوي. فقد سمع بهذه الآراء لأول مرة في تموز/ يوليو 1833 في حفل زفاف صديقه ر. آ. بيساريف من المدعي العام في محكمة مقاطعة تولا ن. ف. دافيدوف. فأثناء حديثه مع دافيدوف، عبر الضابط تشرتكوف، البالغ من العمر تسعة وعشرين عاماً عن *آرائه*، التي كانت قد تشكلت إلى درجة كافية. بعد أن أصغى دافيدوف إلى هذا الضابط الفارس الغريب، قال ملاحظاً:

– لكن تولستوي يقول الشيء نفسه! أنت، كأنك تكرر كلمات تولستوي – من الضروري بالتأكيد أن تتعرّف على تولستوي.

كان دافيدوف على معرفة بليف نيقولايفيتش، ووعد بترتيب تعارفهما. في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر يسافر تشرتكوف خصيصاً لهذا الهدف، ويتوقف في فندق «البازار السلافي» وأخيراً يستلم برقية من دافيدوف: «تولستوي في موسكو».

عند توجهه للمرة الأولى إلى تولستوي، لم يكن تشرتكوف يعرف شيئاً عن «تعاليمه». حتى إنه لم تكن هناك «تعاليم» بعد، بالمعنى الدقيق للكلمة. ولكن كان قد حدث الانقلاب الروحي عند تولستوي، وهذا الانقلاب تطابق مع ما كان يجري في روح تشرتكوف ذاته. وقد أصيبا كلاهما بالصدمة من التناقض الرهيب الذي اكتشفاه معاً بين حقيقة السيد المسيح وزيف الحياة المعاصرة.

جرى لقاؤهما في المكتب. دخلا في «غرفة منعزلة، هادئة، مضيئة، ذات نوافذ تطل على الحديقة والفناء مزودة بستائر قماشية طويلة خضراء متحركة، وكراس سوداء مريحة بسيطة، وطاولة كبيرة وضعت عليها شمعتان في شمعدانين معدنيين قديمين، وكانت هناك محبرة معدنية على قاعدة من الملكيت الأخضر ورزمة من الورق...»

لم يكن تشرتكوف قد قرأ مؤلفات تولستوي الفلسفية، بل قرأ مؤلفاته الروائية وحدها. وقرر اختباره أولاً.

بحضور ضابط ميداني، دافع عن سيفاستوبول، ومؤلف «قصص سيفاستوبول» و«الحرب والسلام» بدأ تشرتكوف يتحدث عن موقفه السلبي من الخدمة العسكرية. وقد تذكر تشرتكوف: تولستوي «رداً على كلامي، أخذ يقرأ من مخطوط موجود على الطاولة «ما هي عقيدتي؟»، و«شعر بفرحة كبيرة من إدراك أن مرحلة وحدتي الروحية قد توقفت أخيراً، وأنني لاستغراقي في تأملاتي الذاتية، لم يكن باستطاعتي متابعة المقاطع اللاحقة التي كان يقرأها لي، وقد صحوت فقط عند قراءته للأسطر الأخيرة من كتابه، فلفظ بوضوح خاص كلمة التوقيع: «ليف تولستوي»».

كانت السمة المميزة لتشرتكوف أنه منذ البداية كان يضرب «بدقة على مزاج تولستوي النفسي». أواخر عام 1883. بقي عدة أشهر على المحاولة الأولى لرحيل ليف نيقولايفتش عن الأسرة. صوفيا أندرييفنا تكرس كل وقتها لحفلات الرقص وعروض الأطفال. ابن تولستوي الأكبر مستغرق في علوم الطبيعة والحركة الطلابية. ولا أحد في المنزل يريد النظر بجدية إلى «كتابات» تولستوي الجديدة.

إن تشرتكوف لا يصغي فحسب إلى تولستوي. إنه يرجّع بروحه كل كلمة. إنه أصغر بكثير من تولستوي، لكن تجربتهما الحياتية متشابهة. فتشرتكوف هو أيضاً ملّاك وضابط. وأخيراً، هو ليس مكافئاً لتولستوي في السلّم الاجتماعي. إنه أعلى منه مرتبة. إنه ثري، ونبيل ومستعد للتخلي عن كل شيء. ويرى تولستوي نفسه في هذا الشاب قبل عشرين سنة. لكنه يرى نفسه التي لم ترتكب أخطاء في الحياة، ولم تسر في طريق خاطئ.

هناك لوحة (بورتريه) لـ ف. غ. تشرتكوف من رسم الفنان الكبير إيليا ريبين عام 1885. يبرز أمامنا تجسيد مرئي للشاعر كونستانتين ليفين. لحية ناعمة، عينان ذكيتان، كبيرتان، عميقتان. نعومة في جميع ملامح الوجه النبيل والمثقف، ولكن أية إرادة تلوح منه! إرادة خيّرة.

ولد تشرتكوف في عائلة نبيلة وثرية. أمه، يليزافيتا إيفانوفنا تشرتكوفا، كنيتها قبل الزواج الكونتيسة تشرنيشيفا - كروغليكوفا، كانت امرأة واسعة النفوذ في أوساط بطرسبورغ الأرستقراطية. وقد برزت في المجتمع الراقي بذكائها، وجمالها، وقوة شخصيتها. خالها الكونت زاخار تشرنيشيف، كان ديسمبرياً نُفي إلى سيبيريا. وخالتها كانت متزوجة من ديسمبري آخر، هو نيكيتا مورافيوف، تبعت زوجها إلى المنفى. بدأوا بإشراكها في حفلات المجتمع الراقي باكراً. وفي أول حفلة رقص في القصر تحضره طرح القيصر نيقولاي الأول على الفاتنة الصغيرة سؤالاً يختبرها فيه حول خالها. فأجابت القيصر بجرأة، أنها تحتفظ نحو خالها بأكثر المواقف الودية القلبية. وبالنتيجة، أصبحت موضع احترام في القصر. كان ألكسندر الثاني والثالث يحضران لعندها ولعند زوجها إلى البيت بكل بساطة، ومن دون حراسة. ولكن، عندما عُرض عليها أن تصبح سيدة دولة رفضت. وبعد عدة أعوام من زواجها ابتعدت تماماً عن الحياة الاجتماعية، وكرست نفسها للدين وأصبحت من أتباع الداعية اللورد البارون ريدستوك، الذي كان دارجاً في تلك الفترة. بهذا الصدد، كان العقيد باشكوف زوج شقيقتها، وهي التي عرّفته على اللورد ريدستوك، وعلى هذا النحو، ساعدت على نشوء طائفة «الباشكوفيين» في روسيا.

لم تكن يليزافيتا إيفانوفنا تحب ابنها فحسب، بل كانت تهيم به وتعشقه. فقد توفي ابناها البكر والأصغر، غريشا وميخائيل في وقت مبكر، بفارق زمني بينهما أربع سنوات. وأصبح الابن الأوسط معبود الأسرة. كان الجميع يحترمون إرادته، وكل واحد كان يسعى لإرضائه.

والد تشرتكوف، غريغوري إيفانوفيتش، خدم مساعد جناح في عهد نيقولاي الأول ومساعد جنرال في عهد نيقولاي الثاني. كان مشهوراً في الأوساط العسكرية بمعارفه المتميزة في خدمة الصف العسكري، التي لم

يكن يعرفها سوى الضباط الذين بدأوا خدمتهم في حرس نيقولاي. واجتاز طريقه العسكري من قائد فوج إلى قائد فرقة. وكان مؤلف الكتاب المنتشر بين القوات المسلحة «مذكرة الجندي». بعد إصابته بالغنغرينا وبتر رجليه الاثنتين، ترأس طيلة عشر سنوات لجنة تنظيم وتعليم القوات.

كانت أخته متزوجة من الكونت شوفالوف، المنظر الأيديولوجي الرئيس في عصر ألكسندر الثاني. وشقيقه، ميخائيل إيفانوفيتش تشرتكوف خدم قائداً آمراً في جيش الدون، ثم جنرال – حاكم كييف ووارسو.

عاش آل تشرتكوف بصورة دائمة في بطرسبورغ، ولكن في الجزء الجنوبي من مقاطعة فورونيج كانت لديهم أطيان واسعة من الأراضي الزراعية: مساحتها 30.000 فدان.

هناك لوحة (بورتريه) بالألوان المائية من رسم الفنان الفرنسي دلاكروا لعام 1860، تظهر فيها يليزافيتا إيفانوفنا تشرتكوفا مع ابنها فولوديا وكان عمره ست سنوات. كانت ترتدي ثوباً مخملياً طويلاً ينتشر على الأرض. أما الصبي – الملاك فكان يرتدي بنطلوناً وجزمة لامعة مغطاة بالورنيش وقبعة مدورة. وكانت وضعيته مثيرة للإعجاب: بيده اليمنى المسيطرة يمسك أمه من ثنيات ثوبها، وباليسرى إما أنه يشير لها على الطريق الصحيح، أو يسألها: «ماذا هناك؟..»

كانت السمة المميزة لتربية تشرتكوف أنه نشأ في بيئة متدينة للغاية. وكانت تكمن «النقطة» الرئيسة لتعاليم ريدستوك في الإيمان الاستثنائي بألوهية المسيح، وقوة تكفيره بدمه عن آثام البشرية. وبحلول وقت تعارفه مع تولستوي كان قد خضع لتأثير هذه العقيدة وتأثير طائفة «الباشكوفيين». وفيما بعد، وبتأثير تولستوي، تخلى عن ذلك، لكن مشاعر هذه الطائفة بقيت فيه طيلة حياته. ومثله مثل أمه، كان ميالاً إلى التبشير، ومهووساً برغبة جامحة لـ «تحويل» البؤساء والضالين إلى عقيدته.

كان هذا هو اختلافه عن تولستوي الذي لم يكن طائفياً. وأي روح للحزبية، مع «الأسرار» و«كلمات السر»، والتميز الصارم بين «الأصدقاء» و«الغرباء» وكذلك الرغبة الجامحة للترويج لوجهة نظرك التي تعتبرها هي

وحدها الصحيحة – كل هذا كان غريباً عن تولستوي. كان تولستوي يثق بقوى الإنسان الروحية الداخلية، وكان أبعد ما يريد أن يكون «صنماً» «للحجاج». وبالمقارنة مع ليف نيقولايفتش، كان تشرتكوف ضيق النظرة، عقائدياً وميالاً إلى المذهبية. لكن الأهم – أنه لم يكن يتسامح في التناقضات بين وجهات النظر والتصرفات. الكلمتان الأكثر إساءة في مفرداته هما: «المراوغة» و«التملص». كان يرى أنه من غير اللائق التهرب من معالجة تلك القضايا المطروحة أمام الإنسان. وإذا ما شعر بأن هناك من يتهرب من معالجة هذه القضايا، فهو مستعد لإرغامه على اتخاذ القرار ومعالجتها، مهما حصل.

كانت طفولة تشرتكوف طفولة سيد أرستقراطي صغير: مربيات إنكليزيات، معلمون، تعليم منزلي، كي لا يصاب في المدرسة بأي مرض، لا سمح الله. شبابه يذكرنا بشباب البطل الرئيس لرواية «الأب سيرغي» – الأمير كاساتسكي. والفارق الوحيد هو أن كاساتسكي لم ينتسب، مثل تولستوي الشاب، إلى زبدة مجتمع بطرسبورغ، ويعذبه الغرور. أما تشرتكوف، فبسبب ظروف ولادته، تخلص من هذه النقيصة. ولم تكن لديه عقدة النبيل غير الثري، الذي ليس لديه علاقات، كي يثبت أقدامه في المجتمع. كان وسيماً جداً – نحيفاً، حسن القوام، أطول من الآخرين بمسافة رأس، ذا عينين رماديتين كبيرتين تحت حاجبين مقوسين. كان حاد الذكاء ويحب المفارقات. وكان له صوت ناعم، رنان، وضحكة معدية مثيرة. كان صادقاً وأحياناً مستقيماً جداً. وكانت محفظة نقوده مفتوحة دوماً لرفاقه. أثناء خدمته في الحرس، كان ينادم في بطرسبورغ، ويلعب في الروليت، وعنده عشيقات. وقد كتب تشرتكوف: «عندما كنت ضابطاً في الحرس وعمري عشرين عاماً، كنت أحرق حياتي «في جميع الأشياء السهلة»».

كان من ضمن واجبات الحرس المناوبة في المستشفيات. في عام 1877 (في نفس العام الذي بدأ فيه الانقلاب الروحي عند تولستوي) يعاني تشرتكوف من صدمة كبيرة عند رؤيته جندياً يحتضر، وهو الذي كان يقرأ معه الإنجيل بصوت عال. ومنذ تلك اللحظة، لم يعد يستطيع العيش كما في السابق. ولم يعد يستطيع الخدمة في الجيش *ولم يستطع حتى مجرد العيش*. كم كان هذا شبيهاً لما يجري مع تولستوي، ولكن عندما كان في الخمسين

من عمره! عندما حضر تشرتكوف لعنده، لا شك بأن تولستوي شعر في نفسه بالحسد نحو الفارس الشاب، الذي سار معه في وقت واحد على طريق الحقيقة، لكنه لا يزال في ذروة قواه البدنية، وبكامل طاقته، وباحتياطي كبير من الوقت في المستقبل.

وهـذا ما يحدد تبعية ليف نيقولايفتش، الغريبة للنظرة الأولـى، لتشرتكوف. رغم أن حميمية علاقات ليف نيقولايفتش نفسه مع «الصديق العزيز» (هكذا منذ الرسالة الأولى يتوجه تولستوي إلى تشرتكوف) تثير شيئاً من الانتباه والحذر. وجلي أنه غير مقتنع بأن يأخذ على عاتقه المسؤولية الروحية الكاملة، كما يفعل الشيوخ في الأديرة، عن هذا الفارس الغريب. إن تولستوي لا يروقه هذا، لكنه لا يمكنه أن يرفض تشرتكوف ولا يريد، لأنه منذ لقائه الأول معه، وقع تحت تأثير جاذبية هذا الضابط الشاب المدهش، والمشابه جداً له. هذا في حين أن تشرتكوف يحتاج إلى تولستوي ولا يخفي ذلك. فيرسل له إلى موسكو تلك الكتب التي يقرأها هو بنفسه، كما يرسل له يومياته. وأخيراً يدعو تولستوي إلى ليزينوفكا.

كانت تكمن دقة الدعوة في أن تشرتكوف تعرّف في ليزينوفكا على ثلاثة شبان قرويين، مستعدين لمشاركته آرائه ووجهات نظره. ولكن، هل يملك تشرتكوف الحق في مثل هذه التوجيه الروحي؟

«لا، ليف نيقولايفتش، تعال، شجّع، ساعد. ثمة حاجة إليك هنا».

هذه العبارة – *ثمة حاجة إليك هنا* – تغدو النغمة الرئيسة في المعزوفة الموسيقية المعقدة التي بدأ تشرتكوف يعزفها في أسرة آل تولستوي. حقيقة، أين الحاجة إلى تولستوي أكبر – في الأسرة التي لا تفهمه، ولا تقدر مؤلفاته الجديدة، أم بين الشباب المتوقدين والأنقياء، المستعدين لتكريس حياتهم كلها لترويج أفكاره وآرائه؟

بيد أن الإجابة عن هذا السؤال، البديهية جداً لـ «التولستَويين»، لم تكن بديهية بالنسبة لتولستوي. وليست المسألة في أن ليف نيقولايفتش لا يرغب بالتخلي عن أسرته، التي يشكل معها جسداً واحداً، بل في أنه، من حيث الجوهر، لا يروقه دور المرشد الروحي الذي يفرضه عليه الصديق العزيز.

«استلمت رسالتك وكتابك ولم أجب على رسالتك. لم أجب لأنني لا أستطيع الإجابة. لقد تركت رسالتك في نفسي انطباعاً، (عزيزي، تقبل كلماتي بجدية ووداعة) بأنك في شك وصراع داخلي في قضية شخصية للغاية، كيف ترتب حياتك - هذا سؤال شخصي، تتوجه به إلى الآخرين باحثاً عندهم عن الدعم والمساعدة - ولكن في هذه المسألة الحَكَم: هو أنت والحياة فقط. - لا يمكنني من خلال الرسائل أن أفهم بوضوح ما هي المسألة؛ وإذا ما فهمت - كنت سأكون عندك، ليس أنني لم أجرؤ، بل لم يكن بإمكاني التدخل - تأييد أو عدم تأييد حياتك أو تصرفاتك. المعلم واحد - هو المسيح...»

وهذا كان يعني بلغة تشرتكوف «المراوغة» و«التملص». لكن تولستوي لم يشك قط، بل أوضح بشكل محدد لتشرتكوف أنه لا يرغب أن يكون حكماً أعلى في تقرير المسائل الحياتية للآخرين. ومع ذلك، كان تشرتكوف يطلع ليف نيقولايفتش بصورة منتظمة ومنهجية على هذه المشاكل، متجاهلاً في بعض الأحيان مشاكل أسرته. وكان أحياناً يفعل هذا بصورة بعيدة عن اللباقة، لدرجة أن استجابة تولستوي الودية كانت تثير الدهشة.

نورد فيما يلي مثالاً توضيحياً. في عام 1886 يقرر تشرتكوف الزواج من آنا كونستانتينوفنا ديتيريخس، الطالبة في دورات بيستوجيفسكي العليا، والموظفة في دار نشر «الوسيط» (بوسريدنيك Посредник) التي أسسها تشرتكوف. المظهر الخارجي لغالا (هكذا كان المقربون من آنا يدعونها) معروف جيداً من لوحة الرسام ب. يا. ياروشينكو «الطالبة» (1883)، المحفوظة في متحف تريتياكوفسكي. إنها جميلة، نحيفة، صارمة، ذات نظرة ثابتة مركزة. كانت غالا نصيرة متحمسة لأفكار تولستوي، وقد زارته مع صديقتها، وأثارت سخط صوفيا أندريفنا. قبل أن يتزوج، بحث تشرتكوف هذا الموضوع مع تولستوي في رسائله، معتبراً نفسه غير قادر على الحياة الأسرية وخائفاً من تكرار «خطأ» معلمه. لكن تولستوي أيد زواج تشرتكوف وديتيريخس. في آراء تولستوي، قبل أن يحدث الانقلاب الروحي الجديد، أما بعده، فقد وقف تولستوي ضد الزواج بصورة عامة.

في عام 1887 ولدت لدى الزوجين تشرتكوف ابنة، أُولا، لكنها ماتت

في سن الطفولة. فقد تبين أن زوجته غالا امرأة ضعيفة، وتتعرض للأمراض باستمرار. عملياً، أخذ فلاديمير غريغوريفيتش على عاتقه صليباً ثقيلاً يتمثل في زوجته التي تمرض باستمرار، ولا يصح عدم إعطائه حقه، فقد حمل هذا الصليب بتواضع حتى النهاية. ومع ظهور الطفل الأول في أسرة تشرتكوف طُرحت المسألة نفسها، التي أثارت «الشقاق» في السعادة الأسرية لآل تولستوي. لم تستطع غالا إرضاع طفلها من ثدييها. وكان لا بد من مرضعة. ولسبب ما لم تكن هناك مرضعة في كريكشينا من مقاطعة موسكو، حيث كان يعيش الزوجان. وها هو فلاديمير غريغوريفيتش الحائر يتوجه برجاء إلى ليف نيقولايفتش للعثور على مرضعة في موسكو.

إن مثل هذا الطلب حساس للغاية، بحيث إنه لا يمكن التوجه به إلّا إلى شخص مقرّب للغاية. ولكن في هذه الفترة، كان تشرتكوف قد فقد والده وتشاجر، بسبب تولستوي، مع أمه، التي لم تكن تقبل آراءه. وقد كتبت يليزافيتا إيفانوفنا لابنها: «إنني على قناعة عميقة، وأرى من الإنجيل أن كل من لا يعترف بالمخلّص المنبعث مشبع بهذه الروح، وبما أنه لا يمكن أن يتدفق من نبع واحد ماء عذب وماء مرّ، لا يمكنني الاعتراف بصحة هذه التعاليم القادمة من مثل هذا النبع».

يكتب تشرتكوف لتولستوي: «عزيزي ليف نيقولايفتش. أتوجه إليك ثانية طلباً للعون في العمل الصالح، الذي يبقى عملاً صالحاً بالنسبة لمن يمسهم عن قرب، على الرغم من أن سبباً غير نظيف دفعني للمشاركة فيه. عند أرخانغلسكايا[1] في ممر مستشفى البلدة نزلت وولّدت امرأة وحيدة، فقيرة. وقد قررت فيما بعد تسليم الطفل لدار الأيتام، كي لا تبقى معه في الشتاء متحملة أعباء الحياة. وهذا ما فعلته؛ ولكن بعد أن ولدته، تعلقت به كثيراً، بحيث أصبح الانفصال عنه مصيبة كبيرة، ومع ذلك، انفصلت عنه وسمحت بنقله من عندها إلى دار الأيتام، لعدم رؤيتها أية إمكانية للعيش معه شتاء من دون أي مسكن. ولديها كثير من الحليب في ثدييها، وإذا ما اعترف الطبيب الذي ننتظره بضرورة تجريب حليب امرأة أخرى، فإن حليبها سيكون مفيداً

1- آ.غ. أرخانغلسكايا - طبيبة في مستشفى ريفي، من معارف تولستوي. - المؤلف

جداً لنا، على الرغم من أننا نريد أن نكتفي، إذا ما كان ذلك ممكناً بحليب أمه غالا... أتوجه إليكم ثانية، أملاً بأن يقوم أحد ما من أفراد أسرتك أو من المقربين منك بتنفيذ هذا الطلب لتخليصك من هموم تتطلب صرف انتباهك عن الأنشطة المميزة لك، والضرورية للناس، والتي لا يمكن لأحد غيرك أن يقوم بها. وإليك المطلوب عمله. التوجه بسرعة مع التذكرة المرفقة إلى دار الأيتام والتصريح هناك، بأن أم الطفل الذي يحمل هذا الرقم سوف تسترجعه إلى حضنها، ولهذا لا حاجة لإرساله إلى القرية. وإذا كان لديك في موسكو رجل مناسب تعرفه، فكلّفه بأن يأخذ الطفل الآن ويجلبه إلى هنا...»

في هذه الرسالة، كما في قطرة الماء الصافية، انعكست طبيعة تشرتكوف. أول ما يسترعي الانتباه أسلوب الرسالة - أسلوب لزج، مغلّف، وفي الوقت نفسه، يرتّب كل شيء بحزم، ويضع جميع النقاط على الحروف، فيما يتعلق بعملية تنفيذ الطلب. وجوهر الطلب هو أن آل تشرتكوف بحاجة ماسة إلى مرضعة. وإلا فإنهما يخاطران بفقدان طفلتهما البكر. ذعر الزوجين الشابين مفهوم ومبرر. ولكن، لماذا في هذه الحالة، لا يعلن بصراحة: ليف نيقولايفتش، الطفلة على حافة الموت، ساعدنا، كرمى للمسيح، أملنا معلّق عليك!

لو أعلن صراحة لما كان تشرتكوف. فمسألة حياة وموت الطفلة يغلفها بتلك الكمية من الاعتبارات ذات الصلة، بحيث لا يفهم الشخص الغريب على الفور ما هو المقصود. من يجب أن يساعد تولستوي؟ وماذا عليه أن يفعل؟ إعادة الطفل إلى الأم التي عادت إلى رشدها أم تقديم حليب الغرباء لغالا؟ الطلب الأول هو عمل صالح، أما الطلب الثاني - فهو لا أخلاقي في نظر تولستوي. لقد كان ليف نيقولايفتش عدواً مبدئياً لإرضاع أبنائه بحليب الغرباء. وقد كان يعتبر هذا ضاراً ولا أخلاقياً - مقابل المال سلب الحليب من الأطفال الفقراء. بيد أنه هو نفسه رضع على هذا النحو، وصوفيا أندرييفنا، التي كانت تعاني من آلام في ثدييها، لم تتقيد برأي زوجها، وكانت تشتري المرضعات لأبنائها وأبناء أختها تاتيانا.

على أية حال، كانت مسألة مؤلمة ودقيقة. فهل كان تشرتكوف يعرف هذا. كان يعرف غالباً. فبحلول عام 1887 كان قد زار غير مرة خاموفنيكي وياسنايا

بوليانا. وكان يرتبط بعرى الصداقة مع أبناء تولستوي الكبار. وأخيراً، كان يعرف رأي تولستوي بخصوص الرضاعة من خلال رسائله إليه، التي كتبها تشرتكوف بعد ولادة الطفلة أولا. ومن هنا تحفظه واشتراطه: «... على الرغم من أننا نريد أن نكتفي، إذا ما كان ذلك ممكناً بحليب أمه غالا». ومن هنا أيضا تلميحه إلى عدم نظافة الدافع الذي دفع تشرتكوف لكتابة الرسالة.

فماذا كان رد فعل تولستوي؟

إنه يندفع بفرح(!) لإنجاز الطلب. يجيب تولستوي صديقه العزيز: «استلمت الآن رسالتك حول الطفلة (في الساعة الثالثة) والآن سأذهب لأفعل ما بوسعي. وأنا مسرور جداً لكل هذا». وهذا تولستوي! وهو الذي، حسب قول صوفيا أندرييفنا، نظر نظرة عدائية إلى زوجته الشابة عندما رفضت إرضاع سيريوجا، مستندة إلى آلام لا يمكن احتمالها.

إن جميع دوافع تصرف تشرتكوف، وإن كانت مخفية بعمق في الرسالة، مفهومة ومبررة. فلا يمكن للأب الشاب أن يراقب بهدوء آلام طفلته وهو مستعد للتوجه لطلب المساعدة العاجلة إلى أي شخص، وإن كان إلى ليف تولستوي. الشيء غير المفهوم هو فرح ليف نيقولايفتش. لماذا هو «مسرور جداً لكل هذا»؟

إن التفسير القائل إن مسألة سوء تغذية الطفلة ونقص رضاعتها تقلقه إلى هذه الدرجة، غير صالح.

إن جواب تولستوي «السار» لتشرتكوف قد كُتب في 19 كانون الأول/ ديسمبر 1887. وفي 31 آذار/ مارس من العام التالي وُلد في أسرة تولستوي الابن إيفان. وهو الأخير، وكان محبوباً بشكل خاص من صوفيا أندرييفنا وليف نيقولايفتش وكامل أفراد الأسرة الكبيرة. ولكن، على الفور، بعد ولادته، بدأت لدى صوفيا أندرييفنا المشاكل النسائية القديمة.

تكتب له زوجته من موسكو إلى ياسنايا بوليانا في 26 نيسان / أبريل: «إيفان نحيف، ويتعافى بشكل سيئ». بعد يومين تستلم منه جواب الرسالة: «لا تكتئبي، يا عزيزتي، بخصوص إيفان، ولا تقلقي نفسك بالأفكار. الله أعطانا الطفل، وسيعطينا غذاءه أيضاً».

يبدو كأن مشاكل أسرة آل تشرتكوف تقلق ليف نيقولايفتش أكثر بكثير من هموم أسرته. بعد بضع سنوات، سوف يبحث لهم بسرور عن منزل في محيط ياسنايا بوليانا، مع علمه غالباً، بغيرة زوجته الشديدة من هذا المسعى. وقبل هذا سوف يهتم بسرور بالبحث عن مسعفة شابة لرعاية زوجة تشرتكوف المريضة غالا. وعندما علم بالحالة الصحية السيئة لغالا، يتوجه تولستوي بنفسه في عام 1894 إليهم في رجيفسك بمقاطعة فورونيج، وتنتعش غالا بكل معنى الكلمة من قدومه.

الوسيط

في حديثنا عن تشرتكوف، بصفته وكيلاً أدبياً، من غير الممكن للمرء ألا ينتبه إلى حالة رائعة. لقد كان تشرتكوف بلا شك وسيطاً أدبياً عبقرياً لتولستوي، وبخاصة في الخارج، وقد ساعدته في هذا إلى حد كبير معرفته الممتازة الكاملة باللغة الإنكليزية وصلاته العائلية بالأوساط الأرستقراطية العليا في إنكلترا. بيد أن هذا العميل لم يجلب ربحاً لتولستوي طيلة حياته، كوبيكاً واحداً ولا شيلنغاً واحداً، ولنفسه لم يربح من زبونه قرشاً واحداً.

تلك كانت إرادة تولستوي نفسه. تولستوي، هو نفسه الذي تشاجر مع كاتكوف ونكراسوف على كمية المكافآت، يتخلى بعد الانقلاب الروحي عن حقوق التأليف. في البداية، بصورة غير علنية، وفيما بعد، بصورة قانونية (كما يعتقد)، عن طريق نشر رسالة في الصحف في عام 1891 عن رفضه حقوق التأليف. ومنذ ذلك الحين، أصبح يحق لأي ناشر أن يعيد نشر مؤلفات تولستوي، التي كتبها بعد عام 1880، دون مقابل، منذ لحظة صدورها. أما المؤلفات المكتوبة حتى عام 1881 فحقوق التأليف يعود لزوجته، وهذا ما اهتم به بصورة رسمية، وكتب لزوجته توكيلاً بذلك.

إن نشاط تشرتكوف في مجال النشر، قبل الثورة وبعدها، يعد من أروع الصفحات المشرقة في نشر الكتاب الروسي والعالمي. فقد كان منظماً ووسيطاً متميزاً، كان من غير الممكن أن يستغني عنه تولستوي.

وفي رسالة تولستوي الأخيرة إلى ابنته ساشا، التي كتبها في 29 تشرين

الأول/ أكتوبر عام 1910 من صحراء أوبتينا، يرد تحفظ غير معهود لدى ليف نيقولايفتش. ففي حديثه عن العقبات من جانب صوفيا أندرييفنا للالتقاء بتشرتكوف، يشتكي تولستوي لابنته من كراهية زوجته «لأقرب شخص إليّ، وهو الشخص الضروري لي». إن كل من اطلع على رسائل ليف نيقولايفتش وعلى يومياته، يرى أن كلمة «ضروري» تجرح الأذن. وهي ليست من مفردات تولستوي.

لم يكن في طبيعته استخدام الناس. ولم يكن من أخلاقه تقسيم الناس إلى «ضروريين» و«غير ضروريين». ورغم أنه يقصد بكلمة «ضروري» معنى أعمق وأوسع من التعاون العملي، فإن من لديه أذنان سيسمع: لقد زلّ لسان تولستوي هنا بالذات، وهذا بالغ الدلالة.

في كانون الأول/ ديسمبر عام 1883 يتعرف تشرتكوف على الناشر ماراكويف، الذي أصدر كتباً للفلاحين. وفي هذا الوقت تظهر في يوميات تولستوي المدوّنات الأولى عن تشرتكوف. «أحبه وأثق به». «إنه نشيط جداً مثل النار»: «أنا متعب، وهو صلب». «إنه مُستغرق، مركّز معي بشكل مدهش».

في نيسان / أبريل عام 1884 توفي والد تشرتكوف. ولمعرفته بميول ابنه الجديدة، يوصي بجميع ممتلكاته لزوجته. واضطر تشرتكوف لأن يصبح عالة على أمه. خصصت أمه لمصروفه سنوياً مبلغ عشرين ألف روبل. وهو مبلغ كبير، لكن الفكرة ذاتها، أنه تابع مالياً لأمه التي لا تشاركه قناعاته، كانت تمزقه وتعذبه بشكل مخيف. ويكتب عن هذا لتولستوي في الأسلوب الاعترافي المتعارف عليه بينهما، محاولاً تبرير ذلك بأنه يصرف جزءاً من هذا المبلغ على «أعمال الخير». لكن تولستوي لا يروقه هذا التبرير. فيشير في يومياته: «إنه يخشى من التخلي عن ممتلكاته. إنه لا يعرف كيف تم تحصيل مبلغ عشرين ألفاً. لا فائدة. أنا أعرف - بالقسر والقهر على الناس المعذبين. عليّ أن أكتب له».

ولكن، ماهي «أعمال الخير» هذه؟ في صيف عام 1884، بعد عودته مع أمه من إنكلترا، حيث حاولت أن ترفّه عن نفسها بعد فقدان زوجها، سكن

تشرتكوف من جديد في ليزينوفكا. وتابع العمل في المدرسة المهنية التي أسسها للفلاحين، وهي مدرسة زراعية، كما أنه حاول تنظيم مزرعة نموذجية. لكن هذا كله لا يرضيه. إنه يحلم بتأسيس دار نشر خاصة لتولستوي. في البداية، قام بذلك بصورة يدوية عن طريق التصوير بالهيكتوغراف، حيث نشر مقالة «ما هي عقيدتي؟». لكنه ذات مرة، في رسالته لتولستوي ينصحه(!) تشرتكوف بأن يكتب قصصاً قصيرة للشعب. «كنت سأنشر هذه القصص في سلاسل».

في خريف العام نفسه، يلتقي تشرتكوف في موسكو مع ماراكويف ومع الكاتبين الشعبيين زلاتوفراتسكي وبروغافين. ويبحثون للمرة الأولى خطة تأسيس دار نشر شعبية كبيرة قوية.

كانت هناك دور نشر شعبية في موسكو. لكنها كانت تنشر الأدب الشعبي الرخيص المبتذل، كتلوين الصور مع نصوص منقولة عن اللغات الأجنبية مثل «بوفا كوروليفيتش» و«ميلورد غيورغ» التي سخر منها نكراسوف في قصيدته «من يعيش جيداً في روسيا؟». كان تشرتكوف يدرك أنه في المراحل الأولى لا يمكن الاستغناء عن الأدب الشعبي الرخيص. ولكن يجب إقناع الناشرين الرخيصين بأن إصدار مؤلفات ليف تولستوي والكتاب الروس الآخرين، بنفس الطريقة، هو أيضاً عمل مربح.

وتم العثور على هذا الناشر إيفان سيتين، شاب، متحمس. في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1884 ذهب تشرتكوف إلى مكتبته في موسكو، وتعرّف عليه. اهتم سيتين بفكرة تشرتكوف نشر مؤلفات أبرز الكتاب الروس لذلك العصر، إلى جانب الأدب الشعبي الرخيص، وبيعها بالسعر نفسه. وبدهائه الريفي أدرك كم هذا مربحاً: ولا حاجة لدفع مكافأة النشر، وهذا أمر مشرّف لدار النشر. وعلى أساس سيتين نشأت دار نشر «الوسيط» بوسريدنيك «Посредник»، التي أسسها تشرتكوف مع صديقه ضابط البحرية السابق بافل بريوكوف، الموظف الآن في الأرصاد الجوية.

كانت القصة الأولى التي أعدها تولستوي لدار نشر «الوسيط» معدّة سابقاً لدار نشر «الأبجدية Азбука» وهي قصة «الأسير القوقازي» – رائعة

تولستوي الجديد الأدبية. لكن تشرتكوف هو الذي يحرر نص القصة على الذوق الشعبي، ويتدخل في النص. ويوافق تولستوي فجأة بسهولة. وبالتدريج، يغدو تشرتكوف ليس مجرد وسيط بل مستشار تولستوي. فيشاركه تولستوي أفكاره بخصوص المؤلفات الجديدة، ويرسل له المقاطع التي كان قد بدأها ولم يكملها، فينقلها تشرتكوف ويترك بين الأسطر مسافات وأسطراً فارغة كي يملأها تولستوي بنص جديد وتصويبات. وهذا ما لم يخطر ببال صوفيا أندرييفنا.

في آذار/ مارس عام 1885 تصدر الكتب الأولى عن دار نشر «الوسيط» - ثلاث قصص شعبية لتولستوي في أغلفة زرقاء وحمراء وبرسوم سوداء، مطبوعة بأحرف كبيرة. وهي رخيصة الثمن جداً - كوبيك وكوبيك ونصف للكتاب الواحد.

وفي شهر أيار/ مايو من العام نفسه يسافر تشرتكوف ثانية إلى إنكلترا مع أمه، ويتفق على نشر مؤلفات ليف نيقولايفتش، المحظورة في روسيا، باللغة الإنكليزية. ويساعده في هذا صديقه الإنكليزي اللورد باترسبي. وضمن كتاب واحد نُشرت باللغة الإنكليزية مؤلفات تولستوي «الاعترافات»، و«ما هي عقيدتي؟» و«عرض موجز للإنجيل». وكان تولستوي بهذا «مسروراً جداً جداً».

مع ظهور دار نشر «الوسيط» ونشر الطبعات الأولى لمؤلفات تولستوي المحظورة في الخارج، بدأ عصر جديد في حياة الكاتب. ويرجع شرف افتتاحه بالكامل إلى تشرتكوف. وبينما كانت صوفيا أندرييفنا تعيد نشر مؤلفات زوجها التي أثبت الزمن مصداقيتها، وتتفق مع المطابع، وتقوم بالتدقيق وتخزين الكتب الجاهزة في عنبر منزلها بموسكو، كان تشرتكوف يفتح لتولستوي آفاقاً جديدة.

وهذا يجذب اهتمام ليف نيقولايفتش بشغف كبير أكثر من التكرار اللامتناهي لـ «الخردة»، مثل «طفولة» و«الحرب والسلام»، التي تذرف عليها زوجته دموعها والتي لم يعد تولستوي بروحه الجديدة يهتم بها. في المنزل - «الخردة» - هو كل ما كان يعاني تولستوي ويحرق نفسه من

أجله في الستينيات والسبعينيات، والذي يشعر نحوه الآن بالملل القاتل. وهناك، خارج نطاق الوسط العائلي الممل، تشرتكوف الشاب النشيط، المتحمس، القادر على ربطه مع رجالات العالم المجهولين، الذين حلم بهم خلال وحدته الروحية. كان الخيار بديهياً وواضحاً للغاية، وكان الصراع غير متكافئ.

الفصل السابع

من هو المخطئ؟



يشبه سلوك تولستوي ورفاق دربه أثناء الهروب من شاموردينو كثيراً سلوك اللاجئين أثناء الحرب الذين ينسفهم فجأة من مكان مأهول نسبياً، بشكل غير مفهوم، خبر مقلق يعرض حياتهم للخطر، ويرغمهم على الهرب بعيداً، خاضعين ليس لإرادة منطقية، بل لمنطق الظروف. فهنا القيصر والله - رئيس المحطة، وهناك كتاب القدر - الجدول الزمني للسكك الحديدية.

إلى أين سيذهبون من كوزيلسك؟ إلى نوفوتشركاسك؟ ولكن عند وجودهم في العربة، وفي الطريق إلى المحطة من الفندق، يسأل ليف نيقولايفتش ماكوفيتسكي: «كم يبعد آل آنيكوف عن محطة لغوف»؟ فلارتباكهم بالخطأ الوارد في خريطة بريول، كانوا لا يزالون يعتقدون أن الذهاب إلى لغوف عن طريق سوخنيتشي وبريانسك، أي بعبارة أدق باتجاه الغرب، في الاتجاه المعاكس تماماً، للاتجاه الذي ذهبوا فيه. لكن القطار إلى سوخنيتشي انطلق في الساعة 5.19 صباحاً ولم يتمكنوا من ركوبه. لماذا؟ أخّرهم الحوذيان المتثاقلان اللذان تركتهما بالأمس ساشا وفيوكريتوفا مع عربتين.

يكتب ماكوفيتسكي: «كان الحوذيان بطيئين جداً في تجهيز الخيول. كانت حوالي الساعة السادسة صباحاً عندما جلس ليف نيقولايفتش وأنا في العربة. كان الجو ضبابياً، رطباً، ودرجة الحرارة تقارب درجة التجمد، من دون أي ريح، وظلام مسيطر».

في العربة الثانية وضعوا حاجيات تولستوي والطبيب. وهكذا، لم يكن

ثمة أماكن لابنته ورفيقتها. كان ينوي تولستوي أن يأخذ لنفسه عربة أكثر راحة – عربة أخته. ومن أجل هذا الغرض، وبينما كانت ساشا وفيوكريتوفا ترتبان الحوائج، ذهب ماكوفيتسكي إلى بيت ماريا نيقولايفنا وأيقظ ابنتها يليزافيتا. ولكن هنا حدث سوء تفاهم غريب بالنسبة للنظرة المدنية. فقد كانت شقيقة ليف نيقولايفتش راهبة ولم يكن يحق لها أن تقوم بأي تصرف حتى بعربتها الشخصية من دون إذن رئيسة الدير. وكانت رئسة الدير مريضة. ومن غير المناسب إيقاظها في هذه الساعة المبكرة. كما أن الوقت لم يكن يسمح بذلك.

«اضطررنا أن نفعل كما يلي: الذهاب إلى الفناء وإيقاظ الحوذيين الباقين، أما الحوذي الثالث فاستئجاره من القرية، وإرسال العامل لجلبه. وإرسال العربة إلى ماريا نيقولايفنا كي تأتي إلى الفندق وتودّع شقيقها». لم تتمكن من وداع شقيقها، ووجدت في الفندق فقط ساشا وصديقتها، اللتين كانتا مسرعتين جداً كي تلحقا بتولستوي وماكوفيتسكي.

ترك ليف نيقولايفتش لشقيقته رسالة مؤثرة، تثبت بوضوح كامل، بالإضافة إلى مشاعره الطيبة الحنونة نحوها، أنه في أثناء هروبه الثاني كان في عقل سليم، وأنه كان يدرك تماماً ما يفعله.

«صديقتيّ العزيزتين، ماشينكا وليزونكا.

لا تستغربا ولا تدينانى لأننا سافرنا، دون أن نودعكما كما يجب. لا يمكنني أن أعبر لكما كليكما، وخاصة لك، عزيزتي ماشنكا، عن شكري لمحبتك ومشاركتك في امتحاني. لا أذكر، مع محبتي الدائمة لك، أنني شعرت يوماً بهذا الحنان الذي أشعر به نحوك في هذه الأيام والذي يرافقني عند مغادرتي. نحن نغادر بصور غير متوقعة، لأنني أخشى أن تجدني هنا صوفيا أندرييفنا. وهناك قطار واحد فقط – في الساعة الثامنة...

أقبلكما، صديقتي العزيزتين، وأحبكما بفرح وسرور.

ل. ت.»

وهكذا، بدا واضحاً أنهم لن يلحقوا على قطار بريانسك، فقرروا ركوب قطار آخر انطلق في الساعة 7.40 إلى غورباتشوفو وأبعد. أبعد – إلى أين؟

وهنا في يوميات ماكوفيتسكي يظهر ارتباك غريب، يدل على أنه لم يكن لدى الهاربين تصور واضح عن اتجاه طريقهم، علاوة على محطته الأخيرة.

إن لغوف وآنيكوفا هما حاضرتان باستمرار في ذهن تولستوي كوسواس. فهو يحدث ماكوفيتسكي في العربة عن لغوف وعن عزبة آنيكوفا في الطريق إلى المحطة. هناك «على الطريق يمكن التوقف والاستراحة» – ، يوحي للطبيب، مشيراً صراحة أنه تعب من هروبه ويريد الاستراحة في عزبة مألوفة. وربما مجرد الرعاية من جانب امرأة، قريبة روحياً وذات خبرة؟

لكن ماكوفيتسكي، إما أنه لا يفهم هذا أو يتظاهر بأنه لا يفهم. ويشعر ليف نيقولايفتش بالقلق أيضاً لأن العربة التي تنقل ساشا وفيوكريتوفا مع العفش غير ظاهرة في الخلف، وهما يقتربان الآن من كوزيلسك. فمن الممكن إذن، أن تتأخر ابنته على القطار؟

كان يبدو أن هذه الخشية تغطي جميع الاعتبارات المتبقية. يسأل ليف نيقولايفتش وماكوفيتسكي الحوذي: وهل سيلحقون هم على قطار الساعة السابعة؟ يجيب الحوذي: سنلحق. ومع ذلك عند الدخول إلى كوزيلسك يسأله تولستوي فجأة عن الفندق: هل فيها فندق؟ يكتب ماكوفيتسكي: «لقد لمّح ليف نيقولايفتش، بسبب احتمال عدم اللحاق بالقطار، إلى احتمال التوقف في الفندق، وسأل الحوذي، أي فندق في كوزيلسك». لم يكن هذا تلميحاً. كان صراخاً مكتوماً من إنسان مريض، كبير في السن، يدرك أنه ليس لديه القوة للهرب إلى أي مكان، ولكن إما بسبب العناد أو بسبب الدماثة لا يقول هذا.

كان واجب ماكوفيتسكي المباشر، كطبيب، فهم هذا المزاج، وعلى الرغم من أنه كان لا يريد اللقاء بصوفيا أندرييفنا بدرجة لا تقل عن تولستوي نفسه، وإرغام تولستوي على التوقف في الفندق. لكن ماكوفيتسكي تردد. وقال، «عندها (أي في حال التوقف في الفندق – *المؤلف*) بحلول المساء في الساعة 4.50 يمكن متابعة السفر». ولكن – السفر إلى أين؟ بالنظر إلى دليل بريول الذي أخذ منه الطبيب هذا الرقم 4.50. في هذا الوقت عبر كوزيلسك يتوجه قطار ليس إلى روستوف. إنه كان نفس القطار المتوجه إلى سوخينيتشي، الذي قدموا عليه من غورباتشوفو قبل ثلاثة أيام. إنه

قطار الشحن ذاته بعربة ركاب واحدة من الدرجة الثالثة، التي أصيب فيها تولستوي بنزلة برد.

من يوميات ماكوفيتسكي:

«ليف نيقولايفيتش: في القطار (العربة) نفسه الذي وصلوا به إلى هنا؟

وكان يُسمع في صوته أن هذه الفكرة رهيبة بالنسبة له. ولا أحد منا لم يكلف الحوذي أن يعرّج على الفندق. ولو أني حدست وسألت ليف نيقولايفتش كيف يشعر بحالته الصحية، ربما اعترف ليف نيقولايفتش بانحراف صحته. كان ليف نيقولايفتش يجلس طيلة الوقت جلسة أمامية مباشرة، دون أن يميل ودون أن يتكئ، ودون أن يتأوه، ولم يبد أي تعب أو أنه ليس بحالة صحية جيدة. ولكنني لم أنتبه، ولم أفكر، أن ليف نيقولايفتش بسبب ضعفه أراد التوقف في الفندق ونحن لم نتوقف وذهبنا إلى المحطة. اقترب القطار. والحوذي قاد الخيول على مقربة من الرصيف».

من السهل اليوم إدانة ماكوفيتسكي لعدم وفائه بواجبه الطبي. ولكن يجب ألا ننسى أن الدليل على عدم وفائه هذا نستنتجه من يومياته هو نفسه. وليس هناك من شهود باستثناء الحوذي (من المشكوك به أنه كان مسروراً للاستيقاظ في هذه الساعة المبكرة ونقل السادة إلى محطة القطار)، ولم يكن هناك ما يمنع الطبيب فيما بعد، عند تدوين يومياته، أن يزيّن كما يناسبه دوره في هروب تولستوي. لكنه لم يفعل هذا. نعم لم يلحظ الطبيب مرض الشخص الوصيّ عليه. لكنه تحدث عن هذا بصدق للعالم كله.

علاوة على ذلك، ماكوفيتسكي نفسه، كان متعباً للغاية وبأمس الحاجة للنوم. ولم يكن من قواعده مناقشة قرارات ليف نيقولايفتش، التي كان يعتبرها مقدسة.

تمكنت ساشا وفيوكريتوفا مع ذلك من الركوب في قطار روستوف. ركبنا معاً في عربة الدرجة الثانية، التي لم يكن فيها مقصورة شاغرة. وضعنا ليف نيقولايفتش مع رجل مثقف من بيليفو، الذي تعرّف فوراً على الكاتب تولستوي وتنازل له بلطف عن المقصورة. ركبنا في القطار من دون تذاكر. وآنذاك فقط «بدأوا يتشاورون، إلى أين يذهبون».

آنذاك فقط، سقطت لغوف وآنينكوفا بصورة تلقائية. وآنذاك قرروا السفر إلى روستوف، إلى نوفوتشركاسك، إلى آل دينيسينكي. «بعد غورباتشوفو، تشاوروا من جديد وتوقفوا في نوفوتشركاسك. وهناك يستريحون عدة أيام عند ابنة أخت ليف نيقولايفتش ويقررون نهائياً اتجاه السير - إلى القوقاز أو، إذا ما حصل المرافقون لليف نيقولايفتش على جوازات سفر (قال ليف نيقولايفتش: لديكم جميعاً أشكال (إقامات - *المؤلف*) وأنا سأكون خادمكم من دون شكل إقامة)، يمكن السفر إلى بلغاريا أو إلى اليونان».

عند قراءتنا ليوميات ماكوفيتسكي، نصاب بالذعر بصورة لا إرادية. فالهاربون، إذن، نووا، عبور الحدود بصورة غير مشروعة، ناقلين العجوز البالغ من العمر ثمانين عاماً بصفة خادم؟ بالطبع كان هذا مستحيلاً، وهذا ليس لأنهم كانوا سيمسكون بهم على الحدود فقط، لأن خبر أن الكاتب الكبير ليف تولستوي قد هرب من بيته مع الطبيب السلوفاكي الهادئ ذي الوجه الشاحب، قد انتشر في العالم كله آنذاك. بل لأنه كان يرافقهم أيضاً، في القطار المتجه إلى روستوف، مراسل صحيفة «الكلمة الروسية» روسكوي سلوفو«Русское слово» كونستانتين أرلوف. وأرلوف الذي كان يتابع تولستوي خطوة خطوة، كان يرسل من كل محطة كبيرة بصورة دورية خبراً عن مكان وجود ليف نيقولايفتش ورفاقه. وبالنتيجة، كان سيستقبل تولستوي وحاشيته في نوفوتشركاسك حشد من المراسلين من جميع أنحاء الإقليم الجنوبي لروسيا، بحيث لم يكن بإمكانهم القيام بأية زيارة شخصية لآل دينيسينكي...

ومع ذلك، فلننظر في طرق هروب تولستوي المحتملة بعد شاموردينو. ولنفترض أنهم حصلوا على جوازات سفر وعبروا الحدود إلى بلغاريا. فهل هذا سيكون مخرجاً لليف نيقولايفتش؟

ما الذي كان يريده أكثر من أي شيء آخر؟ السلام والهدوء والوحدة. يكتب ماكوفيتسكي: «إنه لم يتذكر أو لم يعرف كم هو مشهور في بلغاريا. ليست هناك لغة واحدة في العالم، دون استثناء الإنكليزية والتشيكية، ليست فيها هذه الكمية من الترجمات لآخر كتابات ليف نيقولايفتش مثل اللغة البلغارية. ولكن آنذاك لم يفكر أحد منا أن يشرح لليف نيقولايفتش أنه من

المستحيل أن يختفي لفترة طويلة في أي مكان. آنذاك كنا نفكر فقط ببضعة أسابيع (ومؤقتاً ببضعة أيام على الأقل) أن لا يكون مرصوداً وملاحقاً».

في بلغاريا، كان يمكن أن ينتظره استقبال دافئ للغاية. وتحديداً، كان يعيش في بلغاريا أحد أتباعه المتحمسين، صديق تشرتكوف، خريستو دوسيف، المحرر في مجلة «البعث». وقد حل ضيفاً في عام 1907 على تشرتكوف في تيلياتينكي والتقى بتولستوي. وفي بلغاريا، كما في جميع البلدان السلافية، كانت هناك حركة «التولستَويين»، وكانوا بالطبع سيحملونه على الراحات. لكن تولستوي، كان هذا أقل شيء يرغب به. والشرط المبدئي الذي كان سيفرضه على مكان استضافته - أن لا يكون هو بأي حال من الأحوال، كومونة تولستوي. وقد قال هذا أكثر من مرة لرفاق دربه. حيثما كان - في عزبة، في فندق، ولكن ليس في كومونة.

وكيف للمرء أن لا يتذكر بوذا الذي رفض الموت في دير بوذي؟[1]

ولكن في هذه الحالة، حتى القوقاز لن يكون ملائماً لتولستوي. ففي القوقاز عاش أيضا «المماثلون له في الفكر»، ونُفي إليه «التولستويون» والدوخبوريون Духоборы الرافضون لمناسك الكنيسة الأرثوذكسية.

اشترت ابنته ساشا في محطة غورباتشوفو أعداد الصحف التي نشرت خبر اختفاء تولستوي من ياسنايا بوليانا. وقد رأى تولستوي هذه الصحف، وبحسب شهادة ساشا، اغتمّ كثيراً.

- كل شيء أصبح معروفاً، جميع الصحف ممتلئة بخبر مغادرتي - علق ليف نيقولايفتش بحزن.

1- قبل وفاة غوتاما بوذا بفترة قصيرة سيطر عليه القلق. كان يكثر التنقل من مكان إلى آخر، ولم يمكث طويلاً في مكان واحد. ذات مرة استُقبل في بيت الحداد. ولم يكن لدى صاحب البيت ما يقدمه لغوتاما العجوز سوى لحم الخنزير المقدد. وبعد الطعام المزعج بدأ الألم الشديد يعذبه. فأدرك أن موته يقترب. ارتدى بوذا ملابس نظيفة وطلب أن تفرش له عباءة على الأرض. جلس إلى جانبه الحداد الحزين وطالب بوذا الذي كان يبكي. فواساهما بوذا معزياً: «ألم أقل، يا أناندا، إن من طبيعة الأشياء، الغالية علينا والحبيبة، أن علينا أن نفترق عنها؟» كان التلميذ الساذج أناندا مستاء لأن الكامل اختار لموته قرية غير معروفة. (ملاحظة المؤلف)

في عربة القطار، قرأ عديد من الركاب هذه الصحف وبحثوا الخبر الرئيس. وقد تذكرت ساشا: «مقابلي كان يجلس شابان في ثياب دارجة وبين أسنانهما سيجارتان:

– لقد فعل هذه الفعلة العجوز – قال أحدهما – ربما صوفيا أندريفنا لم تزُقه كثيراً – وقهقه بغباء – هرب ليلاً.

– إليك – لقد كانت تعتني به طيلة حياتها – قال الآخر – لا يبدو أن عنايتها به كانت سعيدة».

الشائعة حول أن مسبب الفضيحة موجود هنا في هذا القطار، انتشرت في العربة كلها خلال لحظات، وأخذ الركاب الفضوليون يلقون النظرات إلينا في المقصورة. بحيث كان من غير الممكن وقف ضغطهم بجهود مرافقي ليف نيقولايفتش وحدهم. وعندها تدخل قاطعو التذاكر الأذكياء.

– ماذا بكم تزعجونني؟ – قال واحد منهم، ذو شعر أشيب ومظهر محترم، ووجه ذكي فطن – حقيقة، لماذا تضايقونني؟ لقد قلت لكم إن تولستوي نزل من القطار في المحطة قبل الأخيرة.

لكن تولستوي، ولله الحمد، لم ير هذا ولم يسمعه. كان قد نام بعد أن تغطى بالبطانية، في مقصورة فارغة.

وعندما استيقظ، اتضح لمرافقيه أن تولستوي مريض للغاية. وكأن جميع طاقات جسده القوي التي ساعدته على الطريق من ياسنايا بوليانا إلى شاموردينو قد انهارت بين عشية وضحاها. لن نخمن، لماذا حدث هذا. لا سيما أن ثمة فرضيات مختلفة حول مرض تولستوي. نشير فقط إلى أن هذا حدث عندما بدا كأنه تخلص من فخ كوزيلسك، عندما اجتازوا غورباتشوفو المشؤومة، ولم يعد شبح صوفيا أندريفنا يهددهم في الأيام القريبة على الأقل. ولكن بعد غورباتشوفو بالذات، أدرك من خلال الصحف أنه من الممكن الهروب من زوجته، أما الهروب من شهرته العالمية فهذا مستحيل. لقد أدرك تولستوي أن العالم كله يتابع كل خطوة من خطواته. وأن الصحفيين الدؤوبين سيصلون إليه أينما رحل.

إنه لم يتمكن من السير على طريق الأب سيرغي. وكذلك لم ينجح في طريق جميع أبطاله الهاربين الأدبيين، بدءاً من الأمير أولينين حتى المرشد

الروحي فيودور كوزميتش. ولم يستطع التغلب على الشيطان الأخير، على شهرته العالمية. إنها كانت تتضاعف مرات عديدة بهروبه فقط.

دائرة القدر

كانت حياة تولستوي تغري كتّاب السيرة بتقسيمها ليس إلى مراحل زمنية فقط (طفولة، شباب، نضج، الإبداع المبكر، الإبداع المتقدم)، ولكن على وجه التحديد إلى قطاعات متعددة قابلة للقسمة، كي تطابق كل مرحلة حياتية عدداً معيناً من السنوات.

لماذا حدث هكذا، يصعب تفسير ذلك منطقياً، ولكن هذا ما حصل بصورة حدسية. ربما لأن تولستوي عاش وتطور ليس على مراحل عادية، بل على شكل دورات، أو بصورة مجازية، حلقات، مثل شجرة البلوط. فهو كان دائماً ينمو في حجمه الروحي، مضيفاً مع كل مرحلة حلقة روحية جديدة.

وهذه الدورات لا تتطابق مع الوتائر العادية للحياة البشرية. ففيها نظام غريب، أغرى فيه تولستوي ذات مرة بتقسيم حياته إلى قطاعات زمنية معينة.

ففي حديث مع كاتب سيرة تولستوي الأول ب. ي. بريوكوف اعتمد تولستوي الرقم «7» كأساس. «هذا التقسيم سمعته من ليف نيقولايفتش نفسه، الذي عبّر ذات مرة، في حديث معي، عن فكرة مفادها أنه بالتطابق مع المراحل السبع من الحياة الجسدية للإنسان التي يعترف بها بعض علماء الفيزيولوجيا، يمكن تحديد سبع مراحل في تطور حياة الإنسان الروحية، فينتج أن لكل مرحلة مؤلفة من سبع سنوات ملامحها الروحية الخاصة».

وبحسب فكرة تولستوي، قام ب. ي. بريوكوف بتقسيم حياة تولستوي إلى دورات مؤلفة من سبع سنوات. وإليكم ما نتج عنده:

1) 1825-1835: الطفولة.

2) 1835-1842: المراهقة.

3) 1842-1848: الشباب، الدراسة، بداية العمل الإداري في القرية.

4) 1849-1856: بداية الكتابة، الخدمة العسكرية: القوقاز، سيفاستوبول، بطرسبورغ.

5) 1856–1863: الاستقالة، الرحلات، موت أخيه، العمل التربوي، الوساطة، الزواج.
6) 1863–1870: الحياة العائلية. «الحرب والسلام». المزرعة.
7) 1870–1877: مجاعة سامارا. «آنّا كارينينا». ذروة الشهرة الأدبية، والسعادة الأسرية والثروة.
8) 1877–1884: الأزمة. «الاعترافات». «الإنجيل». «ما هي عقيدتي».
9) 1884–1891: موسكو. «إذن، ماذا علينا أن نفعل؟». الأدب الشعبي. «الوسيط». نشر الأفكار في المجتمع وفي أوساط الشعب. كتابات نقدية.
10) 1891–1898: المجاعة. «ملكوت الله في داخلنا نحن». طائفة الدوخوبوريين Духоборы (رافضو المناسك الأرثوذكسية). ملاحقة أتباع هذه الأفكار.
11) 1898–1905: «البعث» الحرمان. المرض. المرحلة الأخيرة. نداء إلى العسكريين، ورجال الدين، والزعماء السياسيين. الحرب. الحركة الثورية والإصلاحية في روسيا.

بهذا السجل تبدأ أولى السير الكاملة لتولستوي، التي كتبها تلميذه بريوكوف. إنها سيرة رائعة، غير مسبوقة من نواح عديدة حتى يومنا هذا.

بيد أنه مما يدعو للاعتبار، أن بريوكوف نفسه يسمي نظام تقسيم السيرة هذا «اصطلاحياً». فمراحل السنوات السبع لا تعكس بوضوح أهم التواريخ في حياة الكاتب. فمن ناحية أولى، هناك قطاعات زمنية عديدة عشوائية. 1842–1849، ولماذا ليس 1843–1850 على سبيل المثال. ومن ناحية أخرى – تغيب في هذا التقسيم اللحظات المفتاحية، عندما تنقلب حياته بصورة حرفية إلى 180 درجة مئوية. مثل هذه اللحظات لم تكن كثيرة، وكان من الناحية المنطقية بناء دورات حياة ليف نيقولايفتش انطلاقاً منها.

لنضع أمامنا ورقة، وبعد عملية انتقاء دقيق وصارم، نسجل أهم التواريخ في حياة تولستوي.

وهاكم ما ينتج معنا:

1910-1877-1862-1847-1828

لا حاجة لشرح دور الحدث الأول والأخير -الولادة والرحيل- الموت. فحتميتهما (وبحسب لغة تولستوي «أن لا رجعة عنهما») مفهومة ولا تحتاج إلى تعليق.

ولكن، لماذا عام 1847؟ في هذا العام، عندما كان في قازان، بدأ ليفوشكا تولستوي، البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً يسجل يومياته. إن بداية تدوين اليوميات - هي من حيث الجوهر، بداية تولستوي المبدع، لأن اليوميات لعبت فيه الدور المهيمن تقريباً. إنها بداية الوعي الذاتي الروحي لليف نيقولايفتش. وبسبب أهمية هذا الحدث الذي «لا رجعة عنه» يمكن حتى عدم الإشارة إلى أن تولستوي في هذا العام أصبح مالك ياسنايا بوليانا. إنه يغادر الجامعة ويسرع إلى ياسنايا بوليانا ويبدأ عمله كملّاك، ويتابع هذا العمل، بنجاح وفشل متعاقبين، حتى منتصف الأعوام الثمانينيات.

ولا يحتاج التاريخ الثالث - عام 1862 - إلى تعليق أو شرح. إنه تاريخ زواج تولستوي. ونذكّر هنا بمفهوم الحدث الذي «لا رجعة عنه» فقد نسب إليه تولستوي الزواج والموت. وقد كتب في يومياته لعام 1896: «بعد الموت من حيث الأهمية وقبل الموت من حيث الزمن، ليس هناك حدث أهم، ولا رجعة عنه، مثل الزواج».

في عام 1877 - بداية الانقلاب الروحي. يتوجه تولستوي إلى الدين، ويذهب إلى دير صحراء أوبتينا ويبدأ «الاعترافات». إنه يودع حياته السابقة، ويتوب عنها ويبدأ حياة جديدة.

وهكذا فإن سيرة تولستوي تنقسم إلى الفترات الزمنية التالية: 1828-1847 (18 سنة بعد خصم بضعة أشهر، لأن تولستوي ولد في أواخر آب/ أغسطس، أما اليوميات فبدأت في نيسان/ أبريل)، 1847-1862 (15 سنة)، 1862-1877 (15 سنة)، 1877-1910 (33 سنة). 18+15+15+33. بصورة لا إرادية يظهر إغراء بإضافة تاريخ آخر لتحقيق التناظر: 18+15+15+15+18.

من أجل هذا يجب إضافة عام 1892.

عندها نحصل على التقسيم التالي:

1910-(؟)-1892-1877-1862-1847-1828

يدخل هذا العام في سجل بريوكوف ضمن فترة 1891-1898: ومن أهم أحداث هذه الفترة، يذكر عمل ليف نيقولايفتش وأسرته ورفاقه في مجاعة الفلاحين في بيغيشيفك بمقاطعة ريزان. كما يبرز كتاب «ملكوت الرب في داخلنا نحن»، ومساعدة تولستوي المتفانية في قضية نقل طائفة الدوخوبوريين Духобур الروس إلى كندا، التي بدأت في الفترة المحددة لكنها لم تنته فيها؛ وقد جاءت مرحلتها الرئيسة في عامي 1898-1899 عندما خصص تولستوي لهذه المسألة مكافأته من كتاب «البعث» وأرسل ابنه الأكبر سيرغي مع المهاجرين الدوخوبوريين.

لا جدال في أن هذه كلها أحداث غير عادية في حياة ليف نيقولايفتش. ولكن لا يمكن بأي شكل تسميتها بأنها غير قابلة للإلغاء («لا يمكن الرجوع عنها»). وهي كلها، باستثناء مقالة «ملكوت الرب في داخلنا نحن» لا تعد عاملاً شخصياً بحتاً في حياة تولستوي نفسه. بل كانت عملاً جماعياً شارك فيه تولستوي مشاركة فعالة.

كما أن «ملكوت الله في داخلنا» ليس العمل الرئيس لتولستوي حتى في المرحلة الروحية. ولماذا ليس «الاعترافات»، وليس «البعث»؟ وليس اليوميات، وليست الرسائل؟ وهكذا، إذا ما اتبعنا سجل بريوكوف، لن نجد في هذه المرحلة من حياة تولستوي أي حدث حتمي لا رجعة عنه، ولا بديل له.

فهل هذا كان حقيقة؟

تخلّ أم تقسيم؟

في عام 1892 تخلى تولستوي عن الملكية. وعلى أية حال، فإن التخلي عن الملكية لم يكن جديداً في ذلك الوقت. فقد كان قد تخلى عن ملكيته الداعية الشهير في روسيا اللورد ريدستوك. فهذا العقيد في الجيش الإنكليزي، الذي شارك في حرب القرم، بعد الانقلاب الروحي الذي

تعرض له وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، وزع جميع ممتلكاته وتنازل عن الخدم. كانت الظاهرة العادية التخلي عن الملكية لمصلحة الأديرة من جانب كبار التجار الروس، عندما كانوا يتركون العالم في نهاية حياتهم للتكفير عن خطاياهم. لكن الطريقة التي أكمل بها تولستوي هذا الإجراء، لا تزال حتى الآن تثير العديد من الأسئلة.

لقد أصبح التخلي عن الملكية، بالنسبة لليف نيقولايفتش، الحدث الأكثر إيلاماً في حياته. فما كان يجب أن يجلب له، حسب فكرته، الفرحة والراحة الروحية، قد انقلب بالنسبة له عملياً إلى سجن حقيقي من المسائل والشكوك التي لا نهاية لها.

منذ بداية الانقلاب الروحي، حاول تولستوي أن يثبت لأسرته ولزوجته بادئ ذي بدء، أن الملكية شر عظيم يجب على المرء التخلي عنه. لكن هذا يجب فعله ليس من أجل فعل الخير للآخرين، كما كانت تفهم زوجته، التي عاتبت زوجها بأنه يريد مساعدة الفقراء وجعل المحتاجين أبناءه. هذا ضروري ويجب فعله من أجل الأسرة نفسها، لأن الحياة في ظروف البذخ والرفاهية، على حساب العمل المرهق للناس الآخرين – ليست حياة، بل موت روحي. وهذا أصبح «التناقض» الرئيس في فهم الحياة بين ليف نيقولايفتش وزوجته بعد عام 1877.

خمسة عشر عاماً (الفترة نفسها التي عاشوا فيها أسرة متحابة سعيدة) وليف نيقولايفتش يحاول أن يثبت لزوجته ولأبنائه الكبار أحقيّته التي لا تقبل الجدال، كما يعتقد. ويلقى من جانبهم إما الصمم وسوء الفهم، وإما المعارضة الصريحة. الجو في منزل موسكو وفي ياسنايا بوليانا مسمم بشكل دائم. وهو يغدو غير محتمل للطرفين، رغم أن هذا لا يلاحظه دوماً الضيوف الكثيرون.

في حين أن العائلة تكبر.

في عام 1888 يولد فانشكا – الطفل الأخير في الأسرة.

في العام نفسه، يؤسس عائلته الابن الثاني في أسرة تولستوي من حيث العمر – إيليا.

كان هذا أول حفل زفاف في عائلة آل تولستوي الكبيرة. وهو بالطبع، كان يفترض استمرار العائلة وتكاثرها[1].

وبحسب التقليد الذي أرسى أسسه الأب، أبناء تولستوي لم يتزوجوا من أجل حسابات مالية. وها هو إيليا اختار لنفسه كزوجة فتاة رائعة، لكنها غير ثرية، ابنة الفنان الشهير، رسام البورتريه ن. آ. فيلوسوف، عضو أكاديمية الفنون. وقبل الزفاف كان إيليا في حالة جنونية مثل حال العشاق». وبعد الإكليل توجه العروسان الشابان إلى ياسنايا بوليانا، حيث أمضيا وحدهما شهر العسل، في الغرف السفلى الثلاث، متمتعين مثل روبنسون، بالحرية والاستقلال (كانت تعيش أسرة تولستوي في هذا الوقت في موسكو). وفيما بعد انتقل إيليا مع زوجته الشابة سونتشكا إلى مزرعة غرينيفكا في منطقة تشرنسكي، التي كان ليف نيقولايفتش قد اشتراها وسجلها باسم زوجته. وهنا شعر إيليا بتبعيته المالية لوالديه. وقد أصبح إيليا عملياً مدير المزرعة التي تملكها أمه، وهذا كان، بطباعه التي تميز بها، ما لا يطاق.

لم يكن بقية أبناء تولستوي في عجلة من أمرهم لتأسيس أسرهم. سيرغي لفوفيتش تزوج للمرة الأولى في عام 1895 عندما كان في العام الثاني والثلاثين من عمره، لكن هذا الزواج لم يعمر طويلاً. أما تاتيانا فبعد محاولات عديدة من الفشل مع خطيبين مختلفين تزوجت في الخامسة والثلاثين من عمرها من ملّاك متقدم في السن م. س. سوخوتين، كان عنده أبناء. أما ليف لفوفيتش فقد تزوج في الثلاثين من عمره من ابنة الطبيب السويدي فيسترلاند. وأخيراً، ابنة تولستوي المحبوبة ماشا تزوجت متأخرة نسبياً، حسب مقاييس عصرها. فقد كانت في السادسة والعشرين عندما

1- «فرع» إيليا سيكون الأكثر قابلية للحياة في روسيا بعد الثورة من آل تولستوي. فابنته الكبرى آنّا لم تهاجر خارج روسيا، وكانت متزوجة من البروفيسور ب. س. بوبوف، صديق الكاتب ميخائيل بولغاكوف؛ وقد أخفى الكاتب في منزلهم قسماً من مخطوطاته. وبعد الحرب، عاد من المهجر اليوغسلافي ابنا إيليا لفوفيتش: إيليا وفلاديمير. ومن أحفادهما الذين لا يزالون على قيد الحياة مدير متحف عزبة «ياسنايا بوليانا» فلاديمير تولستوي والرسامة ناتاليا تولستايا، ومقدما البرامج التلفزيونية بيوتر تولستوي وفيوكلا تولستايا. - المؤلف

أصبحت زوجة كولنكا أوبولونسكي، حفيد شقيقة تولستوي ماريا نيقولايفنا، الذي كان فقيراً «عارياً كالصقر» حسب لغة ذلك العصر.

أما ما يتعلق بأبناء تولستوي الصغار، فإن ساشا عاشت خمسة وتسعين عاماً، ولم تتزوج. ابنه أندريه تزوج مرتين وابنه ميخائيل تزوج مرة واحدة وترك الاثنان من بعدهما ذرية كبيرة.

وهكذا، واعتباراً من أواخر الثمانينيات بدأ يتشكل وينمو وضع عائلي جديد حول تولستوي مثل كتلة الثلج، مع هموم وأعباء جديدة، بما فيها الأعباء المادية.

إن تولستوي لم يكن مستعداً لمثل هذا الموقف، حتى إنه لم يفكر بالاستعداد له. كأنه كان يعيش في كوكب آخر. في يومياته، وفي مراسلاته مع زوجته لن نعثر على أية تأملات جدية حول الجانب المادي من الحياة. والشيء الوحيد الذي يقلقه، أن الأولاد ينمون ويكبرون في ظروف الفخامة والرفاهية، وهذا ما يحولهم إلى «طفيليين» على جسد الشعب. وهو يوجه هذا اللوم باستمرار إلى زوجته، وفي منتصف الثمانينيات يشكو من هذا الأمر في رسائله إلى «صديقه العزيز» ف.غ. تشرتكوف.

وأية محاولات من جانب صوفيا أندرييفنا لطرح المسائل المادية تثير الضجر والتأفف لدى زوجها. وفي أفضل الأحوال – رد فعل الأسياد اللامبالي. في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1884 ترسل له زوجته إلى ياسنايا بوليانا قائمة «المصروف الشهري الضروري».

«بالروبلات

المرأة الإنكليزية	30
المدام	50
التأمين	267
لكاشيفسكايا	40
إلى الدوما (مجلس النواب)	200
للثانوية والجامعة	47
الحكومة	80

إلى معلمة اللغة الروسية ماشا	36
التربية والتبني	203
الأجور والرواتب:	
أجور الناس	98
للطباخ	15
للغسّالة	40
الخادم	15
للحطّاب	60
للحوذي	16
لسيريوجا	40
للمربية	8
ثمن اللحم للضيوف ولنا	150
للبواب	8
مأكولات جافة، إنارة، فحم، تبغ وغيرها	150
لدونياشا	8
للطباخة	4
للمخبز	25
لفاريا	5
لماسحات أرض المنزل	5
لتاتيانا	6
الخيول، البقرة	75
لفلاس	8
للحارس الليلي	2
المرضعة	5
رواتب إيليا وتانيا وماشا	12
الأعمال المنزلية	50
مجموع المصروف الضروري الشهري	910»

جواب ليف نيقولايفتش على هذه القائمة مذهل باستخفافه الذي يميز السادة والنبلاء. لو أنه أشار لزوجته إلى بعض المصاريف المفرطة أو الزائدة في الميزانية لكان مفهوماً. لكنه أجاب على النحو التالي:

«يا عزيزتي، لا تغضبي، لا يمكنني أن أنسب لهذه الحسابات المالية أية أهمية. فهذه كلها ليست حدثاً مثل: الولادة، الموت، المعرفة المكتسبة، العمل السيئ أو الصالح، العادات السيئة أو الصالحة للناس العزيزين والقريبين لنا؛ أما هذا فهو ترتيبنا الذي رتبناه هكذا ويمكننا إعادة ترتيبه بطريقة أخرى وبـ – 100 طريقة مختلفة».

رائعة حقاً قناعة تولستوي بأن حياة أسرة كبيرة، مركبة من أعمار مختلفة ومن طباع مختلفة يمكن بسهولة ترتيبها بـ «100 طريقة مختلفة». وكأنهم ليسوا أناساً أحياءً بعاداتهم وأوجه قصورهم، بل قطع غيار في مكعب روبيك. وينشأ شك له ما يبرره، هو أن تولستوي بتخليه عن الملكية، لم يتخلص من «الإثم» فحسب، بل تخلص أيضاً من وجع الرأس المرتبط بـ «المصاريف الضرورية». وبصفته فيلسوفاً، لا تهمه «لعبة الفأر»، وقد قال لزوجته، كما قال ديوجين: «لا تحجبي نور الشمس عني». وبموقفه اللامبالي من المسائل المالية عَدَا الأب قسماً من أبنائه الكبار. وعلى سبيل المثال، ابنته ماشا، كانت إلى جانبه.

وقد كتب إيليا عن شقيقته الصغيرة ماشا: «كانت نحيلة، رقيقة، طويلة ومرنة بيضاء البشرة تشبه أمي بقوامها، أما من حيث الوجه فتشبه أبي بعظام وجنتها الواضحة العميقة، وعينيها الزرقاوين الفاتحتين العميقتين. كانت هادئة ومتواضعة بطبيعتها، وتحدث انطباعاً دائماً كأنها مضنية قليلاً. كانت تحس بقلبها بوحدة أبيها، وهي أول من ابتعد عن الجميع من مجتمع أترابها، وبصورة غير ملحوظة، ولكن بثبات وبصورة محددة، انتقلت إلى جانب أبيها».

في يوميات تاتيانا في أواخر التسعينيات، ثمة مدونة مهمة للغاية، تدل على أنه في تلك الفترة، كانت أمها تشعر بنفسها وحيدة في الأسرة أكثر من أبيها.

«إنني أشعر بالأسى على أمي أكثر، وذلك أولاً، لأنها لا تؤمن بشيء

- لا بعقيدتها، ولا بعقيدة أبي، وثانياً، هي وحيدة أكثر، لأنها تقول وتفعل أشياء كثيرة غير معقولة، وبالطبع، فجميع الأولاد إلى جانب بابا، وهي تشعر بوحدتها بألم. وأيضاً، هي تحب أبي أكثر مما هو يحبها، وهي سعيدة، كفتاة صغيرة، بكل كلمة حنونة منه. ومصيبتها الرئيسة تكمن في أنها غير منطقية، لدرجة أن هذا يقدم مادة مناسبة لإدانتها».

إن حالة الزوجين تولستوي في أوائل التسعينيات تختلف جوهرياً عن حالتهما في أوائل الثمانينيات. ولم يعد هناك أي مجال للحديث عن عزلة تولستوي. إنه يشعر بدعم هائل من جانب الرأي العام الروسي والعالمي. ومع أن مؤلفاته الجديدة حظرت الرقابة نشرها، فإنها كانت تنتشر في قوائم طباعية هكتوغرافية (منسوخة على آلة نسخ - م.)، لكن الأهم، أن الشائعات تدور حولها في جميع أنحاء البلاد، والشائعات في روسيا أقوى من الكتب والمجلات. أما ما يتعلق بالخارج، فبفضل نشاط تشرتكوف الكبير، تصدر هذه المؤلفات بملايين الصفحات المطبوعة في كثير من لغات العالم. ويتحول ليف نيقولايفتش من مجذوب روحي إلى مسيطر على العقول. وتلقى قناعة صوفيا أندرييفنا، في بداية الثمانينيات، ومفادها أن مؤلفات زوجها الجديدة لن يهتم بها سوى عشرات من الأشخاص فشلاً ذريعاً.

لكن الأهم - أن حصنها - *بيتها* - ينهار أمام عينيها. إنه يغرق في «الظلام». ولهذا السبب تبدأ بالظهور لدى صوفيا أندرييفنا الجوانب الأكثر سلبية من طباعها، بما في ذلك التعصب الطبقي والقومي.

تشتكي في يومياتها لعام 1889 قائلة: «قُدّر لي أن أعيش زمناً قاسياً في سنوات شيخوختي. لقد جمع ليفوشكا حوله حلقة من المعارف الغرباء الذين يدعون أنفسهم أتباعه. واليوم صباحاً جاء واحد منهم، بوتكيفيتش، كان منفياً في سيبيريا لنشاطه الثوري، يرتدي نظارة سوداء، وهو نفسه قاتم البشرة وغامض الهيئة، وجلب معه عشيقته - اليهودية التي دعاها زوجته فقط لأنه يعيش معها. وبما أن بريوكوف هنا ذهبت ماشا للحديث هناك إلى الأسفل مع هذه اليهودية ومجاملتها. فأغاظني جداً أن ابنتي، الفتاة الشريفة اللائقة، تختلط مع مثل هذه القذرة، كان أبوها متعاطفاً. غضبت، وصرخت؛ وقلت له بلؤم: «أنت اعتدت طيلة عمرك على الاختلاط بمثل

هذه القاذورات، لكنني لم أعتد على ذلك، لا أريد أن تختلط بناتي معهم». تأوه هو، بالطبع، وغضب، وخرج دون أن ينطق بكلمة».

هذا في حين أن ماشا تحب بريوكوف وتريد الزواج منه. وتانيا شغوفة بتشرتكوف. ويرتبط ابن ليف بعلاقات الصداقة مع تشرتكوف. والجميع طبعاً تهمهم حقيقة الأب أكثر من حقيقة الأم. لا سيما أن البشرية التقدمية كلها وهؤلاء الأشخاص اللطفاء مثل تشرتكوف وبريوكوف إلى جانب حقيقة الأب. ويبدأ الأسوأ بالنسبة لصوفيا أندرييفنا: إنها تصاب بالهزيمة في أسرتها.

لقد كان هذا ظلماً رهيباً! فالأسرة كانت تقوم على كاهلها. وكانت الضربة الرئيسة والمسؤولية تقع على عاتق صوفيا أندرييفنا في أي وضع أسري حرج كان يسببه ليف نيقولايفيتش. ولكن بالاختلاف عن زوجها، لم يكن لديها في هذا الصراع «أصدقاء أعزاء» أو مستشارون. فوضعها العائلي كان استثنائياً وغير عادي للغاية. وفي كل عام كان زوجها يحمل لها مفاجأة: فمرة يخيط الأحذية والجزمات، ومرة أخرى يكتب رسالة إلى القيصر يرجوه أن يعفو عن قتلة القيصر، ومرة أخرى يتردد يومياً على الكنيسة، ومرة يأكل شرحات اللحم أمام الأطفال في الصيام، ومرة يحرث الأرض، ومرة يحاول حفر الأرض بالمجرفة تحت القمح، مهتماً بهندسة زراعية غير مسبوقة.

إن تولستوي «يصنع العجائب». ويتصرف كأنه مجذوب، مهبول، لكنه يبقى رسمياً هو رب أسرة كبيرة ومالك عدة أملاك، وكذلك منزل خاموفنيكي، وهو عقار ضمن موسكو، مع حديقة، وخدمات وأدوات زراعية وبقرة وجياد، وعربات خاصة. وكل هذا في الواقع ينتقل إلى صوفيا أندرييفنا. لكنه، من الناحية القانونية، يمكنه في أي وقت طرح مسألة وقف تخليه الدائم عن الملكية.

في شباط/ فبراير عام 1890 يكتب تولستوي في يومياته فكرة مسرحية جديدة – «عن الحياة: يأس إنسان رأى النور، فحمل معه هذا النور إلى ظلام الحياة أملاً، وثقة بأن يضيء هذا الظلام؛ وفجأة أصبح الظلام أشد قتامة». وتحولت هذه الفكرة إلى مسرحية لم تُنجز بعنوان «والنور يضيء

في الظلام»، وقد بدأ بكتابتها، ثم ترك وتابع الكتابة حتى عام 1900. وهي مسرحية تولستوي الشخصية للغاية، من حيث مضمونها تعد سيرة ذاتية ولا يمكن مقارنتها إلا بقصة «الشيطان». وفيها لم يعبر عن موقفه من مسألة التخلي عن الملكية فحسب، بل حاول أن يفهم أيضاً مأساة حياته.

في المسرحية رجل غني نيقولاي إيفانوفيتش سارينتسيف، درس الإنجيل بعمق وقرر حرفياً اتباع تعاليم المسيح، يعرض على أسرته التخلي عن ملكيتهم وتوزيع كل شيء على الفقراء والعيش بعرق جبينهم. يظهر الجانب الخاسر والمعاني هنا زوجته ماريا إيفانوفنا وأبناؤه – ستوبا، وفانيا ولوبا وميسي وكاتيا. في المسرحية كثير من الشخصيات الأخرى – الملّاكين، والموظفين، ورجال الدين، ورجال الدرك، والأطباء. لكن أهم هذه الشخصيات شقيقة زوجة سارينتسيف، ألكسندرا إيفانوفنا كوخوفتسيفا وزوجها بيوتر سيميونوفيتش. والنماذج الأولية الأصلية لجميع أبطال المسرحية الرئيسيين شفافة ومكشوفة للغاية. إنهم ليف نيقولايفتش، وزوجته، وأبناؤهما وآل كوزمينسكي.

الجدير بالملاحظة والاهتمام هنا شخصية ألكسندرا إيفانوفنا. فبالاختلاف عن أختها، لم يتطرق إليها الشك ولا لثانية واحدة، في أن نيقولاي إيفانوفيتش قد طاش عقله وأن على ماريا نيقولايفنا أن تسجل جميع ملكية الأسرة باسمها. وعلى هذا الشكل عبر تولستوي عن موقف تاتيانا أندرييفنا كوزمينسكا، شقيقة زوجته. إن هذه المسرحية تعد رداً مقنعاً على السؤال: ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن تولستوي لم يختر لنفسه صونيا زوجة بل تانيا، منتظراً بلوغها سن الرشد. وهاكم الجواب... كانت تاتيانا، دون أي تفكير، ستعلن زوجها مجنوناً، عندما بدأ *يطيش عقله*.

أما شخصية ماريا إيفانوفنا (صوفيا أندرييفنا) فقد صوّرها بقدر أكبر بكثير من التعقيد. إنها، من حيث المبدأ، مستعدة لمشاركة زوجها قناعاته، لأنها تحبه بلا حدود. لكن فكرتها الثابتة ideé fixe هي الأبناء. وليس الملكية بحد ذاتها. إنها على الأغلب تكنّ الكراهية للملكية. لأنها تولد الشقاق بينها وبين حبيبها، ولأن الملكية بالنسبة لها – هي الصليب الذي عليها أن تأخذه من زوجها وتحمله على كاهلها من أجل أبنائها. وهكذا، فإن جوهر النزاع،

لا يكمن في اختلاف القناعات الأخلاقية، رغم اختلاف هذه القناعات. بل يكمن الجوهر في الفهم المختلف بين كل منهما لـ «صليبه» ولمصلحة الأبناء.

في المسرحية يقدم نيقولاي إيفانوفيتش تعريفاً مذهلاً لزوجته – «الطفل الخبيث»:

«نيقولاي إيفانوفيتش. طفل، طفل حقيقي، أو امرأة خبيثة. نعم، طفل خبيث».

من حيث الشكل، المسرحية غير مكتملة، لكن معناها مُستنفد في النهاية. فتحت ضغط الأسرة، يوقِّع نيقولاي إيفانوفيتش عقد نقل أملاكه إلى ملكية زوجته ويحاول مغادرة المنزل مع الشخص الغامض ألكسندر بيتروفيتش، الذي يظهر في النهاية على أنه «رث الثياب». وينويان الذهاب، «دون قرش في الجيب» إلى القوقاز.

ولكن، مرة أخرى، تحت ضغط زوجته يبقى نيقولاي إيفانوفيتش في البيت، ويتوجه إلى الرب:

– هل أنا مخطئ، مخطئ لأنني أؤمن بك؟ لا، ساعدني!

قبل أن يوقع عقد التخلي، حذَّر نيقولاي إيفانوفيتش زوجته بوضوح:

– إذا ما أعطيتك أملاكي، لا يمكنني العيش معك، عليّ أن أغادر. لا يمكنني متابعة العيش في هذه الظروف. لا يمكنني أن أرى كيف سوف يعتصرون، وإن ليس في أملاكي بل في أملاكك، عرق الفلاحين وجهدهم، ويضعونهم في السجون. اختاري.

إن اختيارها يعني مغادرته. إن لم يكن اليوم، فغداً.

لكن الدراما الحقيقية التي حدثت في أسرة آل تولستوي في أوائل التسعينيات كانت أكثر تعقيداً من الدراما الأدبية. فبحلول 7 تموز/ يوليو عام 1892، عندما وقع تولستوي عقد تقسيم ممتلكاته بين زوجته وأولاده، كان ليف نيقولايفتش منذ عشر سنوات تقريباً لا يملك شيئاً في الواقع. ففي أيار/ مايو عام 1883 وبحضور الكاتب العدل في تولا بيلوبورودوف، قدم تولستوي توكيلاً عاماً لزوجته لإدارة جميع ممتلكاته، ويشمل هذا التوكيل حق البيع الكلي والجزئي بالسعر والشروط التي تعتبرها مناسبة لأي جزء من

ممتلكاته. وكان يمكنها أن تستخرج منها دخلاً وتنفقه حسب ما ترتئيه. وكان بإمكانها إبرام أية عقود وتوقيع أية وثائق قانونية من دون موافقة زوجها.

لكن الطريف في الأمر، أنها لم تستطع التنقل في أنحاء روسيا بحرية من دون موافقة زوجها. وفي عام 1886 عندما ظهرت ضرورة لسفر صوفيا أندريفنا إلى يالطا إلى والدتها التي كانت على سرير الموت، كان على تولستوي أن يوقع لها شهادة أخرى أنه يسمح لها «طيلة عام 1886 بالعيش والتنقل في جميع مدن ومناطق الإمبراطورية الروسية».

ولكن، في هذه الحالة، لماذا كانت هناك حاجة لوثيقة في عام 1892، إذا كان عقد تخلي تولستوي عن ممتلكاته قد تمت صياغته من الناحية القانونية منذ حوالي عشر سنوات؟ هذا في حين أن الوثيقة الثانية، بالاختلاف عن الأولى، قد شكلت لليف نيقولايفتش وأسرته صعوبة كبيرة، من الناحية الأخلاقية والقانونية (وقد استمر إعداد الوثيقة طيلة عام). والوثيقة الثانية بالذات هي التي سببت في الأسرة ليس شقاً واحداً بل عدة شقوق. وهذه الوثيقة الثانية *لم تكن في مصلحة* صوفيا أندريفنا.

وكان تولستوي وزوجته قد وقعا في عام 1883 عقداً ودياً ينص على أن «شرّ» (حسب مفهوم ليف نيقولايفتش) أو «صليب» (حسب مفهوم صوفيا أندريفنا) الملكية تحمله على كاهلها، وتحرر زوجها المثالي منه. ومنذ تلك الأثناء، أصبح بإمكانه عدم ممارسة «الشر» الذي يكرهه، فلا يوقع الأوراق المعارضة لقناعاته، لا يتابع أي غريب يعتدي على الملكية، ما لم يأته من عند الله، حسب قناعته.

كل هذه الأعمال كانت تقوم بها زوجته.

علاوة على ذلك، استمر تولستوي في الأمل بأنه سيتمكن من إقناع أسرته بالتخلي عن الملكية بالكامل وبدء الحياة بعملهم وجهدهم، بالانطلاق في تجربة حياتية خطيرة لكنها ممتعة. وقد استعد هو لهذه التجربة بعناية: كان يخيط الأحذية والجزمات، ويقطع الحطب، ويحرث الأرض، ويقص الزرع، ويبني الأكواخ. ولم تكن زوجته بيدين ناعمتين، بل كانت ماهرة في أعمالها، كانت تخيط الثياب لجميع أفراد الأسرة. وطيلة حياتها، لم تسافر

صوفيا أندريفنا إلى الخارج. أما ولعها بحفلات الرقص فسرعان ما تلاشى. وعموماً، لا يمكن اتهام صوفيا أندريفنا بأنها أمضت حياتها في الملذات والمسرات. ولمعرفتنا بتفانيها في حبها لزوجها، وهو الذي كان يثير سخط أختها تانيا، لماذا لا نفترض أنه كان يمكنها أن تلتحق بليف نيقولايفتش ولو كان في كوخ، ولو في آخر الدنيا، لو كانت في ظروف عائلية أخرى.

ولكن ليس مع الأولاد! ولا سيما الأولاد المختلفين مثل أولادهما.

بالكامل إلى جانب الأب كانت ماشا وحدها. وليس من قبيل الصدفة أن يسمي إيليا أخته «مضنية قليلا». وبطبعها الملائكي النقي، ومحبتها للناس، واستعدادها لخدمة الجميع، كانت ماشا من عالم آخر، مثل فانيا. كان يمكن لأبيها أن يدعمها روحياً في حال الدعم المادي من جانب أمها، لكن لا أن تعيش حياة مستقلة، فقد فشلت في ذلك في نهاية الأمر.

ونجد وصفاً مثيراً للاهتمام لماشا في مذكرات أخيها ليف في عام 1890: «إن ماشا مشحونة، لا ليست مشحونة، بل مدهونة بفكرة ونظرة أبي، وبكل ما يتعلق بروحها، وكل ما يمكنها أن تفهم، من الصعب إلى اللانهائي، في آلة الأب الداخلية. من اللافت للنظر، ماذا سينتج عنها؟»

في اليوم نفسه يكتب: «... أختي ماشا في سروال ضيق وبرجلين نحيفتين، إنها مسيحية، نباتية وإلخ. وببساطة، غبية مثل الفلّينة...»

لكن ليف وتاتيانا، من حيث المبدأ، لم يعارضا التخلي الكامل عن الملكية، وهذا ما تثبته مدونة تاتيانا في يومياتها في العام 1890 نفسه:

«لوفا (شقيقها – *المؤلف*) كان مزعوجاً جداً من كل هذه القصة (الجدال بين الأب والأم – *المؤلف*) وقال، فليذهب كل شيء إلى الجحيم، «وليته كل هذا que cela finisse». وأنا أتصور أن هذا حدث، فلن يكون رغم ذلك أي فرق. لوفا كان سيتابع الجامعة بمنحة الطلبة، وسيريوجا سيتابع الخدمة، وإيليا سيعمل مع المديرين، ماشا ستتزوج من بوشا (بريوكوف – المؤلف)، وسيُدفع الأطفال إلى المؤسسات، وأنا سأعمل مربية أولاد، وأمي ستفتح بانسيون (فندق)، أما أبي فسيعيش على الطريق القويم مع ماشا وبوشا (بيريكوف)».

وهكذا، فالحياة من دون ملكية، حسب رأي تانيا، كانت ممكنة. ولكن ما

الذي كان يمكن أن يتغير؟ سنبقى جميعنا مع مثلنا العليا وتطلعاتنا ذاتها، ربما لدى البعض ستنشأ ضغينة، لأنهم وُضعوا في مثل هذا الموضع».

لقد نشأت «الضغينة». فإيليا، الذي كان أول من تزوج، طالب بحصته من ممتلكات العائلة. وحدث في أسرة تولستوي ما كان يحدث في الأسر الريفية التي يغلب فيها الذكور. فالأبناء الكبار، الذين أسسوا أسرهم، لم يرغبوا بالعيش في مجتمع عائلي تحت قيادة الأب. لا سيما العيش مع الفلاح سيوتايف الذي يحبه تولستوي، بأوشحة وصناديق مشتركة. وقد ظهر أن مشروع تولستوي العائلي الجديد محكوم عليه بالفشل، ليس بسبب ما يُزعم عن بخل الزوجة، بل بسبب رغبة الأبناء الطبيعية بالعيش في منازل مستقلة.

وطواعية أو بصورة لا إرادية، أصبح إيليا بالذات السبب الرئيس لاقتسام ممتلكات الأسرة. وهذا الاقتسام لم يعط صوفيا أندريفنا أي شيء، بل سحب منها السلطة على كامل ممتلكات الأسرة.

بعد زواج إيليا بالذات، بدأت في منزل تولستوي الأحاديث الدائمة حول اقتسام ممتلكات الأسرة. كان يبدأها إيليا، لكن الآخرين لا يبقون جانباً. باستثناء الأب وماشا.

يقيم إيليا مع زوجته الشابة في غرينيفك التي لا تعود ملكيتها للأب، فهي مكتوبة باسم الأم. وهكذا، فالأم هي المتطرفة هنا، التي جعلت من ابنها مجرد مدير في المزرعة.

مدونة من يوميات صوفيا أندريفنا:

«يقول إيليا فجأة: «لن أعطيكم فَرَساً لحليب الكوميس». فانفعلت وقلت: «لن أطلب منك، سآمر المدير». هو أيضاً انفعل وأجاب: «المدير – أنا» – «والمالكة – أنا». هل كنت متعبة أو أنهكني كثيراً بأحاديثه عن المال والملكية، لكنني غضبت غضباً شديداً، وقلت: «إلى أين وصلت، أتبخل بالفرس من أجل الكوميس لأبيك، لماذا تتردد إلينا، اذهب إلى الشيطان، لقد أنهكتني!...»».

كان تولستوي يحب إيليا. لكن علاقاته بأبنائه – هي عموماً أحجية سيكولوجية كبيرة.

وقد تذكر إيليا لفوفيتش: «كانت تصل لطافة أبي معنا إلى درجة الخجل. وكانت هناك مسائل لم يجرؤ على التطرق إليها، خوفاً من أن يجرح شعورنا بذلك.

لن أنسى تلك الحادثة في موسكو، عندما كان أبي جالساً يكتب في غرفتي، على طاولتي، وأنا بالصدفة، ركضت إلى الغرفة لتغيير ملابسي.

كان سريري خلف الستائر، بحيث كان من الممكن أن لا أرى أبي.

عندما سمع خطواتي، ودون أن يلتفت صوبي، سألني:

– إيليا، هذا أنت؟

– أنا.

– أنت وحدك؟ أغلق الباب. الآن لن يسمعنا أحد، ونحن لا يرى أحدنا الآخر، بحيث لا يخجل أحدنا من الآخر. قل لي، هل تعاملت يوماً مع المرأة؟

عندما قلت له، لا، سمعت فجأة كيف بدأ يبكي وينوح، مثل طفل صغير.

وانخرطتُ أنا كذلك في البكاء، وبكينا معاً نحن الاثنين بدموع طيبة، والستائر تفصل بيننا، ولم نشعر بالخجل، وكان شعوري جيداً، بحيث أعتبر هذه الدقيقة من أسعد اللحظات في حياتي كلها».

كان إيليا أيضاً يحب أباه. ومن بين جميع أبناء تولستوي، كان إيليا أكثر شبهاً به، من حيث الشكل الخارجي، وعندما تقدم في السن، ولإقامته في أمريكا، أصبح شبيهاً بأبيه بصورة مذهلة، ما دعا هوليوود لاجتذابه إلى مغامرة إخراج فيلم سينمائي غير موفق عن تولستوي، حيث لعب الابن دور أبيه. لكنه في شبابه، عندما أصبح رب أسرة خاصة به، بدأ يحاول إرغام الأم (الأم وليس الأب) على إعطائه غرينيفكا، وهذا كان غير ممكن، دون خرق حقوق ملكية بقية إخوته. وتدل المدونات في يوميات صوفيا أندريفنا بوضوح، على أن عقد التخلي عن الملكية الذي وقعه ليف نيقولايفتش في عام 1892 لم يكن نتيجة إرادته وإرادتها بقدر ما كان نتيجة الوضع الاضطراري الناشئ بعد زواج إيليا.

تكتب صوفيا أندريفنا في اليوميات في عام 1891، قبل عام من الاقتسام

الرسمي لممتلكات الأسرة: «الوضع صعب مع إيليا وحده. إنه أناني للغاية وجشع جداً، ربما لأن له أسرته الخاصة. بقية الأبناء جميعهم لطفاء ويوافقون على كل شيء. كان لدى ليفوشكا دوماً نقطة ضعف تجاه إيليا ولم يكن يرى نقائصه؛ وفي هذه المرة أيضاً يريد أن يفعل كل شيء حسب رغبة إيليا، وأنا أخشى أنه سيكون هناك المزيد من المشاكل بلا نهاية. ومن حسن الحظ أن غرينيفكا مسجلة باسمي، وإذا لم يوافق جميع الأبناء على التقسيم حسب القرعة، فلن أوافق أبداً على إعطائه غرينيفكا وأوفسيانيكوفو. لكنني لن أظلم أبنائي الصغار أبداً مهما كلّف الأمر... إن جميع هذه الأحاديث قاسية بالنسبة لليفوشكا، وهي بالنسبة لي أقسى بعشر مرات، لأنني مضطرة لحماية أبنائي الصغار من الكبار».

ولعدم قدرته على الحل الجذري لمسألة رفض الملكية، ينفض تولستوي يديه. إنه يتخلى عن الملكية، لكن من الناحية الرسمية يتم هذا على شكل توزيع ممتلكات الأسرة بين جميع أفرادها. لقد كان هذا الحل الوسط الوحيد الممكن، ولكن يجب الاعتراف، بأن صوفيا أندرييفنا كانت الجانب المتضرر من هذا الاقتسام. فقد حصل كل من الأبناء على حصته. وحصلت هي على ياسنايا بوليانا (مع أسهم الصغير فانشكا)، وفي الوقت نفسه مع الاحتفاظ بالمسؤولية عن ليف نيقولايفتش وتنظيم أمور حياته والبقاء حلقة الوصل بين أفراد العائلة الكبيرة المركبة.

وقد تذكر سيرغي لفوفيتش: «في تموز/ يوليو عام 1891 قدمنا نحن جميعاً – الإخوة والأخوات – إلى ياسنايا بوليانا لمناقشة الاقتسام الذي اقترحه أبي لممتلكاته بيننا[1]. قدر الأب ممتلكاته مع العقارين الصغيرين اللذين اشترتهما أمي أوفسيانيكوفو وغرينيفكا بما يقارب 500 ألف روبل، وقرر تقسيم جميع هذه الممتلكات بالتساوي على تسعة أشخاص – والدتنا وثمانية أبناء. وقدر كل حصة بـ 55 ألف روبل. وبعد المناقشة المشتركة لهذه المسألة، تقرر، حسب اقتراح الأب، التوزيع التالي لحصص كل واحد: ياسنايا بوليانا قسمت إلى جزأين – جزء أعطي لأمي، والجزء الثاني لإيفان

1- خطأ الذاكرة. حدث هذا في منتصف نيسان/ أبريل – المؤلف

الصغير الذي هو تحت وصايتها؛ نيكولسكوي وفيازيمسكوي وغرينيفكا قُسمت إلى ثلاثة أجزاء: أنا حصلت على جزء مع عقار بشرط أن أدفع 28 ألف روبل لأختي تانيا، ماشا حصلت على الجزء الأوسط نيكولسكوي، إيليا حصل على ضيعة بروتاسوف مع غرينيفكا التي اشترتها أمي، حيث أقام؛ تاتيانا – حصلت على 28 ألف روبل مني وأوفسانيكوفو التي اشترتها أمي، ليف – حصل على منزل موسكو وعقار في مزرعة في سامارا، الثلاثة الصغار، باستثناء إيفان الموضوع، تحت حماية أمه، حصلوا على بقية مزرعة سامارا. ماشا التي كانت تشارك قناعات أبيها، تخلت عن حصتها، ونقلت حصتها إلى أمها.

عندها اقترحت على أمي، وقد وافقت، بأن تعطيني حصة ماشا من نيكولسكوي – فيازيمسكوي مع التزامي بأن أدفع قيمتها، أي 55.000 ألف روبل. وعلى هذا النحو، تعهدت بأن أدفع لأختيّ الاثنتين مبلغ 28.000 + 55.000 = 83 ألف روبل، أي مئة روبل من عشر الحوزة. وكنت آمل بتسديد هذا المبلغ عن طريق رهن الحوزة والعقار وبيع الأخشاب».

يبدو من خلال ذكريات المشاركين في هذا الحدث ويومياتهم، أن الاقتسام مرّ بسلام تام، باستثناء تخلي ماشا عن حصتها، الذي أثار سخط إخوتها وأختها الكبرى كشكل من «العاهة» فيما يتعلق بهم. لنلاحظ هنا، كان سخطهم بسبب تخليها عن حصتها، وليس لطمعها بقطعة زائدة. وهذا يدل على المناخ الأخلاقي الرفيع السائد في أسرة تولستوي.

تكتب تاتيانا في يومياتها: «اجتمع جميع الإخوة في أسبوع الآلام، لأنهم قرروا الاقتسام. هذا ما أراده أبي، وإلا لما فعل أحد ذلك، بالطبع. وقد كان هذا، بالنسبة له، مؤلماً، رغم كل شيء، وعندما دخل إخوتي وأنا إلى مكتبه، كي نرجو أن يقوم بتقدير كل شيء، لم ينتظر سؤالنا عما نريده، وبدأ الحديث بسرعة: «نعم، أعرف أنه يجب أن أوقع أنني أتخلى عن كل شيء لمصلحتكم». قال هذا لنا لأن هذا كان الأكثر إزعاجاً بالنسبة له، فمن الصعب جداً، بالنسبة له، أن يوقع ويهدي ما لا يعتقده، منذ زمن أنه ملكيته، لأنه بتنازله وإهدائه، كأنه يعترف بملكيته. لقد كان هذا مؤلماً جداً، مثل المحكوم الذي يسرع بوضع رأسه في الأنشوطة التي يعرف أنه لا يمكن

تجنبها. ونحن الثلاثة كنا تلك الأنشوطة. شعرت بألم شديد أن أكون مسببة له هذا الإزعاج، لكنني أعرف أن هذا الاقتسام سينهي الكثير من المشاكل بين إيليا وأمي، وهذا ما كنت أعتبره واجبي في المشاركة فيه. كنت أحسد ماشا لأنها لم تدخل في هذا كله، ورفضت أن تأخذ حصتها».

عندما تزوجت ماشا، اضطرت إلى التوجه إلى أمها طلباً لحصتها من التركة.

كان من المحرج لأبناء تولستوي اقتسام ممتلكات أبيهم التي كان يحلم بتوزيعها على الفلاحين. وكان من المحرج للأب حضور تقسيم ممتلكاته بين أبنائه «كما لو أنه قد مات» (كلمات تولستوي بالضبط). وكانت الأم تعاني من أن لا يخسر أبناؤها الصغار مادياً بسبب أنانية الكبار. وظهر بين الأبناء الكبار انقسام خطير لأول مرة بسبب تصرف ماشا المتهور، الذي وضعهم في وضع محرج إضافي. والأبناء الصغار ساشا وفانشكا أصبحا مالكين للعقارات رغماً عنهما. وعندما كبر قليلاً فانيا، لم يكن يعترف بملكيته لياسنايا بوليانا، وعندما كان يسمع من أمه أنها أرضه، كان يضرب الأرض بقدميه ويقول إنها ليست ملكه، إنها «للجميع». وليس من الصعب التخمين، بأنه لو أن ابن تولستوي الأصغر هذا فانيا لم يمت في سن السابعة لكانت هناك مشاكل جدية مع هذا «الملاك».

لم يجلب هذا الاقتسام للعائلة لا البحبوحة المادية ولا السعادة الأخلاقية. وكرر أبناء تولستوي أخطاء شباب أبيهم: كانوا يحبون النبيذ، والقمار، والغجر، ولم يتميزوا خلال ذلك بعقل سيد قوي. وتدل مراسلات الأم وأولادها على أن إيليا وليف، وأندريه، وحتى سيرغي أكثر إخوته ذكاء، كانوا دائماً مثقلين بالديون، وكانوا يطلبون المساعدة من أمهم – منقذتهم الوحيدة.

أما تولستوي فقد كان يعتبر الملكية الشر الأعظم. بيد أنه لم يستطع التخلي عن هذا الشر والبقاء هادئاً مطمئناً من الناحية الأخلاقية. فالشرّ كان يلاحقه، وحتى كأنه كان ينتقم من ليف نيقولايفتش، وقد تجلى هذا خاصة في مسألة الحقوق الأدبية.

مكان غير مربح

من أجل تصور العلاقة بين ممتلكات تولستوي، بين ملكيته وحقوقه الأدبية، نورد فيما يلي بعض الوقائع والأرقام.

إن ضيعة سامارا، كانت هي المكان الوحيد المربح. فأراضي سامارا الخصبة العذراء، التي اشتراها تولستوي للفائدة، كانت ترتفع أسعارها باستمرار، ولا تتطلب استثمارات كبيرة جادة. فتأجير هذه الأراضي كان يجلب للأسرة دخلاً صافياً. ولو أن صاحبها لم يقم من وقت لآخر بمشاريع رومانسية مثل تهجين الجياد الإنكليزية بالجياد البشكيرية لإنتاج خيول فرسان مثالية للسباق، فإن أراضي سامارا بحد ذاتها كانت منجماً من ذهب. أما ما يتعلق بعقار تولا، فكل شيء كان أكثر حزناً.

إن الأحكام الخاملة التي تفترض بأنه من السهولة بمكان أن يتخلى تولستوي عن حقوقه الأدبية، وهو الملّاك الغني، تنتج عن الجهل الواضح بالوضع المالي الحقيقي للأسرة.

لم تكن ياسنايا بوليانا مزرعة مربحة. بل على العكس، كانت تجلب للأسرة خسائر سنوية يتم تغطيتها من خلال مصادر أخرى. وإذا ما ترجمنا حديثنا إلى لغة اليوم، يمكننا القول إن ياسنايا بوليانا كانت منزلاً صيفياً ضخماً يطعم الأسرة، لكنه لا يلبسها. وخلال ذلك، كان يتطلب أعمالاً زراعية ومنزلية دائمة بلا كلل، واستثمارات سنوية لا تغطيها مداخيل المزرعة ذاتها.

من أجل تصور أعمال المزرعة التي تقوم بها صوفيا أندريفنا والتي ألقيت على كاهلها الأنثوي بعد أن تخلى زوجها عن الملكية بشكل كامل، لنلقي نظرة إلى جرد الموجودات من الأحياء والأشياء... «في ياسنايا بوليانا الذي تذكره في قائمتها حارسة منزل ياسنايا بوليانا تاتيانا فاسيليفنا كوماروفا: «بتاريخ 1 كانون الثاني / يناير عام 1913 كان في الحوزة مزرعة كبيرة: 27 حصاناً، 26 بقرة، 1 ثور، 24 عجلاً، 11 خنزيراً، 9 خراف، 78 قطعة من الدواجن. وبتاريخ 20 كانون الأول/ ديسمبر عام 1912 كان في مستودعاتنا 880 بوداً (البود = 16 كغ – المترجم) من الشوفان، و800 بود و10 أرطال من الجودار، و6 بودات و36 رطلاً من دقيق الجودار؛ مروج

القش 5 مداخن، حوالي 400 بود؛ وقش البرسيم 2 مدخنة، حوالي 1200 بود؛ وشوفان مكدس في رزمات 3 رزم = 130 باقة، جودار في رزم، 2 رزمة = 150 باقة، بطاطا حوالي 400 بود».

وتخبر تاتيانا فاسيليفنا في تقريرها: «زرعنا أيضاً الملفوف، والخيار، والتوت، والكشمش الأبيض والأحمر، والخضار المتنوعة، والبطيخ، واللفت. ويمكن تصور المساحة التي زرعنا فيها الخيار إذا كنا اشترينا من بذورها في عام 1914 ثلاثة أرطال».

إن الحديث مع حارسة المنزل – هو متعة حقيقية! إنها، بصورة غير رسمية، بروح إنسانية، بل بطريقة أنثوية، تعاني اليوم من أجل هموم رفيقة درب تولستوي.

وها نحن نظرنا معها صفحات الصادر والوارد (الدخل والنفقات) التي سجلتها صوفيا أندريفنا بيدها، دون أن تثق بترك «قدس الأقداس» لكاتبها كورينغ. من أجل ماذا كانت تهتم هذه المرأة البطولية هذا الاهتمام الكبير؟ ومن أي مزرعة غنية هرب زوجها العظيم؟

بلغ «دخل» ياسنايا بوليانا في عام 1910 (4626) روبلاً و(49) كوبيكاً، أما «النفقات» فبلغت (4523) روبلاً و(11) كوبيكاً. وبلغ الدخل السنوي الإجمالي للمزرعة (103) روبلات و(38) كوبيكاً.

في عام 1911، كانت أمور المزرعة أكثر نجاحاً فبلغت النفقات (5633) روبلاً و(46) كوبيكاً أما «الدخل» فوصل إلى (6371) روبلاً و(93) كوبيكاً. وحققت ياسنايا بوليانا لصوفيا أندريفنا، وهي الأرملة آنذاك، (738) روبلاً و(47) كوبيكاً. وتقوم بتسجيل هذا المبلغ في «ما تبقى من عام 1912». إنها تلك الأموال من الربح الصافي التي حصلت عليها *خلال عام كامل* من مزرعتها، والتي لا تصرفها كملاكة مسؤولة على الفساتين والملذات، بل توظفها لتطوير المزرعة.

وهنا يبدأ الأكثر أهمية.

ما الذي شكل «دخل» ياسنايا بوليانا؟ «النفقات» – هي «مرتبات الموظفين» (1690 روبلاً و76 كوبيكاً)، «الأعمال اليومية» (576 روبلاً و02

كوبيك)، «تصليح وبناء المنشآت» (308 روبلات، و20 كوبيكاً)، «شراء القش والتبن» (411 روبلاً و36 كوبيكاً)، «شراء وتصليح الأدوات» (228 روبلاً و75 كوبيكاً) «مواد غذائية للعاملين» (114 روبلاً و45 كوبيكاً)، وحتى تلك النفقة غير المتوقعة، مثل «شراء معطف جلد غنم للشركسي» (10 روبلات) الذي استأجرته زوجة تولستوي لحراسة ياسنايا بوليانا من فلاحيها[1].

وماذا عن «الدخل»؟ لقد اتضح أن البند الرئيس لـ «الدخل» كان تأجير المروج: 1200 روبل، 04 كوبيك. والبند الثاني من حيث الأهمية - تأجير الأراضي: 342 روبلاً و50 كوبيكاً، والبند الثالث - بيع الفائض من منتجات الألبان: 258 روبلاً و95 كوبيكاً، وبيع الماشية: 147 روبلاً و50 كوبيكاً. أما باقي بنود الدخل فهي صغيرة: «الجلود» - 13 روبلاً و65 كوبيكاً، «بيع الطرائد» - 22 روبلاً و60 كوبيكاً وإلخ. وأخيراً، غرامات من الفلاحين الذين أمسك بهم الحارس الشركسي ذو معطف جلد الخروف بعشر روبلات، لقطع الأشجار وإفساد المرج أو غير ذلك الانتهاكات المتعمدة الأخرى بلغت 15 روبلاً في عام 1910.

عند رؤية هذه الأرقام يقع المرء في حيرة. حقاً من أجل هذه الـ 15 روبلاً البائسة في العام دارت حرب حقيقية بين ليف نيقولايفتش وصوفيا أندريفنا، أدت في نهاية الأمر إلى مغادرته مزرعته وموطنه؟! هل من المعقول من أجل هذا تعذب الكاتب العظيم والإنساني، وهو ينظر إلى هذا الشركسي كيف يجر الفلاحين البؤساء من الغابة بالوهق؟!

لكن هذا انطباع أولي ومخادع. ولأن ياسنايا بوليانا كانت مزرعة غير كبيرة وغير مربحة، كانت تتطلب محاسبة ومراقبة دقيقة للغاية. كي يتقارب «الدخل» على الأقل مع «النفقات». وهنا لا يقتصر الأمر على حساب الروبل الواحد، بل حتى الكوبيك الواحد، لأنه من هذه الكوبيكات كان يتشكل الرصيد المالي السنوي.

وبحسب شهادة ت. ف. كوماروفا، كان لدى صوفيا أندريفنا مساعدان: كاتب وبستاني - مربي نحل. وكل الأعمال في المنزل والمزرعة كان يقوم

1- جميع هذه المعطيات والأرقام هنا ولاحقاً مأخوذة من عام 1910. - المؤلف.

بها عشرون شخصاً. وكان يصرف على إعاشتهم (مرتبات + مواد غذائية)، كما نرى، حوالي ثلث «النفقات». أما الثلثان المتبقيان فيصرفان على دعم المنشآت والأدوات وإبقائها في حالة سليمة، وعلى علف الحيوانات وما شابه ذلك، ولكن بالتأكيد ليس على الترفيه. لقد كانت من حيث الواقع، مزرعة طبيعية، تقوم على الكفاف.

ولكن نرى هنا، أنه في عمود «الدخل» البند الأكبر ليس المروج والمراعي، وليس الأراضي، وليس الحليب. بل بند غامض يسمى «تم الاستلام من الكونتيسة صوفيا أندرييفنا تولستايا» (مكتوب بخط يدها)، من دون أي شرح، «كيف تم الاستلام»؟

إن صوفيا أندرييفنا نفسها كانت تستثمر في ياسنايا بوليانا أكثر من 2000 روبل في السنة من المال الصافي. في عام 1910 هذا «الدخل» شكل 2521 روبلاً و20 كوبيكاً، وفي عام 1911 بلغ 2491 روبلاً و92 كوبيكاً. ولكن من الأسهل فهم هذا إذا ألقينا نظرة ليس على القائمة السنوية بل على القائمة الشهرية لعام 1912. «الدخل» – 256 روبلاً و84 كوبيكاً. «النفقات» – 256 روبلاً و60 كوبيكاً. «الباقي» – 24 كوبيكاً. في عمود «الدخل» ملاحظة: «منها 100 روبل من صوفيا أندرييفنا».

وهكذا، فمن أجل الحصول على 24 كوبيكاً من الدخل من ياسنايا بوليانا في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1912، أنفقت صوفيا أندرييفنا 100 روبل. ولكن بعد اقتسام ممتلكات تولستوي بين أفراد الأسرة، لم تعد تملك أي شيء سوى ياسنايا بوليانا. فمن أين كانت تأخذ 2000 روبل سنوياً؟ واضح أنه بعد اقتسام الممتلكات، وقبل أن تحدد لها الدولة راتباً تقاعدياً (10.000 روبل) في السنة باعتبارها أرملة، كان من الممكن أن تصلها هذه الأموال فقط عن طريق بيع مؤلفات زوجها.

كابوس «حقوق النشر»

قبل وفاة تولستوي، وبموجب التوكيل العام لعام 1883، رغم عدم ورود كلمة «الحقوق الأدبية» فيه، كانت زوجته تتصرف في البداية بجميع مؤلفاته،

واعتباراً من عام 1891، وبناء على رغبة تولستوي، تم تقليص «حقوق النشر» لمؤلفاته على المؤلفات التي كتبها حتى عام 1881. وكان هذا مصدر دخلهم الإجمالي المشترك. ومن هذه الأموال كانوا يغطون النفقات في ياسنايا بوليانا، وبهذه الأموال تم شراء كل ما هو ضروري لصيانة وتأسيس منزل موسكو وغير ذلك كثير؛ ومن دون هذه الأموال، كان من غير الممكن العيش لها ولزوجها ولأولادها.

وفي الوقت نفسه، كانت قيمة الملكية الأدبية لمؤلفات تولستوي تنمو بمتوالية هندسية. وعلى الرغم من أن تولستوي تنازل على الملأ عن حقوقه الأدبية، كان الناشرون يحدوهم الأمل للحصول على حقوق حصرية لنشر مؤلفات تولستوي. وفي أواخر أيام حياته قدّر قيمتها الناشرون الأجانب بعشرة ملايين روبل ذهبي. وقد عرضوا على صوفيا أندريفنا مقابل حقوق المؤلفات خلال الفترة المخصصة لها مليون روبل.

فقط من خلال مقارنة هذه الأرقام الفلكية بالأرقام الواردة في كتاب الوارد والصادر (النفقات والدخل)، يبدأ المرء بفهم أي لغم كامن في أساس العلاقات الأسرية لآل تولستوي. وبعد هذا، يبدأ بفهم كامل إشكالية هذه الأسرة، ومهما بدا ذلك غريباً، واحترامها أكثر. ويصبح من السهل أن يحب ويتأثر بالأب الذي يعطي المتسول آخر قميص لديه. ولكن، ليحاول أن يهادن بموضوع خسارة الملايين!

كانت المخاطر كبيرة للغاية.

علينا ألا نستغرب أنه منذ أوائل الثمانينيات كانت تشتعل باستمرار النزاعات المرتبطة بموقفه المسيحي – الراديكالي من الملكية، بل من أن هذه النزاعات لم تنسف الأسرة بشكل نهائي.

إن الانحناء أمام عظمة الأب، وكذلك تفهم مأساوية وضع الأم لاحقاً سمحا لآل تولستوي بعدم التفرق والتشتت في الفضاء البشري، كما حدث مع العائلات الأقل نزاعاً.

كما تجلت لا نمطية الصراعات في عائلة تولستوي في أنه، ومنذ بداية التسعينيات وحتى نهاية حياة ليف نيقولايفتش (ولفترة قصيرة بعد وفاته)

أصبحت هذه المشاكل علنية، في متناول وسائل الإعلام. وقد وضع نقاشها الواسع في وسائل الإعلام الأسرة في موقف أليم. ومما لا شك فيه أن هذا الظرف نسف بصورة جدية شخصية صوفيا أندريفنا، التي كانت من دون هذا، تميل إلى السلوك الهستيري، وأدى بها في نهاية الأمر، إلى حافة المرض النفسي.

لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لأبناء تولستوي الكبار. ففي 8 أيار/ مايو عام 1890 نشرت صحيفة «نوفوي فريميا – الزمن الحديث» مقتطفاً من تقرير رئيس نيابة السينودس لعام 1887، وقد جاء فيه أن تولستوي في عام 1887 «لم يعد يتوفر لديه إمكانية لتقديم المساعدة للفلاحين بالمقادير السابقة من ممتلكاته، لأن أبناءه الكبار بدأوا يضعون حداً لتبذيره». لقد كان هذا افتراءً واضحاً. واضطرب الأبناء، وفي 27 أيار/ مايو في الصحيفة نفسها نشر سيرغي وإيليا وليف لفوفيتش تكذيباً مقنعاً للغاية. لكن مثل هذا التكذيب لا يقنع الجمهور أبداً، بل يجعله يميل إلى الرأي المعاكس: طالما أنهم يكذِّبون، إذن، هم يستحقون اللوم في شيء ما!

هذا في حين أن علاقاتهم الأسرية في بداية التسعينيات اكتسبت بالفعل طابعاً مأساوياً. وقد أصبح عام 1891 عقبة كأداء استحال بعدها قيام سلام عائلي. ومثل «الشق» في العلاقات الأسرية في بداية الثمانينيات كان لا بد من أن يختتم بمحاولتين لـ «هروب» تولستوي من الأسرة (1884، 1885)، كذلك أزمة عام 1891، لا بد بالتأكيد من أن تتحول إلى انفجار ما، وهذا ما حدث في عامي 1895 و1897.

مباشرة بعد اقتسام الممتلكات في نيسان/ أبريل عام 1891 (تم تثبيت هذا رسمياً في عام 1892) طرح تولستوي مسألة التخلي عن حقوقه الأدبية. بالنسبة لأولاده، الذين لم يكن لهم في تلك الفترة أية علاقة بهذه الحقوق، لم تكن هذه المسألة مثيرة للاهتمام. لكنها كانت ضربة جدية وخطيرة لزوجة الكاتب. ذلك أنه بالتوكيل العام الذي كان بحوزتها كانت عملياً المالكة الحصرية لحقوق مؤلفاته. علاوة على ذلك، كانت هي ناشرة مؤلفاته، وكانت تنظر إلى هذا العمل ليس بنظرة تجارية، بل بشغف روحي.

كل ما هو مهم مما كتبه ليف نيقولايفتش قبل الانقلاب الروحي، باستثناء ثلاثية السيرة الذاتية و«قصص سيفاستوبول»، تمت كتابته بمشاركة مباشرة من صوفيا أندريفنا. فهي كانت مبيّضة ناقلة، وناصحة، وحتى مراقبة لزوجها. وبناء على إصرارها، استبعد تولستوي من «الحرب والسلام» مشهد استحمام إيلين كوراغينا في الحمام. فقد أقنعته بأن هذا المشهد لن يسمح بالتوصية بـ «الحرب والسلام» لقراءة الفتيان والفتيات.

إن تخلي تولستوي عن الحقوق الأدبية كان تطاولاً ليس على الحقوق المادية فحسب، بل وعلى الحقوق الروحية لزوجته. وعلى أية حال، فقد اعتبرت ذلك بمنزلة إهانة شخصية. ولهذا، ورغم تخليها عن حصة الأسد من ممتلكات زوجها لمصلحة أبنائها ببساطة، لكنها في مسألة الحقوق الأدبية أبدت عناداً، تحول إلى تمرد على إرادة تولستوي.

وهكذا، في عام 1883، نقل تولستوي جميع حقوقه الأدبية إلى زوجته. ولنلاحظ، أن تولستوي فعل هذا آنذاك، عندما كان يرى بضميره أنه لم يعد يحق له الحصول على دخل من إبداعه، كما من ممتلكاته. وعلى هذا النحو، حوّل تولستوي «شرّ» الملكية الأدبية إلى كتفي زوجته وحتى بداية التسعينيات كان موافقاً على هذا الوضع الراهن. فلماذا في بداية التسعينيات يطرح هذه المسألة من جديد، رغم إدراكه بوضوح أن هذه المسألة مؤلمة بالنسبة لزوجته؟

في 11 تموز/ يوليو عام 1891، بعد ثلاثة أشهر عملياً من حدوث الاقتسام الفعلي للممتلكات، يرسل تولستوي رسالة من ياسنايا بوليانا إلى موسكو، يقنع فيها زوجته بصيغة لطيفة، بأن تنشر هي *بنفسها* في الصحف إعلان تخليه عن حقوقه الأدبية لجميع مؤلفاته اعتباراً من عام 1881. إنه *يقنعها* تحديداً ويلجأ إلى الحيل: «كنت أفكر، طيلة هذا الوقت، بصياغة وطباعة إعلان عن التخلي عن حقوق ملكيتي لكتاباتي الأخيرة، ولم أنفذ؛ أما الآن فأفكر ربما يكون أفضل بخصوص العتاب الموجه لك من جمهور القرّاء، كما يكتب المطبعي، لو كتبت أنتِ في الصحف باسمكِ هذا الإعلان: يمكن على شكل رسالة إلى المحرر: م.غ. أرجو أن تنشر في صحيفتكم المحترمة الإعلان التالي:

«زوجي، ليف نيقولايفتش تولستوي، يتخلى عن حقوق التأليف لمؤلفاته الأخيرة، ويسمح للراغبين بأن يطبعوها وينشروها من دون مقابل».

المطبعي – هو ماتفي نيكيتش رومیانتسیف، رئيس مستودع كتب تولستوي، التي أصدرتها صوفيا أندريفنا. وقد جرت بينه وبين زوجة الكاتب مفاوضات حول السعر الواجب تحديده للمجلد الثالث عشر من مؤلفات تولستوي. وقد حذّر رومیانتسیف السيدة صاحبة العلاقة بأنها إذا ما خفضت سعر البيع بالتجزئة للمجلد الثالث عشر المطبوع، الذي أثار اهتماماً واسعاً لاحتوائه على آخر مؤلفات ليف نيقولايفتش، بما فيه «سوناتة كروتز» المثيرة للفضائح، فإن المشترين السابقين، الذين حصلوا على المجلد بالاشتراك سيكونون ساخطين، وسيكسرون واجهات المستودع الزجاجية، كما حصل عند سوفورين، عندما نشر مؤلفات بوشكين بسعر أرخص.

لقد أثارت هذه التلاعبات جميعها بأسعار مؤلفاته غضب تولستوي. كما أن مقاس طبعة المؤلفات بدا له «مبتذلاً»، معداً لجمهور المدينة الفاحش، وليس للقارئ العادي الشعبي. ومع ذلك، في رسالته إلى زوجته، يختار ليف نيقولايفتش التعابير الأكثر حذراً، ويحاول تبرير قراره في ضوء مصلحتها. علاوة على ذلك، فالمقصود لم يكن التخلي عن جميع الحقوق الأدبية. بل عن حقوق المؤلفات الأخيرة وحدها. وكل ما هو مكتوب قبل عام 1881، يعتبره تولستوي ملكية شرعية لزوجته، دون أن يفكر أبداً بحرمانها من هذا المصدر من الدخل.

المشكلة كانت في المجلد الثالث عشر السيئ الحظ! فبصدور هذا المجلد، تبين فجأة، أنه من المستحيل تقسيم إبداع تولستوي إلى «حتى عام 1881» و«ما بعده». هذا من السهل فعله نظرياً، في الرأس، ولكن ليس في ممارسة نشر الكتب. ولا يهتم الجمهور الواسع بدقائق فهم تولستوي لتطور إبداعه. الجمهور يتوق إلى المستجدات، والضجيج، والأحاسيس. وقد كانت «سوناتة كروتز» ضجة المجلد الثالث عشر.

ومن المعروف، كم كان مؤلماً لليف نيقولايفتش إنجاز «سوناتة كروتز».

فصياغاتها المتعددة لم تكن ترضي تولستوي، وحتى اللحظة الأخيرة لم يكن واثقاً من أن قصة الغيرة الموصوفة فيها ستنتهي كما انتهت في الرواية – بقتل الزوجة. وحتى بعد نشر «سوناتة كروتز» لم يكن بإمكان ضمير الكاتب أن يبقى هادئاً. إن تولستوي، الذي هوجم بعدد لا يحصى من الرسائل المطالبة بشرح ما الذي أراد أن يقوله في هذه القصة، كان مضطراً للإقدام على خطوة رهيبة، من وجهة نظر كرامة الكاتب: إنه يكتب «خاتمة» للقصة، يشرح فيها بالتفصيل، معناها ومغزاها.

إن قصة «سوناتة كروتز» لا تقل مأساوية عن قصة كتابتها. ذلك أن زوجة تولستوي كانت تكره هذه القصة الطويلة. وهنا لا يمكن العثور على كلمة مناسبة أخف. ومع ذلك، فإنها هي بالذات، قد فعلت كل ما هو ممكن وغير ممكن، من أجل أن ترى النور هذه القصة الطويلة.

إن رحلة زوجة تولستوي إلى بطرسبورغ ولقاءها بالإمبراطور في نيسان/ أبريل عام 1891 بسبب فرض حظر الرقابة على نشر المجلد الثالث عشر من مؤلفات تولستوي، وصفتها صوفيا أندريفنا بالتفصيل في يومياتها، وأبرزتها في قصة منفصلة بعنوان «رحلتي إلى بطرسبورغ». واليوم عندما نقرأ هذه القصة بريشة زوجة تولستوي نشعر بالألم. فقد اجتمع فيها كل شيء: الخوف على الأسرة، والحساب المادي، وغرور رفيقة درب الكاتب العظيم، ورغبتها الغريبة في أن تثبت للجمهور بأنها ليست هي بطلة هذه القصة الطويلة، طالما أنها هي نفسها تعمل على نشرها، وأشياء أخرى، لا يمكننا سوى تخمينها.

لم تقتصر نتيجة حديثها مع القيصر ألكسندر الثالث على أنها حصلت على الموافقة على السماح ببيع المجلد الثالث عشر فحسب، بل إن الإمبراطور وافق بأن يصبح هو نفسه رقيباً شخصياً على تولستوي. لقد اعتبرت صوفيا أندريفنا هذا نصراً لها. وقد أثار هذا سخط تولستوي الشديد. فقد نُسفت الثقة بصورة نهائية بين تولستوي وزوجته في جميع ما يتعلق بالمسائل الإبداعية.

كان عاما 1890 و1891، عندما أُنجزت ونُشرت القصة الطويلة «سوناتة

كروتز»، من أشد السنوات رعباً في تاريخ عائلة تولستوي. فالابن ليف يسيطر عليه اكتئاب نفسي طويل يعجز الطب عن تفسيره. وماشا تريد الزواج من بريوكوف، وهذا ما لا تريده الأم، ولا الأب، على الرغم من محبته الكبيرة لـ «التولستويين». وإيليا يطالب بأنانية بحصته من الممتلكات في ظل حياة والديه. وأخيراً، يتم اقتسام الممتلكات. وبعده مباشرة، يطالب تولستوي بالتخلي عن الملكية الأدبية، ما يؤدي بصوفيا أندرييفنا أولاً إلى التهديد بالاحتجاج علنا ضد هذا التخلي («المصلحة الأبناء»)، وفيما بعد بمحاولة رمي نفسها على سكة الحديد. وفي هذه الفترة يكتب تولستوي: «سوناتة كروتز» و«الخاتمة» الخاصة بها، وفيهما يعلن «التخلي» الثالث له. وقد كان هذا التخلي عن الأسرة، بحد ذاتها، كمؤسسة يرجع تاريخها إلى قرون عديدة، أصبح يراها الآن أنها في أساسها تقوم على الشهوة واستغلال الرجال الجنسي القانوني للنساء. هذا في حين أن النساء ليس أنهن لا يعارضن هذا الاستغلال فحسب، بل منذ سنوات طفولة الفتيات تعلمهن أمهاتهنّ، ويلجأن إلى أساليب حاذقة مرهفة لتسهيل هذا الاستغلال، مثل تعرية أكتاف الفتيات وصدورهن في حفلات الرقص، و«لمس المؤخرات»، المشدودة بمشدات الجورسيه، وغيرها من «السفاسف».

فكيف كان يمكن أن يكون موقف صوفيا أندرييفنا من هذه القصة الطويلة، بعد ثلاثين عاماً من الحياة الزوجية مع مؤلفها وولادة ثلاثة عشر طفلاً من الزواج معه؟ أمر لا يصعب تخمينه. علاوة على ذلك، في هذه الفترة، يحرمها زوجها في هذه الفترة من حق تبييض وإعادة كتابة أعماله الجديدة، شاعراً بموقفها العدائي منه. لكنه خلال ذلك، لا يحق له حرمانها من حق تصحيح بروفات «سوناتة كروتز» نفسها، لأنها هي لا تزال ناشرة كتبه، ووكيلته الأدبية، ومالكة حقوق جميع مؤلفاته. كانت مصلحتها المادية من المجلد الثالث عشر كبيرة، لأن اهتمام الجمهور به كبير جداً. لكن هذا المجلد تحظره الرقابة. وفي هذه الفترة بالذات تنتشر شائعة (على مستوى البلاط القيصري)، أن «سوناتة كروتز» مكتوبة عن غيرة ليف نيقولايفتش على زوجته. هذا في حين إنها لم تقدم له ولا مرة، أي مبرر للغيرة.

كانت العقدة رهيبة. وكان من الممكن حلها إما بالتخلي الكامل عن

المشاركة في العملية الإبداعية لزوجها، أو بالاستخدام البارد والبراغماتي لحقها في النشر، بصرف النظر عن كل شيء، إلى أن يعالج زوجها بنفسه هذه المسألة.

فماذا تفعل صوفيا أندريفنا؟ تنزعج من زوجها، لأنه لم يعد يسمح لها بالمشاركة في قدس الأقداس الإبداعي، ويكلف منذ الآن ابنتيه ماشا وتانيا في تبييض مؤلفاته، فتبدأ سراً بنقل يومياته الباكرة، التي كان قد أرغمها في بداية الستينيات على قراءتها. لكن بعد ثلاثين عاماً، حظر ليف نيقولايفتش عليها الاقتراب من هذه اليوميات، بعد أن شعر بشيء خاطئ. ومنذ خريف عام 1890 بدأ يخفي يومياته عن زوجته، دون أن يعلم، أن قسماً منها قد أخفته في خزانتها، وتقوم بتبييضه ونقله ليلاً.

كان ثمة شيء مازوشي في سلوك صوفيا أندريفنا. وهذه اليوميات ألهبت جراحها القديمة، وأثارت غيرتها، واستفزت شعوراً شريراً نحو زوجها.

وتختتم في يومياتها قائلة: «لم يكن يعرف كيف يحب - *لم يألف الحب منذ شبابه*».

«... كيف جعلتُه مثالياً، كيف لم أرد أن أفهم طويلاً أن لديه إحساساً وحيداً لا غير».

أخيراً، تجد في يومياته العبارة التالية: «لا وجود للحب، ثمة حاجة جسدية للتواصل وحاجة عقلانية لصديقة الحياة». هذه العبارة تستفزها بكل معنى الكلمة! «نعم، لو أنني قرأت قناعته هذه قبل 29 عاماً لما تزوجته قط...»

وفجأة يترابط كل هذا في شعورها مع «سوناتة كروتز»، عندما تقرأ بروفات طباعتها في هذه الفترة. وبغريزتها الأنثوية تدرك صوفيا أندريفنا، بالطبع، أن في أساس هذه القصة الطويلة تكمن تجارب حميمة قاتمة ما لليف نيقولايفتش، وهذا ما يسهل فهمه، حتى لو لم تكن زوجته، نظراً لشفافية اعتراف بطل القصة الرئيس بوزدنيشيف. وحينئذ تفرض السلسة «الشهوة - الغيرة - جريمة القتل» حسب مفهوم صوفيا أندريفنا، نفسها على تاريخ علاقاتها بزوجها، وبخاصة في الفترة الأخيرة. بيد أنها تفهم من جانب آخر. تكتب في يومياتها: «إنه يقتلني بصورة ممنهجة، وينجو من

حياته الشخصية». أي أن المقصود ليس الغيرة عليها، كما يظن الجمهور، بل على العكس، برودة عواطفه نحوها. ولكن في أساس هذه البرودة تكمن الشهوة ذاتها – غير المشبعة.

تصيح صوفيا أندرييفنا بأعلى صوتها في يومياتها: «ما هو الخط المرئي الذي يربط يوميات ليفوشكا القديمة بقصته الطويلة «سوناتة كروتز»؟ وأنا في هذه الشبكة العنكبوتية مثل ذبابة تطن، وقعت خطأ في شبكة العنكبوت الذي يمتص دمها».

لقد فتح تولستوي في «سوناتة كروتز» اللجج السوداء واستدعى الشياطين من الظلمة كي يظهر الخطر المميت للرابطة الأسرية، القائمة لا شعورياً، على الغريزة الجنسية. لقد أدركت صديقة تولستوي هذا بالمعنى المباشر الحرفي للغاية. ومع ذلك فإن إصدار «سوناتة كروتز» أصبح قضية مبدأ.

أثناء وجودها في نيسان/ أبريل عام 1891 في بطرسبورغ وبانتظار مقابلة القيصر، أجرت صوفيا أندرييفنا محادثات نشيطة مع مدير المسارح الإمبراطورية ي. آ. فسيفولوجسكي بخصوص إخراج مسرحية تولستوي «ثمار التنوير». فمثلها مثل «سوناتة كروتز» كانت هذه المسرحية محظورة؛ وكان يُسمح بعرضها فقط في المسارح المنزلية. وعندما رأت «ثمار التنوير» في برنامج عروض المسارح الإمبراطورية، المطبوع في صحيفة «الزمن الحديث نوفوي فريميا»، أسرعت صوفيا أندرييفنا لحماية حقوقها. إن حديثها مع المدير، الذي ذكرته بالتفصيل في يومياتها، يثير مشاعر متناقضة. فهي، من ناحية أولى، لم تعط للمسرح حقوقاً حصرية في المسرحية، مستندة بذلك إلى إرادة زوجها الذي لم يرغب بالحد من نشر مؤلفاته. ومن ناحية أخرى، تصرفت كأنها مالكة شرسة، ومفوضة مطلقة الصلاحية للحقوق الحصرية، و«تحمست» وقالت في نفسها عن موظفي المسرح بأنهم «أجلاف». استطاع فسيفولوجسكي أن يحصل منها على شراء حق إخراج «ثمار التنوير» مقابل 10% من إجمالي دخل شباك التذاكر، بيد أنه طالب مقابل ذلك بملاحقة المسارح الخاصة في حال إخراجها للمسرحية. وإلا، فلن يدفع سوى 5% من إجمالي دخل شباك التذاكر. استاءت صوفيا أندرييفنا من هذه المساومة الرخيصة الساخرة. ولكن في النتيجة، تمكنت من الحصول على 10% من

دخل المسرحية، دون التنازل عن حقوقها الحصرية. وقد تصرفت زوجة تولستوي كوكيلة أدبية خبيرة.

ولكن، كيف نوت أن تتعامل مع هذه الأموال؟ تكتب صوفيا أندرييفنا: «ابني سيريوجا يقترح إعطاء هذه الأموال للجمعيات الخيرية التي ترأسها الإمبراطورة ماريا. كان يسرني جداً أن أفعل هذا، لكن أولادي التسعة، بحاجة إلى الكثير من المال، ومن أين سأحصل عليه؟»

ما هي الدوافع التي دفعت بزوجة تولستوي لأن تنسف عملياً رجاء زوجها عندما طلب منها في المرة الأولى بأن تكتب بنفسها في الصحف رسالة حول التخلي عن حقوق الملكية الأدبية؟ هل هي الاعتبارات التجارية؟ لا، بالطبع. كانت صوفيا أندرييفنا شخصية معقدة. على الأغلب، شعرت في هذه اللحظة، أنها تفقد رقابتها الأخيرة على رفيقها العظيم، على «ليفوشكا». فنجاح «وسيط» تشرتكوفسكي، وخاصة ذلك الاهتمام والحب اللذين أولاهما زوجها لدار النشر الشعبية تلك، قد مزقا عزة نفسها كناشرة، وكامرأة متسلطة، لا ترغب بأن يشاركها زوجها أي شخص.

يبدو أن هذا كان خطأها.

مع بداية تسعينيات القرن التاسع عشر، يكبر تولستوي متجاوزاً نفسه. لم يعد مجرد زوج وكاتب. يغدو تولستوي قمة روحية كبيرة لا يقارن نفوذه في روسيا إلا بسلطة القيصر والكنيسة الأرثوذكسية. وتنتشر سمعته العالمية ليس في أوروبا وأمريكا فحسب، بل في الشرق، في البلدان البوذية والهندوسية والإسلامية أيضاً، وتكبر مثل التيار الثلجي الجارف. ويتحول إلى فيلسوف من مستوى لاو – تزي، وكونفوشيوس، شوبنهاور، ونيتشه. وبعد عشر سنوات، بل أقل تتدفق أفواج الحجاج إلى ياسنايا بوليانا من جميع أنحاء العالم إلى الرجل العجوز، معلم هذا العالم.

إن امتلاك «حقوق حصرية» لمثل هذا الإنسان كان مستحيلاً. «عدم مشاركة» مؤلفاته مع العالم كله كان مستحيلاً. كان عليها أن ترضخ. كان عليها أن تتفق مع تشرتكوف. كان عليها أن تقبل بأن تكون *إحدى الشخصيات* القريبة من العجوز العظيم. بصرف النظر عن كل شيء. بصرف النظر عن أولادها التسعة. وعن الأسرة والمزرعة. وعن كبريائها الجريحة.

لا يصح القول إن زوجة تولستوي لم تكن تفهم هذا. إنه خطأ كبير القول إن صوفيا أندريفنا لم تكن تفهم هذا كله على الإطلاق. لكن شخصيتها المعقدة، وخاصيات تربيتها، وأخيراً *إهانتها* الأنثوية – من أن زوجها الذي عاش معها جنباً إلى جنب طيلة ثلاثين عاماً، *يغادرها* «جاهزاً» نحو الناس الآخرين – كل هذا لم يسمح لها بأن تزن الإيجابيات والسلبيات وتتخذ القرار المعقول.

من حيث المظهر، اضطرت مع ذلك للقبول والمصالحة.

لم ينتظر من زوجته نشر رسالته حول التخلي عن الحقوق الأدبية – ولشعوره بمقاومة من جانبها (يكتب تولستوي في يومياته: «... كانت منزعجة، ذات لون أحمر، وأخذت تقول إنها ستطبع... عموماً شيئاً ما تشفياً مني»)، أدرك تولستوي أنه لن ينجح في جعل زوجته حليفاً له.

في 21 تموز/ يوليو عام 1891 أعلن ليف نيقولايفتش في ياسنايا بوليانا، بصورة قطعية، أنه بنفسه سينشر رسالة في الصحف. كانت زوجته تعرف أن هذا سيحدث، عاجلاً أم آجلاً، لكن تبين أنها غير مستعدة نفسياً لذلك.

تكتب في يومياتها: «قال أحدنا للآخر كثيراً من الأشياء البغيضة. أنا عاتبته بالتعطش إلى المجد والشهرة، وبالغرور، وهو صاح أنا لست بحاجة إلى المال وأنه لم يقابل في حياته امرأة أكثر غباء وجشعاً مني». وانتهى الشجار بصراخه: «اذهبي، اذهبي بعيداً!» وذهبت مقررة الانتحار. مثل آنا كارينينا – أن ترمي بنفسها على سكة القطار الحديدية.

يصعب القول حول مدى جدية هذا القرار. فالنوبات الانتحارية كانت تحدث باستمرار عند صوفيا أندريفنا، لكنها دوماً كانت تنتهي بلا شيء. وبطريقة أو بأخرى، فقد كتبت في مفكرتها أنها «أصبحت عاجزة عن *حل* جميع المسائل العائلية وحدها» ولهذا فهي تغادر الحياة. ولكن، بالفعل بعد تنازل تولستوي عن ممتلكاته فإن جميع هموم الأسرة وقعت على كاهلها وحدها. وخلال ذلك، حرمها زوجها من مصدر تمويلها، الذي لم تكن المؤلفات القديمة تشكله بل المؤلفات الجديدة بالذات التي كان يتطلع إليها بظمأ جمهور القرّاء. وأخيراً، كانت رسالة التخلي عن الحقوق الأدبية تعني

الاعتراف العلني بالخلاف العائلي. إن صوفيا أندريفنا قد «شعرت بظلم هذا التصرف تجاه الأسرة وشعرت لأول مرة أن الاحتجاج هو نشر جديد لخلافه مع زوجته وأسرته».

ركضت إلى محطة كوزلوف زاسيك «في حالة جنونية كاملة». كان قد بدأ الظلام، لكنها لم تشعر بالرهبة. المهم، كانت تدرك أن الآن «من *المعيب* العودة إلى البيت وعدم تنفيذ عزمها». وكانت حالتها النفسية في تلك اللحظة تشبه كثيراً حالة آنا كارينينا. كل ما كان ينقصها جرعات كبيرة من الأفيون التي أخذتها كارينينا قبيل انتحارها.

لحسن الحظ، في الطريق التقت بصهرها، زوج أختها الصغرى تانيا، ألكسندر كوزمينسكي. كان عائداً من قطار كوزلوفكا المسائي ودُهش عندما رأى شقيقة زوجته في هذه الحالة. أخذت تقنعه صوفيا أندريفنا بأن يتركها وحدها، وأنها ستعود قريباً إلى البيت. لكن هذا كان هراءً صرفاً، وأصر كوزمينسكي على أن يعودا معاً...

هكذا عُرضت هذه القصة في يوميات صوفيا أندريفنا. وبعد أن ودعها صهرها في ياسنايا بوليانا، توجهت إلى البحيرة، عازمة على أن تُغرق نفسها. ومن جديد بالدافع نفسه: «لمغادرة هذه الحياة بمهام لا قدرة لي عليها». وبين الأشجار في الظلام هاجمها وحش ما، «كلب، ثعلب، أو ذئب»، ولم تستطع أن ترى بوضوح لقصر نظرها. وكأن الوحش أخاف صوفيا أندريفنا وأرغمها على العودة إلى البيت، حيث توجهت مباشرة إلى ابنها الأصغر فانشكا. «كان قد استلقى في السرير، وأخذ يلاطفني ويقول: ماما، أمي!»»

ثم جاء زوجها، نشيطاً، فقبلها، كأن شيئاً لم يكن. ووعدها بأنه لن ينشر رسالة التخلي عن الحقوق إلى أن تدرك بنفسها ضرورة القيام بذلك.

كان آخر ما تذكرته صوفيا أندريفنا في تلك الأمسية «سوناتة كروتز» اللعينة نفسها. فهي لم تخرج من رأسها. شيء ما في هذا العمل الأدبي أثارها لدرجة أنها أدركت: أن حياتها مع ليف نيقولايفتش قبل «السوناتة» وبعدها – حياتان مختلفتان. وفي نهاية لقائهما المسائي، أعلنت لزوجها أنها لن تعيش معه بعد الآن كزوجة. فقال، إنه مسرور بذلك. لكنها لم تصدِّقه.

في 19 أيلول / سبتمبر ظهرت في «الجريدة الروسية» رسالة تولستوي التي أعادت نشرها صحف عديدة: «أمنح جميع الراغبين الحق، دون مقابل، بأن ينشروا في روسيا وفي الخارج وباللغة الروسية، وبالترجمة إلى اللغات الأخرى، وكذلك بأن يعرضوا على المسارح، جميع مؤلفاتي التي كُتبت منذ عام *1881*، والصادرة في المجلد الثاني عشر من أعمالي الكاملة الصادرة عام 1886 وفي المجلد الثالث عشر الصادر في العام الحالي 1891، وكذلك جميع مؤلفاتي التي لم تنشر في روسيا والتي قد تظهر من جديد بعد هذا اليوم».

لقد تأخر تولستوي في نشر التخلي عن حقوقه الأدبية، كي يسمح لزوجته ببيع المجلد الثالث عشر الذي يضم «سوناتة كروتزر». وهو بذلك قد وفى بشرط الاتفاق العائلي. لكن حق نشر «السوناتة» وجميع ما كتبه بعد عام 1881، وما سوف يكتبه سحبه من زوجته وأعطاه للجميع. وقد كان هذا من حيث الجوهر «قرصنة قانونية».

ولكن، ماذا يعني – للجميع؟ أولاً، هناك من سيكون أول من سيطبع المؤلف الجديد. وهناك من سيكون أول من يحصل على المخطوط للترجمة إلى لغة أخرى. وهذا الأول سيكون له مصلحة حيوية بأن يحتفظ بـ «حق الطبعة الأولى» للكاتب. وخاصة هذا ينطبق على الناشرين الأجانب الذين كانوا أول من نشر العمل الجديد للكاتب الروسي الكبير ودفعوا أتعاب المترجم، يريدون تحقيق أرباح منه ولم يرغبوا قط بفهم الطبيعة الروسية الرحبة. وبالتالي، لا بد من وكيل أدبي يقوم بمتابعة كي لا يقوم أحد ما باختطاف عمل جديد، وكيل أدبي يتفق مع الناشر حول حق الطبعة الأولى قبل أن يقرأ الجميع العمل الجديد.

ثانياً، أن «القرصنة القانونية» يمكن أن تستمر مادام الكاتب على قيد الحياة. تستمر طالما الكاتب يغلق عينيه بالموافقة على جميع من يطبعه، ولا يدفع له شيئاً. ولكن ما إن يغلق الكاتب عينيه للأبد، يتوقف مفعول «القرصنة القانونية»، لأن الكاتب لديه ورَثة.

بنشره رسالته في «الجريدة الروسية»، كان تولستوي يعتقد صادقاً أنه

يتخلص من «شرّ» الملكية الأخير. لقد كان يتصرف بشكل رحب، على الطريقة الروسية، كبطل جبار يمكنه بحركة واحدة من كتفيه أن يزعزع الشياطين السوداء الصغيرة. بيد أن الشياطين لم تغادر. وبقيت تنتظر. وسوف تنتقم «حقوق النشر» من تولستوي.

من المخطئ؟

لنتجنب النفاق والمداهنة، ولنطرح السؤال بصراحة: ألم تكن هناك نزاعات عائلية مرتبطة بالبرودة الجسدية لرجل متقدم في السن نحو صديقته الأكثر شباباً (الفرق بينهما ستة عشر عاماً)، لكنها لم تعد شابة رغم ذلك؟ ولنقرأ على سبيل المثال، في هذه الصفحة من ذكرياتها: «لقد بلغت حياة ليف نيقولايفتش الزوجية نهايتها على الآخر. كانت لا تزال عواطف الحب في مكان ما من قلبه دافئة نحوي، ونحو البنات اللواتي كان يحتاجهن ويستمتع برؤيتهن، لكنه كان يبتعد، كان يغادر بسرعة، وكنت أنا أشعر أكثر فأكثر بوحدتي وبمسؤوليتي كلها عن نفسي وعن الأسرة كلها».

هذا الإلهام النسائي الثاقب كأنه يتحدث عن نفسه بنفسه. لكنه يحتوي على كلمة واحدة تثير الحيرة والارتباك: «بسرعة». هذه الذكرى ترجع إلى عام 1894. بسرعة؟ كانت مغادرة تولستوي الأولى للبيت قد تمت في عام 1884، قبل عشرة أعوام. وبعد عام 1894 عاشا معاً أكثر من خمسة عشر عاماً. وهكذا فإذا ما غادر تولستوي المنزل فهو لم يغادر «بسرعة».

عن هذا السؤال المطروح رد بالإيجاب صهر تولستوي م. س. سوخوتين في يومياته: ولكن متى؟ في عام 1910. «مهما بدا ذلك غريباً، لكن البرودة الكاملة لليف نيقولايفتش تجاه زوجته يمكن ملاحظتها للشخص الذي يعيش في المنزل، فقط خلال السنوات الأخيرة، وخاصة خلال السنة الحالية. أفلا يجري هذا بقدر ما يتلاشى الجسد شيئاً فشيئاً».

لن نجد، لا في رسائل تولستوي ولا في يومياته في الأعوام التسعينيات علامات تدل على هذه البرودة والفتور. ولعل الجواب الأكثر إقناعاً على سؤالنا نجده في رسالته إلى زوجته التي كتبها من ياسنايا بوليانا في تشرين

الثاني/ نوفمبر عام 1896. «أنت تسألينني، هل ما زلت أحبك. إن مشاعري نحوك الآن، هي، كما أعتقد أنها لا يمكن أن تتغير، لأن فيها كل ما يمكن أن يربط بين الناس. لا، ليس كل شيء. ينقصها التوافق الخارجي في المعتقدات - أقول الخارجي، لأنني أعتقد أنه الاختلاف هو خارجي فقط، وواثق دوماً بأنه سيزول. يربط فيما بيننا الماضي، والأبناء، وشعورنا بذنوبنا وأخطائنا، والشفقة، *والجاذبية التي لا تقاوم* (التأكيد من قبل *المؤلف*)».

فما الذي قصده بـ«الجاذبية التي لا تقاوم»؟ بالطبع، من السخافة افتراض أنه كان يعني بها الشغف الجنسي حصرياً. ولكن من المضحك أيضاً الحديث عن علاقته الأفلاطونية البحتة بزوجته في أواخر التسعينيات من القرن التاسع عشر، عندما كان يتخطى حائط السبعين من عمره.

ففي هذه الفترة بالذات يغار عليها من الموسيقي والملحن س. ي. تانييف الذي أخذ يتردد كثيراً على منزلهم في خاموفنيكي ويمضي الصيف في ياسنايا بوليانا، كما في بيت ريفي. إن محبة صوفيا أندريفنا للموسيقى (وهي مشتركة فيها مع زوجها) ومعاناتها التي لا تنتهي لجزء من مهاراتها في الأداء الموسيقي أثارتا فيها شغفاً مرضياً بالموسيقي الرائع، تلميذ تشايكوفسكي، هذا الشغف الذي نظر إليه حتى أبناؤها الكبار باستهجان. أما ما يتعلق بليف نيقولايفتش، فمع احتفاظه بعلاقات ودية خارجية مع تانييف (كان يستمع إلى موسيقاه، ويتبادل معه أطراف الحديث، ويلعب الشطرنج)، فقد وضع زوجته أمام سؤال ذي حدين: إما أنا، وإما هو!

في شباط/ فبراير عام 1897 عندما نوت صوفيا أندريفنا السفر إلى بطرسبورغ لحضور بروفة تانييف، كتب لها تولستوي من نيكولسكو - أبوليانينوفو:

«إنه لمؤلم بشدة، ومعيب ومهين أن يقود حياتنا شخص غريب تماماً، وغير ضروري، ولا معنى له، وأن يسمم السنوات الأخيرة أو السنة الأخيرة من حياتنا، إنه أمر مهين ومؤلم أن علينا أن نحتفل عندما يذهب، وعندما يقدم بروفات».

وبحلول أيار/ مايو من العام نفسه تصل غيرة ليف نيقولايفتش إلى

الذروة. هو في ياسنايا بوليانا، وزوجته في موسكو، لكنها تضطر للسفر إليه لتهدئة غضبه.

وبعد سفرها مباشرة إلى موسكو، يرسل لها رسالة كان من المحرج سردها واقتباسها، بالنظر لأنها مكتوبة من عجوز في السبعين من عمره تقريباً، لولا القوة الشعرية الشابة التي تحتويها هذه الرسالة.

إنه يبدأ بالتنبيه «اقرئيها وحدكِ».

«إن صحوتي وظهورك - هما من أقوى الانطباعات التي عشتها بفرح؛ وهذا في عمري الـ69 سنة من امرأة في الـ53 سنة من عمرها... الصيف يستحث الخُطا للحياة - فالليلك يبدأ بالذبول، والزيزفون يهيّئ أزهاره، وفي عمق الحديقة، في أوراق الشجر الكثيفة تظهر اليمامات والصفاريات، وتغرد البلابل تحت النوافذ بموسيقى مدهشة. الوقت الآن ليلاً، والنجوم ساطعة، كأنها مغتسلة، وبعد المطر رائحة الليلك وأوراق البتولا. سيريوجا (ابنه - المؤلف) وصل في تلك الأمسية، عندما غادرتِ؛ وطرق نافذتي، وأنا صحت بفرح: «صونيا». «لا، سيريوجا».

ولكن لم يمر أسبوع واحد، يكتب بعده تولستوي رسالة جديدة، غاضبة، غيورة يهددها بوضوح بالطلاق.

في هذه الرسالة، لم يرد أي ذكر للخلافات الروحية، ولا «السوء الفهم». كل شيء فيها واضح للغاية.

يطالب تولستوي بوقف التواصل مع الرجل الذي يعتبره خصماً له.

«إن تقاربك مع تانييف بالنسبة لي ليس مزعجاً فحسب، بل مؤلم بشكل رهيب. وباستمراري العيش في ظل هذه الظروف، أنا أسمم حياتي وأقلصها. ها قد مر عام، ولا يمكنني العمل، ولا أعيش، بل أتعذب بشكل دائم. وأنت تعرفين هذا. وقد تحدثت عن هذا بانزعاج، وبتوسل، وفي الفترة الأخيرة لم أقل لك شيئاً. جرّبت كل شيء، ولم أحقق أي فائدة: فتقاربك يستمر بل يزداد، وأرى أن هذا سوف يستمر حتى النهاية».

ويقترح عليها أن تختار من بين هذه الخيارات الخمسة:

1) وقف التواصل مع تانييف نهائياً. «من دون مواعيد، بلا رسائل، ولا أولاد، ولا صور... بل تحرر كامل»؛

2) يسافر هو إلى الخارج، ويفترق معها تماماً؛
3) يسافران معاً إلى الخارج ويعيشان هناك، إلى أن يختفي تانييف من رأسها؛
4) يتابعان العيش كما في السابق، متظاهرين كأنه لا يحدث شيء. لكن هذا بالنسبة له هو الخيار الأشد رهبة؛
5) سيحاول تبديل موقفه من افتتان زوجته وسوف ينتظر نهايته الطبيعية. ولكن من المستبعد أن يكون هذا في طاقته.

لم يرسل تولستوي الرسالة وفي اليوم التالي سافر إلى بيروغوفو لزيارة شقيقه والترويح عن نفسه. في شهر تموز / يوليو حضر تانييف إلى ياسنايا بوليانا في زيارة، بنفس مطمئنة. وفي أثناء وجوده في ياسنايا بوليانا يكتب تولستوي رسالته الشهيرة جداً عن الرحيل، تلك الرسالة التي يشار إليها عادة بأنها الأساس الفلسفي الأعمق لهذا التصرف.

«... مثل الهنود يغادرون في الستين إلى الغابات، مثل أي شخص آخر متدين، يريد أن يكرس سنواته الأخيرة لربّه، وليس للنكات، والتوريات، والقيل والقال، والتنس، وكذلك أنا، عند دخولي في السبعينيات من عمري، أريد، بكامل قواي الروحية، هذا الهدوء والطمأنينة، والعزلة، والوفاق، وإن لم يكن كاملاً، لكنه ليس خلافاً صارخاً، في حياتي مع عقائدي، ومع ضميري».

كلمات عظيمة! بفرحة كبيرة يقتبسها الكاتب الكبير إيفان بونين في كتابه «تحرير تولستوي». إنه لا يقتبسها فحسب، بل يستخدمها كمفتاح للغز رحيل شيخ ياسنايا بوليانا. مثل الهنود الذين يغادرون إلى الغابات. مثل كبار السن الذين يريدون تكريس السنوات الأخيرة لله. وهذه كانت حقيقة، بالطبع. وهذه ستبقى حقيقة، بعد ثلاثة عشر عاماً عندما يتحقق أخيراً هذا الرحيل.

إن المشكلة العقائدية لرحيل تولستوي هي، من ناحية أولى، معقدة للغاية (كُتبت عنها عشرات الدراسات لكبار الفلاسفة ورجال اللاهوت)، ومن ناحية أخرى – هي شفافة للغاية ومهيبة، مثل البحيرة العميقة، بحيث لا يبقى أمامنا سوى الشعور بالدهشة كيف أمكن لتولستوي أن يعبر في

بضعة كلمات عنها في رسالة تموز / يوليو عام 1897. وهنا يبرز الفرق بين العبقرية والموهبة. فالعبقري قادر على تحويل الفعل الأكثر غرابة، المرتبط بالخلافات العائلية، إلى معنى سوف تفكر فيه الأجيال وتتأمله. سوف يحاولون حل هذه «الشيفرة»، طارحين «المفاهيم» المختلفة. وسوف يقيسون هذا التصرف على مصائرهم، ويجادلون، وأحياناً يكررون، ولكن دون أن يكتب لهم النجاح أبداً.

لقد حمل تولستوي في رأسه فكرة رحيله خمسة وعشرين عاماً كعمل أدبي عظيم. وقد راجعها عدة مرات، كما نرى على الورق. لكنه في نهاية الأمر أنجزها بشكل عفوي، كأنه في الوقت غير المناسب. فالناس لا يغادرون إلى الغابات عندما يلوح من خارج النافذة الخريف الرطب، الذي سيتحول إلى شتاء.

ولكن كانت الرسالة تتضمن عبارات أخرى.

«لو أنني فعلت هذا علناً، لكانت هناك طلبات، وإدانات، وشكاوى، ولربما انتابني الضعف، ولا أنفذ قراري، وقراري يجب أن يُنفذ. لهذا، من فضلكم، سامحوني، إذا ما سبب تصرفي لكم، ولأرواحكم ألماً، والمهم، أنت صونيا، أطلقيني طوعاً، ولا تبحثي عني، ولا تتذمري مني، ولا تدينيني».

لقد كان عدم التوافق مع زوجته أحد أهم أسباب رحيل تولستوي. وليس من قبيل الصدفة أن حياة الأسرة في الأعوام التسعينيات كلها، كأنها تنطق بالدوافع الشريرة لـ «سوناتة كروتزر». فقد تخلى تولستوي، بادئ ذي بدء، عن «مشروعه» العائلي الذي خططه في الخمسينيات ووصفه في رسالته إلى يرغولسكايا. لقد تم هذا «المشروع»، لكنه الآن لم يعد يناسب تولستوي. فدور الزوج والأب المحترم الذي يدّخر لأولاده وأحفاده الثروات المادية في «صندوق» أسلافهم، لم يعد مثيراً لاهتمامه. بل أصبح مقرفاً كالتابوت.

إن أفق رؤيته في هذه الفترة بعيد المدى بصورة خارقة. فهو يبدي شكه بالكنيسة والدولة والمثل العليا الاجتماعية. ففي عالم يكاد يسقط (وها هو يسقط!) في جوائح المذابح الوحشية والثورات، يبحث تولستوي عن الأساس المخلّص الوحيد ويجده في المشاعة الفلاحية التي تنفّذ بصورة

مباشرة وصية الرب بالعمل بعرق الجبين ولا تبحث عن حالة أكثر راحة للاستقرار في عالم الخطايا والافتراءات المضاد للطبيعة، حيث تكدح الغالبية وتجوع، بينما تقيم الأقلية عاطلة عن العمل تأكل وتحتفل بالأعياد، وتتأنق، وتزني، وترتكب مختلف الأفعال غير القانونية من وجهة النظر المسيحية، لكنها مع ذلك تعتبر «مسيحية». إنه يحاول توحيد الديانات العالمية والممارسات الأخلاقية في نموذج عام واحد للسلوك الأخلاقي، وبالطبع، يتوه ويضيع على هذا الطريق، لكنه يسير إلى الأمام، يومياً، مسترشداً بالحكمة الصينية العظيمة: كل يوم ابدأ الحياة من جديد. إنه يبحث عن وجهة نظره في العلاقة بين «الله والإنسان» ويجدها في أن الشخصية الإنسانية هي جزء من **الألوهية**، ومن خلال محبة أحدهما للآخر يمكن تحقيق التوسيع والاتحاد الروحي ككل لهذين الجزأين المنفصلين المعانيين. وفي ضوء ذلك، لم يعد يهمه موضوع الإنجاب، كما لا يهمه موضوع تكاثر الأرانب. لكن الأسرة تتشكل من أجل متابعة النوع البشري والإنجاب. والأسرة لم تعد تهمه. فقد كتب «الحرب والسلام» و«آنا كارنينا». وقد تحدث عن هذا كله. أفضل من الجميع.

وفي هذه الفترة يظهر تانييف. وتكتسب «سوناتة كروتز» تجسيداً كاريكاتورياً إلى حد ما. بالطبع في «السوناتة» عازف الكمان، الذي دفع بوزدنيشيف إلى الغيرة، لم يكن شبيهاً بتانييف. فهناك كان «رجلاً رديئاً»، موسيقياً «شبه محترف»، «إنساناً شبه اجتماعي». أما تانييف فقد كان أفضل تلاميذ تشايكوفسكي، وموسيقياً حرفياً رفيعاً. وهو نفسه ملحن موسيقي متميز. ولكن، كما لو أن الشيطان دفع بتولستوي لإضفاء ملامح «غير رجولية» على بطل «السوناتة». «عينان رطبتان كحبتي اللوز، شفتان حمراوان مبتسمتان، شاربان حليقان ثابتان، تسريحة شعر آخر موضة، وجه مألوف – جيد ما يدعونه النساء غير قبيح، بنية ضعيفة لكنها ليست قبيحة، وبخاصة مع مؤخرة نامية...»

نزل تانييف ذلك الصيف في حوزة آل تولستوي في فليغل، حيث كان يعزف الموسيقى، ويلعب الشطرنج مع تولستوي، ويتحاور معه بود، ولكن خلال ذلك، ودون أن يرغب، أفقد زوجة تولستوي عقلها. وتروي

صوفيا أندريفنا في يومياتها، كيف كانت تذهب إلى الحديقة وتتحادث مع ابنها المتوفى (!) فانشكا، وتسأله: «هل شعوري نحو سيرغي إيفانوفيتش تانييف أمر سيئ. اليوم فانشكا أبعدني عنه، يبدو أنه يشفق على أبيه، لكنني أعرف أنه لا يدينني؛ فهو الذي أرسل لي سيرغي إيفانوفيتش ولا يريد أخذه مني». لقد كان هذا جنوناً مؤقتاً، مرتبطاً على ما يبدو بفقدان ابنها القريب، وبأن الأحداث الجارية قد تزامنت مع حلول مرحلة سن اليأس الحرجة (الاعتراف في اليوميات).

جميع هذه المدونات في اليوميات ترجع إلى يومي 5 و6 تموز/ يوليو. وفي 8 تموز/ يوليو ينوي تولستوي مغادرة البيت سراً ويكتب تلك الرسالة الشهيرة عن الهنود. ولكنه يكتب إضافة إليها رسالة أخرى. وقد قرأت صوفيا أندريفنا الرسالة الأولى والثانية فقط بعد وفاة زوجها. لقد كان لدى تولستوي ما يكفي من العقل السليم والعاطفة الأخلاقية كي لا يترك زوجته في تلك الفترة عندما كانت حزينة للغاية ومريضة نفسياً. وبقي الرحيل في رأسه كـ«مسوّدة». ومع ذلك، فقد حافظ ليف نيقولايفيتش على الرسالتين وأخفاهما تحت القماش الزيتي لمساند الكرسي في مكتبه. لقد كان هذا تصرفاً رهيباً جداً. وهو يدل على أن تولستوي قد أجّل لفترة رحيله، مع الاحتفاظ بالمبرر الكتابي لذلك في الوقت الحاضر.

في عام 1907 أخذ تولستوي الرسالتين وسلمهما لـ ن. ل. أبولينسكي زوج ابنته ماشا. أما أبولينسكي فبعد وفاة ماشا سلم هذه الرسائل لـ م. س. سوخوتين. وكان من المفترض، أن الرسالتين ستسلمان إلى صوفيا أندريفنا بعد وفاة ليف نيقولايفتش، وهذا ما تم تنفيذه.

بعد أن قرأت صوفيا أندريفنا رسالة منهما، مزقتها على الفور. أما الرسالة الثانية، حول الهنود، فاحتفظت بها.

من المنطقي أن نفترض أن الرسالة الأولى كانت تتعلق بالعلاقات مع تانييف. في عام 1910 لم يعد لها أية أهمية. أما الرسالة الثانية فقد تطابقت بشكل كامل تقريباً، من حيث المعنى، مع تلك الرسالة التي تركها ليف نيقولايفتش قبل مغادرته عام 1910، ولم تكن تلقي أي ظل على زوجة

تولستوي. وكلتا الرسالتين تصوران الرحيل بصورة حصرية على أنه تصرف عقائدي.

إن نزاع تموز/ يوليو عام 1897 – وهو ليس «الشق» الوحيد في علاقات الزوجين في الأعوام التسعينيات، لكنه كان الأصعب في تاريخ العائلة خلال العقد. ففي أوائل عام 1895، وقبل فترة قصيرة من وفاة فانشكا، الذي قرّب ما بين الأب والأم المسنين في الحزن المشترك، كانت صوفيا أندريفنا ذاتها تغار غيرة جنونية على ليف نيقولايفتش من ل. يا. غوريفيتش الناشرة الشابة في مجلة «نذير الشمال سيفيرني فيستنيك».

كانت مجلة «سيفيرني فيستنيك Северный вестник (نذير الشمال)» من أفضل المجلات الأدبية وأكثرها راديكالية في السنوات التسعينيات، حيث كان ينشر فيها بالإضافة إلى تشيخوف، ليسكوف، وغوركي سولوغوب، وبالمونت، وغيبيوس، وميرجكوفسكي. وقد حدثت في هذه المجلة ولادة المدرسة الرمزية الروسية. وقد وافق تولستوي على رجاء غوريفيتش بأن يقدم للمجلة قصته الطويلة «السيد والعامل». وقد أثار هذا غضب صوفيا أندريفنا بشكل لا يصدق!

إنها لم تقبل حتى النهاية حقيقة أنه لم يعد لديها حقوق على إبداع زوجها. وإذا كان من الصعب عليها معارضة الكتب الشعبية لدار نشر «الوسيط – بوسريدنيك» الصادرة عن مطبعة سيتين، فإن قرار تولستوي بتسليم عمل روائي جديد رائع إلى مجلة دارجة واسعة الانتشار، قد أعطاها حقاً معنوياً لإدانته بمخالفة المنطق واتباع الغرور.

ويبدو أن غوريفيتش في مفاوضاتها مع تولستوي، لم تخجل من استثمار سحرها الأنثوي. وهذا ما جعل صوفيا أندريفنا تخرج نهائياً عن طورها. إن تشرتكوف وبريوكوف وكتب «الوسيط» ذات الأسعار الرخيصة، التي لا يمكن جني الأرباح منها، شيء. لكن «المتآمرة، نصف اليهودية غوريفيتش التي كانت تتوسل، باستمرار بطريقة ذكية من الإطراء، شيئاً ما لمجلتها»، شيء آخر تماماً. إن يوميات صوفيا أندريفنا في بداية عام 1895 تكاد تنفجر من الغضب. وهي تدرك خلال ذلك أن زوجها كتب «قصة رائعة». من حيث

الذوق الأدبي، كانت زوجة تولستوي تتمتع بذائقة أدبية رفيعة. وتقييماتها لإبداع ليف نيقولايفتش، المنتشرة في رسائلها ويومياتها، دقيقة كلها تقريباً. أما هذه «القصة الرائعة» فتهرب من بين يديها، وكانت صوفيا أندريفنا في تلك الأثناء بالذات تريد إعادة طبع المجلد الثالث عشر من المؤلفات الكاملة، وأرادت أن تدرج فيه القصة الطويلة «السيد والعامل». «إن ليف نيقولايفتش لا يأخذ نقوداً الآن مقابل مؤلفاته. لو أنه نشرها في كتاب رخيص عن دار نشر «الوسيط – بوسريدنيك» كي تتاح الفرصة للجمهور كله للقراءة، لتعاطفت مع هذا وفهمته. غير أنه لم يسمح لي بنشرها في المجلد الثالث عشر كي أحصل على شيء من المال؛ فلماذا أعطاها لغوريفيتش؟ إن الغضب يسيطر عليّ، وأبحث عن طرق للتصرف بعدالة تجاه الجمهور وليس لمصلحة غوريفيتش، ولكن، للنكاية، لا أجد ذلك».

لقد امتزجت عندها غيرة الناشر بالغيرة العادية للمرأة والانزعاج من أن زوجها لا يريد أن يتنازل لها عن أي شيء.

لكن تولستوي كان قد وضع لنفسه قاعدة بأن أسرته لن تستفيد من مؤلفاته الجديدة. وهكذا، فمن ناحية – عناد الرجل، ومن ناحية أخرى عدم الرغبة بالمصالحة دفعا بتولستوي في 21 شباط، فبراير عام 1895 إلى أن يعلن مرة أخرى في موسكو عن قراره بمغادرة المنزل إلى الأبد. وإذا ما حكمنا من خلال مذكرات صوفيا أندريفنا، فإن السبب الأخير للنزاع كان غوريفيتش بالذات. «كان ليفوشكا غاضباً جداً، لدرجة أنه صعد إلى الأعلى، وارتدى ثيابه وقال، إنه سيغادر البيت بشكل نهائي ولن يعود».

غريب ولافت للاهتمام رد فعل صوفيا أندريفنا على ذلك. «خطر في رأسي فجأة أن هذا ذريعة فقط، وأن ليفوشكا يريد أن يتركني لسبب آخر أهم. وجاءت فكرة المرأة بادئ ذي بدء». كانت تمزقها الغيرة والغيرة ثم الغيرة. وأي رد فعل لحظي فوري! «لقد فقدت كل سلطة على نفسي، وكي لا أدعه يسبقني ويتركني أولاً، خرجت أنا بنفسي ركضاً إلى الشارع، وركضت إلى الجادة. وهو يتبعني. أنا في الروب دي شامبر. وهو بالبنطلون، بدون بلوزة، مع السترة. طلب مني العودة، وكانت لدي فكرة واحدة – أن أموت بطريقة أو بأخرى. بكيت وأذكر أنني صرخت: ليأخذوني إلى الشرطة، إلى مستشفى

المجانين. جرّني ليفوشكا، وأنا وقعت في الثلج، كانت ساقاي عاريتين في الحذاء وحده، قميص النوم وحده تحت الروب دي شامبر.

في هذه الفترة كان فانشكا يتقلب في الحمّى، فلم يبق من حياة ابنهما سوى يومين.

بعد بضع سنوات تصف صوفيا أندريفنا موت ابنها الأصغر في مذكراتها «حياتي» وهذا الفصل بعنوان «موت فانشكا» سيصبح، على الأغلب، أفضل مؤلفاتها. فهذه القصة – وهي عبارة عن سيرة ذاتية، تعادل مؤلفات زوجها الأخرى. إن وصف جنازة فانشكا، الذي رقد إلى جانب قبر شقيقه أليوشا، يذهل تولستوي بلوحته المدهشة. وهذه اللوحة تتألف من عدة مقاطع، كل مقطع يضيف لوناً جديداً على وصف العالم الداخلي لزوجها، الفيلسوف، والداعية الديني، الذي اصطدم فجأة بسؤال لم يحل: كيف يجب أن ينظر إلى موت ابنه الحبيب؟ وكيف يمكن تفسيره في تلك الأفق الكونية الخارقة، حيث حلقت روح تولستوي وفكره؟ وكيف يدفن جسد الصبي لو لم تقم الزوجة بدفنه على الطقوس الأرثوذكسية التي ينكرها تولستوي؟

«لقد قمنا بدفن فانشكا. إنه حدث رهيب – لا، ليس رهيباً، بل حدث روحي عظيم. أشكرك يا إلهي. أشكرك». بعد أسبوعين تأمّل تولستوي موت فانشكا وأدركه على أنه حدث «سعيد»، «رحيم»، «حدث كشف زيف الحياة الذي يقترب منه». وفي الوقت نفسه، يكتب تولستوي عن زوجته: «إن صونيا مع ذلك تتألم ولا يمكنها أن ترقى الذروة الدينية... والسبب هو أنها غرست في حبها الحيواني لابنها جميع قواها الروحية: وضعت روحها في الطفل، راغبة بالمحافظة عليه. وتمنت أن تحافظ على حياتها مع الطفل، لا أن تضحي بحياتها لأجل الطفل، بل من أجل السلام، والإله».

لقد كانت هذه كلمات قاسية.

بطريقة أو بأخرى، لكن الأعوام التسعينيات من القرن التاسع عشر لا تظهر لنا أي نوع من الفتور بين الزوجين. بل على العكس. فقد كانت فترة حامية جداً.

لم يكن تولستوي ذلك «الهندي» الشَرْطي، القادر على الانفصال عن

العالم والخروج إلى الغابة. لقد كان رجلاً روسياً معقداً، قوياً وضعيفاً، عنيداً وعاطفياً، حكيماً وغيوراً، ناعماً لطيفاً وأحياناً قاسياً بما يصعب تفسيره.

أما ما يتعلق بصوفيا أندريفنا - فإن حالتها العقلية والنفسية في السنوات التسعينيات تميزها، من وجهة نظر غير متوقعة، قصتها الطويلة المماثلة لـ «*سوناتة كروتز*»، والمعنونة بـ «من المخطئ؟» (1892-1893).

كُتب على صفحة عنوان المخطوطة: «من هو المخطئ؟ بخصوص «سوناتة كروتز» لليف تولستوي. بقلم زوجة ليف تولستوي». من هذا العنوان يشعر القارئ بوجود شيء من المراجعة. إن ذكر اسم تولستوي مرتين، أولاً - ككاتب، ومن ثم كزوج - يدل على أن صوفيا أندريفنا كانت تنظر إلى هذه القصة الطويلة برؤيتين مختلفتين، ككاتب - مجادل وكزوجة تولستوي التي تريد أن تثبت شيئاً ما لزوجها. نُشرت «من هو المخطئ؟» لأول مرة بعد أكثر من مرور مئة عام على كتابتها، في عام 1991 في مجلة «أكتوبر». ولكن كانت هناك قراءات منزلية جهورية لمقاطع من القصة.

من وجهة النظر الأدبية قصة «من هو المخطئ؟» الطويلة ليست عملاً أدبياً ضعيفاً. لكن هناك أشياء كثيرة تدفع إلى الحيرة في هذه القصة. إن من يرى «سوناتة كروتز» تولستوي من منظور صوفيا أندريفنا، يعني أنه لم يرها قط. فهناك حيث نزل زوجها إلى اللجة، كانت زوجته تركض على حافة هذه اللجة وتصرخ: «أترون، لا ينحدر الجميع إلى الهاوية!»

الأكثر إثارة للاهتمام في القصة الطويلة «من هو المخطئ؟» ليس معناها الفلسفي ولا السيكولوجي، بل موقفها المفاجئ من زوجها وقصة زواجهما. لقد تبين أن «من هو المخطئ؟» ليست دحضاً لـ «سوناتة كروتز» بل لقصة حب كيتي وليفين في «آنّا كارينينا»، التي من المتعارف على أخذها بمنزلة النموذج الأصلي لقصة حب ليف نيقولايفتش وصوفيا أندريفنا. كما تُبيّن أن ما كان يراه تولستوي في ضوء معين، كانت زوجته تراه في ضوء آخر تماماً.

مضمون القصة، باختصار، كما يلي:

آنّا فتاة مثالية، أحبها، جسدياً، الأمير بروزورسكي، البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً. يعرض الأمير عليها الزواج ويتزوج من آنّا. لكنه

سرعان ما يدرك: أن ما رسمه له خياله الفاسد عن شهر العسل مع زوجته البالغة من العمر ثمانية عشر ربيعاً، يتحول عملياً إلى ملل وحالة مؤلمة للزوجة الشابة. إنه يهتم بالمزرعة، يولد أطفال عندهما. تلقت آنّا ضربة رهيبة عندما علمت أنه كان لدى الأمير قبل الزواج عشيقة – هي الفلّاحة آرينا. تمر عشر سنوات. يفد إلى الأمير صديقه القديم، دميتري ألكسييفيتش بيخميتيف. لقد عاد من الخارج، حيث تقيم زوجته، التي كان على خلاف معها. إنه إنسان مريض، منحرف الصحة، لكنه مرهف الحساسية، فيلسوف، وفنان وما شابه ذلك. تجذب طبيعة بيخميتيف اللطيفة آنّا وهو ينجذب إليها. يغار الأمير بشكل جنوني. في غضون ذلك كان بيخميتيف يعاني من السل الرئوي، وعندما نوى مغادرة الوطن دعا أصدقاءه من أجل توديعهم. تذهب آنّا لحفلة الوداع، ولكن من دون زوجها، الذي كان على خلاف مع زوجته ومع بيخميتيف. يرجو بيخميتيف آنّا بأن تصعد وتجلس في عربته ويتنقلان حول المزرعة، وهما يتحادثان بهدوء، لا أكثر. عندما تعود آنّا إلى البيت، يضربها الأمير الغاضب، الذي كان قد رسم في رأسه خلال هذا الوقت أقذر المشاهد، بكبّاسة الورق الثقيلة ويجرحها جرحاً مميتاً في صدغها. تخبر آنّا، وهي تفارق الحياة، الأمير ببراءتها الكاملة وتسامح القاتل.

ليس من الصعب تخمين النموذج الأصلي لبيخميتيف. إنه الصديق المقرب لعائلة تولستوي وجارها ليونيد دميتريفيتش أوروسوف، الذي سبق أن كتبنا عنه في حديثنا عن «التولستَويين» الأوائل. لقد كان رجلاً مهذباً، محترماً وذكياً، وكان يعشق تعاليم تولستوي، وأول من ترجم إلى اللغة الفرنسية أطروحته «ما هي عقيدتي؟» و«عرض موجز للإنجيل». وكان يميل إليه الجميع، زوجة تولستوي وجميع أبنائه، وحتى الخادمة. كانت زوجة أوروسوف تفضل العيش في باريس، وكان هو يسافر أحياناً إليها. توفي أوروسوف من مرض السل في عام 1885، في القرم، بحضور ابنه الصغير سيرغي وحده. وكان تولستوي بالذات هو الذي رافق صديقه الوحيد في القرم.

كانت صوفيا أندريفنا تحب أوروسوف حبا أفلاطونياً. وفي الوقت نفسه، أهدت قصتها الطويلة هذه للشاعر فيت، الذي توفي في العام نفسه

عندما بدأت بكتابة «من هو المخطئ؟». أما العلاقة بين صوفيا أندريفنا والشاعر فيت فهي قصة رومانسية خاصة، مليئة بالشعر والمشاعر المرهفة.

لا مجال للشك إطلاقاً بالأمانة الزوجية والإخلاص لزوجة تولستوي. لكن ما يثير الشكوك هو ذلك السخط والغضب والازدراء في وصف القصة للأمير بروزورسكي، الذي كان نموذجه الأولي الأصلي تولستوي نفسه.

ما إن رأى آنا، وكانت لا تزال فتاة صغيرة، بدأ الأمير يشعر نحوها بأقذر المشاعر: «... كان يخلع عنها ثيابها، ذهنياً في مخيلته، ويرى ساقيها النحيفتين الجميلتين، وكامل قوامها المرن القوي البتولي». ويقول في نفسه: «عليّ أن، نعم، لا يمكنني بشكل آخر، عليّ أن أمتلك هذه الطفلة». إن كل هذا لا يتناسب مع حب ليفين لكيتي الذي عرض فيه ليف نيقولايفتش نموذجه لقصة الزواج من صونيا.

كما يثير الارتباك والذهول وصف الأمير كمفكر. «لقد سافر كثيراً، وعاش حياة مرحة بهيجة في شبابه، وتعب من كل شيء، وانتقل إلى القرية، ليمارس الفلسفة متخيلاً نفسه مفكراً عميقاً. وهذه كانت نقطة ضعفه. كان يكتب مقالات، ويبدو لكثيرين أنه ذكي جداً. فقط الناس ذوو الإحساس المرهف والمطلعون كانوا يرون أن فلسفة الأمير، من حيث الجوهر، ضحلة جداً ومضحكة. كان يكتب وينشر في المجلات مقالات تخلو من الأصالة، وهي عبارة عن نسخ من المواضيع والأفكار القديمة والمبتذلة لعدد كامل من مفكري العصور القديمة والحديثة. وكان يقوم بهذا النقل والنسخ ببراعة فائقة، لدرجة أن غالبية الجمهور كانت تقرأها باهتمام وحماس، وهذا النجاح الصغير كان يرضي الأمير بلا حدود...»

إن مواصفات الأمير، أي تولستوي رهيبة عموماً. فبالنسبة لنظرته، فإنها بالتأكيد نظرة «وحشية»، وإذا ما نزل في فندق، ففي غرفة «قذرة».

وعلى العكس تماماً – جميع مواصفات آنا، أي المؤلفة، مبالغ فيها إلى أقصى الحدود. فهي ليست امرأة بل مادونّا – مريم العذراء. «أعلى المُثل في التدين والعفة»، «بما تتميز به من ذوق فني رتبت غرفتها بطريقة جميلة وأصيلة بالأشياء المختلفة التي جلبتها والتي أهداها إياها الأمير، حتى إن

الأمير ذُهل من مظهرها». «لقد نمت وتطورت من فتاة نحيفة صغيرة إلى امرأة جميلة، لافتة للنظر، نشيطة وممتلئة. هي دائماً مفعمة بالحيوية، محاطة بأربعة من الأبناء الأصحاء الرائعين...». «كما كانت رائعة في سخطها: وجهها الشاحب المستقيم كان يتنفس بكبرياء ونقاء، أما عيناها الداكنتان فتظهران أكثر قتامة وأشد عمقاً بتعبيرهما الأليم».

يعامل الأمير زوجته بـ «استهتار». عملياً، إنه يغتصبها جسدياً باستمرار، دون أن يولي أي اهتمام للجانب النفسي من شخصيتها. ولهذا هي تفكر: «أمن المعقول أن رسالتنا النسوية تكمن فقط في أن نخدم بجسدنا الطفل الرضيع لننتقل إلى خدمة الزوج بجسدنا؟ وهذا بالتناوب - دائماً! *وأين حياتي*؟ وأين أنا؟ أين أنا الحقيقية، التي يوماً ما، طمحت إلى شيء سام ما، إلى خدمة الله والمثل العليا؟»

وهنا يظهر بيخميتيف.

هنا الموضوع نفسه الذي طُرح في «سوناتة كروتز»، لكنه مطروح هنا من وجهة نظر امرأة. على أن لا ننسى أن «سوناتة كروتز» هي عبارة عن حوار ذاتي (مونولوغ) لرجل مريض جداً ومُدمّر للغاية، كما هو بوزدنيشيف. لكن كاتب القصة الطويلة هو تولستوي السليم والمعافى نفسياً وروحياً. مفارقة قصة «من هو المخطئ؟» يكمن في أنها مكتوبة بلغة سردية كلاسيكية بالذات، لكنها مع ذلك تحدث لدى القارئ شعوراً بالهذيان الرهيب.

نقطة ضعف آنّا الوحيدة هي الغيرة. وعلى الرغم من كل الكراهية التي تشعر بها من علاقتها بزوجها، فهي تخاف خوفاً رهيباً مغادرته الأسرة. ومن أجل تجنب هذه المغادرة، هي مستعدة للإقدام على كل شيء. «فقد قررت بكامل قواها التمسك بزوجها، والبحث عن تلك الطرق والوسائل التي يمكنها أن تجذبه من جديد إليها وأن تحتفظ به في الأسرة. وكانت هذه الوسائل تعرفها بصورة ضبابية، وهي كلها وسائل مقرفة بالنسبة لها، ولكن ما هو الأفضل؟»

إن غيرتها من الفلّاحة آرينا ومن جميع النساء اللواتي تواصل معهن الأمير قبل الزواج، تتخذ أحياناً طابعاً مازوشياً - مرَضياً، «وعندها تصبح

علاقتها بزوجها غير طبيعية على الإطلاق». «أحياناً، كانت محمرّة مضطربة، قلقة، وتطالب زوجها بأن يروي لها قصصاً عن هواياته السابقة». «كانت آنًا تتذكر كل ما كانت تفعله، كي تحتفظ بزوجها، وأصبحت تشعر بالتقزز والاشمئزاز من نفسها».

هذا يعني أن مؤلفة القصة الطويلة كانت تدرك أن سبب العلاقات غير الطبيعية في البيت لا ينحصر فقط في الأمير؟ إن ظهور بيخميتيف والصداقة معه مهمان لآنًا لأن بيخميتيف يعد بمنزلة كائن لا جنسي. فهي لا تثير غريزته الجنسية «الوحشية»، التي قضى عليها المرض، وهو لا يثير فيها آلام الغيرة ولا يرغمها على الجنون. بيخميتيف مريض، ولم يبق له من العيش إلا القليل. إن بيخميتيف *رجل* ميت، لكنه بالمقابل *صديق* حي.

إن قصة «من هو المخطئ؟» تعد وثيقة قيمة لفهم مأساة زوجة تولستوي الحقيقية، وليس الأدبية الملفقة. وقد كُتبت هذه القصة الطويلة بمنزلة انتقام أدبي. لقد حاولت «قلب» قصة «سوناتة كروتز» من وجهها الأصلي (القاتم) إلى وجهها الآخر (المشرق). هذه القصة الطويلة مشبعة بالحشمة والأخلاق، خلافاً لقصة زوجها الرهيبة، الفاتنة، والمدمرة من حيث قوة تأثيرها. لقد أرادت أن تكتب قصة عن المرأة المثالية التي وجدت نفسها تحت سلطة رجل – شيطان، ثم وجدت الراحة لنفسها في الصداقة مع رجل – ملاك، وقتَلها زوجها بـ «وحشية». لكنها في المحصلة، كتبت قصة طويلة لا يتضح منها: من هو، كان المخطئ فعلاً؟ وهل كان هناك خطأ ارتكبه شخص ما؟



الفصل الثامن

المعبود الجميل

إذا ما كان قبل زيارة أوبتينا والوصول إلى شاموردينو من الممكن الحديث عن مغادرة تولستوي، قاصدين بهذا المفهوم التغيير الهادف للمكان، فإنه بعد السفر من شاموردينو لا يمكن الحديث عن أية مغادرة. لقد أصبحت هروباً حصراً. حتى ابنة تولستوي الصغرى ساشا، التي كانت تؤيد أباها بشكل كامل، وبقيت معه في القطار حتى روستوف، خافت خوفاً حقيقياً فجأة، وشعرت بأن ما يحدث شيء غريب! لقد ارتكب (أو ارتكبوا) خطيئة ما، كان من غير الممكن عدم ارتكابها، لكنها مع ذلك تبقى خطيئة.

ولأول مرة، رأت ساشا بوضوح أن من هرب من منزله، ليس كاتباً عظيماً، مدفوعاً، كما كان يبدو لها، من زوجة سيئة ماكرة هستيرية، وهي أمها التي كانت تدينها، بل عجوز في الثانية والثمانين من عمره، مريض، ضعيف، ويحتاج إلى مساعدة دائمة من جانب زوجته السيئة تلك.

إن مأساة أستابوفو لم تبدأ في أستابوفو، بل في القطار المنطلق من كوزيلسك. وقد كتبت آ. ل. تولستايا: «في الساعة الرابعة، ناداني أبي، كان يرتجف. غطّيته ليشعر بدفء أكثر، ووضعت ميزان الحرارة – حرارته مرتفعة. وفجأة شعرت بضعف شديد، واضطررت إلى الجلوس. كنت على وشك اليأس الكامل. فالمقصورة خانقة في عربة الدرجة الثانية التي تعج بالمدخنين، ومن حولنا أناس غرباء، فضوليون، والقطار البارد، اللامبالي، يطرق برتابة، وينقلنا بعيداً وبعيداً إلى المجهول، وعجوز مريض ضعيف يئن بهدوء وقد دفن نفسه تحت الوسادة وتحت كومة من الملابس. كان من

الواجب خلع ثيابه وتغييرها، وإضجاعه، وإعطائه مشروباً ساخناً. والقطار ينطلق أبعد وأبعد... إلى أين؟ أين الملجأ، أين بيتنا؟»

لقد كانت لحظة من الحقيقة المزعجة. فجأة ابتعدنا جانباً وانهارت المشاكل التي كانت تبدو بالأمس هي الأهم: يوميات تولستوي التي حاول دون جدوى إخفاءها عن زوجته؛ الوصية التي كتبها سراً في الغابة؛ العداوة بين صوفيا أندرييفنا وتشرتكوف؛ «الحياة الفاخرة» المزعومة التي كان الأب مضطراً لعيشها في ياسنايا بوليانا. وبقي على جدول الأعمال سؤال واحد، وحيد: ماذا تفعل شابة غير متزوجة في السادسة والعشرين من عمرها مع صديقتها من نفس العمر (باربارا فيوكريتوفا) وطبيب، وليكن ليس الأفضل، لكنه الأكثر ولاء وإخلاصاً (ماكوفيتسكي) مع رجل مسن مريض يكاد يفارق الحياة في قطار المسافات البعيدة؟ الآن يجب «خلع ثيابه وتغييرها، وإضجاعه، وإعطاؤه مشروباً ساخناً...» لكن هذه البداية فقط. بعد بضع ليال تعترف ساشا في مفكرتها لنفسها: «(آه، يا له من إحراج). كنت أساعد في <...>» في الواقع، ليس مهماً ما إذا كانت تساعد مجلس الأطباء الذي اجتمع حول تولستوي. المهم، أن الفتاة التي تربّت في أسرة أرستقراطية، كانت مضطرة لأن تفعل مع أبيها ما كان يجب أن تفعله زوجته فقط، أمها. وكان هذا محرجاً جداً لها...

بعد بيلوف، بقي وحده في المقصورة، وشعر ليف نيقولايفتش لفترة من الوقت أنه في وضع حسن. ومع ذلك، وحسب شهادة ماكوفيتسكي، لم ينهض من الأريكة تقريباً: فكان إما أن يستلقي وإما أن يجلس. الطبيب، وساشا وفيوكريتوفا كانوا يدخلون إليه (كانوا يركبون في المقصورة المجاورة) ويشاهدون أن كل شيء لدى الرجل المسن على ما يرام.

كان ليف نيقولايفتش سعيداً لأنه كانت توجد بين يديه مجموعة «حلقة القراءة» التي وضعها بنفسه، والتي أخذها على سبيل «الاستعارة» من أخته في شاموردينو، ومختارات نوفوسيلوف عن الدين التي «سرقها» أيضاً من مكتبة شقيقته – وماذا كان يلزمه أيضاً؟

إن قاطرات الدرجة الثانية – مريحة: مقصوراتها مفروشة بأرائك

وطاولات يمكن عند الضرورة غلي القهوة عليها بالمصباح الكحولي، دون طلب الشاي من قاطع التذاكر (اعتاد ليف نيقولايفتش على شرب القهوة بدون الكافيئين وليس الشاي)، ويمكن حتى تحضير عصيدة الشوفان وحساء مع الكعك، وهذا ما فعلته ساشا بعد صعودهم إلى القاطرة في كوزيلسك. وقد شرب الرجل المسن كل هذا، حتى إنه أكل بيضتين مسلوقتين طريتين إضافة إلى ذلك.

مع ذلك، كانت هناك أذيّة واحدة. أثناء صعوده إلى عربة القطار، جرح ليف نيقولايفتش إصبع يده. كانت هذه مسألة شائعة. فمؤلف «آنا كارينينا» كانت علاقته بالسكك الحديدية دوماً غير موفقة: فتارة في رحلته الطويلة ينسى محفظة النقود في بوفية المحطة، وتارة يقرص إصبعه في خزانة القاطرة... ومع ذلك فهذه الحالة (جرح الإصبع) دلت على أنه أثناء الصعود إلى القاطرة، كان ليف نيقولايفتش مسرعاً، عصبياً. ربما التهاب القصبات الذي بدأ عنده، كان لا يؤثر على جسمه فحسب بل على دماغه أيضاً: وليس من قبيل الصدفة أن ماكوفيتسكي طيلة الطريق من ياسنايا بوليانا، كان يلاحظ على تولستوي شيئاً ما غير طبيعي: فهو يتمايل تارة، ويسيطر عليه سبات مفاجئ، وتثاؤب (متكرر وبصوت عال، بحيث كان يسمع من خلف الحائط في الفندق)، وتارة يكاد يصرخ على ماكوفيتسكي عندما يحاول لفه وتغطيته كي يشعر بالدفء في العربة المتحركة، أو لا يسمح لساشا بإغلاق النافذة الصغيرة في غرفة الفندق، التي يدخل منها هواء بارد، أو غير ذلك... عند نزوله على العارضة المؤدية إلى رواق المحطة، تعثر على الدرجة الأولى من الدرج الحجري. فتعثر، وترنح.

في الخامسة مساء، وبعد أن قطعوا غورباتشوفو، ولكن قبل الوصول إلى دانكوف، سيطر على ليف نيقولايفتش النعاس – وهو علامة أكيدة على المرض. بدأ يرتجف، وطلب تغطيته كي يشعر بالدفء. اقشعر ظهره من البرد. ولكن لم يكن هناك ألم في الصدر، ولا سعال، ولا اختناق. قاس ماكوفيتسكي درجة حرارته فكانت: 38,1. وفي الساعة السادسة: 38,5. وغدت ضربات القلب غير منتظمة. وأصبح واضحاً أن القوقاز تم إلغاؤه.

من المستحيل تصور مزاج رفاق سفر ليف نيقولايفتش في هذه اللحظة.

فمشروعهم بالكامل، وإن كان على عجل، وإن كان متسرعاً، فهو «مشروع»، وهو أفق ما، ومستقبل ما - كله انهار أمام أعينهم. واتضح أن كل ما فعلوه، هو أنهم نقلوا الأب، العجوز، ولا يعرفون إلى أين، وتحت الضربات القاسية لعجلات قطار المسافات الطويلة، عليهم أن يتصرفوا، ويفعلوا شيئاً له.

مما لا شك فيه أن ماكوفيتسكي في هذا الوقت تذكر أكثر من مرة فندق كوزيلسك، الذي أرادوا التوقف فيه، والذي تجاوزوه لأن الحوذي أخذ يؤكد لهم أنهم سيلحقون ركوب القطار. كم من المرات أثناء مغادرة تولستوي كان اتجاه سيره، بل حتى قراراته المصيرية تتوقف على الحوذيين، وعلى قاطعي التذاكر، وعلى مديري المحطات. وحتى في التأكيد الخاطئ للراهب بأن المرشد الروحي لن يقابل تولستوي فقط، لأن الراهب لم يستطع اللحاق بالحوذي - لقد بدا هذا السياق رمزياً.

لأن ساشا تركت حوذييها ينامون في شاموردينو، ظهر لدى تولستوي إغراء الهرب في الصباح الباكر. وبسبب تباطؤ الحوذيين تأخروا على أحد القطارات، وكاد يفقد أحدهم الآخر في الطريق، ولكن وبسبب سرعة الحوذي لحق ليف نيقولايفتش وماكوفيتسكي الركوب في القطار، الذي كان من الأفضل التأخر عليه والنزول في فندق كوزيلسك.

إلى من سيتوجه ماكوفيتسكي، بعد أن أدرك أن تولستوي لن يتمكن من السفر أبعد من ذلك؟ إلى قاطعي التذاكر، بالطبع. ذهب إليهم طلباً للماء الساخن وسألهم: متى ستكون أقرب مدينة فيها فندق؟

نصحوه بالبقاء حتى كوزلوف.

كان خط سير القطار كما يلي: كوزيلسك - بيلوف - غورباتشوفو - فولوفو - دانكوف - أستابوفو - رانينبورغ - بوغويافلينسك - كوزلوف - غريازي - غرافسكايا - فورونيج - ليسكي - ميليروفو - نفوتشركاسك - روستوك.

يبدو من خلال أقوال قاطعي التذاكر، ذوي الخبرة الذين نصحوا الطبيب بالسفر حتى كوزلوف، أنه لا دانكوف، ولا أستابوفو، ولا رانينبورغ، بوغويافلينسك لم تكن مراكز سكانية كبيرة، حيث يمكن العثور على فندق جيد، وتوفير الرعاية المناسبة للمرضى.

ولكن يبدو من خلال أنهم نزلوا رغم ذلك في أستابوفو في الساعة 6,55 مساءً، لأن ماكوفيتسكي، باعتباره طبيباً، كان مذعوراً، واتخذ قراراً بالنزول من القطار في أول محطة كبيرة. دانكوف لم تكن مثل هذه المحطة. كانت هناك محطة أستابوفو فقط. رغم عدم وجود فندق فيها.

إلى من هرع ماكوفيتسكي ما إن نزل إلى رصيف محطة أستابوفو؟ إلى رئيس المحطة، بالطبع. «أسرعت إلى رئيس المحطة، الذي كان على الرصيف، وقلت له إن ليف نيقولايفتش تولستوي راكب في هذه القطار، وقد مرض. وهو بحاجة إلى هدوء واستلقاء في الفراش، ورجوت أن يستقبله عنده في بيته... وسألته أية شقة عنده».

تراجع مدير المحطة إيفان إيفانوفيتش أوزولين، مذهولاً، بضع خطوات، عن هذا السيد الغريب، ذي الوجه الشاحب، المصفرّ، الذي يتحدث بوضوح بلكنة غير روسية، والذي كان يقنعه أن ليف تولستوي وصل إلى محطته(!)، وأنه مريض(!)، ويريد النزول في شقته(!). بدا هذا كأنه هراء كامل. وكان هراءً بالفعل، إذا ما نظرنا إلى الأشياء نظرة عقلانية. من الذي أنقذ ماكوفيتسكي؟ ثانية، قاطع التذاكر الذي وقف إلى جانبه وأكد لأوزولين كلمات الطبيب.

أوزولين لاتفي، من حيث الأصل، ولوثري إنجيلي من حيث العقيدة، مثل زوجته، الألمانية من ساراتوف، تبين أنه معجب بتولستوي، ومؤمن بشدة بدعوته «افعل الخير» في كل شيء. وافق بسرعة على استقبال المريض، وأخّر تحرّك القطار، من أجل السماح لتولستوي بجمع حوائجه بهدوء والنزول من القطار. لكنه بالطبع، لم يستطع فوراً مغادرة مركز عمله (في هذه الفترة كان يصل ويغادر المحطة – العقدة عدة قطارات): في البداية، اضطر إلى نقل تولستوي إلى قاعة الانتظار النسائية، قاعة نظيفة وخالية من المدخنين. وقد انتعش قليلاً ليف نيقولايفتش. كان يمشي بنفسه على رصيف المحطة، متكئاً قليلاً على يد ماكوفيتسكي، رافعاً قبة المعطف. أصبح الجو أكثر برودة، هبت رياح شديدة. ولكن في القاعة النسائية جلس تولستوي على حافة أريكة ضيقة، شد رقبته في الياقة، ووضع يديه في الكُمّيْن، مثل الفروة، وأخذ يغفو ويميل على الجنب. عرض ماكوفيتسكي على تولستوي وسادة، لكن الرجل العجوز رفضها بعناد.

كان فقط يتكوّر على نفسه من البرد في معطف الفرو وأخذ يئنّ، لكنه لم يرغب بالاستلقاء. فالاستلقاء كان يعني لتولستوي في تلك اللحظة أنه لن ينهض أبداً. وصبر، وربط جأشه. وسوف يربط جأشه ويشد قواه قرابة أسبوع آخر، ولكن في وضع المستلقي، في غرفة منزل أوزولين، معانياً آلام الموت، لكنه مثبتاً للجميع ولنفسه بادئ ذي بدء، أن الانتقال إلى الموت هو القضية الأكثر قيمة، القضية المهيبة. وأي هيبة وسمو أعلى من الولادة اللاشعورية والحياة شبه الشعورية. إن هذا وقت التجلي الأعلى للعقل الشخصي والحكمة المكتسبة. إنها لحظة الحياة الأعلى.

السيد والعامل

في حديثنا عن النزاعات العائلية في الأعوام التسعينيات، نسينا الحديث عن إحدى الشخصيات الرئيسة – وهي فلاديمير غريغوريفيتش تشرتكوف. فقد كان دوره كبيراً في هذه النزاعات.

ثمة أشياء يستحيل إثباتها. ويمكن فهمها فقط على المستوى السيكولوجي. ولنتساءل، مثلاً، لماذا صديقة تولستوي وزوجته، التي كانت تنظر نظرة ودية إلى الجزء الذكوري من المحيطين بزوجها، حتى إنها كانت تحب بعض أصدقائه حباً أفلاطونياً (الشاعر فيت، أوروسوف) كانت تكره تشرتكوف إلى هذه الدرجة؟

لو أنها منذ البداية، كانت تعاني من الرهاب من جميع من حاول مشاركتها حياة تولستوي الروحية والنفسية، فإنه كان يجب أن يشعر بغيرتها وكراهيتها فيت وستراخوف، ودياكوف، وأوروسوف، وكذلك غوسيف، بولغاكوف، بريوكوف وغيرهم. لكن هذا لم يحدث.

إن منزلي آل تولستوي في ياسنايا بوليانا وفي خاموفنيكي كانا مكانين دافئين، مفتوحين، مرحبين بالضيوف، وبلقاء الناس من جميع الأنواع. وتشرتكوف نفسه، في بداية صداقته مع تولستوي، شعر بنفسه بروح الضيافة، بما في ذلك من جانب ربة البيت. وحتى في وقت لاحق، عندما كانت صوفيا أندرييفنا قد بدأت صراعها مع ف. غ. تشرتكوف، قدمت غير مرة علامات

الاهتمام الودية بأسرته. فقد كانت تراسل زوجته غالا (آنا كونستانتينوفنا)، وتتواصل مع أمه يليزافيتا إيفانوفنا. كما كانت تساعد زوجته غالا بنصائح ثمينة في المجال النسائي، وبحثت لها عن مربية للطفلة. وعبرت عن تعاطفها مع والدة تشرتكوف أثناء انفصالها عن ابنها الذي استمر عشر سنوات من عام 1897 إلى عام 1907. حتى إنها أحضرت شخصياً الطبيب لتشرتكوف من تولا عندما كان يعاني من مرض الملاريا.

كان تشرتكوف يؤكد باستمرار لتولستوي أنه ليس لديه أي اعتراض على زوجته. لكن طرح هذا السؤال بحد ذاته (أنه ليس لديه أي اعتراض على زوجة تولستوي) كان بالنسبة لأصدقاء الكاتب الآخرين غير ممكن على الإطلاق. فهم جميعاً كانوا يدركون المكانة التي تشغلها صوفيا أندرييفنا إلى جانب ليف نيقولايفتش. لكن تشرتكوف كان يدرك هذا أيضاً. فالمسألة كانت تكمن في أن تشرتكوف لم يدرك ذلك فحسب، بل كان يسعى لشغل هذه المكانة.

برأينا، هنا كانت نقطة الخلاف الرئيسة بين صوفيا أندرييفنا وف. غ. تشرتكوف الذي اختتم بنزاع شديد للغاية. كان الصراع لا يدور على حجم الفضاء الروحي بالقرب من ليف نيقولايفتش (فهذا الفضاء كان بلا حدود، وكان كافياً للجميع) بل تحديداً على *المكانة بالقرب* من تولستوي، التي لم يستطع تقاسمها صوفيا أندرييفنا وف. غ. تشرتكوف، اللذان يتمتعان بشخصيتين مستبدتين.

وهكذا، تم تعارف تولستوي بتشرتكوف في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1883. بعد ذلك، سافر ف. غ. تشرتكوف إلى ليزينوفكا، ضيعة والديه في مقاطعة فورونيج، وبدأ يرسل على الفور إلى تولستوي الرسائل، والكتب، والملخصات، بل حتى اليوميات. ويبدو أن الذريعة قد قدمها تولستوي نفسه، الذي اعتبر تشرتكوف إنساناً «أحادي المركز» معه. والمقصود هنا، بالطبع، المركز الروحي.

في رسائل تشرتكوف إلى ليف نيقولايفتش تتردد كثيراً كلمتا «أخ»، «شقيق»، أكثر مما تتردد في الردود عليها. فتشرتكوف، بالنسبة لتولستوي،

هو بادئ ذي بدء «الصديق العزيز». أما تولستوي، بالنسبة لتشرتكوف، فهو أخ ومعلم.

لقد ظهر تشرتكوف عند تولستوي في الفترة التي لم يكن لديه أصدقاء تقريباً. عندما كانت تنظر أسرته إليه، بآرائه الجديدة، كتهديد للعائلة. أما تشرتكوف فقد وضع نفسه كلها تحت أقدام تولستوي.

على أية حال، اندلعت المجادلات بين ليف نيقولايفتش وف. غ. تشرتكوف منذ البداية. فالشاب تشرتكوف لم يكن صفحة بيضاء. لقد كان رجلاً ذا قناعات خاصة، وفي بداية الثمانينيات من القرن التاسع عشر، كانت تختلف كثيراً عن قناعات تولستوي. على سبيل المثال، كان جدالهما رائعاً حول ألوهية يسوع المسيح والقيامة اللتين كان تشرتكوف لا يزال يؤمن بهما في تلك الفترة بتأثير أمه وباشكوف. وكان رد تولستوي عظيماً، رائعاً حقاً. فهو لم يحاول تدمير إيمان تشرتكوف، بل كتب فقط أنه يشعر بغرابة أي نوع من أنواع التصوف. وأن التصوف هو فضول خامل.

«كم من الأمور المباشرة، العاجلة، والمتواترة كل دقيقة، وذات الأهمية الكبيرة لتلميذ المسيح، بحيث إنه لا يجد الوقت الكافي لتنفيذ ذلك. باعتباره عاملاً جيداً، هو لا يعرف على الأغلب جميع تفاصيل حياة السيد؛ العامل الكسول وحده يعرف، متى ينظف أسنانه في المطبخ، ويكتشف كم ولداً عند السيد، وماذا يأكل، وماذا يلبس. وقد شوّه كل شيء بالطبع، لكنه عرف ولم ينجز العمل. المهم أن يتعرف عليه سيده، وأن يعرف ما الذي يريده مني؛ أما ما هو بنفسه وكيف يعيش، فلن أعرف أبداً، لأنني لست مماثلاً له، أنا عامل، ولست سيداً».

هذا الموضوع «السيد والعامل» سيطوّره تولستوي بعد عشر سنين في قصة طويلة بالاسم نفسه. وبحلول هذا الوقت، تخلّى تشرتكوف نهائياً عن ألوهية المسيح، وعن القيامة وعن التكفير. لكنه بالمقابل، سوف يعتبر نفسه بالنسبة لتولستوي كـ «عامل» بالنسبة لـ «السيد». وسيصبح هذا الدافع الرئيس لتأنيبه لصوفيا أندرييفنا: كيف هي تجرؤ على اعتبار نفسها إلى جانب تولستوي أكبر من «عاملة»! كون هذه «العاملة» هي زوجته،

ورفيقة ليله، وأم أولاده العديدين، لم يقنع ف. غ. تشرتكوف بالاعتراف بمكانتها الخاصة.

لكن، على ما يبدو، كان هذا الوضع يناسب تولستوي. فهو لم يحاول مرة واحدة شد تشرتكوف «من أُذُنه» وحماية زوجته. كان يمكنه فقط أن يشرح لـ ف. غ. تشرتكوف: لماذا في هذه الحالة أو تلك، لم يتصرف بحزم كاف تجاه زوجته وأفراد أسرته – في التخلي عن الملكية، وعن الحقوق الأدبية، وفي نقل يومياته إلى ف. غ. تشرتكوف وما شابه ذلك.

نحن هنا نتعامل مع مفارقة مذهلة. مع اعترافه لنفسه بحق «العامل» بالقرب من تولستوي، أضفى تشرتكوف على نفسه حق *مطالبة* تولستوي بسلوك «السيد». حق المطالبة بالذات! لكن «السيد» في هذه الحالة ليس مالكاً بل إلهاً. والله ليس ولا يمكن أن تكون عنده زوجة. ولهذا، فمع تعاطفه الكبير مع وحدة تولستوي في الأسرة، لكن تشرتكوف لم يستطع فهم الأفراح الأسرية لليف نيقولايفتش.

بالطبع، لم يكن كل شيء واضحاً بهذا الشكل كالمسطرة. فقد تصادق تشرتكوف بعض الوقت مع ليف لفوفيتش، وكان يتعاطف مع تاتيانا لفوفنا وماريا لفوفنا، كما كان في علاقات جيدة مع سيرغي لفوفيتش، وحتى مع صوفيا أندريفنا نفسها لم يدخل في نزاع على الفور. وثمة رسالة رائعة لتشرتكوف أرسلها إلى تولستوي، حيث ينصحه بحكمة بأن لا «يضغط» على الأولاد بنفوذه وسلطته.

ولكن، عموماً، كان مسار سلوك ف. غ. تشرتكوف تجاه هذه الأسرة ثابتاً، لا يعرف الرحمة. تولستوي عظيم. تولستوي – «سيد»، وكل من هم إلى جانبه «عاملون». تولستوي نفسه لم يكن له هذا الرأي، لكنه لم يحاول تغيير رأي تشرتكوف.

في حين أن مكانته في منظومة الإحداثيات هذه ضخمة ومبالغ فيها للغاية. فأفضل «عامل» بالقرب من تولستوي كان بالطبع، تشرتكوف.

يؤسس تشرتكوف لتولستوي دار نشر «الوسيط – بوسريدنيك» الشعبية. وينشر حملة ضخمة لترجمة ونشر أعمال ليف نيقولايفتش في الخارج.

ومنذ أواخر التسعينيات من القرن التاسع عشر، وأثناء وجوده في الغربة بإنكلترا، يؤسس تشرتكوف شبكة كاملة من مشاريع الصحف والمجلات الأجنبية، المكرسة كلها تقريباً لتولستوي. وأخيراً، يقترح على تولستوي خدمات للحفاظ على إرثه الفكري وتنظيمه. لقد كان تشرتكوف أول من حدس وأدرك أن مخطوطات تولستوي يمكن أن تحترق، وبلهب أزرق، إن لم يهتم أحد ما بالحفاظ عليها ويعتني بسلامتها. ولعل نشاط صوفيا أندريفنا نفسها في الحفاظ على إرث زوجها في متحف روميانتسيف أولاً، ومن ثم في المتحف التاريخي، قد أملاه بالطبع، إلى حد كبير، الشعور بالتنافس مع ف. غ. تشرتكوف.

وحتى في كانون الأول/ ديسمبر عام 1883 كان يمكن لزوجته أن تسمح لنفسها بأن تكتب باستياء لأختها، بخصوص الخمسين نسخة من أطروحة تولستوي «ما هي عقيدتي؟»: «بدلاً من حرق الكتاب المحظور، الذي لم تسمح به الرقابة، حسب *القانون*، فقد أخذوا جميع نسخه الخمسين إلى بطرسبورغ، ويقرؤونه في أعلى الأوساط *مجاناً*. أنا أقول، لو دفعوا لنا على الأقل 400 روبل لقاء الطباعة، فهم أناس أثرياء».

أما تشرتكوف فيصرف أمواله من أجل أن يشتري في الخارج هيكتوغراف (جهاز نسخ) والبدء بنشاط خطير في نسخ مؤلفات ليف نيقولايفتش المحظورة في حوزته بفورونيج.

تبذل صوفيا أندريفنا كل جهودها وأقصى طاقتها، كي تبيع مؤلفات زوجها بربح أكبر، بما في ذلك قصته التي تكرهها «سوناتة كروتز». أما تشرتكوف فيذهب إلى الناشر سيتين، ويرتب إصدار كتب رخيصة الثمن عن دار نشر «الوسيط – بوسريدنيك»، ويبحث عن رعاة، لإنشاء دار نشر خاصة بتولستوي في الخارج، وكل ما يحصل عليه من أموال ينفقه ويصرفه على التطوير اللاحق لنشر مؤلفات تولستوي. وبالطبع، تغدو صورته كـ«عامل» أكثر جاذبية بما لا يقارن من صورة صوفيا أندريفنا، المهتمة دوماً بالجانب المادي من حياة الأسرة.

هذه عوامل موضوعية، ولكن كانت هناك أيضا عوامل ذاتية. صوفيا

أندريفنا جِلفة، فظة ومباشرة مع زوجها، الذي أخذ يتميز مع التقدم بالسن باللطافة الزائدة. إنها تلاحقه بنوبات غضبها وهوسها بالانتحار وبكل ما يتحمله تولستوي نفسياً ببالغ الصعوبة. أما تشرتكوف فهو دمث، ناعم، مستعطف، متساهل. إنه يوافق تولستوي على كل شيء تقريباً، وعلاوة على ذلك – يتوق إلى نصائحه وتعاليمه. حتى إنه لم يتزوج إلا بعد مواعظ عديدة من معلمه. زوجته غالا تحب تولستوي حباً جماً. إنها مريضة دوماً، لكن الحياة تنبعث فيها، بكل معنى الكلمة، عندما يظهر تولستوي في بيتهم. ويؤثر فيها تولستوي بصورة فريدة، مثل حكيم – معالج. أما في أسرته، فقد أصبح تولستوي أحد الأسباب الرئيسة لاكتئاب نجله ليف.

في الفصل السابق، أظهرنا كيف أن صوفيا أندريفنا، على الرغم من وجودها إلى جانب رجل قوي، كانت تحتاج، رغم ذلك، إلى صديق روحي، ولكن «بلا جنس». وقد اتضح أن ليف نيقولايفتش لم يكن أقل حاجة إلى «زوجة روحية». ولم يكن الحديث يدور هنا حتى عن «العاملة». كان الحديث يدور عن معزّية، مواسية يمكنها أن تشعر برهافة مقدار عزلته ووحدته. ولكن لم يكن باستطاعة امرأة أخرى أن تشغل هذا المكان. فمن خصوصية علاقة ليف نيقولايفتش بالنساء (الزوجة فقط، الأم فقط، وليس هناك أي تحرر!)، وبواقع وجود صوفيا أندريفنا بغيرتها.

كان تشرتكوف صالحاً كصديق لتولستوي، بكل المعايير. فقد كان نبيلاً من حيث المنشأ، لكنه تعلّم وتثقف بصورة عفوية تلقائية ومستقلة. ومثل تولستوي، لم يدرس تشرتكوف في الثانوية ولا في الجامعة. وكان روحياً، أي اعتبر المتطلبات الروحية أعلى من المادية. حتى إن شبابه مضى في مصلحته. فقد تميز تشرتكوف بصورة إيجابية عن أبناء ليف نيقولايفتش الشباب، الذين مع بلوغهم سن الشباب كانوا يغدون أقل رغبة في مشاركة المثل العليا لأبيهم، وعاشوا حياتهم المستقلة.

لكن تشرتكوف، على الرغم من تماسكه وروعته كلها، كان فيه شيء ما، مخنث غامض. كان زوجاً وأباً رائعاً. لكن الطريف في الأمر أن تقارير الشرطة تصفه على أنه رجل «جيد، طيب القلب، ضعيف الإرادة» رجل «منذ سنوات الطفولة تربى بين أيدي النساء». والمثير للاهتمام أن تولستوي يكتب

ملاحظة بعد وفاة والد تشرتكوف: «أمه سوف تسيّره كما تريد». ويضيف: «رهبيات هؤلاء النساء اللواتي قفزن من اللجام».

بالطبع، ثمة الكثير من المبالغة والتطرف في القول إن تشرتكوف أصبح «الزوجة الروحية» لتولستوي. لكن جميع مراسلاته مع ليف نيقولايفتش تذكر، بصورة غريبة، برسائل «مفرّقة الزوجين» التي تسعى إلى «إبعاد» الزوج عن أسرته.

«المُفرِّق»

قد نكون على خطأ. لكن، في هذا الأمر، لا يمكن لصوفيا أندرييفنا، بحسها الأنثوي أن تخطئ. «المعبود الجميل»، «المُفرِّق» – هكذا كانت تسمي تشرتكوف في ذروة الصراع معه.

من رسائل تشرتكوف الأولى إلى زوجها، اشتبهت بأن ثمة شيئاً ما غريباً، وعبرت عن ذلك، بما تتميز به من صراحة. في الأعوام الثمانينيات من القرن التاسع عشر كان ثمة اتفاق معمول به في أسرة تولستوي، ينص على أن جميع يوميات ومراسلات الزوج والزوجة يقرأها الاثنان. وفي 30 كانون الثاني/ يناير عام 1884، وبعد مضي ثلاثة أشهر على تعارف تولستوي مع ف. غ. تشرتكوف، تكتب لزوجها من موسكو إلى ياسنايا بوليانا: «أرسل لك رسالة تشرتكوف. هل حقاً ستغمض عينيك عمداً عن الناس الذين لا تريد أن ترى فيهم سوى الخير؟ إن هذا هو العمى!»

هذا التعجب مثير جداً للاهتمام. فإذا ما حكمنا من خلال ذكريات صوفيا أندرييفنا وأبناء تولستوي، فإن ظهور تشرتكوف في منزلهم قد استُقبل بحماس وبهجة. وقد سماه ليف نيقولايفتش «فارساً رائعاً»، سحر الجميع. وزوجة تولستوي التي تربّت في أسرة كانت تخدم الكرملين، كانت تهتم كثيراً بالناس الذين ترجع أصولهم إلى النبلاء. وهذا ما كان يميز تشرتكوف بصورة إيجابية عن بقية «الجهلاء». ومع ذلك، فإن رسائل ف. غ. تشرتكوف الأولى إلى ليف نيقولايفتش قد أثارت حفيظتها، فشعرت بالقلق.

ولكن، ما الذي كان في هذه الرسائل؟ كان يحاول تشرتكوف إقناع

تولستوي بالقدوم إليه في ليزينوفكا، حيث أمكن ف. غ. تشرتكوف أن يحوّل ثلاثة شباب فلاحين إلى عقيدته (غير الواضحة بعد). كان تشرتكوف يشك فيما إذا كان يحق له فعل ذلك؟ «ومن يصححهم، إذا ما اضطررت إلى تغيير مفهومي للمسيح؟ – لا – ليف نيقولايفتش، تعال، شجعني، ساعدني. نحن بحاجة إليك هنا...»

كان هذا أول تدخل فظ، غير لبق من جانب تشرتكوف في نظام حياة أسرة تولستوي. شاب تعرّف حديثاً على تولستوي، وبعد ثلاثة أشهر يلح على أن ينتقل الكاتب الكبير البالغ من العمر قرابة ستين عاماً في فصل الشتاء إلى مقاطعة فورونيج. لقد أذهلت هذه الرسالة تولستوي.

وتراجع تشرتكوف لفترة من الوقت، حتى إنه تاب. «فيما يتعلق برسالتي الأخيرة، فإنك على الأغلب، محق إلى حد كبير. وأذكر أنني في اليوم التالي بعد إرسال الرسالة، كدت أكتب رسالة أخرى لإلغائها». لقد أدرك ف. غ. تشرتكوف أنه ذهب بعيداً. لكنه لم يعد بقادر، ولا يريد، إخفاء مشاعره عن تولستوي: «بودي أن أعرف باستمرار أين أنت، وماذا تفعل...»

وكذلك تولستوي لا يخفي مشاعره: «كل رسالة منك تهمني وتقلقني».

لكنه، يرى خلال ذلك، أن تشرتكوف ليس معافى تماماً من الناحية النفسية. «سأقول لك شعوري عند استلامي رسائلك: أشعر بالرعب والخوف من أن لا تُصاب باللوثة في عقلك». وبعد مضي أقل من عام على تعارفه مع ف. غ. تشرتكوف، يرى تولستوي حلماً يسجله في يومياته: «رأيت حلماً عن تشرتكوف. كان يرقص فجأة، وهو نحيف ضعيف، وأرى أنه فقد عقله».

وقد أشار كثيرون إلى حقيقة أن تشرتكوف لم يكن معافى من الناحية النفسية. ومن بينهم، تحديداً، معلم اللغة اللاتينية واليونانية لأبناء تولستوي ف. ف. لازورسكي. فقد كتب في ذكرياته عن تشرتكوف: «... لقد ترك في نفسي انطباعاً بأنه رجل مريض عصبياً. كان يقول تشرتكوف إنه لا يمكنه قطعاً الحكم بصورة موضوعية على درجة حرارة الماء، لأنه لا يثق بإحساسه. فوضعية الأعصاب أحياناً تكون بحيث لا تشعر بالبرد، وأحياناً هو يخاف من النزول إلى الماء من دون أي سبب ظاهر».

كما اعترف تشرتكوف نفسه بأنه يعاني من هوس الاضطهاد.

إن تولستوي، عند اختياره لنفسه صديقاً لما بقي من حياته، كان منذ البداية يعرف غالباً أنه يتعامل مع شخص غير متوازن نفسياً، مثل زوجته. لقد كان تشرتكوف شخصية نشيطة للغاية، لكن نوبات النشاط عنده كانت تتبعها نوبات من اللامبالاة. ففي إنكلترا كان يمكنه إرغام العاملين عنده على العمل على مدار الساعة، وأثناء الليل، دون أي ضرورة، وبعد ذلك، ينفض يديه فجأة ويسقط في نوبة من الاكتئاب. وكان تولستوي يعرف هذا.

في عام 1898، عندما كان تولستوي يعمل بالاشتراك مع تشرتكوف على ترحيل الدوخوبوريين الروس إلى كندا، كتب رسالة إلى تشرتكوف في إنكلترا:

«أنت، بسبب الدقة المبالغ فيها، دقيق وبطيء، كما أنك تنظر إلى كل شيء نظرة فوقية على طريقة grandseigneur السيد الكبير، ولهذا فإنك لا ترى الكثير، وعلاوة على ذلك، *ولأسباب فيزيولوجية* (التأكيد من قبل المؤلف)، أنت ذو مزاج متقلب – فتارة نشيط متحمس، وتارة هامد فاتر. ولهذا كله، أعتقد، أنك، بنتيجة خاصياتك الجيدة، عامل ثمين جداً – لكن العامل الواحد غير عملي».

لم يكن تشرتكوف مجرد شخص معقد، بل كان أيضاً ذا طباع بغيضة ومزعجة، لم تكن تُكتشف على الفور. وكان يبتعد عنه، باكراً أو متأخراً، جميع الزملاء تقريباً وحتى الأصدقاء، بدءاً من بريوكوف وانتهاءً ببولغاكوف وساشا. باستثناء تولستوي وحده، الذي أحب تشرتكوف حتى النهاية.

أخذت صوفيا أندريفنا، منذ البداية، تشك في تشرتكوف في أنه، مثله مثل غيره من «الجهلاء»، يشكل خطراً على الأسرة. ومع ذلك، عندما التقت به في شباط/ فبراير عام 1885 في بطرسبورغ، أعجبت به من جديد. وهنا تكمن الخاصية الغامضة لكارزمية شخصية تشرتكوف: فأثناء اللقاءات كان يسحر الناس بانطباع خلّاب، ولكن عندما يفارقونه يتحدثون عنه بسخرية وحتى بشيء من النفور.

في آذار/ مارس من العام نفسه تكتب لزوجها من موسكو في ياسنايا

بوليانا: «استلمت اليوم رسالة حميمة من تشرتكوف. يرجو فيها إرسال صفحات مقالتك التي أحضرها، ويقول على سبيل المثال: «أنا دوماً أفكر فيكَ وفي عائلتك، كما أفكر في أقاربي، بل وأقاربي المقربين. فهل هذا جيد أم لا - لا أعرف - أظن أنه جيد». كم هذا شبيه به!»

في حين أن هذه «الرسالة الحميمة» كان من المفروض بالذات، أن تثير حفيظة صوفيا أندرييفنا!

«الكونتيسة، أزعجك برجاء واحد: أرسلي لي، من فضلك، بالبريد، الدفاتر التي تضم الأوراق المطبوعة الحجرية لمقالة ليف نيقولايفتش الأخيرة. ستجدينها في الخزانة خلف مكتبه. مجموعها كلها حوالي 10 أو 12 دفتراً».

إلى أية درجة أتقن تشرتكوف واستوعب مساحة بيت خاموفنيكي، إذا كان هو يشرح لربة هذا البيت، أين وماذا فيه.

لقد لاحظ كثيرون عدم لباقة تدخل تشرتكوف في الشؤون العائلية لآل تولستوي. وكان هذا يثير استياء صوفيا أندرييفنا. لكن تولستوي لم ير هذا.

أم إنه كان، مع ذلك، يراه؟

قبل عام 1887 كانت علاقة صوفيا أندرييفنا بـف. غ. تشرتكوف دمثة وساخرة قليلاً، وإن كانت حذرة قليلاً. لم تتميز زوجة تولستوي، عموماً، بالسخرية المفرطة (بل العكس صحيح)، لكنها كانت تقدر نكات الآخرين وسخريتهم.

في رسالتها إلى ليف نيقولايفتش بتاريخ 15 آذار/ مارس 1885 تورد كلمات الشاعر فيت التي قالها لها أثناء اجتماعهما: «يريد ليف نيقولايفتش مع تشرتكوف رسم تلك اللوحات، كي يتوقف الشعب عن الإيمان بالمعجزات. ولماذا نحرم الشعب هذه السعادة من الإيمان بالمسرحيات الدينية الغامضة لدرجة أنه أكل إلهه وأنقذ نفسه، في شكل الخبز والنبيذ. إنه مثل رجل حافٍ سار في مغارة يحمل جمرة دهنية، من أجل أن يعثر على الطريق في المغارة المظلمة. فأطفأوا الجمرة عنده، وطلبوا منه أن يدهن بها جزمته... في حين أنه حافي القدمين!»

بيد أنه كان من غير المسموح المزاح مع تشرتكوف. فهذا كان غير مسموح به حتى لتولستوي. فمعروفة تلك الحادثة على المائدة، عندما ضرب تولستوي بيده بعوضة حمراء وقفت على صلعة ف. غ. تشرتكوف. بعوضة! ضحك الجميع. صاح تشرتكوف باستياء: «ليف نيقولايفتش، كيف أمكنك أن تحرم الحياة لكائن حي!» وأصبح الجميع في وضع محرج.

يكتب ف. ف. لازورسكي: «أنا واثق من أن تشرتكوف منذ أن بدأ يطبق عملياً في حياته مبدأ «لا تقتل»، أصبح بمقدور البراغيث، والبق، والبعوض، والذباب أن تعذبه على هواها، دون أن تخشى على حياتها. ويتحدث عنه أيضاً في ذكرياته: «كان يعمل عنده رجال، وبالطبع، بعد انتهاء العمل كانوا يطلبون نقوداً من أجل شراء الفودكا. خرج إليهم تشرتكوف وأعلن أنه لا يمكنه أن يعطيهم من أجل «الفودكا»، واقترح عليهم بدلاً من الفودكا بالنقود نفسها، شراء كتب أو شراء الكتاب المقدس. وأخرج منشوراً على الفور عن أضرار السكر والإدمان وقرأه على الرجال».

كان تشرتكوف *متعصباً* لمعتقداته، على عكس تولستوي *الباحث* العنيد. ولكن بعد فترة من الوقت تمت تغذية معتقداته بأفكار تولستوي حصرياً. وهكذا، أصبح تشرتكوف متعصباً لمعتقدات تولستوي. لكن آراء تولستوي خلال مسيرة حياته تغيرت بـ 180 درجة. فأن تكون متعصباً لأفكار تولستوي كان يعني أن تضعها في «ثلّاجة» لمرحلة زمنية ما.

لكن تولستوي لم يكن باستطاعته ألا يشعر بالمسؤولية عن معتقداته. ولهذا كان من الصعب عليه من الناحية الأخلاقية، الدخول في جدال مع تشرتكوف. كان مضطراً لمتابعة كيف يتحول تلميذه الأول إلى «تولستَوي» أكثر اتساقاً منه نفسه. وأن يخضع لعقائدية تشرتكوف التعصبية كما حصل بقصة «سوناتة كروتزر». ذلك أن تولستوي بناء على نصيحة تشرتكوف بالذات أنهى هذه القصة بـ «خاتمة» أخلاقية.

ذات مرة طلب ليف نيقولايفتش من صوفيا أندريفنا أن تعثر له على رسالة الفنان ريبين. وبين الرسائل عثرت بالصدفة على رسالة تشرتكوف، التي أطرى فيها على زوجته غالا *وأشفق* على تولستوي.

تذكّرت صوفيا أندريفنا: «إن هذه الرسالة قد فجرتني بكل معنى الكلمة».

لقد فجّرتها فعلاً، لدرجة أنها تذكرتها بعد سنوات عديدة. ومن الممكن فهمها. ففي رسالة تشرتكوف المؤرخة في 18–20 شباط/ فبراير عام 1887، كأنه لم يورد أي ذكر لصوفيا أندريفنا، كتب تشرتكوف عن زوجته غالا، وعن سعادته معها. «... ليس هناك من مجال نحن محرومان فيه من التواصل المشترك والاتحاد. لا أعرف، كيف أشكر الله على خير أحصل عليه من اتحادي مع زوجتي». ولاحظ في الوقت نفسه ف. غ. تشرتكوف: «وخلال ذلك، أتذكر دوماً أولئك المحرومين من إمكانية هذا التواصل الروحي مع زوجاتهم والذين، كما يبدو، يستحقون السعادة أكثر مني بكثير».

لقد كان هذا حجراً موجهاً إلى صوفيا أندريفنا. وها هي تكتب في يومياتها في أوائل آذار/ مارس عام 1887: «كانت هناك رسالة من تشرتكوف. أنا لا أحبه: إنه غير ذكي، ماكر، مسطّح، وغير طيب. ليف نيقولايفتش متعلق به لتقديسه له». وتكتب بعد ثلاثة أيام: «يجب قطع العلاقات مع تشرتكوف. ففيها كل شيء زيف وشر، يجب الابتعاد عنها». لقد بدأت الحرب!

ولكن يكفي أن نلقي نظرة على الرسالة الجوابية من ليف نيقولايفتش إلى تشرتكوف، كي ندرك أن زوجته قد خسرت هذه الحرب منذ البداية. فلا يشير تولستوي إلى ف. غ. تشرتكوف بعدم السماح بالتدخل في حياته الشخصية فحسب... بل يشكره أيضاً. «شكراً لك على الرسالة. حقاً، لا يمكنك أن تتصور فرحتي عند قراءتها. كيف كل شيء على ما يرام: وحياتك مع زوجتك وأمك، ومع تلك المتطلبات الحياتية التي تواجهك. هذا يسرني وأحبك».

فعلى من صوفيا أندريفنا أعلنت الحرب؟ على تشرتكوف؟ أم على زوجها؟

ولكن، عموماً، من أين ظهرت في رسائل تشرتكوف هذه النغمة فجأة: الشفقة على تولستوي بسبب زوجته؟ فقبل عام 1887 لم يمكث تشرتكوف في منزل آل تولستوي إلا في زيارات عابرة. بالطبع، كان من الممكن أن يعتمد على الشائعات، لكن الشائعات لا تعطيه الحق الأخلاقي بمثل هذه الرسالة. إن تولستوي نفسه هو الذي منحه الحق الأخلاقي.

فمنذ 27 آذار/ مارس 1884، وفي وصفه لـ «صديقه العزيز» انطباعَيِ اليوم الرهيبين (عاهرة يافعة أُخذت إلى قسم الشرطة، وجسد الغسالة سابقاً العاري، والميت، التي ماتت من الجوع والبرد)، يشكو بمرارة وألم: «أشعر بالخجل من الكتابة عن هذا، أشعر بالخجل من الحياة. في البيت، صحن لحم سمك الزجر، وهو الصحن الخامس، وجدناه فاسداً. حديثي أمام الناس المقربين مني عن هذا يضعني في حيرة – لماذا الحديث إذا كان من غير الممكن إصلاح الفساد. وهأنذا عندما أصلي: يا إلهي، علمني، كيف أكون، كيف أعيش، كي لا تكون حياتي شنيعة رجسة».

هذه الرسالة، بناء على طلب ليف نيقولايفتش، قام تشرتكوف بإتلافها. ولكن وصلت إلينا نبذة مفصلة وضعها ف. غ. تشرتكوف. في بداية تواصله عبر الرسائل مع تولستوي، أتلف تشرتكوف بطلب من تولستوي مجموعة من رسائله الحميمة للغاية من حيث المضمون، وفيما بعد أقنع تشرتكوف معلمه بأن يسمح له بعدم إتلاف الرسائل الموجهة إليه شخصياً، وأن يحفظها عنده، دون أن يطلع أحد عليها، طيلة حياة تولستوي.

في الفترة من أعوام 1883–1887، في رسائله إلى تشرتكوف، كان تولستوي يشتكي غير مرة من وحدته في الأسرة، من أنهم لا يفهمونه، وحتى إنهم لا يريدون الإصغاء إليه. وهنا يطرح السؤال نفسه: كيف كان من الممكن أن يرد على هذا الزوج الشاب، الذي كان فعلاً سعيداً مع زوجته الشابة؟ ولنتذكر «السعادة التي لا تُصدق» التي كان قد عاشها ليف نيقولايفتش نفسه مع صونيا في أوائل الستينيات.

في أي سياق كُتبت رسالة تشرتكوف ورد ليف نيقولايفتش عليها؟ تشرتكوف سعيد مع غالا. أما تولستوي وزوجته؟ لنلقي نظرة إلى يوميات صوفيا أندريفنا بتاريخ 6 آذار/ مارس عام 1887. «الحزن يعتصر روحي. إيليا يزعجني جداً بحياته الغامضة والسيئة. الكسل، الفودكا، الكذب والزيف غالباً، رفاق السوء والأهم – انعدام أية حياة روحية. سريوجا غادر إلى تولا، غداً اجتماع في مصرفهم – بنك الفلاحين. تانيا وليفا بحزن يلعبان بالورق لعبة المروحة. مع أبنائي الصغار فقدت كل قدرة على التربية... ليست لدي الآن في الحياة أية نقطة ارتكاز...»

في أسرة آل تولستوي إن لم يكن هناك انهيار، فقد كانت هناك أزمة خطيرة. وليس صعباً الافتراض أن رسالة تشرتكوف «فجّرت» صوفيا أندريفنا لهذا السبب أيضاً.

ثمة مفهوم عملي في تكنولوجيا الكومبيوتر يدعى «الحفاظ على التنسيق». فما حصل أن صوفيا أندريفنا، سواء من حيث التربية، ومن حيث العادات، ومن حيث خبرتها الحياتية، كانت عاجزة عن الحفاظ مع زوجها على نسق العلاقات الذي نشأ بين ليف نيقولايفتش وف. غ. تشرتكوف. وكذلك تولستوي، بدوره، عند انتقاله من المراسلات مع تشرتكوف إلى التواصل مع زوجته، كان مضطراً للانتقال من نسق إلى آخر. فأصيبت الأسرة بـ «الهلوسة».

في عام 1885 يكتب تشرتكوف إلى ليف نيقولايفتش: «لماذا لا تطلب من ابنك الكبير أن يساعدك في ترتيب وحفظ مضمون أوراقك؟ فمن المهم جداً أن يقوم أحد من أفراد أسرتك بترتيب وحفظ أوراقك... إن كل ما تكتبه عزيز جداً، وقريب من كل خير ندركه في نفوسنا، لدرجة أننا نرتجف من فكرة أن يطرأ شيء ما على كتاباتك بسبب عدم الاهتمام الكافي».

كان تولستوي يشعر بشدة بنقص الاهتمام من جانب الأسرة بعمله. وكم من المرات اشتكى في اليوميات من أبنائه! ويكتب لهم أحياناً، لكل ابن على حدة، وللجميع معاً، رسائل مستفيضة، محاولاً توجيههم إلى المسار الصحيح، وتخليصهم من الإلحاد، والأنانية، والسكر ولعب الورق. فعلاً، إنه لا يعيش معهم، بل في مكان ما، في جزيرة غير مأهولة.

لكن تشرتكوف ليس بحاجة إلى توجيه. وهو نفسه قادر على توجيه أيّ فرد أياً كان. وهو مشغول ومستغرق إلى هذه الدرجة بكل ما هو مشغول به تولستوي، بحيث كان من المستحيل عدم تقديره.

حتى صوفيا أندريفنا تعترف: «لقد كنت غير محقة، عندما ظننت أن *الإطراء* يرغم تشرتكوف على التواصل مع ليف نيقولايفتش. لقد أحب تشرتكوف ليف نيقولايفتش بتعصب وعناد، وهو يعيشه ويعيش أفكاره ومؤلفاته، بل ويعيش شخصيته التي يصورها في صور لا حصر لها. من

حيث بنيته العقلية، تشرتكوف رجل محدود، وقد حدد نفسه *بمؤلفات وأفكار وحياة ليف تولستوي. وهو يستحق الشكر على هذا*».

وقد كتبت هذا قبل مغادرة تولستوي.

وبفضل تفانيه وإخلاصه بالذات، يمكن لتشرتكوف أن يسمح لنفسه في علاقته بمعلمه بالقليل من الكثير. وعلى سبيل المثل، التدخل في نص «أسير القوقاز»، عند إعادة نشرها في دار نشر «الوسيط – بوسريدنيك». فقد طلب تشرتكوف من ليف نيقولايفتش تصحيح (!) بضعة أسطر في القصة الطويلة، التي بدت له غير موفقة(!). ووافق تولستوي بسهولة، رغم اعتباره «أسير القوقاز» أفضل مؤلفاته، ويضعها في مقام أعلى من «الحرب والسلام». «باستثناء تلك الأماكن التي كتبت عنها، أنا موافق، بسرور، وأشكرك. ولكن، قم أنت بنفسك بتصحيحها». فهو يدعو تشرتكوف، فعلياً، للإبداع المشترك، لأن تصحيح المحرر كان بالنسبة لتولستوي، أهم عنصر في الإبداع.

لكن الأهم – المخطوطات! إن كل سطر يخطه العبقري يجب ألا يضيع! منذ بداية الثمانينيات من القرن التاسع عشر وحتى نهاية حياة تولستوي، ينسخ تشرتكوف بصورة منهجية كل ما يخرج من ريشة الكاتب. إنه يرجو بإلحاح ابنة ليف نيقولايفتش، ماريا التي أصبحت سكرتيرة أبيها، أن تنقل جميع مخطوطات ليف نيقولايفتش الجديدة، بما فيها اليوميات والرسائل، وترسل نسخة له. ومنذ ربيع عام 1890 يتوجه مباشرة إلى تولستوي، راجياً تسليمه اليوميات من أجل نسخها واستخلاص الحكم والأقوال المأثورة من أجل تسجيلها في «مجموعة» أفكار تولستوي التي فكر في إصدارها. لكن يوميات تولستوي، كما لاحظ بحق ف. ف. بولغاكوف، سكرتير تولستوي الأخير، «هي الشخص كله من دون غطاء». وهكذا يبدأ تشرتكوف بالطموح للإحاطة بتولستوي كله «من دون غطاء».

ولكن، من جديد، لنكن عادلين. إن تولستوي نفسه كان مهتماً بأن يتصرف تشرتكوف بيومياته ورسائله. لقد شعر بكثير من الدفء من فكرة تشرتكوف وضع «مجموعة» أفكاره. وقد كتب لـ ف. غ. تشرتكوف في 8 نيسان/ أبريل عام 1890: «إنني أرغب كثيراً بما تريد فعله برسائلي. إن الشيء الجيد الذي

كتبته أحتاج إليه أنا بل أكثر من الآخرين. فكل ما هو خير وجيد لا يصدر عني، بل يمر من خلالي».

أخيراً، فإن تولستوي بنفسه، قد سلم تشرتكوف، في بداية تعارفه معه، يومياته لعام 1884، التي تحتوي على وجه التخصيص، آراءً غاضبة عن زوجته وابنه الأكبر. وبعد عدة سنوات تذكر هذا فجأة، وطالب باستعادة اليوميات. لكن تشرتكوف كان قد نسخها، واحتفظ بنسخة منها عنده، ونسخة عند صديقه في فوج الخيالة د. ف. تريبوف، ضابط شرطة موسكو، الذي أصبح منذ عام 1905 الحاكم العام لبطرسبورغ. إحدى يوميات تولستوي الأكثر حميمية كانت محفوظة لدى رئيس شرطة موسكو، في الوقت الذي كانت تجري رقابة دائمة على حركة تولستوي، أما أتباعه «التولستويون» فقد تم نفيهم إلى القوقاز وإلى سيبيريا، وأرسلوا إلى الكتائب التأديبية.

منذ عام 1885 – وحتى عام 1888 لم يدون تولستوي يومياته بصورة منتظمة. ولكن، اعتباراً من عام 1889 بدأ يكتبها بصورة منتظمة. يدرك تشرتكوف إدراكاً تاماً، وبحق، الأهمية الكبيرة لهذه المدونات في تركة تولستوي الفكرية. وفي ربيع عام 1890 يرجو ليف نيقولايفتش أن يسلمه جميع اليوميات من أجل حفظها. وكان من المفترض أن ترسل ماريا لفوفنا – ابنة تولستوي – بصورة منتظمة جميع مدوناته ويومياته اللاحقة.

يوافق تولستوي من جديد بسهولة. «... لقد قررت أن أرسل لك دفترين من اليوميات. أنت ستأخذ ما هو مهم، ضروري. ولكن غربل وانخل القدر الأكبر».

في 21 نيسان / أبريل عام 1890 يصل إلى ياسنايا بوليانا ي. ي. غوربونوف – بوسادوف، أديب، «تولستَوي» الاتجاه وموظف عند تشرتكوف في دار نشر «الوسيط – بوسريدنيك». لديه مهمتان. الأولى – أخذ مخطوط «خاتمة سوناتة كروتزر» من ليف نيقولايفتش وتسليمها لتشرتكوف في بطرسبورغ. والمهمة الثانية والأهم – أخذ دفاتر يوميات ليف نيقولايفتش. لكن تولستوي لا يعطيه اليوميات فجأة. ويكتب لتشرتكوف: «قررت عدم أرسالها لك. فانيا سيحدثك عن الأسباب».

كان هناك سبب واحد هو الزوجة. عندما علمت أن زوجها ينوي إعطاء اليوميات لتشرتكوف استاءت وعارضت بحزم ذلك. فهي لم ترغب أن تسلم زوجها بكامل أسراره الحميمة إلى يدي ف. غ. تشرتكوف. وهي بالطبع، كانت محقة، من وجهة نظرها. فبين هذه الأسرار كانت «الشقوق» التي حدثت في الأسرة. فبحصوله على اليوميات، يحصل تشرتكوف على أدلة تشهير بزوجة تولستوي.

ومنذ شهر تموز/ يوليو 1885، عندما كان في إنكلترا، ينصح تشرتكوف ليف نيقولايفتش، من دون مواربة، بترك الأسرة. لم تعرف صوفيا أندريفنا شيئاً عن هذه الرسالة، وإلا لاندلعت العاصفة قبل عام 1887.

كتب تشرتكوف: «... كن مستعداً لسماع أشياء غير سارة، أريد أن أتكلم من دون تحفظ ولا تخفيف، لأنني أعتقد أن هكذا يجب أن يكون، وهذا ما يمليه علي الحب. أنت تقول إنك تعيش في ظروف مغايرة تماماً لعقيدتك. وهذا صحيح تماماً. وبالتالي، فمن الطبيعي جداً أن تظهر لديك في بعض الأحيان خطط للهروب أو لتغيير جو الأسرة كله. ولكن لا يمكنني الموافقة على أن هذا يثبت أنك ضعيف وسيئ. بل على العكس، فوعيك الذاتي باحتمال أن تصبح في حال الضرورة مستقلاً تماماً عن الوسط المحيط، وتوجيه حياتك الفعلية باتجاه جديد كلياً، يثبت فقط وجود القوة لديك. و... الهروب أو قلب الحياة – من وجهة نظري، ليسا أبداً تلك الأفعال التي كانت بحد ذاتها مذمومة، وتستحق اللوم مسبقاً. فالمسيح فَعَل هذا وجذب الآخرين إلى هذا الطريق بالذات».

خلف أسلوب اللزوجة المظلمة الذي يميز جميع رسائل ف. غ. تشرتكوف، يصب منطق لا يرحم لأفكاره على عائلة تولستوي. إذا كنت، يا ليف نيقولايفتش، تتطلع إلى مكانة يسوع المسيح الذي ظهر على الأرض، ولك كامل الحق في التطلع إلى ذلك، فدع «الموتى يدفنون موتاهم»، وغادر عائلتك!

عند عدم حصوله في نيسان / أبريل عام 1890 على يوميات تولستوي من غوربونوف، لم يطمئن بال تشرتكوف، وفي شهر أيار/ مايو أرسل إلى

ياسنايا بوليانا عميلاً جديداً هو ماتفي تشستياكوف مدير أعماله في مزرعة رجيفسك. ويبدو أن وصوله استفز تولستوي نفسه. فهو يكتب في يومياته: «وصل تشستياكوف. الحديث كله عن اليوميات. هو، تشرتكوف، يخشى أن أموت وتضيع اليوميات. لن يضيع أي شيء. ومن غير الممكن إرسالها – ثمة إساءة...»

الإساءة – أي الإساءة لزوجته. لكنه لا يريد أبداً الإساءة إلى ف. غ. تشرتكوف. لا سيما أن تشستياكوف أحضر له صورة غالا زوجة تشرتكوف – علامة حميمة على الاهتمام وتلميح خفي لظروف تولستوي.

في الرسالة الجوابية، يكاد تولستوي ينهار من شدة اعتذاره: «أشعر بالأسف الشديد، لأنه لا يمكنني إرسال اليوميات لك. لقد كتبت لك آنذاك دون أن أفكر: هذا دون الحديث عن أن إرسالها يسيء إلى علاقتي بما هو مكتوب، لا يمكنني إرسالها دون الإساءة إلى زوجتي، أو سراً عنها – وهذا ما لا أستطيعه. ومن أجل التكفير عن خطئي لعدم إيفائي بوعدي، سوف أكتب لك منها مقتطفات، وأرسلها لك... أما اليوميات فلن تضيع. إنها مخفية، ويعرف ذلك أهل بيتي – زوجتي وبناتي. وبإذن الله لن يضيع شيء. أنا واثق من ذلك».

من غير المحتمل أن يكون تشرتكوف قد اطمأن إلى كلمات تولستوي حول أن زوجته تعرف أين أخفى اليوميات. بل على الأغلب، هذا كان يجب أن يخيفه. وعبثاً. وإذا ما حكمنا من خلال يوميات صوفيا أندرييفنا، فمنذ عام 1890 بالذات، بدأ تولستوي يخفي يومياته عن زوجته. وكانت تضطر ليلاً للعثور عليها وإعادة كتابتها.

ولنفرض أن صوفيا أندرييفنا كانت زوجة غيورة وشكّاكة. لكن ابنته ماريا أيضاً بدأت بالتذمر في عام 1890. فدور «عميلة» تشرتكوف لم يناسبها ولم يرُقها بحال من الأحوال. علاوة على ذلك، فهي تلاحظ على الرغم من رضا أبيها عن اهتمام تشرتكوف بتركته فإن مضايقاته الملحة للغاية بخصوص المخطوطات تعيق أباها عن الشعور بالحرية.

في صيف عام 1890 ترسل ماريا إلى تشرتكوف رسالتين تتخلى فيهما

عن إجراء مقتطفات من رسائل أبيها ويومياته. «عموماً، يزعجني وضع هذه المقتطفات، من المخجل التدخل في أموره الروحية، وفي أقدس أعمال الله. لن أطلب منه وضع هذه الإشارات. وضعَ هذه الإشارات آنذاك وسأكتبها، ولكن لن أطلب منه ذلك بعد الآن، أعتقد أن هذا لا يسره». وتكتب له في رسالة أخرى: «إنني واثقة من أنه لا يريد أن يقرأ هذه اليوميات، طالما هو باق على قيد الحياة».

بالإضافة إلى ذلك، فإن تولستوي نفسه في رسالة إلى تشرتكوف، عبر بوضوح عن موقفه: «لا تغضب عليّ يا صديقي العزيز، ولكن افهم أن هذا ليس صعباً، لكنه يشلّ النشاط الروحي، ويشل المعرفة أن هذا سيشطب الآن وينقل. لا تقل لي حججاً مختلفة، بل ببساطة، حباً لي، ادخلْ في ذاتي، فثمة حب، وتخلّ عنه، ولا تقل إن هذا يشكل حرماناً لأحد ما، وإنك مستاء، وأنا سأكون مسروراً. سوف أكتب لك في أوقات أكثر. وأنا الآن أفكر كثيراً بنفسي لذاتي وأعتقد: هذا يجب أن أكتب عنه لتشرتكوف».

وتظاهر تشرتكوف أنه تراجع. ففي رسالته إلى ماريا لفوفنا يعتقد أن «المسألة تم حلّها». أما في رسالته إلى ليف نيقولايفتش «فيُذعن بحب» ويأسف، لأن سوء الفهم كان ذريعة للنزاع.

ولكن، عجيب! حتى في رسائل «التوبة» هذه، يتابع تشرتكوف ثني خطه كـ «منفذ روحي للوصية».

في رسالته إلى ليف نيقولايفتش يطلب نسخ وإرسال – ليس اليوميات الآن – بل رسائل تولستوي إلى الأشخاص الآخرين «ذات المضمون وذات الطابع غير الحميمي»، وإلزام ماشا بالذات بأن تفعل هذا. وهو يَعِد بأن لا يعطيها لأحد للقراءة، ولا يسمح لأحد بنقل هذه الرسائل «إلى أن تتحقق منها بنفسك في مجموعة أفكارك التي أقوم بإعدادها وسأعرضها عليك لتتحقق منها قبل النشر».

حسناً، فكيف يمكنه رفض هذا الطلب للصديق العزيز؟ في الرسالة الجوابية تولستوي أدخل إلى قلبه الفرح: «لقد أرسلت عدة رسائل وطلبت من ماشا أن تنقل هذه الرسائل وسوف أخبرك».

أما في رسالة تشرتكوف إلى ماريا لفوفنا فقد كان يتردد «رجاء واحد»: «من فضلك، يرجى النقل بانتظام وبالتتابع، مع الإشارة إلى الشهر والتاريخ، وجميع أسماء الأشخاص الذين أرسل لهم الرسائل». لقد طلب من ماريا لفوفنا إرسال هذه السجلات له.

كان تشرتكوف أكثر خبرة من بنات تولستوي اللواتي أخذن على عاتقهن مهام السكرتارية عند والدهن. لكن البنات، وإن تأخّرن، فإنهن تزوّجن، وظهرت لديهن همومهنّ الخاصة. وبقي تشرتكوف العامل الدائم عند تولستوي. ولو أن تشرتكوف وصوفيا أندرييفنا تمكنا من الاتفاق، وتوزعا المهام فيما بينهما، لكان ذلك رائعاً. لكن تشرتكوف عنيد، ولاذع مرتاب، ولا يتحلى بالصبر، والأسرة تعارض تدخله. أما هو فلا يأخذ الأسرة بأي اعتبار، لأنها، حسب رأيه، لا تحسب لتولستوي العظيم أي حساب.

اندلع نزاع جديد في أيار/ مايو عام 1892 عندما كان يعمل تولستوي مع بناته في المجاعة في قرية بيغيشيفكا بمقاطعة ريازان، حيث فتح الموائد والمطاعم بالأموال المُتبرّع بها. وتساعده زوجته في جمع الأموال. كما كان تشرتكوف يعمل في المجاعة في مقاطعة فورونيج. وقد أصلح هذا العمل ذات البين في الأسرة. فكان تولستوي يزور زوجته في موسكو، وزوجته تزور زوجها في بيغيشيفكا، ويشعر الزوجان بالحب الرقيق أحدهما تجاه الآخر. ويخبر تولستوي آ. آ. تولستايا في كانون الأول/ ديسمبر عام 1891: «صونيا حريصة وقلقة عليّ للغاية، لا تدعني أذهب، ونحن ودودان متحابان، وهذا لم يحدث منذ زمن طويل». ويكتب لـ ن. ن. غي الابن: «فرحة العلاقة مع صونيا لم تكن قط دافئة وصادقة هكذا».

وكذلك أيضاً تحسنت العلاقات بين صوفيا أندرييفنا وف. غ. تشرتكوف. على الأقل على صعيد العمل. فقد أرسلت زوجة تولستوي إلى مقاطعته عربات من السكة الحديدية تحمل المواد الغذائية. في هذه الفترة كان تولستوي يتابع عمله على كتابه «مملكة الله في نفوسكم» ويرسل مخطوطته إلى تشرتكوف، ثم يطلب إعادتها من أجل التحرير اللاحق. ومن أجل الموثوقية وضمان الوصول، يرسل تشرتكوف المخطوطة عبر صوفيا أندرييفنا. وفجأة يثور الغضب في نفسها ضد «المنافس» و«مفرّق الأسرة».

لم يتم الحفاظ على رسالة صوفيا أندريفنا الحاقدة إلى تشرتكوف، ولكن يمكن تخمين مضمونها من خلال الرسالة الجوابية. فقد كانت تشتكي من أن تشرتكوف يستغل بلا رحمة «الرجل العجوز العصبي المرهق». وقد استاء تشرتكوف من الرسالة استياءً شديداً.

أرسل تشرتكوف إلى تولستوي رسالة صوفيا أندريفنا إليه ورده عليها. فقد أراد أن يجعل من تولستوي شاهداً على الظلم الواقع عليه من جانب زوجته. وقد اضطر تولستوي إلى موافقته على ذلك:

«أنت على حق، لكنها ليست المسؤولة. فهي لا ترى في ذاتي ما تراه أنت بداخلي...»

في الواقع، كانت رسالة تشرتكوف الجوابية المطولة مزعجة للغاية. ويعظ زوجة الكاتب قائلاً: «فيما يتعلق بكل ما يهمه شخصياً، علينا أن نكون منفذين دقيقين لأبعد الحدود لرغباته». ورفض أحقيتها بأنها تتفهم أكثر صحة زوجها: «إنني لا أرى أبداً في ليف نيقولايفتش عجوزاً عصبياً، بل على العكس، اعتدت أن أرى فيه وكل يوم أحصل على تأكيد عملي لذلك بأنه رجل فتي ونشيط روحياً وأقل عصبية، أي بتوازن عصبي كبير، أكثر من جميع الناس المحيطين والقريبين منه دون استثناء». وأخيراً، يدين صراحة صديقة وزوجة تولستوي: «... أنت تتصرفين ضد رغبات ليف نيقولايفتش، رغم نواياك ومقاصدك الطيبة والنبيلة، وأنت لا تلحقين به المعاناة الكبيرة شخصياً، بل عملياً، في ظروف الحياة الخارجية، تلحقين به ضرراً كبيراً».

مزعوجة أيضاً، لكنها شعرت بعدم أحقيتها، جاءت صوفيا أندريفنا إلى زوجها في بيغيشيفكا تشتكي: «كتب لي تشرتكوف رسالة غير سارة، أجبته عليها بشدة. يبدو أنه غاضب عليّ لتوبيخي له بأنه يحثك على الإسراع في كتابة المقالة، ولم أكن أعلم أنك كتبتها بنفسك. وقد اعتذرت منه؛ ولكن، يا له من رجل غبي، بليد، مسطّح، وحيد الجانب! إنه لمن المحزن، ومن المؤسف، أنهم أناس ضيقو التفكير والنظر؛ يشعرون بالملل!» وقد أجابت تشرتكوف نفسه بغطرسة باردة: «... بما أنني قمت بحمايته وحافظت عليه

طيلة 30 عاماً، فالآن، لست عازمة على تعلم المحافظة عليه لا منك، ولا من أي شخص آخر».

في الواقع، بعد ظهور تشرتكوف، اضطر تولستوي للعيش في عائلتين.

إن شغفه بـ ف. غ. تشرتكوف يزداد أيضاً لأنه لا يراه كل يوم، لكنه «يشعر به» دائماً. «كل يوم أنتظر رسالة منك، أراك في الحلم وأفكر بك باستمرار. ماذا حلّ بك؟ لماذا لم تكتب ولا كلمة واحدة؟... أفكر ربما أزعجتك بشيء ما، ولا يمكنني أن أخمن بأي شيء».

هذه الرسالة ترجع إلى تاريخ 27 أيلول / سبتمبر عام 1892. لكن تشرتكوف كان قد لاذ بالصمت. وفي 1 تشرين الأول/ أكتوبر يرسل لتولستوي رسالة طويلة مع قائمة بمطالباته لعائلته. فهو يتهم عائلة تولستوي بأنها تشكل حول تولستوي «جو القصر والبلاط»؛ ويكتب عن «الانطباع القاسي» الذي ينشأ لدى أنصار تولستوي عند تعارفهم على عائلته؛ ووشى لليف نيقولايفتش بابنته المفضلة ماشا، الذي لم يسامحها لرفضها العمل عنده بصفة «عميلة».

فكيف يرد تولستوي على هذه الرسالة؟ يبدو أن صوفيا أندرييفنا كانت محقة عندما كتبت في عام 1884 عن «عمى» زوجها بخصوص علاقته بتشرتكوف: «البارحة كان عندنا بريوكوف، وقرأ رسالتك الأخيرة التي أرسلتها لي وقال: يا لها من رسالة جيدة، كم هو صادق! وأنا قلت له: لقد فكرت فيك (في بريوكوف) للتو وقلت في نفسي: يا له من شخص لطيف، طيب، حسن المعشر! لا يساوم أحداً في قناعاته، ولا يتظاهر، وفي الوقت نفسه، لا يهين أحداً، ويحبه الجميع... وأنا أحب هذا فيك».

كان من غير الممكن أن لا تؤدي هذه الرسالة إلى فضيحة.

قصة الصورة

في كانون الأول/ ديسمبر عام 1894، اقترح أبرز التولستويين – تشرتكوف، بريوكوف، غوربونوف – بوسادوف، تريغوبوف، بوبوف – على ليف نيقولايفتش أن يتصوروا معاً في صورة جماعية في أستوديو تصوير مي.

وكيف يمكن لتولستوي أن يرفض؟ فالرفض كان يمكن أن يعني أن يبعد نفسه عن تلاميذه وأتباعه، حتى في مثل هذه «المسألة الصغيرة». ووافق تولستوي بكل سرور. في حين أن هذه الصورة لم تكن مسألة صغيرة. فلو ظهرت الصورة – وانتشرت وتم نسخها، لحصل وجود «حزب تولستوي» على إثبات وثائقي. ومن المستبعد جداً، أن تشرتكوف، ذا الصلة بالأسرة القيصرية وكبار ضباط الشرطة، لم يكن يعرف هذا.

عندما سمعت صوفيا أندرييفنا بالتصوير الفوتوغرافي تصرفت بحسم. أخذت جميع المسودات السلبية الزجاجية للصورة الجماعية من أستوديو تصوير مي وأتلفتها. تكتب صوفيا أندرييفنا في يومياتها في 8 كانون الثاني/ يناير عام 1895: «حضر بوشا (بريوكوف – *المؤلف*) واتهمني، وأنا اتهمت الجميع. بالخداع، أقنعتم، دون أن ندري، ليف نيقولايفتش بأن يتصور في صورة جماعية مع جميع *الجاهلين*؛ شعرت البنات (الابنتان ناشا وتانيا – المؤلف) بالامتعاض، جميع المعارف شعروا بالرعب، وكان ليف منزعجاً، وأصابني يأس شرير. يلتقطون الصور الجماعية للفرق الرياضية، للرحلات، للمؤسسات وغيرها. هذا يعني أن التولستويين مؤسسة. وكان سيلتقطها الجمهور، وسيسعى الجميع إلى شراء صورة *تولستوي مع تلاميذه*. ولضحك كثيرون. لكنني لم أسمح بأن ينقلوا ليف نيقولايفتش من منصة الشرف إلى الوحل. في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى أستوديو التصوير وأخذت جميع الصور «النيجاتيف»، ولم يقم بإظهار أي صورة. المصور الألماني مي الذكي واللطيف تعاطف معي وسلمني «النيجاتيف» بكل سرور».

في ليلة 10–11 كانون الثاني/ يناير أقفلت باب غرفتها، وهشمت صوفيا أندرييفنا المسودات «النيجاتيف» الزجاجية. وهي تؤكد في يومياتها، كأنها حاولت بقرط ماسي قص وجه زوجها، لكنها لم تنجح بشكل مناسب.

موقف تولستوي من تصرف زوجته ليس مفهوماً تماماً. على أية حال، لم يُثر هذا الفعل غضبه. ويكتب في يومياته بتاريخ 31 كانون الأول/ ديسمبر عام 1894: «كان هنا تشرتكوف. وجرى نزاع مزعج بسبب الصورة. فقد تصرفت صونيا، كما هو الحال دائماً، بشكل حاسم، ولكن من دون تفكير وبصورة سيئة».

علاوة على الاستياء، والغيرة، وعدم الرغبة الاستبدادية القطعية بمشاركة زوجها مع أي شخص آخر، كانت صوفيا أندريفنا مدفوعة بخوف مرضي على العائلة. فقد استسلمت جزئياً بأنها تعد زوجة «منشق»، لكنها كانت تعرف جيداً قسوة بوبيدونوستسيف تجاه الطائفيين. لاسيما أنه كانت تدور أحاديث في المجتمع الراقي حول احتمال نفي تولستوي إلى أطراف الإمبراطورية.

بعد لقائها الشخصي مع الإمبراطور في نيسان/ أبريل عام 1891، كانت صوفيا أندريفنا تأمل بأنها أمّنت زوجها من الملاحقة المباشرة بسبب مقالاته. لكن زوجها في عام 1892 قدم لها مفاجأة جديدة. ففي 14 كانون الثاني/ يناير، وفي الصحيفة الإنكليزية «ديلي تلغراف Daily Telegraph وبترجمة إيميل ديلون نُشرت مقالة تولستوي المحظورة في روسيا «حول المجاعة». وفي 22 كانون الثاني / يناير نشرت صحيفة «أخبار موسكو – موسكوفسكيي فيدوموستي» المحافظة، بسرور، بترجمة عن الإنكليزية، مقاطع من هذه المقالة مع هذه التعليقات: «رسائل الكونت تولستوي... تعد دعاية صريحة للإطاحة بالنظام الاجتماعي والاقتصادي القائم في العالم كله. دعاية الكونت هي دعاية للاشتراكية الجامحة، الأكثر تطرفاً، التي تخجل أمامها حتى دعايتنا السرية».

لقد كانت هذه وشاية. لكنها كانت حقيقة. فقد دعا تولستوي فعلاً إلى «الإطاحة بالنظام الاقتصادي والاجتماعي القائم في العالم كله»، ولكن ليس بالعنف. وفي هذه الفترة بالذات، كان يعمل على كتابه «مملكة الله في نفوسكم»، واضعاً فكرته الشهيرة «عدم مقاومة الشر بالقوة». ولكن، من كان يعرف هذا؟

كان خوف زوجته بعد ما نشرته صحيفة «أخبار موسكو – موسكوفسكيي فيدوموستي» لا يمكن وصفه. وعلى أية حال، فقد سمعت أنه في 30 كانون الثاني/ يناير جرى حديث مع وزير الداخلية دورنوفو – وأمر القيصر ألكسندر الثالث في نهايته «بترك كل شيء على حاله هذه المرة، دون عواقب». كانت تعرف أن الإمبراطور تحدّث عن تولستوي مع عمته آ. آ. تولستايا، التي كانت تدافع عن ابن أخيها. وقال لها الإمبراطور: «لا أنوي أبداً أن أجعل منه شهيداً

معذّباً وتوجيه سخط الرأي العام ضدي». ولكن كانت الشائعات تسري... وقد كتبت ت. آ. كوزمينسكايا لشقيقتها: «سمعت من مصادر مختلفة الخبر ذاته: صاحب السيادة مزعوج، وقال إنني استقبلت زوجته، وهذا ما لا أفعله لأحد آخر، وإنه لم يتوقع أن يخونوه مع الإنكليز - أعدائنا الحقيقيين...» وقيل أيضاً إن مجلس الوزراء اجتمع من أجل اتخاذ قرار حول نفي تولستوي إلى خارج البلاد.

كتبت صوفيا أندريفنا لزوجها في بيغيشيفكا: «سوف تدمرنا جميعاً بمقالاتك الحماسية الشجاعة. أين هنا الحب وعدم المقاومة؟ وليس لديك الحق أن تدمر تسعة أولاد وأنا أمهم معهم. وعلى الرغم من أن التربة مسيحية لكن الكلمات ليست جيدة. أنا قلقة جداً، ولا أعرف ما سأفعله، لكن من المستحيل ترك الأمر على هذا النحو».

في 8 شباط / فبراير تكتب طيلة اليوم رسائل لوزير الداخلية وإلى «الجريدة الرسمية - برافيتلستفيني فيستنيك». وتستلم رسالة أخرى من شقيقتها في بطرسبورغ، حيث تكتب لها عن «خطر ما»، وتتضرع إليها «العمل بسرعة»، وأن تأتي بنفسها إلى بطرسبورغ.

أخيراً، يلتقي الحاكم العام بموسكو، الأمير المعظم سيرغي ألكسندروفيتش صوفيا أندريفنا في حديقة نيسكوتشني على انفراد، ويقنعها بأن الإمبراطور يتوقع من تولستوي تبرؤاً علنياً بخصوص النص الإنكليزي.

«... ينتظرون دحضاً منك، ليفوشكا، منشوراً في «الجريدة الرسمية برافيتلسفتيني فيستنيك»، بتوقيعك؛ ومن الممنوع نشر هذا في الصحف الأخرى، وهذه الرغبة تأتي من صاحب السيادة وحباً بك... إذا ما وجدت في رسالتك القادمة رسالة في الصحيفة ورأيت هذه الصفحة التي أرفقها مع رسالتي موقعة، فسأعيش في حالة من السرور والهدوء التي لم أعرفها منذ زمن، وإذا لم يتم ذلك، فعلى الأغلب سأسافر إلى بطرسبورغ، وسأبذل مرة أخرى كل طاقتي، ولكن سأفعل شيئاً كبيراً بل متطرفاً...»

ويتنازل تولستوي من جديد لزوجته. «كم أشعر بالأسف، يا صديقتي العزيزة، أن أحاديث سخيفة حول مقالات «أخبار موسكو - موسكوفسكي

فيدوموستي» تقلقك، وأنك بسفرك للقاء سيرغي ألكسندروفيتش لم يحصل أي شيء جديد. إن ما كتبته في مقالتي عن المجاعة، قد قيل سابقاً عدة مرات، بتعابير أشد قوة، فما هو الجديد؟ الأمر كله يتعلق بالحشد، تنويم الحشد، كرة الثلج المتزايدة التي تكبر باستمرار. كتبت التفنيد. ولكن، من فضلك، يا صديقتي، لا تبدلي ولا تضيفي ولا كلمة واحدة، وحتى لا تسمحي بالتبديل. لقد فكرت بكل كلمة بانتباه وقلت الحقيقة كلها، والحقيقة وحدها، ورفضت الاتهام الباطل».

في رسالته إلى «الجريدة الرسمية – برافيتلستفيني فيستنيك» بتاريخ 12 شباط/ فبراير، صرح تولستوي: إنني «لم أبعث بأية رسائل إلى الصحيفة الإنكليزية»، وأن المقتطف المنسوب له «هو موضع مبدّل ومحوّر جداً (نتيجة الترجمة المزدوجة، وغير الدقيقة) من مقالتي»، وأما «ما هو مطبوع إثر المقتطف من ترجمة مقالتي بخط كبير، ومُبرز وكأنه يعبر عن فكرتي... فهذا اختلاق كامل».

لقد كانت هذه مذلة لتولستوي، أقدم عليها حصراً من أجل زوجته. فقد كان على معرفة شخصية بالمترجم الإنكليزي إيميل ديلون منذ كانون الأول / ديسمبر عام 1890، عندما حل ضيفاً عنده في ياسنايا بوليانا. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1891، وبعد أن تعب من عناء الرقابة التي تسلطت على مقالته «حول المجاعة» في مجلة «قضايا الفلسفة وعلم النفس»، طلب هو نفسه من بيغيشيفكا، من زوجته أن ترسل نص هذه المقالة إلى المترجم ديلون: «فلينشروها هناك؛ وستصل من هناك إلى هنا، وستعيد نشرها الصحف». وهكذا، فهو كان يعرف أن ظهور مقالته في صحيفة «ديلي تلغراف Daily Telegraph» لم يكن مصادفة. وعلاوة على ذلك، فإن تولستوي، بتخليه في خريف عام 1891 عن حقوق التأليف، بما في ذلك عن النصوص المترجمة، لم يضع أية شروط حول نوعية الترجمة. فأي حق معنوي يملك الآن للاعتراض؟

وسرعان ما عوقب تولستوي. فـ«الجريدة الرسمية – برافيتلستفيني فيستنيك» رفضت نشر رسائله ولم تقبلها. وتكتب صوفيا أندريفنا إلى تولستوي في بيغيشيفكا بارتباك: «الهيئة الرسمية لم تقبل الجدل...» الآن

استلمت رسالة من «الجريدة الرسمية مع الرفض. سامحني، ليفوشكا، لأنني دفعتك إلى الكتابة. أتعهد الآن بعدم التدخل بأية قضايا... قال الأمير المعظم، ما قلته لك. وحاول أن تفهمهم!»

ومع ذلك فقد انتشرت الرسالة في الصحف الأخرى. لكن تولستوي، المنصرف كلياً إلى فتح المطاعم للجائعين في مقاطعة ريازان (بلغ عدد المطاعم التي فتحها حتى ذلك الوقت 170 مطعماً) نظر إلى هذا كله نظرة استعلاء. «كرمى لله، يا صديقتي، لا تقلقي بخصوص هذا الموضوع... ومن فضلك لا تتخذي وضع المتهم. إنها إعادة معاصرة لترتيب الأدوار».

ديلون المطعون، بشرفه كمترجم، بعد هذه الإساءة الكبيرة، نشر في مجلة «المواطن – غراجدانين» وفي صحيفة «أخبار موسكو – موسكوفسكيي فيدوموستي» رسائل وردته من تولستوي أكد فيها صحة الترجمة الإنكليزية للمقالة. وهكذا، فقد سقطت جميع التهم على «أخبار موسكو – موسكوفسكيي فيدوموستي» على عدم صحة الترجمة الروسية للنص الإنكليزي المترجم أصلاً عن الروسية. وسرعان ما شاركت الصحيفة في الجدال.

في هذا الموقف تصرف تشرتكوف بحكمة. لم يدن تولستوي بكلمة واحدة على تبرئه. لقد تعاطف مع معلمه وأراد فقط أن يعرف منه، كيف كُتبت هذه الرسالة – «*ضد رغبتك*» أم «*ليس بمبادرة منك*»؟ كان يعرف المبادر إليها، وتابع الدسّ ضدها.

في هذا السياق، أصبحت قصة الصورة عام 1894 القشة الأخيرة التي قصمت صبر زوجة تولستوي. فـ«انفجرت» مرة أخرى. وخسرت من جديد. ومن جديد كان تولستوي مضطراً للاعتذار أمام «الصديق العزيز». وها هو يكتب لتشرتكوف: «إنني ما زلت تحت الانطباع القاسي للمظاهر غير الودية، الناشئة في وسطي العائلي تجاهك وتجاه أصدقائنا هنا في قصة الصورة... من فضلك، حاول أن تسامحني تماماً، أنا وعائلتي».

وسرعان ما شعرت ابنتا تولستوي ماشا وتانيا بذنبهما تجاه تشرتكوف. فهما اعتذرتا كتابياً أيضاً لـف. غ. تشرتكوف، وبذلك خانتا والدتهما،

وأكدتا أنهما لم تدركا أنه يمكن حدوث هذا. في حين أن كل شيء كان مفهوماً. فلو أن تصرف صوفيا أندريفنا كان مدفوعاً بالغيرة والخوف، فإن الغيرة وحدها هي التي دفعت بابنتي تولستوي لهذا التصرف. فثمة العديد من الصور المعروفة التي تصور فيها تولستوي مع أفراد أسرته الكبيرة. وقد أصبح شائب الشعر، ولم يعد بطلاً قوياً جسدياً، يظهر ليف نيقولايفيتش في الصور بصورة مؤثرة محاطاً بأبنائه الكبار الملتحين وكذلك بأولاده الصغار – ساشا وفانشكا. وبالطبع، تظهر الأم في وسط الصورة. كذلك الصورة الجماعية لتولستوي مع «التولستويين» (على الأصح مع «التشرتكوفيين») تصلح لأن تكون «صورة عائلية». وبالطبع في المركز الثاني بعد تولستوي فيها كان تشرتكوف.

مذنب بلا ذنْب

منذ فترة من الوقت، أخذ تولستوي يعتذر بصورة متكررة، مريبة، من تشرتكوف. فبجلوسه على مقعدين، وعيشه مع عائلتين، لم يعد بإمكانه تلبية جميع رغباته، بصورة طبيعية، وأحياناً متطلباته، كما لم يستطع تلبية جميع متطلبات زوجته. ولكن إذا كان بإمكانه مع زوجته أن يتشاجر، بل ويتشاحن، مهدداً بالهروب من الأسرة، كما كانت هي تهدده بالانتحار، فإن مثل هذا التواصل «الساخن» مع تشرتكوف كان غير ممكن. وهنا كان الاختلاف المبدئي بين الزوجة «الجسدية» والرفيق «الروحي».

قبل وقت قصير من قصة الصورة الفوتوغرافية، في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1894، كان تولستوي مضطراً للاعتذار من تشرتكوف لتصرفه المتهور قبل عشر سنوات، عندما سلم لـ «صديقه العزيز»، من باب المحبة والثقة، يومياته الحميمة لعام 1884.

تطورت الأحداث على النحو التالي. في شهر آذار/ مارس عام 1894 يلبي تولستوي الطلبات الملحة لتشرتكوف بزيارته وزوجته غالا في منطقة فورونيج شبه المنسية. وكانت صوفيا أندريفنا ضد هذه السفرة بحزم، وقد استطاعت في السابق أن تقنع زوجها بثني عزمه عن السفر. لا سيما

أن ليف نيقولايفتش مع ابنته ماشا كانا قد سافرا في 25 آذار/ مارس إلى مزرعة رجيفسك، حيث يقيم آل تشرتكوف، وأمضيا هناك بـ«سرور» فترة حتى 1 نيسان / أبريل. وفي رسالته إلى تشرتكوف من موسكو ينهال تولستوي بالشكر على الاستقبال الحار ويكتب أن هذه الفترة ستبقى «من أغلى الذكريات عنده». وقد أعجبه لدى آل تشرتكوف كل شيء على الإطلاق: صاحب البيت ومالكه، وأمه (التي كانت على عداء مع تولستوي بسبب ابنها)، وزوجته غالا وابنه ديما، الذي لم يكن مدللاً بالألعاب، خلافاً لفانشكا (ابن تولستوي – *المترجم*).

من موسكو يرسل تولستوي لغالا المريضة عشرة أرطال من الهليون الذي يشتريه بنفسه من السوق. لكن تبين أن الهليون سيئ، ويوبخ تولستوي التاجر بقسوة، معتذراً أمام آل تشرتكوف، ويرسل لها دفعة جديدة. وفي الوقت نفسه، وبناء على طلب تشرتكوف، يبحث لـ«الصديق العزيز» وأسرته عن حوزة بالقرب من ياسنايا بوليانا. مفترضاً، لسبب ما، أن مناخ مقاطعة فورونيج يدمر صحة غالا، وأنها ستتحسن في مقاطعة تولا. وفي المحصلة، في مقاطعة تولا اندلعت انتكاسة الملاريا عند تشرتكوف نفسه، وتوقفت فور عودته إلى رجيفسك. تتكرر عدة مرات في رسائل تولستوي إلى تشرتكوف كلمة «خدمة». إن الكاتب العظيم يحلم بـ«خدمة» أصدقائه الأعزاء. يصعب القول، ما هو الأكبر هنا: دافع روحي صادق أم رغبة بتحويل فكرة «الخدمة» عملياً، لا لنفسه بل للناس.

يرسل تولستوي أوصافاً تفصيلية (مع المخطط) لنماذج المنازل التي عثر عليها. واستاءت صوفيا أندريفنا بلا حدود. فقد اصطادت زوجها حرفياً (على الأصح، غيابه) أثناء سفرها من موسكو إلى ياسنايا بوليانا، حيث عرفت أن تولستوي يتنقل في ضواحي ياسنايا بحثاً عن منزل صيفي مناسب لآل تشرتكوف. وعدا عن أن هذا، بحد ذاته لا يروقها، فإن أختها الصغرى المفضلة تاتيانا كوزمينسكايا، عندما علمت بعزم آل تشرتكوف، رفضت تمضية الصيف مع أسرتها في ياسنايا بوليانا، كما كانت تفعل كل عام.

ومن جديد، تكتب صوفيا أندريفنا لتشرتكوف رسالة ساخطة. لم يتم الاحتفاظ بالرسالة، لكن الرسالة الجوابية محفوظة. وقد جاء فيها: «أستغل

هذه المناسبة لأعلمك، صوفيا أندرييفنا، كم أنا مسرور بانتقالنا القريب القادم بالقرب من ليف نيقولايفتش العزيز». ويعتذر تشرتكوف أمام الكونتيسة لأنه أزعج الكونت بالبحث عن البيت الصيفي، لكنه يقول آسفاً: إنه طلب من الكونت أن يكلّف بناته بهذه المهمة.

ومرة أخرى، كان على تولستوي أن يعتذر بإحراج بسبب رسالة زوجته: «إنها تخشى... أن تصبح وحيدة». «لو سألتني: هل ترغب هي بأن تأتوا؟ سأقول: لا؛ ولكن لو سألتني: هل أعتقد بأن عليكم أن تحضروا؟ – أعتقد، نعم».

إن ليف نيقولايفتش، الموضوع في وضعية الإنذار، يقوم بالاختيار ليس في مصلحة زوجته وشقيقتها. إن تشرتكوف يفتقر إلى لباقة فهم أن عليه التراجع، وليس على العائلة.

في 18 أيار/ مايو يستقر تشرتكوف وعائلته في قرية ديمينكا التي تبعد خمسة كيلومترات عن ياسنايا بوليانا. وكما يقال في المثل: «لم يأت الجبل إلى محمّد، بل جاء محمد إلى الجبل». لقد كانت هذه بداية كابوس يتكرر بانتظام بالنسبة لصوفيا أندرييفنا، حيث تشرتكوف الذي تكن له الكراهية يستقر ليس روحياً فقط، بل جسدياً أيضاً، بالقرب من زوجها.

أثناء زيارته كل يوم تقريباً لياسنايا بوليانا، يتمتع تشرتكوف بحق حصري بالدخول إلى مكتب تولستوي أثناء عمله، وهو الحق الذي لم يكن يتمتع به لا أولاد تولستوي ولا زوجته. أما من حيث الحياة اليومية فقد اتضح أنه عاجز، مثل معلمه. فهو ينسى حمالات البنطال أثناء السباحة في البركة، ويطلب بورقة مكتوبة من تولستوي وأسرته العثور عليها. لقد ضاعت الحمالات. إنه يرجو تولستوي أن يستأجر له في قرية ياسنايا بوليانا عربة، كي لا يسير سيراً على الأقدام خمسة كيلومترات. فيلبي تولستوي طلبه بكل سرور.

ولكن في ديمينكا بالذات، يرتكب تشرتكوف خطيئة كادت تفقده ثقة ليف نيقولايفتش. فقد كان يتابع في ديمينكا تبييض ونقل يوميات تولستوي. وهو يحضر معه النسخ المتوفرة من اليوميات، بما فيها يوميات عام 1884، التي حفظ مخطوطتها الأصلية لدى رئيس الشرطة تريبوف.

في ديمينكا مرض تشرتكوف مرضاً شديداً، لدرجة أن زوجة تولستوي سافرت ذات مرة إلى تولا كي تحضر له طبيباً. وعندما عاد من جديد إلى رجيفسك في شهر آب/ أغسطس، وخوفاً من تعرضه للموت، سلم تشرتكوف حقيبته التي تحتوي على مخطوطات تولستوي إلى ابنته ماريا لفوفنا لتحفظها مؤقتاً عندها. رأت ماشا اليوميات المشؤومة لعام 1884، وذروة الأزمة الروحية لأبيها، ولعثورها فيها على تصريحات حادة ضد أمها وأخيها سيرغي، فعرضتها على أبيها.

وشعر تولستوي بالخوف.

إن رسائل تولستوي إلى ف. غ. تشرتكوف بصدد هذه اليوميات تثبت من جديد أن تولستوي، منذ بداية صداقته مع تشرتكوف، كان يخضع دوماً لموقف مزدوج. فهو من ناحية، يؤنب نفسه لأنه سلم هذه اليوميات لـ ف. غ. تشرتكوف قبل عشر سنوات، دون أن يتفحص مضمونها باهتمام. ومن ناحية أخرى – وفي إطار الرسالة الواحدة، كان يبدل قراره عدة مرات: هل على تشرتكوف إعادة هذه اليوميات أم لا؟

يكتب تولستوي: «لقد سحبت اليوميات واحتفظت بها عندي. عندما ترسل لي المخطوطة الأصلية، الموجودة عندك بالتأكيد (إنه لا يعرف أن النسخة الأصلية محفوظة عند تريبوف – *المؤلف*)، سأتلف هذه القائمة. تلك اليوميات الموجودة عندك، من فضلك، لا تكلف أحداً بنقلها، بل انقل أفكار المضمون العام، وأرسلها لي. كم عدد دفاتر اليوميات عندك؟ – غير رأيه من جديد: أرسل لك اليوميات، ولكن، أرجوك أتلفها».

إن تصرف ليف نيقولايفتش لا يقبله العقل السليم. وهو يثبت أن تولستوي يخضع بوضوح لتبعية تشرتكوف، وليس تبعية عملية فحسب، بل تبعية روحية أيضاً.

إن الموقف الذي وجد تشرتكوف نفسه فيه، والذي جعل السر مكشوفاً واضحاً، كان دقيقاً للغاية. فهو لم يستطع ألا يعترف لليف نيقولايفتش بأن اليوميات قد تم نسخها وأن النسخة الأصلية محفوظة لدى شخص ثالث. وخوفاً من أن يفقد ثقة تولستوي إلى الأبد، يروي ف. غ. تشرتكوف له

الحقيقة كاملة في رسالة جوابية، دون ذكر اسم تريبوف، واستبدله باسم «صديق موثوق». يعرب تشرتكوف عن التوبة بلا نهاية عن خطيئته، ويطلب الصفح، ويعد بأن يكون حذراً، وأخيراً، يعرب عن خشيته الرئيسة:

«أعترف لك، ليف نيقولايفتش، أنه وبصرف النظر عن تقريع الضمير بسبب الحزن الذي سببته لك، أنا الآن ما زلت أتعذب من المخاوف بأن تفقد ثقتك بي إلى الأبد فيما يتعلق بأوراقك؟ وأن لا تمانع بأن ترسل ماريا لفوفنا، وفق رغبتها، الدفتر الأخير من دفاتر اليوميات المحفوظ عندها، الذي أعطيته لها للحفظ؟»

من هنا يمكننا الاستنتاج أن أرشيف تشرتكوف يحتوي على جميع يوميات تولستوي المتأخرة، باستثناء المدونات الأخيرة التي لم يتمكن من نسخها بسبب المرض والسفر الاضطراري. هذا في حين أن الأرض كانت تحترق من حوله. فقد بدأت عمليات التفتيش والبحث في شقتي بريوكوف وبوبوف. وسرعان ما سوف يفتشون عنده وبعد ثلاث سنوات سيرسلونه إلى إنكلترا.

كان تشرتكوف رجلاً شجاعاً. فقد وزع بصورة غير قانونية مؤلفات تولستوي المحظورة، وطبعها في الخارج. ولكن في شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام 1894 توفي الإمبراطور ألكسندر الثالث، الذي كان يميل إلى تشرتكوف، خلافاً لبوبيدونوستسيف. وقد أسرع تشرتكوف في نسخ اليوميات لهذا السبب أيضاً. بعيداً عن روسيا وعن تولستوي، كان أرشيف تشرتكوف فرصته الوحيدة ليبقى على اتصال مباشر بمعلمه.

يتخذ تولستوي قرار تسوية وحلّ وسط. «النسخة التي تم نقلها أتلفها، أما تلك التي لا تحتاج إليها فأرسلها لي».

ولكن، لماذا لم يتلف هو بنفسه النسخة عندما كانت بين يديه؟ لماذا لم يلزم تشرتكوف بإعادة الأصل فوراً؟ لماذا لم يحذف من اليوميات العبارات والملاحظات المسيئة لزوجته وأولاده، فقد عرض فعل الشيء نفسه على ف. غ. تشرتكوف، مؤتمناً إياه على هذه الأشياء الحميمة؟

أكثر من صداقة

لقد أصبحت الدسائس التي يحيكها تشرتكوف ضد صوفيا أندريفنا وأولادها مسألة عادية بالنسبة له. وبعد أن اشتكى لليف نيقولايفتش على ابنته ماشا في رسالته بشهر أيلول/ سبتمبر عام 1892 لرفضها القيام بأعمال السكرتارية لأبيها وله أيضاً، يحاول في كانون الثاني/ يناير عام 1895 إحداث انشقاق بين الأب وابنته تاتيانا. إنه لم يسامحها بسبب قصة الصورة الفوتوغرافية، ويكتب لليف نيقولايفتش: «لقد كنتُ مخطئاً... لكن هذه الخطيئة لم تستطع، أو على أية حال، لا ينبغي أن تجعل تاتيانا لفوفنا مستاءة، عمداً، وباستمرار، وأن تستخدم بدم بارد لراحتها ومتعتها، مشاركتك في تقسيم الملكية بين أبنائك، التي لم تعدّها خاصة بك. لقد كان هذا خطأً *فعلياً* وليس متخيلاً من جانبك، وهو الخطأ الذي اعترفتَ به وتعترف بصورة *واعية*، والذي سيخدم عندما تصبح تاتيانا لفوفنا معروفة للناس، وتصبح إغراء فعلياً لكثير وكثير من الناس المخلصين، ومع ذلك تتابع تاتيانا لفوفنا كل دقيقة المشاركة في هذا الخطأ لأن لها مصلحة فيه».

وقد أجاب تولستوي: «استلمت رسالتك الباردة – يا صديقي العزيز، ومع ذلك كنت مسروراً جداً، لأنني لم أعرف عنك شيئاً منذ فترة طويلة».

في العام 1895 نفسه، يرسل تشرتكوف لتولستوي سترة، ليست جديدة، وإنما سبق أن لبسها. «أرسل لك سترتي الدافئة، التي قمنا بإصلاحها بوسائلنا المنزلية. (جلبتها لي أمي بناء على طلبي من الخارج، وهي ليست سيئة، على الرغم من أن فاسيلي ألكسيفيتش باشكوف رغب بها كثيراً عندما علم أنها لك.) إضافة إلى ذلك فإن سترتي القديمة هذه ستروقك، لأنها مستعملة بالذات. وهي الآن ستناسبك في الخريف من أجل ركوب الدراجة (في هذه الفترة، تعلم تولستوي قيادة الدراجة – *المؤلف*) وركوب الخيل؛ وهذا يسرني أكثر أنك أنت ترتديها ولست أنا».

ورداً على ذلك، يشكر تولستوي ف.غ. تشرتكوف وغالا بلطف: «شكراً على السترة الرائعة، سوف أرتديها وأتذكركما معاً».

كان القرن التاسع عشر قرناً عاطفياً، بالتأكيد. ونحن لا نفهم الكثير من

سلوك الناس في ذلك الوقت. لكن تشرتكوف كثيراً ما كان يترك في ياسنايا بوليانا أدلة مادية له ولزوجته على وجودهما: من سترة إلى حمالات، ومن ساعة إلى صور شخصية. وفي أواخر أيامه، كان تولستوي يكتب بقلم إنكليزي أهداه له تشرتكوف، - فما هو أكثر من هذا رمزية! والمشهد الختامي لهذه الأشياء والأشياء الصغيرة... ملابس تشرتكوف الداخلية المهداة لتولستوي التي ارتداها تولستوي في أستابوفو، قبل وضعه في التابوت.

في شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام 1895 اقترح ف.غ. تشرتكوف على ليف نيقولايفتش أن يصبح «المنقذ الروحي» له، لتشرتكوف. وعبر عن رغبته بأن يجمع تولستوي في إضبارة مستقلة (يرسلها له) رسائل تشرتكوف، ويومياته، التي سوف يرسلها له. وهذه الإضبارة معدّة لابنه «ديما». واقترح عليه أن يفعل هذا كله في ظروف من «السرّية». «على هذه الإضبارة كتبت رجاءً بأن لا يقرأ أحد مضمونها سواك. وهذا كي أستطيع أن أكتب رسائل لك، ويوميات، بحرية، دون الالتفات إلى الوراء، كما لو أني أمام الله. وبالتالي، فلا تدع أي شخص يقرأ هذه الاضبارة كلها».

ومرة ثانية، ودون توجيه أي لوم بكلمة واحدة لتشرتكوف على فرضه هذا «السر» الجديد عليه، ولم يحاول وضع مساعده أمام حده القانوني، يكتب تولستوي له: «استلمت رسالتك المسجّلة، وكل ما كتبته فيها سأنفذه».

إن عام 1895 هو العام الأسوأ في حياة أسرة تولستوي منذ بداية وجودها. ففي شهر شباط/ فبراير يموت الابن الأصغر فانشكا، وتظهر لدى صوفيا أندرييفنا علامات واضحة على المرض النفسي الذي يبدأ منذ تلك الفترة بالتطور. وليف نيقولايفتش يتحول من رجل مُسنٍّ قوي إلى عجوز طاعن في السن، شائب الشعر، مقوس الظهر. وقد دعت صوفيا أندرييفنا عام 1895 صراحة، بداية هرم تولستوي. إنها ترى أن وفاة زوجها لم تعد بعيدة. ومن المسموح لها، كزوجة كاتب، أن تبدأ بالتفكير بسمعتها وشهرتها بعد موته.

في شهر نيسان / أبريل تسافر صوفيا أندرييفنا إلى شقيقتها الصغرى في كييف، كي تبكي مدة من الزمن. وفي رسالتها إلى زوجها من كييف تذكر ابنها الفقيد ست مرات! وبعد عودتها يبدأ شغفها الحماسي المرَضي بالموسيقى،

وبتانييف... يرى ليف نيقولايفتش أن أشياء غير طبيعية تحدث لزوجته، محاولاً تفسير ذلك بموت ابنها فانشكا. ولكن تبين أن ثمة سبباً لذلك أيضاً.

تواصل صوفيا أندرييفنا حربها اليائسة مع تشرتكوف.

الحرب من أجل اليوميات

منذ منتصف التسعينيات من القرن التاسع عشر، ولشعورها بقرب وفاة زوجها، بدأت صوفيا أندرييفنا تقلق بجد على يومياته، خشية من أن يساء تفسير صورتها في هذه اليوميات من قبل الجمهور، أو من قبل الأجيال القادمة. وتكتب في 1 كانون الثاني/ يناير عام 1895: «يجب أن أكتب يومياتي، للأسف الشديد أنني لم أكتب إلا القليل منها». ولمعرفتها، وإن لم يكن بشكل كامل، لمضمون يوميات ليف نيقولايفتش، تنوي أن تنشئ بصورة منتظمة روايتها لحياتها مع العبقري. وقد كرست لهذه المهمة مذكراتها غير المكتملة بعنوان «حياتي».

وبعد اكتشافها أن يوميات ليف نيقولايفتش قد خرجت من البيت باتجاه «مفرِّق الأسرة» المقيت، شعرت صوفيا أندرييفنا بقلق كبير. لاسيما أن هذه اليوميات بدأوا بإخفائها عنها. وفي تشرين الأول/ أكتوبر عام 1895 في ياسنايا بوليانا، وقبل أن تسافر إلى بطرسبورغ لحضور العرض الأول لمسرحية «سلطة الظلام»، تترك رسالة لا يمكن للمرء أن يقرأها حتى في يومنا هذا، من دون الشعور الشديد بالشفقة على هذه المرأة القوية، لكنها المطعونة بقوة.

«طيلة هذه الأيام كنت أمشي وحجر يضغط على قلبي، لكنني لم أفاتحك خشية من أن أكدّرك، وخشية على نفسي أن لا أصل إلى تلك الحالة التي كنت فيها شتاءً في موسكو (عندما حاولتِ الهروب من البيت – *المؤلف*). لكنني لا يمكنني (للمرة الأخيرة، سأسعى كي تكون الأخيرة) ألا أقول لك ما يرغمني على المعاناة بقوة. لماذا أنت في يومياتك، عند ذكر اسمي، تعاملني دوماً بهذه الدرجة من الحقد؟ لماذا ترغب بأن تحفظ الأجيال القادمة وأحفادنا اسمي كزوجة طائشة شريرة، تجعلك بائساً؟ فإذا كان هذا يضيف لك مجداً، أنك كنت ضحية، فإنه بالقدر نفسه يميتني ويهلكني!...

بعد موت فانشكا (تذكّرْ! «بابا، لا تزعج أبداً ماما») وعدتني بحذف تلك الكلمات الحاقدة السيئة، المتعلقة بي في يومياتك. لكنك لم تفعل هذا، بل بالعكس. أو أنك، حقيقة، تخشى أن مجدك بعد الموت سيكون أقل، إذا لم تجعلني معذِّبة، وأنت المعذَّب الذي يحمل الصليب في وجه زوجته...

عندما لا نكون أنا وأنت في عداد الأحياء، فإن هذا الطيش سوف يفسره كل واحد كما يرغب، وكل واحد سيرمي بقذارته في وجه زوجتك...»

وشعر تولستوي بنفسه «مذنباً ومتأثراً». وظهرت مدونة في يومياته بتاريخ 13 تشرين الأول / أكتوبر: «... *أنا أتنازل عن تلك الكلمات السيئة الشريرة التي كتبتها عنها. هذه الكلمات كُتبت في لحظات الهياج. والآن أكرر ثانية للجميع، لمن تقع بيده هذه اليوميات*. لقد غضبت كثيراً عليها بسبب طبعها السريع غير المتأني، ولكن، كما قال فيت، لدى كل زوج تلك الزوجة التي هو بحاجة إليها. وهي – أرى الآن، كانت تلك الزوجة بالنسبة لي. إنها كانت زوجة مثالية بالمعنى الوثني – الإخلاص، الواجب الأسري، التفاني، حب الأسرة، الوثنية، وفيها تكمن إمكانية الصديقة المسيحية. وقد رأيت هذا بعد موت فانشكا».

في 25 تشرين الأول/ أكتوبر، وبعد أن ودّع للتو زوجته إلى بطرسبورغ، يكتب مدونة جديدة مهمة: «أشعر بالأسى، لأنها تعاني من الوضع الصعب، والحزن، والوحدة. أنا وحيد عندها، وهي تتشبث بي، وفي أعماق روحها تخشى أن لا أحبها لأنها لم تأت إليّ (لم تفهم أبحاثه الروحية – *المؤلف*). أنا لا أعتقد هكذا. أنا أحبكِ أكثر، أفهم كل شيء – وأعرف أنك لم تستطيعي، لم تتمكني من القدوم إليّ، ولهذا بقيت وحيدة. لكنك لست وحيدة. فأنا معك، كما أنت، أحبك وأحبك حتى النهاية، كما لا يمكن الحب أكثر...»

وفي رسالة إلى تشرتكوف بتاريخ 12 تشرين الأول / أكتوبر (إثر قراءته رسالة زوجته) طالبه تولستوي بصيغة واضحة بإعادة اليوميات. «الآن أكتب لك الشيء الرئيس وهو: أطلب منك أن ترسل لي يومياتي الموجودة لديك بسرعة».

وكان تشرتكوف مضطراً لإعادة اليوميات. ولكن برجاء مقنع: احفظها

كلها في مجلد منفصل و«لا تبقِها عندك، وسلمها لبناتك للحفظ، وإلا، في حالة الموت المفاجئ، قد يمكن التعامل معها بطريقة أخرى غير الطريقة المناسبة».

ولكن مع إعادته ليوميات أعوام 1889، و1890، و1891، لم يتخلّ تشرتكوف عن يوميات عام 1884، حيث ورد اسم زوجة تولستوي بـ«الصليب» و«الرحى على العنق». وكتب لتولستوي: «بناء على رغبتك، أعدت قراءتها، وحذفت أو قصصت الأماكن غير المرغوب فيها». وهكذا، فقد أخذ تشرتكوف على عاتقه كامل الحق بأن يكون رقيباً أخلاقياً على تولستوي.

إن حرب اليوميات التي بدأت في التسعينيات من القرن التاسع عشر استمرت حتى هروب ليف نيقولايفتش من ياسنايا بوليانا. كان على الجانب الأول - تشرتكوف بشغفه في جمع مخطوطات ليف نيقولايفتش، بما فيها ذات الطابع الحميمي. وعلى الجانب الآخر - صوفيا أندريفنا برغبتها في «تصحيح» تاريخ العائلة الحي.

وفي نهاية الأمر، أصبح هذا هو «الصليب» الذي صُلب عليه تولستوي.

الفصل التاسع
الحرمان والوصية

عندما كان تولستوي جالساً في قاعة الانتظار النسائية في محطة أستابوفو، كانت ساشا وفيوكريتوفا تجمعان في القاطرة الأشياء المعدة للرحلة الطويلة إلى نوفوتشركاسك. وقد تذكرت ألكسندرا لفوفنا: «عندما جئنا إلى المحطة، كان أبي يجلس في القاعة النسائية للانتظار على أريكة في معطفه البني، وبيده عصاه. وكان كله يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه، وكانت شفتاه تتحركان بضعف. عرضت عليه الاستلقاء على الأريكة لكنه رفض. كان الباب المؤدي إلى غرفة انتظار السيدات مغلقاً، ولكن بالقرب منه اجتمع حشد من الفضوليين، الذين انتظروا مرور تولستوي. وبين الحين والآخر كانت تندفع السيدات، معتذرات، فيقفن أمام المرآة، ويصححن تسريحة شعرهن وقبعاتهن ويخرجن...»

تابع ساشا ذكرياتها: «عندما قدنا والدي متأبطين ذراعه عبر قاعة المحطة، اجتمع حشد من الفضوليين. وقد خلعوا قبعاتهم وانحنوا لوالدي. كان والدي بالكاد يمشي، لكنه كان يرد على تحياتهم، رافعاً يده بصعوبة إلى القبعة».

أما حشد الفضوليين فيبرز في مذكرات ماكوفيتسكي باسم «الأشخاص الذين يرتدون ملابس رائعة». وقد ظنهم الطبيب في البداية أنهم ركاب ينتظرون صفارة قطارهم، لكنهم كانوا موظفي السكك الحديدية. وبينهم كان يقف الصحفي كونستانتين أرلوف مراسل صحيفة «الكلمة الروسية – روسكوي سلوفو».

عندما جهزوا السرير للمريض في منزل رئيس المحطة أوزولين وحان وقت إدخاله إلى البيت، ظهرت مشكلة. فقد كان يعتقد ماكوفيتسكي أنه من الأفضل حمل تولستوي وليس اقتياده إلى البيت. فمع كل حركة يقوم بها، كان المريض يفقد قواه الثمينة، وقلبه كان يعمل بجهده الأقصى. ولكن، كيف، ومن سيقوم بذلك؟ لم يعبر أحد من الحشد، بمن فيهم الصحفي عن استعداده لمساعدة الطبيب والفتاتين. كانوا يرفعون قبعاتهم وينحنون. لكنهم لم يقدموا على المساعدة. فقد خشوا لمس تولستوي.

أخيراً قرر أحد الموظفين حمل تولستوي من الخلف من تحت ذراعيه. واتضح فيما بعد، أن أباه كان من سكان ياسنايا بوليانا. وعند مخرج المحطة اقترب إليه أيضاً حارس في السكك الحديدية، وأمسك بتولستوي من تحت إبطيه من الأمام.

ويشير ماكوفيتسكي إلى أن تولستوي «سقط بشدة إلى الأمام». إنه لم يعد قادراً على المشي. لقد انتهى الهروب.

في منزل أوزولين، رفض الاستلقاء في السرير فوراً، وجلس طويلاً على الأريكة، دون أن يخلع المعطف والقبعة. ويشرح ماكوفيتسكي ذلك بأن ليف نيقولايفتش خاف من الاستلقاء في سرير بارد. لكن ساشا في ذكرياتها تقدم تفسيراً لذلك، أكثر طرافة وإثارة للاهتمام.

«عندما أصبح السرير جاهزاً، اقترحنا عليه أن يخلع ثيابه ويستلقي، لكنه رفض، قائلاً، إنه لا يمكنه الاستلقاء إلى أن يصبح كل شيء جاهزاً للنوم، كما هو الحال دائماً. عندما قال هذا، أدركت أنه بدأت عنده حالة من الإغماء. يبدو، أنه يظن أنه في بيته، وهو مستغرب، أنه ليس كل شيء على ما يرام، كما اعتاد.

– لا يمكنني الاستلقاء هكذا، افعلوا، كالمعتاد، دوماً. ضعوا طاولة السرير الصغيرة وكرسياً.

عندما تم فعل ذلك، بدأ يطلب وضع شمعة، وأعواد ثقاب ودفتر ملاحظات، ومصباح يدوي على الطاولة، وكل شيء كما في البيت».

إن ذكريات ساشا تؤكدها ذكريات أوزولين. وهنا ينشأ شعور غريب. إن

تولستوي، الذي هرب من ياسنايا بوليانا ووجد نفسه في مقاطعة أخرى، وفي بيت غريب، يظن أنه موجود في حوزته، ويستغرب: لماذا ليس كل شيء في غرفة النوم على ما يرام، كما العادة؟

كان ماكوفيتسكي خلال هذه الفترة مشغولاً بأمور أخرى. كان من الضروري إشعال الموقد، وتسخين الطوب لوضعه إلى جانب قدمي المريض، وتسخين الماء. وبحسب رأي ماكوفيتسكي، فإن تولستوي، بجلسته على الأريكة، كان في حالة وعي واضح. وقد طلب استدعاء أوزولين وزوجته. واعتذر أمامهما لما سببه لهما من إزعاج، وشكرهما، ورجاهما الصبر. فتأثر صاحبا البيت. واعتذرا عن الضجة التي يحدثها الأولاد في الغرفة المجاورة.

قال ليف نيقولايفتش:

– آه، أصوات الملائكة هذه، لا حاجة للاعتذار.

... بعد بضعة أيام عندما جلست إلى جانبه ابنته تاتيانا، تذكر تولستوي من جديد، البيت، وقال لها: «الكثير يقع على صونيا. لقد تصرفنا بشكل سيئ». لقد فهمتْ ماذا يقصد الأب، لكنها سألته مرة أخرى: «ماذا قلت، يا بابا؟». فكرر قائلاً: «على صونيا، على صونيا يقع الكثير...»

و – فقد وعيه.

نهاية القرن

عاش تولستوي بصعوبة بالغة نهاية القرن التاسع عشر. يكتب ابنه سيرغي لفوفيتش: «لقد كانت السنوات الخمس الأخيرة من القرن التاسع عشر مرحلة قاسية في حياة أبي. في عام 1895 توفي ابنه الأصغر فانشكا، الطفل في السابعة من عمره، وكان صبياً موهوباً ونجيباً، أكبر من سنه، وكان صادقاً ومتعاطفاً. وقد أحبته كثيراً أمه وكذلك أبوه، وقد جمع بينهما الحب نحوه. وبعد وفاة فانشكا، فقدت أمي لفترة من الزمن معنى حياتها، وحالة الهستيريا التي كانت تعاني منها قليلاً ظهرت بقوة جديدة.

خلال هذه السنوات الخمس، أختاي تاتيانا وماريا تزوجتا وغادرتا بيتنا.

وأبي، الذي كان يحب على نحو خاص بناته، عانى كثيراً من غيابهما، رغم عدم تصريحه بذلك، وحاول كبت هذا الشعور.

في بيت الوالدين بقيت ابنتهما الصغرى ألكسندرا وحدها. في عام 1900 كان عمرها 16 عاماً. الأبناء كانوا يعيشون منفصلين عن بيت الأسرة. وكان الأب يشعر بنفسه وحيداً؛ وكان يسيطر على المنزل مزاج كئيب...»

كان مزاج الزوجين حزيناً عشية القرن العشرين. ولم تعد تظهر بينهما حتى مشاهد الغيرة، والمشاجرات الحامية. وأصبح الجو بارداً ومملاً في ياسنايا بوليانا. وها هي صوفيا أندريفنا تكتب في يومياتها في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1900: «بكثير من الجهد، أتمكن من استنتاج وتخمين ما يفكر به زوجي وكيف يعيش. لم يعد يحدثني قط لا عن كتاباته، ولا عن أفكاره، وأصبحت مشاركته في حياتي أقل وأندر».

لكن تولستوي، في هذا الوقت، كان يعيش حياة روحية وأدبية واجتماعية مكثفة للغاية. إنه يدرس نيتشه ولمبروزه، ويهتم بالحرب في الفيليبين وفي الترانسفال (بريتوريا – جنوب أفريقيا – م.). ويلتقي بالكاتب مكسيم غوركي («تحادثنا بشكل جيد للغاية. وقد أعجبني. إنسان حقيقي من الشعب»). إنه يشاهد مسرحية تشيخوف «العم فانيا» و«يستاء منها». يتابع مسألة الدوخوبوريين، ويهتم بتوطينهم في كندا. يكتب مقالة عن الوطنية و«عبودية المال». يقرأ عالمي النفس وندت Wundt وكيفتنغ ويجدهما «مقنعين، مفيدين». يدرس من جديد تعاليم كونفوشيوس، ويكتب أفضل مسرحياته «الجثة الحية».

يومياته لعام 1900 مكتظة بالأفكار، وكل فكرة تساوي وزنها ذهباً. فمثلا: «الحياة هي امتداد للحدود التي وُضع ضمنها الإنسان». وثمة الكثير في هذه اليوميات من الأفكار والأحكام حول الزواج والنساء، ولكن لا يرد فيها تقريباً أي ذكر لزوجته.

في نهاية القرن التاسع عشر، حلت بأسرة آل تولستوي مصيبة أخرى. فقد توفي الابن البكر واسمه ليف. ليف الثالث لابن تولستوي ليف لفوفيتش وزوجته السويدية دورا في ياسنايا بوليانا. وهناك صورة فوتوغرافية مؤثرة

يظهر فيها الثلاثة معاً الذين يحملون اسم ليف. والحفيد الصغير، قبل فترة قصيرة من وفاته، كان يجلس في حضن جده. بعد وفاة ابنها البكر، رفضت دورا – الأم المفجوعة – الإقامة في روسيا قطعياً، ورحلت مع زوجها إلى السويد.

حرمان تولستوي

بدأ القرن العشرون لتولستوي بحدث أُعطي، وربما ما زال يُعطى، أهمية كبيرة جداً، بسبب الهزة الاجتماعية التي أحدثها في روسيا. لقد «حُرم» تولستوي من الكنيسة الأرثوذكسية. وفي نهاية القرن العشرين انتشر نوع من «الموضة» للنقاش حول ماذا كان الحرمان حرماناً أم مجرد اعتراف بأن تولستوي، كما حدث في الواقع، من فترة معينة لم يعد عضواً في الكنيسة الأرثوذكسية. ويحبُّ الجدال حول هذا الموضوع الكتاب والدعاة المدنيون، المتدينون بخاصة. ويعلنون: «لم يكن هناك حرمان. كان هناك تعريف فقط».

وكأن هذا يغير شيئاً من الواقع.

في 24 شباط/ فبراير نشرت «الجريدة الكنسية تسركوفنيي فيدوموستي» «*تعريف*» السينودس رقم 557 تاريخ 20-22 شباط / فبراير «برسالة إلى أبناء الرعية الأمناء للكنيسة الأرثوذكسية اليونانية – الروسية حول الكونت ليف تولستوي» الذي قال، إن «الكنيسة لا تعتبره عضواً فيها ولا يمكن أن يُعتبر حتى يتوب».

بالطبع، كانت رسالة السينودس (المجمع الكنائسي) أطول. ومن الواجب الاعتراف، كانت مقنعة للغاية. وفيما يلي البنود التي «حُرم» بموجبها ليف نيقولايفتش:

«– ينفي الإله الحي، والثالوث المقدس، خالق ومبدع الكون.

– ينفي الرب يسوع المسيح – إنسان الله.

– ينفي يسوع المسيح كمخلص، عانى من أجل الناس، ومن أجل خلاصنا،

- ينفي يسوع المسيح كمخلص للعالم،
- ينفي الولادة من دون بذرة إنسانية للسيد المسيح،
- ينفي عذرية أم الله مريم العذراء قبل ولادتها السيد المسيح،
- ينفي عذرية أم الله مريم العذراء بعد ولادتها السيد المسيح،
- لا يعترف بالحياة الآخرة والثواب،
- يرفض جميع أسرار الكنيسة والتأثير المبارك فيها للروح القدس،
- مع شتمه لأقدس الأشياء - عقيدة الشعب الأرثوذكسي، لم يتورع عن السخرية من القربان المقدس».

كان يمكن لتولستوي أن يوقع بيد لا ترتجف تحت كل من هذه التهم. ربما بعض الفقرات كانت مصوغة بطريقة غير صحيحة تماماً، إن صح التعبير. فمثلاً، لم ينكر تولستوي الحياة الآخرة (بأشكال غير معروفة)، ولم ينف «الثواب والعقاب» (في الحياة - آلام الضمير، الفراغ الروحي). ولكن مفهومه بالطبع، لا يتوافق مع المفاهيم الكنسية.

بعد «نقد العقيدة اللاهوتية»، وهو العمل الباكر الذي «قلب» تولستوي، وبعد عدد من مقالاته وتصريحاته، وأخيراً، بعد وصفه الساخر جداً للقربان في رواية «البعث»، يصبح الحديث عن تولستوي الأرثوذكسي، بل وحتى عن تولستوي *الكنسي*، بلا معنى وبلا طائل. ولكن في هذا بالذات، كانت تكمن عبثية تعريف السينودس.

إن الكتابة هنا عن دين تولستوي بالمقارنة مع دين الأرثوذكسية الروسية كان يعني تأليف كتاب آخر مختلف تماماً. وهذه المسألة المهمة يعمل عليها اليوم باحث جاد كبير، هو الكاهن غيورغي أوريخانوف. ونأمل أن يقدم عمله المقبل أجوبة عن كثير من الأسئلة.

يهمنا اليوم الحقيقة ذاتها، حقيقة ظهور هذا «التعريف»، ويهمنا في هذا الوقت بالذات.

سؤال بسيط: لماذا ظهر عموماً هذا «التعريف»؟ لماذا كان «حرمان» شخص من الكنيسة لا ينتمي إليها منذ فترة طويلة؟ لماذا كانت هناك حاجة

لهز قارب الرأي العام الروسي المتزعزع من دون ذلك، وخلق مشكلة حاول السينودس فيما بعد حلها ولم يتمكن؟ هذا هو اللغز.

كانت الكلمة المرجعية في نداء السينودس إلى رعايا الكنيسة هو كلمة «المؤمنين». وكأن السينودس بـ«تعريفه» هذا فصل «المؤمنين» عن المتشككين. وعلى «المؤمنين» الارتداد عن تولستوي باعتباره زنديقاً أكيداً. وعلى المتشككين أن يفكروا: مع من هم؟ مع الكنيسة أم مع تولستوي؟ هنا فقط يمكن العثور على التفسير المنطقي لظهور هذا «التعريف» في الوقت غير المناسب إطلاقاً لروسيا.

ولكن من كان «روح» هذا الفعل المنطقي، على سبيل الافتراض؟ من كان مهتماً إلى هذه الدرجة بـ«رعايا المؤمنين» الذين كان يمكن لتعاليم ليف الحانقة أن تربكهم وتضلّلهم بالطبع؟ ولماذا كان من غير الممكن توجيه لعنة الكنيسة بالذات إلى الزنديق *الحقيقي* تولستوي؟

ثمة اعتقاد قوي بأن المبادر الرئيس لـ«الحرمان» كان ك. ب. بوبيدونوستسيف المدعي العام للمجمع الكنائسي المقدس. وكأن عمله هذا كان انتقاماً شخصياً لشخصية البيروقراطي البارد الساخرة في رواية «البعث» الذي تعرف فيها المعاصرون على بوبيدونوستسيف. بيد أنه ليست هناك أية شهادات مباشرة تدل على أن بوبيدونوستسيف بالذات كان المحرك الرئيس لوضع وثيقة السينودس.

بحسب رأي ف. م. سكفورتسوف، موظف السينودس الواسع الاطلاع، فإن بوبيدونوستسيف بالذات كان ضد نشر قرار السينودس هذا بحق تولستوي، وبقي على رأيه بعد نشره[1]. إن موقف بوبيدونوستسيف معروف جيداً. ملاحقة «التولستويين»، وعدم المس بتولستوي. لكن قرار السينودس كان فيه «مس» بتولستوي بالذات.

وهذا لم يرق لبوبيدونوستسيف. ولكن يبدو أنه رضخ لضغط مطران العاصمة أنتوني (فادوفسكي)، الذي كان راضخاً بدوره لضغط كاهن آخر، مجادل معاد لتولستوي، لم يذكر سكفورتسوف اسمه.

1- دراسة س. ل. فيرسوف في «مجموعة ياسنايا بوليانا» – 2008. – المؤلف.

لم يكن عدد المجادلين المتحمسين ضد بدع تولستوي في تلك الفترة قليلاً. وعلى سبيل المثال، كتب البروفيسور آ. ف. غوسيف، أستاذ الأكاديمية الروحية الأقدم في قازان سلسلة كاملة من المنشورات ضد تعاليم تولستوي. وبهذه المناسبة، كان هو الذي استجوب في دير فيودوروف بشكوف (غوركي) «الذي أطلق النار على نفسه» وحاول في نهاية الثمانينيات من القرن التاسع عشر في قازان الانتحار، وحكمت عليه الكنيسة بالحرمان لمدة أربع سنوات. ولكن من المستبعد أن يكون لهذا الاستاذ المتواضع نفوذ لدى مطرانية بطرسبورغ.

كان المجادل الأكثر نفوذاً ضد تولستوي الأب يوحنا كرونشتادسكي، الواعظ الأكثر شهرة في روسيا، والمعترف به في عامة الشعب بأنه صانع المعجزات وقد أصبح فيما بعد عضواً في السينودس. ولكن، أولاً، يوحنا كرونشتادسكي لم يكن له وزن في السينودس. لقد كان يوحنا «أباً» لعامة الشعب، لكنه لم يكن موظفاً رسمياً في السينودس. وبهذه المناسبة، لا مكان لتوقيعه على قرار السينودس. وثانياً، لو كان القرار بيد يوحنا كرونشتادسكي، فكان المفروض ليس «حرمان» تولستوي، بل إعدامه على مرأى من الشعب، وضعه على دولاب وقطع يديه ورجليه ورأسه. وقد وصلت كراهية الأب يوحنا لتولستوي إلى درجة الجنون تقريباً. ومن المستحيل قراءة «مجادلة» يوحنا كرونشتادنسكي ضد تولستوي. فهي ليست مجادلة بل مجرد سباب وشتائم فارغة. وفي يومياته قبيل وفاته بتاريخ 6 أيلول / سبتمبر عام 1908 وصل إلى درجة أن يرجو الله أن يقتل تولستوي، كي لا يعيش العجوز البالغ من العمر ثمانين عاماً، لرؤية ميلاد السيدة مريم العذراء «التي جدّف ويجدف ضدها بشدة». «خذه من الأرض – هذه الجثة النتنة، هذا الذي ملأ الأرض كلها بالخزي والعار بكبريائه وتشامخه. آمين. 9 مساء». هذه كانت الصلاة المسائية للأب يوحنا. والمذهل، أنه بعد يومين تحديداً نقرأ في اليوميات ذاتها: «يا إلهي، نصلي لك بخشوع من أجل شفائها المريضة أنا (غريغوريفا) من خلال عجزي وعدم أهليتي. اشفها. يا طبيب الروح والجسد، وأظهر لنا رحمتك وقوتك».

حقاً – الإنسان الروسي واسع، رحب.

إذن، على الأغلب، لم يكن هناك «فضل» مباشر للأب كرونشتادتسكي في حرمان تولستوي. فهذا كان معيار آخر لـ «الجدل» الروحي.

في ذكرياته، يتحدث ف. م. سكفورتسوف عن حلقة من «المؤثرين على الحاكم أنتوني رياسونوستسيف»، ذاكراً أسماء أنتوني (خرابوفيتسكي)، سيرجيوس (ستراغورودسكي)، إينوكيني (بيلياييف)، أنتونينا (غرانوفسكي) وميخائيل (سيميونوف). كما يلمح أيضاً إلى حقيقة أن حملة كبار كهنة السينودس ضد تولستوي اتخذت خطوات أكثر حزماً ضد الكاتب الشهير. ذلك أن تولستوي لم يجرؤ على «المس» به لا الإمبراطوران الروسيان، ولا المدعي العام.

والطريف في الأمر أن جميع من ذكر أسماءهم سكفورتسوف من «حلقة المؤثرين» لم يوقع أحد منهم، مثلهم مثل الأب كرونشتادسكي، على قرار السينودس.

وقد وقع قرار السينودس إلى جانب أنتوني (فادكوفسكي) فيوغنوست مطران كييف وغاليتسكي مطران موسكو وكولومينسكي مطران فلاديمير؛ جيروم رئيس أساقفة خولمسك ووارسو؛ ويعقوب أسقف كيشينيف وخوتين، والأسقفان بوريس وماركل.

وهكذا، فإن الشخصية الأكثر تطرفاً في هذه القصة كان أنتوني (فادكوفسكي).

وهنا يبدأ الأكثر أهمية. يؤكد سكفورتسوف أن نص الحرمان قد كتبه بوبيدونوستسيف. لكن أعضاء السينودس أدخلوا عليه التعديلات، كي لا يبدو «التعريف» بمنزلة «حرمان»، بل يدل فقط على خروج تولستوي نفسه من الكنيسة. علاوة على ذلك، لم يُختتم «التعريف» بلعنة «المعلم الكاذب» الكونت تولستوي، كما كان هو فعلاً، بالنسبة لبودونوستيف، الذي يملك كل الأسس حتى لا يحب تولستوي منذ عام 1881، عندما حدثت بينهما المعركة الأولى على النفوذ على القيصر ألكسندر الثالث الذي كان لا يزال شاباً. بل اختتم بالدعاء. وهذا الدعاء، بالطبع، لم يُكتب بيد بوبيدونوستيف. «بشهادتنا هذه بخروجه من الكنيسة، فإننا في الوقت نفسه، نصلي بأن يمنحه

الله التوبة ويعقل الحقيقة. صلّ أيها الرب الرحيم، كي لا يموت مع الخُطاة، واسمع وأعده إلى كنيستك المقدسة. آمين».

وقد تحدثت وثيقة السينودس عن موهبة تولستوي الفنية الروائية الكبيرة التي هي منحة من عند الله. وهكذا، فإن قارئ هذه الوثيقة النبيه والمهتم يفهم العمق الكامل للمشكلة التي واجهت كلاً من الكنيسة وتولستوي. فالكاتب الكبير، مجد الأرض الروسية، «نبذ أمه والكنيسة الأرثوذكسية اللتين أطعمتاه وربّتاه، وكرس نشاطه الأدبي كله وموهبته المعطاة له من الله من أجل نشر تعاليم بين الشعب، معادية للمسيح والكنيسة، ومن أجل تدمير عقول وقلوب أناس عقيدة وطنه، العقيدة الأرثوذكسية».

ومن يمكنه القول إنه لم تكن هناك هذه المشكلة؟ لقد كانت مشكلة، ومشكلة كبيرة! بالطبع، كانت هذه مأساة بالنسبة لتولستوي أيضاً التي كانت شقيقته الحبيبة تعيش راهبة في شاموردينو، والتي هرب إليها تولستوي في نهاية الأمر من ياسنايا بوليانا.

ولكن لم يظهر تقريباً في روسيا قرّاء يقظون، منتبهون، مرهفو الحس. كما أن وقت ظهور تعريف السينودس هذا لم يكن مناسباً. في بداية القرن العشرين، كانت روسيا مدفوعة، تترنح. ولم يبق سوى سنوات معدودات على بداية المذبحة الدموية في أعوام 1905–1907 وإجراءات ستوليبين الانتقامية الوحشية في قمع الثورة الروسية الأولى. ففي هذه الفترة كانت أية وثيقة «ساخنة» لا يمكن أن تحمل معها سوى الضرر. هذا في حين أن سمعة تولستوي – المعلم في هذه الفترة بالذات اقتربت إلى ذروتها (وقد قرّبت وثيقة السينودس، بالذات، هذه الذروة).

لقد كانت وثيقة السينودس خطأً واضحاً. من حيث المبدأ، وُضعت الوثيقة بشكل صحيح، لكنها طبعت ونشرت في الوقت الخطأ، *وليس في روسيا تلك* التي كانت يجب أن تظهر فيها، *وليس لتولستوي ذاك* الذي كان من الممكن أن يلتزم بها، وقد هزت المجتمع الروسي لا بمعناها، بل بحماسة القرون الوسطى لمثل هذا العمل. فقد ظهرت هذه الوثيقة بعد فترة قصيرة من يوم الاحتفال بانتصار الأرثوذكسية. وفي يوم الاحتفال بانتصار

الأرثوذكسية بالذات، تعلن، بصورة تقليدية، «اللعنة» على جميع الزنادقة والمتمردين. وكانت آخر مرة يجري فيها هذا التقليد في القرن الثامن عسر بإعلان اللعنة على غيتمان مازيبا. ولكن، واعتباراً من عام 1801 لم تعد تذكر أسماء الزنادقة في الصلوات الكنسية، ومنذ عام 1869، حذفوا من قائمة الأسماء التي يلعنها الكهنة حتى اسم مازيبا وأوتريبييف[1]، أي مجرمي الدولة الصريحين.

بالطبع، اسم تولستوي لم تحل عليه «اللعنة» في الكنائس، كما ورد في إحدى قصص كوبرين. لكن المسألة ليست هنا. المسألة هي أن *«تعريف»* السينودس المقدس فُهم في جميع طبقات المجتمع الروسي، من العمال إلى الطلاب، ومن الأساتذة إلى الكهنة العاديين على أنه *«حرمان»* وليس شيئاً آخر. إن وثيقة السينودس قد أعادت إلى الوعي الروسي ذكرى زمن حبقوق واضطهاد المنشقين. «حرمان!» «حرمان!» وحرمان مَن؟ أعظم كتاب العصر، مجد البلد!

في 4 آذار/ مارس عام 1901 في ساحة قازان ببطرسبورغ، جرت مظاهرة تأييداً لتولستوي، وقامت الشرطة بضرب المشاركين فيها.

وفي المعرض التاسع والعشرين لجمعية الفنانين المتجولين زيّن الجمهور لوحة ريبين «تولستوي أثناء الصلاة» بالأزهار. وقد اضطروا في المحصلة إلى إزالة اللوحة.

وكان هناك الكثير من هذه الأحداث. كانت ترد إلى ياسنايا بوليانا رسائل وبرقيات عديدة بلا نهاية تحمل عبارات التهنئة (!) – لأن تولستوي حرموه من الكنيسة.

وقد نشر الفيلسوف والناقد الأدبي الكبير فاسيلي روزانوف مقالة حادة

1- غيتمان (القائد) مازيبا. إيفان مازيبا (1644-1709) قائد عسكري أوكراني، حاول فصل أوكرانيا عن روسيا – وانضم إلى السويديين في حربهم ضد بلده، واعتبر خائناً في روسيا. – المترجم –

أوتريبييف: شمّاس هارب من دير تشودوفو في موسكو. سمى نفسه ابن إيفان الرابع الرهيب في عام 1606 – دميتري. وقد تم اكتشاف كذبه وقتله، وسمي بـ «دميتري الكذاب». – المترجم –

اسمها يتحدث عنها: «حول حرمان الكونت ليف نيقولايفتش تولستوي من الكنيسة». يقول روزانوف: «هذا في حين أن تولستوي، على الرغم من الوجود الكامل لضلالاته وأخطائه، وكلماته القارصة، هو *ظاهرة دينية كبيرة*، وربما أعظم ظاهرة في التاريخ الديني الروسي خلال القرن التاسع عشر، وإن كانت ظاهرة مشوّهة. فشجرة البلوط الضخمة التي نمت معوجة هي شجرة بلوط، ولا يمكن أن تصدر الحكم عليها مؤسسة شُكلت بصورة رسمية – ميكانيكية، لم تنمُ بعد، بل صُنعت بأيدي البشر (بطرس الأكبر وسلسلة من أوامره اللاحقة). وبالتالي، فإن السينودس واضح أنه لا يمكنه الاقتراب من هذا الموضوع، وبقي حذراً فترة طويلة من الاقتراب واقترب، وأقدم على خطوة – بإصداره هذه الوثيقة – هزّ دعائم العقيدة الروسية أكثر مما فعلت عقيدة تولستوي».

لقد سبب قرار السينودس الانقسام حتى في صفوف رجال الكهنوت. واتضح فجأة أنه ليس بين «المؤمنين من رعايا» الكنيسة الأرثوذكسية فقط، بل حتى بين رعاتهم أيضاً ثمة الكثير من محبي تولستوي. وقد أهانهم قرار السينودس مرتين – من أجل كاتبهم المفضل، ومن أجل كنيستهم الأرثوذكسية.

لقد أثار قرار السينودس الانقسام حتى بين الرهبان، المتعصبين الأكثر غيرة على الأرثوذكسية. ومن الرسائل التي نشرت مؤخراً من جبل آثوس من الراهب زينوفون (الأمير كونستانتين فيازيمسكي) إلى أخته يمكن الحكم على ما فجرته وثيقة بطرسبورغ في مقامات الأرثوذكسية الروسية من شك، ومن سخط أحياناً.

كتب زينوفون: «إن عمل السينودس هو متابعة الكنيسة، أي ملاحظة أن يتصرف رجال الدين بشكل لائق». «إن شتم وإفساد الناس لأنهم يفكرون بشكل مختلف عن الآخرين لا يدخل في إطار نشاطات المجمع الكنسي (السينودس)». «إن تولستوي نفسه كان يعلن دوماً أنه لا ينتسب إلى الكنيسة الأرثوذكسية، ما يعني أنها لا تملك أي حق عليه، كما لا تملك أي حق على الطائفيين، ولا على اللوثريين، ولا على الكاثوليكيين». «إذا كانوا يريدون إدانة ووصم تفسيرات تولستوي الدينية فعليهم الدعوة إلى مجلس والإصغاء إلى شروحه، وليس اتخاذ قرار غيابي مثل باباوات روما. وعلى أية حال، ومن

لا يعرف أن العواطف الشخصية وإهانة الكرامة الشخصية تلعب دوراً هنا».

ولعدم درايته الكبيرة بدسائس العاصمة، وضع زينوفون الذنب الرئيس في «الحرمان» على بوبيدونوستسيف. والجزء الآخر من الذنب وضعه على كرونشتادسكي، الذي كان يعرفه شخصياً منذ زمن ولم يحبه، معتبراً إياه «دجالاً ضاراً». لكن جوهر المسألة ليس في التفاصيل. وهاكم المقطع الرئيس من الرسالة: «لدي معلومات دقيقة حول كل ما يتعلق بهذه المسألة، لأن لدينا كثيرين يتلقون أخباراً مباشرة من السينودس، والجميع تهمهم هذه المسألة بشكل كبير، وجميع الأديرة تنقسم إلى معسكرين: إلى الحاقدين والكارهين لتولستوي (وهم الأغلبية) والمتعاطفين والخائفين من هذا الصراع الذي نشأ في روسيا».

على الرغم من أن موقف زينوفون نفسه لا يمكن أن يكون موضوعياً. فعندما كان زينوفون الأمير فيازيمسكي، وكان كاتباً ورحّالة، زار ياسنايا بوليانا مرتين وأعجب بتولستوي كإنسان. يقول زينوفون: «كيف يمكنني التصديق، أن هذا الرجل العجوز اللطيف، الذي يرتب السرير لضيوفه بنفسه، ويبتسم بلطف، جالساً خلف السماور، يمزح بلطف مع الوافد الجديد، الذي لم يألف غرائبه، هل يمكنني أن أصدق أنه كان مسيحاً دجالاً، ومرتداً وما شابه ذلك. هذا الذي يعامل بكثير من المحبة والاهتمام أي مسكين فقير، هل يمكن أن يكون إنساناً سيئاً؟ اسألوا الفلاحين في منطقته، إنهم يصلّون له ومن أجله، ولا يخرج من عنده أحد دون أن يكون راضياً، ولا يرفض تقديم المساعدة لأحد».

على ما يبدو، كان الموقف من تولستوي بين الرهبان أكثر تعقيداً منه بين رجال الكهنوت. ولهذا السبب، أجرى الأب أمبروز ساعات طويلة من المحادثات. ولهذا السبب، كان سكان دير شاموردينو يحبونه حباً جماً. ولهذا أيضاً، أوليت تلك الأهمية الكبيرة لفشل ليف نيقولايفتش في لقاء الأب يوسف في زيارته الأخيرة لأوبتينا. ولهذا أيضاً تعاطف رهبان هذا الدير البسطاء معه هذا التعاطف.

لقد استشعر فيه الرهبان مرشداً روحياً. إنهم كانوا يدركون أنه ليس

بكتاباته، بل بنمط حياته نفسه، كان تولستوي يشبه أكثر النموذج الأصلي للناسك المسيحي، أكثر من العديد من رجال الكهنوت الرسميين، وبخاصة الذين يتمتعون بسلطة كبيرة. نعم لقد كان مرشداً روحياً «خاطئاً»، «شجرة بلوط نمت معوجة»، حسب تعبير روزانـوف. نعم كتاباته عن الكنيسة رهيبة. لكن الكتابات تبقى كتابات، أما مظهره وشخصه كله - فهو كان *مرشداً روحياً*.

وليس من قبيل الصدفة أن كتب تولستوي في الصيغة الأولى لرسالته الوداعية إلى زوجته، التي كتبها على مفكرته عشية مغادرته: «إنني أفعل ما يفعل عادة كبار السن، آلاف كبار السن، الناس القريبون من الموت، أغادر من الظروف السابقة التي أصبحت غير مريحة إلى ظروف قريبة من أمزجتهم. الغالبية تغادر إلى الأديرة، وكان يمكنني أن أغادر إلى الدير لو أنني كنت أؤمن بما يؤمنون به في الأديرة. ولأنني لا أؤمن بها سأغادر إلى العزلة». في الصيغة النهائية للرسالة اختفت الكلمات التي يدور فيها الحديث عن الدير. ولكن علينا أن نتذكر أن تولستوي لم يغادر ياسنايا بوليانا بل هرب منها، خوفاً من ملاحقته. أوليس لهذا السبب حذف الكلمات الدالة على الدير، كي لا يترك دليلاً لتتبع أثره والعثور عليه؟ فهو قد ذهب إلى الدير تحديداً: إلى دير صحراء أوبتينا وإلى شاموردينو. حتى إنه من الصعب تصوّر، إلى أين يمكنه أن يذهب، وأين يمكن أن يكون منزله الأول؟

وقف تولستوي، كما يبدو، من «الحرمان» موقفاً لا مبالياً جداً. عندما علم به، سأل فقط: تم الإعلان عن «اللعنة»؟ - وتعجب لعدم وجود «اللعنة». وعموماً، لماذا هذا العمل غير المجدي؟ وفي اليوميات يدعو «تعريف» السينودس وكذلك تعابير التعاطف الحارة التي وصلته إلى ياسنايا بوليانا بأنها «غريبة». في هذا الوقت كان ليف نيقولايفتش مريضاً واستمر في كتابة قصته «الحاج مراد».

ومع ذلك، ولإدراكه باستحالة الصمت، يبدأ تولستوي بالرد على قرار السينودس، كنص يعيد كتابته، كعادته عدة مرات، وينجزه في 4 نيسان / أبريل.

يبدأ رد تولستوي بعبارة مقتبسة من الشاعر كولريدج: «إن من يبدأ بحب

المسيحية أكثر من الحقيقة، سرعان ما سيحب كنيسته أو طائفته أكثر من المسيحية، وسينتهي بأن يحب نفسه أكثر من أي شيء في الدنيا».

بهذه العبارة المقتبسة، يؤكد تولستوي أولوية الحقيقة على كل شيء، حتى على المسيحية. وهذا يعني أن المسيحية لا تعد، بالنسبة له، حقيقة في مرتبتها المطلقة. وهذا هو موقف تولستوي.

يشير تولستوي في النص نفسه إلى غموض (ازدواجية معنى) قرار السينودس. إذا كان هذا حرماناً فلماذا لم تُراعَ القواعد المتعارف عليها. وإذا كان هذا مجرد إعلان، أنه لا ينتمي إلى الكنيسة فإن هذا «أمر بديهي، ومثل هذا الإعلان لا يمكن أن يكون له هدف آخر، سوى أن يكون في جوهره حرماناً، وقد بدا هكذا، لأنه كان مفهوماً على هذا النحو».

ويوافق تولستوي قائلاً: «أما بالنسبة لتبرّئي من الكنيسة التي تسمي نفسها أرثوذكسية، فهذه حقيقة أكيدة. لكنني تبرأت منها، ليس لأنني تمردت على الرب، بل على العكس، لأنني بكامل قوى روحي رغبت أن أخدمه هو».

وللأسف، يحتوي النص على عبارات نابية بحق الطقوس الكنسية. «فالطفل إذا مات، ومن أجل أن يذهب إلى الجنة، يجب دهنه بالزيت في الوقت المناسب وتحميمه مع النطق بالعبارات المعروفة...». وثمة، للأسف، بعد واضح عن الحقيقة في النص. «أنا لم أهتم قط بنشر تعاليمي». وكيف «لم يهتم»؟ ومن نشر على حسابه في مطبعة كوشنيريف مخطوطته «ما هي عقيدتي؟» ووزعها في الأوساط العليا في بطرسبورغ؟ ومن سلّم لتشرتكوف مخطوطات المقالات المناهضة للكنيسة، ومن ابتهج بنشرها وصدورها في إنكلترا؟

كان رد تولستوي، بالاختلاف عن قرار السينودس، مكتوباً بطريقة مطوّلة، ما يدل على صعوبات في عرض الفكرة الرئيسة. لكن في نهاية الرد تلوح الفكرة الرئيسة التي تشكل معنى الرد. «يلزمني أن أعيش وحيداً، وحدي، وأن أموت وحيداً (وقريباً جداً)، ولهذا لا يمكنني أن أؤمن بطريقة أخرى، كما أؤمن الآن، لأنني أستعد للقاء وجه ربي، الذي جئت منه».

وبعبارة أخرى – دعوني وشأني!

وهذا هو تولستوي.

كان موقف الكونتيسة من قرار السينودس مغايراً. فقد تذكرت بالطبع، كيف كانت قد تحدثت بجرأة مع بوبيدونوستسيف، مدافعة عن عظمة زوجها، وكيف استقبلها بلطف الإمبراطور ألكسندر الثالث والإمبراطورة. ومهما كان قرار المجمع الكنائسي! قررت الكونتيسة خوض معركة جديدة.

وتكتب رسالتها سيئة الحظ إلى بوبيدونوستسيف وإلى المطارنة الثلاثة الذين وقعوا «التعريف». وهذه الرسالة التي تُرجمت إلى اللغات الأجنبية انتشرت انتشاراً واسعاً.

تكتب صوفيا أندرييفنا في يومياتها: «لا توجد أية مخطوطة كتبها ليف نيقولايفتش انتشرت بمثل هذه السرعة والانتشار الواسع مثل رسالتي هذه». إنها سعيدة! إنها تصل إلى نوع من الحماسة المفرطة. «الله أمرني أن أفعل هذا، وليست إرادتي». وفي متابعتها لمزاجها، يشير تولستوي بحزن: «لقد كُتب من الكتب حول هذه المسألة بحيث إن هذا البيت لا يتسع لها، وأنت تريدين تعليمهم برسالتك هذه». لقد كانت كلماته قاسية.

لقد أرادت أن تشعر من جديد أنها رفيقة زوجها، الذي كانت تحبه بحرارة، لكنه بقي غير مبال بنفحاتها المدنية. رغم أنه، إذا ما حكمنا من خلال يوميات صوفيا أندرييفنا، كان معها لطيفاً و«عاطفياً جداً»، ولكن بمعنى مختلف تماماً.

وقد نُشرت الرسالة في القسم غير الرسمي من «جريدة الكنيسة» مع رد الأب أنتوني (فادكوفسكي).

وتكتب صوفيا أندرييفنا: «إن الكنيسة، بالنسبة لي هي مفهوم مجرد» – دون أن تدرك أنها بقولها هذا فهي «تحرم» نفسها أيضاً من الكنيسة. وتعترف بسذاجة: «هل من المعقول أنه، من أجل خدمة جنازة زوجي في الكنيسة والصلاة عليه، لن أجد كاهناً لائقاً لا يخشى الناس أمام رب المحبة الحقيقي، أو كاهناً «غير لائق» أرشوه بمبلغ كبير من المال من أجل هذا الغرض؟».

كان رد المطران مدمراً. إنه يذكرها بأشياء بديهية: «من المؤمنين بالمسيح تتألف الكنيسة التي تعتبرين نفسك منتمية إليها. وأعتقد أنه يمكنك العثور

على مثل هذا الكاهن، حتى غير اللائق الذي يقرر إجراء جنازة مسيحية للكونت؛ وإذا ما أجراها فإن هذه الجنازة لغير المؤمن ستكون تدنيساً جنائياً للطقوس المقدسة. ولماذا تسيئين إلى زوجك وتمارسين القسر. فمما لا شك فيه أنه هو نفسه لا يريد إجراء جنازة مسيحية له...»

كانت مصيبة الكونتيسة تكمن في أنها بمحبتها لإنسان رفض الكنيسة قطعياً، أرادت في الوقت نفسه أن تبقى إنسانة كنسية وأن تراعي كرامة زوجها وتصون شرفه.

وفي هذه الأيام بالذات يقع حدث في بيت آل تولستوي، يدل بوضوح على صعوبة وضع صوفيا أندرييفنا. في نهاية شهر آذار/ مارس بدأ أسبوع الآلام. أرادت صوفيا أندرييفنا أن تصوم وأرادت أن ترغم ابنتها الصغرى ساشا على الصوم معها، التي عارضت. دعتها الأم إلى صلاة الليل، لكن الابنة أعلنت أنها لا تؤمن. فأخذت تبكي صوفيا أندرييفنا. وذهبت معها ساشا، بعد أن استشارت أباها.

قال تولستوي لابنته: «بالطبع، اذهبي، المهم ألا تزعجي أمك». وقفت ساشا وقفة صلاة الليل كلها مع أمها. لكنها، لم تصم.

موت في القرم

ثمة كلمة واحدة تثير الانتباه في «مراسلات» صوفيا أندرييفنا وأنتوني. لماذا يدور فيها الحديث عن «الدفن»؟ كأن تولستوي على عتبة الموت.

في بداية عام 1901 كان تولستوي في الثانية والسبعين من عمره. نعم هذا عمر كبير. لكن ليف نيقولايفتش كان لا يزال قوي البنية. نعم، كان يمرض، ويشعر باستمرار بالضعف والاكتئاب، ويفكر موسوساً بالموت السريع. بيد أنه لم تظهر عنده في آذار/ مارس عام 1901 أية علائم على المرض *المميت*.

دار الحديث في رسالة الكونتيسة إلى كهنة السينودس حول «صدور أمر سري من السينودس للقساوسة ورجال الدين بعدم إقامة القداس لليف نيقولايفتش في حال وفاته». وفي رسالته الجوابية يعترف أنتوني بأن هذه حقيقية. ويرجعه إلى فترة سابقة، حتى قبل ظهور «التعريف». «عندما

نشرت الصحف في العام الماضي خبر مرض الكونت، طُرح على جميع رجال الدين بقوة كبيرة، سؤال: هل يجدر إقامة قداس للخارج عن العقيدة والكنيسة، وإقامة جنازة مسيحية والصلاة عليه؟ وتوجهوا بهذا السؤال إلى السينودس، وقد أُعطيَ لقيادة الكهنة بصورة سرية، ولم يكن بإمكانه سوى إعطاء جواب واحد: لا، لا يجب، إذا لم يستعد صلته مع الكنيسة. لا يوجد هنا أي تهديد لأي شخص، ولا يمكن أن يكون هناك جواب آخر».

إن اعتراف أنتوني الصريح هذا، المنشور في الصحيفة، يفسر جزئياً، صدور قرار السينودس في عام 1901، حيث بدا كأنه لم يكن هناك أي سبب لصدوره. ومن المثير للاهتمام، أن موقف بوبيدونوستسيف في هذه المسألة كان على الأغلب «ضد» وليس «مع». وبحسب تأكيد ف. م. سكفورتسوف، الذي بلّغ المدعي العام برسالة كاهن موسكو حول مسألة هل يجب أن ينشد في الكنيسة «ليُبارك مع القديسين»، إذا ما مات تولستوي، أعلن بوبيدونوستسيف ببرود: «ألا تكفي الضجة حول اسم تولستوي، وإذا كان الآن، كما يريد، منع صلاة الجنازة على تولستوي والقداس، فأي شغب في العقول سينشأ، وكم من الفتن والأخطاء سيقع نتيجة هذا الشغب؟ برأيي، هنا الأفضل التمسك بالمثل المعروف: لا تمس».

عموماً، كان ظهور «التعريف»، كما يبدو، وثيق الصلة باحتمال وفاة تولستوي. لكن حقيقة ظهوره في «الجريدة الكنسية» كان على الأغلب موجهاً إلى الكهنة ورجال الدين، وليس إلى أبناء الرعية. وبعد وثيقة السينودس، وفي حال وفاة الكاتب، لم يعد هناك أي مجال للحديث عن قداس لذكراه وجنازة في كل أنحاء روسيا. وكان على روسيا الأرثوذكسية أن تستقبل وفاة تولستوي، في أفضل الأحوال، بالصمت الحزين والأسى الداخلي على «من فقدته إلى الأبد». وهكذا فإن كل هذه الدسيسة بخصوص «الحرمان» قد مُثلت إلى حد كبير على تولستوي «الميت».

وإلى هذا يشير فاسيلي روزانوف الذي كتب الكثير عن «حرمان تولستوي» وكان يعرف كثيراً عن ظروف المسألة من خلال علاقاته الشخصية برجالات الكنيسة. ويكتب في إحدى مقالاته أن تولستوي نفسه قد أثار ظهور هذه الوثيقة في الفصل «الضعيف» من روايته «البعث»، «حيث

سخر من الطقوس الكنسية». لكن هذه المسألة طُرحت لأول مرة ليس في السينودس، «بل بمبادرة من أسقف محلي وقع في حيرة، كيف دفن تولستوي في حالة موته، ووجه سؤالاً حول هذه الموضوع إلى السينودس». وبحسب رأيه، فقد كان صدور «حرمان» تولستوي «غير متوقع».

لكن السينودس وضع نفسه في الزاوية. فقد كان من البديهي، أنّ آلافاً مؤلفة من الناس المؤمنين، بعد وفاة تولستوي، سيرغبون بالصلاة على روح كاتبهم المحبوب في الكنائس والمعابد. وكتابات تولستوي المعادية للكنيسة كانت مسموعة وليست مرئية. فقد صدرت في الخارج وانتشرت في روسيا بصورة سرية غير علنية. وبالطبع لم تكن معروفة بتفاصيلها لغالبية المؤمنين البسطاء من أبناء الرعية الموالين للسلطة. كما أن لغة هذه الكتابات كانت معقدة. وحتى القارئ المثقف يحتاج لفهم «نقد العقيدة اللاهوتية» على سبيل المثال، إلى كثير من الجهد العقلي.

إن الفصل المثير للفتنة في رواية «البعث» مع وصف الطقوس الكنسية في كنيسة السجن، قد حُذف بالطبع من الطبعة الروسية. ولم ينشر في غالبية الترجمات الأوروبية، لأن المترجمين حصلوا على نص رواية «البعث» بعد صدورها مباشرة على حلقات في مجلة «نيفا» الروسية. وبفضل تشرتكوف فقط، طبعت الرواية بكاملها في *الترجمة الإنكليزية*، من دون مقص الرقيب، ومن ثم نشرها بكاملها في دار نشره «الكلمة الحرة – سفابودنوي سلوفو» باللغة الروسية.

ومن الغريب، أن فاسيلي روزانـوف نفسه، الذي يعرف كل شيء، حكم على «ضعف» هذا الفصل المثير للفتنة من الرواية من خلال الأقوال والإشاعات، دون أن يقرأه. فماذا نقول عن غالبية القرّاء الروس الذين اطلعوا على رواية «البعث» فقط من خلال نشرها على حلقات في مجلة «نيفا» الأكثر انتشاراً، حيث لم ينشر أي فصل عن الطقوس الكنسية نهائياً؟

وبهذا الصدد، فإن مبادرة تشرتكوف هذه أثارت سخط كثير من أقارب ليف نيقولايفتش. وعلى سبيل المثال، كان ساخطاً جداً صهر تولستوي م. س. سوخوتين، الذي كتب في يومياته أن تخلي تولستوي عن حقوقه الأدبية

قد أصبح منذ الآن بلا معنى. فجميع الحقوق يمتلكها تشرتكوف، الذي يقرر أين، ومتى وبأي شكل سيطبع مؤلفات ليف نيقولايفتش الجديدة.

هذا في حين أن مسألة الموت الحقيقي لتولستوي سرعان ما طرحت، وبالتحديد بعد قرار السينودس. ففي شتاء عامي 1901–1902 كاد تولستوي يموت مرتين في شبه جزيرة القرم، في غاسبرا، في فيلّا فاخرة قدمتها له إحدى معجباته الكونتيسة بانينا. فبعد الالتهاب الرئوي (في عمره، وفي ذلك الوقت، وفي غياب المضادات الحيوية، كان هذا مرضاً مميتاً) أصيب على الفور بحمى التيفوئيد.

إن شفاء تولستوي، وواقع أنه عاش بعد ذلك ثمانية أعوام، كانا معجزة إلهية حقيقية، ويعود إلى حد كبير إلى الرعاية الدائمة له من جانب زوجته وأسرته.

لن نتوقف بالتفصيل عند هذه القصة التي كان فيها الكثير من الجوانب الدرامية والعاطفية المؤثرة.

ومن الوقائع المؤثرة، يمكن ذكر تواصل تولستوي على فراش الموت وقد استعاد عافيته مع تشيخوف وغوركي الذي باركهما وهو «على حافة القبر». حقيقة أنه باركهما بطريقة غريبة جداً. وعلى سبيل المثال، انتقد بشدة تشيخوف على مسرحياته التي شكلت شهرته العالمية ووضعته في القرنين العشرين والحادي والعشرين جنباً إلى جنب مع شكسبير. وعلى أية حال، فإن تولستوي لم يكن يحب شكسبير أيضاً...

من بين أكثر اللحظات المأساوية كان قدوم ابنه ليف لفوفيتش، الذي كان قد أصدر روايته «استكشافات ومصالحات»، الموجهة أيديولوجياً ضد أبيه، لكنها مكتوبة بتأثيره الروائي الواضح. أراد ليف لفوفيتش أن يعرف رأي أبيه بالرواية. ولعدم قدرة تولستوي على الحديث مع ابنه بصورة مؤلمة ومحرجة، كتب له رسالة. بعد أن قرأها بحضور أفراد الأسرة، مزقها الابن إلى قطع صغيرة وخرج من المنزل.

أما قصة القرم، فإن وصفها بكامل تفاصيلها يشغل حيزاً كبيراً. هنا بالذات، في القرم، وأمام تولستوي الذي كان ينازع الموت، نشبت لأول مرة معركة

حقيقية على روحه وعلى تركته. وعدا عن أسرته، كان يعيش في الفيلّا، الأشخاص المقربون من تشرتكوف. مثل بافل ألكسندروفيتش بولانجي، الذي كان يقدّس تولستوي بصدق، وساعده كثيراً في تحرير مختاراته من الحكمة الشرقية. وبالمناسبة، هو أيضاً، وباعتباره يعمل في السكة الحديدية، حجز لآل تولستوي عربة كاملة مستقلة للانتقال إلى القرم. لكن بولانجي كان في الوقت نفسه مخلصاً للغاية لتشرتكوف أيضاً.

وكان يعتني بتولستوي في غاسبرا سلفة تشرتكوف أولغا كونستانتينوفنا تولستايا (كنيتها قبل الزواج - ديتيريخس)، زوجة ابن تولستوي أندريه لفوفيتش وشقيقة آنا كونستانتينوفنا تشرتكوفا (غالا). وجاء إلى القرم، بمساعدة آلبرت شكارفان صديق تشرتكوف ذي الاتجاه التولستوي في سلوفاكيا، د. ب. ماكوفيتسكي الذي أصبح فيما بعد من أكثر الناس المقربين إلى ليف نيقولايفتش.

كان قلق تشرتكوف مفهوماً. فمع بداية القرن العشرين أصبح المالك الفعلي، وفيما بعد القانوني لجميع مؤلفات ليف نيقولايفتش، الصادرة في الخارج. ولإقامته في ضاحية كرايستشرش، التي تبعد 150 كم عن لندن، في الفيلا التي اشترتها له أمه، أسس تشرتكوف هناك مطبعة وبدأ ببناء مستودع لمخطوطات تولستوي. وكان هذا المستودع في مبنى خاص، مجهزاً بأحدث تجهيزات علوم الأرشيف وتقنيته. وبواسطة مدفأة غازية وتهوية خاصة يحافظ المستودع على درجة معينة دائمة من الرطوبة والحرارة. وكان مزوداً بنظام ضد الحريق وبجهاز إنذار كهربائي. ولم يكن باستطاعة أحد في الليل أن يمس مقابض هذا المستودع الضخم دون أن يُصدر رنيناً يصم الآذان في منزل تشرتكوف. وهذا المستودع الخرساني نفسه كان متيناً جداً، بحيث حتى إذا ما حصلت هزة أرضية فإنه يسقط ولا يتهدم. لكن هذا كله كان بلا معنى، إذا لم تكن عنده وصية قانونية من تولستوي، تعترف بحق تشرتكوف في حفظ ونشر هذه المخطوطات التي لا تقدر بثمن. وليس من قبيل الصدفة، أنه بعد القرم بدأ تشرتكوف يخوض معركته من أجل وصية تولستوي، التي انتهت بالرحيل المأساوي لتولستوي.

في الوقت نفسه، كانت تدور معركة من أجل روح الكاتب.

كانت الرسالة الثانية من المطران أنتوني (فادكوفسكي) إلى الكونتيسة تولستايا، المرسلة إلى القرم، بمبادرة من المطران نفسه. وقد دعا صهر ليف نيقولايفتش ميخائيل سوخوتين هذه الرسالة بأنها «يسوعية»، معتبراً أن هدفها محاولة السينودس، الذي خاف من نتائج «الحرمان»، إنقاذ سمعته وإعادة الكاتب إلى حضن الكنيسة على عتبة وفاته. كان سوخوتين رجلاً موالياً ولم يشارك حماه آراءه المعادية للكنيسة وللدولة. ومن المعروف أنه التقى الأب يوحنا كرونشتادسكي. لذلك فمن الصعب الشك في تحيزه في رأيه.

بيد أن فادكوفسكي كان شخصية قوية جداً ومستقلة. فهو الرئيس السابق لأكاديمية بطرسبورغ الروحية، ودكتور شرف من جامعتي أوكسفورد وكامبريدج، والشخصية الرئيسة في السينودس، أنتوني من غير الممكن أن يكون «منفذاً» لإرادة جماعية ما. ومن الصعب القول، هل كان «مدفوعاً بحبه للكاتب»، كما يعتقد غيورغي أوريخانوف، ولكن مما لا شك فيه، أن الرسالة مكتوبة بحماس وصدق وعاطفة. وهذا ما يميزها عن الرسالة الأولى للكونتيسة، تلك الرسالة الذكية، لكنها الباردة والساخرة إلى حد ما.

إن احتمال الموت الحقيقي لتولستوي قد ألقى بظل مختلف تماماً على «التعريف». فإذا توفي تولستوي في القرم سيكون السينودس في وضع صعب. ولكان موته في نظر الرأي العام موتاً بطولياً *وضحية السلطات الكنسية*.

وكانت ستغدو أحقية بوبيدونوستسيف الماكر والحذر واضحة للعيان. وكان مثل هذا الموت للقصر الإمبراطوري ولنيقولاي شخصياً غير مناسب من جميع الجوانب. وعدا عن المشاكل الداخلية، فإنه كان سيضع روسيا في موقف حرج تجاه أوروبا.

يبدو أن رسالة فادكوفسكي كانت نتيجة تشابك عديد من الظروف: رغبة الأب الشخصية، إرادة القيصر والموقف العام الناشئ في روسيا حول تولستوي بعد «الحرمان»

الرسالة ليست طويلة، وسننقلها بكاملها:

«11 شباط/ فبراير عام 1902

الكونتيسة المحترمة!

أكتب لكم هذه الأسطر، كما في العام الماضي، مدفوعاً بحافز داخلي لا يقاوم. إن روحي تتألم على زوجك، الكونت ليف نيقولايفتش. فهو أصبح في سن الشيخوخة. كما أن المرض المستمر، العنيد بالنسبة للجميع، يضعف قواه. وقد انتشرت شائعات ملحة، غير مرة، حول موته. حقيقة، موت كل واحد منا بيد الله، والله قوي وقادر على شفاء الكونت ومنحه الحياة لبضع سنوات أخرى. ونرجو الله أن تحل عليه مثل هذه الرحمة العظيمة. لكن أمر الله مجهول بالنسبة لنا. ومن يعرف؟ ربما يكون الله قد أمر ملاك الموت بأن يستدعيه من بين الأحياء بعد بضعة أيام أو أسابيع.

هنا بالذات يكمن مصدر الألم في قلبي. لقد قطع الكونت تحالفه مع الكنيسة وتخلى عن الإيمان بالمسيح، كإله، حارماً بذلك روحه من مصدر الحياة المشرق، وممزقاً تلك العرى القوية تلك التي كانت تربطه بالشعب الروسي الحبيب الذي طالت معاناته. من دون المسيح هذا يعني من دون الشمس. لا حياة من دون الشمس، لا حياة من دون المسيح. ويبدو لي أن الكونت، من دون هذه الحياة المسيحية، من دون الاتحاد مع الشعب المحب للمسيح، هو بائس ووحيد... يطفح قلبه بالبرودة والمعاناة!... من الصعب جداً في مثل هذه العزلة الروحية مجابهة الموت والوقوف أمام وجهه!

أحقاً لن تستخدمي، أيتها الكونتيسة، كامل قواك، وكامل حبك من أجل إعادة زوجك، الذي تحبينه بحرارة والذي كان عزيزاً عليك، إلى المسيح؟ أحقاً ستسمحين له بأن يموت دون أن يتصالح مع الكنيسة، ومن دون نصحه وإرشاده بالوجبة السرية من جسد ودم المسيح التي تعطي روح المؤمن السلام والفرحة والحياة؟ آه، أيتها الكونتيسة! توسلي إلى الكونت، أقنعيه، توسلي كي يفعل هذا! إن مصالحته مع الكنيسة ستكون عيداً مشرقاً للأرض الروسية كلها، للشعب الروسي الأرثوذكسي كله، وفرحة في السماء وفي الأرض. إن الكونت يحب الشعب الروسي وقد بحث طويلاً عن الإيمان بالشعب من أجل تعزيز إيمانه المتزعزع، ولكن، للأسف، وللكارثة العظيمة لم يستطع العثور عليه. أغدق، يا رب، رحمتك الكبيرة عليه، ساعده، وخذ بيده، على الأقل قبل وفاته كي يتحد في عقيدته مع عقيدة الشعب الروسي الأرثوذكسي! من الصعب أن يموت الإنسان وحيداً، بعيداً عن الحياة

الشعبية ومنفصلاً عن عقيدته المقدسة! ومن الصعب لمحبي الكونت ألا يروه متصالحاً مع الكنيسة، ومتحداً معهم في العقيدة المقدسة للمسيح! أيتها الكونتيسة الطيبة، توسلي إليه، بالعودة إلى المسيح، وللحياة والفرحة فيه، وإلى الكنيسة إلى قدوسه! اعملي عيداً مشرقاً للأرض الروسية المقدسة كلها! وليساعدك الله نفسه في هذا، وليرسل لك وللكونت الفرحة المقدسة التي لا يمكن اجتزاؤها.

مع الاحترام الكبير لك

خادمك المطيع

أنتوني، مطران سانت بطرسبورغ».

تحتوي رسالة أنتوني على رسالتين متوازيتين. الأولى موجهة للكونتيسة، والثانية للكونت. كان من غير الممكن ألا يفترض أنتوني أن صوفيا أندريفنا ستعرض الرسالة على زوجها. وقد وجه إلى الكونتيسة رأياً مغرياً لها، وهو أنها وحدها قادرة على إعادة زوجها إلى حضن الكنيسة. وأن حبها الكبير وحده وقوة إقناعها الحارة قادران على إذابة الجليد في قلب تولستوي وإحداث انقلاب روحي جديد فيه.

الرسالة الثانية – عن الشعب الروسي «الأرثوذكسي» و«المحب للمسيح» – موجهة إلى تولستوي.

على الرغم من أن فادكوفسكي لم يكن يعرف أن تولستوي الذي انفصل عن الكنيسة، كان يقف موقفاً سلبياً من انفصال قسم من الفلاحين الروس عن الكنيسة.

قد يبدو كأنه هنا تكمن المفارقة في الوعي الديني عند تولستوي. وفي الحقيقة، لا وجود هنا لأية مفارقة. كان تولستوي يدرك جيداً أن الفلاح، بانفصاله عن الكنيسة، ينفصل عن الإيمان وعن الله عامة. إذا لم ينتقل إلى المنشقين والمذهبيين والطائفيين. لكن موقفه من الطائفيين كان معقداً للغاية. وعلى سبيل المثال، كان ينظر بقدر كبير من الشك إلى الخصيان، معتبراً هذا الطريق حلاً ميكانيكياً للغاية للمشكلة الجنسية. وحتى بالنسبة

للدوخوبوريين، الذين ساعدهم شخصياً بالانتقال إلى كندا، كان موقفه متحفظاً، إذا ما حكمنا من خلال يومياته. وأخيراً فإن تولستوي، كما هو معروف على نطاق واسع، لم يكن يحب ولا يفهم «التولستويين»، باستثناء الأشخاص الأكثر قرباً إليه: تشرتكوف، بريوكوف، بولانجي، غوسيف، بولغاكوف، ماكوفيتسكي وغيرهم. وكان تولستوي يقف موقفاً سلبياً من شتم الكهنة في حضوره. فقد كان يشعر في هذا زيفاً، ورغبة في إرضائه، باعتباره الناقد الكبير للكنيسة. بيد أنه كان ينظر باحترام كبير إلى المجذوبين القديسين، والرهبان البسطاء، والكهنة الريفيين.

بالطبع، كان فادكوفسكي قد قرأ «اعترافات» تولستوي. وكان يعرف أن ليف نيقولايفتش يحسد إيمان الناس الساذج البسطاء بـ«معجزات» الكنيسة. وهو يفسر طريقه الديني في «الاعترافات»، إلى حد كبير، كـ«مصيبة من العقل».

ولهذا فإن اللهجة الشعبوية في رسالة أنتوني كانت موجهة إلى الكونت أكثر مما هي موجهة إلى الكونتيسة. فهي كانت الحجة الوحيدة التي يمكنها أن تؤثر عليه قبل الموت وترغمه، ولو شكلياً، على مصالحة الكنيسة. ومن المستبعد أن أنتوني كان يعتقد جدياً بـ«التراجع» المفاجئ للكونت العنيد.

غير أن هذه الحجة لم تؤثر أيضاً.

لكن رسالة المطران تركت أثرها الكبير على الكونتيسة. وتكتب في يومياتها أنها عند استلامها للرسالة، أعلمت زوجها بها، ورجته أن يتصالح «مع كل ما هو أرضي، وكذلك مع الكنيسة». وهذا ما يميز موقفها الشخصي من الكنيسة باعتبارها مؤسسة «أرضية» حصراً. ولكن، كان هنالك اندفاع من جهتها، وكانت تريد أن يعود ليف نيقولايفتش إلى الكنيسة، ولو رسمياً فقط. وهذا مفهوم. فقد دفنت جميع أبنائها، بمن فيهم فانشكا الحبيب بمراعاة الطقوس الأرثوذكسية. وبالطبع، أرادت بالطريقة ذاتها أن تدفن زوجها. لكن تولستوي كان ثابتاً لا يلين. «لا مجال للحديث عن أية مصالحة. سأموت من دون أية عداوة وشر، وما هي الكنيسة؟ وأية مصالحة يمكن أن تكون مع مثل هذه الأداة غير المحددة».

في الواقع هذه كانت إرادة تولستوي *المحتضر*. ففي يوم استلام الكونتيسة الرسالة من المطران، تم حقن تولستوي المريض عدة مرات بالكافور، من أجل دعم قلبه المتوقف بشكل صناعي. كانت البرودة قد سيطرت على يديه ورجليه. كان يرقد على الجانب الأيمن منحنياً من الألم «الشائك». وفي هذا اليوم رأت زوجته في عينيه للمرة الأولى «ليس رغبة قاتمة بالحياة، بل خضوعاً مستسلماً» وكتبت في يومياتها: «ساعده يا رب، خفف من معاناته وآلامه في الموت».

ومع ذلك، فقد كانت في حياة ليف نيقولايفتش، بعد القرم، حالة حيث توفرت فرصة لأحد أبرز رجالات الكنيسة للتأثير المباشر على قناعات الكاتب. وقد كان هذا أسقف تولا بارثينيوس (ليفيتسكي). ففي 21 كانون الثاني/ يناير عام 1909 التقى بالكاتب في ياسنايا بوليانا وأجرى معه حديثاً مطولاً، بقي مضمونه الكامل غير معروف بناء على الرغبة المشتركة للطرفين المتحادثين.

حدث الاجتماع بمبادرة بارثينيوس، ولكن المهم، برغبة أكيدة من ليف نيقولايفتش. حتى إن بارثينيوس أعلن في الصحافة أن تولستوي تحدث معه «مثل أي مسيحي يتحدث للقس أثناء الاعتراف»، حتى إنه نسب هذه الكلمات لليف نيقولايفتش نفسه. ولكن في يوميات ليف نيقولايفتش لا يذكر أي شيء بخصوص الاعتراف. بل على الأصح، يدور الحديث عن اعتراف معاكس، على الأغلب. «بالأمس كان عندي أسقف، تحادثت معه حديثاً روحياً، ولكن بحذر شديد، ولم أحدثه عن كل ذنوب أفعاله...»

ومع ذلك، فقد ترك بارثينيوس في نفس تولستوي انطباعاً محبباً للغاية. ويكتب سكرتيره نيقولاي غوسيف الذي حضر اللقاء والوداع بين الأسقف وليف نيقولايفتش، في يومياته، أن هذه الزيارة، بالنسبة لتولستوي، «كانت ممتعة للغاية، وأنه بكى عند وداعه للأسقف، وشكره على رجولته».

وإذا ما حكمنا من خلال مقتطفات لقائهما، لم يكن حديث بارثينيوس وتولستوي حديثاً عابراً. فقد كان كل منهما يسعى نحو هدف معين. أما هدف بارثينيوس فكان إعادة تولستوي إلى الأرثوذكسية. لكنه أدار الحديث بلباقة، دون أي ضغط على تولستوي، وهذا ما راق لتولستوي.

أما هدف تولستوي فكان إثبات أنه ليس عدواً للإيمان. وفي حديثه لمراسل صحيفة «الكلمة الروسية - روسكوي سلوفو» س. ب. سبيرو، عن لقائه بالأسقف، أدلى تولستوي ببيان مهم للغاية: «... قلت له: شيء واحد يزعجني، وهو أن جميع الأشخاص (أصحاب الرسائل، بمن فيهم رجال الدين الذين انتقدوا قناعات الكاتب - *المؤلف*) يلومونني على أنني أدمر معتقدات الناس. وهنا خطأ كبير، لأن نشاطي كله في هذا الصدد موجه فقط من أجل تخليص الناس من الحالة غير الطبيعية لانعدام أي إيمان لديهم».

وبحسب شهادة سبيرو، روى تولستوي لبارثينيوس حادثة في ياسنايا بوليانا. ذات يوم كان يمشي في القرية، وألقى نظرة على إحدى النوافذ، حيث رأى امرأة عجوزاً كانت جالسة على ركبتيها تركع. تعرّف عليها ليف نيقولايفتش، إنها ماتيرنا، التي اشتهرت في شبابها بأنها «أكثر نساء القرية شراسة». وعند عودته إلى البيت مساء، ألقى من جديد نظرة إلى النافذة نفسها، كانت المرأة العجوز لا تزال راكعة تصلي.

وقال تولستوي: «إن هذه صلاة حقاً! وفقنا الله جميعاً للصلاة بنفس الطريقة، أي أن تدرك أيضاً تبعيتك وخضوعك لله - إنني أعتبر خرق هذا الإيمان الذي يستدعي هذه الصلاة أكبر جريمة. وليس كما هو الحال مع طبقتنا المثقفة - فعندها إما أنه لا إيمان، أو الأسوأ من ذلك، التظاهر بالإيمان، الذي يلعب دوراً فقط من أجل اللباقة».

لم ينكر تولستوي العقيدة الكنسية، ولم ينكر الطقوس، فيما إذا كانت هذه الطقوس صادرة عن إخلاص وصدق روحي. ونذكِّر هنا، أن مشهد القربان في رواية «البعث» يجري في كنيسة سجن الانتقال، حيث وجدت كاتيوشا ماسلوفا نفسها نتيجة ذنب الملحدين المتعلمين، بدءاً بالأمير نخليودوف، وانتهاءً بالقضاة. وقد عوملت بقسوة وظلم، وبعد أن اغتصبوها في الواقع جسدياً وروحياً، ارتكبوا عنفاً جديداً ضدها، بإجبار هذه المرأة البريئة على التوبة والاعتراف في *السجن*.

لقد كان تولستوي وريث عصر التنوير، حفيد جده وابن أبيه. ولم يكن باستطاعته الإيمان بصدق بالطقوس الكنسية. كما لم يستطع أن يؤمن بصدق

إيمان الطبقة المثقفة بالعقيدة الكنسية. وقد صرح تولستوي لسبيرو عن حديثه مع بارثينيوس: «لقد قلت له، يصلني العديد من الرسائل والزيارات من رجال الدين، وأنني أتأثر دوماً بالتمنيات الطيبة التي يعبرون عنها، لكنني أعبر عن أسفي الشديد أنه من المستحيل أن أطير في الجو لتلبية رغباتهم».

في نهاية حياته لم يكتب تولستوي مؤلفات صريحة مناهضة للكنيسة، مكرساً نفسه حصرياً لجمع الحكمة العالمية في مجموعتيْ «حلقة القراءة» و«لكل يوم». لقد مال ليف نيقولايفتش إلى الديانات الشرقية، الأكثر قدماً من المسيحية، كالبوذية والهندوسية. وهذا كان طريقه، وإرادته.

ورداً على الرسالة التي توجه بها إليه كاهن سجن تولا الأب دميتري ترويتسكي، الذي كان يعرفه شخصياً، كتب تولستوي: «لماذا أنت، أيها الأخ العزيز دميتري تتوجه إليّ بهذا الاقتراح الغريب؟ فأنا لا أتوجه إليك ولا أنصحك بالتوقف عن ذلك الوهم الضار الذي أنت فيه، والذي تسعى أنت إلى تشويه أرواح آلاف وآلاف الأطفال البؤساء والناس الآخرين بإدخاله إليهم. لماذا أنت لا تتركني وحيداً بهدوء، وأنا الإنسان الذي يخطو نحو قبره وينتظر موته بهدوء. فدعوتي إلى العقيدة الكنسية كان من الممكن أن تفيد لو كنت صبياً صغيراً أو ملحداً كبيراً، أو ياقوتياً[1] أمياً لم يسمع في حياته قط عن العقيدة الكنسية. لكنني رجل عجوز في الثانية والثمانين من عمري، تربيت على الخداع الذي أنت فيه، والذي تدعوني إليه، والذي تحررت منه بجهود وآلام عظيمة قبل سنوات عديدة، بعد أن استوعبت لنفسي عقيدة ليست كنسية لكنها مسيحية، تعطيني الفرصة للحياة الهادئة والسارة، الهادفة إلى الكمال الداخلي والاستعداد للموت الهادئ والسار أيضاً، والذي أرى فيه عودة إلى رب المحبة الذي انبثقت عنه».

وتكاد تكون خاتمة رسالته إلى الأب ترويتسكي مماثلة تماماً لجوابه للمطران أنتوني الذي أرسله من القرم، والذي عبر عنه بحضور صوفيا أندرييفنا، لكنه لم يُرسل إليه بناء على طلب ليف نيقولايفتش. عندما

1- ياقوتي: من الياقوت - من سكان سيبيريا الأميين من العائلة التركية، وقد شكل لهم الاتحاد السوفييتي جمهورية ياقوتيا تابعة لروسيا الاتحادية. المترجم.

حدثته الكونتيسة عن رسالة فادكوفسكي، طلب منها تولستوي أولاً: «اكتبي له أن صلاتي الأخيرة هي كما يلي: «يا رب! منك نشأت، وإليك أعود. ولتكن مشيئتك»».

الوصية الأولى

من المعروف أن تولستوي كتب ست وصايا - في الأعوام 1895، و1904، 1908، 1909 (وصيتين) و1910. وإذا أضفنا إليها «المذكرة التوضيحية» لمصلحة تشرتكوف التي وضعها تشرتكوف «باسم شخص ثالث» ووقعها تولستوي ووضع عليها أوتوغرافه، فتصبح سبع وصايا وليست ستاً.

وفي الواقع، فإن عددها أكثر. إن يوميات تولستوي من أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات تغدو تقريباً وصية شبه مستمرة، لأنه يشرح دوماً في اليوميات تراثه الروحي ويدققه.

وليس من قبيل الصدفة، أن وصيته الأولى غير *الرسمية* وضعها على شكل مدوّنة في يومياته. في 21 شباط / فبراير عام 1895 توفي الشاعر ن. س. ليسكوف. في مذكرته «رجائي بعد الوفاة» طلب دفنه «في الفئة الدنيا الأخيرة». كان تولستوي يعرف بوجود هذه المذكرة، وفكر فيها. وفي 27 آذار/ مارس قام بوضع طلبه بعد الوفاة.

إن وصية تولستوي الأولى تختلف إلى حد كبير عن صيغتها النهائية في عام 1910. فوصية تولستوي الأولى - هي كتابة طفل لا يعرف شيئاً عن كيفية صياغة الوثائق الروحية الحقيقية. ولهذا بالذات، كانت الوثيقة الروحية الأنقى والأصدق أخلاقياً التي لا تشوبها شائبة.

كُتبت الوصية الأولى في سياق حياتي رهيب، حيث فقدت حياة تولستوي العائلية الفرصة الأخيرة، ليس للسعادة بل للقرب الروحي من زوجته. ففي شهر شباط/ فبراير من هذا العام توفي فانشكا، الابن المحبوب من جانب تولستوي وزوجته. كان ليف نيقولايفتش يعده وريثه الروحي الوحيد من بين جميع أبنائه. وكانت أمه تحبه إلى درجة الجنون. الابن الأخير في الأسرة كان أيضاً الأمل الأخير بوحدة الأسرة. وبعد موته، فقدت صوفيا أندرييفنا معنى الحياة، وهذا

ما كتبه سيرغي لفوفيتش تولستوي. بالنسبة لليف نيقولايفتش، بالطبع، لم يفقد بموته معنى حياته. ولكن، ولسبب ما، منذ تلك اللحظة، أخذ تولستوي يجبر نفسه على كتابة كلمات غريبة ورهيبة عن وفاة فانشكا في اليوميات («أشكرك يا أبتي، أشكرك») ثمة شيء ما، انهار في تولستوي الكبير نفسه.

وقد اعترف في اليوميات: «بعد عدة أيام من وفاة فانشكا، شعرت بأن الحب بدأ يضعف في نفسي...». وتكتب زوجته لشقيقتها: «لقد التوى ليفوشكا بالكامل، هرِم، يسير حزيناً بعينين مشرقتين، وظاهر، أنه قد انطفأ فيه الشعاع المشرق الأخير لهرمه. في اليوم الثالث لوفاة فانشكا، جلس ينتحب ويقول: «لأول مرة في حياتي أشعر باليأس».

ليس هناك سوى مخرج واحد - إنه الله. بحمده الله على موت ابنه الحبيب، يقدم تولستوي على اختيار توراتي لا رجعة فيه. وهو منذ الآن ليس إنساناً، بل نبي. ومهما حدث، فكل هذا سيكون علامة سارة له شخصياً. قد يبدو، هل هناك أصعب من موت الابن الحبيب؟ لكن تولستوي يستخلص من هذا استنتاجاً روحياً مفيداً له: «يجب أن تعيش دوماً هكذا، كما لو كان ابنك الحبيب يموت في الغرفة المجاورة. وهو يموت دوماً. ودوماً أموت أنا».

لكن من المستحيل العيش هكذا! فهذا كما لو أن الإنسان ينتزع جلده بيده باستمرار. وتولستوي الذي سجل هذه المدونة، يتحول فجأة إلى رجل عجوز. ويبدأ بانتظار موته، بل يستحثه. وعندها تظهر الوصية.

يكتب ليف نيقولايفتش في اليوميات: «*إن وصيتي تقريباً ستكون على هذا الشكل، طالما لم أكتب وصية أخرى، فهي هكذا*»

طلب تولستوي دفنه «في أرخص مقبرة، وإذا كان في المدينة، فبأرخص تابوت - كما يُدفن المتسولون. ولا حاجة لوضع الزهور والأكاليل ولا لإلقاء الخطب. وإذا كان ممكناً من دون كاهن وخدمة الجنازة، أما إذا كان هذا يؤذي من سوف يقوم بالدفن، فليقوموا بالدفن كالعادة مع الجنازة، ولكن بالشكل الأرخص والأبسط قدر الإمكان».

إنه يطلب عدم كتابة نعي أو تأبين عنه. أما أوراقه فيورثها لزوجته

وتشرتكوف وستراخوف (في البداية لابنتيه تانيا وماشا، وفيما بعد شطبهما مع تعليق: «لا حاجة للبنات أن يمارسن هذا»). أما الأبناء فلم يكلفهم بهذه المهمة. إنه لا يحبهم، لكنهم «لا يعرفون جيداً أفكاري، ولم يتابعوا تطورها وقد تكون لديهم نظراتهم الخاصة لهذه الأشياء، وبالتالي قد يحتفظون بما لا يجب الاحتفاظ به، أو يرمون ما يجب الحفاظ عليه».

في البداية، يرجو إتلاف يوميات حياة العزوبية («... ليس لأنني أردت أن أخفي عن الناس حياتي السيئة... بل لأن هذه اليوميات التي كنت أكتب فيها فقط شعوري بالخطيئة الذي كان يعذبني، تترك انطباعاً وحيد الجانب»)، لكنه فيما بعد ينصح بالاحتفاظ بها. «فمنها يتضح، على الأقل، أنه على الرغم من كامل ابتذال شبابي وقذارته، لم يتركني الله رغم ذلك، وعلى الأقل، في سنوات شيخوختي، أصبحت أدركه قليلاً وأحبه».

يرجو تولستوي من الورثة التخلي عن حقوق مؤلفاته. وهذا رجاء وليس أمراً. «إن فعلتم هكذا – حسناً. وسيكون جيداً بالنسبة لكم أيضاً، وإن لم تفعلوا – فالأمر عائد إليكم. إذن، لم تستطيعوا فعل ذلك. وكون مؤلفاتي بيعت خلال السنوات العشر الأخيرة، كان هذا بالنسبة لي، العمل الأقسى في حياتي».

يبدو كأنه لم يسئ إلى أحد، ولم يقف ضد إرادة أحد. أعطى الجميع فرصة للاتحاد بمحبة والتصرف بتركته الأدبية، أما عن الملكية فكان قد تخلى عنها قبل ثلاث سنوات لمصلحة الأسرة. كان هناك في هذه الوصية كثير من السذاجة الطفولية. فمثلاً، رغبته بعدم كتابة النعي أو التأبين، وعدم إلقاء خطب الرثاء له. ومن كان سيستمع إلى تولستوي هناك!

لكن هذه الوصية كانت ملأى بالثغرات القانونية الخطيرة. على سبيل المثال، كان ليف نيقولايفتش على يقين من أن كل ما كتبه منذ عام 1881 هو حق مشاع للجميع. وكان يعتقد أن الرسالة التي نشرها في الصحف عام 1891 عن التخلي عن حقوق التأليف لهذه المؤلفات ذات قوة قانونية حقيقية، ولهذا لم يتطرق إلى هذه المسألة.

أما في الواقع، فلو توفي تولستوي في عام 1895 فإن حقوق جميع مؤلفاته

تنتقل حسب القانون إلى أسرته. ولم يكن ليحصل تلميذه المحبوب ونصيره تشرتكوف منها إلا على ما تسمح له به أسرة تولستوي بإرادتها الطيبة. ولكن لم تكن هناك أية إرادة طيبة من جانب صوفيا أندريفنا تجاه تشرتكوف، ولا يمكنها أن تكون، بعد أن أساء لها مراراً.

علاوة على ذلك، فإن زوجة تولستوي وأبناءه كانوا بحاجة ماسة إلى المال.

لم تتمتع وصية تولستوي الأولى بأية قوة قانونية. إنها كانت مجرد رغبة نفسية أبداها للناس المقربين في حال وفاته. والمسألة لا تقتصر على أنها ليست موثقة قانونياً. المسألة أن الحقوق الأدبية، حسب قوانين الإمبراطورية الروسية، لا يمكن أن تكون من حق «الجميع». فهي يجب أن تكون من حق شخص محدد أو شخص قانوني.

أما رسالته المنشورة في الصحف عام 1891 بتخليه عن حقوق التأليف، فهي من وجهة نظر القانون، لا تساوي شيئاً. وجميع حقوق مؤلفات تولستوي قبل وفاته تعود إليه. وهي رغبته الشخصية: أن يسمح لزوجته بطبع وبيع المؤلفات القديمة، وللناشرين بنشر المؤلفات الجديدة من دون مقابل.

هذا في حين أن الأحداث قد تطورت بصورة عاصفة حول حقوق تولستوي الأدبية وهو لا يزال على قيد الحياة. فقد نشبت النزاعات والخلافات بين زوجته – الناشرة وبين دار نشر «الوسيط – بوسريدنيك»، بين تشرتكوف المقيم في إنكلترا والناشرين الروس الذين كانوا يضعونه دوماً أمام ضرورة التبرير لانتهاك هذا الجانب أو ذاك. زوجة تولستوي كانت تستاء منه لأنه يعطي مؤلفات جديدة مثل «السيد والعامل» إلى مجلات دارجة («نذير الشمال») ولا يعطيها شيئاً. لم يكن الناشرون الروس يرغبون أخذ تشرتكوف، المقيم في إنكلترا في الحسبان، وهو بدوره، كان يستاء من أن «حق الليلة الأولى» لكل نص جديد لليف نيقولايفتش، لا يعتبر حقه القانوني الحصري، ويتوقف فقط على رغبة الكاتب، الذي يمكن لناشرين آخرين أن يغيروا رأيه لمصلحتهم.

ويكتب م. ف. موراتوف: «يمكن لتشرتكوف الاعتماد على أن يتمكن

من نشر مؤلفات تولستوي الجديدة المترجمة إلى الإنكليزية، والصادرة تحت إشرافه، فقط في حالة حصوله على مقالات تولستوي قبل نشرها باللغة الروسية، كي تصدر في آن واحد في روسيا وفي إنكلترا». وقد كانت هذه مشكلة جدية بالنسبة لتشرتكوف، وكتب عنها لتولستوي:

«على أية حال، ومن أجل مصلحة دار نشرنا «الوسيط – بوسريدنيك الدولية»، من المفضل، كما كنت قد كتبت لك، أن تحوّل إليّ جميع المترجمين الذين يتوجهون إليك، وأن لا تعطي أياً منهم قائمة من دون معرفتي. وكذلك، أن أستلم منك المخطوطة للترجمة *قبل ثلاثة* أسابيع على الأقل، ليس قبل النشر في روسيا، بل وحتى قبل التوزيع الخاص».

من الممكن بالطبع فهم تشرتكوف. فبعد الدخول في علاقة عقدية مع هذا الناشر الأجنبي أو ذاك، لم يكن باستطاعة تشرتكوف أن يشرح له أن تولستوي لا يرغب أخذ الجانب القانوني من المسألة بعين الاعتبار. هذا في حين أن أي نص لتولستوي يظهر في الصحافة والمطبوعات الروسية، يصبح على الفور حقاً مشاعاً للجميع. ويمكن لأي ناشر أجنبي أن يأخذه ويطلب ترجمته.

كما كانت المشكلة في أن تولستوي كان دوماً محرراً ومصححاً دؤوباً لمؤلفاته. فهو كان يصححها ليس في المخطوطات فحسب، بل في البروفات الطباعية أيضاً. وهذه التصحيحات والتعديلات كانت تشكل صعوبة كبيرة لتشرتكوف، المضطر للعمل مع ناشرين ومترجمين أجانب في ظروف استثنائية. وباعتباره تلميذاً مخلصاً ونصيراً، لم يكن باستطاعة تشرتكوف مخالفة إرادة معلمه، وعليه أن ينتظر النص مع التصحيح النهائي. بيد أن هذا التصحيح النهائي كان يوضع على بروفات الطبعات الروسية، التي كانت تهدد بالصدور حتى قبل أن يستلم تشرتكوف النص الأصلي. ولهذا كان مضطراً، عن طريق تولستوي، إلى تأخير صدور تلك النصوص في روسيا، وهذا ما كان يثير استياء الناشرين الروس.

كل هذا كان مضنياً لليف نيقولايفتش. وفي رسالته إلى تشرتكوف بتاريخ 13 كانون الأول / ديسمبر عام 1897 يعترف: «عندما كنت أطبع مقابل

المال، كان طبع أي عمل فرحة؛ ولكن منذ أن توقفت عن الحصول على المال، أصبح طبع أي عمل جملة من المعاناة».

وهكذا، فمن ناحية – تشرتكوف. ومن ناحية أخرى – زوجته. وكان موقفها من وصية زوجها الأولى سلبياً تماماً.

كانت ابنة تولستوي ماريا لفوفنا قد عملت نسخة عن الوصية في عام 1901 سراً، ولم تعلم والدتها. وكانت صوفيا أندرييفنا تعرف بوجود هذه الوصية في يوميات زوجها لعام 1895، لكنها لم تهتم بالأمر، لأن يوميات هذه الفترة، إلى جانب المخطوطات الأخرى، كانت محفوظة في متحف روميانتسيف. وواقع أنه لا ليف نيقولايفتش، ولا ماشا لم يظهرا لها هذا النص المنسوخ على شكل وصية، والموقع من قبل تولستوي، يتحدث عن نفسه بنفسه. فقد خشي الاثنان من ردة فعلها.

ولكن بعد القرم، أصبح من الصعب إخفاء هذه الوصية. فقد كان من الممكن أن يتوفى تولستوي في أي عام، وشهر، بل وفي أي يوم. وفي شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام 1902 عرفت صوفيا أندرييفنا بهذه الوصية (على الأغلب، عن طريق ابنها إيليا) وكانت مستاءة منها:

«كان هذا مزعجاً للغاية عندما علمت بالصدفة بها. أنا أعتبر تسليم مؤلفات ليف نيقولايفتش للملكية العامة المشاعة أمراً سيئاً ولا معنى له. أنا أحب أسرتي وأتمنى لها رفاهية أفضل، وبتسليمنا المؤلفات للملكية العامة المشاعة فإننا نكافئ شركات النشر الكبرى مثل ماركس، وتسيتلين وغيرهما. لقد قلت لليف نيقولايفتش، إذا ما توفي قبلي، *فلن* أنفذ رغبته *ولن* أتخلى عن حقوق مؤلفاته، ولو كنت أعتقد أن هذا جيد وعادل، لحققت له هذه الرغبة في حياته وجلبت له هذه الفرحة بالتخلي عن الحقوق، أما بعد وفاته فلا معنى لها بالنسبة له».

طالبت صوفيا أندرييفنا بأن يأخذ زوجها الوصية ويسلمها لها. وليف نيقولايفتش لم يستطع رفض طلبها، كعادته في مثل هذه الحالات. استاءت ماشا من تصرف أمها. وصاحت هي وزوجها بأنهما كانا ينويان نشر الوصية بعد وفاة ليف نيقولايفتش.

كان هذا خطأ فادحاً من جانب صوفيا أندرييفنا. فقد كان عليها أن تلتزم الصمت، وتقبل! فالقانون كان إلى جانبها.

وقد كتبت صوفيا أندرييفنا في «حياتي»: «أراد أن يكسر الإنسانية، لكنه لم يستطع كسر العائلة».

ولكن، ولماذا ضرورة «الكسر»؟

لقد حاول تولستوي *إقناع* الإنسانية، وكذلك إقناع الأسرة. ولكن في كل مرة عندما كان يشعر بمقاومة من جانب الأسرة، كان يتنازل ويقدم على أية حلول وسط. وكان الحل الوسط تقسيم الملكية بين الزوجة والأولاد. وقد كتب تولستوي في يومياته عام 1910: «أي إثم عظيم ارتكبته، بإعطاء الملكية للأولاد. لقد أسأت للجميع، وحتى لبناتي. وهذا ما أراه بوضوح الآن». وليس مهماً، هل كان تولستوي محقاً أم لا. المهم، أن هذا كان يعذبه طيلة حياته.

الشيء نفسه حصل بالنسبة للوصية الأولى. فكل ما فعله تولستوي هو أنه *طلب* من زوجته وأبنائه عدم الحصول على فائدة مادية من شهرته بعد وفاته. وبعد خمسة عشر عاماً أصبح موقفه في هذه المسألة أشد وأقسى. «من المستحيل حرمان الملايين من الناس مما هو ربما، ضروري لأرواحهم... كي يتمكن أندريه من السكر وممارسة الدعارة، ويرتكب ليف الفاحشة: (اليوميات 29 تموز/ يوليو عام 1910).

أما الأسباب التي جعلت صوفيا أندرييفنا ترفض وصية زوجها الأولى فتعود إلى حد كبير، إلى ظروف غير مباشرة. أولاً، كانت مستاءة من ابنتها، التي رفضت حصتها من ملكية التركة عام 1891 بإرادتها، وعندما تزوجت توجهت إلى أمها وطالبتها بحصتها. ومن وجهة نظر صوفيا أندرييفنا، يمكن لأي فرد أن يهتم بمسألة حرمان الأسرة من دخلها الرئيس، وليس ماشا. ثانياً، في هذه الفترة بالذات، شرعت صوفيا أندرييفنا بإصدار طبعة جديدة من المؤلفات الكاملة لتولستوي، حيث استثمرت الكثير من المال. ولو أن ليف نيقولايفتش مات في هذه الفترة، وانتشرت في الصحف «وصيته» لمصلحة الجميع، فإن الأسرة كانت ستصاب بأزمة مالية خطيرة.

في تموز/ يوليو عام 1902 حضر مالك دار نشر «الثقافة - بروسفيشيني» ن. س. تسيتلين إلى صوفيا أندرييفنا، وقدم لها «عرضاً بشراء المؤلفات الكاملة لتولستوي لحيازته الأبدية مقابل مليون روبل». ورفضت زوجة تولستوي هذا العرض. واتضح الآن، أنه وبينما هي ترفض هذا المبلغ الضخم الذي كان من الممكن أن يؤمن لها ولأولادها حياة رغيدة لسنوات طويلة، كانت ابنتها من خلف ظهرها، تدبر مكيدة لها بوصية أبيها. فكيف كان يمكنها أن تتحمل هذا؟

أسئلة وأجوبة

في أيار/ مايو عام 1904 يقرر تشرتكوف أخيراً إضفاء الصفة الشرعية على وضعه كـ «منفّذ روحي» لوصية تولستوي. ولكن، إدراكاً منه بأن القيام بذلك *بشكل قانوني*، دون علم صوفيا أندرييفنا وأسرته غير ممكن، يرسل إلى ياسنايا بوليانا مع سكرتيره بريغس إلى تولستوي «استبياناً» يوضح جميع هذه النقاط. كانت أسئلة تشرتكوف مطبوعة على الآلة الكاتبة، وأجوبة تولستوي مكتوبة بخط يده. ونورد فيما يلي هذه الوثيقة بكاملها:

«1. هل ترغب بأن يكون إعلانك المنشور في «الجريدة الروسية - روسكيي فيدوموستي» بتاريخ 15 أيلول/ سبتمبر عام 1891 (بالتخلي عن حقوق التأليف - المؤلف) ساري المفعول في الوقت الحاضر وبعد وفاتك؟

أرغب بأن تكون جميع مؤلفاتي المكتوبة منذ عام 1881، وكذلك تلك التي ستبقى بعد موتي، ليست ملكية شخصية لأحد ما، بل أن يكون بالإمكان إعادة طبعها ونشرها من قبل كل من يريد.

2. لمن ترغب بإعطاء القرار النهائي في تلك المسائل المرتبطة بتحرير ونشر كتاباتك ومؤلفاتك بعد الوفاة، والتي قد لا يتوفر لها، لسبب ما، توافق وإجماع كامل؟

أعتقد أن زوجتي و ف. غ. تشرتكوف اللذين كلفتهما بفرز الأوراق من بعدي، سيتوصلان إلى اتفاق حول ما يجب الاحتفاظ به، وما يجب إتلافه، وما يجب نشره وكيف.

3. هل ترغب بعد وفاتك أيضاً إن عشت من بعدك، أن يكون لدي تفويض كتابي ساري المفعول باعتباري الممثل الوحيد لك في الخارج؟

أرغب بأن يكون ف. غ. تشرتكوف بعد وفاتي أيضاً، وحده المسؤول عن نشر وترجمة مؤلفاتي في الخارج.

4. هل تمنحني، بعد وفاتك، حق التصرف الكامل، حسب ما أرتئيه شخصياً، سواء للنشر خلال حياتي، أو تسليمي بعد وفاتي للشخص الذي أثق به جميع مخطوطاتك وأوراقك التي حصلت وسأحصل عليها منك حتى وفاتك؟

أضع تحت تصرف ف. غ. تشرتكوف جميع مخطوطاتي وأوراقي الموجودة لديه. وفي حال وفاته، أعتقد أن من الأفضل تسليم هذه الأوراق والمخطوطات لزوجتي أو لمؤسسة روسية ما - المكتبة العامة أو الأكاديمية.

5. هل ترغب بأن تتاح لي الفرصة بأن أراجع جميع مخطوطاتك الأصلية، التي ستكون بعد وفاتك عند صوفيا أندريفنا أو عند أفراد أسرتك، دون أخذ أي شيء منها قطعياً؟

أرغب جداً بأن يلقي ف. غ. تشرتكوف نظرة على جميع مخطوطاتي المتبقية من بعدي، وأن ينقل منها ما يعتبره ضرورياً للنشر».

وقد أرفقت الأجوبة برسالة تولستوي لتشرتكوف بتاريخ 13 أيار/ مايو عام 1904، التي أدخل فيها تدقيقاً على «وصية» عام 1895. وكانت هذه الرسالة مع الأجوبة وصية تولستوي الثانية غير *الرسمية*. لكنها أيضاً لم تكن ذات قوة قانونية، لأن ليف نيقولايفتش تابع الإصرار على أن حقوق مؤلفاته منذ عام 1881 تعدّ مشاعاً «للجميع». ومع ذلك، فإن هذه الوصية قد تأثرت بالصبغة «الشرعية».

لقد نشر تولستوي حقوق تشرتكوف على جميع المخطوطات بما فيها تلك التي كانت عند زوجته. لكن حقوقه على تراثه من المخطوطات الموجودة لدى تشرتكوف في الخارج، أعطاها حصراً لتشرتكوف وحده. وكان باستطاعة صوفيا أندريفنا الحصول على هذه المخطوطات فقط في حالة وفاة تشرتكوف، كما أن حقوقها هنا كانت مثل حقوق أية مكتبة عامة. ولم تكن هناك كلمة واحدة حول تسليم المخطوطات لأبنائه.

لقد أعلن في هذه الوصية تشرتكوف الوريث الروحي والموزع الوحيد لمخطوطات تولستوي. وهو أيضاً عُيّن محرراً ومصنفاً وجامعاً. وخُصص لزوجته دور متواضع، دور مساعدة ووسيطة في تسليم جميع المخطوطات لتشرتكوف. لكن الحقوق الأدبية لجميع الأعمال المكتوبة قبل عام 1881 بقيت في حوزتها.

واضح من خلال الرسالة والأجوبة، مدى الصعوبة التي عاناها تولستوي في إعداد هذه الوصية الثانية. وكم بذل من جهد بألم وعذاب حتى يُكسب هذه «الشرعية» وجهاً إنسانياً. فجميع هذه العبارات «أعتقد» (بدلاً من «أرغب»)، و«الأفضل» و«الأحسن» وما شابه ذلك جعلت من هذه الوثيقة بلا معنى من الناحية القانونية، لكنها بالمقابل ناشدت ضمير من وُجهت إليهم.

وقد كتب تولستوي: «عدا عن تلك الأوراق الموجودة لديك، أنا واثق أن زوجتي أو (في حالة وفاتها قبلك) أولادي لن يرفضوا، تنفيذاً لرغبتي، لن يرفضوا إعلامك بتلك الأوراق غير الموجودة لديك، وهم معك سيقررون كيفية التصرف بها». ولكن إلى من توسل؟ لمن وُجّهت عبارته «لن يرفضوا»؟ وُجّهت بالطبع، للأسرة...

ولشعوره بقلق «صديقه العزيز»، يحاول ليف نيقولايفتش طمأنة ف. غ. تشرتكوف بأجوبته المتواضعة على الأسئلة غير اللبقة بصورة مدهشة، والتي توحي بقرب وفاة تولستوي. وتختتم الرسالة بعبارة طنانة:

«أشكرك على كل ما بذلته من جهود سابقة على كتاباتي ومستقبلاً على ما ستفعله بالأوراق التي ستتركها من بعدي. كان الارتباط بك مسرة من أكبر مسرات سنوات حياتي الأخيرة».

في الواقع، كان طلب تشرتكوف القانوني مزعجاً للغاية بالنسبة له. كان مزعجاً، لدرجة أن تولستوي في هذه المرة لم يستطع إخفاء انزعاجه وفي الرسالة الثانية لصديقه «التي خبأها تشرتكوف وأخفاها عند ابنه تحت عبارة «سري» (ولم تنشر إلا في عام 1961) حيث كتب تولستوي:

«لن أخفي عنك، يا صديقي العزيز فلاديمير غريغوريفيتش، أن رسالتك مع بريغس كانت غير سارة بالنسبة لي... غير سارة ليس لأن الحديث يدور

عن موتي، وعن أوراقي التافهة، التي يُنسب لها أهمية مزيفة، بل غير سارة، لأن هناك نوعاً من الالتزام، والعنف، وعدم الثقة، والقسوة تجاه الناس. وأنا، لا أعرف كيف، أشعر بنفسي *منجذباً* إلى عمل مكروه، إلى فعل شيء يمكن أن يسبب الشر. لقد كتبت أجوبتي على أسئلتك وأرسلها لك. ولكن إذا ما كتبت لي أنك أتلفتها وأحرقتها، فسأكون مسروراً جداً».

إن موقف تولستوي يثير مشاعر متضاربة. فعندما شعر بالتنافر، وبدلاً من أن يقرر مباشرة مسألة الحقوق الأدبية مباشرة، كما قرر مسألة ملكيته (جمع العائلة كلها، وأعلن لها قراره)، تصرف حسب مبدأ «عدم مقاومة الشر» ووافق على المشاركة في مكائد تشرتكوف المعقدة ضد صوفيا أندرييفنا. وخلال ذلك، كان لا يعرف لا هو، ولا تشرتكوف نفسه، أن هذه المكائد، في هذا المجال، فاقدة لأي معنى قانوني. فلا وجود لأية وثيقة قانونية حتى الآن. ثمة وثيقة إنسانية. لكنها غير مرضية لتولستوي.

وبجذبه تولستوي إلى «الشرعية»، لم يتوقف تشرتكوف عند هذا وقاد المسألة إلى نهايتها. فالحلول والتصرفات النصفية ليست من طبيعته. وقد كتب عن ف. غ. تشرتكوف كاتب سيرته م. ف. موراتوف: «كل شيء، أراده، كان يريد الكثير».

من المذنب؟

وصية تولستوي الثالثة وكانت قد أمليت على السكرتير ن. ن. غوسيف، باعتبارها مدونة أيضاً في يوميات تولستوي بتاريخ 11 آب/ أغسطس عام 1908، قبل أسبوعين من عيد ميلاد الكاتب الثمانين. في هذه الفترة كان تولستوي في أشد حالات المرض. كان عاجزاً عن السير على قدميه، وكان مقيداً بالسرير والكرسي – النقّال. ولاعتقاده أنه يحتضر، قرر تعديل رغبته قبل الموت.

«أولاً، حسناً لو أن ورثتي أعطوا جميع كتاباتي لاستخدام عامة الجمهور؛ وإذا لم يمكن ذلك، فيجب إعطاء الكتابات الشعبية بالتأكيد مثل «تعليم القراءة»، و«كتب للقراءة» لعامة الجمهور. ثانياً، رغم أن هذه تفاهة

من التفاهات، أرجو أن لا يقوموا بأية طقوس عند دفن جسدي في التراب. تابوت خشبي، ومن يرد حمله أو ينقله إلى زاكاز مقابل الوادي، مكان العصا الخضراء. وعلى الأقل ثمة سبب لاختيار هذا المكان أو ذاك».

لقد كانت هذه وصية ليف تولستوي الأولى التي بقيت سارية المفعول بعد وفاته. فهي تتعلق بالمكان الذي أوصى بدفنه فيه، وتم دفنه هناك. أما قصة «العصا الخضراء» – رمز سعادة الناس وأخوّتهم، التي وضعها في غابة ستاري زاكاز الأخوان ليفوشكا ونيكولكا، فهي معروفة لجميع قراء السيرة الذاتية الثلاثية للكاتب. وهنا تولستوي وبصورة شفهية (لبناته) وبصورة كتابية يوصي بدفنه هناك.

أما فيما تبقى فالوصية الثالثة كررت الأخطاء القانونية للوصيتين السابقتين. أولاً، تولستوي يرجو ولم يأمر. وثانياً، أراد من جديد، منح حقوق المؤلفات *للجميع*، وكان هذا مستحيلاً.

ومن الأمور الرمزية ذات الدلالة أن مدونة 11 آب/ أغسطس عام 1908 يختمها تولستوي بذكرياته عن سيوتايف، الفلاح – الطائفي الذي لم يعترف بالملكية الخاصة. «نعم «نعم كل شيء فيك أنت وكل شيء الآن»، كما قال سيوتايف، وكل شيء قد انتهى – أملى تولستوي على السكرتير – فما الذي يمكن أن يحدث إن لم يكن في ذاتي، وبعد نفاد الوقت، سوى الخير».

إن نزعة تولستوي الأنانية الروحية لم تسمح له بإيلاء أية أهمية للجانب القانوني من المسألة. لقد كان هذا موقفاً غريباً، غير مفهوم للمقربين والأهل، لكنه موقف. وكان على تولستوي التمسك بهذا الموقف حتى النهاية، سامحاً لورثته مع المحامين بأن يتصرفوا بأنفسهم في تركته الأدبية. وهو بالطبع، أراد أن يتصرف على هذا النحو.

لكن هذا حرم حقوق رجل واحد أحبه تولستوي ولم يحبه الورثة، وهو تشرتكوف. وهو، بروحه، لم يستطع تجاوز هذا الحب. وتشرتكوف، بدوره، كان من غير الممكن أن يتخلى طوعياً عن حقوقه في تركة تولستوي.

أولاً، لم تكن هذه طبيعته – فهو إنسان عنيد ومستبد. وقد كتب كثيرون من حاشيته عن طباع تشرتكوف القاسية والاستبدادية، والتي كانت تبعدهم

عنه. وقد كتب عن تشرتكوف سكرتير تولستوي الأخير ف. ف. بولغاكوف: «... شهوة السلطة، شهوة السلطة القائمة على أساس التمركز حول الأنا والقادرة على الانتقال أحياناً إلى استبداد مباشر». كما كتبت ابنة تولستوي ألكسندرا لفوفنا عن تأثير تشرتكوف المضطهِد لأقرب الناس الموالين إليه بالذات. وقد دعاه رفيقه ب. ي. بريوكوف بـ «المستبِد».

ثانياً، من الضروري أن نقدر وضع تشرتكوف وأن نتفهم موقفه. فهو قد كرس حياته كلها لليف نيقولايفتش وليس لشيء آخر. والتخلي عن تركته كان يماثل بالنسبة له التخلي عن الحياة. والاتفاق مع صوفيا أندرييفنا كان مستحيلاً بحكم شخصيتها وشخصية تشرتكوف. لقد كان مثل هذا الاتفاق مثالياً بالنسبة لليف نيقولايفتش، لكن مثل هذا الاتفاق لم يستطع أي من الطرفين إهداءه له.

ثالثاً، أن الحالة النفسية لصوفيا أندرييفنا وحبها لأولادها بلا حدود قد أوحيا لها بالخشية من التصرف بتركة تولستوي ليس كما كان يرغب ليف نيقولايفتش. فمن أجل مَنْ كان على ف. غ. تشرتكوف أن يتخلى عن تركة تولستوي؟ لنأخذ للحظة بوجهة نظره. من أجل زوجة الكاتب التي تكره تشرتكوف؟ من أجل أبنائه، شاربي الخمرة ومبذري الأموال؟ وماذا سيحصل لهذا الإرث، الذي تمكن تشرتكوف من أن يحفظ جزءاً منه في إنكلترا بقرة عينه؟ وماذا سيحصل بالنسبة لإرادة الكاتب، الذي كان بوده، أن تكون مؤلفاته ملكية عامة للجميع؟ إن تشرتكوف وحده كان بإمكانه تنفيذ هذه الرغبة. وحتى أعداؤه لم يستطيعوا الشك بذلك.

آه، لو كان من الممكن في قصة الوصية فصل الأسباب عن النتائج، والذئاب عن الحملان! لكان كل شيء في غاية البساطة. ولكن في هذه القصة كان ثمة حمل واحد هو تولستوي الذي لم يستطع الطرفان المتخاصمان اقتسامه. وكل شيء في هذه القصة كان محيراً ومتشابكاً من الناحيتين الأخلاقية والقانونية، بحيث إن أي حل مثالي للمسألة لم يعد ممكناً.

إن تولستوي، بمحاولته التخلي عن حقوقه الأدبية لمصلحة «الجميع» قد خلق موقفاً غير مسبوق، وحالة لا سابق لها. وأسطع دليل على ذلك أنه

وحتى عام 1909 لم يستطع أي من المشاركين في هذه القصة، بمن فيهم الناشر الخبير تشرتكوف، فهم الجانب القانوني من المسألة وتصرف «بشكل أعمى». إن وصايا تولستوي الثلاث الأولى التي أنجزها بذلك القدر من العذاب وبقدر كبير من الشكوك، لم يكن لها أي معنى قانوني.

أزمة استوكهولم

مع اقترابه من نهاية أجله، أصبحت طبيعة تولستوي النفسية والروحية أكثر نعومة، وأكثر ليونة. وبدت كأنها تذوب من الداخل بوعي البداية الإلهية في ذاتها، وتذوب وتسبح مثل شمع العسل، وتتدفق كالهواء على الشمعة. كان لا يمكن أن يتصور تولستوي، في السنوات الأخيرة من حياته، أن يسيء إلى شخص ما، ولو بكلمة أو حتى يمسه بكلمة عرضية، وإذا ما حدث هذا رغماً عنه، فإن ليف نيقولايفتش كان يعاني بصدق.

في 23 أيار/ مايو عام 1909 بعد الطرد الإداري لتشرتكوف خارج مقاطعة تولا، ذهب تولستوي إلى مزرعة تلياتينكي بالقرب من ياسنايا بوليانا، حيث بقيت زوجة تشرتكوف أنّا كونستانتينوفنا (غالا) وابنهما فلاديمير (ديما). وفي هذا الوقت وصل مبعوث وزارة الداخلية العقيد آ. غ. لوبنتسوف إلى المكان نفسه بمهمة التحقيق في قضية تشرتكوف. عندما التقى به، لم يمد له يده ليف نيقولايفتش ودخل بخطوة سريعة إلى المنزل. ثم عاد بعد فترة قصيرة، واعتذر، وبدأ الحديث، محاولاً التخفيف من أثر تصرفه. لكن العقيد شعر بالإهانة، ولم يجر الحديث بشكل جيد. كم عانى تولستوي بعد هذا، وكم أدان نفسه، لأنه أهان هذا الرجل! وقد قال تولستوي لـ ن. ن. غوسيف: «لقد جئت إلى هناك وأنا أحدث نفسي، سوف تتعامل مع هذا الإنسان، فانتبه، وحاول أن تتعامل معه بحب. وفجأة...»

وقد اشتكى على نفسه لـ آ. ب. غولدنفيزر قائلاً: «وبالفعل، هذا مريع! كان بإمكاني أن أقول له إنني أعتبر نشاطه ضاراً وسيئاً، ولكن كان علي أن أعامله كرجل، باحترام. أنا، كرجل عجوز، لا أسامح نفسي! وبعدها كثيراً – كنت أستيقظ ليلاً، وأتذكر، وألهث: كم كان تصرفاً سيئاً!»

يمكن للمرء أن يجادل حول من يقع عليه اللوم أكثر في حقيقة أن تولستوي سمح لنفسه بالانجرار إلى «الشرعية» التي يكرهها وخضع لقوانين الدولة التي لا يعترف بها. لقد كان، على الأغلب، تشرتكوف، رغم كل شيء. لكن الخطوة الأولى نحو الوصية القانونية قد قام بها هو بنفسه، ليس بتأثير تشرتكوف، بل بسبب سلوك زوجته.

ولكن، لا يصح القول إنها لم تكن تفهم تلك المسارات الروحية والنفسية التي يمر بها زوجها في سن الشيخوخة. وها هي تكتب في يومياتها:

«لقد هرم كثيراً ليف نيقولايفتش في هذا العام (1908 – *المؤلف*). لقد انتقل إلى الدرجة التالية. لكنه هرم بشكل كبير. يبدو أن الحياة الروحية تسود، ورغم أنه يحب ركوب الخيل، والطعام اللذيذ، وقدحاً من النبيذ الذي أرسلته له جمعية النبيذ سانت رفائيل St. Raphael بمناسبة عيد ميلاده، ويحب اللعب بورق الشدة والشطرنج، لكن الواضح أن جسده يعيش حياة منفصلة، أما روحه فتبقى غير مشاركة بالحياة الأرضية، بل في مكان ما، أعلى، مستقلة عن الجسد. حدث شيء ما بعد مرضه: شيء جديد، أكثر غرابة وبُعداً أجده في ليف نيقولايفتش، وأشعر أحياناً بحزن لا يطاق، وبالأسف على ما ضاع فيه وفي حياته، وفي علاقته بي وبكل المحيط. فهل يرى الآخرون هذا؟»

يا لها من مدونة رائعة! لو كان باستطاعتها أن تبقى دوماً في هذه الحالة من فهم أنه مع اقترابه من الموت، واقترابه من الله، يبدأ تولستوي بعناية بقطع جميع الخيوط التي تربطه بالعالم الخارجي، ولا يصح أبداً إعاقته في ذلك!

في شهر حزيران / يونيو عام 1908 يصل تشرتكوف مع عائلته من إنكلترا، وينزل في فيلّا بالقرب من محطة كوزلوف زاسيك.

في 8 كانون الأول/ ديسمبر تكتب صوفيا أندريفنا في يومياتها: «إن تشرتكوف الذي يزورنا كل يوم، البارحة دخل إلى غرفة ليف نيقولايفتش وتحادث معه حول علامة الصليب. أنا، عن غير قصد، استمعت في الصالة إلى حديثهما. قال ليف نيقولايفتش إنه حسب العادة، يرسم أحياناً علامة الصليب، وكأن الروح عندما لا تصلّي في تلك اللحظة، فإن الجسد يُظهر علامة الصلاة. فأجابه تشرتكوف بأنه من السهولة عندما تحتضر أو تعاني

بشدة، وسترسم علامة الصليب بيدك، فإن المحيطين سيظنون أنه انتقل أو يرغب بالانتقال إلى الأرثوذكسية، وكي لا يفكروا على هذا النحو، سيكتب تشرتكوف في مفكرته ما قال له الآن ليف نيقولايفتش».

حتى رسم علامة الصليب لم يستطع تولستوي ذلك من دون تعليقات غريبة!

تشرتكوف يغار على ليف نيقولايفتش من الأرثوذكسية، وزوجته تغار عليه من نسائه السابقات. في بداية عام 1909، وعند إعادة كتابتها لقصة «بافل كودرياش»، تكتب في يومياتها الملاحظة التالية:

«لو كان فيه مزيد من الرقة واللطافة، لما سمى بطلاته النساء باسم أكسينيا».

لكن الغيرة من أكسينيا (في ذلك الوقت أصبحت ريفية مسنة، تابعت العيش في ياسنايا بوليانا) هي لا شيء، بالمقارنة مع غيرتها من تشرتكوف. عندما يستقر «مفرِّق الشمل» و«المعبود الجميل» على مقربة من منزلها ويظهر كل يوم تقريباً في منزلهم، *في منزلها*، تبدأ زوجة تولستوي بالمعاناة بشكل لا يطاق. ولا تستطيع بقواها النفسية التغلب على هذه المعاناة.

كانت صوفيا أندريفنا بطبيعتها عاطفية وغير منطقية. عندما نُفي تشرتكوف في شهر آذار/ مارس عام 1909 خارج حدود مقاطعة تولا، خلال ثلاثة أيام، بعد وشايات متكررة من سلطات تولا، يبدو أن غضب صوفيا أندريفنا لم يكن أقل من غضب زوجها، وتكتب في يومياتها: «خبر قاس عن طرد تشرتكوف من مقاطعة تولا. كان الجميع يبكون». حتى إنها ترسل رسالة إلى الصحف: «إن طرد تشرتكوف وعقاب كل من يجرؤ على قراءة كتب تولستوي وتداولها، هو غضب تافه على الشيخ الحكيم الذي مجده العالم كله ومجد روسيا باسمه...»

وتكرر موقف عام 1901 بصورة معكوسة عندما حاربت السينودس من أجل زوجها. والآن، ودون أن تشعر بأي تعاطف مع تشرتكوف، إنها تقاتل أيضاً ليس من أجله بقدر قتالها من أجل زوجها، خوفاً على توازنه النفسي وراحة باله. «إن ليف نيقولايفتش متكدر... إن رِجل ليف نيقولايفتش متورمة».

يصعب القول، ما الذي كان يوجه صوفيا أندرييفنا أكثر أثناء كتابتها هذه الرسالة – الدافع المدني أم القلق على صحة زوجها. «... القلب عند ليف نيقولايفتش ليس في وضع جيد». «... هو أحسن، لكنه لا يعتني بنفسه». «كان ليف نيقولايفتش مستلقياً، لم يأكل شيئاً طيلة اليوم، النعاس يسيطر عليه والضعف، وتسيطر على نفسه من جديد توقعات قاسية، شيء رهيب ما».

ولا تزال مريضة الحفيدة تانيوشكا التي تخرج للنزهة مع الجدة صونيا في شرفة منزل ياسنايا بوليانا في شمس آذار التي لا تعطي من الدفء إلا القليل.

من يمكننا أن نتهم؟ ف. غ. تشرتكوف يعاني من السلطات، ليف نيقولايفتش – يعاني من استحالة التواصل مع تشرتكوف، زوجته تتألم لمعاناة زوجها، وتتألم أكثر لأنه يعاني بسبب تشرتكوف.

لقد كان من المستحيل حل هذه العقدة النفسية. كان من الممكن قطعها فقط.

ويضاف إلى كل هذا إدراك أن ليف نيقولايفتش سوف يموت قريباً، ومسألة الحقوق الأدبية التي تنشأ بهذه المناسبة. عند قدومها إلى موسكو لأعمال ما، تذهب صوفيا أندرييفنا بالتأكيد إلى المتحف التاريخي حيث تحفظ حصتها من مخطوطات تولستوي، فتأخذها وتسجل مقتطفات منها. وهي لا تعرف حتى الآن، أن تشرتكوف قد حصل حتى على هذا الجزء من المخطوطات، من ليف نيقولايفتش، على حق الطلب. وتسرع ابنتها تاتيانا إلى بطرسبورغ – لتتوسط عند ستوليبين من أجل عودة تشرتكوف. وتعاني صوفيا أندرييفنا: «أنا لا أفهم – هل سيعيدونه أم لا». ورفضوا عودته. ويستقر تشرتكوف مع أسرته في حوزة كريكشينو في مقاطعة موسكو.

في هذه الفترة تتوتر العلاقة بين ليف نيقولايفتش وابنه ليف الذي عاد من السويد إلى ياسنايا بوليانا. كان ليف لفوفيتش مغرماً بالنحت وبدأ بنحت تمثال نصفي لأبيه من الطبيعة. لكنه أثناء وجود والده في كوتشيتي يكسر التمثال ويغادر إلى السويد.

وقد أوضحت زوجة غولدنفيزر هذا التصرف على الشكل التالي: «كان ليف نيقولايفتش لا يزال عند آل سوخوتين، وغير معروف بدقة متى سيعود.

قالوا – في نهاية هذا الأسبوع، وها هو يوم السبت، ولم يعد بعد. ولهذا ما تزال صوفيا أندريفنا غير راضية، أما ليف لفوفيتش فقد غضب كثيراً لأن أباه لم ينظر إلى بداياته في صنع التماثيل بما يستحقه من اهتمام وإعجاب ولم يسرع بالعودة إلى ياسنايا بوليانا كي يقف لتكملة التمثال، وكسر التمثال إلى قطع، وكوّم الطينة كلها على شكل كعكة، وبعد أن استاء بشكل رهيب، سافر إلى السويد».

في شهر تموز/ يوليو عام 1909 يتلقى ليف نيقولايفتش دعوة إلى استوكهولم لإلقاء كلمة في المؤتمر الثامن عشر للسلام العالمي. ويوافق تولستوي تقريباً، ويكتب الكلمة. لكن قراره هذا يثير لدى زوجته انهياراً عصبياً. فهي تخشى من سفره إلى الخارج.

ويكتب تولستوي في يومياته: «لم تنم صوفيا أندريفنا طيلة الليل. ذهبت إليها. لقد كانت في حالة أشبه بالجنون».

يمكننا تخمين بعض أسباب حالة صوفيا أندريفنا هذه من «مذكرات» ماكوفيتسكي ومن يوميات السكرتير غوسيف.

لقد تبين أنه كان على تشرتكوف أن يرافق تولستوي في سفره إلى استوكهولم بصفته مساعداً له. والمرافق الآخر لتولستوي كان من المفروض أن تكون ابنة تولستوي الصغرى ساشا، التي كانت تخضع، في تلك الفترة، خضوعاً نفسياً تاماً لتأثير تشرتكوف. إن كل هذا لم تستطع صوفيا أندريفنا أن تفهمه بشكل آخر سوى أن القوى المعادية لها تبعد زوجها عنها وأن تولستوي لن يعود من هذه السفرة.

في الوقت نفسه، يأتي إلى ياسنايا بوليانا ابنا ليف نيقولايفتش – أندريه وميخائيل – وكلاهما عدوّان لدودان لتشرتكوف ومدافعان عن أمهما. ولكن للأسف، لهما أطماعهما الخاصة.

وقد نقل ي. ف. دينيسينكو المحامي، قريب تولستوي الذي حل ضيفاً عليه في صيف عام 1909 في ياسنايا بوليانا، نقل لغوسيف حديثه مع ميخائيل:

«... يقف أمامي على هيئة سجين ويسألني: «قل لي، من فضلك، إيفان فاسيليفتش، هل يمكن لأمي أن تبيع مؤلفات أبي دون علمه؟» قلت له إن

هذا غير ممكن، وأضفت: «وهل فكرت بتأثير مثل هذا العمل على أبيك؟» نظر إليّ مبتسماً وقال: «والأولاد؟». عندها قلت له: «بيد أن هذا، حتى من الناحية العملية، من غير الممكن أن يتم بصورة سرية، وسيعلم بذلك ليف نيقولايفتش بالتأكيد، وعندها يمكنه أن يقول: إذا ما أسأتم استخدام توكيلي، فسأسحبه منكم. وكل هذا يمكن أن يتم خلال ربع ساعة»».

كان الحديث يدور حول توكيل عام 1883، الذي كانت زوجة تولستوي على أساسه تمارس أعمال النشر. لكن هذا التوكيل لم يسمح لها ببيع حق مؤلفات تولستوي لشخص ثالث.

كان الخوف من أن تشرتكوف أثناء هذه الرحلة قد يؤثر في الرجل العجوز ويجبره على كتابة وصية لمصلحته، لدى الابن أندريه لفوفيتش أيضاً. فعندما سمع أباه في غرفة غوسيف يقرأ على ساشا وفيوكريتوفا مقتطفات من رسالة تشرتكوف، بدأ أندريه في غرفة الطعام يلح بالسؤال على فيوكريتوفا:

– ما هذا الذي كنتم تقرؤونه؟

– رسالة ما.

– لمن؟

– لا أدري: عن المصرف الريفي لشخص ما.

– لا، قبلها ماذا قرأتم: أليست رسالة تشرتكوف؟

– هذا مقطع فقط قرأه ليف نيقولايفتش.

– إنه هو يغري أبي بالسفر إلى استوكهولم. إنه سافل! إن هذا يعني الموت لأبي.

– لا، أظن أن ليف نيقولايفتش نفسه قرأ في الصحف. وتشرتكوف لم ينصحه بشيء.

– وهو أراد الذهاب معه؟

– أظن، أراد ذاك.

– وساشا أيضاً تريد أن تعمل لنفسها نزهة في السويد.

– ولماذا نزهة؟ إنها تذهب مع أبيها.

فجأة خطر في ذهن صوفيا أندريفنا أنهم يريدون تسميمها، وأن من

سيقوم بذلك هو طبيب تولستوي الشخصي ماكوفيتسكي. وفي الوقت نفسه، تنوي الذهاب مع زوجها إلى السويد، حتى إنها أوصت على فساتين جديدة للسفر، وتحاول بمختلف السبل وقف زوجها عن السفر. إن صوفيا أندريفنا لم تسافر قط إلى الخارج. وهذه السفرة تخيفها. وقد أوحت لنفسها بفكرة، بأن واحداً منهما سيموت حتماً.

واستعجالاً للحدث، في 27 تموز/ يوليو حاولت أمام عيني زوجها شرب زجاجة صغيرة من المورفين.

خطف منها ليف نيقولايفتش الزجاجة ورماها تحت الدرج.

واضطر للتخلي عن السفر إلى السويد.

لقد أصبح شهر تموز/ يوليو عام 1909 لحظة الحقيقة بالنسبة للأشخاص المهتمين بمسألة الوصية. فالمحامي ي. ف. دينيسنكو الذي كان في ياسنايا بوليانا فتح عيون المشاركين في هذه القصة على الجانب القانوني للمسألة. ففي هذه الفترة كانت صوفيا أندريفنا قد قررت مقاضاة دار نشر «الوسيط - بوسريدنيك» وناشرين آخرين، أعادوا نشر بعض مؤلفات تولستوي من مجموعته «ألفباء القراءة» في السبعينيات («أسير القوقاز»). كانت تعتبرها ملكيتها الخاصة، ومن خلال وكيل لها اتجهت إلى المحامي بطلب رفع دعوى قضائية. سألها المحامي: على أساس أية وثيقة سترفع دعوى قضائية؟ على أساس توكيل. فشرح لها المحامي أنه من غير الممكن رفع دعوى قضائية على أساس التوكيل. لا بد من وثيقة من زوجك بنقل الحقوق لدار النشر.

لم يرفض تولستوي قطعياً إعطاء زوجته مثل هذه الوثيقة فحسب، لكنه كان غاضباً للغاية من سلوكها تجاه دور النشر الشعبية. وكان سخطه شديداً لدرجة أنه قرر، بدوره، ترك زوجته من دون أية حقوق على مؤلفاته.

وقد كتب دينيسينكو: «في تموز/ يوليو عام 1909 عندما كنت في ياسنايا بوليانا، عزم ليف نيقولايفتش تولستوي الذهاب إلى مؤتمر السلام في استوكهولم، وكانت صوفيا أندريفنا ضد ذهابه. وقد تسبب هذا في عدد كبير من الخلافات وحالات عدم التفاهم، ومرضت صوفيا أندريفنا آنذاك، لعدم رغبتها بذهاب ليف نيقولايفتش إلى المؤتمر.

ذات مرة دعتني إلى غرفة نومها، وبعد أن عرضت عليّ توكيلاً عاماً لإدارة الأعمال أعطاه لها منذ زمن ليف نيقولايفتش، سألتني، هل يمكنها بهذا التوكيل أن تبيع لشخص ثالث حق نشر مؤلفات ليف نيقولايفتش، والأهم رفع دعوى ضد سيرغيينكو ومعلم آخر من الثانوية العسكرية لتجميعهما مجموعات ومختارات من مؤلفات ليف نيقولايفتش، نظراً لأن هذه المجموعات يمكن أن تشكل خسارة مادية كبيرة لها، أي لصوفيا أندريفنا...

وفي اليوم التالي، كما أظن، بعد أن ذهبت مع زوجتي وأولادي إلى الحديقة من أجل الثمار. طلبت مني زوجتي لسبب ما أن أذهب إلى البناء الجانبي. مشيت في الدرب الذي يمر بين الزهور، والتقيت فجأة بصورة غير متوقعة ليف نيقولايفتش. كان منحني الظهر، مرهق الوجه، منطفئ العينين، وبدا ضعيفاً جداً لم أره هكذا من قبل قط. عند اللقاء، أمسك بيدي بسرعة وقال والدموع في عينيه:

«عزيزي، إيفان فاسيليفتش، ماذا تفعل معي! إنها تطلب مني توكيلاً من أجل رفع دعوى ملاحقة ومقاضاة. وهذا لا يمكنني فعله... إن هذا ضد قناعاتي».

ثم بعد أن سار معي عدة خطوات، قال لي: «لدي رجاء كبير، وليبق هذا بيننا فقط، لا تخبر أحداً به حتى ساشا. من فضلك، اكتب لي ورقة قانونية، يمكنني بموجبها إعلام الجميع أن جميع مؤلفاتي، مهما كانت السنة التي كتبتها، أنقلها إلى حق الاستخدام العام...»»

يكتب ليف نيقولايفتش في اليوميات بتاريخ 12 تموز/ يوليو: «بالأمس مساء كان الوضع صعباً بسبب حديث صوفيا أندرييفنا حول الطباعة والملاحقة القضائية. لو كانت تعرف وتفهم كيف هي وحدها تسمم آخر ساعات حياتي وأيامها وأشهرها! ولا أستطيع أن أقول لها ذلك، ولا آمل بتأثير أية كلمات عليها».

عشية هذه المدونة، اتخذ تولستوي قراره بالذهاب إلى استوكهولم. «قررت الذهاب إلى استوكهولم. أشعر بالراحة في نفسي».

في حِبال «الشرعية»

في عام 1922 أصدر تشرتكوف كتاب «رحيل تولستوي»، حاول فيه إخفاء مشاركته في وضع وصية تولستوي القانونية. وشرح حقيقة ظهور هذه الوثيقة حصرياً بالموقف اللاأخلاقي لزوجة الكاتب وبعض أفراد أسرته.

وقد أثار كتاب تشرتكوف سخط كثير من المعاصرين، ومن بينهم مكسيم غوركي. لقد نشر غوركي في مجلة «مسامرة – بيسيدا» التي تصدر في برلين، مقالة عن الكونتيسة تولستايا، التي لم يكن يحبها، لكنه حاول فيها الدفاع عنها وتبرئة موقفها.

وقد صرح غوركي: «غير واضح بالنسبة لي، مَن مِن الناس المحيطين بليف تولستوي في تلك الأيام، كان معافى وسليماً نفسياً. وأنا لا أفهم: طالما اعترف بأن زوجته مريضة نفسياً، فلماذا لم يخمن الناس الطبيعيون ضرورة الانتباه إليها، ولماذا لم يعزلوها».

بالفعل، هذه كانت مسألة أليمة ورهيبة. ولا يمكن أن يحل هذا الموقف إلا الناس الأقربون. ولأسباب مختلفة لم يفعلوا هذا. إنها مشكلة عائلية عميقة بامتياز، لا يمكن مقاربتها، حتى في يومنا هذا، إلا بكثير من الحذر. ولكن ثمة أمراً مؤكداً يمكن قوله: لم يكن ثمة خطأ ذاتي على زوجة تولستوي في هذا المجال. فلا يمكن أن يكون الإنسان غير القادر على السيطرة على نفسه مذنباً، وهو نفسه يدرك ذلك جيداً، وهو يعاني نفسه من ذلك.

وقد شرح غوركي وضعها كما يلي:

«في نهاية الأمر – ما الذي حصل؟

فقط، أن امرأة عاشت خمسين سنة صعبة مع روائي عظيم، مع إنسان متميز للغاية ومتمرد، امرأة كانت الصديق الوحيد خلال مسيرته الحياتية والمساعِدة النشيطة في العمل – أصبحت متعبة للغاية، وهذا أمر مفهوم تماماً.

في هذا الوقت، كانت هذه المرأة العجوز ترى أن هذا الرجل الكبير، زوجها، ينفصل عن العالم، شعرت بنفسها وحيدة، لا أحد يحتاجها، وهذا أثار غضبها.

وفي حالة السخط هذه من الناس الغرباء الذين يبعدونها عن مكانها الذي شغلته نصف قرن، يُقال إن صوفيا تولستايا لم تتصرف بدرجة كافية من الإخلاص تجاه سياج الأخلاق الذي وضع من أجل تقييد الإنسان للناس (حسب قول غوركي – *المؤلف*)، الذين وضعوا أنفسهم بشكل سيئ.

ثم اتخذ سخطها طابعاً قريباً من الجنون.

وبعد ذلك، وبعد أن هجرها الجميع ماتت وحيدة. وبعد موتها، بدأوا يتذكرونها كي يفتروا عليها بلذة وفرح.

هذا كل شيء».

لقد كان دور تشرتكوف في كتابة وصية تولستوي كبيراً، بالطبع.

أولاً، من دون تشرتكوف لما كانت هناك وصية. إن أي شخص لديه أي فكرة عن البنية النفسية لشخصية تولستوي، عليه أن يدرك أن إعداد هذه الوثيقة القانونية التي أعيدت صياغتها عدة مرات(!)، كانت بالنسبة له أقسى امتحان في حياته. والمسألة ليست في عقيدة تولستوي التي من غير الممكن وفقها حل مسألة روحية بمساعدة الدولة. فالأهم – هو الطبيعة النفسية لشخصيته، وخاصة في سنوات حياته وأشهرها وأيامها الأخيرة. فتوقيع وثيقة قانونية ضد الأسرة كان يعني بالنسبة له إثارة *الشر* في الناس ضد الآخرين، لا سيما ضد أقرب الناس إليه، الذي كان ليف نيقولايفتش يشعر بمسؤوليته عنهم.

ثانياً، لقد أخفى تشرتكوف في كتابه حقيقة أنه أرغم ليف نيقولايفتش في عام 1904 على الإجابة على «الاستبيان» الذي كان في *نظر* ف. غ. تشرتكوف وصية رسمية. وحتى عام 1909 لم يعرف تشرتكوف أن هذا «الاستبيان» ليس له أي قوة قانونية. ومع عدم علمه بذلك، *استدرج* تولستوي لكتابة ورقة قانونية أخرى – وهي الصيغة الأولى من الوصية *القانونية*، التي وقعها ليف نيقولايفتش في منزل تشرتكوف الصيفي في كريكشينو في 18 أيلول/ سبتمبر عام 1909.

نعم، كان تشرتكوف على حق، عندما كتب أن «قراره (قرار تولستوي – *المؤلف*) باللجوء إلى الوصية قد اتُخذ دون علمه، وأثناء انفصالي القسري

عنه». لكنه لا يكتب، أنه بالقرب من تولستوي كان يوجد باستمرار ثلاثة أشخاص من الموثوقين المقربين منه: ساشا، غوسيف وماكوفيتسكي. ولا يكتب، أن سكرتيرَي تولستوي غوسيف وبولغاكوف كانا معيّنين في منزل ياسنايا بوليانا من قبل تشرتكوف، وبشروط تثير الحيرة والارتباك على أقل تقدير. وعلى سبيل المثال، كان على بولغاكوف، أن يسجل مذكرات يومية لكل ما يجري في المنزل وينقلها إلى تشرتكوف! إن هذا كان تجسساً على ليف نيقولايفتش وأسرته.

وأخيراً، لا يكتب تشرتكوف أنه طيلة فترة «انفصاله» عن ليف نيقولايفتش، كان يضنيه ويضجره مراراً وتكراراً بطلباته الكتابية حول الصياغة القانونية لحقوقه على النصوص الجديدة. وهذه الطلبات كانت تستفز تولستوي وتثير في نفسه مشاعر «مكدّرة»، لكن ليف نيقولايفتش في كل مرة كان يوافق عليها.

إن محبة تولستوي التي لا تعرف الحدود لتشرتكوف هي ظاهرة من أكثر الظواهر غموضاً في حياة تولستوي النفسية. فكم من المرات، أثناء المراسلات، وتواصلهما المباشر، كان تشرتكوف يتدخل بفظاظة في العلاقات الأسرية لتولستوي، موجهاً المكائد ضد زوجته، وضد بناته اللواتي كان الأب يحبهن أكثر من أي شيء في الدنيا! وفي كل مرة كان تولستوي يسامحه، بل يخرج تشرتكوف فائزاً، دوماً!

يكتب تولستوي لتشرتكوف في كريكشينو من كوتشيتي: «استلمت يا صديقي العزيز رسالتك التي أحبطتني من جميع النواحي. وشكراً على ذلك. ما أحبطني أنك لا تكتب أي شيء محدد عن نفسك. وأنا أنتظر. شعرت بخيبة الأمل، بل كنت غير مرتاح من كتاباتي، حتى من أي سنة كانت. فلتذهب هذه الكتابات إلى «الشيطان»، كي لا تسبب مشاعر سيئة».

ما هذه الكتابات؟ طلب تشرتكوف تسليمه، إلى المجموعة التي يجري إعدادها، بمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس الصندوق الأدبي، القصة الطويلة «الشيطان» التي كان تولستوي قد خبأها قبل عشرين عاماً عن زوجته تحت قماش تنجيد الكرسي، والتي تم اكتشافها وأثارت سخط صوفيا

أندريفنا. وحدد بما أن صوفيا أندريفنا تعتبر هذه القصة مكتوبة قبل عام 1881، فيمكن أن تسبب مشكلة عند نشرها. فما هذا، إن لم يكن تدخلاً في قضايا الأسرة الحميمة؟ وكان هذا التدخل وثيق الصلة بمسألة الحقوق الأدبية التي كان يتطلع إليها تشرتكوف.

وفي كانون الأول/ ديسمبر عام 1909، وبناء على طلب تشرتكوف الملحّ، وثّق تولستوي كتابياً حقوقه الحصرية باعتباره «مفوضاً من قبل ليف نيقولايفتش تولستوي في طباعة كتاباته التي تظهر للمرة الأولى». لقد كان هذا أوج محاولات تشرتكوف المتعددة المراحل لأن يصبح الوكيل الأدبي *الوحيد* القانوني لتولستوي. إن «رسالة إلى هيئة التحرير» لتشرتكوف التي نشرت على الفور في عدة صحف («روسيا الجديدة – نوفايا روس»، «الكلمة الروسية – روسكوي سلوفو»، «الأخبار الروسية – روسكيي فيدوموستي») مع حاشية تولستوي المؤيدة – هذه الرسالة أصبحت رأس الجبل الجليدي الظاهر لما يعرف باسم «وصية تولستوي».

وأخيراً. وفي الحديث عن «الانفصال القسري» مع تولستوي، الغريب أن تشرتكوف «نسي» أنه في 30 حزيران/ يونيو و1 تموز/ يوليو عام 1909 التقى بليف نيقولايفتش في قرية سوفوروفو التي تبعد ثلاثة كيلومترات ونصف عن كوتشيتي. وهذا «اللقاء السار» نظمته ابنة تولستوي تاتيانا سوخوتينا. وكان اللقاء سرياً. حيث لم تعرف به صوفيا أندريفنا. وكان زوجها خلال هذه الفترة في زيارة لابنته في كوتشيتي. لكن اللقاء، من وجهة نظر القانون كان شرعياً. لأن سوفوروفو كانت تتبع مقاطعة أرلوف (على حدود تولا)، وكان محظوراً على تشرتكوف الانتقال عبر مقاطعة تولا فقط.

عمّ تحدّث مع تشرتكوف؟

بحسب شهادة ماكوفيتسكي، الذي كان في كوتشيتي أيضاً، عاد تولستوي من اللقاء الأخير «وكان يشعر بنفسه ضعيفاً بعد التوتر الناتج عن الأحاديث الجدية مع تشرتكوف». في 2 تموز/ يوليو نام تولستوي حتى التاسعة صباحاً، ثم بقي مستلقياً في السرير، وطيلة اليوم تقريباً لم يعمل، كان يلعب لعبة سوليتير بالورق ثم نام مرة أخرى. وقد شهد ماكوفيتسكي قائلاً: «كان

النبض عنده متفاوتاً وأدنى من العادي: في الساعة الرابعة عندما كان ليف نيقولايفتش مستلقياً انخفض النبض عنده إلى 60 ودرجة الحرارة 36، وبالأحوال العادية عند ليف نيقولايفتش على التوالي 72 و36,6. وكانت عنده حرقة في المعدة، وقشعريرة في الظهر، وجسمه كله بارد».

هكذا كانت حالة تولستوي الجسدية قبيل عودته إلى ياسنايا بوليانا، حيث اندلعت أزمة «استوكهولم» العائلية.

دعوة إلى الإعدام

من كتب الوصية الرسمية الأولى؟ خلال العامين الأخيرين كان تولستوي مريضاً مرضاً شديداً (مميتاً). ويصف سكرتيره غوسيف في يومياته الغيبوبات التي كانت تحصل لليف نيقولايفتش والتي كانت تترافق بفقدان جزئي للذاكرة، حيث كان تولستوي ينسى فجأة أسماء أولاده وأحفاده، ولا يتعرف على وجوههم، ويتساءل أين تقع خاموفنيكي، حتى إنه قد يسأل ألم يحضر بالأمس شقيقه «ميتنكا»؟ لقد توفي دميتري نيقولايفتش تولستوي في عام 1856 قبل نصف قرن من أن يصبح غوسيف سكرتيراً لتولستوي، وقد وصف موته بالتفصيل في رواية «آنّا كارينينا»، التي كُتبت في السبعينيات.

في تموز/ يوليو عام 1909، قبل فترة قصيرة من كتابة أول وصية رسمية، نسي تولستوي من هو الآن مالك ياسنايا بوليانا. كان يعتقد بصدق أنه لا يزال مالك هذه الأرض، وكان يعاني من هذا، وأراد أن يعطيها للفلاحين. من الصعب تصديق ذلك، ولكن ثمة دليلين على ذلك.

في يوميات تولستوي ثمة مدونة بتاريخ 23 تموز/ يوليو: «قررت التنازل عن الأرض. البارحة تكلمت مع إيفان فاسيليفيتش. ما مدى صعوبة التخلص من هذه الملكية المقرفة الآثمة. ساعدني، ساعدني، ساعدني».

هذا يعني، أنه لم يتحدث مع المحامي دينيسينكو عن الحقوق الأدبية وحدها؟ هذا يعني أن الحقوق الأدبية ارتبطت في ذهنه بشكل ما بملكية الأرض، التي لم يعد يملكها منذ عام 1892؟

كما تؤكد هذا يوميات ابنته تاتيانا لفوفنا. «... في ياسنايا بوليانا، عندما

كنت هناك في شهر تموز/ يوليو والمزاج العام كان مثقلاً للغاية، قال لي ذات مرة، إنه يشعر بعبء كبير من ملكية الأرض. فأخذتني الدهشة.

– بابا! ليست لديك أية ملكية للأراضي؟!

– كيف؟ وياسنايا بوليانا؟

– لا، لا تملكها! لقد أعطيتها لورثتك، كما أعطيت كل شيء.

فقاطعني وقال:

– حسناً، أخبريني بكل شيء، كيف تسير الأمور».

نذكّر هنا أن ليف نيقولايفتش، في هذه الفترة، بمرافقة تشرتكوف وساشا، عزم على الذهاب إلى استوكهولم. ربما سلوك زوجته التي لم تسمح له بالسفر إلى هناك، لم يكن جنونياً إلى هذا الحد؟ ربما كان من الجنون دفعه إلى هذه الرحلة؟ ولماذا، عموماً، أراد الذهاب إلى السويد؟

في 30 تموز/ يوليو، عندما تخلى تقريباً عن السفر تحت ضغط زوجته، دار حديث غريب جداً بينه وبين ماكوفيتسكي. كان الطبيب يقوم بتدليك ساق ليف نيقولايفتش المريضة، سأله تولستوي فجأة:

– أتوجه إليك كصديق مقرّب، كشخص متواضع ومعتدل: أريد أن أغادر المنزل إلى مكان ما في الخارج. فكيف العمل بالنسبة لجواز السفر؟

استمر الحديث حول جواز السفر لمساء اليوم التالي. وأخبر ماكوفيتسكي ليف نيقولايفتش بإجراءات الحصول على جواز سفر صالح للسفر إلى الخارج.

– معقدة جداً – قال ليف نيقولايفتش – أليس من الممكن استخراجه، بحيث لا يصبح معروفاً ويبقى سراً؟

في 21 آب/ أغسطس، وبحضور المقربين، قال تولستوي جملة رائعة مذهلة تعكس بدقة حالته النفسية آنذاك:

– لو أنا خَلقت الناس، لخلقتهم كبار السن، كي يصبحوا أطفالاً بالتدريج.

في 28 آب/ أغسطس أكمل الكاتب عامه الحادي والثمانين. وقال تولستوي مازحاً أثناء تناول طعام الفطور: «عمري ثلاث سنوات مكعب».

أما في 2 أيلول/ سبتمبر فتجري تجمعات متشنجة في كريكشينو. وسببها لأن تشرتكوف بث الرعب في تولستوي، وكأنه خلال فترة غيابه، في ياسنايا بوليانا ستجري عملية بحث ومصادرة آخر كتاباته. فأخبر الرجل العجوز الخائف ماكوفيتسكي بأن «يأخذ معه كل ما يمكنه من المخطوطات، ومقالاته التي بدأها، وحتى مواد الكتب الخاصة بها».

الطريق إلى كريكشينو يمر عبر موسكو. وتولستوي لم يكن في موسكو منذ سنوات طويلة. لقد تغيرت المدينة بحيث لم يمكنه التعرف عليها. وظهرت عربات ترام الخيول والترام الكهربائي. ويباع في مخزن زيميرمان الموسيقي جهاز حديث يسجل معزوفات أشهر عازفي البيانو. وقد تم تركيب خط الهاتف في منزله في خاموفنيكي. لقد أذهلت منجزات المدنية هذه ليف نيقولايفتش. ويلاحظ غولدنفيزر قائلاً: «إنه ينظر برعب إلى هذا العش من النمل البشري الضخم، وفي كل خطوة يخطوها كان يجد تأكيداً على كراهيته القديمة لما يدعى بالمدنية».

ومع ذلك، في مخزن زيميرمان يُعجب تولستوي بالجهاز الموسيقي، ويصرخ بفرح كالطفل. وبهدف الدعاية للجهاز، يرسلونه إلى كريكشينو طول فترة إقامة ليف نيقولايفتش.

إن يوميات تولستوي في كريكشينو (من 5–18 أيلول/ سبتمبر عام 1909) يثير مشاعر عجيبة. إنه حكيم، لكنه حكيم بطريقة طفولية للغاية. وبالنسبة لشخص غير مؤهل، قد يُحدث في نفسه انطباعاً بأنه أمام لعثمة لطفل ما. يتحدث عن الله، عن الخير، عن الحب، عن أهمية الأحلام... يتذكر تولستوي حلمه الغريب، كيف ذهب مع شقيقه سيرغي للصيد. وكان لدى ليف نيقولايفتش كلارينيت، لسبب ما، بدلاً من البندقية. وها هما يصلان إلى البحر (لماذا – إلى البحر؟) ويشاهدان المراكب، التي هي في الواقع بجعات. يقول له سيرغي: «أطلق النار». ليف نيقولايفتش يأخذ الكلارينيت في فمه، لكنه لا يستطيع أن ينفخ فيها. عندها يطلق أخوه النار، ويستيقظ تولستوي على صوت دوي. فقد سقطت حواجز النوافذ من هبوب الرياح.

في هذه اليوميات ما من *كلمة واحدة* عما سيحصل في يوم مغادرة

كريكشينو – عن الوصية. ويتشكل انطباع كأنه لم يفكر في هذا الموضوع قط. أو أنه خشي أن تقرأ زوجته هذه اليوميات؟

ويطرح سؤال نفسه قسراً: إلى أي درجة كان تولستوي مدركاً أنه وقع وصية في 18 أيلول/ سبتمبر؟ لا إجابة عن هذا السؤال، لأن تولستوي لا يعلق عليه في اليوميات. ثمة فقط مدونة غامضة عن حديث عشية التوقيع مع تشرتكوف. «لقد تحدثت لتشرتكوف عن عزم الأولاد على استرداد المؤلفات المعطاة للجميع. لا أريد أن أصدق». من هذه المدونة يمكن استخلاص استنتاج حذر، هو أن هذا السؤال طرحه تشرتكوف.

كان ليف نيقولايفتش شارد الذهن، وبالمقابل كان ف. غ. تشرتكوف نشيطاً للغاية. وبتخويفه للرجل العجوز للمرة الثانية، في هذه المرة بالتهديد بالتفتيش في كريكشينو، يرسل إلى إنكلترا النسخ الأولى من المخطوطات التي أحضرها معه.

عشية توقيع الوصية ضاع تولستوي في الغابة. حتى إنه خشي من أن لا يعثر على طريق العودة إلى البيت. وفجأة يظهر له تشرتكوف! كان يسير من خلف تولستوي.

في اليوم الأخير من إقامة تولستوي، ضاع مرة ثانية. واقتاده إلى البيت تشرتكوف من جديد.

بعد النزهة، روى تولستوي لحفيديه صونيا وإليوشا على المقعد حكايته «المفضلة» عن الخيار. « – ذهب صبي إلى الحقل، ورأى خيارة مستلقية (وأظهر بأصابعه حجم الخيارة). فأخذها – هاب! وأكلها!» قال إيليوشا: «ويطقطق مثل الخيارة الطبيعية! لقد راقبت، راقبت بدقة جدي – لم يضع في فمه خيارة حقيقية. لا، لم يضع». – فصاحت أخته الكبرى صونيا معترضة: «ألا تخجل، هل تظن أن الجد يمكر بنا! هذه إهانة للجد!»

في هذا اليوم تم توقيع الوصية.

«أعلن بأنني أرغب بأن تكون جميع مؤلفاتي وأعمالي الأدبية وكتاباتي من كل نوع، سواء منها المطبوعة أو غير المنشورة، والمكتوبة والمطبوعة

لأول مرة منذ الأول من كانون الثاني / يناير عام 1881، وكذلك جميع الأعمال المكتوبة من قبلي قبل هذا التاريخ وغير المطبوعة، أن لا تكون بعد موتي ملكية لأحد، وأن يحق نشرها وإعادة طبعها دون مقابل لجميع من يرغب. أرغب بأن يتم تسليم جميع مخطوطاتي وأوراقي التي ستبقى من بعدي إلى فلاديمير غريغوريفيتش تشرتكوف، كي يتصرف بها بعد موتي كما يتصرف بها الآن، من أجل أن تكون جميع كتاباتي متاحة لجميع الراغبين من أجل نشرها من دون مقابل. وأرجو فلاديمير غريغوريفيتش تشرتكوف أن يختار أيضاً شخصاً أو أشخاصاً كي ينقل هذا التفويض في حال وفاته.

ليف نيقولايفتش تولستوي

كريكشينو، 18 أيلول/ سبتمبر 1909

عند توقيع هذه الوصية حضر كل من الأشخاص التالية أسماؤهم وهم يشهدون أن ليف نيقولايفتش عند توقيعه الوصية كان سليم العقل وقوي الذاكرة:

الفنان الحر ألكسندر بوريسوفيتش غولدنفيزر،

التاجر ألكسي فاسيليفيتش سيرغيينكو،

التاجر ألكسندر فاسيليفيتش كالاتشيف،

أعادت كتابة الوصية الحالية: ألكسندرا تولستايا».

في طريق العودة، كاد حشد مؤلف من خمسة آلاف شخص رافق الكاتب إلى محطة سكة حديد كورسك، أن يهشم تولستوي. وقد أنقذه تشرتكوف. ولكنه هو السبب لأنه نشر في الصحف وقت سفر ليف نيقولايفتش من موسكو. عندما جلس تولستوي في العربة في محطة كوزلوف – زاسيكا، أصيب بحالة إغماء عميق. ولم يصح إلا في صباح 20 أيلول/ سبتمبر. «... لا أذكر أي شيء. رووا لي، أنني تحدثت في البداية، ثم فقدت وعيي نهائياً. كم هو بسيط وجيد الموت هكذا!».

إنها وصية تولستوي الرسمية الأولى المكتوبة بخط يده. ولكن تكفي المقارنة السريعة لنص هذه الوثيقة مع الوصيتين المسجلتين على شكل مدونتين في اليوميات، كي ندرك: أن هذه *ليست لغة تولستوي ولا أسلوبه*. إذن، هي لغة وأسلوب مَنْ؟

في تطرقه إلى تاريخ هذا النص في كتابه «رحيل تولستوي»، لا يقول تشرتكوف أبداً «كتب تولستوي وصية». إنها تتردد عنده بلغة أكثر دبلوماسية: «لقد قرر اللجوء إلى وضع وصية». ولكن، لنسأل، من الذي وضعها؟

في كتابه «رحيل وموت ليف تولستوي»، يلاحظ بوريس ميلاخ أنه ليس من حيث المضمون فقط، بل من حيث الصياغة النصية أيضاً، تتطابق الوصية الرسمية الأولى مع ذلك «الاستبيان» الذي أرسله تشرتكوف من إنكلترا مع سكرتيره برينغس في عام 1904. وأجوبة تولستوي تكرر الأسئلة بصيغة إيجابية، وشكلت أساس الوصية.

مثال:

«الاستبيان» (1904): «هل تمنحني، بعد وفاتك، حق التصرف الكامل، حسب ما أرتئيه شخصياً، سواء للنشر خلال حياتي، أو تسليمي بعد وفاتي للشخص الذي أثق به جميع مخطوطاتك وأوراقك التي حصلت وسأحصل عليها منك حتى وفاتك؟»

الوصية (1909): «أرغب بأن يتم تسليم جميع مخطوطاتي وأوراقي التي ستبقى من بعدي إلى فلاديمير غريغوريفيتش تشرتكوف، كي يتصرف بها بعد موتي...»

فما الذي حدث في 18 أيلول/ سبتمبر عام 1909؟ حصل تماماً، أن ف. غ. تشرتكوف انتصر على صوفيا أندريفنا. والأكثر فظاعة أن هذا تم من وراء ظهرها، عندما جاءت إلى كريكشينو.

بعد أن لم تسمح لزوجها بالذهاب إلى استوكهولم، كان من القهر الشديد أن لا تسمح له بالذهاب إلى كريكشينو. واستسلمت ووافقت بصعوبة بالغة.

وتكتب في يومياتها بتاريخ 2 أيلول/ سبتمبر «اجتماعات ليف نيقولايفتش بتشرتكوف قاسية بالنسبة لي». «لقاءات ووداعات حزينة» (مدونة بتاريخ 3 أيلول/ سبتمبر). في 5 أيلول/ ديسمبر عندما وصل تولستوي إلى كريكشينو، غادرت ياسنايا بوليانا إلى شاموردينو شقيقته التي كانت مع ابنتها ليزا ضيفتين عند أخيها. وأصبحت ياسنايا بوليانا فارغة تماماً. فهي بدون تولستوي فارغة تصم الآذان، وتتحول إلى مكان ميت، حيث لا يرغب أحد بالقدوم إليها.

وقد كتبت في حزيران/ يونيو عام 1909 زوجة غولدينفيزر في رسالة لزوجها: «لا يمكنك أن تتصور، كم ياسنايا بوليانا رهيبة من دون ليف نيقولايفتش. هدوؤها وصمتها أشبه بصمت الموت».

في اليوم نفسه الذي غادرت فيه ماريا نيقولايفنا ياسنايا بوليانا، عاد إليها من موسكو الزوجان غولدنفيزر. وقد حدثنا صوفيا أندريفنا كيف أمضى زوجها وقته في موسكو، وكيف أصغى إلى الجهاز الموسيقي في مخزن زيميرمان، وكيف تنزه على جسر كوزينتسكي، وكيف حيّاه الجمهور في محطة القطار. في صباح يوم 8 أيلول/ سبتمبر وصلت صوفيا أندريفنا إلى موسكو وتوجهت إلى كريكشينو. استقبلها ليف نيقولايفتش «بمودة ومحبة» في المحطة، وبدا لها كل شيء في المنزل «جيداً، وودوداً، وجميلاً». وخلال يومي 10–12 أيلول/ سبتمبر عادت من جديد إلى موسكو. حيث ذهبت إلى البنك، ورتبت أعمال النشر الخاصة بها، وكعادتها، ذهبت إلى المتحف التاريخي للعمل على مخطوطات زوجها، التي أودعتها هناك للحفظ. إضافة إلى ذلك، كانت ساقها تؤلمها، فزارت الطبيب. وفي 13 أيلول/ سبتمبر عادت من جديد إلى كريكشينو.

في هذا اليوم، شعرت بالفعل أن هناك شيئاً ما غير سليم. سافرت معها من موسكو ابنتها ساشا، التي كانت في المدينة بشؤونها وأعمالها، وهي الآن تعود إلى آل تشرتكوف وإلى أبيها.

في المحطة، استقبلهما من جديد تولستوي. أثناء جلوسها في العربة، تعثرت صوفيا أندريفنا على ساقها المريضة، وكانت تئنّ طيلة الطريق بصوت عال. وضعوها على السرير، واستدعوا الطبيب. بحلول وقت الغداء

حضرت إلى المائدة. ويشير غولدنفيزر الذي كان حاضراً إلى «حالة صوفيا أندريفنا المرضية – المتوترة، المستعدة كل دقيقة لخلق مشهد أو السقوط في نوبة هستيرية». وفي 17 أيلول/ سبتمبر، عشية توقيع الوصية، نشأ شجار بين صوفيا أندريفنا وتشرتكوف، وهو الذي يكتب عنه في ذكرياته سكرتير تشرتكوف الشاب أليوشا (ألكسي) سيرغيينكو.

إن انطباعات أليوشا سيرغيينكو حول زيارة كريكشينو في أيلول/ سبتمبر عام 1909 مهمة للغاية. كان أليوشا آنذاك لا يعرف إلا القليل عن تفاصيل الخلاف العائلي لآل تولستوي، رغم معرفته للكاتب منذ أن كان عمره 14 عاماً بفضل معرفة أبيه به، وهو الأديب، وكاتب سيرة تولستوي، بيوتر سيرغيينكو. وكان يسود في أسرة سيرغيينكو الكثيرة العدد تقديس شخصية «ليف العظيم». كان بيوتر ألكسييفيتش، وزوجته وأولاده الثمانية يعيشون في القرية، ويعملون في الزراعة، وكانوا يحتفلون كل سنة بعيد ميلاد تولستوي باستعادة أفكاره الموقرة. وعندما سافر ف.غ. تشرتكوف إلى إنكلترا، أخذ معه «التولستوي» الشاب ألكسي بصفة سكرتير.

أتيحت الفرصة لأليوشا لأن يقارن حياة آل تشرتكوف في إنكلترا وفي كريكشينو. وبمقدار ما كانت في إنكلترا قاسية ومملة، بمقدار ما شعر أليوشا في كريكشينو بجو *الأسرة السعيدة*.

«سرعان ما اقتنعت (أثناء وجودي في إنكلترا – *المؤلف*) أن في هذا المنزل لا وجود للأسرة، وأنه أشبه بالفندق؛ كل واحد كان يعيش حياته الخاصة، وأنا بعد أن عشت حتى العشرين من عمري في أسرة كبيرة العدد، كنت أشعر بعدم الارتياح، وأحياناً أشعر بالحزن».

لقد كان جواً مختلفاً تماماً في كريكشينو. ويتعجب أليوشا قائلاً: «روح أخرى تماماً».

تشرتكوف وغالا يهتمان بالأسرة، ويناقشان مسألة القرنبيط (الزهرة) الذي أرسلته مالكة الأرض المجاورة لتولستوي. وكيفية تحضير: «فتات الخبز»، «الشرائح» و«البيشاميل»؟ ويشارك تشرتكوف شخصياً في إعداد قائمة الطعام لتولستوي. وعلى مائدة الطعام يسود المرح والبهجة.

يكتب سيرغينكو: «كان ليف نيقولايفتش جالساً في نهاية المائدة، شيء غريب – لقد بدا في الدقيقة الأولى أن من يجلس أناس ليسوا غرباء، أحدهم عن الآخر، بل أيضاً مثل عائلة كبيرة. وليف نيقولايفتش على رأسها». «إنها عائلة كبيرة متحابة».

والآن قدّروا هذا بعيني صوفيا أندريفنا. إنها ترى هذا أيضاً. ولا غرابة أنها صفعت ف.غ. تشرتكوف بمشادة عندما علمت أنها ستذهب إلى موسكو مع زوجها في عربتين منفصلتين. يكتب ليف نيقولايفتش في اليوميات: «قلقت صونيا من اقتراح أنها ستذهب إلى موسكو في عربة منفصلة. ذهبتُ إليها. أشعر بالأسى الشديد نحوها، إنها بائسة، مريضة، ضعيفة. هدّأتها قليلاً، بعدها عبرتْ بلطف عن أسفها، وقالت سامحني. فشعرت بالسرور».

هذه المدونة كُتبت في 17 أيلول/ سبتمبر.

في اليوم التالي وقع ليف نيقولايفتش الوصية.

مَلكي أكثر من الملك

تتذكر ساشا مزاج صوفيا أندريفنا في كريكشينو: «لم يرقها أي شيء عند آل تشرتكوف: الأشخاص «قاتمو» البشرة الذين أحاطوا بأبي، مائدة الطعام العامة، حيث إيليا فاسيليفيتش (خادم آل تولستوي – *المؤلف*) يجلس إلى جانبها. كانت أعصابها متوترة للغاية. يصعب على المرء أن يتصور ما حدث لو علمتْ، أن أبي قرر توقيع الوصية... لقد أعدت كتابة الوصية، ووقعها أبي وثلاثة شهود. أعطيت النسخة لتشرتكوف، وأبقيت الأصل عندي، وطلب مني تشرتكوف أن أذهب في موسكو إلى المحامي مورافيوف، كي أتأكد، ما إذا كانت هذه الوثيقة تتمتع بقوة قانونية».

يكتب تشرتكوف: «إن قراره باللجوء إلى الوثيقة قد اتخذه دون علمي وأثناء انفصالي القسري عنه... ولم أحاول قط إقناع ليف نيقولايفتش بكتابة وصية قانونية، بل حتى إنني كنت أفترض أنه لن يوافق على هذا...»

إن تاريخ هذه الوصية، عموماً، غامض للغاية. هذا على الرغم من أن حياة تولستوي في آخر أيامه كانت شفافة للغاية. فكل كلمة من كلماته، وكل

حركة كانت تُسجل من أطراف مختلفة. ولكن ليس فيما يخص هذه الوصية – وهي أحد أهم أعمال حياته.

يكتب تشرتكوف في كتابه «رحيل تولستوي»: «لن أتطرق هنا إلى تاريخ مفصل لكل من هذه الوثائق، كي لا أرهق القارئ في عرض الموضوع». لكنه خلال ذلك يتحدث بالتفصيل عن وصية عام 1895 وعن الدور غير اللائق لزوجة تولستوي في إخفائها.

بعد أن افترقت عن تشرتكوف، دون أن تشعر بأي تعاطف معه، تتطرق ألكسندرا لفوفنا بإيجاز شديد، في كتابيها عن ذكرياتها («الأب» و«الابنة») عن دور ف. غ. تشرتكوف في الوصية. ومع ذلك، نعرف من ذكرياتها أن تشرتكوف كان صاحب المبادرة للقائها بالمحامي الموسكوفي ن. ك. مورافيوف، المدافع الشهير عن شؤون الطوائف الروسية، الذي طلب ليف نيقولايفتش مساعدته غير مرة. ولكن منذ هذا الاجتماع بدأ ذلك الكابوس القانوني، الذي أرغم في، نهاية الأمر، ليف نيقولايفتش على الهروب من ياسنايا بوليانا.

أوضح مورافيوف للمشاركين في هذه القصة، أن الحقوق الأدبية، مثلها مثل أية ملكية خاصة، لا يمكن نقلها لـ«الجميع». ويمكن نقلها فقط إلى شخص مادي محدد أو كيان قانوني. أو لأشخاص. ومنذ هذه اللحظة، انتهت ألعاب ليف نيقولايفتش التي استمرت أربعة عشر عاماً مع قوانين الإمبراطورية الروسية.

كان لا بد من الاختيار. إما ترك كل شيء كما هو وعدم اتخاذ أية خطوة في مجال الوصية القانونية (في هذه الحالة سيكون الورثة الزوجة والأولاد). أو، ما يقوله الطرف آ، عليه تحديد أسماء ورثته ب.

نفى تشرتكوف دوره في إطلاق الوصية الرسمية الثانية، المكتوبة بعد أن انتقد ن. ك. مورافيوف صيغة «كريكشينو» الأولى. لكن الواقع يبقى واقعاً، وهو أن موظف تشرتكوف الشاب فيودور ستراخوف هو الذي حضر إلى تولستوي في ياسنايا بوليانا مرتين، في 26 تشرن الأول/ أكتوبر و1 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1909، من أجل تسوية هذه المسألة القانونية.

نُشرت في كتاب غيورغي أوريخانوف «ف. غ. تشرتكوف في حياة ليف نيقولايفتش تولستوي» رسالتان من ساشا إلى تشرتكوف بتاريخ 11 و27 تشرين الأول / أكتوبر. وهما لا تدعان أي مجال للشك في أن الوصية القانونية الثانية قد تم إعدادها بعناية من قبل «فريق تشرتكوف» المعادي لصوفيا أندرييفنا.

في 11 تشرين الأول/ أكتوبر: «(الأهم) منذ أيام فكرت كثيراً بوصية أبي ولاحت في ذهني فكرة بأن من الأفضل كتابة مثل هذه الوصية وتوثيقها بتواقيع الشهود، وإعلام أبنائه خلال حياته عن رغبته ووصيته. قبل ثلاثة أيام تحدثت عن هذا الموضوع مع أبي. وقلت له إنني كنت عند مورافيوف، وإن مورافيوف قال إن وصية أبيك غير صحيحة قانونياً، وقلت له رأيي وكيف الأفضل أن نفعل. وحول كلماتي عن عدم صحة الوصية، قال أبي: وماذا في الأمر، هذا يمكن ترتيبه في تولا. أما عما تبقى فقال إنه سيفكر، وما هو الجيد في هذه الناحية، إذا ما أعلن عن رغبته خلال حياته، ألن يكون هذا، كأنه يشك في أولاده، بأنهم لن ينفذوا إرادته، إذا ما ظهرت مثل هذه الورقة بعد موته، فإن أولاده، سريوجا مثلاً، سيشعرون بالإهانة، وكأن الأب ظن أنهم لن ينفذوا إرادته من دون ورقة موقعة من الكاتب بالعدل. ومن حديثي مع والدي تشكل لدي انطباع بأنه سينفذ كل ما هو ضروري. الآن، فكروا وقرروا أنتم، ما هو الأفضل. ألا يصح طرح مسألة جميع المؤلفات؟ أرجوكم لا تتأخروا. عندما ستحضر تانيا، سيكون الوضع أصعب، وربما سيكون من المستحيل تدبير شيء ما».

وهكذا، فإن الوصية الرسمية تم إعدادها ليس من وراء ظهر صوفيا أندرييفنا فقط، بل من دون علم الأخوين الكبيرين سيرغي وتاتيانا اللذين كانا إلى جانب الأب في النزاع العائلي. لقد جرى إعدادها بصورة سرية للغاية، ومن جانب «فريق تشرتكوف» تحديداً، الذي شاركت فيه للأسف ساشا الابنة الصغرى لآل تولستوي. والمكان الأكثر أذية وكراهية في هذه الرسالة هو ذلك المكان، حيث تطرح مسألة حرمان أمها من حقوق المؤلفات المكتوبة والمنشورة قبل عام 1881، مقترحة على ف. غ. تشرتكوف أن يقررها.

ساشا في تلك الفترة لم تكن تحب أمها، وللأسف، كان لديها شيء من

الحق في ذلك. فمنذ طفولتها، علمت ساشا أنها ولدت في تلك الليلة بعد محاولة الأب الأولى للهروب من أمها في حزيران/ يونيو عام 1884. كما كانت تعرف أن أمها عندما كانت حاملاً بها، ذهبت إلى قابلة في تولا وطلبت منا ترتيب إجهاض اصطناعي لها. فرفضت القابلة، وقد حمدت الله صوفيا أندريفنا فيما بعد على ذلك. ومع ذلك فهي لم تدلل ساشا ولم تمنحها ذلك الاهتمام والرعاية مثل بقية أولادها. وكانت تبقيها على مسافة أبعد منها، وهذا ما كان يزعج ساشا من أمها، ويهينها ويذلها. وكانت الابنة ترد على الأم بوقاحة وتمرّد.

فهل هي نفسها طرحت السؤال على أبيها بحرمان الأم والأولاد من جميع حقوق مؤلفات ليف نيقولايفتش؟ على أية حال، يبدو واضحاً، من خلال رسالتها، أن تولستوي في مسألة الوصية لم يكن مبادراً، بل تابعاً («... هو سينفذ كل ما هو ضروري»).

وبالفعل، إذا ما تعمقنا في يوميات ورسائل تولستوي في تلك الفترة، فسنرى كم كان ليف نيقولايفتش بعيداً عن الأخذ المستقل لأية قرارات عملية. وعلى أقل تقدير، من دون دفع من الخارج، لما اتخذ أية قرارات.

ولكن في ذكريات ساشا وتشرتكوف وف. آ. ستراخوف، يبدو كأن قرار الأب بحرمان صوفيا أندريفنا من جميع حقوق تركته الأدبية كان بالنسبة لهم أنفسهم غير متوقع قط.

يكتب ف. آ. ستراخوف عن زيارته الأولى لليف نيقولايفتش: «ذهب على الفور إلى مكتبه واقتادني أنا وألكسندرا لفوفنا إلى هناك. وخاطبنا كلينا بابتسامة لطيفة على وجهه: «سأدهشكما بقراري المتطرف. أريد أن أكون «ملكياً أكثر من الملك plus royaliste que le roi»، ساشا، أريد أن أعطيك لك، وحدك كل شيء، أتفهمين؟ دون استثناء الشرط الذي كان في وصيتي المنشورة في الصحف». – وقفنا أمامه مذهولين كأن البرق أصابنا من كلماته هذه: «أنت وحدك» و«كل شيء». وقد لفظهما ببساطة كبيرة، كأنه يخبرنا مغامرة تافهة للغاية حدثت له أثناء نزهته».

عن الموضوع نفسه تذكرت ألكسندرا لفوفنا: «في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر

عام 1909 وقع أبي وصية جديدة وضعها المحامي مورافيوف. فكر أبي في البداية منح حقوق جميع مؤلفاته لنا نحن الثلاثة الأقرب إليه، سيريوجا وتانيا وأنا، من أجل أن نمنحها نحن بدورنا للاستخدام العام. ولكن ذات مرة، عندما دخلت إلى مكتبه صباحاً، قال لي فجأة: «ساشا، لقد قررت أن أعمل وصية لك وحدك» - ونظر إلي نظرة استفهام. لذت بالصمت. لقد تصورت المسؤولية الكبيرة التي ستقع على عاتقي، وهجمات الأسرة، واستياء أخي وأختي الكبيرين، وفي الوقت نفسه، نما في نفسي شعور بالفخر، والسعادة، لأنه وثق بي لهذا العمل الضخم.

- ما بك صامتة؟ - قال لي.

فعبرت له عن شكوكي.

- لا، هكذا قررت - قال أبي بحزم - أنت الوحيدة التي بقيت تعيشين معي الآن ومن الطبيعي جداً أن أكلفك بهذه المهمة. وفي حال وفاتك - وضحك بمودة - ستنتقل الحقوق إلى تانيا».

ليست لدينا أية أسس لعدم الثقة بهذه الذكريات. إن الجو في بيت ياسنايا بوليانا كان على شكل بحيث كان باستطاعة تولستوي أن يتخذ بصورة مستقلة تماماً قراراً متطرفاً حول تسليم جميع الحقوق لساشا وحدها، الوحيدة من بين جميع الورثة، التي لم يكن يشك فيها.

ولكن، إذا ما حكمنا من خلال يومياته، لم يكن تولستوي يشعر بأي فرح من هذا القرار.

26 تشرين الأول/أكتوبر: «لم أنم حتى الساعة الثالثة، كنت أشعر بالحزن، لكنني لم أستسلم. استيقظت متأخراً. عادت صوفيا أندرييفنا. كنت فرحاً بها، لكنها كانت متوترة جداً... حضر ستراخوف. لم يفعل أي شيء صباحاً. رسالة طيبة من تشرتكوف. وقال بوضوح أكبر مما فكرت فيه بنفسي. الحديث مع ستراخوف كان صعباً حسب متطلبات تشرتكوف، لأنه لا بد من التعامل مع الحكومة. يبدو لي، سأقرر كل شيء بأبسط الطرق وأكثرها طبيعية - ساشا. أريد أيضاً القديمة، حتى عام 82... المساء. ثم الحديث مع ستراخوف. لقد وافقت. لكنني آسف لأنني لم أقل إن كل هذا بالنسبة لي صعب جداً، والأفضل - أن لا أعمل شيئاً».

عادت صوفيا أندريفنا من موسكو في يوم وصول ستراخوف (إلى ياسنايا بوليانا – *المترجم*). وهذا كاد ينسف خطة «فريق تشرتكوف» بتقرير مسألة الوصية في غيابها. كانت الحالة الذهنية لتولستوي «صعبة». كانت لديه مشاكل بالذاكرة: فقد خلط بين عامي 1881 و82.

يكتب تولستوي في يومياته يوم 28 تشرين الأول/ أكتوبر: «... من المشكوك فيه أن أبقى على قيد الحياة: ضعف، نعاس»، «... نمت كثيراً بصورة غير طبيعية» (مدونة 20 تشرين الأول / أكتوبر). «حالة غريبة، كئيبة على نحو غير عادي. لا أستطيع النوم، الساعة الثانية (ليلاً)» (3 تشرين الأول/ أكتوبر، عشية توقيع الوصية). لا شك في أن القارئ يوافق على أنه في مثل هذه الحالة الجسدية والنفسية، لا يمكن لتولستوي أن يوقع وثائق روحية بهذه الأهمية كأهمية وصيته.

لكن هذا في ظل الظروف الطبيعية العادية. أما الوضع الذي وجد تولستوي نفسه فيه فكان غير طبيعي قط. ويمكن الحكم على هذا من خلال رسالة ساشا الثانية إلى تشرتكوف التي كتبتها في 27 تشرين الأول/ أكتوبر.

«فلاديمير غريغوريفيتش، رغم أن ستراخوف ينقل لك كل شيء، أرى من الضروري أن أعرض لك رأيي بتفصيل أكثر.

1) لا يمكن بأي حال من الأحوال إشهار القضية والكشف عنها. إذا ما عرفت الأسرة بها، فإن آخر أيام أبي ستكون عذاباً. تذكّر قصة استوكهولم: الهستيريا، والمورفين، والرمي على الأرض وما شابه ذلك، حتى إنني لا أضمن ألا يطالبوا باستعادة الورقة ولا يمزقوها. الكشف عنها لا يمكن تصوره. وليف نيقولايفتش موافق على هذا.

2) أبي وأنا نعتبر سيريوجا، بلعبه بالورق، لا يمكن الاعتماد عليه على الإطلاق.

ثانيا، جواباً على سؤالي، هل سوف تستخدم المؤلفات، قالت: «ولأي هدف سأتخلى عن المال، الذي سيذهب إلى إخوتي للمنادمة، الأفضل أن آخذ المال وأفعل به عملاً صالحاً». أبقى أنا وحيدة. فقرروا أنتم، يا أصدقائي، هل يمكنكم أن تثقوا بي في قضية بهذه الأهمية العظيمة... أنا الابنة الصغرى،

وفجأة يكلفونني بهذه القضية، من خلالي انتزعوا هذه الأموال من الأسرة! سيكرهونني، على الأغلب. ولكن رغم ذلك، أنا لا أخشى هذا. فبعد موت والدي، الشيء الثمين الوحيد الذي سيبقى لدي هو أفكاره. لذلك، قرروا، ولكن بسرعة وفي العيد، بحيث لا يثير قدوم غولدنفيزر الشكوك. أية وصايا أو وعود سأعود وأوقعها، إذا لزم الأمر».

في رسالتها إلى أخيها التي كتبتها إلى المهجر، بعد سنوات عديدة، وقبيل بداية الحرب الوطنية العظمى، كتبت ت. ل. سوخوتينا – تولستايا: «من الذي سبب الإساءة الكبرى في هذه القضية (علاقات الوالدين – *المؤلف*) – إنها ساشا. أكثر من تشرتكوف. إنها كانت صبية شابة... إنها لم تر سوى آلام أبيها، ولمحبتها له من صميم قلبها، كانت تظن أنه يمكنه أن يعيش حياة جديدة بعيداً عن صديقته القديمة ويكون سعيداً».

تثير رسائل ساشا إلى تشرتكوف مشاعر الرحمة والتعاطف معها. إنها مفعمة بالبطولة والتضحية، وهي في الوقت نفسه، تثق بصورة عمياء بـ «الأصدقاء»، الناس الغرباء، الذين يكيدون الدسائس ضد أمها، وتغدو، دون أن تلاحظ ذلك، وكيلاً قانونياً وهمياً في «قضية» تسليم جميع حقوق أبيها الأدبية... لتشرتكوف وحده.

لو كان ثمة شخص آخر، بدلاً من تشرتكوف، بأطماع تجارية، لتحولت هذه القصة كلها إلى موضوع جنائي «قذر». بيد أن تشرتكوف لم يبحث لنفسه خلال ذلك عن منفعة مادية. وفي الوقت نفسه، أخذ على عاتقه مسؤولية أخلاقية كبرى تجاه معاصريه والأجيال اللاحقة. *إنه من غير الممكن لأي إنسان طبيعي أن يقدم على هذا*. لكن تشرتكوف أقدم على ذلك. لقد كان تشرتكوف يؤمن بصدق أنه يقوم بهذا العمل «القذر»، كي يظهر المعلم بعد وفاته في نقاء أخلاقي مطلق، وأن لا تتلطخ إبداعاته العظيمة باستثمارات الأسرة للحصول على المنفعة المادية.

في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر يكتب تولستوي في يومياته: «وصل اليوم غولدنفيزر وستراخوف، وأحضرا الأوراق من تشرتكوف. لقد عدّلت كل شيء. أشعر بكثير من الملل».

الكارثة

إن من يقرأ بالتتابع جميع أدلة حياة ياسنايا بوليانا بعد 22 حزيران عام 1910، يمكنه أن يفقد عقله. فقد تمكن «فريق تشرتكوف» مع تولستوي إخفاء وجود الوصية السرية، التي حرمت الأسرة من حقوق الميراث الأدبي. ولكن عندما بدأت هذه الوصية تطفو على السطح، اندلعت فضيحة رهيبة.

لا معنى في هذه القصة للبحث عن محقّين ومذنبين. علينا أن نتذكر دوماً أن ذلك الوضع الذي وُجد فيه تولستوي وعائلته كان غير مسبوق. ولم يكن أحد من أبطال هذا الموضوع جاهزاً له. كما أن الموضوع ذاته كان متناقضاً للغاية: فقد اتحد فيه «الملك لير» لشكسبير و«تاراس بولبا» لغوغول.

مهما حاول تولستوي الهرب من هذه المشكلة، كانت تقض مضاجعه. كان يشعر بالخجل من أن أبناءه بعد موته سيكتشفون عدم ثقة أبيهم بهم، وسيكتشفون السر الذي عاش معه عامه الأخير من حياته. وكانت ساشا تشعر بالارتباك من شقيقتها الكبرى. وأخيراً، كان ثمة خطأ قانوني أيضاً في الصيغة الثانية من الوصية القانونية التي وقعها في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر1909، حيث لم يذكر من سيكون وريث الحقوق الأدبية في حال موت ساشا المفاجئ.

في صيف عام 1910، تم اكتشاف أعراض السل الرئوي عند ساشا. فقد كان ضعف الرئتين كابوس آل تولستوي الوراثي. وبالسل الرئوي توفي شقيقا ليف نيقولايفتش – دميتري ونيقولاي. كما أن موت تشيخوف بسبب السل الرئوي في عام 1904، المحبوب في أسرة تولستوي، لم يُنس بعد.

وذهبت ساشا إلى القرم، حيث شفيت بسرعة. وبهذه المناسبة، تخلت مؤقتاً عن غذائها النباتي الذي لا يتوافق مع علاج السل الرئوي.

لقد لعب مرض ساشا دوراً مهماً للغاية في قصة مغادرة تولستوي. فواقع أن ليف نيقولايفتش اختار اتجاه الهروب إلى الجنوب تحديداً (بلغاريا أو القوقاز)، كان مرتبطاً برئتي ابنته المريضتين. وفي صيف عام 1910 طرح

السؤال نفسه، ماذا سيحصل مع تركة تولستوي الأدبية في حال وفاة ساشا؟ كان من الواجب أن يثير هذا قلق تشرتكوف أيضاً. بل قلق تشرتكوف بالدرجة الأولى. إن وصيّة ليف نيقولايفتش تفقد معناها من دون ساشا، من دون هذا الشخص القانوني الصوري. وفي هذه الحالة يفقد ف. غ. تشرتكوف كل شيء. وفي حزيران/ يونيو وتموز/ يوليو عام 1910 يتكرر وضع خريف عام 1909.

في البداية، يتوجه ليف نيقولايفتش، المتعب من سلوك زوجته للاستراحة لدى «صديقه العزيز»، الذي يقيم الآن ليس في كريكشينو، بل في عقار أوترادنوي، بالقرب من قرية ميشيرسكوي في محافظة موسكو. وترافقه ساشا التي عادت لتوها من القرم، لكنها لا تزال ضعيفة جسدياً، وماكوفيتسكي والسكرتير الشاب فالنتين بولغاكوف. وكما في عام 1909، سبق رحيله مشاجرات مع زوجته وحالات من الإغماء.

كان الشجار مرتبطاً بالشركسي الذي استأجرته الكونتيسة، مثل جارتها الإقطاعية زفيغنيتسيفا، من أجل حراسة ياسنايا بوليانا. وهذا الشركسي لا يشرب، ولا يقبل الرشوة، وهو يعامل الفلاحين الروس بقسوة. ذات مرة رأى تولستوي الشركسي أحمد وهو يقود بسوطه ذي العقدة حول رقبة تلميذه السابق في مدرسة ياسنايا بوليانا، الفلاح الكبير السن بروكوفييف فلاسوف. وفي مرة أخرى التقى تولستوي بشاب سأله: هل يمكنني السير عبر الغابة؟ أجاب تولستوي مستغرباً: «ولم لا؟» – «الشركسي يضرب بشدة...»

أثناء وجوده في ميشيرسكوي من 12 إلى 23 تموز/ يوليو يرتاح تولستوي نفسياً ويعمل بشكل مثمر: إنه يكتب نصين روائيين قصيرين (أحدهما دراسة سيكولوجية رائعة «من غير قصد»)، ويصحح بروفة طباعية لكتاب «طريق الحياة». وأكثر من ذلك يتنزه في الضواحي، ويتحادث مع الناس. يزور تولستوي مستشفيين للأمراض العقلية، يقعان على مقربة من ميشيرسكوي، ويهتم كثيراً بظروف حياة المرضى ويتحادث معهم. وبعد أن سمع وقرأ الكثير عن الرعب في مستشفيات الأمراض العقلية (لنتذكر «الجناح رقم 6» لتشيخوف)، يشعر تولستوي بكثير من الدهشة: إن المجانين في روسيا يعيشون حياة أفضل طعاماً وأكثر راحة من غالبية الفلاحين. كما أن المرضى

المجانين الأكثر هدوءاً يوزعون على أكواخ الفلاحين، ويدفع لمصروفهم وتغذيتهم 9 روبلات في الشهر، وهذا مفيد للدولة وللفلاحين. وحتى المرضى العنيفون فلا يُضربون أبداً ولا تُقيد أيديهم وأرجلهم، بل يوضعون في غرف خاصة، ذات جدران طرية وزجاج غير قابل للكسر.

الحرية هنا واسعة فمثلاً، مريض ذات مرة قتل بالفأس ببساطة عاملاً من الموظفين. و«مريض آخر»، متصنع بوضوح، قاتل، محكوم بالإعدام، يتجادل بجرأة مع تولستوي. واتضح أنه قرأ جميع مقالاته تقريباً. أصيب تولستوي بالذهول. فاقترح عليه الطبيب ضجراً: «اسأله عن اسمه». أجاب «المريض» على مضض: «بطرس الأول»، ويرى تولستوي، مدى خجله، وكم تعب من التظاهر وسئم من التصنع.

عن هذا كله يخبر ليف نيقولايفتش صوفيا أندرييفنا ببراءة في رسائله من ميشيرسكوي: «عندنا، كل شيء على ما يرام. البارحة ركبت على الحصان إلى القرية حيث المرضى العقليون من النساء... وكانت النساء المريضات مثيرات للاهتمام. وفي المنزل جاء الأطباء من ترويتسكوي على بعد ثلاثة كيلومترات يدعوننا لعندهم لحضور مسرحية سينمائية. وترويتسكوي هو مستشفى المنطقة للحالات الشديدة. وعندهم 1000 شخص. وعدتهم بالحضور...»

إن عقل صوفيا أندرييفنا الملتهب سرعان ما يبني العلاقة المنطقية: مرضها، هروب زوجها إلى تشرتكوف، اهتمام زوجها بمستشفيات الأمراض العقلية، حيث ينويان هو وتشرتكوف، على الأغلب وضعها.

بالطبع، مثل هذه الفكرة لم تخطر، ولا يمكن أن تخطر في ذهن تولستوي. لكن اهتمامه بمشكلة الجنون في هذه الفترة ليس من قبيل الصدفة. ففي هذا الصيف بالذات يكتب مقالة «عن الجنون». وعندما عاد إلى ياسنايا بوليانا يدرس ليف نيقولايفتش كتاب البروفيسور س. س. كورساكوف «كتاب في الطب النفسي» ويجد فيه أوجه شبه مع مرض صوفيا أندرييفنا.

لكن ليف نيقولايفتش يكتب في يومياته في أوترادنوي: «أريد أن أحاول بصورة واعية محاربة صونيا بالخير والحب». وسرعان ما تقرأ الزوجة هذه المدونة ولا ترى فيها سوى شيء واحد «*أريد محاربة صونيا*».

في 22 تموز/ يوليو يغدو سلوك صوفيا أندريفنا غير قابل للسيطرة.

إنها ترسل لزوجها وابنتها برقية بتوقيع فيوكريتوفا (كي لا يظنا أنها تختلق): «صوفيا أندريفنا مصابة بانهيار عصبي قوي، أرق، تبكي باستمرار، ضغطها 100، ترجو الإجابة برقياً. فاريا». ثم بتوقيعها ترجو زوجها القدوم بأسرع وقت ممكن. رداً على برقيتها تستلم يوم 23 تموز/ يوليو برقية: «الأنسب أن نحضر غداً في النهار ولكن إذا كان ضرورياً سنحضر في الليل». كلمة «الأنسب» تفجِّرها. إنها ترى فيها أسلوب تشرتكوف «القاسي».

تؤكد فيوكريتوفا في يومياتها (يمكن الوثوق بمصداقيتها بحذر شديد)، أن النوبة الهستيرية لصوفيا أندريفنا كانت ناتجة عن مشكلة الوصية. فقد قررت أن ليف نيقولايفتش في ميشيرسكوي، تحت ضغط تشرتكوف وساشا، سيوقع وثيقة الوصية ضد الأسرة. (لم تكن تعرف أن مثل هذه الوثيقة قد تم توقيعها). كانت واثقة من أنه ليس من العبث أن يزور تولستوي وتشرتكوف مستشفيات الأمراض العقلية: إنهما يبحثان عن مكان لها. وصرخت مخاطبة فيوكريتوفا، بأنها لن تسمح بهذا، وأنها ستنتحر قبل ذلك. وقد كتبت مذكرات قبيل موتها، هددت فيها من خلال أبنائها بأن تنشرها بعد موتها، كي يفهم الجميع، أن زوجها القاتل.

وفي الوقت نفسه، يصل خبر «سار» إلى أوترادنوي، أن السلطات تسمح لتشركوف بالعودة إلى تلياتينكي بالقرب من ياسنايا بوليانا لفترة وجود أمه هناك. لقد كانت صيغة غريبة. وقد فهم الجميع أن هذا يعني رفع الحظر الفعلي عن بقاء ف. غ. تشرتكوف في مقاطعة تولا، واعتباراً من الآن، يمكن للتلميذ أن يعيش بالقرب من معلمه، وأن يلتقي به يومياً. وهذا الخبر يسرع تولستوي أيضا إلى نقله لزوجته وإدخال *الفرحة* إلى قلبها.

إن سوء التفاهم بين الزوجين وعدم حساسية كل منهما بالمزاج النفسي لـ«نصفه» الآخر يصبحان كارثيين حقاً. فصوفيا أندريفنا ترى في كل شيء «مؤامرة» ضدها ورغبة زوجها بالتخلص منها من أجل تشرتكوف. وليف نيقولايفتش «منذهل» بلا حدود من موقف زوجته الفظ من هذا الإنسان الرائع. وهو مبهور به، لدرجة أنه لا يلاحظ كيف يطرد تشرتكوف،

بعناد واستبداد، صوفيا أندريفنا من مجال التصرف مستقبلاً بتركة ليف نيقولايفتش، دون أية مراعاة، خلال ذلك، لحياتهما الأسرية التي استمرت قرابة نصف قرن، ولا لحب الأم لأولادها، ولا لحالتها النفسية.

هو، هي، هم

في 23 تموز / يوليو عام 1910 يعود تولستوي وساشا إلى ياسنايا بوليانا. وفي 27 تموز/ يوليو يصل تشرتكوف «إلى أمه» في تيلياتينكي ويبدأ بزيارة منزل ياسنايا بوليانا كل يوم، ما يفقد الكونتيسة عقلها بكل معنى الكلمة.

صهر تولستوي الذكي م. س. سوخوتين، الذي تم استدعاؤه إلى ياسنايا بوليانا مع زوجته ت. ل. سوخوتينا - تولستايا ببرقية ساشا المقلقة، يحاول في يومياته تسمية جميع أسباب حالة حماته المرضية.

«1) إن حبها لليف نيقولايفتش صادق للغاية، لكنه مَرَضي بعض الشيء، لأن الشهوة هي مكوناته الرئيسة، وهي ليست طبيعية في امرأة عمرها 65 عاماً نحو رجل عمره 81 عاماً، وهي الشهوة التي يصعب إشباعها لأسباب مفهومة.

2) الغيرة تأتي نتيجة للشهوة. والغيرة كانت دوماً سمة سيئة عند صوفيا أندريفنا، لكنها في السابق كانت تنشأ بسبب النساء اللواتي كن من الممكن أن يرقن لليف تولستوي، كرجل، والآن بسبب رجل، وهو تشرتكوف. ولهذا فإن الغيرة تثير في دماغ صوفيا أندريفنا الملتهب الصور الأكثر خزياً وخجلاً لليف نيقولايفتش.

3) الكرامة المجروحة. وهذا أمر مفهوم. فما لا يرغب ليف نيقولايفتش بإعطائه لزوجته لقراءته، باعتباره حميمياً للغاية، يعطيه لتشرتكوف، وتشرتكوف يعطيه إلى سكرتيره القاتم من أجل نقله. إن هذا يلحق ضربة بالفعل، بكرامة الزوجة.

4) حب السيطرة. إن تشرتكوف مصاب، بالطبع، بهذا الشعور. وتدرك صوفيا أندريفنا أن تشرتكوف أصبح في المركز الأول.

5) الطمع. إن كل ما هو مكتوب بريشة ليف نيقولايفتش سيكون له قيمة كبيرة بلا شك. وإضافة إلى ذلك تبالغ صوفيا أندريفنا في هذه القيمة، لدرجة

أن قيمة هذه اليوميات اكتسبت في ذهنها أبعاداً خيالية؛ وفجأة هي أو ابنها الحبيب أندريوشا، بعد وفاة ليف نيقولايفتش، لن يحصلا على أي شيء.

6) الهستيريا. تلعب دوراً بلا شك. إن قوة إدراك جميع الأشياء غير السارة، وقوة التعبير عن مشاعرها بديهي أنهما غير سليمتين، وهذه الحالة غير الطبيعية قد ترتبط بالحالة السيكوباتية.

7) الخوف على شهرتها بعد الموت. كيف ستطبع يوميات ليف نيقولايفتش يوماً ما، وكيف ستظهر صورتها، حيث سيقول القارئ: «ما هذه الإنسانة» صوفيا أندرييفنا، التي كانت في السابق أيضاً دوماً صليباً ثقيلاً في حياة ليف نيقولايفتش؟»

لا حاجة لإضافة أي شيء إلى هذه النقاط السبع. مجرد تخفيف بعض الصياغات (الجانب الوحيد هو لماذا لم يأخذ سوخوتين في اعتباره – الأمر الذي لاحظه غوركي البعيد عن الأسرة – وهو *الإرهاق العام* الجسدي والنفسي لصوفيا أندرييفنا التي عاشت حوالي نصف قرن مع الإنسان الأصعب في القرن التاسع عشر، والتي ولدت له ثلاثة عشر طفلاً). وتثير قدراً أكبر من الشكوك محاولة سوخوتين تفسير سلوك ليف نيقولايفتش.

«إن فهمه أصعب. أحياناً يحتدم غيظاً، يتأرجح، شاحب الوجه ومرتجفاً، يختنق، ويقول بصوت مرتجف ما تفعله هي. وعندها يكون مفهوماً. لكن هذا نادراً. إنه مفهوم في حالات أقل، حيث يكون صبوراً، لكنه بارد، لطيف مع صوفيا أندرييفنا وبازدراء ومحبة، ومن وراء هذه المحبة يتجلى ضبط النفس والتطبيق المستمر لأخلاق تولستوي.

إنه، بدقة وانتظام، يمشي ويتنزه صباحاً، ويعمل قبل تناول طعام الفطور، وبعد الإفطار يركب الخيل، وقبل الغداء يستريح، وبعد تناول طعام الغداء يلعب بالشطرنج. ولا يزال يحب تشرتكوف بإيثار، ولا يزال، في أعماق نفسه، كما أعتقد، يحتقر صوفيا أندرييفنا. ذات مرة قال لابنته ماشا: «عندما أسمع مشيتها المتسارعة، المقتربة من مكتبي، تبدأ يداي بالرجفان من السخط». وأظن، مع مر السنين، هذا السخط يتحول إلى احتقار هادئ».

تكمن المشكلة في أن الحالة النفسية لصوفيا أندرييفنا كانت مكشوفة،

على مرأى الجميع. أما موقف تولستوي من زوجته فكان أكثر سرية. ويمكن الحكم عليه من خلال اليوميات، وخاصة اليوميات السرية، التي كان يفترض عبثاً أن زوجته لن تقرأها.

من هذه اليوميات ترتسم صورة معقدة للغاية. فمن ناحية أولى، كان تولستوي يدرك، وقبل أن يشخّص غ. ي. روسوليمو، أكبر طبيب نفسي في ذلك العصر، أن زوجته مريضة نفسياً. وتكشف المدونات في يومياته عن هذا قبل فترة طويلة من ذلك الكابوس الذي حدث في ياسنايا بوليانا في صيف – خريف عام 1910[1]. ولذلك، عندما كتب ليف نيقولايفتش في أوترادنوي عن «الحرب» التي ينوي خوضها مع زوجته بـ «الخير والحب» لم يكن هذا بالنسبة له اكتشافاً داخلياً. لقد كان هذا موقف تولستوي، الذي كان ينفي إمكانية العلاج النفسي للإنسان واعتبر أن مجابهة المرض ممكن فقط بـ «الخير والحب».

في هذا الصدد، كان رد فعل تولستوي على زيارة البروفيسور روسوليمو لياسنايا بوليانا مذهلاً. لقد صُدم روسوليمو من حالة صوفيا أندرييفنا. وقال إنه لا يمكنه أن يتصور كيف يمكن لتولستوي أن يعيش مع هذه المرأة. وكان تشخيصه لا يرحم: «انتكاس مزدوج في البنية النفسية: بارانويا (ذهان) وهستيريا، مع غلبة الأول».

قد يبدو، أن تشخيص روسوليمو يجب أن يكون بمنزلة هدية لليف نيقولايفتش، إذا كان هو، كما يكتب سوخوتين، يعامل زوجته بـ «احتقار». فهذا كان يعطيه حقاً معنوياً *بمطالبة* أبنائه الكبار بعزلة صوفيا أندرييفنا.

فكيف كان موقف تولستوي من هذا التشخيص؟

يكتب في يومياته في 20 تموز/ يوليو: «إن روسوليمو غبي بشكل

1- على سبيل المثال، مدونتان من عام 1884: «يا لها من بائسة، كم هي تكرهني. يا إلهي! ساعدني. هل لي بصليب، فليسحقني الصليب. وهذا الارتعاش في النفس رهيب، ليس قاسياً، ومؤلماً فقط، بل صعب أيضاً. ساعدني!»؛ «صباحاً حديث وغضب غير متوقع. ثم دخلت لعندي، وناكدتني وناكدتني إلى أن خرجتُ عن طوري. لم أقل أي شيء، ولم أفعل أي شيء، لكنني شعرت بصعوبة. وهي أصيبت بالهستيريا. وركضت نحوها».

مذهل بالنسبة لعالِم، إنه ميئوس منه». ويكتب في يومياته السرية «يوميات لي وحدي»: «إن رسالة روسوليمو عن حالة صوفيا أندرييفنا غبية بشكل ملحوظ».

اليوميات السرية كلها مكرسة لصونيا. «إنني بإخلاص تام يمكنني أن أحبها، وهذا ما أستطيع بالنسبة لليف (لابنه - *المؤلف*)». «إنها بائسة، كيف لا أشفق عليها». «تبيّنَ أنها وجدتْ وأخذتْ يومياتي الصغيرة.

إنها تعرف عن شيء ما، لشخص ما، عن وصية ما - تتعلق غالباً بمؤلفاتي. يا له من عذاب - بسبب قيمتها المادية - وتخاف أن أعيق منشوراتها. وتخاف من كل شيء، كم هي بائسة». «طيلة الليل كنت أرى صراعي القاسي معها. أستيقظ، أغفو ويتكرر الشيء نفسه» (هذه المدونة كُتبت في 27 تشرين الأول/ أكتوبر عشية المغادرة).

ولكن في هذه اليوميات السرية ثمة اعترافات أخرى. «صوفيا أندرييفنا هادئة، لكنها غريبة أيضاً». «هذا الصباح، عندي نحوها شعور ثقيل، غير جيد نحوها، نحو صوفيا أندرييفنا. ومن الواجب أن أغفر لها وأن أشفق عليها، لكنني لا أستطيع حتى الآن». «لا شيء معادياً من جانبها، لكن هذا التظاهر من الجانبين صعب عليّ». وأخيراً: «فكرت الآن، متذكراً زواجي، أن هذا كان شيئاً قدرياً. لم أكن يوماً عاشقاً. لكنني لم أستطع ألا أتزوج».

ويبدو كأن المدونة الأخيرة تشهد لمصلحة رأي سوخوتين. حتى إن سوخوتين يكتب في يومياته: «... أعتقد، عنده نحو صوفيا أندرييفنا، إن لم يكن الحب، لا يزال يعيش شيء قديم ما، خليط ما من الشفقة، والاهتمام والعادة. والعادة هي الأقوى. سألته منذ أيام، وقال لي: «نعم، مهما كان غريباً بالنسبة لي، لكنني أشعر بالقلق عليها عند غيابها، وأفتقدها»».

وهذا ما تثبته مدونات تولستوي المسجلة في 29 و30 آب/ أغسطس و12 أيلول/ سبتمبر، في أيام سفر زوجته من كوتشيتي. «لقد غادرت صوفيا أندرييفنا والدموع في عينيها... أنا متعب جداً جداً. في المساء كنت أقرأ. أشعر بالقلق عليها» (12 سبتمبر/ أيلول). «ودّعتنا بصورة مؤثرة جداً، طالبة السماح من الجميع. أشعر بالأسف والشفقة الشديدة عليها... أستلقي

للنوم. كتبت لها رسالة» (29 آب/ أغسطس). «أشعر بالحزن من دونها. أشعر بالخوف من دونها. لا اطمئنان» (30 آب/ أغسطس).

من خلال يوميات تولستوي فقط، وليس من خلال شهادات أشخاص آخرين يمكننا الحكم على علاقته الحقيقية بزوجته في الأشهر الأخيرة من حياته. ففيها نجد الحب، والعادة، والشفقة عليها، والرعب من سلوكها، والرغبة الدائمة بالرحيل، وإدراك أن رحيله سيصبح تصرفاً ظالماً بحق زوجته المريضة.

لكن وجود «شخص ثالث» في هذه القصة أرغمها على التطور حسب السيناريو الذي تطورت وفقه.

وقد ورد هذا بصور دقيقة ورائعة في رسائل ت. ل. سوخوتينا – تولستايا إلى أخيها سيرغي المرسلة من روما إلى روسيا في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، عندما قرأت تاتيانا لفوفنا يوميات أمها التي أصدرها سيرغي لفوفيتش. وسنورد مقتطفات من هذه الرسائل.

«كان يحبها بلطف وعمق. ولهذا لم يهجرها في السابق. كانت تهيّجه بصورة جنونية. وبصورة غير معقولة. كان يجب امتلاك احتياطي كبير من الصبر من أجل احتمال مضايقاتها، ورغبتها في إظهار نفسها من ناحية، على أنها ضحية بائسة قدمت حياتها كلها لرجل شرير كريه، ومن ناحية أخرى كامرأة متصابية حسناء ذات تطلعات كبيرة. لكن الأب كان يرى جوانبها الإيجابية التي كانت تستهويه: جهودها للتغلب على سماتها السيئة، سعيها لأن تكون أحسن. وكان يشفق عليها بلا حدود. ولو لم يكن يحبها – لغادر البيت وغادرها منذ فترة طويلة».

«بالطبع كلانا يستحق لوماً واحداً: لأننا لم نتدخل بنشاط في مكائد تشرتكوف وساشا. كان من الضروري التدخل في حياة الوالدين فقط من أجل أن يتفقا فيما بينهما من دون أي وسطاء و«مُبعِدين» للأب عن الأم».

«... أنت في أحداث عام 1910 تلقي اللوم على ساشا أكثر من أي شخص آخر. وهذا، في رأيي، غير صحيح. ضع نفسك في مزاجها آنذاك. هي الوحيدة التي كانت تعيش في ياسنايا بوليانا وكانت تشعر بعمق بالمأساة التي

تجري هناك، ومن ناحية أخرى، كانت تشعر بإطراء كبير جداً، أن أباها عيّنها وريثته؛ إنها لم تكن تفهم أنها مجرد شخص صوري. عموماً، لا يصح إلقاء اللوم على أحد، حتى تشرتكوف. ومن هو تشرتكوف؟ لو لم يكن «صديقاً ناشراً، نصيراً لقضية» ليف تولستوي لكان تافهاً. ومن دون وصية لمصلحته، كان سيفقد القضية الرئيسة، القضية الوحيدة لحياته، وكان سيصاب طموحه وغروره بضربة قاسية. كان متولعاً بأبي ويهتم به ويحافظ عليه كما يحافظ على أغلى شيء في الدنيا».

تشرتكوف وأبناء تولستوي

يمكن التعامل بطرق مختلفة مع شخصية تشرتكوف المعقدة.

ولكن، هاكم واقعة غير مفهومة من وجهة النظر الإنسانية العادية. رغم معرفته برد فعل صوفيا أندرييفنا على وجوده، كان تشرتكوف، اعتباراً من آخر حزيران عام 1910 يأتي إلى بيتها يومياً (وأحياناً مرتين في اليوم)، وأمام عينيها يجري محادثات سرية مع زوجها، لتجهيز النص النهائي للوصية القانونية الموجهة ضدها.

خلال ذلك، كان يعيش في المنزل باستمرار، أو يتواجد باستمرار، أنصار تشرتكوف النشطاء وأعداء صوفيا أندرييفنا، ابتداءً، للأسف، بابنتها ساشا وانتهاءً بناسخة مذكراتها فيوكريتوفا. ضد صوفيا أندرييفنا ولمصلحة تشرتكوف بحزم كان ماكوفيتسكي وغولدنفيزر. وكان الفلاحون المحليون الذين استأجرت الشركسي لمجابهتهم لا يحبونها. كما لا يمكنها أن تفهم موقف زوجها منها، وتعاني بصورة مرضية من غيرتها غير الطبيعية من تشرتكوف، التي كانت حسب اعترافها، أقوى من غيرتها من النساء.

لقد كانت عزلة صوفيا أندرييفنا في نهاية حياة تولستوي كلية وشمولية مثل عزلة ليف نيقولايفتش في بداية انقلابه الروحي. وفي كلتا الحالتين، كان الحديث يدور عما يشبه «الجنون». وكما اشتُبِه أن تولستوي «فقد عقله»، كذلك كانوا ينظرون إلى زوجته إما كمجنونة، أو متظاهرة بالجنون.

ولعل الوضعية الأخيرة على جانب كبير من الأهمية. فالغريب أنه

بصرف النظر عن التشخيص الذي وضعه روسوليمو، فإن جميع أعداء صوفيا أندرييفنا تقريباً، بمن فيهم ابنتها، كانوا واثقين بأنها ليست مريضة، بل فقط تتظاهر بالمرض. وقد تم التعبير عن هذا الرأي بصيغة أكثر خشونة في يوميات المختزلة فيوكريتوفا.

تكتب فيوكريتوفا أن الجنون «المزيف» لصوفيا أندرييفنا بدأ عندما أصبحت تشك أن ليف نيقولايفتش وتشرتكوف يعدان في ميشيرسكوي وصية ضدها. في هذه الفترة كانت تهيّئ على عجل طبعة جديدة لمؤلفات زوجها وكانت تعتقد أنه بعد وفاته سوف يقبل عليها الجمهور. ولكن إذا ما أوصى ليف نيقولايفتش لتشرتكوف بكل شيء فإنها ستخسر خسارة كبيرة وتفلس. ومن هنا اهتمامها المرضي بيوميات زوجها منذ عام 1900 التي كانت محفوظة لدى تشرتكوف (كانت يومياته حتى عام 1900 قد حفظتها في المتحف التاريخي). ألا يوجد فيها «وصية» مثل تلك الموجودة في يومياته لعام 1895 التي أخفتها في المتحف؟ وتؤكد فيوكريتوفا أنه عندما أحضرت ساشا، بناء على طلب تولستوي، إلى منزل ياسنايا بوليانا اليوميات من تشرتكوف، أخذت صوفيا أندرييفنا وهي تردد: «ألا توجد هنا وصية؟». وبرأي فيوكريتوفا، فهي باللطف، والتهديد، والنوبات الهستيرية، والتخويف والتهويل أرادت أن تصل إلى إتلاف هذه الوصية إن وجدت. وعندما اختطفت يوميات زوجها السرية وعلمت منها بوجود مثل هذه الوصية، أصبح الوضع لا يحتمل. وترى فيوكريتوفا أيضاً أن ابنيها ليف وأندريه هما اللذان دفعا أمهما صوفيا أندرييفنا إلى هذه التصرفات.

وليس من قبيل الصدفة أن يوميات فيوكريتوفا لم تنشر حتى الآن، رغم أن كاتب سيرة تولستوي ن. ن. غوسيف جهّزها للنشر منذ الثلاثينيات من القرن العشرين. إنها بالفعل الوثيقة الأكثر قسوة تجاه زوجة تولستوي، والمكتوبة، علاوة على ذلك، من قبل امرأة دعتها هي نفسها إلى بيتها. لكن المشكلة، أن رأي فيوكريتوفا يأخذ به، بشكل أو بآخر، جميع المشاركين النشيطين في هذه القصة، والأهم، أنهم جميعاً بالتضامن جعلوا ليف نيقولايفتش يميل إلى هذا الرأي، وهو الذي كان عنيداً مثل تاراس بولبا، وفي الوقت نفسه خاضعاً بصورة عادية لتأثير القريبين منه مثل الملك لير.

ليس هناك ما يدعو إلى العجب في أن صوفيا أندريفنا استدعت ابنيها ليف وأندريه إلى ياسنايا بوليانا. فهما كانا الوحيدين المدافعين عن أمهما. بيد أنهما، بحضورهما، ساعدا الأب إلى حد كبير في اتخاذ قراره بحرمان الأسرة من جميع حقوق تركته الأدبية.

يقول تولستوي في يومياته في 4 تموز/ يوليو: «وصل ليف. إنه بسط صغير، لكنه مقام —». كان تولستوي يحب تحديد أهمية الإنسان على شكل كسر عادي، حيث البسط تشغله السمات الروحية والمقام - رأيه في ذاته. وكانت العلاقات بين الأب والأبناء متوترة لدرجة أن ليف نيقولايفتش كان يعاني بكل معنى الكلمة من وجودهم في ياسنايا بوليانا. ومهما حاول إقناع نفسه بأن يعاملهم بطريقة طيبة، لكنه لم يكن ينجح في ذلك.

يكتب تولستوي: «ابناي، أندريه وليف مرهقان جداً، رغم أنهما مختلفان، كل على طريقته». «هو أحد الذين يصعب القول إن فيهم إرادة الله (لكنها موجودة، أذكر)». «ليف لفوفيتش لا يمكنني أن أتحمله، وهو يريد أن يسكن عندي».

قبل بضعة أيام من توقيع ليف نيقولايفتش الصيغة المصححة والمزيدة الثالثة من الوصية القانونية في تيلياتينكي في منزل تشرتكوف، حصل شجار مزعج جداً بين تولستوي وابنه ليف، أهان خلاله الابن المدفوع بالاهتمام بأمه أباه.

يكتب ليف نيقولايفتش في يومياته بتاريخ 11 تموز/ يوليو: «أنا بالكاد أعيش... ليلة رهيبة. حتى الساعة الرابعة ليلاً. والأشد رهبة ابني ليف لفوفيتش. لقد أنبني كما يؤنب الصبي...»

في ليلة 10-11 تموز/ يوليو طالبت صوفيا أندرييفنا بأن يعطيها زوجها اليوميات المحفوظة لدى تشرتكوف. وكان الجواب بالرفض. توجهت إلى الشرفة المطلة على غرفة زوجها، واستلقت هناك على ألواح الخشب، وأخذت تئن بصوت عال. تكتب في يومياتها أنه في هذا الوقت «تذكرت كيف وقفت على الشرفة نفسها قبل 48 سنة، وكانت صبية، وشعرت لأول مرة بحب ليف نيقولايفتش. كان الليل بارداً، وشعرت بالارتياح للتفكير، بأنني حيث وجدت حبه سأجد الموت أيضاً».

خرج تولستوي إلى الشرفة وطالبها بالخروج منها. فوعدت بأن «تقتل تشرتكوف»، وركضت إلى الحديقة واستلقت في ثوبها على الأرض الرطبة. كان عدة أشخاص يبحثون عنها في الظلام ولم يعثروا عليها إلا بمساعدة الكلب ماركيز. لكنها ردت على جميع الطلبات بالعودة إلى البيت بأنها لن تعود ما لم يأت ليف نيقولايفتش.

عندئذ، ذهب ليف لفوفيتش إلى أبيه:

«قلت له: – لا تريد أن تأتي، تقول إنك أنت طردتها.

صاح الأب: – آه، آه، يا إلهي! لا! لا! هذا أمر لا يطاق!

قلت له: – اذهب إليها، لن تأتي من دونك.

– لا، لا، – كرر الأب خارجاً عن طوره من اليأس – لن أذهب.

عندها قلت له بصوت عال وانزعاج: – أنت زوجها! وعليك أنت أن تصلح الأمور.

نظر إليّ بدهشة ووجل وذهب صامتاً إلى الحديقة».

حتى في مذكرات ليف لفوفيتش يبدو هذا المشهد غير مريح على الإطلاق. لكن المشهد يبدو أسوأ بكثير في يوميات غولدنفيزر. «طالبت صوفيا أندريفنا بأن يحضر إليها ليف نيقولايفتش. ذهب ليف لفوفيتش إلى أبيه، فصرخ في وجهه، ووبخه، ووصل إلى درجة أنه سمّاه بـ «القمامة»».

أما في 17 تموز/ يوليو فنقرأ في يوميات غولدنفيزر، كيف قام تولستوي في تيلياتينكي بإعادة كتابة الوصية، حيث بين الورثة بالإضافة إلى ساشا ذكر اسم ابنته تاتيانا.

«اقتاد تشرتكوف ليف نيقولايفتش إلى الطابق العلوي (من بيته في تيلياتينكي – *المؤلف*). سلّم عليّ ليف نيقولايفتش، وصافحني بيدي بقوة مرتين. جلس على الطاولة وطلب مني أن أملي عليه من النص الذي قدمه موارفيوف المماثل للقديم، مع إضافة أنه في حال وفاة ألكسندرا لفوفنا قبل ليف نيقولايفتش – تنتقل التركة إلى تاتيانا لفوفنا.

يبدو أن ليف نيقولايفتش كان مضطرباً، لكنه كان يكتب بسرعة، ولم يخطئ. وعندما انتهى من الكتابة، قال لي:

– هكذا، كل شيء جيد!»

بيد أنه، تبين أنه لم يكن كل شيء جيداً.

في المقدمة لنشر نصوص وصية تولستوي بالفاكس في «الكتاب السنوي لتولستوي لعام 1913»، يكتب تشرتكوف أن هذه الصيغة من النص تبين أنها غير كافية، لأنه «في هذه المرة ظهرت في الوصية خطيئة قانونية على شكل نقص بضع كلمات».

فما هي هذه الكلمات؟ من جملة «موضوعة ومكتوبة وموقعة من الوصي، ليف نيقولايفتش تولستوي، الذي كان سليم العقل ثابت الذاكرة»، - في الصيغة الجديدة سقطت، بطريقة غريبة كلمات «*كان سليم العقل ثابت الذاكرة*».

وفيها كتب فقط «موضوعة ومكتوبة وموقعة من الوصي، ليف نيقولايفتش تولستوي». لهذا كان لا بد من إعادة كتابة الوصية مرة أخرى، وإضافة «سليم العقل ثابت الذاكرة».

وهذا تطلب خمسة أيام أخرى.

المتواطئون

قد يبدو، أن تولستوي، باعتباره رجلاً يؤمن بالوساوس والخرافات، كان يجب أن ينتبه إلى السقوط «العرضي» من الوصية لكلمات «سليم العقل ثابت الذاكرة». ولكن في 22 تموز/ يوليو في الغابة، بالقرب من قرية غرومونت (صيغ أخرى لاسمها غرومانت أو غروموند[1]) يعيد كتابة النص النهائي لوصيته القانونية ويوقّعه.

1- كلمة «غرومانت» مشتقة من اسم جزيرة غرينلاندا، التي اكتشفها الأوروبيون في القرن الحادي عشر. وقد اعتبر مكتشفو غرينلاندا وهم الدانماركيون، أنها تسحب بعيداً إلى الشرق وتشمل الجزر التي سميت فيما بعد شبيلبرغين (سفالبارد، غرومانت) وقد سمى سكان شواطئ البحر الروس أرخبيل غرومانت بأرض غرينلاندا. جد تولستوي، من جهة الأم، مالك ياسنايا بوليانا، نيقولاي سيرغييفيتش بولكونسكي، كان قد خدم في فترة من الزمان حاكماً في إقليم أرخانغلسك. وبعد أن عاد إلى موطنه، قرر من أجل إحياء ذكرى المناطق الشمالية القاسية التي خدم فيها، إعادة تسمية إحدى القرى التابعة له. وهكذا فعلى بعد ثلاثة كيلومترات من ياسنايا بوليانا ظهرت قرية غرومانت. - المؤلف.

إن قصة إعداد هذا النص وإنجازه موصوفة بالتفصيل في ذكريات سيرغيينكو سكرتير تشرتكوف.

«جلس ليف نيقولايفتش على جذع شجرة وأخذ من جيب قميصه الريشة الإنكليزية، وطلب منا تقديم كل ما هو ضروري للكتابة. أعطيته ورقة وكرتونة حضّرتها مسبقاً ليسند الورقة عليها، وأمسك ألكسندر بوريسوفيتش (غولدنفيزر - *المؤلف*) أمامه بمسودة الوصية لينقل منها. وضع ليف نيقولايفتش رِجلاً على رجل ووضع الكرتونة مع الورقة على ركبتيه، وبدأ الكتابة: «عام ألف وتسعمئة وعشرة، يوم الثاني والعشرين من تموز/ يوليو». ولاحظ على الفور أنه ارتكب خطأ إملائياً كلمة عشرين بالروسية «двадцать» خطأ حيث كتب حرف «ت т» بدلاً من «د д»، وأراد تصليحها أو أخذ ورقة جديدة، لكنه غير رأيه وقال مبتسماً:

– فليظنوا، أنني كنت أمياً.

ثم أضاف:

– سأضع الأرقام أيضا، كي لا يكون أي شك.

وبعد كلمة «تموز/ يوليو» وضع في قوسين «22» بالأرقام.

كان من الصعب عليه جالساً على جذع شجرة أن يتابع المسودة، وطلب من ألكسندر بوريسوفيتش أن يقرأ له. أخذ ألكسندر بوريسوفيتش يقرأ المسودة بوضوح، وليف نيقولايفتش يكتب الكلمات بجد عن طريق فاصلة مزدوجة في نهاية وأول الأسطر، كما كانوا يفعلون في الماضي، وكما كان يفعل ليف نيقولايفتش أحياناً في رسائله عندما كان يحاول الكتابة بوضوح خاص.

في البداية كان يكتب أسطره متقاربة، وعندما رأى أن ثمة مساحة كبيرة من الصفحة، قال:

– يجب الكتابة بشكل أكبر، من أجل الانتقال إلى الصفحة التالية، – وزاد المسافة بين الأسطر.

وفي نهاية الوصية، حيث كان عليه أن يوقع، سأل:

– هل يجب كتابة «كونت»

قلنا له يمكن عدم الكتابة، ولم يكتب.

ثم وقعنا نحن الشهود؟ قال لنا ليف نيقولايفتش:

– شكراً لكم».

وفي الوقت نفسه، تم تسليم تولستوي ورقة من تشرتكوف، كانت بمنزلة أهم إضافة للوصية. وبموجب هذه الورقة، فإن جميع الحقوق لمؤلفات ومخطوطات تولستوي تنتقل إلى ساشا شكلياً فقط. أما المتصرف الحقيقي فيها فكان تشرتكوف.

والمثير للدهشة أنه في اليوم الذي وقع فيه تولستوي الوصية السرية ضد زوجته، لم يتردد تشرتكوف قط بزيارة ليف نيقولايفتش وصوفيا أندرييفنا مساءً. فأي ضمير من الأسمنت المسلح يجب أن يتمتع به هذا الرجل، كي ينظر بعينيه إلى ربة البيت في هذا اليوم، وكيف كان يجب أن يعاملها...

كتب فالنتين بولغاكوف: «عندما أتذكر تلك الأمسية، أشعر بالذهول من حدس صوفيا أندرييفنا: كأنها شعرت بأنه قد حدث للتو شيء رهيب لا يمكن إصلاحه». لذلك «كانت في أسوأ حالة مزاجية، كانت متوترة وقلقة. وكانت تتصرف تجاه الضيف وتجاه جميع الحاضرين بوقاحة واستفزاز. ومفهوم، كيف أثرّ هذا على الجميع. جلس الجميع مشدودين، مكتئبين. تشرتكوف كان يجلس جامداً كالمومياء: وجهه إلى الأمام، كأنه تحول إلى حجر. كان السماور يغلي بشكل مريح على الطاولة، وكان طبق التوت يبرز كبقعة حمراء زاهية على المفرش الأبيض، لكن الجالسين على الطاولة بالكاد كانوا يلمسون أكواب الشاي، كما لو كانوا يؤدون واجباً، ولم يمض وقت طويل حتى غادر الجميع».

في مثل هذا الجو تم وضع وصية تولستوي. من ناحية أولى – الزوجة، المريضة نفسياً، التي تشابكت في رأسها الأشياء المتضاربة والمتضادة: حبها العاطفي وغيرتها على زوجها، وخوفها من فقدانه... والحسابات المالية (من أجل أبنائها). ومن ناحية أخرى تشرتكوف الذي لا يمكن اختراقه، الذي كرس نفسه لمهمة أكيدة بأن يكون القيّم على تركة تولستوي. على أية حال، فإن الصحة النفسية لتشرتكوف تستدعي التساؤلات أيضاً...

ذات مرة صادف أن كانت صوفيا أندريفنا وفالنتين بولغاكوف في عربة واحدة في الطريق إلى تيلياتينكي. توجهت الكونتيسة للتعرّف على والدة تشرتكوف يليزافيتا إيفانوفنا. في الطريق، أخذت تتوسل لبولغاكوف بأن يعيد تشرتكوف لها يوميات زوجها.

قالت صوفيا أندريفنا: - فليعيدوا كتابتها، ولينسخوها، ولكن ليعطوني مخطوطات ليف نيقولايفتش الأصلية! فيومياته السابقة محفوظة عندي... قل لتشرتكوف إنه إذا ما أعطاني اليوميات فسأطمئن وأهدأ... وسأعيد له عندئذ موقفي الجيد نحوه، وسوف يزورنا كما في السابق، وسوف نعمل معاً لمصلحة ليف نيقولايفتش ونخدمه... هل ستقول له هذا؟ حباً بالله، قل له!

عند وصوله إلى تشرتكوف، نقل بولغاكوف طلب صوفيا أندريفنا. بعدها يكتب في يومياته: «سألني فلاديمير غريغوريفيتش وهو في حالة اضطراب شديد:

- وماذا في الأمر - سألني ونظر إليّ بعينيه البيضاوين الكبيرتين المندفعتين المضطربتين - وأنت قلت لها الآن، أين توجد هذه اليوميات؟!

مع هذه الكلمات، صعر فلاديمير غريغوريفيتش فجأة خده، بشكل رهيب، ومد لي لسانه».

صرخ ليف لفوفيتش على فلاديمير غريغوريفتش تشرتكوف بحضور جميع الأشخاص الحاضرين في ياسنايا بوليانا: - «أنت أبله! الجميع يعرف، أنك أبله!».

بقي شهران فقط على الرحيل...

«إنهم يمزقونني إلى قطع...»

لقد أصبحت يوميات تولستوي لعام 1900 - التي كان قسم منها محفوظاً عند تشرتكوف، والقسم الآخر بتكليف منه، وضعت منذ تشرين الأول/ أكتوبر عام 1909 من قبل غولدنفيزر للحفظ في صندوق مقاوم للاحتراق في بنك موسكو «ليون للائتمان» - أحد الأسباب الرئيسة للمعاناة النفسية لصوفيا أندريفنا. وبعد عودة ليف نيقولايفتش من ميشيرسكوي طالبت

صوفيا أندرييفنا زوجها بأخذ اليوميات من تشرتكوف وتسليمها لها. لم يوافق تولستوي، مفترضاً أنها في هذه الحالة ستخضع لرقابة زوجته، التي ستتلف منها كل ما يتعلق بها، وستقلص دورها، كما يبدو لها في حياة رجل عظيم.

وفي 14 تموز/ يوليو عام 1910 أخذت ساشا، بناء على طلب والدها، اليوميات وقامت ابنته تاتيانا، بحضور الأم، بوضعها باسم الأب في فرع تولا من بنك الدولة الروسي.

لكن القصة لم تنته عند هذا الحد. فذلك الإصرار الذي أبدته صوفيا أندرييفنا في رجائها لزوجها بأن يعطيها مفتاح خزنة البنك تقود إلى فكرة أنها فعلاً كانت تشك بوجود وصية في هذه اليوميات. وبحسب شهادة غولدنفيزر، فقد كان ينتظر عودة ساشا مع اليوميات ليس الكونتيسة وحدها بل وابنها ليف الذي كان واقفاً عند مدخل المنزل. وعندما تم وضع اليوميات في الخزنة، قالت صوفيا أندرييفنا لابنتها تاتيانا:

- أنتم جميعاً سوف تشكرونني.

في اليوم التالي، جاءت إلى ليف نيقولايفتش وجثت على ركبتيها وتوسلت أن يعطيها مفتاح الخزنة. بيد أنها كانت تدرك جيداً أن نصوص اليوميات قد تم نسخها من قبل تشرتكوف. إذن هي كانت بحاجة للنسخة الأصلية. وعندما جاء الجواب بالرفض، ركضت إلى غرفتها، وأخذت تصرخ من هناك، أنها شربت زجاجة صغيرة من الأفيون. وعندما مر تولستوي أمام نافذتها في هذا الوقت، ركض يلهث إلى الطابق العلوي مرعوباً. واعترفت صوفيا أندرييفنا أنها خدعته. وتكتب هي نفسها في يومياتها، أنها تصرفت بغباء. لكنها لم تسيطر على نفسها.

في 25 تموز/ يوليو جمعت صوفيا أندرييفنا حوائجها وأخذت معها زجاجة صغيرة من الأفيون، واتجهت إلى تولا بالعربة التي توجهت بها إلى المحطة للقاء ابنها أندريه. كان لديها مقصد غامض إما الرحيل نهائياً أو الانتحار. وقبل المغادرة كتبت مذكرة، كانت تفترض إرسالها إلى الصحف: «جرى حدث غير عادي في ياسنايا بوليانا المسالمة. لقد غادرت الكونتيسة صوفيا أندرييفنا تولستايا بيتها، ذلك البيت الذي رعت بحب فيه طيلة

ثمانية وأربعين عاماً زوجها، وكرست له حياتها كلها. والسبب هو أن ليف نيقولايفتش الذي ضعف من امتداد العمر، وقع تحت التأثير المغرض للسيد تش...ف، وفقد إرادته، وسمح له واتفق معه بصورة سرية حول أشياء ما. وبعد أن مرضت طيلة شهر بمرض عصبي، وبنتيجة ذلك تم استدعاء طبيبين من موسكو، لم تعد الكونتيسة تحتمل أكثر وجود تش... ف، وغادرت بيتها واليأس يملأ نفسها».

في المحطة، رأى أندريه حالة أمه غير الطبيعية فأرغمها على العودة معه إلى الحوزة.

في 27 تموز/ يوليو استجوب ليف وأندريه ساشا: ألم يكتب الأب وصية؟ وأخيراً توجه أندريه لفوفيتش إلى أبيه وطرح عليه سؤالا مباشراً: ألم ينجز وصية كتابية ما في حال موته؟ لم يستطع تولستوي أن يكذب. كما أنه لم يستطع أن يقول الحقيقة. في هذه الحالة وقع سخط الزوجة والأبناء كله على ساشا. أجاب الأب ابنه بأنه لا يرغب ببحث هذا الموضوع. وهل ثمة حاجة للقول إن هذا كان اعترافاً غير مباشر بوجود وصية؟

منذ تلك اللحظة، وقع تولستوي في الفخ. فالاعتراف بوجود وصية كان يعني توجيه ضربة ليس لتشرتكوف (اسمه لم يرد في الوصية)، بل لساشا أصغر أفراد العائلة، التي لم يكونوا يحبونها من دون ذلك. وعدم الاعتراف كان يعني الكذب باستمرار، وهذا أمر لا يطاق.

والواقع أن أول محاولة هروب لتولستوي قبيل وفاته من ياسنايا بوليانا حدثت في 15 آب/ أغسطس، عندما توجه ليف نيقولايفتش لفترة غير محدودة إلى ابنته تاتيانا في كوتشيتي. فقد كان هذا هو المكان الوحيد الذي يمكنه فيه أن يستريح من زوجته ومن... تشرتكوف الذي انزعج بشكل رهيب، لأن صوفيا أندريفنا طلبت من ليف نيقولايفتش وعداً بأن لا يلتقي بـ «المفرِّق» المقيت.

يجب على المرء أن يمتلك قسوة نفسية خاصة كي يرى في تصرفات صوفيا أندريفنا إرادة خبيثة. لا، لقد كانت هذه إرادة مظلمة، لا عقلانية، دفعت زوجة تولستوي خلافاً للعقل، الذي كان يتقد أحياناً ويبين لها أنها

تتصرف بطريقة خاطئة، تماماً على عكس ما هو مطلوب. وتولستوي كان ينتظر بصبر هذه اللحظات من الاستنارة والصحوة، واضعاً أمله فيها حتى النهاية، وحتى بعد المغادرة.

يكتب تولستوي في رسالته التي أرسلها لزوجته من شاموردينو بتاريخ 31 تشرين الأول/ أكتوبر: «... عوْدتي «الآن» غير ممكنة إطلاقاً» – وبوضعه «الآن» بين معقوفتين، أكد أن عودته، رغم ذلك ممكنة. وفي الرسالة التي لم يرسلها كتب بوضوح أكبر: «حاولي... أن تهدِّئي نفسك، أن ترتبي حياتك من دوني، أن تتعالجي، وبعد ذلك إذا ما تغيرت حياتك فعلاً، وأجد من الممكن العيش معك، سأعود. لكن العودة الآن تعني الإقدام على الانتحار، لأن مثل هذه الحياة بحالتي الصحية الحالية لن أستطيع تحملها لأسابيع».

كان تشرتكوف و«فريقه» ينظرون بمن فيهم ساشا، نظرة مختلفة مبدئياً إلى حالة زوجة تولستوي. حتى تاتيانا لفوفنا التي كانت تميل إلى تشرتكوف توسلت إليه في رسالة بأن يغادر تيلياتينكي، كي لا يكون بمنزلة «خرقة حمراء» للأم المريضة. وبدلاً من هذا خطط تشرتكوف لبناء منزل كبير من الطوب. وقد أصيب تولستوي نفسه بالصدمة من الترف الداخلي لهذا المنزل الكبير بغرفه العديدة وحمّامه... وهنا يبرز السؤال: لماذا كان على ف. غ. تشرتكوف بناء هذا البيت في ضوء الموت الوشيك الواضح لتولستوي؟ ثمة جواب واحد عن هذا السؤال. كان يأمل، بأن يتأسس هنا، بعد وفاة ليف نيقولايفتش، ما يشبه «مركز تولستَوي». حيث جسد تولستوي سيكون مدفوناً في ياسنايا بوليانا بـ «رعاية» عائلته. لكن روحه (مع تركته من المخطوطات) ستنتقل إلى تيلياتينكي. وهذا بالفعل ما حصل. فمنذ نهاية 1910 وحتى بداية الحرب العالمية الأولى كان ثمة مكانان للحج إلى «تولستوي»: ياسنايا بوليانا وتيلياتينكي. لكن الحرب والثورة دمرتا مخططات تشرتكوف.

عندما سُحبت أصول اليوميات من أيدي تشرتكوف، اعتبر هذا بمنزلة هزيمة في الحرب مع الكونتيسة واتخذ إجراءات انتقامية.

يكتب فالنتين بولغاكوف: «عندما علمت من باربارا ميخائلوفنا (فيوكريتوفا – *المؤلف*)، اجتمع على عجل في تيلياتينكي الأشخاص الأكثر قرباً من

تشرتكوف - بديله alter ego أليوشا سيرغيينكو، و. ك. تولستايا (أخت آنا كونستانتينوفنا)، ألكسندرا لفوفنا، الزوجان غولدنفيزر، وف. غ. تشرتكوف، وجميعهم قاموا بالنسخ السريع لتلك المواضع في يوميات ليف نيقولايفتش التي تسيء إلى صوفيا أندريفنا، والتي يمكنها برأيهم أن تتلفها. ثم تمّ حزم اليوميات وإرسالها إلى ياسنايا بوليانا. وقف تشرتكوف على شرفة منزل تيلياتينسكي، وعمّد ألكسندر لفوفنا باحتفالية في الهواء مازحاً، ممسكاً بيده ملف اليوميات، وسلمها هذه اليوميات. كان أمراً صعباً بالنسبة له التخلي عنها...»

كانت هذه الحركة الساخرة من تشرتكوف بمنزلة مباركة لساشا على حربها ضد أمها.

قبل إرسال اليوميات، أرسل تشرتكوف لليف نيقولايفتش رسالة يشبّهه فيها بالمسيح: «تذكرت اليوم بشكل حي وخاص وفاة المسيح، وكيف شتموه، وأهانوه، وكيف سخروا منه، وكيف كانوا يقتلونه ببطء، وكيف أن الناس الأقرب إليه بالجسد والروح لم يستطيعوا الاقتراب منه وكان عليهم النظر إليه من بعيد...» وتقبل تولستوي هذا الإطراء الفظ كما يجب. «وصلتني من الأب رسالة أثرت بي». مثله مثل جميع فريق تشرتكوف، دعا تشرتكوف بـ «الأب».

عندما حصلت صوفيا أندريفنا من زوجها على وعد بعدم الالتقاء بتشرتكوف، وجه ف. غ. تشرتكوف لها ضربة جوابية على شكل رسالة أخرى إلى تولستوي. كان هدفها «فتح عيني» ليف نيقولايفتش على خلفية سلوك زوجته وأولاده.

«كان الهدف ولا يزال، من إبعادي عنك وإذا أمكن إبعاد ساشا، عن طريق الضغط المتزايد المشترك، ومن خلال يومياتك وأوراقك، معرفة ما إذا كنت كتبت وصية تحرم أفراد أسرتك من تركتك الأدبية، وإذا لم تكتب، فعن طريق مراقبتك المتزايدة المستمرة حتى وفاتك إعاقتك من فعل ذلك، أما إذا كنت كتبت، فلن يسمحوا لك بالخروج إلى أي مكان، إلى أن يتمكنوا من دعوة الأطباء – الشياطين ليثبتوا أنك في حالة خرف الشيخوخة، من أجل أن تفقد وصيتك مفعولها».

لقد كانت هذه إدانة حقيقية، لكنها للأسف لم تكن عارية عن الحقيقة. فقد كتب ماكوفيتسكي في «مذكراته»: «لقد كشفت صوفيا أندريفنا عن خططها: فلو علمت أن ليف نيقولايفتش كتب وصية، لذهبت إلى القيصر، وصورت نفسها على أنها متسولة، وتوسلت إليه بإلغاء وصية ليف نيقولايفتش وإعادة الحقوق إليها. وهي تفكر بأبنائها الصغار الثلاثة: باعتبار ليف نيقولايفتش مجنوناً».

في تعليقه على هذه المذكرة في عام 1933، لم ينف سيرغي لفوفيتش تولستوي وجود مثل هذه الأحاديث في المنزل. «كنت في تلك الفترة في ياسنايا بوليانا، ومن واجبي القول إن الأحاديث عن أن ليف نيقولايفتش قد أصيب بحالة خرف الشيخوخة وفقدان الذاكرة (وليس مجنوناً) كانت، ولكن لم تكن هناك نوايا جادة ولا يمكن لها أن تكون. ذلك أن صوفيا أندريفنا، وأندريه لفوفيتش وليف لفوفيتش كانوا يعرفون، أنني أنا، وتاتيانا لفوفنا، وألكسندرا لفوفنا، وربما إيليا لفوفيتش لم نكن لنسمح بهذا. وبديهي، أنهم في تلك الفترة لم يدركوا مدى سفالة هذه الإجراءات وغبائها...»

ولكن، لو تصرفت صوفيا أندريفنا بدهاء، ووعي وبشكل مدروس، لما تحدثت علناً أمام الجميع عن تلك الأشياء، التي كانت تكررها بإصرار، وبشكل مهووس، جالبة لنفسها كراهية حتى الأشخاص المتعاطفين معها. حتى إن ليف لفوفيتش لم يكن يستطيع التحمل أحياناً فكان يصرخ على والدته، محاولاً إعادتها إلى جادة الصواب. كانت تقول وتكرر أن ليف نيقولايفتش مغرم بتشرتكوف، وإنه لم يعد لديها منذ الآن زوج حي، وإنها منذ زمن تنتظر موته ولا أحد يمنعها من قتله. لم تكن تسمح له بالنوم، ولم تكن تسمح لأحد أن يبقى معه بمفرده، وكانت تبتزه باستمرار بالتهديد بالانتحار. فهل يمكننا حقاً من هذا كله استنتاج خطة متعمدة مدبرة؟

كل هذا كان يحاول ليف نيقولايفتش بصبر كبير شرحه لـف. غ. تشرتكوف في رسائله.

«... إن صوفيا أندريفنا هادئة للغاية، طيبة، لطيفة، وأخشى ما أخشاه ما يقلق هذه الحالة، ولهذا فإنني لا أقوم الآن بأي شيء من أجل تجديد مواعيد اللقاء معك» (31 تموز / يوليو).

«... ليس لديها أي شعور بالمسؤولية إطلاقاً، تعاني نوعاً من الخَبَل، ولا يصح أن تشعر نحوها سوى بالشفقة، ومن المستحيل، على أقل تقدير من المستحيل *بالنسبة لي*، مجابهتها contrecarrer (بالفرنسية)، وبالتالي زيادة معاناتها» (14 آب/ أغسطس).

«... تربطني بها الشفقة والرحمة والتعاطف، كم شعرت بهذا بقوة، خاصة الآن...» (في اليوم نفسه).

«ما إن أفكر، كيف هي في الليالي التي تمضي أكثر من نصفها دون أن يغمض لها جفن، مع شعور غامض ومريض بأنها غير محبوبة وصعبة من جانب الجميع، باستثناء أولادها، فمن *المستحيل* أن لا أشفق عليها...» (25 آب/ أغسطس).

«إنها تعاني ولا تستطيع التغلب على نفسها» (9 أيلول/ سبتمبر).

حاول تولستوي مخاطبة تشرتكوف بلغة إنسانية. لكن رسائله العاطفية ليس أنها لم تغير قناعة تشرتكوف فحسب، بل على العكس، أثارت في نفس تشرتكوف المخاوف من أن المعلم قد يرتعش ويعدّل الوصية. ولم تكن مخاوفه بلا أساس.

في 30 تموز/ يوليو وصل إلى ياسنايا بوليانا ب. ي. بريوكوف وعائلته. وباعتباره شخصاً موثوقاً، حدثوه عن الوصية، و«بوشا» (بريوكوف) عبّر عن عدم موافقته. وقال لليف نيقولايفتش إن إبقاء مثل هذه الوثيقة سراً مخفياً على الأسرة غير صحيح. ويبدو أن بريوكوف تأثر بحديث صوفيا أندرييفنا التي اشتكت من وضعها في المنزل. وهو كشخص قادر على الرؤية من الجانب، كان مذهولاً مما كان يحدث في ياسنايا بوليانا، وعبر عن هذا لتولستوي. ورأى تولستوي بنفسه، أنه فعل شيئاً خاطئاً.

يكتب تولستوي في يومياته: «لقد أدركت جيداً جداً خطئي. كان من الواجب جمع جميع الورثة وإعلان نيتي وقراري، وليس سراً. وقد كتبت لتشرتكوف عن هذا». لقد كانت هذه الرسالة لتشرتكوف مثل طعنة سكين في قلبه.

«البارحة تحدثت مع باشا (بريوكوف)، وقال لي بحق إنني مذنب لأنني عملت وصية سراً. كان من الواجب أن أعملها علناً، بإعلام جميع

من تمسّهم، أو ترك كل شيء كما كان على حاله - *عدم عمل أي شيء*. وهو على حق تماماً بأنني تصرفت بصورة خاطئة والآن أبكي على هذا. الخطأ أنني عملتها بصورة سرية، والخطأ الأهم أنني استخدمت مؤسسات الحكومة التي لا أعترف بها، بعد أن وضعت وصيتي. والآن أنا أرى بوضوح أنني وحدي المذنب في كل ما يحدث الآن. كان من الواجب ترك كل شيء كما كان، وعدم فعل أي شيء...»

لنفكر فقط فيما كُتب! وقد كتب تولستوي هذا للرجل الذي قام طيلة ست سنوات(!)، اعتباراً من عام 1904 بعمل تآمري صعب لوضع وصية تولستوي! ماذا كانت تعني لتشرتكوف كلمات «عدم فعل أي شيء»؟ إنها كانت تعني أن تركة ليف نيقولايفتش كلها ستكون لزوجته وأولاده.

كان جواب تشرتكوف رسالة طويلة إلى تولستوي بتاريخ 11 آب/ أغسطس. استغرق الأمر ما يقارب عشرة أيام ليعود تشرتكوف إلى رشده ويكتب ما دعاه بـ «المذكرة». وفي هذه الرسالة شرح تشرتكوف لتولستوي كيف تم إعداد الوصية، وما الذي وجّه تولستوي عندما وقعها. ومن حيث الجوهر - أعاد عليه رواية أهم مرحلة من سيرة حياته، على نحو كأن تولستوي نسيها. وغيّر ليف نيقولايفتش من جديد قراره.

«أكتب لك على أوراق، لأنني أكتب في الغابة، أثناء نزهتي. ومنذ مساء الأمس وحتى صباح اليوم وأنا أفكر برسالتك التي وصلتني بالأمس. شعوران أساسيان أثارت في نفسي رسالتك هذه: النفور من مظاهر المصلحة الذاتية الجسيمة وانعدام الحساسية تلك التي لم أرها أو رأيتها ونسيت، والحزن والندم على ما سببته لك من ألم برسالتي التي عبرت فيها عن أسفي عما تم القيام به. النتيجة التي استخلصتها من الرسالة أن بافل إيفانوفيتش (بريوكوف) كان غير محق، وكذلك أنا كنت غير محق عندما وافقته على رأيه، وإنني أؤيد تماماً نشاطك، بيد أنني غير راض عن نشاطي: فأنا أشعر أنه كان من الممكن التصرف بطريقة أفضل، رغم أنني لا أعرف كيف».

بصورة لا إرادية ينشأ انطباع عند القارئ أن تولستوي كان يتصرف مثل ريشة في مهب الريح، تخضع وتستسلم لأول دفعة ريح عرضية. لكن الواقع

أن موقف تولستوي كان أكثر تعقيداً وكان يعكس رؤيته للعالم. *لم يرغب تولستوي قط في حل* هذه المشكلة القانونية الملعونة، وكان يعتقد أنها يجب أن تنحل من تلقاء ذاتها بمفتاح «الحب»، على أساس الموارد النفسية غير المستخدمة بعد لكلا الطرفين المتحاربين. لقد حاول التأثير على الطرفين المتحاربين بـ «الخير، والحب». وكان هذا صراعه بل حتى حربه «عدم مجابهة الشر بالقوة». وقد تصرف على هذا النحو في عام 1904 عندما أجاب على «استبيان» تشرتكوف وطلب *بالخير* واللطف بإتلاف هذه الوثيقة. والآن، بموافقته مع بريوكوف وبإبلاغه تشرتكوف بذلك، كان يستدعي شعوره الأخلاقي ويدعوه إلى التعاون الروحي مع صوفيا أندرييفنا. وعندما استلم جواباً سلبياً، تنازل من جديد، متابعاً بذلك حربه الهادئة غير الملحوظة.

لو أن تشرتكوف فهم موقف تولستوي كان لا بد من أن ينتبه إلى نقطة رئيسة في إحدى رسائله: «أنا لا أعتقد أن الدفاع الحاسم عن قراراتي، المخالفة لرغباتها (رغبات زوجته – المؤلف)، يمكن أن يكون مفيداً لها،، ولو اعتقدت، لما فعلت هذا. الشيء المهم، إضافة إلى ما أعتقده، أن عليّ التصرف على هذا النحو، وأنا أعرف من خلال خبرتي أنني عندما أصرّ – فإن هذا مؤلم بالنسبة لي، أما عندما أتنازل، فأشعر بالراحة والبهجة».

لو أن تشرتكوف كان قادراً على نقل هذه الكلمات إلى نفسه لأدرك أن تولستوي يدير حديثاً معه كما... مع المجنون، الذي لا يجب الجدال معه.

أوَلم تكن جنونية رسالة تشرتكوف الجوابية التي جادل فيها بشكل محموم بأن الإبقاء على الوصية سراً «ضروري لمصلحة صوفيا أندرييفنا ذاتها؟» «لو أنها عرفت بالتأكيد وأنت على قيد الحياة بتصرفك لما تحملت هذا بكل بساطة، فكم من السنوات على التوالي كانت تخترع، وتلاطف، وتستخدم، بهذا القدر من التروي والحذر والتأني، خطتها للاستيلاء بعد وفاتك على جميع كتاباتك ومؤلفاتك، بحيث إن خيبة أملها من هذه الناحية وأنت حي، ستكون ضربة لا تطاق، ولم تكن لترحم أحداً، لم تكن لترحمك، ولا ترحم صحتك وحياتك، بل ولم تكن لترحم نفسها، وحياتها، والأشد رهبة من ذلك روحها – البقية الباقية من الضمير، في محاولتها اليائسة لتحقيق هدفها، طالما أنت على قيد الحياة...»

ما هو وجه الاختلاف المبدئي بين ف. غ. تشرتكوف «المعافى» وصوفيا أندرييفنا المريضة، عندما كان عملياً يبتز تولستوي بتهديده بانتحار زوجته، سعياً منه للإبقاء على سريّة الوصية الموجهة ضدها؟

لقد أخطأت صوفيا أندرييفنا في تصرفها عندما لم تسمح لزوجها بالذهاب وحده إلى كوتشيتي، وأرغمته على أن يأخذها معه، وتابعت تعذيبه أيضاً في عزبة ابنتها. ولكن أليس جنوناً، لكنه جنون خبيث ومدروس، رسالة غولدنفيزر التي أرسلت إلى كوتشيتي مع مقطع من يوميات فيوكريتوفا، حيث تظهر وشاية عن سلوك الكونتيسة في ياسنايا بوليانا أثناء رحلتها القصيرة الأمد إلى هناك؟ عن هذه الوشاية يكتب م. س. سوخوتين في يومياته:

«في ياسنايا بوليانا تقيم الفتاة ف. م. فيوكريتوفا ضاربة الآلة الكاتبة لصوفيا أندرييفنا والصديقة الصدوقة المقربة من ساشا. وف. م. كغيرها تدوّن يومياتها. وفي هذه اليوميات ظهرت تلك الأيام الثلاثة التي أمضتها صوفيا أندرييفنا في ياسنايا بوليانا. وهذا القسم من يومياتها نسخه آ. ب. غولدنفيزر وأرسله بالاشتراك مع آ. ك. تشرتكوفا و ف. م. فيوكريتوفا إلى ليف نيقولايفتش. ومضمون هذا الجزء باختصار أن صوفيا أندرييفنا بصحة جيدة، ومرحة، تتناول طعامها وتنام بصورة ممتازة (وهذا كله لم نره في كوتشيتي)، ومن دون أي سبب واضح، كأنها فتحت قلبها أمام ف. م. فيوكريتوفا وحدثتها عن كراهيتها واشمئزازها من زوجها العجوز، وباختصار، فإن صوفيا أندرييفنا هذه ليست صوفيا أندرييفنا البسيطة والثرثارة بل هي الليدي ماكبث الشريرة والحقودة.

بعد قراءتي لهذه الوشاية المقرفة، والكاذبة، والمخادعة، والمكتوبة كما لو أنها بغرض تخويف ليف نيقولايفتش وإرغامه على منح إذن قانوني صحيح لتشرتكوف لطباعة المؤلفات، شعرت بالغثيان، ولم أستطع النوم فترة طويلة».

لكن الذي أذهل سوخوتين أكثر، حقيقة أن تولستوي تعامل مع هذه الرسالة باهتمام كبير. وهذا الاهتمام تمت الإشارة إليه في يوميات تولستوي: «لقد أرعبتني رسالة غولدنفيزر مع مقطع ف. م.».

فما الذي أرعبه تحديداً؟ مضمون المقطع؟ واقع إرساله بحد ذاته؟

يمكن الحكم على مزاج ليف نيقولايفتش من خلال رسالته إلى تشرتكوف التي كتبها قبيل عودته من كوتشيتي إلى ياسنايا بوليانا: «لا يسعني إلا أن أقول شيئاً واحداً، في الفترة الأخيرة «ليس بالأدمغة بل بالجوانب» كما يقول الفلاحون، لقد وصلت إلى درجة أنني أدركت بوضوح الحد الفاصل بين مقاومة فعل الشر بالشر، والمقاومة بعدم التشبث في ذلك العمل الذي تعتبره واجبك أمام ضميرك وأمام الله. سوف أحاول».

ويكتب أنه قد «فكر في مسار عمله عند العودة، الذي لا أريد، ولا يمكنني تأجيله أكثر من ذلك...».

لقد عاد تولستوي إلى ياسنايا بوليانا بعد إقامته شهراً ونصف الشهر في كوتشيتي بخطة عمل جديدة مدروسة. ولكن لا يمكننا غير التخمين مم تتكون هذه الخطة.

ثمة أمر لا شك فيه – أن هذه الخطة باءت بالفشل. في البداية سرقت زوجته يومياته السرية التي أخفاها الرجل العجوز في جزمته، والتي عرفت منها أخيراً بوجود وصية. ثم إن تشرتكوف الذي لم يسامح صوفيا أندرييفنا من امتعاضه لحرمانها له من الالتقاء بجسد المعلم، أرسل له رسالة رهيبة مفعمة بـ«العتاب والاتهامات». يصرخ تولستوي في يومياته قائلا: «إنهما يمزقانني إلى قطع. أحياناً يخطر في ذهني أن أهرب من الجميع». وفي اليوم التالي أرسل رداً قاسياً إلى ف. غ. تشرتكوف لأول مرة (!) خلال تاريخ مراسلاتهما، طالبه بعدم *التدخل* في علاقاته مع زوجته. «عليّ أنا وحدي حلّ هذه القضية في نفسي، وأمام الله، وأنا أحاول أن أفعل هذا، وأي تدخل غريب يعيق هذا العمل. شعرت بالألم من الرسالة، شعرت بنفسي ممزقة إلى قسمين...»

لقد شعر بهذا في وقت متأخر جداً. فالوضع وصل إلى طريق مسدود نهائي. كان تولستوي يُقصف من كلا الجانبين – صوفيا أندرييفنا وف. غ. تشرتكوف – بـ«العتاب والاتهامات». وكل منهما كان يطالب بـ«حقوقه الحصرية» ليس على تركته ومؤلفاته فحسب، بل على روحه أيضاً. وفي

هذه الفترة يبدأ تولستوي كتابة عمله الأدبي الروائي الأخير – قصة «ليس في الدنيا مذنبون». تبدأ الطبعة الثالثة لهذه القصة غير المكتملة بالعبارة التالية: «قدري! يا له من قدر غريب وعجيب!».

بعد أن طردت الأم عملياً ساشا من المنزل، لم يصب تولستوي بمجرد إغماء، بل أصيب بنوبة مميتة مع تشنجات رهيبة، حيث كان يرتمي بجسده في عرض السرير ولم يقدر على حمله عدة رجال. بعد ذلك، تصالحت الأم مع ابنتها. وسمحت صوفيا أندرييفنا لتشرتكوف بزيارة ياسنايا بوليانا. ثم بدأ كل شيء من جديد...

وفي ليلة 27–28 تشرين الأول/ أكتوبر هرب تولستوي من البيت.



الفصل العاشر

المطر الجليدي

في أستابوفو خارت قوى تولستوي. لكن حاسة البصر عنده بقيت سليمة لا تشوبها شائبة. كان طريق ليف نيقولايفتش من بناء المحطة إلى بيت أوزولين يشبه حركة الطائر المريض، الذي لم يعد يستطيع الطيران، ولا يمكنه وحده الحركة بصورة مستقلة على الأرض، لكنه خلال ذلك يرى كل شيء بوضوح شديد – لأنه اعتاد رؤية كل هذا من عين الطائر المحلق.

كان منزل أوزولين يقع على منحدر، وعلى طوله درج. وكان الجو مظلماً. وقد تذكر أوزولين: «عند الخروج من بناء المحطة والتوجه إلى الشقة، نبّه الموظف الذي كان يمسك بيد ليف نيقولايفتش، نبهه إلى أننا سننزل على الدرج. فأجاب تولستوي: «لا بأس، لا بأس، أنا أرى». ومثل هذا التنبيه وجّهه ثانية وحصل على الجواب نفسه عند الدخول إلى درج الشقة؛ طلب أحد الموظفين عند الدخول إلى الممر مصباحاً للإنارة، لكن ليف نيقولايفتش قال: «لا، أنا أرى، أنا أرى كل شيء»».

لحسن الحظ، في الأيام السبعة التالية لم يكن باستطاعة تولستوي رؤية ما حدث في أستابوفو. ففي الليل من 6 إلى 7 تشرين الأول/ نوفمبر اندلع طقس خريفي سيئ منذر بقدوم الشتاء. وقد كتب عن هذه الليلة الصحفي ف. آ. غوتوالد: «كأن الطقس يشارك مزاج الناس المكتئب. تجمدت الأرض قليلاً، ومن الأعلى تتساقط بهدوء إما قطرات مطر صغيرة أو حبيبات لزجة مقرفة باردة... لم يكن باستطاعتي تصور شيء أسوأ من هذه الليلة. ظلام داكن. وعلى الخطوط الحديدية عبر الضباب، تومض أضواء الإشارات الحمراء

المشؤومة بطريقة خاصة. وفي الحديقة الصغيرة التي أقيمت أمام المنزل التاريخي تقف بضع أشجار البتولا. وقد غطى الجليد فروعها وشكل لحاءً فوقها. وعند أدنى هبّة نسيم تصطدم الأغصان بعضها ببعض فتصفر القشرة الجليدية وتتشقق، وتنشأ همهمة تذكّرنا ببعض الأصوات البعيدة الحزينة من الموسيقى، كأنه في مكان بعيد ما ينوح حشد من الكائنات غير المرئية».

«أنت تضع الأركان في الموقف الصعب»

على الطريق من كوزيلسك إلى أستابوفو، لم يكن كونستانتين أورلوف مراسل صحيفة «الكلمة الروسية – روسكوي سلوفو» وحده من يتابع تولستوي ومرافقيه. فقد انضمت إلى مراقبة الهاربين آلية شرطة معقدة أيضاً.

كان لا يزال تولستوي ورفاقه في الطريق، عندما أُرسلت برقية من بيليفو إلى محطة كوركينو: «عند وصول القطار رقم 12 استعلموا فوراً هل يسافر بهذا القطار الكاتب ليف تولستوي؛ إذا كان يسافر معه، فأين ذهب. أرسل برقية لي. فاخ. بوشكوف». تم إرسال البرقية في الساعة 3,20 من بعد ظهر يوم 31 تشرين الأول/ أكتوبر. وصل الجواب بعد ساعتين ونصف الساعة من دانكوف – المحطة الكبيرة الأخيرة قبل أستابوفو: «نعم يسافر في القطار رقم 12 ببطاقة من الدرجة الثانية روستوف – دون. ضابط الصف ديكين».

بعد ساعتين أُرسلت برقية من أستابوفو إلى يليتس إلى النقيب م. ن. سافيتسكي، رئيس قسم يليتس لشرطة الدرك في إدارة السكك الحديدية: «الكاتب الكونت تولستوي بالقطار ترانزيت رقم 12 مرض. رئيس المحطة السيد أوزولين استقبله في شقته. ضابط الصف فيليبوف».

في الساعة العاشرة صباح يوم 1 تشرين الثاني/ نوفمبر أرسل برقية إلى سافيتسكي في يليتس رئيس شرطة الدرك موسكو – كاميشينسك – إدارة السكك الحديدية الجنرال لفوف: «نتوقع تقريراً على الرقم 469». جواب سافيتسكي وصل بتأخر واضح، في السابعة مساء: «ليف تولستوي برفقة الدكتور ماكوفيتسكي واثنين من أقاربه، مرض في الطريق، بقي في شقة رئيس محطة أستابوفو».

إنه من الصعوبة بمكان للإنسان المعاصر فهم هذه التعقيدات الهرمية لتقارير الشرطة في تلك الفترة. ولكن ثمة شيئاً واضحاً تماماً. لم يكن هناك أي حديث عن السفر إلى نوفوتشيركاسك، ناهيك عن اجتياز الحدود بجوازات سفر مزورة.

إن شخصية النقيب ميخائيل نيقولايفتش سافيتسكي مثيرة جداً للاهتمام. فخلال هذه القصة كلها كان هو أحد أهم ضباط الشرطة الذي لم يؤتمن فقط على مراقبة تولستوي وإرسال التقارير عنه إلى موسكو بل كان مسؤولاً أيضاً عن الحفاظ على الأمن والهدوء العام في محطة أستابوفو.

بيد أن سافيتسكي، لوجوده في الأيام الثلاثة الأولى في يليتس بمقاطعة أرلوف لم يكن يراقب الموقف، ما أثار سخط القيادة في موسكو. وعندما كانت الصحف تتنافس في نشر تقارير مراسليها الخاصين من أستابوفو، كان النقيب يلوذ بالصمت بصورة غريبة، ربما لم يخمن أنه هو بالذات تم تعيينه «الأهم». كانت أستابوفو تغلي بمراسلي صحف العاصمة والصحف المحلية؛ ولم يكن ثمة أمكنة لإقامتهم، مما اضطر أوزولين للطلب من رؤسائه بتخصيص عربة مستقلة لإقامتهم. أما سافيتسكي فكان لا يزال في يليتس وفي 3 تشرين الثاني/ نوفمبر أرسل برقية للجنرال بما عرفته روسيا كلها من خلال الصحف:

«بعد المكالمة الثانية، القطار رقم 12 توجهت ابنة تولستوي، بسبب تصريح الطبيب حول وضعه الصحي الخطير، برجاء إلى رئيس المحطة لتوفير مبيت لهم. وقد وفر لهم هذا المكان في شقته لعدم وجود مكان آخر».

وفي اليوم نفسه، ألزمه الجنرال لفوف ببرقية مشفّرة(!) بالسفر شخصياً إلى أستابوفو مع خمس عناصر من الدرك ومراقبة الوضع بنفسه[1]. أُرسلت البرقية في الساعة 3 نهاراً. لكن سافيتسكي تأخر لسبب ما وبقي في يليتس.

1- تلك كانت البرقية المشفرة: «يليتس أو حسب مكان وجوده. النقيب سافيتسكي. بناء على أمر رئيس الأركان ستكون دائماً 25309-14765 - 2935-43537 - 30817-64726 - 5 وإيفاد 39535-68676 - 71958-43269 - 58568-65242 - 47514-6 وإرسال 56643-53835 - 26586-77185 - 98596-71419 - 13475-46474 - 839260-67971 - 95434-25471 - 519 ستمئة ثمانين ثمانية. الجنرال لفوف».

في مساء اليوم نفسه وصله تقرير مثير للقلق من صف الضابط فيليبوف في أستابوفو: «وصل مراسلو صحف «الصباح»، «الكلمة الروسية – روسكوي سلوفو»، «الأخبار – فيدوموستي»، «الكلام – ريتش»، «صوت موسكو» و«وكالة تلغراف بطرسبورغ». غداً سيصل بالقطار 11 إلى أستابوفو محافظ ريازان». حاول النقيب مراقبة الوضع من يليتس: «أستابوفو. إلى ضابط الصف فيليبوف. لا يمكن توفير الإقامة لكل من وصل إلى المحطة. سأصل غداً مساءً. لا يمكن أن يبقى أي شخص إلا في شقة رئيس المحطة وأبنية المحطة. وفي شقة أوزولين يقيم فقط الأشخاص الأربعة الذين جاؤوا سابقاً. النقيب سافيتسكي».

ولكن كان من المستحيل عدم إنزال واستيعاب المراسلين الواصلين والمتوقع وصولهم. واضطر د. آ. مدير إدارة الخط الحديدي ريازان – أورالك الموجود في ساراتوف، التي تتبع أستابوفو لها، إلى إرسال برقية إلى أوزولين: «اسمح مؤقتاً لمدة يوم أو يومين لمراسلي صحف بطرسبورغ وموسكو والصحف الأخرى بشغل عربة سكة حديدية احتياطية واحدة من الدرجة الثانية، مع التنبيه بأننا قد نحتاج إلى العربة بصورة طارئة من أجل النقل العسكري».

وفي الآن نفسه، أرسل برقية إلى كلياسوفسكي رئيس المسافة من سكة حديد ريازان – أورالسك في محطة أستابوفو من أجل تجهيز استضافة مؤقتة في بناء مستقل وأن يوفر فيه التدفئة، والأسرّة مع الشراشف والبياضات. ولكن عدم السماح الآن للصحفيين بدخوله بانتظار أمر خاص.

عندما استلم ضابط الصف فيليبوف الأمر من سافيتسكي بعدم السماح، منع الصحفيين من الإقامة في المنزل وفي العربة، وأرسل بهذا الخصوص تقريرين في برقيتين في ليلة 4 تشرين الثاني/ نوفمبر ليلاً وفي الصباح إلى النقيب. بيد أن ماترينينسكي القلِق، إدراكاً منه أن الوضع في المحطة، التي تتبع له، سيكون حرجاً، أرسل برقية إلى سافيتسكي في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر: «بسبب الظروف الاستثنائية، أرجوك بتواضع ألا تمنع تواجد أقارب الكونت ليف نيقولايفتش الواصلين والأشخاص الغرباء من التواجد في محطة أستابوفو في الأماكن العامة، وفي العربات؛

من الصعب جداً بل من المستحيل الإقامة في القرية. الرجاء إرسال برقية للمكان ولي». – أجاب النقيب: «لا عوائق بالنسبة لإقامة الأشخاص الذين يحملون جوازات سفر في منطقة الاغتراب. بالنسبة للآخرين. سنقرر اليوم مساء في المكان نفسه».

في اليوم نفسه استلم سافيتسكي من الجنرال برقية توبيخ مشفرة: «حتى الآن لم أحصل على أية معلومات، كما يجب القيام به يومياً بالتفصيل عن طريق البريد، وفي الحالات الطارئة، بالبرقيات، عما يجري في أستابوفو. أنت تضع الأركان في الموقف الصعب». في المساء وصل سافيتسكي إلى أستابوفو، وأصبح أحد شهود العيان الذين لا يقدرون بثمن لتلك المؤامرات التي كانت تجري حول تولستوي المحتضر.

الإمبراطورية ارتجفت

في غضون سبعة أيام، من 31 تشرين الأول/ أكتوبر ولغاية 7 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1910، أصبحت محطة أستابوفو غير المعروفة على الخط الحديدي ريازان – أورالسك، ملتقى لروسيا الشاسعة كلها وللعالم كله.

وتشكل انطباع، كأنه خلال هذه الأيام السبعة في هذه المحطة، لم يكن يحتضر شخص، وإن كان مشهوراً ومعروفاً، بل كان مصير الإمبراطورية يتقرر، وكان العالم كله يتابع تقرير هذا المصير. كانت عقدة أستابوفو، أو على الأصح، دوّامة أستابوفو كانت تجتذب أعداداً لا يمكن تصورها من مختلف الأشخاص، ممثلي جميع طبقات الإمبراطورية الروسية الشاسعة: عمال وموظفي السكك الحديدية، فلاحي القرى المجاورة، رجال الدين والكهنة، والأطباء، والصحفيين، ورجال الشرطة، وعمال البريد والبرق، والحكام والمحافظين، والموظفين من مختلف الرتب، وأعضاء السينودس، وستوليبين والقيصر نيقولاي الثاني.

والمدهش، أن كلاً منهم كان يشعر بمسؤوليته الشخصية عن رحيل وموت تولستوي، معانياً منه كعبء هبط عليه فجأة، ويحاول أن ينقل هذا العبء إلى كتفي شخص آخر، برتبة أعلى أو أدنى. إن هذا التصرف الشخصي لشخص

واحد، والناتج، عموماً، عن ظروف عائلية حصرياً، كان بمنزلة اختبار لقوة الإمبراطورية كلها.

في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر نشر س. س. رايتسكي مراسل «صباح روسيا – أوترا روسيي» في صحيفته: «التلغراف يعمل ليل نهار. الاستفسارات والطلبات تصل إلى وزارة السكك الحديدية، وإدارة الطرق في مقاطعات كالوغا، ريازان، تامبوف، تولا. وقد وصل موظف خاص موفد من قبل حاكم تولا، وأجرى تحقيقاً. تتوارد البرقيات إلى أسرة تولستوي من جميع أنحاء روسيا والعالم».

حاول الجنرال حاكم ريازان الأمير آ. ن. أوبولونسكي، الذي وصل في صباح 4 تشرين الثاني / نوفمبر، طرد مراسلي الصحف من المحطة. ومن أجل هذا الغرض أغلقوا بوفيه المحطة أمامهم، أي مفترضين تجويعهم. واضطر الصحفيون إلى التوجه إلى الجنرال لفوف ببرقية جماعية. فتركوا على إثرها الصحفيين دون أي إجراء، وأخذوا يهتمون بإقامتهم، ويعتنون بوضعهم. وقد أرسل فولينسكي رئيس خدمات سكة حديد ريازان – أورالسك برقيات إلى رؤساء المحطات القريبة من أستابوفو: «محطة أستابوفو تحتاج بصورة مؤقتة إلى كمية كبيرة من الأسرّة مع الفرش ومستلزماتها...» «أرجو بصورة سريعة إرسال عشرة – إلى خمسة عشر من المصابيح القوية الجيدة إلى أستابوفو، المعبأة والمغلفة بشكل جيد لتجنب التلف والتكسير في الطريق».

في البداية، أراد حاكم ريازان «طرد» تولستوي نفسه من المحطة. في 2 تشرين الثاني / نوفمبر سأل الجنرال لفوف ببرقية مشفرة سافيتسكي: «أجبني برقياً من الذي سمح لليف تولستوي المكوث في بناء محطة أستابوفو، غير المعد للمرضى. يرى الحاكم ضرورة اتخاذ الإجراءات لإرساله إلى مؤسسة طبية أو إلى مكان إقامته الدائمة».

إن الوضع الذي وجد نفسه حاكم ريازان، حيث خطر ببال ليف تولستوي أن يموت لسبب ما في المقاطعة التابعة له، هو وضع لا يحسد عليه. لم تكن لديه أية خبرة في تنظيم وفاة كتّاب مشهورين شهرة عالمية على محطات قطار عرضية. ومن أجل تصور حالة الأمير أوبولونسكي، يكفي أن نقرأ

البرقية المشفرة التي أرسلها إلى الجنرال ب. غ. كورلوف نائب ستوليبين في وزارة الداخلية في بطرسبورغ: «أرجو إعلامي، بعد التفاوض مع المطران، هل يمكن للكاهن المحلي أن يقوم بالصلاة على صحة تولستوي. البارحة تم سؤاله، هو لا يميل إلى الموافقة. انصحونا بعدم السماح».

هذا هو ما حصل – الإمبراطورية ارتجفت! مسألة صلاة كاهن المحطة على صحة ليف نيقولايفتش تتقرر على مستوى الحاكم، ونائب وزير الداخلية وحاكم العاصمة.

وكما حدث في عام 1902، عندما مرض ليف نيقولايفتش في القرم، وجد السينودس نفسه في وضع صعب للغاية. استياء القيصر من «حرمان» تولستوي بسبب أن موته المحتمل كان شفافاً وواضحاً، لدرجة أن ستوليبين وضع موظفه ذا المهام الخاصة أمام الباب الذي كان يجري خلفه الاجتماع الطارئ لأعضاء السينودس في حال رحيل واحتمال وفاة تولستوي، منتظراً منهم حلاً إيجابياً للمسألة.

وفي 4 تشرين الثاني / نوفمبر وصلت برقية إلى أستابوفو من المطران أنتوني توسل فيها إلى الكونت بالعودة إلى الكنيسة الأرثوذكسية. ولكن، ومن خلال برقية أوبولونسكي لكورلوف، حظر المطران نفسه على الكاهن المحلي أداء الصلاة على صحة تولستوي.

للأسف، حول رد فعل القيصر نيقولاي اللفظي على نزاع السينودس مع تولستوي، نحن لا نملك معلومات سوى من مصدر ضعيف الثقة – كتاب سيرغي تروفانوف (الكاهن المترهب سابقاً إليودور) عن غريغوري راسبوتين «الشيطان المقدس». ويورد فيه كلمات راسبوتين، الذي تحادث مع القيصر بعد وفاة ليف نيقولايفتش. يقول أبي (نيقولاي الثاني – *المؤلف*) لو أنهم (أي الأساقفة – *المؤلف*) لاطفوا ليف نيقولايفتش تولستوي، لما مات من غير أن يتوب. في حين أنهم عاملوه بجفاء. خلال هذه الفترة كلها، كان بارثينيوس وحده يذهب إليه، ويتحاور معه في حديث صريح من القلب إلى القلب. إنهم متعجرفون!».

إن ذكر اسم أسقف تولا بارثينيوس في هذا السياق موثوق للغاية. وبارثينيوس بالذات هو من التقى ليف نيقولايفتش عام 1909 وترك في نفسه

أحسن انطباع، وقد استدعاه السينودس إلى بطرسبورغ وأرسله إلى أستابوفو بهدف إعادة تولستوي إلى حضن الكنيسة.

لقد فشلت مهمة بارثينيوس. وعلى أية حال، كان من غير الممكن أن تنجح، لأن بارثينيوس وصل إلى المحطة في 7 تشرين الثاني / نوفمبر في التاسعة صباحاً، بعد ثلاث ساعات تقريباً من وفاة تولستوي. هذا في حين أن الأسقف غادر بطرسبورغ في 4 تشرن الثاني/ نوفمبر. ويبدو أن «بطأه» يرجع إلى عدم رغبة الأسقف في المشاركة في قضية ميئوس منها. فإلى جانب أنه كان يعرف جيداً مزاج تولستوي، كان مطلعاً بصورة جيدة من خلال الصحف، على الموقف في أستابوفو بشكل عام. كان بارثينيوس يعرف أنه إلى جانب سرير المريض يداوم باستمرار تشرتكوف وابنة تولستوي ألكسندرا اللذان لن يسمحا، بأي شكل من الأشكال، بلقاء ليف نيقولايفتش مع كاهن أرثوذكسي.

قبيل مغادرته أستابوفو، تحادث بارثينيوس مع النقيب سافيتسكي ومع ابن تولستوي أندريه لفوفيتش، محاولاً أن يعرف منهما ما إذا كان تولستوي قد أظهر قبيل وفاته أية دلائل على الرغبة بالتصالح مع الكنيسة. إن اختيار هذين الشخصين من بين من تواصل فعلياً مع تولستوي في هذه الأيام، لم يكن عفوياً، بالطبع. بيد أنه لا سافيتسكي، ولا أندريه لفوفيتش - الابن الوحيد الأرثوذكسي عن قناعة من جميع أبناء تولستوي - لم يستطيعا تقديم أية أدلة للأسقف عن تحول في المزاج الديني لليف نيقولايفتش. وعلاوة على ذلك، صرح ليف نيقولايفتش عن القرار الجماعي للأسرة بدفن تولستوي من دون الطقوس الكنسية. وفي تقريره إلى السينودس، كتب بارثينيوس: «استغربت هذه الكلمات وأشرت: «في حين أن أمكم قبل عام ونصف العام قالت لي شخصياً عكس ذلك...» فأجاب أندريه لفوفيتش أن أمي التي دمرها الحزن، قد غيرت موقفها، «إضافة إلى ذلك، هي الآن مريضة عصبياً، ومن المستحيل الحديث معها. إخوتي - ينظرون إلى هذا الأمر بلا مبالاة، أما أخواتي، فهن بحزم ضد الطقوس الكنسية...»».

لقد تصرف بارثينيوس تصرفا عاقلاً - وبنتيجة ذلك، لم يضع نفسه في موقف حرج، خلافاً للحكيم العجوز الأسقف بارسانوفيوس، الذي اضطر إلى شرب كأس المذلة حتى الثمالة.

المحاولة الأخيرة

حول قدوم بارسانوفيوس إلى أستابوفو ومحاولاته الحديث مع تولستوي على فراش الموت، ثمة الكثير من الخرافات والاختلاقات التي ليست لها أية علاقة مباشرة بوقائع الأمور في أستابوفو. وإذا ما وحدنا جميع هذه الاختلاقات فإن اللوحة الخرافية العامة تظهر على الشكل التالي.

عند مغادرته ياسنايا بوليانا، فكر تولستوي بالعودة إلى الأرثوذكسية. ولهذا ذهب إلى دير أوبتينا، حيث أراد أن يبقى مبتدئاً. لكن كبرياءه لم تسمح له بالذهاب إلى المرشدين الروحيين. وعندما طُرد من شاموردينو ذهب مع ابنته ساشا التي وصلت إلى هناك في طريقه الطويل. بيد أنه مرض بمرض عضال في أستابوفو، وتاب وأرسل برقية إلى دير أوبتينا يعرب فيها عن رغبته بلقاء بارسانوفيوس. لكن الأب بارسانوفيوس الذي قدم مع الهدايا المقدسة لم يسمح له تشرتكوف وابنة تولستوي الصغرى ساشا بمقابلة تولستوي المحتضر. وهما أيضاً لم يسمحا لزوجته المؤمنة بالكنيسة بمقابلته.

من السهل دحض هذه الأسطورة، لأن كل الوقائع تشهد ضدها. والأصعب فهم ذلك الجزء من الحقيقة الذي تضمها هذه الأسطورة.

في تأمله لرحيل تولستوي، كتب معاصره ليف تيخوميروف: «إن نهاية حياته غريبة... وهنا يشعر المرء بوجود صراع ما على روحه. أراد أن يتصالح مع الكنيسة، لكن الشيطان كان يمسك به بقوة».

تحتوي هذه الكلمات على معنى عميق، رغم بعده عن الدقة. وتكمن المصيبة في أنه كثيراً ما يقصد بـ «الشيطان» أشخاصاً محددين من المحيطين بتولستوي في أستابوفو. وفي الوقت نفسه يضفون أهمية مثالية مفرطة على قدوم بارسانوفيوس إلى أستابوفو.

لم تكن هناك أية برقية من ليف تولستوي في دير أوبتينا بطلب لقاء بارسانوفيوس. وهذا ما كان من الواجب أن يعترف به القس غيورغي أوريخانوف، الذي بحث هذه المسألة بالتفصيل.

وقد ظهرت هذه الأسطورة بعد نشر ذكريات المبتدئ السابق في

مستشارية أوبتينا إيغومين إينوكينتي في المجلة الأرثوذكسية الصادرة في البرازيل («فلاديميرسكي فيستنك»، سان - باولو، العدد 62، 1956). وقد جاء فيها زعم مفاده أن برقية وردت إلى أوبتينا من أستابوفو من ليف نيقولايفتش بطلب أن يحضر *الأب يوسف* إلى المحطة. وبعد المباحثات بين الإخوة الرهبان قرروا عدم إرسال الأب يوسف المريض وإرسال رئيس المناسك بارسانوفيوس بدلاً منه.

يكتب غيورغي أوريخانوف: «على الأغلب أخطأ إينوكينتي، ومفهوم سبب خطئه. من الواضح، أن الأب إينوكينتي خلط بين برقيتين: البرقية الوهمية من تولستوي والبرقية الحقيقية من القس المقدس بنيامين (موراتوفسكي)، الذي كان في تلك الفترة أسقف كالوغا، حول تعيينه، بأمر من السينودس المقدس، الكاهن يوسف للذهاب إلى محطة أستابوفو إلى الكونت ليف نيقولايفتش تولستوي الذي مرض في الطريق...»

لو كانت هناك برقية من تولستوي، لكان من غير المعقول اختفاؤها. فجميع البرقيات المرسلة من أستابوفو، بما فيها برقيات سافيتسكي المشفرة، تم حفظها ونشرها فيما بعد. والسينودس المقدس، الذي كان يعاني من ضغط شديد من جانب الأسرة القيصرية وستوليبين، حاول من خلال المطران بارثينيوس اكتشاف *أية دلائل* حتى *غير مباشرة* على رغبة تولستوي بالتصالح مع الأرثوذكسية. وعند عدم حصوله عليها، حاول بارثينيوس معرفة مزاج *أقارب* تولستوي: أليست لديهم رغبة بدفن الزوج والأب حسب الطقوس الكنسية؟ وحصل أيضاً على جواب سلبي. فوجود مثل هذه البرقية، كان بالنسبة للسينودس، بمنزلة هدية حقيقية! لكنها لم تكن موجودة. ولم يكن باستطاعة تولستوي إرسال أية برقية. والبرقية الوحيدة التي أرسلها الكاتب من أستابوفو (إلى تشرتكوف) أملتها ساشا.

في «وقائع» أوبتينا لم يجرِ أي حديث عن برقية تولستوي. بيد أنها تتحدث بالتفصيل عن برقية أسقف كالوغا التي بسببها ظهر بارسانوفيوس في أستابوفو.

«عشية اليوم الرابع من هذا الشهر (تشرين الثاني/ نوفمبر - *المؤلف*)

في الصباح وصلت برقية من قس كالوغا المستنير عن تعيين، بأمر من السينودس، رئيس النساك السابق، الكاهن يوسف للذهاب إلى محطة أستابوفو على الخط الحديدي ريازان - أورالسك إلى الكونت ليف تولستوي الذي مرض أثناء الطريق، واقتراح حديث روحي معه وعزاء ديني بهدف مصالحته مع الكنيسة. وقد تم الرد على هذا ببرقية أن الأب يوسف مريض ولا يخرج خارج الصومعة. ولكن من أجل الطاعة قرر الذهاب. ومع ذلك فإن رئيس دير أوبتينا يطلب الموافقة نتيجة صعوبة السفر للأب يوسف بأن يذهب بدلاً منه للغرض نفسه الأب إيغومين بارسانوفيوس. تبع ذلك جواب الأسقف بنيامين بأن السينودس المقدس سمح بذلك. ثم طلب الأب الرئيس ببرقية من القس المستنير، هل يكفي في حال توبة تولستوي أن نضمه إلى الكنيسة عن طريق أسرار التوبة وتناول القربان المقدس، وقد تم الرد بأن الشخص المرسل للمحادثة مع تولستوي يمكنه إبلاغ أسقف كالوغا المستنير بنتائج محادثته، كي يتواصل الأسقف فيما بعد مع السينودس. وفي مساء اليوم الرابع من الشهر نفسه وردت برقية من الأب الأكبر يوسف إلى رئيس محطة أستابوفو، يسأل إن كان تولستوي موجوداً، وهل يمكن رؤيته في مساء اليوم الخامس، وإلى أين يجب التوجه. وقد ورد جواب على هذه البرقية بأن أسرة تولستوي ترجو عدم الحضور. بيد أنه صباح اليوم نفسه، وتنفيذاً لأمر السينودس، توجه بارسانوفيوس إلى الكونت تولستوي في أستابوفو».

لم تكن هناك أية مبادرة من جانب تولستوي من أستابوفو. ولم تكن هناك أية مبادرة أيضاً من جانب دير أوبتينا. كانت هناك مبادرة من جانب السينودس وشيوخ دير أوبتينا تقبلوها *طاعة*.

إن بارسانوفيوس الذي قدِم إلى أستابوفو، وجد نفسه في وضع صعب مؤلم. أولاً، شهرته، في تلك الفترة كانت أقل بكثير من شهرة الأب الأكبر يوسف، الذي أراد فعلاً تولستوي الالتقاء به في أوبتينا. وثانياً، كان الكشف عن الدوافع الحقيقية لقدومه، بالنسبة لبارسانوفيوس، يعني وضع السينودس في ضوء غير مريح. وكان بارسانوفيوس مضطراً لالتزام الصمت. بيد أنه كان يبدو خلال ذلك «متطفلاً». فهو لم يتلق دعوة من أحد لا من تولستوي،

ولا من أسرته التي كانت كلها (باستثناء ليف لفوفيتش المقيم في باريس) في المحطة.

تبين أن بارسانوفيوس هو الشخص المعاني «الأخير»، مثله مثل النقيب سافيتسكي. (بهذه المناسبة، كان بارسانوفيوس في الماضي عقيداً في الجيش) نقلوا إليه مسؤولية الخطأ الفادح للسينودس عام 1901، الذي لم يكن للأب فيه أدنى مشاركة. وكان يبدو في أعين مئات مراسلي الصحف الذين غطوا مأساة أستابوفو كأنه «الخادم القوزاقي»، الذي كتبوا عنه من باب الاستهزاء حصراً.

علاوة على ذلك، وإذا ما حكمنا من خلال برقيات المراسلين، كان بارسانوفيوس مضطراً ليس إلى الصمت فحسب، بل إلى الكذب أيضاً حول الأسباب الحقيقية لقدومه.

آ. ف. آفريخ – صحيفة «الصباح الباكر رانوي أوترو»: «وصل الآن رئيس دير من صحراء أوبتينا بارسانوفيوس برفقة الكاهن بانتيليمون (طبيب أوبتينا – *المؤلف*). وبحسب قول الأخير بارسانوفيوس مرسل بمهمة من السينودس. أما بارسانوفيوس نفسه فينفي ذلك، ويقول إنه عرّج للحج والزيارة».

ب. آ. فيلينسكي – صحيفة «فِكر كييف»: «قال لي رئيس الدير، تولستوي لا يعرف؛ كنت ذاهباً للحج والزيارة فعرّجت».

غارنس – «نشرة ساراتوف»: «الرهبان ينفون الغرض».

آ. آ. إيبيفانسكي – «صحيفة الصباح – أوترو»: «في حديثه مع المراسلين صرح الأب الأقدس أنه كان ذاهباً إلى الحج والزيارة، وعرّج لرؤية تولستوي وقال لأندريه لفوفيتش إن تولستوي أثناء زيارته لأوبتينا كان يبحث عنه».

غارنس: «وصل الرهبان مع الهدايا الممنوحة، اجتمعوا مع كاهن المحطة، في الليل وصلوا سراً إلى البيت. لم يدخلوا إلى تولستوي، باب القلعة مغلق، ولا يُفتح إلا بكلمة السر».

يمكن اقتباس مثل هذه البرقيات إلى ما لا نهاية. لكن المذلة العلنية السافرة التي تعرض لها راهب كبير السن عالي المقام، أصبح فيما بعد في

عداد القديسين، تشهد بوضوح شديد على الخطأ الفادح للسينودس في عام 1901. لقد عثروا على من «يحرمونه» من الكنيسة! تولستوي! وهو يكاد يكون الرجل المؤمن الوحيد بين جميع الأخوة الكَتَبة! وبين جميع المراسلين في أستابوفو لم يكن هناك «محروم» واحد من الكنيسة.

ولم تتصرف أسرة تولستوي بالطريقة الأمثل فيما يتعلق بالأب الأقدس. فرغم علمها أن أباها عندما هرب من البيت، كان أول شيء عمله هو الذهاب إلى الدير، بذلت ساشا كل جهودها كي لا يعرف أبوها بوصول الكاهن إلى أستابوفو. وكان لديها مبرر ثابت: الأطباء لم ينصحوا بإزعاج المريض. وعلى هذا الأساس، بقية أبناء تولستوي، بمن فيهم سيرغي وتاتيانا اللذان كانا إلى جانب والدهما، لم يلحا على إعلام ليف نيقولايفتش بوصول بارسانوفيوس وبرقية المطران أنتوني. لكن هذا المبرر هش للغاية. ففي القرم، عندما كان تولستوي في حالة شبه احتضار، لم يتسبب خبر رسالة أنتوني الذي أخبرته به زوجته بإصابة القلب عنده، لسبب ما، في سكتة قلبية. لكننا نعرف جيداً، بالمقابل، أن تولستوي كان يفكر بالكنيسة في ذلك الوقت. بيد أننا لا نعرف شيئاً عن أفكاره حول هذا الموضوع، قبيل الموت الحقيقي.

وهذا – محزن...

على الطريق الاحتياطي

في كتاب «رحيل تولستوي»، وكواحدة من الحجج الرئيسة لمصلحة وصية تولستوي، التي أعطت جميع حقوق تركة تولستوي الأدبية لتشرتكوف وحده، يذكر تشرتكوف واقعة أنه هو بالذات كان الشخص الوحيد الذي استدعاه ليف نيقولايفتش إلى أستابوفو. ومن خلال مذكرات ساشا وماكوفيتسكي، هكذا كان فعلاً. ولكن، مع ذلك، *لم تكن* هناك أية برقية من *تولستوي* لاستدعاء تشرتكوف. كانت هناك برقية من *ساشا* بكلمات تولستوي، الذي رغب، حسب زعمها، برؤية تشرتكوف. ولكن خلال ذلك، أملى تولستوي نفسه على ابنته برقية بمضمون آخر. أُرسلت برقيتان من قبل الابنة في وقت واحد في الساعة 10,30 من صباح 1 تشرين الثاني/ نوفمبر.

يكتب ماكوفيتسكي، في صباح 1 تشرين الثاني/ نوفمبر، شعر تولستوي بنفسه نشيطاً، انخفضت حرارته إلى 36,2: قال ليف نيقولايفتش إنه يشعر بنفسه أحسن وإنه يمكن متابعة السفر». والبرقية التي أملاها تولستوي على ساشا لإرسالها إلى تشرتكوف كانت: «البارحة مرضت. المسافرون رأوني ضعيفاً في القطار. الآن أفضل. ستتحرك لاحقاً. اتخذ التدابير. أعلمني. نيقولايف».

من هذه البرقية، لا يمكننا أبداً استنتاج أن ليف نيقولايفتش استدعى تشرتكوف إلى أستابوفو. بل العكس هو الأقرب إلى الصحة. لقد طلب تولستوي من «صديقه العزيز» أن يبقى مكانه وأن «يتخذ التدابير». وقد كتب عن هذه «التدابير» لتشرتكوف من شاموردينو: أن يراقب حالة صوفيا أندرييفنا ومزاجها وأن يعلمه على طريق سيره. ولكن مع هذه البرقية أرسلت ساشا برقيتها: «البارحة نزلنا في أستابوفو. درجة حرارة عالية. حمّى شديدة. اليوم صباحاً الحرارة طبيعية، والآن قشعريرة من جديد. السفر غير معقول. عبر عن رغبته برؤيتك. فرولوفا».

لو كان هناك استدعاء من جانب تولستوي لتشرتكوف لكان مناقضاً للوعد الذي قطعه ليف نيقولايفتش على نفسه لزوجته كتابياً في 14 حزيران/ يونيو عام 1910:

«... إذا لم تأخذي بشروطي هذه بالخير والحياة السلمية، فإنني سأسحب وعدي بعدم السفر بعيداً عنك. سأغادر. لن أغادر غالباً إلى تش. حتى إنني سأضع شرطاً إلزامياً بأن لا يأتي ليقيم بالقرب مني، لكنني سأغادر بالتأكيد، لأن العيش مستقبلاً، كما نعيش أصبح مستحيلاً».

بالطبع أن ذلك الوضع الذي كان فيه تولستوي سواء أثناء المغادرة، أو في أستابوفو – لا يسمح باستخلاص استنتاجات نهائية أكيدة. باستثناء استنتاج واحد: هو أن تولستوي *أراد* بوضوح رؤية تشرتكوف...

فهذا الانفصال الإلزامي عن تشرتكوف، الذي تم بضغط من زوجته، أصبح سبباً من الأسباب الرئيسة لهذا الهروب. وفي اليوم السابق، في 26 تشرين الأول/ أكتوبر كتب تولستوي لـ ف. غ. تشرتكوف رسالة لا تدع أي مجال للشك.

«اليوم ولأول مرة، شعرت بوضوح خاص - حتى الحزن - كم أفتقدك...
ثمة مجال كامل من الأفكار، والمشاعر التي لا يمكنني أن أشارك فيها أحداً بشكل طبيعي، بحيث يفهمني تماماً، مثلما أكون معك».

كتب تولستوي في رسالة بعثها بها إلى أبنائه الكبار من أستابوفو: «أبنائي الأعزاء، سيريوجا وتانيا، آمل وأنا واثق من أنكما لن تلوماني على عدم دعوتي لكما. فدعوتكما وحدكما بدون أمكما كانت ستشكل حزناً كبيراً لها، وكذلك لبقية إخوتكما. ستفهمان كلاكما أن تشرتكوف الذي دعوته يقع في وضع استثنائي بالنسبة لي. فقد كرس حياته لخدمة تلك القضية التي خدمتها خلال الأربعين سنة الأخيرة من حياتي. وهذه القضية ليست غالية كثيراً بالنسبة لي أعترف - أخطئ أم لا - إن أهميتها كبيرة لجميع الناس، بمن فيهم أنتم أيضاً».

من هذه الرسالة يمكننا أن نشعر على أفضل وجه باستعصاء حلّ «المثلث» العائلي الذي تشكل في نهاية حياة تولستوي. قبيل وفاته *لم يدعُ* ليف نيقولايفتش *أحداً من أفراد عائلته*، معللاً ذلك بعدم رغبته إغضاب صوفيا أندرييفنا. لكنه خلال ذلك، استدعى الرجل الذي كان قدومه إلى أستابوفو أكبر ضربة لزوجته. لأن هذا الرجل يقع في *وضع استثنائي*.

في الوقت نفسه، فإن النظرة الفاحصة تلاحظ الخطأ في الأرقام الواردة في الرسالة. فهو يرجع بداية الانقلاب الروحي إلى قبل عشر سنوات من حدوثه في الواقع. ومنطق الرسالة كله (لا أدعوكما، كي لا تغضب أمكما، لكنني أدعو تشرتكوف) يدل على أن تولستوي آنذاك كان خارج الواقع الدنيوي العادي وكان يفكر بشيء آخر تماماً.

في اليوم نفسه، أملى على ساشا: «الله هو كل ذلك اللامحدود من الذي يدرك الإنسان نفسه بأنه جزء محدود منه. الله وحده الموجود حقاً. الإنسان هو مظهر من مظاهر الله في الجوهر والزمن والفضاء. وكلما زاد اتحاد مظاهر الله في الإنسان (الحياة) مع مظاهر (حيوات) الكائنات الأخرى، وجد أنّ ارتباط حياة الإنسان بحيوات الكائنات الأخرى يتحقق ويقوى بالحب. الله ليس هو الحب، ولكن كلما زاد الحب زاد الإنسان الذي يُظهر الله، ويصبح وجوده حقيقياً أكثر».

في هذا «الوجود الحقيقي» لم يكن ثمة مكان خاص للأسرة، لكنها دخلت فيه على أساس الحقوق المشتركة لجميع الناس. ما عدا تشرتكوف بقي في وضع استثنائي.

وكان يعرف هذا. بعد هروب زوجها من البيت، حاولت صوفيا أندريفنا مرة أخرى مصالحة تشرتكوف. وقد دعته من خلال بولغاكوف للقدوم إلى ياسنايا بوليانا للتفاوض. وتلقت رفضاً.

يكتب بولغاكوف: «في ياسنايا بوليانا، فوجئ الجميع عندما عدت وحدي. لم يخطر في ذهن أحد أن تشرتكوف يمكن أن يرفض رغبة صوفيا أندريفنا برؤيتها والمصالحة معها». «عندما أصغى فلاديمير غريغوريفيتش إلى طلب صوفيا أندريفنا وافق في البداية على الذهاب إلى ياسنايا بوليانا، ثم غير رأيه.

وقال: – ولماذا سأذهب؟ كي تذل نفسها أمامي، وتطلب مني أن أسامحها؟... هذه حيلتها لتطلب مني أن أرسل برقيتها إلى ليف نيقولايفتش».

لقد فهم ف. غ. تشرتكوف كل شيء بشكل صحيح. فالمهمة الرئيسة لزوجة تولستوي كانت إعادة زوجها بأي ثمن. وكان هذا خطأ مماثلاً لخطأ فصله بالقوة عن تشرتكوف. كان يمكن لتولستوي أن يحتمل إلى ما لا نهاية تضييق حريته الخارجية بل حتى إنه فرح بذلك. لكن كامل بنية طبيعته كان ينفي القيود على إرادته الداخلية، والقسر ضد «الأنا».

وعندما وجد نفسه فائزاً مطلقاً، تابع ف. غ. تشرتكوف التصرف بشكل مدروس، ولكن ليس بشكل نبيل بل وليس بشهامة رجل. وأنهى ببرودة (وربما بشغف) منافِسته برفض الدخول معها في مفاوضات. وكتب إلى زوجة ليف نيقولايفتش رسالة مهذبة، قالت الكونتيسة بعد أن قرأتها:

– أخلاق جافة!

قبل ذلك كانت قد أعدت برقية لزوجها: «لقد تناولت القربان المقدس. تصالحت مع تشرتكوف. أشعر بالضعف. سامحني وداعاً». كانت هذه محاولتها اليائسة لإعادة زوجها. نعم، بالحيلة، بالخديعة مرة أخرى، بالتلميح إلى أنها تحتضر، لكنها تصالحت مع عدوها اللدود، مع «صديقه

العزيز». لقد حزر تشرتكوف حركتها هذه. وهي أدركت ذلك، ومزقت نص البرقية ورمتها في سلة المهملات. وقد تم الاحتفاظ بصورة من البرقية الممزقة في أرشيف تشرتكوف.

كان تشرتكوف أول من جاء إلى تولستوي. قبل الأطباء، ورجال الدين، وقبل أفراد أسرته. وهذا حدث في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر. وقد تذكرت ألكسندرا لفوفنا: «في الساعة العاشرة صباحاً وصل فلاديمير غريغوريفيتش مع سكرتيره آ. ب. سرغيينكو. كان مؤثراً جداً لقاؤهما مع أبي بعد فراق دام عدة أشهر. بكى الاثنان معاً. وأنا لم أستطع مقاومة دموعي، وأنا أنظر إليهما، فذهبت أبكي في الغرفة المجاورة».

وقد وصف اللقاء بين ليف نيقولايفتش وفلاديمير غريغوريفيتش في مذكرات الأخير: «... وجدت ليف نيقولايفتش في الفراش، ضعيفاً للغاية، لكنه بذاكرته الكاملة. فرحَ كثيراً بقدومي، مدّ لي يده التي تناولتها بحذر وقبّلتها. ذرفت عيناه الدموع، وبدأ على الفور يسألني عن أوضاعي في البيت... وسرعان ما بدأ الحديث عما يقلقه في هذه اللحظة أكثر من أي شيء آخر. وبحيوية خاصة قال لي إنه يجب اتخاذ التدابير كي لا تحضر صوفيا أندريفنا إليه. سألني عدة مرات باضطراب ماذا تنوي أن تفعل. وعندما أخبرته أنها صرحت بأنها لن تعارض رغبته في تحديد موعد للقاء به، شعر بقدر كبير من الراحة، ولم يعد في هذا اليوم إلى الحديث معي عن مخاوفه».

حقيقة أنّ تولستوي كان يخشى قدوم زوجته. ففي ليلة 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1 تشرين الثاني/ نوفمبر كان يهذي في المنام:

– اهربْ... اهربْ... الِحقْ...

ولكن هل طلب «اتخاذ جميع التدابير»؟ هذا التعبير البارد العقلاني يطابق أكثر لغة تشرتكوف. وبالفعل، ومن خلال كل الظواهر، تشرتكوف بالذات «اتخذ جميع التدابير» ليس كي لا يلتقي تولستوي قبل الموت بزوجته فحسب، بل حتى من أجل إعاقة أيضاً قدوم بقية أفراد الأسرة إلى أستابوفو.

وعلى سبيل المثال، كان من الممكن ألا يتم قدوم ابنه سيرغي ولقاؤه بأبيه. فالبرقيتان اللتان أرسلتهما ساشا لأخيها قبل وصول تشرتكوف وبعده

تناقض إحداهما الأخرى. ففي البرقية الأولى المرسلة في ليلة 1-2 تشرين الثاني/ نوفمبر، تقول:

«الوضع خطير. أحضِر بسرعة نيكيتين (الطبيب -*المؤلف*). كنت أرغب بإخطارك وإخطار أختي، لكنني أخشى قدوم الآخرين».

هذه البرقية التي أُرسلت إلى موسكو لم يستلمها سيرغي لفوفيتش، الذي كان قد توجه إلى قريته. فحولتها زوجته إليه عن طريق السكة الحديدية. وعندما استلمها في غورباتشوفو، حوّل طريقه إلى أستابوفو.

في حين أنه في صباح 2 تشرين الثاني/ نوفمبر، بعد ساعة ونصف الساعة من وصول تشرتكوف إلى أستابوفو، أرسلت برقية ثانية إلى سيرغي لفوفيتش بتوقيع ساشا، ولكن ليس إلى موسكو، بل عبر زوجة تشرتكوف آنّا كونستانتينوفنا:

«طلب منك أبي عدم الحضور. رسالته ستتبع. لا وجود لخطر مباشر. إذا ما حدث سأبلغك»[1].

كان أقل ما يهتم به تشرتكوف أن يكون بالقرب من تولستوي قبيل وفاته أحد من أبنائه وأقربائه. باستثناء ساشا، بالطبع. وكذلك تاتيانا التي طلب هو نفسه في برقيته إلى زوجته المرسلة في صباح 2 تشرين الثاني/ نوفمبر، إعلامها عن وصوله إلى أستابوفو (لم يتم إبلاغها. علمت تاتيانا بمكان وجود أبيها، مثلها مثل صوفيا أندرييفنا، من برقية كونستانتين أرلوف.) كانت تاتيانا قبل فترة قصيرة من هروب ليف نيقولايفتش على اطلاع على قصة الوصية، حيث تتمثل بـ«الشخص الثالث» بعد تشرتكوف وساشا. لكن هذه القصة كلها ومنذ تلك الأثناء لم ترق لها. وعلى الأغلب، عرفت صوفيا أندرييفنا بوجود الوصية منها، وليس من وجود يوميات تولستوي السرية فقط.

1- قصة هذه البرقية الغامضة التي اعتبرها أبناء تولستوي بعد وفاة والدهم برقية «وهمية»، مرسلة ليس من أستابوفو، بل من ياسينكي من قبل أحد أفراد حاشية تشرتكوف. وقد عُرضت هذه القصة بالتفصيل في مقالة ف. ن. آبروسيموفا و غ. ف. كراسنوف في «مجموعة ياسنايا بوليانا - 2006». إن هذه القصة لغز من الألغاز المرتبطة بموت تولستوي في ظروف العزلة عن زوجته وأولاده. - المؤلف.

إن ظهور صوفيا أندريفنا أمام سرير المريض كان يشكل خطراً كبيراً لتشرتكوف. فهو كان يعرف جيداً تنازل ليف نيقولايفتش أمام زوجته وتردده تجاه الوصية. وفي حال ظهور صوفيا أندريفنا فإن «المؤامرة» كلها يمكن أن تنهار في دقائق معدودات. فالتذكير بالأبناء والأحفاد، وأخيراً الضغط النفسي الذي كان من الممكن أن تمارسه الزوجة على زوجها، كان يمكن أن يهدد عمل الوصية ويعرضها لخطر الشك من قبل ليف نيقولايفتش.

على ما يبدو، هذا ما كان يخافه ليس تشرتكوف وحده. هذا كان يخافه تولستوي أيضاً. الخوف من رؤية زوجته التي كان من الممكن أن تطرح مسألة الوصية، وترغمه إما على إعادة النظر في قراره، أو رفضها بشكل قاس ونهائي، كان يمزق المريض ويقربه من جديد من تشرتكوف... باعتباره شريكاً. وإلى جانب الروابط الروحية، كان الاثنان «مرتبطين» بهذه الوثيقة السرية.

في هذا السياق يمكن للمرء فهم سياق الحديث الغريب «التآمري» بين ليف نيقولايفتش وف. غ. تشرتكوف.

«كنا صامتين. مد ليف نيقولايفتش يده نحوي. انحنيت باتجاهه. فهمس بحزن: «لا، أنا هكذا» أنا: ماذا، هل تعاني من صعوبة؟

ليف نيقولايفتش: ضعف، ضعف شديد.

ثم لاذ بالصمت:

– هل سمحت لك غالا بالرحيل بسهولة؟

أنا: طبعاً. حتى إنها قالت ستكون مسرورة إذا ما رافقتك لاحقاً إلى الجنوب.

ليف نيقولايفتش: لا، لماذا، لا.

بعد ذلك بقليل، سألني، ألم يأت الطبيب النفسي إلى صوفيا أندريفنا. ورداً على جوابي بالإيجاب سأل: «أليس هذا روسوليمو». قلت، لا.

بعد صمت:

– وأمك، يليزافيتا إيفانوفنا، أين هي؟

أنا: في (كان). لقد أرسلت برقية، تسأل فيها عن صحتك.

ليف نيقولايفتش: كيف، حتى هناك أصبح كل شيء معروفاً؟»

دون أية كلمة عن المسائل الروحية! كل شيء قاتم، سرّي، كل شيء كأنه تلميحات. على أية حال، هكذا ينقل تشرتكوف هذا الحديث.

إنه يقبل يد ليف نيقولايفتش، بعد أن أخذ يده بقفازيه السوداوين، لأنه يعاني من الإكزيما. وبصرف النظر عن وضعه الصحي، كان تولستوي قوي البصر والملاحظة. في اليوم التالي يرى تشرتكوف بدون قفازين، فيسأله عن صحته. إن كل هذا مؤثر جداً، مثل اهتمامه بغالا وبوالدة ف. غ. تشرتكوف التي تتعافي في مدينة كان. بيد أن هذا كله يثير مشاعر معقدة. فقد كان هناك شيء مخالف لقانون الطبيعة في حقيقة أن تولستوي، الذي وجد نفسه منفصلاً عن أسرته في نهاية حياته، يبدي هذا الاهتمام بأسرة غريبة.

بعد تشرتكوف وصل إلى أستابوفو «تولستويون» آخرون: غولدنفيزر، غوربونوف – بوسادوف، بولانجي. وقد دخلوا إلى ليف نيقولايفتش بحرية، وتحادثوا معه، واعتنوا به. وكان مسروراً بهم جميعاً، ابتسم لهم وتحدث بكلمات لطيفة.

في هذا الوقت كانت زوجته وأولاده إيليا، أندريه وميخائيل موجودين في عربة مستقلة على سكة حديدية احتياطية. (نذكر هنا، أنه بالقرب من سرير المحتضر كان سيرغي وتاتيانا وساشا). وعندما دخل أبناؤه الثلاثة إلى منزل أوزولين وقفوا في الممر مقابل الغرفة التي كان فيها أبوهم، ولكنهم لم يستطيعوا، بل هم أنفسهم لم يجرؤوا على الدخول إلى أبيهم. كانت صوفيا أندريفنا تتطلع بالطبع لرؤية زوجها، لكن القرار الجماعي للأطباء ولجميع أبنائها كان بعدم إدخالها وبعدم إعلام تولستوي عن وصولها إلى أستابوفو.

كتب فيما بعد ليف لفوفيتش: «... هناك صورة مأخوذة لوالدتي في أستابوفو. كانت ترتدي ملابس بالية، وتتسلل حول المنزل الذي يحتضر فيه والدي، كي تسترق السمع، وتسترق النظر لتعرف ماذا يحدث هناك. كأنها مجرمة من المجرمات، ارتكبت ذنباً خطيراً، كأنها مضطهدة، تائبة، تقف مثل المتسولة تحت نافذة الغرفة، حيث كان يحتضر زوجها، ليفوشكا، حياتها، جسدها، هي نفسها».

«إنه مثل طفل صغير تماماً...»

تكتب باربارا فيوكريتوفا، في يومياتها، أن تولستوي قد حزر بالطبع، بقدوم زوجته إلى أستابوفو. ومن الصعب عدم الموافقة على هذا. فساشا وسيرغي وتاتيانا، الذين علّمهم أبوهم عدم الكذب، لم يستطيعوا إقناع أبيهم بأن صوفيا أندرييفنا ما تزال في ياسنايا بوليانا. وكانوا مضطرين إلى التزام الصمت، وتجنب الحديث عن هذا الموضوع. ومع ذلك، اضطر سيرغي للكذب، حيث قال إنه موجود في أستابوفو بالصدفة، أثناء العبور.

في هذه الجلبة العامة لم يلاحظوا كيف ظهرت وسادة صغيرة، خاطتها بيدها صوفيا أندرييفنا. وقد لاحظ ذلك تولستوي. إن ماكوفيتسكي، غير القادر عضوياً على الكذب، كان مضطراً لأن يقول له إن هذه الوسادة جلبتها معها تاتيانا لفوفنا (وهي قدمت في عربة واحدة مع أمها وإخوتها). وكان تولستوي قد رغب برؤية ابنته الكبرى.

كتبت تاتيانا في رسالة إلى زوجها: «بدأ بأن قال بصوت ضعيف متقطع، وبتوقفات: «كم أنت أنيقة ولافتة». فقلت أنا أعرف ذوقه السيئ وضحكت. ثم أخذ يسألني عن أمي. وهذا أكثر ما كنت أخشاه، لأنني كنت أخاف أن أقول له إنها هنا، وأن أكذب بصورة مباشرة، شعرت بأن قواي لا تكفي. من حسن حظي، لم يطرح السؤال على هذا النحو، بحيث لم أضطر إلى الكذب بصورة مباشرة.

– مع من هي بقيت؟

– مع أندريه وميشا.

– وميشا؟

– نعم. إنهم جميعاً متضامنون تماماً بعدم إدخالها إليك، ما لم تطلب أنت ذلك.

– وأندريه.

– نعم، وأندريه. إنهما رائعان جداً الأخوين الصغيرين، لقد تعبا كثيراً يحاولان بمختلف الوسائل تهدئة أمي.

– حسناً، حدثيني، ماذا تفعل؟ وماذا تمارس من أعمال؟

– أبي العزيز، ربما الأفضل، عدم الحديث: أنت ستضطرب.

عندها قاطعني بحماسة، وذرفت عيناه الدموع، وقال بصوت متقطع:

– تكلمي، تكلمي، ما الذي يمكن أن يكون أهم من هذا بالنسبة لي؟

– وبدأ يسأل أكثر، من معها، هل الطبيب جيد. قلت: لا، وإننا قد انفصلنا عنه، ولدينا الآن مسعفة جيدة جداً خدمت ثلاث سنوات ونصف السنة عند س. س. كورساكوف، واعتادت على مثل هؤلاء المرضى.

– وهل أحبتها؟

– نعم.

– حسناً. وبعد ذلك. هل تأكل؟

– نعم، تأكل وتحاول الآن دعم نفسها وصحتها، لأنها تعيش على أمل اللقاء بك.

– هل استلمت رسالتي؟



– نعم.

– وكيف كان موقفها منها؟».

بهذه الأسئلة كان يعذب أولاده ويمزق نفسه بنفسه. لكنه لم يقل الشيء الرئيس الذي كانوا ينتظرونه منه – بعضهم بخوف وآخرون بأمل. لم يقل إنه يريد رؤية زوجته قبل موته.

إن قول هذا سيكون بمنزلة خيانة لتشرتكوف. والحديث مع الزوجة، إذا ما كان صريحاً للنهاية، كان لا يمكن أن لا يتطرق إلى موضوع الوصية. والمسألة هنا ليست في المال. المسألة في ذلك «السرّ» الذي شارك فيه من خلف ظهر زوجته. وهذا لا يمكن أن يبقى طي الكتمان، وغير مصرح به، على فراش الموت. كان هذا من المستحيل – سواء بالنسبة لها، أو *بالنسبة له* – عدم طرح هذه المسألة في الوداع الأخير مع التي عاش معها قرابة نصف قرن. لكن هذا كان مؤلماً ومخجلاً لدرجة أن الجميع حاولوا تحويل أعينهم عنه، والصمت *أو التظاهر*.

حدث مشابه، لكنه معاكس حدث عام 1891، عندما أبعد عينيه جانباً، وقسّم ممتلكاته بين زوجته وأولاده «كما لو أنه قد مات». وآنذاك شعر

بالخجل المؤلم، لأن الجميع كان يدرك أن الأب لم يمت بل كان حياً. والآن، تظاهر الجميع أنه لا يحتضر، وسوف يعيش، ومسألة الحديث مع زوجته يمكن تأجيله إلى حين، مثله مثل اللقاء مع المرشد الروحي في أوبتينا. وكما في ذلك الحين، كان يأمل بأن المسألة القانونية سوف تُحل من الناحية الأخلاقية من تلقاء ذاتها بين الناس الأحبة الذين يحبونه. وكما في السابق، لم يرغب أن يعترف أن هذا العالم لا يكمن في الخير بل في الشر، وأن الطبيعة البشرية آثمة بجوهرها.

ليست مجرد آثمة بل مريضة للغاية. شخصان مريضان نفسياً، وتابعان لتولستوي إلى ما لانهاية، لم يستطيعا اقتسامه فيما بينهما، وكره أحدهما الآخر، أما هو فقد أراد أن يحب أحدهما الآخر، كما كان يحبهما. كان يهذي قبل ساعتين من موته: «كيف لا تفهمان. ولماذا لا تريدان أن تفهما... هذا أمر بسيط للغاية... لماذا لا تريدان فعل هذا». وقد تذكر سيرغي لفوفيتش: «وهو كما يبدو كان يتألم ويتعذب لأنه لا يستطيع أن يشرح ما الذي يجب فهمه وعمله. ولم نفهم نحن ماذا كان يريد أن يقول».

في صباح اليوم السادس نهض من على السرير ونطق بوضوح تام: «أنصحكم أن تتذكروا: ثمة أعداد وفيرة من الناس في العالم غير ليف تولستوي، وأنتم تنظرون إلى ليف وحده». ماذا تعني هذه الكلمات الغريبة؟

ربما - ببساطة: دعوني في هدوء؟

بحسب مذكرات ماكوفيتسكي، كان كثيراً ما يقول: «لا توقظوني»، «لا تزعجوني»، «لا تحشروا فيّ» (الأدوية).

هذا في حين أنه كان يجتمع أمام سرير المحتضر ستة أطباء.

عندما رآهم، قال ليف نيقولايفتش: «من هم هؤلاء الناس الطيبون؟»

عندما اقترح عليه الدكتور نيكتين وضع حقنة شرجية رفض تولستوي، وقال: «الله سيرتب كل شيء». عندما سُئل ما الذي يريده، أجاب: «لا أريد من أحد أن يشعرني بالملل».

قالت ساشا عندما انتهت من غسل والدها: «إنه مثل طفل صغير تماماً».

«لم أر مثل هذا المريض من قبل» - اعترف مندهشاً الطبيب ب. س.

أوسوف الذي قدم من موسكو أثناء فحصه، عندما رفعه قليلاً وسنده من ظهره، فعانقه تولستوي فجأة وقبّله.

لا أحد ممن اجتمع حول تولستوي المحتضر وتذكر تلك الأيام فيما بعد (وبعضهم سجل يومياته) لم يلحظ الوجود المتكرر في الغرفة لإنسانة صغيرة، الفتاة مارفوشكا التي كانت تغسل يومياً أرضية الغرفة.

تولستوي لاحظ وجودها. واهتم بمصيرها.

كتب أوزولين: «سألني ليف نيقولايفتش، هل هي متزوجة أم لا، وعندما علم أنها غير متزوجة، قال: «هذا جيد»».

وكان المحتضر قد نصح مارفوشكا ذاتها ذات يوم بلطف قائلاً: «بهدوء، وإلّا يمكنك أن تقلبي الطاولة...»

قبيل وفاته تراءت له امرأتان.

خاف من إحداهما، عندما رأى وجهها، وطلب إغلاق ستارة النافذة. ربما كان شبح زوجته (وربما، ليس شبحاً). أما نحو الثانية فقد تطلع إليها بوضوح، عندما فتح عينيه، ناظراً إلى الأعلى، صاح بصوت عال: «ماشا! ماشا!». كتب س. ل. تولستوي: «الرجفان ينتقل إلى أسفل ظهري» – أدركت أنه تذكر موت أختي ماشا (ماريا) التي كانت مقرّبة جداً منه (توفيت ماشا من التهاب القصبات في تشرين الثاني/ نوفمبر 1906)».

كانت في حياة تولستوي ثلاث يحملن اسم ماريا وكان يحبهن كثيراً: ابنته، وأخته، وأمه...

توفيت أمه ماريا نيقولايفنا تولستايا ولم يكمل ليفوشكا السنتين من عمره. وهو لم يعرف وجهها، ولم يحتفظ بصور لها باستثناء صورة ظليلة منحوتة بمهارة. وفي أواخر سنوات حياته أخذ تولستوي يسبغ على صورة أمه ملامح غير أرضية من ناحية، ومن ناحية أخرى، يتعلق بها كطفل صغير. في آذار/ مارس عام 1906، كتب على قطعة من الورق: «طيلة اليوم حالة غبية، كئيبة. وفي المساء تحولت هذه الحالة إلى حنان، ورغبة بالملاطفة والدلال – والحب. كان بودي، كالأطفال، أن أتشبث بمن يحبني بالكائن الذي يعطف عليّ، وأن أبكي وأُواسى بحنان. ولكن من هذا الكائن الذي

يمكنني أن أتشبث به على هذا النحو؟ أقلّب جميع الأشخاص أحبائي – لا أحد منهم يصلح لذلك. فبمن ألتصق؟ وأن أصبح صغيراً وألتصق بأمي، كما أتصورها بنفسي.

نعم، نعم، «ماما التي لم أسمها هكذا عندما لم أكن قادراً على الكلام. نعم إنها أسمى من تصوري عن الحب النقي، ولكن ليس الحب البارد، الإلهي، بل الحب الأرضي، الدافئ، حب الأم. إليها تطلعت روحي المثلى المتعبة. أنت، يا ماما، عانقيني».

ذات مرة تراءت المرأتان لتولستوي معاً. تتذكر ألكسندرا لفوفنا: «في النهار كنا نقوم بتهوية غرفة النوم، ونقلنا أبي إلى غرفة أخرى. عندما أعدناه إلى غرفته من جديد، أخذ ينظر باهتمام إلى الباب الزجاجي المواجه لسريره وسأل المناوبة باربارا ميخائيلوفنا:

– إلى أين يؤدي هذا الباب الزجاجي؟

– إلى الممر.

– وماذا وراء الممر؟

– مدخل وشرفة صغيرة.

وفي هذه الأثناء دخلتُ إلى الغرفة. سألني أبي، متوجهاً إليّ:

– وهذا الباب، مغلق؟

قلتُ، إنه مغلق.

– غريب. لقد رأيت بوضوح، أن من هذا الباب نظر إليّ وجهان نسائيان.

قلنا له إن هذا غير ممكن، لأن الباب من المدخل والشرفة مغلق أيضاً.

واضح أنه لم يهدأ وتابع بقلق النظر إلى الباب الزجاجي.

أخذت أنا وباربارا ميخائيلوفنا بطانية وعلقناها فوق الباب.

– آه، الآن هذا جيد – قال أبي بارتياح. واستدار إلى الحائط وهدأ لفترة».

هنا، يتذكر المرء، بصورة عفوية، أسطراً شعرية لبوشكين:

لا عزاء لديّ – وهدوء أمامي
يبرز شبحان صغيران،
ظلّان جميلان، – اثنان هبة من القدر

كانا ملاكين في الأيام الخوالي،
ولكن كليهما بأجنحة وسيف ناري،
يحرسني... وكليهما ينتقم مني...
وكليهما يحدثني بلغة ميتة
عن أسرار السعادة والقبر.

هذه الأبيات من مسوّدة قصيدة بوشكين «ذكريات» التي كتبها عام 1828 – سنة ميلاد تولستوي.

ومن الممكن شرح هذه الرؤية الغريبة بطريقة نثرية أبسط. عندما قاموا بتهوية غرفة المريض، التي كانت تحوي في المقابل باباً إلى الشقة، تم فتح هذا الباب للتهوية (في بقية الأوقات كان هذا الباب مغلقاً دوماً). وفي هذه الأثناء، ولجت إلى المدخل صوفيا أندرييفنا. يكتب غولدنفيزر: «دخلت أنا وألكسندرا لفوفنا إلى مدخل الشقة. فوجدنا صوفيا أندريفنا هناك. فأقنعناها بأن تخرج إلى الخارج. كلنا كنا مضطربين ومتأثرين من ظهورها. ولكن يا إلهي ما الذي حدث! لقد قدِم مصورون إلى أستابوفو من شركة سينمائية لا أعرفها وأرادوا تصوير صوفيا أندريفنا. عندما فتحنا الباب إلى خارج الشقة، رأت ألكسندرا لفوفنا جهاز التصوير الموجَّه إلى مدخل البيت، وسمعتْ طقطقة اليد المحركة للكاميرا، تراجعت مرتعبة إلى الداخل وأغلقت الباب».

بالإضافة إلى آلام الموت (كتب ماكوفيتسكي 6 تشرين الثاني/ نوفمبر: «كيف كان ليف نيقولايفتش يصرخ، كيف كان يتقلب، كيف كان يختنق!»)، كانت آلامه أيضاً تزيد لأن المحيطين به لم يستطيعوا فهمه. فلسانه لم يعد يطيعه.

تذكرت ألكسندرا لفوفنا: «طلب أبي منا أن نسجِّل من بعده ما يقول، لكن هذا كان مستحيلاً، لأنه كان ينطق بكلمات متقطعة، غير مفهومة. وعندما طلب قراءة ما كتبناه، ضِعنا ولم نعد نعرف ماذا نقرأ. وهو كان يرجو ويطلب:

– اقرأوا، اقرأوا!

حاولنا تسجيل هذيانه، ولكن لشعوره بأن ما هو مسجل بلا معنى، لم يكتفِ وطلب من جديد أن نقرأ».

عندئذ حاولنا أن نلجأ إلى القراءة بصوت عال لمختاراته «حلقة القراءة». ملاحظات ماكوفيتسكي: «في الساعة العاشرة صباحاً، أصر ليف نيقولايفتش، وهو في حالة شبه هذيان على أن يفعل شيئاً ما آخر». بدأنا نقرأ له «حلقة القراءة»، بدأت أنا أولاً، ثم باربارا ميخائيلوفنا، ثم تاتيانا لفوفنا التي كان ليف نيقولايفتش يسألها، وشكرها على شيء ما، وقال: «عزيزتي تانيا».

قرأنا «حلقة القراءة» ثلاث مرات متتالية في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر.

عندما توقفنا عن القراءة، سأل ليف نيقولايفتش:

– حسناً، وماذا بعد؟ ما هو مكتوب هنا – وبإصرار – ما هو مكتوب هنا؟ فقط ابحثي عنه... لا، الآن لن يحصل المرء منكم على أي شيء».

آخر مدونة في يوميات تولستوي كانت بتاريخ 3 تشرين الثاني/ نوفمبر: «هذه هي خطتي. (بالفرنسية – ...Fais ce que doit, adv اعمل ما يجب، وليحدث ما يحدث) وكل شيء لمصلحة الآخرين، والأهم لمصلحتي».

الكلمات الأخيرة ذات المعنى التي تحدّث بها قبل بضع ساعات من موته، توجّه بها إلى ابنه الكبير، الذي لم يفهمها نتيجة اضطرابه، ولكن سمعها ماكوفيتسكي: «سيريوجا... الحقيقة أُحبها كثيراً...، أنا أحب الجميع...»

تذكرت ألكسندرا لفوفنا: «لقد أذهلني، طيلة فترة مرضه، وعلى الرغم من الحمى، والضعف الشديد لقلبه، وآلامه الجسدية الشديدة، كان لدى أبي دوماً وعي واضح مذهل. كان يلاحظ كل شيء مما يجري حوله، حتى الجزئيات الصغيرة. وعلى سبيل المثال، عندما خرج الجميع من عنده، أخذ يحسب، كم عدد القادمين إلى أستابوفو، وحسب، أن مجموع القادمين 9 أشخاص».

هذا الوضوح المذهل في الوعي مع استحالة إثبات شيء ما، والتعبير عن الأهم قد سببا لليف نيقولايفتش المعاناة، إلى جانب الآلام الجسدية. كان يحاول أن يكون لطيفاً، دمثاً مع جميع الأشخاص الذين كانوا يحيطون به والذين كانت أعدادهم تزداد. عموماً، كان يتصرف مثل طفل بشوش، رغم أنه مزاجي متقلب أحياناً، يدفع فجأة الإبرة أو الحقنة الشرجية ويطلب «دعوني في هدوء». ولكن خلال ذلك، كان عقل تولستوي يعمل بطاقته

الكاملة، أما حاسة بصره فبقيت قوية حادة. هذا التناقض بين وضوح العقل والرؤية مع ما كانوا يجرونه في جسده، حسب وجهة نظره، من تلاعبات وحركات غير ضرورية، قد سمّم، على ما يبدو رحيله قبيل موته.

– «انطلق بسرعة! اهرب بسرعة!» – كثيراً ما كان يُهمهم. وفي مساء 5 تشرين الثاني/ نوفمبر حاول فعلاً الهروب...

تذكرت ألكسندرا الفوفنا: «طيلة هذا الوقت، كنا نحاول دوماً المناوبة شخصين اثنين قرب سريره. ولكن حدث على نحو ما أن بقيت وحدي قرب سرير والدي. كان غافياً. ولكن فجأة وبحركة قوية نهض على الوسائد، وأخذ ينزل قدميه من السرير. كنت أعرف أنه إذا ما نهض فلن أستطيع الإمساك به وسيقع، وحاولت بمختلف الوسائل تهدئته وإبقاءه في السرير. لكنه بكامل قواه تخلص مني وقال: «دعيني، دعيني، لا تحاولي الإمساك بي، دعيني!». وعندما وجدت أنني لن أتمكن وحدي من التعامل مع والدي، لأن نصائحي وطلباتي لم تؤثر فيه، أما بالقوة فلم تكن لدي الشجاعة للإمساك به، بدأت أصرخ: «دكتور، دكتور، بسرعة إلى هنا!». أظن في هذه الفترة كان الطبيب المناوب سيميونوفسكي. دخل مع باربارا ميخائيلوفنا، وتمكنا من تهدئته وإعادته إلى السرير».

لقد شكلت معاناة خطيرة بالنسبة له أنه كانوا يحقنونه بالمورفين مع الكافور. كم كان يكره المخدرات، كم كان يخافها! وليس من قبيل الصدفة أن تسقط آنّا كارينينا تحت عجلات القطار بعد أن تناولت جرعة مضاعفة من الأفيون. في بداية الستينيات من القرن التاسع عشر عندما خلع ذراعه وقد جبروها له مرتين تحت التخدير، قاوم بصورة غريزية وقف إدراكه القسري وعملية التخدير. تمرد جسده كله ضد هذا. واضطروا إلى إعطائه جرعة مضاعفة من الأثير.

عندما رغب الأطباء، لتخفيف آلامه قبيل وفاته، بحقنه بالمورفين، طلب ليف نيقولايفتش بلسان يتحرك بصعوبة: «لا أريد مورفين... لا حاجة للمورفين!».

كتب ماكوفيتسكي: «حقنوه بالمورفين. وأخذ ليف نيقولايفتش يتنفس بصعوبة أكبر، وكان ضعيفاً، وفي حالة شبه هذيان، تمتم:

- سأذهب إلى مكان ما، كي لا يزعجني أحد... دعوني في هدوء... يجب أن أهرب، يجب أن أهرب إلى مكان ما...»

بعد حقنة المورفين فقط سُمح بإدخال زوجته إليه. اقترح دعوتها أحد الأطباء، إما أوسوف وإما بيركينغيم. يكتب س. ل. تولستوي: «في البداية وقفتْ، نظرت إلى أبي من بعيد، ثم اقتربت بهدوء، قبّلته على جبينه، وانحنت على ركبتيها وأخذت تقول له: «سامحني» وقالت أشياء أخرى لم أسمعها».

حوالي الساعة الثالثة من صباح السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر صحا تولستوي وفتح عينيه. أحدهم قرّب من عينيه شمعة. فحرك وجهه وأبعد عينيه.

اقترب منه ماكوفيتسكي واقترح عليه أن يشرب قائلاً بلهجة احتفالية: «بلّل شفتيك ليف نيقولايفتش». أخذ تولستوي رشفة واحدة. وبعد هذا لم تعد تظهر علائم الحياة فيه إلا في التنفس.

في الساعة السادسة وخمس دقائق صباحاً من يوم 7 تشرين الثاني/ نوفمبر توفي ليف نيقولايفتش...

ربط ماكوفيتسكي ذقن الميت وأغلق عينيه. ويكتب: «غطيت العينين». بعد موت تولستوي سرعان ما انصرف الجميع. فقد تعبوا كثيراً خلال هذه الأيام، بحيث إنهم كانوا بحاجة للراحة. انصرف أبناء تولستوي، انصرفت زوجته. تذكر أوزولين: «لم يبق في الشقة كلها إلا ماكوفيتسكي وأنا. عندما دخلتُ إلى الغرفة التي كان جالساً فيها ماكوفيتسكي منحنيَ الرأس، توجّه إليّ وقال باللغة الألمانية: «لم يساعد لا الحب، ولا الصداقة، ولا الوفاء»».

الخاتمة

يصعب نقل ذلك الشعور الذي ينتاب المرء الذي يقلّب في أرشيف الصحف الروسية لشهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1910. كما سبق أن قلنا، كانت صفحاتها الأولى عادة، مكرسة بالكامل، للإعلانات، زد على ذلك لمختلف الأشياء والبضائع الصغيرة الدارجة والمطلوبة، وكذلك للإعلانات الخاصة عن بيع الكلاب البيتية على سبيل المثال. ولكن تفتح الصحف ليوم الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر وتجد... صورة كبيرة جداً ملء الصفحة في إطار الحِداد الأسود لرجل عجوز ذي لحية كثة شائبة، بجبهة عنيدة، بارزة، متوترة، ونظرة قاسية ثاقبة، تخترق النفس. «**مات ليف تولستوي**». هذا لم يكن مجرد خبر. لقد كان هذا صوتاً وضوءاً مبهراً أرغما بلاد روسيا الشاسعة كلها على الارتعاش، والانتفاض، والإطاحة عن كاهلها، على الأقل ليوم واحد، بكامل ضباب المدنية بـ «سلعها» و«خدماتها» و«رفاهيتها» وتذكّر أن في العالم قيماً أهم من هذا كله.

قِيَماً أهم من الحياة نفسها...

وضعوا جسد ليف نيقولايفتش في تابوت من خشب البلوط، من دون صليب على غطائه. وقد قالت أرملة الكاتب خلال ذلك: «إذا وضعوا ليف نيقولايفتش في هذا التابوت، فعندما أموت، يجب أن يضعوني في صندوق خشبي عادي».

بعد موت زوجها، فقدت صوفيا أندرييفنا وعيها عدة مرات، وبعد ذلك تمالكت نفسها وجلست أمام رأس الفقيد. وقد نشر كونستانتين أرلوف في صحيفته «الكلمة الروسية = روسكوي سلوفو»: «كانت تمسد بيدها الجبين

العالي لمن كان ليف تولستوي. وتؤكد: كل شيء انتهى، لقد انطفأ الضوء العظيم للعالم كله. ومن جديد تمسح برفق على جبينه، وتقول، بصوت منخفض، كأنها تهمس للفقيد: روحي، حياتي».

تم تخصيص يوم وليلة 7 تشرين الثاني / نوفمبر لتوديع تولستوي من قبل العاملين في المحطة وسكان أستابوفو والقرى القريبة. طلب المؤمنون من الأسقف بارثينيوس السماح بإقامة القداس على روح تولستوي في كنيسة المحطة. لكن الأسقف لم يسمح، مستنداً إلى تعريف السينودس. وقال القس الأكبر بارسانوفيوس: «السينودس خلق هذه المشكلة. فليحل السينودس المشكلة». وقال أيضاً، مهما كان ليف (الأسد – بالمعنى اللغوي لاسم تولستوي – *المترجم*) قوياً لكنه لم يتمكن من الخروج من القفص. وسرعان ما غادر الأسقف والقس الأكبر.

بالقرب من منزل أوزولين كانوا ينشدون باستمرار تقريباً صلاة «الذكرى الأبدية» لتولستوي. وبحسب تأكيد مراسل «صفحة ساراتوف – ساراتوفسكي ليستوك» خلال صباح يوم 7 تشرين الثاني/ نوفمبر وحده حضر إلى غرفة تولستوي ثلاثة آلاف شخص.

كانت الغرفة مزينة بالورود. وكانت هناك أكاليل من الزهور خلافاً لإرادة ليف نيقولايفتش. من المثقفين المحليين «*إلى رسول المحبة*» والإكليل الأكثر تأثيراً من فتيات المدارس المحلية: «*إلى الجد الأكبر من المعجبات الصغيرات*».

في الساعة 1:15 ليلاً تحرك قطار الجنازة من أستابوفو. نُقل التابوت الذي يحتوي على جثة تولستوي في عربة كُتب عليها «أمتعة». (كانوا قد نقلوا جثة تشيخوف إلى موسكو في عربة كُتب عليها «محار».) اتضح أن تولستوي «غادر» البيت بعيداً جداً. سار القطار أكثر من يوم. برز سؤال: أين يمضون الليل؟ في غورباتشوفو أم في كازلوف زاسيك؟ قرروا – في غورباتشوفو، لأنه في كازلوف احتشد عدة آلاف من الناس وخشيت الشرطة من التعبير المتطرف عن المشاعر والاضطرابات. في 6:30 من صباح 9 تشرين الثاني/ نوفمبر وصلوا إلى محطة زاسيك. حملوا التابوت إلى ياسنايا بوليانا على

الأيدي. جوقات مرتجلة عديدة كانت تنشد صلاة «الذكرى الأبدية». وفي المقدمة رفعوا لافتة كبيرة مكتوبة بخط اليد كُتب عليها: «ليف نيقولايفتش! ذكرى خيرك لن تموت بيننا - فلاحو ياسنايا بوليانا اليتامى» - الفلاحون أنفسهم كتبوا ورسموا، لم يحسبوا حجم الحروف، واضطروا إلى اختصار بعض الكلمات. وفي الساعة 11 صباحاً وصل التابوت مع الجثة إلى ياسنايا بوليانا.

دُفن تولستوي حسب وصيته، «من دون صلاة الكنيسة، من دون بخور»، من دون كلمات احتفالية. فقط صديق العائلة، المسرحي، والثوري ليوبولد سولرجيتسكي حدّث المجتمعين عن سبب دفن تولستوي بهذه الطريقة، وليس غير ذلك. وعندما أنزلوا التابوت إلى القبر، وقف الجميع على ركبهم. تردد شرطي بقي واقفاً على قدميه. فصرخوا عليه «قف على ركبتيك!» فوقف على ركبتيه.

تم الدفن في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم 9 تشرين الثاني/ نوفمبر.

الأبناء اعترفوا بوصية الأب.

تقاضت صوفيا أندرييفنا لفترة من الوقت مع ساشا بسبب المخطوطات التي كانت محفوظة في المتحف التاريخي. وحتى مجلس الشيوخ أكد حق الأرملة في هذه المخطوطات الغالية جداً بالنسبة لها. كانت القصة سمجة، والأخطر من ذلك فضائحية. وقد غُطيت على نحو واسع في الصحف. ولكن مع مرور الزمن، تصالحت الأم والابنة، والمشكلة حُلت واستقرت من تلقاء نفسها. وفي نهاية الأمر، توفيت صوفيا أندرييفنا بين ذراعي ابنتها ساشا.

بعد وفاة زوجها، حدث عند صوفيا أندرييفنا انقلاب روحي خاص بها. لكنه جرى بصورة أقل عنفاً وألماً مما حدث لدى ليف نيقولايفتش بين السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر. بعد أن بقيت وحدها في ياسنايا بوليانا، هدأت الكونتيسة ببطء وبجدارة لائقة. وعاشت الثورة وبداية الحرب الأهلية، عندما دارت رحى المعارك بين الجيش الأحمر وقوات دينيكين البيضاء على مقربة تماماً من عزبتها.

وقد تذكرت ابنتها تاتيانا لفوفنا: «لقد هدأت أمي خلال السنوات الأخيرة.

وما كان يحلم به زوجها تحقق بصورة جزئية؛ فقد حدث عندها تحول كان هو مستعداً من أجله للتضحية بشهرته. لقد أصبحت رؤية والدنا للعالم أقرب إليها وأقل غرابة. وقد أصبحت نباتية... في المرحلة الأخيرة من حياتها كثيراً ما كانت تتحدث عن ابنها الصغير الفقيد (فانشكا - *المؤلف*) وعن زوجها. وقد قالت لي ذات مرة، إنها تفكر باستمرار بوالدنا، وأضافت: «لقد عشت معه بصورة سيئة، وهذا يعذبني»».

عاماً بعد عام أصاب الكونتيسة العمى التدريجي، لكنها كانت تذهب يومياً إلى قبر تولستوي وتعتني به...

إنه من المستحيل، من دون اضطراب، قراءة طبعات وصيتها الخاصة، التي كانت تتغير مع مرور السنين. وماذا يمكنها أن تُورّث؟ ياسنايا بوليانا اشترتها منها ساشا وتشرتكوف بالأموال الناتجة عن نشر مؤلفات ليف نيقولايفتش بعد وفاته، ووزعت على الفلاحين، كما أوصى تولستوي. أبناؤها، بديونهم، كانوا يحتاجون باستمرار إلى المال، وأعطتهم الأم بالتدريج كل مدخراتها. وها هي تكتب في يومياتها: «إنهم جميعاً ليسوا سعداء. وهذا أمر محزن للغاية! إنها ليست حياة، بل أحلام ببعض حياة غير مؤكدة...».

«حضر إيليا، أعطيته 1000 روبل. إنه في حالة يُرثى لها. ميئوس منه، والسيئ في الأمر، أنه يلوم الجميع في الكون».

«جاء ابني ميشا، طلب 1800 روبل...».

«كان عندي أندريوشا، أخذ مني 2000 روبل...».

«جاء أبناء أندريوشا، وهم لا يزالون غير أصحاء، وإيليا الذي أعطيته قرضاً (حسب ادعائه) 6000 روبل، وابتهج على الفور».

«تقول دورا إن زوجها ليف خسر حوالي 50 ألفاً. مسكينة دورا، حامل، ترعاه وتهتم به! ألف مرة كان ليف نيقولايفتش على حق عندما أثرى الفلاحين وليس أولاده. على أية حال، لهدروا ثروته على لعب الورق والشرب والمنادمة. إنه أمر مثير للاشمئزاز، والحزن، والأسف! وماذا سيحصل بعد موتي!».

حُفظت سبع نسخ من وصية صوفيا أندريفنا، تماماً كما كان الأمر لدى

ليف نيقولايفتش. كُتبت الوصية الأولى في عام 1909. وقد ذكرت فيها بصورة مفصلة للغاية أسماء كل من يرث وماذا يرث. ليس الأراضي والمنزل فحسب، بل الأشياء، والأواني، والمجوهرات. لابنتها ساشا، التي كانت في تلك الفترة تعد وصية أبيها مع تشرتكوف ضد أمها (وهذا ما لم تكن تعرفه) أوصت لها صوفيا أندريفنا «بمنظار فضي وسوار ذهبي لأمي وقلب عتيق من الذهب، وبروش رمان مع لؤلؤ صغير». وبالإضافة إلى الأبناء والأحفاد، وردت أسماء الطباخ، ومديرة شؤون المنزل، والخياطة، حيث ذكروا بأسمائهم الكاملة – وأورثتهم بطاقات مالية ثمينة لهم. في الصيغة الجديدة من الوصية لعام 1913 تم حذف ابنتيها ساشا وتاتيانا من الورثة. لم تستطع أن تصفح لهما أن أباهما أوصى لهما بحقوقه الأدبية دون الأبناء. ولكن بعد نصف عام ظهر اسم تاتيانا في الوصية الجديدة كوريثة للمنزل والأرض التابعة له، وكذلك اسم ساشا التي أوصت لها بمبلغ من المال. ومن تعديل الوصية في عام 1916 اختفى اسم أندريه الذي توفي في هذا العام. وفي الوصية التي كتبتها في عام 1918 *وزعت كل شيء بين جميع أبنائها بالتساوي* وأكدت إرادتها وتوقيعها في الصيغة النهائية للوثيقة في 16 أيلول/ سبتمبر 1918.

في سنوات عمرها الأخيرة كانت تشعر بوحدة شديدة. ما عدا تانيا وزوجها وحفيدتها تانشكا التي تحبها كثيراً صوفيا أندريفنا كانوا يعيشون في كوتشيتي على مسافة قريبة نسبياً. ساشا غادرت إلى الجبهة للعمل ممرضة. ابن ميخائيل أخذوه للحرب. حفيد أندريه إيليتش ذهب متطوعاً. أخذوا إلى الجيش حاجبها والعديد من الفلاحين. الابنان إيليا وليف كانا يتنقلان في أنحاء العالم يلقيان المحاضرات عن والدهما. بعد الثورة، وفي أثناء الحرب الأهلية تعرضت صوفيا أندريفنا للحرمان وحتى للجوع الذي أنقذها منه الأديب ب. آ. سيرغيينكو الذي كان على تواصل مع السلطة الجديدة، لكنه كان يعامل أرملة الكاتب بوقاحة.

المدونات الأخيرة في يومياتها: «خطر الحرب قادم والمعركة قرب ياسنايا بوليانا»، «على الطريق تمتد العربات، والثيران والناس إلى تولا. يقال إنهم نازحون من أريول ومن الجنوب» (تشرين الأول/ أكتوبر 1919). أصبح هؤلاء النازحون لوحة الحياة الأخيرة التي سجلتها في يومياتها.

في شهر تشرين الأول/ أكتوبر أخذت تغسل نوافذ المنزل وأصيبت بنزلة صدرية. وماتت مثل زوجها، من الالتهاب الرئوي. ومثله أيضاً توفيت في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر. في جميع السنوات الأخيرة من عمرها كانت باستمرار تفكر فيه، محاولة أن تفهم الأسباب الحقيقية لرحيله. ولم تفهمها... لكنها ذات يوم كتبت في يومياتها تعريفاً شاملاً لهذا الحدث:

«*ماذا حدث* – غير مفهوم، وسيبقى إلى الأبد خارج الإدراك».



قائمة المصادر

إن الأدبيات والمراجع عن رحيل تولستوي وموته هائلة. ومن ناحية أخرى، ثمة عدد محدود نسبياً من الكتب باللغة الروسية، مكرس حصرياً لهذا الحدث. ولهذا فإن القارئ الذي يرغب بالتعامل بصورة مستقلة مع هذه المسألة المعقدة للغاية، عليه التوجه ليس إلى الكتب بقدر توجهه إلى مادة كبيرة وقائعية متناثرة في مصادر بعيدة كل البعد أحياناً عن الموضوع. إضافة إلى ذلك، فإن أسباب رحيل تولستوي يتم اكتشافها في الأحداث المبكرة الأولى من حياته، بدءاً من ولادته. كما أنه من غير الممكن فهمها من دون القراءة المتأنية لمؤلفات الكاتب الروائية الأدبية.

هذه القائمة البيليوغرافية المرفقة لا تشمل بالتأكيد جميع المواد التي استخدمها المؤلف. لكنها تلك النصوص والمراجع التي لم يكن من الممكن إنجاز الكتاب من دونها. وهي برأينا، الحد الأدنى الذي يجب أن يطلع عليه أي باحث مستقبلاً في هذا الموضوع، لا يثق بـ«الروايات» الموضوعة المختلفة.

هذه القائمة مقسمة إلى أربعة أقسام. يشمل القسم الأول رسائل ويوميات ليف نيقولايفتش تولستوي وص. أ. تولستايا و ف. غ. تشرتكوف المنشورة بكاملها أو المقتبسة جزئياً من الكتب. ويضم القسم الثاني مواد ومراجع أكاديمية عن سيرة تولستوي. أما القسم الثالث فمكرس لمختلف أنواع المصادر، المتعلقة بحياة تولستوي عامة، والمرتبطة بشكل أو بآخر برحيله وموته. وأخيراً، القسم الرابع – مصادر ومراجع عن هروب تولستوي ورحيله وموته.

I

Толстой Л.Н. Полное собрание сочинений (юбилейное издание): в 90 т. М., 1928–1958. Серия вторая. Дневники. Т. 46–58.

Толстой Л.Н. Полное собрание сочинений (юбилейное издание): в 90 т. М., 1928–1958. Серия третья. Письма. Т. 83–84. Письма к С.А.Толстой.

Толстой Л.Н. Полное собрание сочинений (юбилейное издание): в 90 т. М., 1928–1958. Серия третья. Письма. Т. 85–88. Письма к В.Г.Черткову.

Толстая С.А. Письма к Л.Н.Толстому. М. – Л., 1936.

Толстая С.А. Дневники: в 2 т. М., 1978.

Толстая С.А. Моя жизнь: [машинопись]. Библио – тека музея – усадьбы «Ясная Поляна».

Жданов В.А. Толстой и Софья Берс. М., 2008.

Муратов М.В. Л.Н.Толстой и В.Г.Чертков по их переписке. М., 1934.

II

Бирюков И.П. Биография Л.Н.Толстого: в 4 т. М., 2000.

Гусев Н.Н. Лев Николаевич Толстой. Материалы к биографии. 1828–1855; 1855–1869; 1870–1881; 1881–1885. М., 1954–1970.

Гусев Н.Н. Летопись жизни и творчества Л.Н.Толстого. М. – Л., 1936.

Лев Толстой и его современники. Энциклопе – дия. М., 2008.

Опульская Л.Д. Лев Николаевич Толстой. Мате – риалы к биографии. 1886–1892; 1892–1899. М., 1979–1998.

III

Арбузов С.П. Воспоминания С.П.Арбузова, быв – шего слуги гр. Л.Н.Толстого. М., 1904.

Буланже П.А. Болезнь Л.Н.Толстого в 1901–1902 годах // Минувшие годы. 1908. № 9.

Буланже П.А. Толстой и Чертков. М., 1911.
Булгаков В.Ф. Лев Толстой, его друзья и близкие. Тула, 1970.
Варфоломеев Ю.В. О духовном завещании Льва Толстого // Вопросы литературы. 2007. № 6.
Гусев Н.Н. Два года с Л.Н.Толстым. М., 1973.
Дневник Л.Л.Толстого // Лица. Биографический альманах. Т. 4. СПб., 1994.
Духовные завещания С.А.Толстой: [рукопись]. Отдел рукописей Государственного музея Л.Н.Тол – стого.
За что Лев Толстой был отлучен от Церкви. Сборник исторических документов. М., 2006.
Зверев М.А., Туниманов В.А. Лев Толстой. М., 2006. (Жизнь замечательных людей).
Интервью и бсседы с Львом Толстым. М., 1986.
Как писалось завещание Л.Н.Толстого. Из вос – поминаний А.П.Сергеенко // Толстовский ежегод – ник 1913 года. СПб., 1913.
Кузминская Т.А. Моя жизнь дома и в Ясной По – ляне. М., 1986.
Л.Н.Толстой и его близкие. М., 1986.
Л.Н.Толстой в воспоминаниях современников: в 2 т. М., 1978.
Никитина Н.А. Повседневная жизнь Льва Тол – стого в Ясной Поляне. М., 2007..
Опульский А.И. Дом в Хамовниках. М., 1976
Переписка Л.Н.Толстого с сестрой и братьями. М., 1990.
Переписка Л.Н.Толстого с гр. А.А.Толстой. СПб., 1911.
Петров Г.П. Отлучение Льва Толстого от церк – ви. М., 1978.
Приходно – расходные книги Софьи Андре – евны Толстой: [рукопись]. Архив музея – усадьбы «Ясная Поляна».

«Путь, указанный нам Христом, есть путь люб –
ви, а не злобы...» (Письма афонского монаха об от –
лучении Л.Н.Толстого от Церкви) // Ежегодник ру –
кописного отдела Пушкинского дома на 2000 год. СПб., 2004.
Сергеенко А.П. Рассказы о Л.Н.Толстом. М., 1978.
«Стой в завете своем...». Николай Константино –
вич Муравьев: Адвокат и общественный деятель.
Воспоминания, документы, материалы. М., 2004.
Сухотина – Толстая Т.Л. Воспоминания. М.,
1980. Сухотина – Толстая Т.Л. Дневник. М., 1987.
Тексты завещания Л.Н.Толстого // Толстовский
ежегодник 1913 года. СПб., 1913.
Толстая А.Л. Дочь. М., 2001.
Толстая А.Л. Отец: в 2 т. М., 2001.
Толстая С.А. Чья вина? По поводу «Крейцеро –
вой сонаты» Льва Толстого // Дениэл Ранкур –
Лаферьер. Русская литература и психоанализ. М., 2004.
Толстой А.Л. О моем отце // Яснополянский сборник. Тула,
1965.
Толстой И.Л. Мои воспоминания. М., 1969.
Толстой Л.Л. Яша Полянов. Воспоминания для
детей из детства гр. Л.Л.Толстого. СПб., 1906.
Толстой Л.Л. В Ясной Поляне. Правда об отце
и его жизни. Прага, 1923.
Толстой М.Л. Мои родители // Яснополянский сборник. Тула,
1976.
Толстой С.Л. Очерки былого. Тула, 1975.
Толстой С.М. Дети Толстого. Тула, 1994.
Фирсов С.Л. Церковно – юридические и соци –
ально – психологические аспекты «отлучения»
Льва Николаевича Толстого (К истории пробле – мы.) //
Яснополянский сборник – 2008. Тула, 2008.

IV

Абросимова В.Н. Уход Л.Н.Толстого. По дневни –

ковым записям М.С.Сухотина 1910 г. и переписке Т.Л.Толстой с С.Л.Толстым 1930 – х годов // Извес – тия АН. Серия ОЛЯ. Т. 55. № 2. 1996.
Абросимова В.Н., Краснов Г.В. История одной ложной телеграммы глазами Сухотиных, Чертко – вых и В.Ф.Булгакова // Яснополянский сбор – ник – 2006. Тула, 2006.
Булгаков В.Ф. Л.Н.Толстой в последний год его жизни. Дневник секретаря Л.Н.Толстого. М., 1957.
Гольденвейзер А.Б. Вблизи Толстого. М., 2002.
Готвальд В.А. Последние дни Льва Николаеви – ча Толстого. М., 1911.
Ксюнин А.И. Уход Толстого. СПб., 1911.
Летопись скита во имя святого Иоанна Предте – чи и Крестителя Господня, находящегося при Ко – зельской Введенской Оптиной пустыни: в 2 т. М., 2008.
Маковицкий Д.П. У Толстого. 1904–1910. Ясно – полянские записки Д.П.Маковицкого // Литера – турное наследство. Т. 90: в 4 кн. М., 1979.
Мейлах Б.С. Уход и смерть Льва Толстого. М. – Л., 1960.
Новиков М.П. Из пережитого: воспоминания, письма. М., 2004.
Оболенская Е.В. Моя мать и Лев Николаевич // Летописи Государственного литературного музея. Кн. 12. М., 1938.
Озолин И.И. Последний приют // Литературное обозрение. 1978. № 9.
Официальный указатель железнодорожных, пароходных и других пассажирских сообщений. Под ред. Н.Л.Брюля. СПб., 1910.
Последние дни Л.Н.Толстого. Альбом Вл. Рос – синского. М., 1911.
Священник Георгий Ореханов. Жестокий суд России: В.Г.Чертков в жизни Л.Н.Толстого. М., 2009.

Смерть Толстого по новым материалам. Аста –
повские телеграммы. М., 1929.
Снегирев В.Ф. Письмо к С.А.Толстой: [рукопись].
Отдел рукописей Государственного музея Л.Н.Тол – стого.
Сухотин М.С. Толстой в последнее десятилетие
жизни // Литературное наследство. Т. 69. Кн. II. М., 1961.
Толстая А.Л. Записная книжка // Толстовский
ежегодник – 2001. М., 2001.
Толстая А.Л. Об уходе и смерти отца (неопуб –
ликованные материалы). Предисловие, публика –
ция и примечания Н.А.Калининой // Толстовский
ежегодник – 2001. М., 2001.
Толстая А.Л. Уход и смерть Л.Н.Толстого. Почему
Л.Н.Толстой ушел из Ясной Поляны // Толстовский
ежегодник – 2001. М., 2001.
Феокритова В.М. Дневник 1910 года: [руко – пись]. Отдел
рукописей Государственного музея
Л.Н.Толстого.
Чертков В.Г. О последних днях Л.Н.Толстого.
СПб., 1911.
Чертков В.Г. Уход Толстого. Берлин; М., 1922.



المحتويات

لمطاردة تولستوي في طريق الهروب المتوقع أُرسل الصحافي الشاب كونستانتين أورلوف، الناقد المسرحي، وابن نصير تولستوي، المعلم، وأحد أفراد الحركة الشعبية الحرة فلاديمير فيودوروفيتش أورلوف، الذي صوّره تولستوي في قصتي «الحلم» و«لا مذنبين في العالم». لقد أدرك هذا الصحفي الهارب تولستوي في بلدة كوزيلسك ورافقه سراً حتى منطقة أستابوفو، ومنها أعلم ببرقية زوجته صوفيا أندرييفنا وأولاده أن ليف نيقولايفتش مريض بشكل خطير وهو موجود في محطة تقاطع السكك الحديدية في منزل رئيس المحطة ي. ي. أوزولين.

لولا مبادرة أورلوف لما عرفت أسرة تولستوي عن مكان وجود ليف نيقولايفتش الذي كان على سرير الموت إلا من خلال ما ستنشره الصحف لاحقاً. وهل ثمة حاجة للحديث عن مدى الألم الذي كان يمكن أن يصيب أسرته؟ ولهذا، وبالاختلاف عن الدكتور ماكوفيتسكي، الذي اعتبر نشاط صحيفة «روسكوي سلوفو - الكلمة الروسية» «دسماً» كانت ابنة تولستوي الكبرى تاتيانا لفوفنا سوخوتينا، حسب ما جاء في ذكرياتها، «حتى الموت» ممتنة للصحفي أورلوف.


9 789933 604301